

الأعمال الكاملة للشيخ الدكتور

طارق عبد الحليم حفظه الله

المجلد السابع

٧

الحركة الإسلامية والتاريخ



الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٠ م

للمؤلف الشيخ الدكتور: طارق عبدالحليم -حفظه الله -

رقم المكتبة لوزارة الثقافية التركية: ٣٦٠٣٠

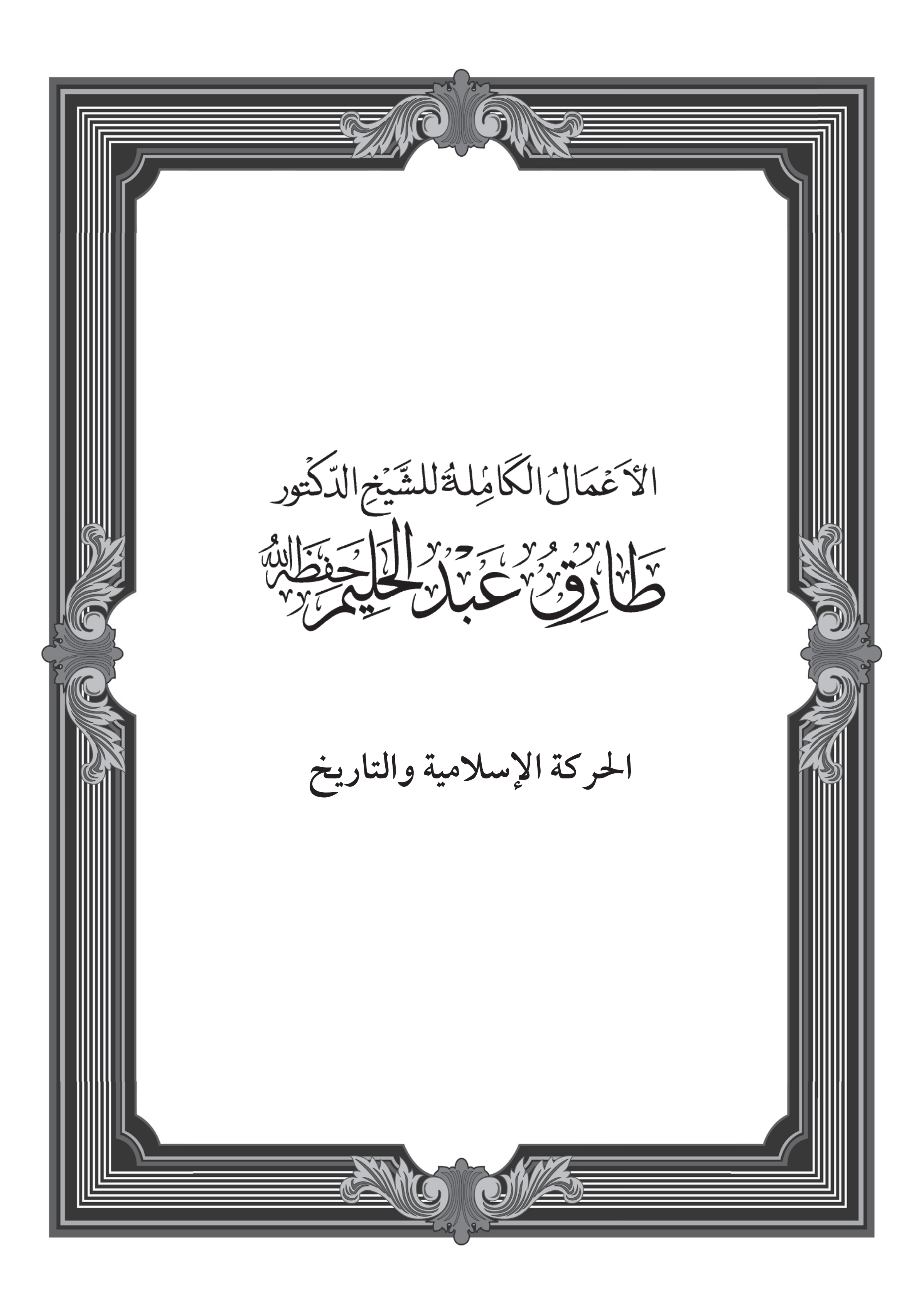
الطبع والتجليد:

Baskı&Cilt: Baskı&Cilt: Step Ajans Matbaa Ltd. Şti.
Göztepe Mah. Bosna Cad. No: 11 Bağcılar / İstanbul
Tel: 0212 446 88 46
Sertfika No: 45522

عنوان دار الكتاب العالمي:

Yamanevler Mah. Küçüksu Cad. No: 9 Dükkan: 1
Ümraniye / İSTANBUL
Tel: +90 539 762 66 95
bilgi@kureselkitap.com
www.kureselkitap.com

دار الكتاب العالمي

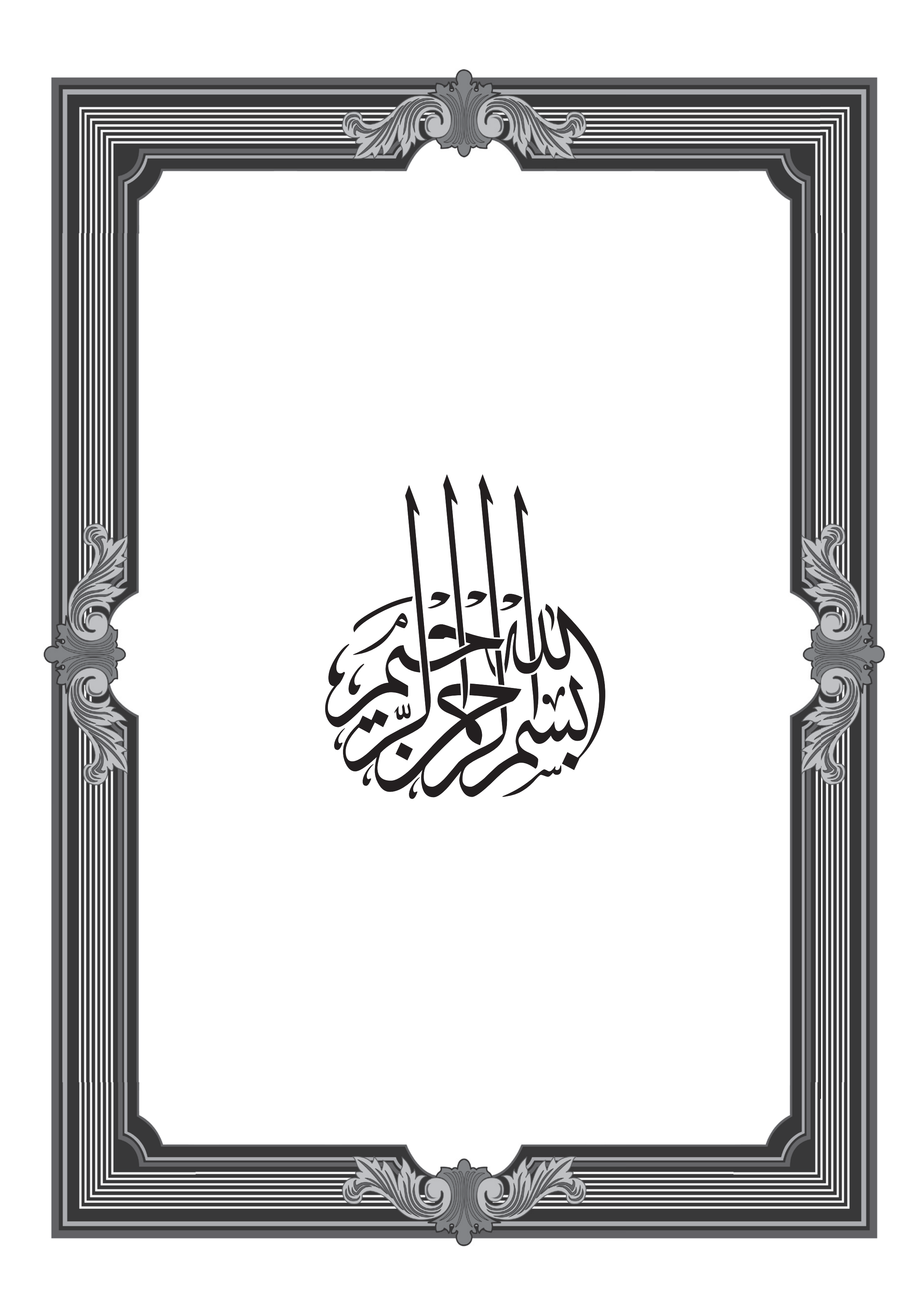


الأعمال الكاملة للشيخ الدكتور

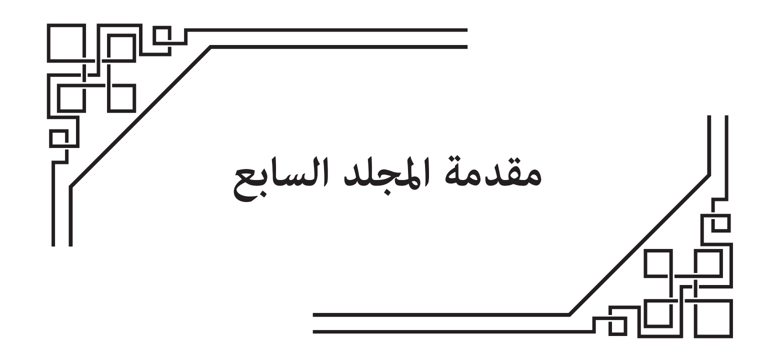
طارق عبد الحليم حفظه الله

الحركة الإسلامية والتاريخ




بسم الله الرحمن الرحيم





مقدمة المجلد السابع

شغلني، كما شغل كل باحثٍ، ناظرٍ في أمور الشرع والواقع، وفي أحوال التاريخ والسياسة، ما يجري على رقعتنا الإسلامية من أحداث مفجعة كئيبة مدمرة، وما تعرضت له شعوبها، حضاريا وعقديا، من مؤامرات ودسائس، ومن هجوم على شتى مناحي حياتنا الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، بدءا من الغزو النابليونيّ لمصر والشام، حتى سقوط الخلافة الإسلامية، كشكلٍ من أشكال الحكم، دام أثره لأكثر من أربعة عشر قرنا، وأنتج للبشرية علماً وحضارة ومدنية، لم يشهدها من قبل، حتى سرقتها أيدي الغاصبين، وادعتها لنفسها حضارة الغرب المشؤومة.

وكان من طبيعة الحال أن أتناول تلك الأوضاع، نظراً وتحليلاً، ومحاولة لإيجاد حلّ أو حلولٍ لهذه المشكلة الإسلامية المزمنة، التي ناءت بكلكلها، وغشت بأمواجها فوق تلك الرقعة، فمنعت الهواء وكتمت الأنفاس وأماتت الهمم وضيّعت الثروات وأفقرت العلوم وأذلت النفوس واضعفت القلوب. حتى صرنا نعيش في ليل كأنه ما وصف امرئ القيس

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُوْلَهُ
عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الهُمُوْمِ لِيَبْتَلِي

وكأننا منه نقول

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ
وأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ
ألا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيْلُ ألا انْجَلِي

وقد كتبت في هذا الموضوع أبحاثاً طويلة، ومقالات مستفيضة، دعمتها بالأدلة النقلية والعقلية، ونظرت فيها من خلال تجارب القرن السالف، ورجالاته وجماعاته، ما لهم وما عليهم، ما انجزوا وما تجاوزوا، ما كسبوا وما خسروا. فوجدت الخسارة والتجاوز هما الأصل فيما فعلوا، جزاهم الله بخير ما قصدوا إليه، وإن فشلوا في تحقيق أي لون من ألوان التقدم، إلا القليل النادر، الناشئ عن جهود فردية أكثر من الجهد الجماعيّ.

وقد جمعت، مؤخراً، ما دونت عن العالم الشهيد سيد قطب، في كتاب مفرد، بعنوان «**أنوار البرق في بيان الحق**» صدّرت به هذا المجلد، في سبعة أبحاث، اعترافاً بما للشهيد بإذن الله من أيادٍ بيضاء، على كلّ من دخل في معمعة هذه الحركة، من بابها الأماميّ، موحّداً، رافضا للجاهلية، قبل كلّ شيء.

ثم إني، بفضل الله تعال، دونت في العقود الثلاثة الأخيرة، عددا كبيرا من الأبحاث والمقالات، يربو على خمسمائة صفحة، عن حال الأمة، ومفهوم الدولة والأمة والجماعة، ومعنى البيعة ومحلها في وقتنا المعاصر، ومكامن الفشل الذي صار، وسبل الإصلاح التي أراها من الممكن المحتمل بإذن الله.

من ذلك كتاب «**التمكين**»، الذي اشتمل على عدة أبحاث مطوّلات ومقالات، مثل «**قيام دولة الإسلام بين الواقع والأوهام**» في حول تسعين صفحة، و»**إقامة الدولة وبناء الأمة – الحقيقة العارية**» ينقسم إلى قسمين، قسم قيام الدولة وقسم بناء الأمة، ثم بحث «**مفاهيم في طريق التمكين**» الذي اشتمل على ست مقالات تتناول جوانب متعددة من هذا الشأن، ثم بحث مطوّل، أو كتاب متوسط الحجم إن شئت، بعنوان «**خطوات في سبيل منهجية جديدة لإعداد شباب التمكين**»، في أكثر من مائة صفحة، اشتمل على فصول ثلاثة في تحليل الشخصية الإسلامية، ثم فصل رابعٌ في «بناء الشخصية الإسلامية» وفصل خامس في «بناء العقلية الإسلامية». ثم بحث طويل بعنوان «**ماذا علمتنا الجماعات الإسلامية ... في قرن كامل**»، وبحثٌ آخر بعنوان «**المشكلة الإسلامية ... تأصيلاً وتطبيقاً**» وكذلك بحث «**هل**

يمكن توحيد «الجهد «الإسلامي» لإخراج الأمة من مأزقها التاريخيّ؟»، وبحثٌ عن أمر في غاية الأهمية، يقع في قلب واقعنا المعاصر «**عن الجهاد والمقاومة - نظرة فقهية تطبيقية**» وهو مُؤصلٌ فقهيا وأصولياً، وآخرها مقال «**الطريق إلى فهم أقرب لحل المشكلة الإسلامية**». وذلك عدد من المقالات عن حركة الإخوان ودورهم، ثم تحديث بعنوان «**في شأن الشام ٢٠٢٠**» وآخر بعنوان «في «**الشأن المصري ٢٠٢٠**».

ولعل من أهم الأبحاث هو «**الأنوار البهية في الدعوة النجدية**» في خمس وعشرين صفحة، والذي ناقشت فيه منابذات الحاقدين وشغب المشاغبين على حركة المجدد الإمام محمد بن عبد الوهاب، وغير ذلك من المقالات السياسية المتعلقة بالحركة الإسلامية.

وقد وضعت في هذا المجلد كتاباً يقع في حوالي مائة وخمسين صفحة بعنوان «في التاريخ» شملت فيه تأريخا مبسطاً، للدولة الإسلامية منذ بداية العصر الأمويّ حتى نهاية الحروب الصليبية، أي حول ستة قرون من تاريخنا، وجعلته يصلح للدارس الذي يقصد إلى معرفة الوقائع والأحداث، دون الحاجة للرجوع إلى المطولات التاريخية.

هذا ما اشتمل عليه هذا المجلد، اسال الله أن يجعله عملاً خالصاً لوجه سبحانه، صحيحاً على سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، مفيداً للمؤمنين في هذا الوقت العاتم بسحب الكفر والضلال.

لكن، من المفيد أن أنوّه إلى إني قد دونت عشرات من المقالات والأبحاث، في تفنيد ضلال المطلين، وزيف المزيفين، وكشف شبهات المحرفين، على مدي يقرب من نصف قرن، من هؤلاء الذين رددت على مقولاتهم، وهم شتى من مختلف الاتجاهات البدعية، فكرياً أو حركياً، محمد عمارة، سليم العوا، زكي نجيب محمود، عابد الجابريّ، الددو الشنقيطي، أبو سلمان الصومالي، المسعريّ، حسن الترابي، وتقي الدين النبهاني، ربيع المدخلي، راشد الغنوشي، ومحمد بديع، والعدناني الهالك، وياسر برهامي الضال، وكثير

غيرهم، عدا أذناب توافه مثل خالد منتصر وعمرو خالد ونوابح السلطة في كلّ بلد. كما إني بينت عوار بعض الدعاة من أصحاب الحق، الذين ضلت بهم الفهم في مسائل معينة، مثل قولهم في الشيعة، أو في خرافة دولة الحرورية، لكنني تركت تسميت بعضهم تقديراً لما قدّموا من حق في مواطن أخرى عديدة. وهذا المقالات والأبحاث كلها، مبثوثة في ثنايا المجلدات السبعة من هذه المجموعة من الأعمال الكاملة، كما أنها على موقع النت https://tariq-abdelhaleem.net/ar.

د طارق عبد الحليم

١١ سبتمبر ٢٠٢٠ - ٢٣ المحرم ١٤٤٢





القسم الاول:

الإسلاميون والحركة الإسلامية





أنوار البرق في بيان الحق

معالم في فكرسيد قطب

العالم الشهيد



مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هاديَ له، ونصلى ونسلم أتم الصلاة وأزكى السلام على الحبيب المصطفي إمام هذه الأمة، ومصباح نور هداها، ورافع لواء توحيدها، الذي افترقت به عن الأمم التائهة والديانات الباطلة.

لعل من أصعب الأمور على كاتبٍ ما، أن يكتب، ولو كلمات قليلة، عن شخصية عملاق من عمالقة الفكر ، ورائد من رواد أدب العرب، وعلم من أعلام الدعوة الإسلامية، دون أن يتردد في كيف يبدأ، وإلى أين سينتهي!

وسيد قطب، رحمه الله تعالى، مثال على تلك الشخصية، كأروع ما يكون المثال.

فسيد، رحمه الله تعالى، كان فريداً في كلّ مجال تلك المجالات، حتى استأثر الله به ليلقاه شهيداً بإذن الله، فكان ذلك معيار التفرّد الحقّ، ومقياس الحق والصدق، في كلّ قوله وعمله.

المُحزن في الأمر، هو أن يكتب كاتب ما، عن هذا المتفرّد الفذّ، الأديب المفكر، الداعية المفسّر، الشهيد بإذن الله، ليدفع عنه غوائل الظلم، التي نالته، حتى بعد علوه وارتقائه لجوار ربّه، لا بأذى جسديّ، فقد تكفّل بذلك النظام الناصريّ الطاغوتي. لكن بالقدح والسب أحياناً، والتكفير والتبديع أحياناً أخرى، أو إنكار ما حمله المتفرّد الفذّ من علمٍ البتّة، حتى في المجال الذي برع فيه بلا مقارنٍ، علم التفسير.

وكان لهم في ذلك، أقصد الحاقدين و القادحين والمستهينين و الحاسدين، بل وبعض المادحين المدافعين، طرقاً لهدم هذا الجبل الصامد الصابر، سنبينها للقارئ، حتى يعلم ما لقاه هذا المتفرّد الفذّ، من ظلمٍ على يد نظام ملحدٍ مجرمٍ أولاً، ثم على يد من هم أقل شأناً وأحط قدراً من أن يصلوا إلى ما هداه الله إليه، فانقدحت، بهدى الله، شرارة أفكاره، واستنارت

بصيرته، وأخرج عملين من أجلّ ما دونته يد مسلمٍ في عصرنا الحاضر، المعالم والظلال، وبعدما تبرّأ مما كتب قبلهما، لدرء ما وقع فيه من خلل يطرأ على كلّ البشر، وحتى يتمحّض له هذان العملان، أمام الله وبين يديّ الناس.

لم يشفع للرجل أنْ يتبرأ مما أخطأ فيه، وأن يصرّح بذلك وأن لا يأذن بطبع تلك الأعمال مثل التصوير الفني في القرآن والعدالة الاجتماعية في الإسلام. بل راح الحاقدون والقادحون والمستهينون والحاسدون يضربون على أوتار ما زلّ فيه قلمه قبل أن يفتح الله عليه، بما رأيناه من نتاجٍ يعزُ على غيره أن يُخرج للناس مثله، خاصة في ظلّ السجن والتعذيب، الذي عانى من قهرهما ذلك الجسد الضعيف الصغير، صاحب النفس الهائلة الشامخة، عشرة أعوام حتى أعدمه المجرم الملحد عبد الناصر.

ثم راحوا ينقّبون عن كلمات هنا وهناك، في الظلال وفي المعالم، ليجرّونه إلى وحل فكرهم وحضيض مستواهم، فيكرهه الناس، وينفر منه الشباب. لكن، واعجبا، انظر إرادة ربك للحق أن يعلو، وللنور أن ينتشر! لم يكد الشهيد يرتقي حتى انتشرت كتبه انتشار شذى العطر في مهب ريح. وقد عاصرتُ تلك الأيام من عام ١٩٦٦، ثم كتب الله لي، في مقتبل الشباب، أن أكون ممن نسخ بعض أجزاء الظلال بخط اليد، بعدما منع النظام الطاغوتي طبعها ونشرها، بل جرّم احترازها، واعتقل من حملها.

ولست هنا، في هذا الكتاب، أو في هذه التقدمة براغبٍ في الكتابة عن حياة سيد، أو تطوره الفكريّ، ولا أنا في صدد الردّ على الشبهات السائدة الباردة التي رموه بها، مثل قوله بوحدة الوجود أو غير ذلك، تفصيلاً، فقد تكفّل بذلك عدد من الإخوة المشايخ العلماء والأبناء، في عدة كتب، أحسن فيها البعض، من أفضلها الشيخ د. صلاح الخالديّ في كتابه «سيد قطب بين الميلاد والاستشهاد»، والذي أوفى فيه الشهيد حقّه. ولا شك أن أفضل من نافح عن الشيخ سيد رحمه الله، الشيخ العلامة بكر أبو زيد في وريقاته التي أرسلها للمدخليّ، ناعيا عليه ما كتب في شأن الشهيد، وخروجه عن المنهج

العلمي والأدب والفهم عن الله والكاتب. ومنهم الشيخ المجاهد عبد الله عزام رحمه الله تعالى في دفعه عن الشيخ سيد تهمة الحلول والاتحاد الباطلة المزعومة. ومنهم ما رأيته مؤخرا للدكتور مشاري المطرفي، الذي أراد الإحسان، فخانه البيان، ووقع في شراك شبهات المسيئين، فجاء كتابه ذمّاً في ثياب مدح.

أما من أساؤا فهم كثيرون، والعجب أنهم من المعدودين في عداد العلماء المشهورين. فعلى رأس الشانئين ربيع المدخليّ أوفاه الله جزاء افترائه وكذبه، ومنهم الشيخ القرضاوي، الذي ساءه مطلع الشيخ سيد، وذيع صيته وانتشار كتبه، ولم يكن هو يومها شيئاً مذكوراً، ليس له من المؤلفات إلا القليل العدد والشأن، على رأسها كتاب الحلال والحرام في الإسلام، الذي انتقده جلّ علماء السلفية حين صدوره عام ١٩٦٠، وظهر فيه منهجه في التعامل مع الشرع، حتى أسماه البعض، تفكّها «الحلال والحلال في الإسلام»! ثم تلقفته الجزيرة في برنامجها الشريعة والحياة، ثم تلقفته أيدي الحكام، الذين رخّص لهم، بمذهبه الإرجائي في موضع التحاكم للشرع، تغيير الحلال والحرام، ومن ثمّ شرعية أنظمتهم وولاية أمرهم.

أما جلّ العلماء ممن عُرفت أسماؤهم وارتفع قدرهم عن كثير من الناس، فقد تحدثوا في شأن الشيخ سيد رحمه الله، إمّا عن جهل بكتاباته، أو باصطناع الجهل بها تقليلاً لشأنه! فحاوروا وداوروا، وقدحوا في صورة مدح، وذموا في صورة نفح، واعتذروا بما لا يُعتذر به إلا مِنْ جاهل بكتب الرجل أو مغرض بشأنه.

ومن أعظم الفريات التي تداولتها الألسنة عن الشيخ سيد، ممن أراد بها الإساءة إليه، أو من أراد بها الاعتذار عنه، أنه «أديب» وليس «عالم»! فهو يتوسع في عباراته بما يلقى في ظلالها كثير من الأخطاء العقدية، منها وحدة الوجود، أو الأشعرية، أو الصوفية، أو ما شئت من البلاءات، ليس لسبب إلا لأنه صاحب قلمٍ بارع في اللغة، نقّادة سبّار لأغوارها! فهو لا يكتب كما يكتب من يسمون أنفسهم أصحاب الحديث، أو ممن يكتب بأسلوب

الفقهاء المعروف فيما تقدّم من زمن. فأنكروا عليه أيّ صلة بالعلم! ومنهم الألباني وابن باز وابن عثيمين، غفر الله لهم. ولا ندري والله عن رجل كتب تفسيراً للقرآن كالظلال، يُحرم من وصفه بالعلم حتى في تخصصه الذي برع فيه وهو «التفسير» فليس هو حتى بعالمٍ في التفسير!. ولو دوّن أحدٌ عُشْر ما كتب في الظلال، لسارت بذكره الركبان في دوائر العلم! ولو كان غير الشيخ الألباني لغضضنا الطرف، لكن الشيخ الألباني نفسه مرميّ بالإرجاء كما هومعروف في تأخيره مرتبة العمل عن الإيمان.

والكذبة الأخرى التي يروجها المادح والحاسد، هي أنه «هناك من غلوا فيه مدحا وهناك من غلوا فيه قدحا»! سبحان الله! أين الغلو فيما كتب فيه من أعطي سيداً حقّه مثل العلامة بكر أبو زيد أو الشيخ الخالديّ أو غيرهم مثل العبد الضعيف؟ أقلنا بعصمته من الخطأ؟ أبداً، بل قلنا إن الله سبحانه يقبل التوبة عن عباده، والرجل قد أنكر ما كتب قبلاً، فماذا تريدون منه أن يفعل؟ كيف يتخلص من الخطيئة الكبرى إن لم يشفع لديه عندكم رجوعه عنها تصريحاً؟ أليس هذا أفضل من الألباني، رغم محبتي وإجلالي له، الذي أصرّ على عقيدته الإرجائية، لم يتراجع عنها؟ ثم يأتيك الدكتور المطرفي فينقل عن ابن عثيمين قوله الظالم المُظْلم عن سيد والألباني أنه «رغم أن سيد عالما لكن لا مقارنة بينهما فهو فرق بين السماء والأرض!!» هذه عقلية ابن عثيمين في تعريف العالم! رواية الحديث، ليس إلا.. علماء نجد! وهذا قول أفضل من تحدث عن سيد!

وقد أثار عدد من الأبناء نقاط جديرة بأن أذكرها لصدقها وحسن نظرها. فمما جاءني:

قال لي ابن حبيب «قالوا «كلّ يؤخذ من كلامه ويُترك .. وهذا صحيح، يجري في حق هؤلاء الذين تحدّثوا عنه بسوء، فكلامهم فيه متروك» اهـ

وكتب ابن حبيب آخر «أيُسأل من دخل في طاعة الطاغوت عن من كَفَرَ بالطاغوت وكفّره؟!

أيُسألُ من لا يُحسن فهم قضية الحاكمية عن من بذل حياته من أجلها؟!

أيُسألُ من قرّبه الطّاغوت عن من قتلَه الطاغوت؟!

وأكثر ما في الكتاب من أجوبة؛ تقدح في أستاذنا سيّد –رحمه الله– فإنصافهم مصحوب بالذم والتنقّص.

لا بأس.. فمنزلة الأستاذ سيّد يعرفها كلُّ مجُاهدٍ حُرّ أبيّ، وكلُّ ساعٍ لإقامة دين الله في الأرض، فلا يضرّه جحد الجاحدين!» اهـ

وليس هنا موضع نقدٍ للألباني ولا لغيره، بل هو مثالٌ على شدة الإفتراء على الشيخ سيد، الذي «ليس بعالم» عندهم! وكتابه في التفسير «الظلال» أشهر ما كُتب في التفسير في عصرنا، وإن اختلفت طريقته عن تفسير الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» أو تفسير الأمين الشنقيطي «أضواء البيان» رحمهما الله، والذي سار فيه الأخير على نهج تفسير القرآن بالقرآن، بعلمٍ وتحقيق دون جدال. لكن كما يُقال «لكلّ شيخ طريقة».

وهذه الهجمة التي بدأت على الشيخ سيد منذ اختاره الله ليكون دليل هدى لأجيال مسلمة، ولا زالت هجمة مسعورة مستمرة، ليست بمستغربة، خاصة في أيامنا هذه، والتي نرى فيها تعاسة الهجوم على دعوة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، إمام دعوة التوحيد في عصره، ورائده فيما جاء من بعده. فأنت ترى، يا رعاك الله، الهجوم على أعلام التوحيد، بينما ترى من سالموا الطاغوت، وأوصوا بموالاة الحكام وطاعتهم، مثلما قال الحويني إبّان ثورة ٢٥ يناير! ومثل رواد الديموقراطية كالددو والريسوني والقرضاوي، يتمتعون بالحياة على أفضل صورة، كأنهم ملوك متوّجة! فشتان بين الثرى والثريا، حقاً وصدقاً.

إن أولئك الذين هاجموا الشيخ سيد هذا الهجوم المروّع، وحاولوا إسقاطه وإلصاق التهم به، تخويفا للشباب منه ومن فكره، الذي هو التوحيد الخالص، بلا إرجاء القرضاوي والألباني، ولا ديموقراطية الريسوني والددو، ولا خارجية الزوابريّ والبغدادي، أولئك هم

من يجب أن يهاجمهم المخلصون (رمتني بدائها وانسلّت!)، حيث إنهم هم أيدي الطغاة التي تخطّ صكوك الغفران للحكام بذريعة «عدم تكفير المسلمين تارة»، كما فعل القرضاوي والألباني ورَبعِهما، فكانت لهما، وبالأخص أولهما، الحظوة عند كثيرٍ من الحكام والنظم، أو بذريعة حرمة الخروج على وليّ الأمر، كما فعل أمين الجامي وربيع المدخلي، ثم ياسر برهامي، الذين وصل بهم الحال الى نصرة السيسي ثم القتال في صفوف مرتد ليبيا حفتر! أولئك هم من يجب أن يقفوا موقف الدفاع عن أنفسهم أمام الخلق، قبل أن يلاقوا الخالق، معرضين عن صريح آياته ومحُكمها، استكباراً وحسداً، وضعفاً وزراية بالنفس.

وقد دونت على مرّ العقود الماضية بعض الأبحاث المتراوحة بين الطول والقصر، بيّنت فيها بعض جوانب فكر الشيخ الشهيد بإذن الله، ونافحت عنه ضد من أساء إليه، وبينت عوار مذهبهم وضعف حيلتهم.

وقد رأيت أن أجمع هذه الوريقات، وأضمنها في كتيب صغير، يكون فيه ما يعين على إعطاء الشيخ الشهيد بعض حقه عليّ بصفة شخصية، وحق إحقاق الحق على الناس، كلّ الناس، برفع بعض المظالم والشبهات عنه، رحمه الله وتقبله في الشهداء.

وإن كنت قد شددت في حديثي عن بعض الشخصيات والأسماء التي ظلمت وافترت، فهو من باب الغضب للحق، وكما كتبت في مناسبة أخرى:

إنْ تدفعِ الظُلْمَ بالحسنى أتَحْتَ له

كفّاً تُصيب، مع كفيّه، مظلوما

والله الموفِق وعليه التكلان

د طارق عبد الحليم

٤ ذو العقدة ١٤٤١ الموافق ٢٥ يونية ٢٠٢٠

تورونتو – كندا

نظرات في فكر سيد قطب

إلى هؤلاء النفر من أصحاب الدعوة، ممن انتسب إلى السّلفية أو الإخوانية أو غيرها من الدعوات والحركات، الذين خَلطوا الأوراق وزيفوا المعاني فجعلوا الحق باطلا أو أشبه بالباطل والباطل حقا أو أشبه بالحق، فأضرّوا وما نفعوا، إلى أولئك أتوجه بهذه السطور.

إختلفت الآراء حول سيد قطب، الكاتب الشّهيد الذى شكّل جانبا هَاما من الفِكر الإسلامي المعاصر، وانعكس فكره على كافة الإتجاهات الحركية منذ أُعدم بعد محاكمة صورية عام ١٩٦٦. وقد ناصر سيداً العديدُ من العلماء والمفكرين الإسلاميين، كما اختلف معه بعض منتسبي الدعوة كذلك. وسبب هذا الإختلاف أو الإتفاق يرجع فيما نرى إلى سيد قطب وما كتب من ناحية، وإلى الشّخصية الذي تُقيّم سيداً وتختلف معه أو تتفق من ناحية أخرى. ويشهد الله أننا لا نوافق سيداً في كل ما ذهب اليه، خاصة قبل كتابة الظلال، وهو ما تبرأ منه، بل نرى أن له زلات هي من طبيعة البشر الخطّاء، ولكن ما للرجل - يشهد الله - هو أكبر فضلا وأعمق أثراً في الدعوة الإسلامية مما عليه، لا ينكر هذا إلا مكابر لا يعرف الرجل، ولا يعرف الإسلام على حد سواء.

ولست أقصد هنا إلى تتبع إحصائي لمن خَالف سيداً أو من وافقه، فإن هذا أمر قليل النفع أو عديمه. ولكن القصد هو النظر في طبيعة الموافقة ممن وافق وطبيعة المخالفة ممن خالف.

وحتى يكون الحديث موضوعياً، فسنحاول أن نلقي الضوء على ذلك الجانب من فكر سيد رحمة الله عليه ، الذي تضاربت حوله الآراء وتشعبت فيه الأقوال ، خاصة التهمة التي يشيعها عنه مخالفوه والتي تمثلت في قول من قال أن سيداً كان يكفّر أعيان الناس ، بل هو رائد «التكفيريين» في هذا العصر !

يمكن أن ننظر إلى فكر سيد رحمه الله في ضوء هذه الأقسام الثلاثة :

أولها: فكر عقدي يرجع إلى فهم طبيعة التوحيد وحدوده وضوابطه .

وثانيها : فكر تقييميّ يعود إلى تميز الواقع وتحديد معالمه على ضوء ذلك الفهم .

وثالثها : فكر حركيّ ينبنى على ذلك التقييم ، ويتناول ما يراه مناسبا لتأدية الحق العقديّ.

وسنقوم في الفقرات التالية بالحديث عن كل قسم من هذه الأقسام كما تناولها سيد، ونعضد ذلك بنصوص مما كتب [١] ، ثم نعرّج على ما يوافق قوله - أو يخالفه - من مذاهب أهل السنة في العقيدة من خلال أقوال علماء السنة وقواعد الأصول والتفسير ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

وسيتبين من خلال ذلك أن ما رماه به بعض منتسبي الدعوة من تكفير الناس عامة إن هو إلا خلط في الفهم من البعض وإغراض أو حسد لمكانة الرجل من البعض الآخر .

البعد العقدي في فكر سيد قطب :

وقضية التوحيد وضوابطه وأبعاده هي القضية التي شَغلت الحيّز الأكبر في فكر سيد رحمة الله عليه. والتوحيد كما قرر أهل السنة والجماعة هو توحيدان: توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وبه يثبت ما لله من أسماء عليّة وصفات جليلة، نثبتها كما جاءت بلا كيف.

وسنتجاوز في هذا المقال عمّا نسب لسيد من تجاوزات في هذا الأمر - أمر الأسماء والصفات - لا لقلّة شأنه - حاشا لله من ذلك - ولكن لأننا قصدنا إلى مناقشة أمر محدد في فكر سيد وهو قضية التكفير خاصة . وقد نسب البعض إلى سيد القول بتأويل الإستواء

[١] منهجنا هنا هو نقل ما يدل على فكر الشهيد ليس إلا ، ولا نقصد إلى حشد كل ما كتب في معالجة فكرة بعينها للإختصار وعدم جدوى التكرار إلا إن كان هناك تفصيلا لمجمل في نص أو تقييدا لمطلق أو بيانا وإحكاما لمتشابه من أقواله .

بالإستعلاء [١]، كما نسبوا له القول بإنكار صفة الكلام وصفة اليد وأنه قال بأن القرآن مخلوق . بل تعدى الأمر بالبعض ممن هو غالٍ في عدائه لسيد أن نسب إليه القول بوحدة الوجود! [٢] وهو أمر ناقشه العديد من العلماء وبينوا زيفه، وأن جلّه مما هو من قبيل تصاريف الكلام الأدبي، حمّال الأوجه.

أما توحيد الألوهية أو توحيد العبادة الذي هو مقتضى كلمة «لا إله إلا الله»، فهو ما دافع عنه سيد وبيّنه أحسن بيان. وسنعرض في الفقرات القادمة ما يلقي الضوء على فكر سيد في هذا الأمر، مما هو من قبيل المُحكمات التي لا يجب أن ينتطح فيها عنزان أو يختلف عليها عاقلان، وما يعضد ذلك، أو يخالفه، من أقوال أهل السنة، ونترك ما هو من قبيل المتشابه من كلامه مما يجب أن يفهم في ضوء المحكم الذي لا يحتمل تأويلاً ولا تصريفاً.

وقضية الألوهية مرتبطة بقضية العبادة والرجوع إلى حكم الله سبحانه في حياة الناس. قال تعالى في سورة يوسف : «إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيّم» فبين في هذه الآية وحدها كل ما يتضمنه مقتضى العبادة، إذ إن فيها أن الحكم بما أنزل الله هو العبادة، وأن ذلك هو الدين بمعناه الشامل العام أي نظام الحياة المتكامل المبني على شريعة الله وعقيدة التوحيد.

ومما يجب أن يلاحظ في هذا الصّدد أن سيداً حين يتحدث عن قضية الألوهية، فإنه لا يناقشها من جانبها النظري، ولا يأصّلها من الناحية الأكاديمية البحتة ، بل ولا يناقش

---

[١] وليس بالإستيلاء كما في قول المعتزلة ، وهو أقرب إلى قول بن حزم في ذلك الأمر . راجع «الإمام ابن حزم» لمحمد أبو زهرة.

[٢] كما ذكر المدعو ربيع المدخلي ، ومعروف ضلوع المذكور في الإرجاء فلا غرابة أن يلقي بالتهم جزافا على سيد رحمة الله عليه ، وقد تكفل بالرد عليه الشيخ الجليل بكر أبو زيد فيما افتراه على سيد كذبا وعدواناً وترويجا لبدعة الإرجاء، وتذللا وتقربا من السلطان ، وكذلك الشيخ عبد الله عزام في رده على تهمة الحلول والإتحاد

معارضيها أو مخالفيها لا في جزء ولا في كلّ. بل هو يربطها ربطا مباشرا بأثرها في الحياة، وبما يجب أن تُنشأ من حسّ ضميريّ وحسّ ماديّ في حياة المسلم، ويبين أنّ هذا المعنى هو الذي تقوم به الحياة كما أرادها الله سبحانه للناس في الأرض .

يقول سيد في معرض الحديث عن لا إله إلا الله: «وليس الطريق أن يتحرر الناس في هذه الأرض من طاغوت روماني أو فارسي ، إلى طاغوت عربي . فالطاغوت كله طاغوت ! إن الناس عبيد لله وحده ، ولا يكونون عبيداً لله وحده إلا أن ترتفع راية : «لا إله إلا الله» – لا إله إلا الله كما يدركها العربي العارف بمدلولات لغته ، : لا حاكمية إلا الله ، ولا شريعة إلا من الله ، ولا سلطان لأحد على أحد ، لأن السلطان كله لله ، ولأن « الجنسية « التي يريدها الإسلام للناس هي جنسية العقيدة، التي يتساوى فيها العربي والروماني والفارسي وسائر الأجناس والألوان تحت راية الله . وهذا هو الطريق . .»[١]

ويقول ، بعد أن يقرر أن لا إله إلا الله كلمة يجب أن يدركها الناس بما تحمل من معان وأن يعيشوا بها ولها « فلمَّا تقررت العقيدة – بعد الجهد الشاق – وتقررت السلطة التي ترتكن إليها هذه العقيدة . . لَّما عرف الناس ربهم وعبدوه وحده . . لَّما تحرر الناس من سلطان العبيد ومن سلطان الشهوات سواء . . لَّما تقررت في القلوب « لا إله إلا الله « . . صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون . . تطهرت الأرض من « الرومان والفرس « . . لا ليتقرر فيها سلطان « العرب « . ولكن ليتقرر فيها سلطان « الله « . . لقد تطهرت من سلطان « الطاغوت « كله . . رومانياً ، وفارسياً ، وعربياً ، على السواء»[٢].

ويقرر كذلك أن هذا هو الإسلام ، ولا إسلام سواه . يقول في تفسير سورة المائدة من الظلال : « ولم يكن بد أن يكون «دين الله» هو الحكم بما أنزل الله دون سواه . فهذا هو مظهر سلطان الله . مظهر حاكمية الله . مظهر أن لا إله إلا الله . وهذه الحتمية :

---

[١] المعالم ٨٢ طبعة دار الشروق ٧٨٩١

[٢] السابق ٩٢

حتمية هذا التلازم بين «دين الله» و»الحكم بما أنزل الله» لا تنشأ فحسب من أن ما أنزل الله خير مما يصنع البشر لأنفسهم من مناهج وشرائع وأنظمة وأوضاع . فهذا سبب واحد من أسباب هذه الحتمية . وليس هو السبب الأول ولا الرئيسي . إنما السبب الأول والرئيسي . والقاعدة الأولى والأساس في حتمية هذا التلازم هي أن الحكم بما أنزل الله إقرار بألوهية الله أ ونفي لهذه الألوهية وخصائصها عمن عداه . وهذا هو «الإسلام» بمعناه اللغوي :»الاستسلام» وبمعناه الاصطلاحي كما جاءت به الأديان . . الإسلام لله . . والتجرد عن ادعاء الألوهية معه ، وادعاء أخص خصائص الألوهية ، وهي السلطان والحاكمية ، وحق تطويع العباد وتعبيدهم بالشريعة والقانون «[١] .

ثم يقرر كذلك أنّ مدلولات هذه الكلمة يجب أن تكون في ضمائر القائمين عليها والمنتسبين لها بقدر ما تكون نظاما ودولة ومجتما يعيشون فيه ويديرون بها شؤون حياتهم اليومية . يقول رحمه الله : « ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام ، كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم ، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك . وكانوا قد وُعِدُوا على إقامة هذا الدين وعداً واحداً ، لا يدخل فيه الغلب والسلطان . . ولا حتى لهذا الدين على أيديهم . . وعداً واحداً لا يتعلق بشيء في هذه الدنيا . . وعداً واحداً هو الجنة . هذا كل وعدوه على الجهاد المضني ، والابتلاء الشاق ، والمضي في الدعوة ، ومواجهة الجاهلية بالأمر الذي يكرهه أصحاب السلطان في كل زمان وفي كل مكان ، وهو : « لا إله إلا الله « ! « [٢].

من هذه النصوص - التي تغطي - على قلتها – جلّ مساحة ما تحدث عنه سيد في أمر العقيدة، نرى أنه قرر :

---

[١] الظلال مقدمة تفسير سورة المائدة، ج٢ ص ٨٢٨ طبعة دار الشروق ٩٧٩١

[٢] السابق مقدمة سورة الأنعام ج٣ ص

١. أنّ كلمة «لا إله إلا الله» لها حقيقة ومضمون كان العرب يدركونه حين صدع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢. أن معناها الخروج من طغيان أيّ طاغية من بشر أو شيطان أو هيئة أو حكومة إلى مظلة الخضوع لله والإستسلام له وحده لا شريك له .

٣. أن هناك تلازم وحتمية بين فهم هذه القضية وبين إقامتها في حياة الناس، وأن الأمر ليس أمر اختيار، بل هو أمر اضطرار، لمن أراد القبول بهذه الكلمة والدخول تحت مضمونها .

٤. وأن هؤلاء الذين يقبلونها في حياتهم ، إنما يقيمونها في ضمائرهم ووجدانهم كما هي قائمة في حياتهم وتعاملاتهم ، حذرا من النفاق وحرصاً على صحة الخُلُق المبني على العقيدة .

ترى هل جانب سيداً الصواب في هذا التقرير؟ فلنرجع إلى أئمة الإسلام من أهل السنة والجماعة وإلى قواعد الأصول ومقررات التفسير نستشف منها الحقيقة في ذلك الأمر .

يقول ابن القيّم في حديثه عن وفد نجران ، شارحا حقيقة الإسلام التي هي من وراء النطق بالشهادتين : « ومَن تأمَّل ما فى السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له صلى الله عليه وسلم بالرسالة ، وأنه صادق ، فلم تدخلهم هذه الشهادة فى الإسلام ، علم أنَّ الإسلامَ أمرٌ وراء ذلك ، وأنه ليس هو المعرفة فقط ، ولا المعرفة والإقرار فقط ، بل المعرفةُ والإقرارُ ، والانقيادُ ، والتزامُ طاعته ودينه ظاهراً وباطناً . «[١].

إذن فحقيقة الشهادتين هي الخضوع والطاعة والإنقياد ظاهرا وباطنا ، ليست هي النطق المجرد ، وليست هي الإقرار القلبي وحده .

---

[١] زاد المعاد ج٣ ص

وقد يقول قائل ، نعم ، ولكن هذا معنى الإسلام الذي يشمل مجال العمل والطاعات كذلك ، فنقول : هذا صحيح من جهة وغير صحيح من جهة أخرى ، فإن أعمال الطاعات[١] ليست من لُبّ التوحيد بل هي تدخل فيه من باب الوجوب والكمال فتزيد الإيمان أو تنقصه، ولكن ما يناقشه ابن القيّم هنا هو أمر محدد وهو دخول الإنسان إلى الإسلام واعتباره مسلماً ، ليس ما يتعلق بأفعاله في حياته بعامة. وهو ما يستلزم أن يكون إقراره والتزام طاعته خاليا مما يشوب حقيقته كارتكاب عمل من الأعمال التي بيّن الله سبحانه كفر فاعلها ، مثل هؤلاء الذين استهزؤا بالرسول صلوات الله عليه والصحابة على سبيل الدعابة والمزح ، فبيّن الله في محكم تنزيله أن هذا إعتذار غير مقبول ، وأن هناك من الأعمال ما تدل على الكفر بظاهرها رغم قول فاعليها بخلاف ذلك ، وذلك بشهادة الله سبحانه « لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم»[٢]. ومثل هذا كثير في أقوال الإئمة قديما وحديثا ، وإليك طائفة منه ، تقرر كما قرر سيداً أن الحكم بالشريعة هو مدار هذا الدين :

يقول بن تيمية : « فإن الحاكم إذا كان ديِّناً لكنه حكم بغير علم كان من أهل النار، وإن كان عالماً لكنه حكم بخلاف الحق الذي يعلمه كان من أهل النار ، وإذا حكم بلا عدل ولا علم أولى أن يكون من أهل النار، وهذا إذا حكم في قضية لشخص ، وأما إذا حكم حكماً عاماً في دين المسلمين فجعل الحق باطلاً والباطل حقاً والسنة بدعة ، والبدعة سنة ، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً ، ونهى عما أمر الله به ورسوله ، وأمر بما نهى عنه ورسوله فهذا لون آخر يحكم فيه رب العالمين ، وإله المرسلين مالك يوم الدين الذي له الحمد في الأولى والآخرة : {وله الحكم وإليه ترجعون} . . {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً} »[٣].

[١] على خلافٍ في الفروض الأربعة بين العلماء، وضحته في كتاب «حقيقة الإيمان»، راجع الأعمال الكاملة ج١ ص ٦٩ هامش، طبعة دار الكتاب العالمي

[٢] التوبة ٦٦

[٣] مجموع الفتاوى ج ٥٣ ص ٦٢٢

وقال أيضاً : «ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر فمن استحل [١] أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلًا من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل ، وقد يكون العدل في دينها ما يراه أكابرهم ، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله كسواليف البادية (أي عادات من سلفهم) والأمراء المطاعين ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة وهذا هو الكفر ، فإن كثيراً من الناس أسلموا ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التي يأمر بها المطاعون . فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله فلم يلتزموا ذلك بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار»[٢].

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: (أَفَحُكْمَ الجْاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِّ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) «ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خيرٍ الناهي عن كل شر ، وعدل عما سواه من الآراء والأهواء والإصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذي وضع لهم الياسق ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها الكثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعا متبعا يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكّم سواه في قليل أو كثير « كما أن بن كثير قد ذكر نفس الكلام في تاريخه عن موضوع الحكم بالياسق وأمثاله قال : « فمن ترك شرع الله المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم

---

[١] استحل هنا واقعة على إجراء الحكم أى من رأى أنه لا غبار من أن يحكم بغير الشريعة لا أنه استحل ما حرّم الله من الأحكاام ذاته ، ويراجع المزيد من هذا في تعقيب د . محمد أبو رحيم في كتابه «حقيقة الخلاف بين السلفية الشرعية وأدعيائها في مسائل الإيمان» ص ١٧ وبعدها

[٢] منهاج السنّة ابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم ج٥ ص ١٣٠ ، مؤسسة قرطبة

الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة - كفر ، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه ؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين» [١].

ويعلّق أحمد شاكر في «عمدة التفسير : «أقول : أفيجوز - مع هذا - في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوروبه الوثنية الملحدة ؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة ، يغيرونه ويبدلونه كما يشاؤون ، لا يبالى واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها ؟

إن المسلمين لم يُبْلوَا بهذا قط – فيما نعلم من تاريخهم - إلا في ذلك العهد ، ، عهد التتار ، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام ، ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له ، بل غلب الإسلام التتار ، ثم مزجهم فأدخلهم في شرعته ، وزال أثر ما صنعوا بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم ، وبأن هذا الحكم السيئ الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك ، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمة الإسلامية المحكومة ، ولم يتعلموه ولم يعلموه لأبنائهم ، فما أسرع ما زال أثره .

أفرأيتم هذا الوصف القوي من الحافظ بن كثير - في القرن الثامن - لذاك القانون الوضعي الذي صنعه عدو الإسلام جنكيز خان ، ألستم ترونه يصف حال المسلمين في هذا العصر ، في القرن الرابع عشر ، إلا في فرق واحد ، أشرنا اليه آنفا : أن ذلك كان في طبقة خاصة من الحكام ، أتى عليها الزمن سريعا فاندمجت في الأمة الإسلامية وزال أثر ما صنعت .

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالا وأشد ظلما وظلاما منهم . لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تندمج في هذ القوانين المخالفة للشريعة والتي هي أشبه شيئ بذاك «الياسق» الذي اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر ، هذه القوانين التي يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام ، ثم يتعلمها أبناء المسلمين ويفخرون بذلك آباء وأبناء ، ثم يجلعون مرد أمرهم إلى معتنقي هذا

[١] تفسير ابن كثير سورة المائدة آية ٥٠، ج٣ ص ١٣١

الياسق العصري ، ويحقرون من خالفهم في ذلك ، ويسمون من يدعوهم إلى الإستمساك بدينهم وشريعتهم «رجعيا» و«جامدا» [١] إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة .

بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقي في الحكم من التشريع الإسلامي ، يريدون تحويله إلى «ياسقهم الجديد» وبالهوينا واللين تارة وبالمكر والخديعة تارة ، وبما ملكت ايديهم من السلطات تارات ، يصرحون - ولا يستحون - بأنهم يعملون على فصل الدين عن الدولة .

أفيجوز إذن لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد ، أعنى التشريع الجديد ! أو يجوز لأب أن يرسل أبناءه لتعلم هذا واعتناقه واعتقاده والعمل به عالما كان الأب أو جاهلا ؟ ! . . .

إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس ، هي كفر بواح ، لا خفاء فيه ولا مداورة ، ولا عذر لأحد ممن ينتسبون إلى الإسلام - كائنا من كان - في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها ، فليحذر إمرؤ لنفسه «وكل إمرئ حسيب نفسه» .

ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيابين ، وليبلغوا ما أمروا بتبليغه ، غير متوانين ولا مقصرين . سيقول عني «عبيد هذا الياسق الجديد» وناصروه أني جامد وأني رجعيّ وما إلى ذلك من الأقاويل ، ألا فليقولوا ما شاؤوا ، فما عبأت يوما بما يقال عني ولكني أقول ما يجب أن أقول» [٢] .

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم : «واعتبار شئ من القوانين للحكم بها ولو في أقل القليل لا شك أنه عدم رضا بحكم الله ورسوله، ونسبة حكم الله ورسوله إلى النقص

---

[١] وأضيف هنا ما زاده منافقي هذا العصر «إرهابي» «خارجيّ» «أصولي» «وهابّي» وما إلى ذلك مما يموهون به على بسطاء المسلمين يرهبونهم من دين الله ويبعدونهم عن دعاته .

[٢] «عمدة التفاسير» أحمد شاكر ، ج١ ص٢١٦

وعدم القيام بالكفاية في حلّ النزاع وإيصال الحقوق إلى أربابها وحكم القوانين إلى الكمال وكفاية الناس في حلّ مشاكلهم، واعتقاد هذا كفرٌ ناقل عن الملّة، والأمر كبير مهم وليس من الأمور الاجتهادية ... وتحكيم الشرع وحده دون كلّ ما سواه شقيق عبادة الله وحده دون سواه» [١].

وقال كذلك: «وأما الذي قيل فيه: إنه كفر دون كفر إذا حاكم إلى غير اللهّ مع اعتقاده أنه عاص وأن حكم اللهّ هو الحق، فهذا الذي يصدر منه المرة ونحوها. أما الذي جعل قوانين بترتيب وتخضيع فهو كفر وإن قالوا أخطأنا وحكم الشرع أعدل. فهذا كفر ناقل عن الملة»[٢]

يعلق الشيخ الفوزان بقوله : « ففرق رحمه الله بين الحكم الجزئي الذي لا يتكرر وبين الحكم العام الذي هو المرجع في جميع الأحكام أو غالبها وقرر أن هذا الكفر ناقل عن الملة مطلقاً وذلك لأن من نحى الشريعة الإسلامية وجعل القانون الوضعي بديلاً منها فهذا دليل على أنه يرى القانون أحسن وأصلح من الشريعة وهذا لا شك فيه أنه كَفَر كفراً أكبر يخرج من الملة ويناقض التوحيد» [٣]

ثم نقرأ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يبيّن أن العرب كانت تدرك ما وراء «لا إله إلا الله» من معانٍ ولوازم . جاء في حديث المثنى بن حارثة :»قال إن هذا الأمر الذي تدعو إليه مما تكرهه الملوك»[٤]، ولا شك أن كراهة الملوك والحكام لهذه الكلمة سببها معروف . كما أن حرب العرب والعجم لها أمر مشاهد لا يحتاج إلى دليل لمن ألقى

---

[١] فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم، جمع الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، ج ٢١ ص ١٥٢ كتاب القضاء

[٢] السابق ج ٢١ ص ٠٨٢

[٣] كتاب التوحيد للشيخ صالح الفوزان ص ٦٤

[٤] رواه البيهقي وحسّنه ابن حجر العسقلاني

السمع وهو شهيد.

وقد تعلق من دخلت عليه شبه المرجئة بقول بن عباس وأبي مجلز من التابعين عن آية المائدة ٤٧ وأنها « . .كفر دون كفر» . وقد ردّ علي هذا القول المحدث الجليل أحمد شاكر وأخوه العلامة المحقق محمود شاكر ، وبيّنا أن هذا المناط الذي قال فيه أبي مجلز ومن قبله بن عباس، هو مناط من خرج على أئمة الجور مثل بني أمية وكان منهم من يظلم ويفسق ، ولكن دون تبديل قاعدة الحكم والإستناد إلى قوانين مرتبة مقننة أو استبدال شرع بشرع آخر جملة وتفصيلا . وإليك ما قال أحمد شاكر في عمدة التفسير في الحديث عن تفسير آية المائدة :

وهذه الآثار - عن ابن عباس - مما يلعب به المضللون في عصرنا هذا من المنتسبين للعلم ومن غيرهم من الجرآء على الدين يجعلونها عذرا أو إباحة للقوانين الوثنية الموضوعة التي ضربت على بلاد الإسلام . وهناك أثر عن أبي مجلز في جدال الإباضية الخوارج إياه فيما يصنع بعض الأمراء من الجور فيحكمون في بعض قضائهم بما يخالف الشريعة عمدا إلى الهوى ، أو جهلا بالحكم . والخوارج من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة كافر فهم يجادلون يريدون من أبي مجلز أن يوافقهم على ما يرون من كفر هؤلاء الأمراء ليكون لهم عذراً فيما يرون من الخروج بالسيف . وهذان الأثران رواهما الطبري وكتب عليهما أخي السيد محمود شاكر تعليقا نفيسا جدا فرأيت أن أثبت هنا نص الرواية الأولى للطبري ثم تعليق أخي على الروايتين .

«فروى الطبري عن عمران بن حيدر قال : أتى أبي مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس فقالوا : يا أبا مجلز أرأيت قول الله تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأؤلئك هم الكافرون ؟ أحق هو ؟ قال :نعم ، قالوا : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأؤلئك هم الظالمون ، أحق هو ؟ قال :نعم ، قالوا : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأؤلئك هم الفاسقون ، أحق هو ؟ قال :نعم ، قالوا : يا أبا مجلز، فيحكم هؤلاء بما أنزل الله (يريدون الأمراء الظالمين من

بني أمية) قال : هو دينهم الذي يدينون به وبه يقولون ، واليه يدعون ، فإن تركوا منه شيئا عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً ، فقالوا لا والله ولكنك تَفَرَقْ ! قال : أنتم أولى بهذا مني (يعني أنهم هم الخارجون لا هو) لا أرى، وأنكم ترون هذا ولا تحرّجون» فكتب أخي السيد محمود بمناسبة هذين النصين :

الله إني أبرأ إليك من الضلالة ، وبعد ، فإن أهل الريب والفتن ممن تصدوا للكلام في زماننا هذا ، قد تلمس المعذرة لأهل السلطان في ترك الحكم بما أنزل الله وفي القضاء في الدماء والأموال والأعراض بغير شريعة الله التي أنزلها في كتابه وفي اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة في بلاد الإسلام . فلما وقف على هذين الخبرين ، اتخذهما رأيا يرى به صواب القضاء في الدماء والأموال والأعراض بغير ما أنزل الله وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تكفّر الراضي بها والعامل عليها. والناظر في هذين الخبرين لا محيص له من معرفة السائل والمسئول ، فأبو مجلز (لاحق بن حميد الشيباني الدوسي) تابعي ثقة وكان يحب عليا. وكان قوم أبي مجلز وهم بنو شيبان من شيعة علي يوم الجمل وصفين، فلما كان أمر الحكمين يوم صفين ، واعتزلت الخوارج ، كان فيمن خرج على علي طائفة من بني شيبان ومن بني سدوس بن شيبان بن ذهل ، وهؤلاء الذين سألوا أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس وهم نفر من الإباضية . . . . . هم أتباع عبد الله بن إباض من الحرورية (الخوارج) الذي قال : إن من خالف الخوارج كافر ليس بمشرك ! فخالف أصحابه . . .

ومن البيّن أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء لأنهم في معسكر السلطان ، ولأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عنه ، ولذلك قال في الأثر الأول : فإن هم تركوا شيئا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبا ، وقال في الخبر الثاني : إنهم يعملون بما يعملون وهم يعلمون أنهم مذنبون»

وإذن ، فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعي زماننا من القضاء في الدماء والأموال

والأعراض بقانون مخالف لغير شرع الإسلام ، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام ، بالإحتكام إلى حكم غير الله في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم فهذا الفعل إعراض عن حكم الله ورغبة عن دينه وإيثار لأحكام الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى ، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي له .

والذي نحن فيه اليوم ، هو هجر لأحكام الله عامة دون استثناء وإيثار أحكام غير حكمه ، في كتابه وسنة نبيه ، وتعطيل لكل ما في شريعة الله . . . . فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سنّ حاكما حكما جعله شريعة ملزمة للقضاء بها . .

وأما أن يكون كان في زمان ابي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء في أمر جاحدا لحكم الله أو مؤثرا لأحكام أهل الكفر على أهل الإسلام (وهي حال اليوم من أثر أحكام الكفر على أحكام الإسلام) فذلك لم يكن قط ، فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه ، فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما في بابهما ، وصرفها عن معناها ، رغبة في نصرة السلطان، أو احتيالاً على تسويغ الحكم بما أنزل الله وفرض على عباده ، فحكمه في الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله ، أن يستتاب ، فإن أصر وكابر وجحد حكم الله ورضي بتبديل الأحكام ، فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين « .

ثم إن الحديث عن آية المائدة يمكن التعليق [١] عليه بما يلي :

- أن كلمة «الكافرون» - ومثلها الظالمون والفاسقون – لا تأتي في القرآن بمعنى الكفر الأصغر على الإطلاق، كما قرر الشاطبي في الموافقات حيث قال أن :» القرآن آتيا بالغايات تنصيصا عليها ، من حيث كان الحال والوقت يقتضي ذلك ، ومنبهاً على ما هو دائر بين طرفيها ، حتى يكون العقل ينظر فيما بينهما بحسب ما دلّه الشرع»

---

[١] راجع في ذلك بتفصيل كتاب «حد الإسلام» للشيخ عبد المجيد الشاذلي وكتابي «حقيقة الإيمان»

[١]. وإنما يأتي الكفر الأصغر أو ما يسمونه «الكفر العملي» في السنة كما في حديث «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» [٢] أو حديث البخاري في النساء «تكثرن اللعن وتكفرن العشير» [٣]

- أن مناط الحكم هنا هو مناط التشريع لا المعصية سواء من الحاكم أو الفرد . فالحكم المقصود هو إقامة شريعة موازية لشرع الله تعالى ، لا مجرد ارتكاب مظالم فردية في حقوق الناس . وشتان شتان بين من يشرّع قوانين كاملة تحل محل شريعة الله في حياة الناس ومن يحكم بشهوة في قضية أو بعض قضايا معينة . وهذا التفريق بين المناطين هو ما وقع فيه من نفر من الدعاة والعلماء ممن أصابتهم جراثيم الإرجاء ، كالألباني والقرضاوى وغيرهم . ولسنا ممن يتبع الأسماء في قضية التوحيد ، فأمرها أجلّ من أن يقلد فيه المسلم .
- أن آية «ومن لم يحكم بنا أنزل الله فأؤلئك هم الكافرون» جاءت بصيغة العموم وهي «من في معرض النفي» . ومن هذا يتعين أن يكون لها مخصص «شرعي» لترتفع عنها صورة العموم . وما جاء به هؤلاء ممن أصابتهم جرثومة الإرجاء من قول لإبن عباس أو لأبي مجلز إنما - على أنه مناط من المناطات التي يمكن أن تكون تندرج تحت عموم الآية بإختلاف مناطاتها - لا يصلح أن يكون مخصصاً إذ أن :
- قول الصحابي لا يخصص عموم القرآن كما هو الصحيح فيما تقعّد من أصول الفقه.
- أن قول بن عباس أو غيره في هذا ليس بتفسير للآية بل هو تنزيل لمناط من مناطاتها، فليس بمخصّص حقيقيّ .
- وإن سلّمنا جدلا بأن بن عباس قد قال هذا تفسيراً - وهو غير صحيح كما هو بيّن

[١] الموافقات ج٣ ص٠٤١

[٢] الحديث رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وبن ماجة وأحمد

[٣] الحديث رواه البخاري في باب «كفر دون كفر»

في منطوق الحديث - فإن تفسير الصحابيّ إنما يعتبر من قبيل المرفوع إن كان فيما هو ليس مما يحتمل إجتهادا كما هو مبين في أصول الفقه وقواعد الحديث ، وإلا فهو إجتهاد له .

فسيد رحمه الله إذن لم يتعد أقوال العلماء، أو ما هو معتمد من أصول الفقه أو التفسير أو قواعد الحديث في تناوله لقضية «الحكم» . وإن كان لغيره إجتهاد في ذلك - رغم إنها مسألة غير اجتهادية كما قرر الإمام محمد بن إبراهيم، لمن كان قلب أو ألقى السمع وهو شهيد - فليس له أن يحكم بزلل سيد وأنه حامل لواء التكفير في هذا العصر ! فإن ذلك لا يعكس إلا جهلا بسيدٍ وجهلا بالشريعة وقواعدها وهوى مرديا أو نفاقا ظاهراً .

البعد التقييميّ في فكر سيد قطب :

لّما كان سيد رحمه الله يفهم طبيعة الإسلام، وأنه إنما جاء ليوجه حياة البشر ويحكمها ، وأنه ليس دين صوامع وبيع، بل دين علم وعمل ، فقد رأى أنه لا بد من النظر في الواقع المحيط وتحليل المعطيات والمواقف بشكل دقيق، ليمكن أن نرى أين يقف الناس اليوم من الإسلام - المسلمون منهم وغيرُ المسلمين على حدّ سواء . وهذا العملية التقييمية هي مما وجّه اليه القرآن، يقول الله تعالى : «كذلك نفصّل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين» [١] ، ويقول تعالي : «ليميز الخبيث من الطيب» [٢] . فتمييز الصالح من الطالح هو غرض من أغراض الشريعة ومقصد من مقاصدها لمن فهم هذا الدين . ولننظر فيما قاله سيد في هذا الصدد لنرى كيف قيّم الواقع ، ومن أين أتت هذه الشبهة التي لا أصل لها في حديثه ، شبهة التكفير .

يقول رحمه الله في تفسير قوله تعالى : «وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ

---

[١] الأنعام ٥٥

[٢] الأنفال ٧٣

المُجْرِمِينَ» [١] «.

١. « . . ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا . . إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين ، في أوطان كانت في يوم من الأيام داراً للإسلام ، يسيطر عليها دين الله ، وتُحكم بشريعته . . ثم إذا هذه الأرض ، وإذا هذه الأقوام ، تهجر الإسلام حقيقة، وتعلنه إسما. وإذا هي تتنكر لعقيدة الإسلام اعتقادا وواقعا وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقادا. فالإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن لا إله إلا الله تتمثل في الاعتقاد أن الله – وحده – هو خالق هذا الكون المتصرف فيه وأن الله وحده هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله وأن الله – وحده – هو الذي يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله. وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله – بهذا المدلول – فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد، كائنا ما كان اسمه ولقبه ونسبه. وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله – بهذا المدلول – فهي أرض لم تدن بدين الله ولم تدخل في الإسلام بعد. وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين وهم من سلالات المسلمين. وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إله إلا الله – بذلك المدلول – ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول»[٢] .

٢. وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين وطريق المشركين المجرمين واختلاط الشارات والعناوين والتباس الأسماء والصفات، والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق .

---

[١] الأنعام ٥٥

[٢] الظلال ج٢ ص ١١٠٦ سورة الأنعام آية ٥٥

٣. ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتلبيسا وتخليطا، حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل « تهمة» يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام ، تهمة تكفير « المسلمين». ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله [١].

٤. هذه هي المشقة الكبرى وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل»[٢] .

ولا شك أن القارئ المتعجل قد يرى في هذا النصّ ما يرضى وَلَعه في نبذ الرجل وإلقاء تهمة التكفير عليه ، إلا إنه ما هكذا تورد الإبل! ولا تُعامل مثل هذه النصوص، ولا هكذا يُنظر إلى مثل هذا الرجل وكتاباته . ولنتناول فقرات هذا النص واحدة تلو الأخرى بالنظر والتحليل .

نلاحظ أنّ سيدا في الفقرة الأولى ، وفي هذا النص عامة ، قد تحدث عن أمرين ، ولنقل وجودين ، «الأرض» و «الأوطان» ، و»الأقوام» أو «الناس» فهو يتحدث عن :

- الوجود الإسلاميّ المتمثل في «نظام» يسرى في أرض من الأرض (أو وطن من «الأوطان») .
- من يعيش على هذه الأرض ، وفي هذه الأوطان بصفتهم الجماعية (الأقوام ، الناس). أي بعبارة أخرى عن هؤلاء الذين يعيشون على هذه الأرض بصفتهم الجماعية (كمجتمع يدير نظام هذا الأرض) .

ويقرر سيد أنّ :

- هذا الوجود الإسلامي «كنظام» له أحكامه وقوانينه الخاصة وآلته العسكرية التي تحمى هذه القوانين ، ليس من الإسلام في شيئ إن كانت قوانينه وشرعته ليست هي

---

[١] السابق نفس الجزء والصفحة

[٢] السابق

قوانين الله وشرعته.

- أنّ المجتمع أو الأفراد (بصفتهم الجماعية لا الفردية) ممن يعيش على هذه الأرض ، إن رضوا بهذه الأحكام وفصلوا حقيقة «لا إله إلا الله» عن مجرد النطق بها ، كانوا إجتماعهم هذا على غير شرعة الله وخرجوا بذلك «بصفتهم الإجتماعية» عن دين الله .

وهنا وقع من وقع في الخلط بين الحكم على فرد من الأفراد أو على «معيّن» كما يحب أهل الأصول أن يطلقوا عليه، بإسلام أو بكفر ، وأن يُحكم على نظام يحكم بشرعة جاهلية أو على مجتمع يعيش على هذه الشرعة ويتقبلها ويرضى بها بديلا لشرعة الله . ليس هناك دليل واحد من كلام سيد أنه قصد أعيان الناس، أو الأفراد بصفتهم الفردية، إذ إنه لا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة حال كل شخص على حدة ليمكن أن يحكم عليهم بناءا على ذلك ، وهو أمر من إدعى أنه قادر على إحصائه فقد حكم على نفسه بالخبال ، فلا يمكن أن يستقرأ أحد دين الناس فردا فردا ، لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى . فالتفرقة بين هذه الأمور الثلاثة واجبة لفهم الرجل وفهم الإسلام على حدّ سواء :

- النظام الحاكم .
- المجتمع المحكوم (أو الأفراد بصفتهم الجماعية) .
- الأفراد بصفتهم الفردية كمعينين .

ومن لم يستطع أن يلحظ هذا الفرق فعليه أن يعمل على تقوية قدرته على التحليل ودقة الإستنباط ، إذ أن هذه الدقة في النظر والتفرقة فيما قد يشتبه على النظر العادي هي ما يميّز العالم من الجاهل ، والفقيه من المتفيقه!

ويواصل سيد - رحمة الله عليه – في الفقرة الثانية والرابعة تقييم الواقع من حيث ما تواجهه الحركات الإسلامية الهادفة إلى تصحيح المفاهيم ، وإزالة الغبش الذي يرون على

التصورات ومن ثمّ على القدرة على رؤية الداء، ثم على تحديد ووصف الدواء.

ثم ، مما لا يشك فيه عاقل أن هناك ناس من الناس ممن يعيش في هذه المجتمعات «الإسلامية» قد فارقوا دين الله بالفعل ، وإلا فماذا يقول من ينكر ما ذكره سيد ، في أمثال أولئك الذين يسبّون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرمونه بكل رخيص من الحديث في مقالاتهم ورواياتهم باسم الفن والحرية والتقدم ، أو كدعاة العلمانية الصريحة ونبذ الشريعة لعدم موافقتها للحاضر المتحضر ! أوالمساواة بين الأديان الثلاثة (ولا نعنى مساواة الحقوق بين أتباعها بل نعنى المساواة بين الأديان الثلاثة ، حرفيا ، فلا فرق بينها ، فكلها حقّ !!). ما!! يقول قائلٌ في سعد الدين الهلاليّ أو إبراهيم عيسى أو ما شئت من هذه المخلوقات المتمردة على دين الله؟!

ثم يكمل سيد تحديد رؤيته للواقع ، وكأنه يعرف ما سيرميه الناس به ، فيرى أنّ أعداء هذا الدين ، سواء أعداءه الأصليين ممن لا يؤمنون به أصالة ، كهؤلاء الذين ذكرنا ، أو من حملته الغفلة أوالجهل أو الشهوة أو الحسد، أو كلّها معا ، على أن يشارك في نشر هذا الفهم المريض ثم التقييم الخاطئ ، بأن يرعب المسلمين من فكرة تمييز من خرج على الدين ، حتى يبقى الأمر مائعا، ويختلط الحابل بالنابل، والغثّ بالسمين. وفي مثل هذه الأجواء يبيض الكفر ويفرخ ، ويلتحق بكتيبة المفارقين للدين أعداد أكبر من الأفراد، وتصحّ مقولة جاهلية المجتمع أكثر وأكثر . هذا ما بيّن سيد من مخطط هؤلاء من أعداء الدين، وما يقود اليه عمل أولئك النفر من المغفلين والجهلة من المسلمين سواء عامتهم أو دعاتهم ممن حمل جرثومة الإرجاء في حنايا فكره . ويلاحظ أن سيداً قرر في كلامه أنّ «تكفير المسلمين» تهمة لا شك فيها ، فهو يعرف أن الحكم بالكفر على شخص من الأشخاص أمر يجب أن يكون عليه برهان أسطع من شمس النهار. ولكنه أمر يحدث في عالم الناس أن يرتد نفر من النفر، وإلا فلم قال الله تعالى :» ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافرٌ فأؤلئك

حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة و أؤلئك هم أصحاب النار هم فيها خالدون» [١]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «من بدّل دينه فاقتلوه» [٢] ، هذا يستتبع أن من الناس من يكفر بعد إيمان ، وأنه يمكن - بل يلزم - تعيينه حين القدرة على إقامة الحد – ممن له سلطة إقامة الحدّ. فأمر تعيين المبدل لدينه أمر مشروع لمن لديه العلم الكافي والدليل الساطع من الكتاب والسنة ، ثم تبقى الحاجة إلى هذا التعيين ، فإن كانت هناك حاجة إلى التعيين ، لبيان خطره أو التحدذير من دعوته ، أو إن كانت إقامة الحد مقدور عليها من قبل السلطان أو الوالي، وجب بيان كفره .

فهل تجاوز سيد الحدّ أو جانب الصواب فيما قرر ؟ أيمكن لمن يرميه بمثل هذه التهم أن يصف مجتمعات المسلمين اليوم - بشكل عام – بغير صفة الجاهلية ، إذ تتحاكم إلى أحكام الجاهلية على المستوى القانوني والتشريعي ، وإلى الكثير من الأعراف والتقاليد الجاهلية على المستوى الجماعي الإجتماعي . وأما عن أفراد الناس فكلٌّ وما يعتقده وكلٌّ وما يدين الله به ، ولا يقول سيد ولا غيره ، إلا ممن انتسب إلى الخوارج قديما وحديثا ، بالتكفير العام لكل أفراد هذه المجتمعات الحالية فردا فردا .

الحديث يا سادة عن هوية المجتمع الذي تسرى فيه هذه الأدواء ثم يرضاها ويخضع لها ، وليس الحديث عن هوية الفرد المسلم الذي حماها الله سبحانه من فتنة التكفير - إلا بدليل ساطع.

ثم إن سيداً قد قصد إلى إيقاظ ما خمد في نفوس المسلمين من غيرة على دين الله ، ومن غضب لله، بعد أن استشرى البعد عن منهجه سبحانه في حياة الناس عامة، وفيما تحاكموا اليه خاصة، بحكم ما اتخذوه من شرع وقانون. والظلال والمعالم كتب دعوة خُطّت بأدب راقٍ، ومن ثمّ ما يجرّه الأسلوب الأدبيّ، الذي هو معجزة القرآن، على

[١] البقرة ٧٣٢

[٢] رواه البخاري

صاحبه من أساليب وطرق في التعبير لا تتفق وأساليب كتب الفقه أو أصوله ، فلا يصلح إذن أن ينبش الناس فيها عن معايير الفقه وأصوله، أو أن يستنبطوا منها أحكاما معينة، إذ ليس لهذا الغرض كتبها الكاتب، وليست هي مما يجب أن يتتبعها الناس بالنقض والنقد من هذا الباب، رغم إنها قد حوت من الفقه ما يملأ مجلدات في إبّأن تفسير آيات الأحكام، لا ينكر ذلك إلا أعمى بصرٍ وبصيرة. وليس خطأ سيد أن اتخذ فريق من الشباب المغرور أو المغرر به كتاباته على أنها تكفيرية. ليس هو ذنب سيد أو جريرته إذ أن القرآن نفسه وهو كتاب الله المُبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قد اتخذته كل فرق المبتدعة، ممن هم على طرفي النقيض ، ذريعة لتأويلاتهم المرضية، وكلام الله ممّا يدعون برئ. فليس كلام سيد إذن بدع من البدع ، بل كل كلام يمكن أن يؤوله قارؤوه على هواهم .

مرة أخرى :

من لم يستطع أن يلحظ هذا الفرق فعليه أن يعمل على تقوية قدرته على التحليل ودقة الإستنباط ، إذ أن هذه الدقة في النظر والتفرقة فيما قد يشتبه على النظر العادي هي ما يميّز العالم من الجاهل ، والفقيه من المتفيقه!

البعد الحركي في فكر سيد قطب :

يقول سيد في تفسير آية الأنعام :

«يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين ويجب أن لا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف وألا تقعدهم عنها لومة لائم ولا صيحة صائح انظروا إنهم يكفرون المسلمين.

إن الإسلام ليس بهذا التمييع الذي يظنه المخدوعون ، إن الإسلام بَيِّن والكفر بَيِّن ،

الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله – بذلك المدلول – فمن لم يشهدها على هذا النحو ومن لم يقمها في الحياة على هذا النحو فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين المجرمين»[١] .

ويقول في المعالم :

«ولكن الإسلام لا يملك أن يؤدي دوره إلا أن يتمثل في مجتمع ، أي أن يتمثل في أمة . . فالبشرية لا تستمع – وبخاصة في هذا الزمان – إلى عقيدة مجردة ، لا ترى مصداقها الواقعي في حياة مشهودة . . و « وجود « الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة . . فالأمة المسلمة ليست « أرضًا « كان يعيش فيها الإسلام . وليست « قومًا « كان أجدادهم في عصر من عصور التاريخ يعيشون بالنظام الإسلامي . . إنما « الأمة المسلمة « جماعة من البشر تنبثق حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج الإسلامي . . . وهذه الأمة – بهذه المواصفات ! قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعًا . « [٢]

ويقول : « لا بد من « بعث « لتلك الأمة التي واراها ركام الأجيال وركام التصورات ، وركام الأوضاع ، وركام الأنظمة ، التي لا صلة لها بالإسلام ، ولا بالمنهج الإسلامي . . وإن كانت ما تزال تزعم أنها قائمة فيما يسمى « العالم الإسلامي «! [٣]

عرف سيد أن الإسلام هو دين الحركة والواقع، وليس بدين العلم المجرد والنظر البحت، فخاطب المسلمين بما يراه مناسبا للحركة بهذا الدين، إذ إن ذلك هو نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم . لم يتلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن وعلّمه للصحابة الكرام دون أن يتحرك به في مجتمعه فيقيّم المعوج ويصلح االفاسد ويرجع الناس إلى

[١] الظلال ج٢ ص ١١٠٧

[٢] المعالم ٤

[٣] المعالم ٥

الإيمان بالله ، حق الإيمان ، لا الإيمان المخلوط بتهيؤات البشر من إتخاذ الصالحين زلفى إلى الله، أو أن يتخذوا من أهوائهم شرعة ومنهاجا يحكمون به في حياتهم. عرف سيد ذلك كله فتوجه إلى المسلمين ممن آلوا على أنفسهم أن يحيوا بهذا الدين ولهذا الدين ، مخاطبا بما رآه يصلح كخطة للعمل والحركة ، فقرر أنه يجب أن يبدأ الدعاة في تفهم الواقع المحيط بإيجابياته وسلبياته، وأن يتحققوا بالهدف الذي يسعون إليه ، حتى لا ينشغلوا عنه بسواه، او أن يخطؤا طريق الدعوة بإفتراض الواقع على غير ما هو عليه ، فإن الدواء الناجع لا يكون إلا بناءً على التشخيص السليم، وإن كان الوقوف على الداء الحقيقي مرّا ومؤلماً.

ويحسن هنا أن نعلق على ما ذكر سيد في هذا النص ، قال : {ووجود» الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة} . مرة أخرى ، إدعى هؤلاء النفر ممن ينتسبون إلى السلفية! أن سيداً يكفّر أفراد الناس، وأقول أنه رغم أن سيداً جانبه الحذر في استخدام الكلمات ليعبّر بها عن فكرة صحيحة، إلا إن ذلك لا يعنى أنه كفّر الناس بعامة. فإن النص يتحدث عن أمرين : إنقطاع وجود الأمة الإسلامية ، وعن انقطاعها منذ قرون عديدة . وإنقطاع الوجود الذي يتحدث عنه سيد هو انقطاع وجود الأمة المسلمة)بهذه المواصفات(التي حددها ، أي الأمة التي تحكم بالإسلام في شرعها وقوانينها ، وتتحكم الأعراف والتقاليد الإسلامية في حياة أقوامها . وكلا الأمران ، الوجود التشريعي للنظام الإسلامي و العادة والعرف الإسلامي في حياة الناس، قد انسحب تدريجيا من حياة الناس في هذه المجتمعات بدءا بتحول المجتمع إلى مراعاة الأعراف والتقاليد الجاهلية شيئا فشيئا ، إلى أن تحول النظام برمته إلى التحاكم إلى غير شرع الله بسقوط الخلافة ، كما أشار سيد في الجزء الأخير من النص « وهذه الأمة – بهذه المواصفات ! قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعًا « . لهذا أشار سيد إلى أن ما يتحدث عنه إنما حدث - أو الأحرى أن يقال بدأ في الحدوث – منذ قرون عديدة . وسيد يعرف أن هذه الأمة - بمعنى أن الإسلام يختفي من الأرض وأن ينقلب الناس كلهم كفاراً - كما يوحى

هؤلاء النفر من أدعياء السلفية – لم ولن يحدث أبدا إذ أن رسول الله صلى الله عليه ةسلم قد ذكر - وهو الصادق المصدوق - أنه «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» [١] ، فإنقطاع الأمة بمعنى كفر عامة أفرادها هو مما لا يقول به سيد ولا غيره ، بل هو مما علم من الدين بالضرورة خلافه ، فكيف يغفل عن هذه الحقيقة - التي يعرفها طالب السنة الأولي في كلية الشريعة – سيد رحمه الله؟

فكلام سيد واضح في الطريقة التي يراها الأنجع في العودة بالمجتمع والنظام إلى الإسلام، أن يعود الإسلام إلى الوجود المتكامل في حياة الناس، كنظام وكمجتمع ، بعد أن غاب عنهم منذ انهيار الخلافة.

نقطة أخيرة أود أن أتحدث عنها، وهي ما قيل عن «العزلة الشعورية» التي نبه سيد إلى التلازم بينها وبين الإيمان في قلب المسلم . قال:

«كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه ، تنشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية ، فهو قد انفصل نهائيًا من بيئته الجاهلية واتصل نهائيًا ببيئته الإسلامية . حتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي ، فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء آخر .

وكان هناك انخلاع من البيئة الجاهلية ، وعُرْفُها وتصورها ، وعاداتها وروابطها ، ينشأ عن الانخلاع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد ، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود . وينشأ من الانضمام إلى التجمع الإسلامي الجديد ، بقيادته الجديدة ، ومنح هذا المجتمع وهذه القيادة كل ولائه وكل طاعته وكل تبعيته . » [٢]

---

[١] الحديث رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وأحمد

[٢] المعالم ٤١

مرة أخرى ، ترى هل جانب سيد الصواب فيما قرره بهذا الشأن ؟ اللهم لا. إن سيداً كما هو ظاهر من حديثه، لا يدعو إلى الهجرة من الأوطان - كما دعا اليها من انتسبوا إلى جماعات الخوارج في العصر الحديث، بل هو يقرر أن المسلم يعيش بين من انتسب إلى الجاهلية - سواء، جاهلية العوائد أو جاهلية القوانين، على حسب الحال – ويتعامل معهم، لكن على علم بما هم فيه من جاهلية عادات أو تقاليد أو أعراف أو قوانين، وعلى حذر من خلط الأمور والذهول عن الطريق والإلتزام بالمفاهيم. إن سيداً يعني - بإختصار - في هذا الحديث ، قواعد الولاء والبراء، وإن عبّر عنها بطريق أدبيّ إختاره ليكون بالغ التأثير في النفوس بما لا يؤثر فيها من أساليب الفقه ومقررات الأصول وجفاف القواعد الفقهية. فهل في مقررات الولاء والبراء ما ينكره هؤلاء النفر من أدعياء السلفية؟ وسيد يقرر أن قواعد الولاء والبراء لا يمكن أن يتبعها الفرد المسلم إن لم تكن حيّة في نفسه، ليعرف حدود ما هو مسموح به في التعامل مع الواقع وما هو ممنوع عنه.

وكثير من الناس قد مرّ في حياته الشخصية بهذه المرحلة التي يصفها سيد، مرحلة البعد عن الله وعن منهاجه وعن شرعه، أي مرحلة الجاهلية، وإن كان لا يزال منتسبا للإسلام . ثم كان التحول في حياته ، فانخلع عن العادات والمفاهيم التي تضاد الإسلام ، لا أقول انقطع عن إرتكاب المعاصي، بل انخلع من ربقة المفاهيم الجاهلية ذاتها، والفرق واضح لمن يفهم الإسلام ويعرف الفرق بين المعصية، وبين التشبع بفهم الجاهلية والحياة بمفاهيمها. حين يحدث هذا في حياة ذلك الواحد من الناس فإنه يستشعر تلك المفارقة الشعورية لأصحاب الأمس وأحباب الأمس من المعارف والأقرباء، ويصبح وكأنه وحيدا بين الأهل، الذين لم يمسّهم هذا الشعور ولم يتحولوا هذا التحول. هي تجربة يعرف حقيقتها كلّ من عاناها.

ونخلص إلى القول إنه إن كان هؤلاء النفر من مدّعي السلفية، أو غيرهم من الدعاة الذين هاجموا سيداً، قد اتخذوا من التماس الأعذار للناس شعاراً، ثم لم لا يطبقوا هذا الشعار على سيد رحمه الله، وهو أولى من غيره بالتماس الأعذار من أن يهاجم ويجرّح ويقذف

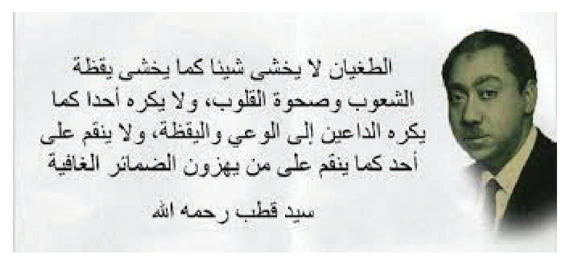
بالألفاظ البذيئة التي لا يرضى هؤلاء المخدوعون بأن يطلقونها على من هم من أشرار الخلق ممن يخضّع الناس للشرائع الإنسانية كبديل لشرعة الله، وعلى من يحسّن لهؤلاء مثل هذا التعدي على حق الله في أن يسود دينه في الأرض كنظام وأن يحكم المجتمع والفرد بمقرراته وعاداته وأعرافه ! أي عقل هذا وأي دين وأي خلق .

عافانا الله من مثل هذا الإثم والوهم والخطل ، آمين ، ثم للحديث عن سيد بقية إن شاء الله تعالى

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



سيد قطب .. وفرية سبّ الصحابة



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

الرجل، انتقل إلى حيث يقف بين يديّ الله سبحانه، وآثاره التي انتهى عليها، موجودة بين أيدي الناس لا تزال، تنشأ أجيالا منذ استشهاده على يد الطاغية الملحد عبد الناصر. لكن الحقد والحسد والغلو والبهتان، ونصرة الباطل، لا تزال تغلي مراجلها في قلوب فئة حرّفت كلام الله والتوت بسنة رسوله ﷺ وشوهت حديثه ﷺ، لا تزال تسير في محاولة تحطيم رجل كالجبال قامة، يقفوا أمامه أقزام عفنة تقبل أقدام أسيادها من خونة الحكام وتبرر كفرهم.

الرجل هو سيد قطب رحمه الله، والفئة الباغية هي فئة المداخلى، الذين وصلت بعض تصرفاتهم وتأويلاتهم إلى الكفر البواح، الذي فيه من الله براهين.

والقضية هي ما كتب سيد رحمه الله في أول حياته الفكرية، وهو في أوائل الثلاثينيات من العمر، حين كان أديباً شاعراً ناقداً حذقاً، لكن لم يكن إسلاميّ التوجه، ولم يكن كتاب الله قد مسّ شغاف قلبه بعد. وهو لا ينكر ذلك، بل أثبت أنه تحيّر في الطريق، سنين عدداً، فهل في هذا ما يعيب؟ ألم يتحير أبو حامد الغزاليّ وأثبت ذلك في كتابه «المنقذ من الضلال» بعد؟ّ! ألم يتحير الأشعري وغاص في بلاءات المعتزلة حتى رجع عنها، أو غالبها، في كتابه «الإبانة»، ومات وهو على عقيدة الإمام أحمد، إمام السنة بإطلاق؟! فما بالنا لا نفسح المجال لسيد قطب أن يكون أديباً شاعراً ناقداً حذقاً، غير إسلاميّ، يرتكب الخطأ، ثم يرى نور الله يهديه، فيرجع عنه؟!

هذا لا يكفي في عرف جماعة الشؤم والشذوذ، المدخلية، لماذا؟ لأنّ سيداً رحمه الله كان عَلَم الوقوف في وجوه الطواغيت، وكاشف ستر الضباب الاستشراقيّ الصوفيّ الطاغوتيّ عن مسائل التوحيد في عصرنا.

انظروا في كتاب إمام المبتدعة في عصرنا ربيع المدخليّ، في تهوساته بكتابه «مطاعن سيد قطب في صحابة رسول الله ﷺ»! كل الكتاب مبنيّ على ما دوّن سيدا رحمه الله في كتاب «العدالة الإجتماعية». وهو كتاب دوّنه في تلك الفترة التي أشرنا لها من التخبط، وهو ذلك الأديب الشاعر الناقد الحذِق، ثم يبرأ منه كما ذكر ذلك أخيه محمد قطب في هامش طبعة من الظلال عن الكتب التي سمح بطباعتها مرة أخرى، ومنع غيرها[١].

كان سيد رحمه الله في تلك الفترة ممن يقرأ كتب العقاد، ويتبعه في منهجية الفكر، ولا يُخفى إعجابه به وتعظيمه له وتتلمذته عليه، وقد دافع عنه في مواطن عدة، ونافح عن مدرسته الشعرية، ووقف معه أيام كان العقاد يقف مع حزب الوفد. والعقاد معروف بأنه مفكرٌ عبقري الكلمة متعدد المواهب، لكنه لم يدعِ لنفسه، ولم يدع عليه أحدٌ، إنه «إسلاميّ» المنهج. ومن هنا جاء انحياز سيد عنه، وأصبح هذا ظاهراً بعد رحلته إلى أمريكا، والتي كان لها أكبر الأثر في التحول الخطير الذي عرض له صاحبنا رحمه الله.

كان همّ سيدٍ في كتابه عن العدالة الإجتماعية في الإسلام، هو أن يدفع شبه «الإشتراكية» و»الشيوعية» في عصره، من وجهة نظر « الأديب الشاعر الناقد الحذِق»، تلميذ العقاد. وكان منه اضطراب في تأويلات لأفعال بعض الصحابة، فأساء ولم يُحسن، هذا مما لا نجادل فيه.

---

[١] في ظلال القرآن لسيد قطب، نهاية الجزء الثالث عشر، من الطبعة المنقحة، الصادرة عام ٤٦٩١ م. وقد ذكر المستشار عبد الله العقيل في مجلة المجتمع الكويتية الصادرة عام ٢٧٩١ م، العدد رقم ٢١١، ص ٢٢: إن سيد قطب رحمه الله قد بعث إلى إخوانه في مصر والعالم العربي أنه لا يعتمد سوى ستة مؤلفات له، وهي: هذا الدين، والمستقبل لهذا الدين، الإسلام و مشكلات الحضارة، خصائص التصور الإسلامي، في ظلال القرأن، معالم في الطريق.

ولا شك أن الثبات على ما قال في عثمان ومعاوية وعمرو ابن العاص رضي الله عنهم، هو لون من الزندقة والخروج من السنة من أوسع أبوابها. لكن من قال أنّ سيداً ثبت على ذلك؟! هذا هو ما يجب أن يكون مفتاح باب الطعن في سيدٍ رحمه الله، لا إنه قال كذا وكذا في فترة من فترات حياته كان فيها «الأديب الشاعر الناقد الحذِق» لا غير!

ويكفي أن نثبت أمراً واحداً شهد به الخصم، ينفي تهمة الثبوت على ما قال في جاهليته، علما بأن ما أثبته الخصم في نقض قضيته هو هدمٍ أصليّ لها.

قال المدخليّ في كتابه الأثيم ص ٢٨:

"لقد أصرّ **سيد قطب وأخوه محمد بل الإخوان المسلمون** على بقاء هذا الطعن واستمراره أكثر من أربعين سنة على الرغم من تنبيه العقلاء على فظاعة هذا العمل وبشاعته."

انظر إلى تدليس المدخليّ الذي هو سمة كتاباته في كلّ ما دوّن! كما أثبتنا في مقالنا «القول الجليّ في فضائح المدخليّ»[١]. يقول داوم علي هذا العمل أربعين سنة! ويتناسى المأفون ناصر الطواغيت، وآهرهم حفتر! أن سيداً منذ أن عاد في نهاية الأربعينيات، إلى أن قبض عليه عبد الناصر، الذي هو وليّ أمر المسلمين في مصر على مذهب المبتدع المدخليّ، أول مرة في ١٩٥٥، وذلك بعد انتسابه للإخوان عام ١٩٥٣. وكانت البلاد أيامها تغلى بإنقلاب، وكانت نفس سيدٍ تغلي بانقلاب. أفلا يكون عذراً له أن أهمل هذه القضية إلى أن حان تغييرها «قبل وفاته»، حيث، بشهادة المدخلي المبتدع نفسه، أعاد طبع كتاب العدالة الجتماعية عام ١٩٦٤، أي قبل استشهاده بعامين، رافعاً ما كان الأستاذ محمود شاكر قد نبهه عليه، في الثلاثينيات، إبان وقت صدور الكتاب للمرة الأولي في جاهليته، وأضاف اليه فصل من كتابه التصور الإسلاميّ. انظر ما يقول المدلّس المدخليّ:

---

[١] https://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/72958

وقد طُبع الكتاب عدّة طبعات في حياة سيد ، كانت آخرَها الطبعة السادسة التي أصدرتها (دار إحياء الكتب العربية) عام ١٩٦٤م . وهي طبعة منقَّحة؛ حيث حذف منها العبارات التي أخذها عليه محمود شاكر وغيره ، والمتعلّقة بعثمان ومعاوية . رضي الله عنهما . ، وأضاف لها فصل (التصوّر الإسلامي والثقافة) أحد فصول ((معالم في الطريق)) .

أي : أنّ سيداً أضاف لكتاب ((العدالة الاجتماعية)) عام ١٩٦٤م أفكاره الحركية الإسلامية ، ودعوته إلى بعث طليعي ، واستئناف الحياة الإسلامية على أساس مبادئ الإسلام .

وبهذا نعرف أن سيداً لم يتخلّ عن كتابه ((**العدالة الاجتماعية في الإسلام**)) ، بل بقيَ يقول بما فيه من مبادئ وأسس وأفكار حتى محنته عام ١٩٦٥م))[1].

سبحان الله، يعترف أن سيداً «هو» من طبع الكتاب الطبعة الأخيرة في حياته، عام ١٩٦٤، وأنه رفع منه الإساءة إلى الصحابة، ثم يُكمل كلامه الكّذِب! وقد رأينا أنّ سيداً قد منع طبع الكتاب بصورته الأصلية، حتى عاد وبدّله وصححه. لكن المبتدع المدخليّ يأخذ عليه أنه احتفظ باسم الكتاب دون مضمونه!

يعرف المدلّس أن الطبعات البيروتية لكتب سيد قطب بالذات كانت مشاعاً، حتى أوقف ذلك أخوه الأستاذ محمد قطب، في السبعينيات أو بعدها. لكن طبعة ١٩٦٤، كانت بإشراف وتعديل وإضافة الأستاذ سيد رحمه الله.

فما كلّ هذا الضجيج والعجيج إذا؟! لقد تخلي الشهيد عن الإساءة التي اقترفها في كتابه المذكور، يوم أن كان «"الأديب الشاعر الناقد الحذِق» فحسب، لا «الأديب الشاعر الناقد الحذِق الإسلاميّ الموحّد رافع راية التوحيد وواضع الظلال والمعالم». وشتان بينهما.

وقد أثبت الأستاذ سيد في تفسيره العظيم «الظلال»، الذي أشعل نار الحسد والحقد في قلب المدخلي وغيره، لا تنطفئ كأنها الشعلة الأوليمبية تقود أممها في عماء إلى عماء، أنه يُكرِّم الصحابة رضي الله عنهم جميعا، ويذكر عثماناً رضي الله عنه ومآثره ويترضّى عليه، ويذكر معاوية رضي الله عنه ويترضى عليه.

جاء في الظلال، رواية معاوية رضي الله عنه، عن أبي داود بطريق سفيان الثوري ما لفظه عند أبي داود « حدثنا عيسى بن محمد الرملي وابن عوف وهذا لفظه قالا: حدثنا الفريابي عن سفيان عن ثور عن راشد بن سعد عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم فقال أبو الدرداء كلمة سمعها معاوية من رسول الله نفعه الله تعالى بها»[١]. فنقله الأستاذ سيد رحمه الله، بلفظ «وقال سفيان الثوري ، عن راشد بن سعد ، عن معاوية بن أبي سفيان ، قال : سمعت النبي – صلى اللهّ عليه وسلم يقول : «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم». فقال أبو الدرداء – رضي اللهّ عنه – كلمة سمعها معاوية – رضي اللهّ عنه – من رسول اللهّ – صلى اللهّ عليه وسلم – نفعه اللهّ تعالى بها»[٢]. فانظر كيف أضاف الترضية على معاوية، مع عدم ذكرها عند أبي داود.

وقال في الظلال ما لفظه «ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان – رضي اللهّ عنهم – قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض؟[٣]»

ونقل في الظلال حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، الذي نصه في الترمذيّ»حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَمُسَدَّدٌ الْمُعْنَى، قَالَا: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي قَابُوسَ، مَوْلَى لِعَبْدِ اللهَّ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عَمْرٍو، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» لَمْ يَقُلْ مُسَدَّدٌ مَوْلَى عَبْدِ اللهَّ بْنِ عَمْرٍو وَقَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [٤]»

---

[١] سنن أبي داود كتاب الأدب مسألة النهي عن التجسس.

[٢] في ظلال القرآن، ج٦/ ٦٤٣٣

[٣] السابق ج ١/ ٧١٩٢

[٤] سنن الترمذي البر والصلة

ونصه في أبي داود «حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَمُسَدَّدٌ الْمُعْنَى، قَالَا: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي قَابُوسَ، مَوْلَى لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» لَمْ يَقُلْ مُسَدَّدٌ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَقَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [١]»

فنقله الشهيد من المصدرين، مضيفاً «رضي الله عنهما»، قال «ومن تعليم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأصحابه هذه الحقيقة القرآنية ، بهذا الأسلوب الموحي ، كان ينتقل بهم خطوة أخرى ليتخلقوا بخلق الله هذا في رحمته ، ليتراحموا فيما بينهم وليرحموا الأحياء جميعا ولتتذوق قلوبهم مذاق الرحمة وهم يتعاملون بها ، كما تذوقتها في معاملة الله لهم بها من قبل. عن ابن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – «الراحمون يرحمهم الله تعالى. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» .. (أخرجه أبو داود والترمذي)[٢]

إذن فما الأمر؟ ما أمر المداخلة؟!

- هو أمر إنكار توحيد التشريع والعبادة.
- هو أمر إثبات عبادة القصور ونفي عبادة القبور
- هو أمر الإيمان بشفاعة الأحياء من ذوي السلطة وبعجز الأموات من أصحاب الأجساد العفنة.
- هو أمر نصر الطواغيت على الموحّدين، بحجة طاعة وليّ الأمر التي قدّموها على طاعة الله ورسوله ﷺ
- هو أمر بدعة منكرة شنيعة ربطت بينهم من أقصى مناحي الإرجاء، وبين الحرورية في أقصى مناحي التكفير، كما هو واضحٌ بيّن في قتالهم مع حفتر ضد أهل السنة في

[١] أبو داود كتاب الأدب باب الرحمة

[٢] الظلال ج ١/ ٢١٢٠

ليبياً، وهي الخاصية التي بيّناها عنهم في كتابنا «فتنة أدعياء السلفية وانحرافاتهم» طبعة ٢٠٠٤، قلت ما نصه « تشبّههم بالخوارج الذين حملوا السيف ضدّ أهل السنة ونصروا الكفار والمنافقين كما هو معلوم من حالهم، فترى هؤلاء يرمون الدعاة إلى الله بالكفر والإلحاد والبدعة والسقوط وما شئت من ألفاظ لا تليق إلا بأمثالهم، ثم تراهم يحرّمون أن يذكر أحد من أهل السلطة بشرّ أو أن ينتقد بأي حال من الأحوال وإن بدّل شرع الله سبحانه وأقام شرعاً موازياً يعبّد الناس له، يثيب من يتبعه ويقتل من يخالفه. منطق معكوس ومذهب موكوس! استباحوا به مخالفة كلام الله استباحة حقيقية لا مراء فيها»[١].

فلا يفزعنك مثل تلك التهم الجوفاء التي يرمي بها المرجفون أهل الرضا والتقوى، فقد عرفناها في لحن أقوالهم وأفعالهم على طول تاريخ المسلمين وعرضِه.

ورحم الله سيداً وأخزى ربيعاً.

د طارق عبد الحليم

١٧ مارس ٢٠١٧ – ٢٨ جمادي الآخرة ١٤٣٩



[١] ٧. وهي الخاصية التي بيّناها عنهم في كتابنا «فتنة أدعياء السلفية وانحرافاتهم» طبعة ٢٠٠٤، ص ٨١ راجع الأعمال الكاملة د طارق عبد الحليم المجلد الأول ص ٣٧٤، طبعة دار الكتاب العالميّ اسطنبول

الطريق إلى إنقاذ الأمة ـ بين محمود شاكر و سيّد قطب

سيد قطب ومحمود شاكر - رحمة الله عليهما - عملاقان غنيان عن التعريف. فهما من عمالقة فكرنا الإسلامي الحديث لا يكاد يضاهيهما أحد في مكانتهما في الفكر واللغة والأدب، وإثراء المكتبة الإسلامية وتغذية عقول أبناء الإسلام في عصرنا، لا ينازع في هذا إلا مكابر معاند ركبه الهوى والحسد لمكانتهما أو جاهل غرّير ليس من العلم في كثير أو قليل.

وقد كان السّجال بين الرجلين حول أدبيات ذينك الزمن معروفاً في الأربعينيات من القرن الماضي، ولا أظن أنه أفسد ما بينهما إذ إن كلا الرجلين أكبر من أن تفسد نفسه لخلاف أدبيّ كان من سيماء العصر المنصرم. ولسنا بصدد الحديث عن تلك المعارك الأدبية التي احتدّت بين الرجلين حول العقاد وأدبه وشعره، وإن كان ذلك مما يجب التصدى له في موضع آخر لأهميته في فهم منطلقات الرجلين، وتطورهما الفكريّ، خاصة فيما يخص الأستاذ سيد رحمة الله عليه .

إنما نريد أن نتقصّى في هذا الموضع أمر آخر، إنعكس في كتابات الرجلين ونحسب أنه من أهم ما يمكن أن يرجع اليه المسلمون في عصرنا هذا، إذ هو يتعلق برؤية كلا منهما في الطريق الناجع إلى إحياء الأمة وإعادة مجدها والنهوض بأبنائها لتحتل مكان الصدارة كما ينبغي لها في قيادة البشرية .

يذهب الأستاذ محمود شاكر فيما كتب إلى أن الطريق إلى تحقيق ذلك الأمر يكون من خلال انبعاث «رجل» من عامة الناس، يعاني معاناتهم ويتفهم مشكلاتهم ليرتفع فوق الواقع ويجدد للأمة مجدها .

يقول الأستاذ محمود في نصّ لا يحتاج إلى مزيد بيان في غرضه هذا: «إن هذا الإصلاح الآن موقوف على شئ واحد، على ظهور «الرجل» الذي ينبعث من زحام الشعب المسكين الفقير المظلوم يحمل في رجولته السراج الوهاج المشتعل من كل نواحيه ، الرجل المصبوب

في أجلاده من الثورة والعنف والإحساس بآلام الأمة كله ، وآلام الأجيال الصارخة من وراء البنيان الحي المتحرك على هذه الأرض الذي يسمى «الإنسان» [١] . ثم يبين الأستاذ أن «ظهور هذا الرجل ليس بالأمر الهيّن ، ولا إعداده بالذي يترك حتى يكون» . ثم يبيّن الأستاذ شاكر أن وسيلة ظهور مثل هذا الرجل لا تكون إلا بأن يمهّد الأدباء والعلماء والإصلاحيين في هذه الأمة لهذا الظهور بأن «يرموا بما يكتبون إلى إيقاظ كل كامنة من نار الهداية المحاربة التي لا تخمد ، . . . فهو يمشى بها في كل عمل ولو في نقل البريد من مكان إلى مكان. إذن فأول الإصلاح الإجتماعي هو إدماج عواطف الفرد في مصالح الجماعة». ثم يخلُصُ إلى أنّ تهيئة هذه الظروف الإجتماعية قمين بأن «يبعث الرجل الذي سوف يضيئ للحياة الإجتماعية سُدَف الجهل والبغي والإستبداد» [٢] .

فمذهب الأستاذ محمود إذن ينبني على أن الإصلاح موقوف على «رجل» يقود الشعب ، وهو مستلهم في هذا للمنهج الرباني في إرسال «رجل» نبي أو رسول إلى قومه ثم إن هذا الرجل – في غير حالة الرسول أو النبي – لينشأ من براعم ذلك الخليط المتجانس من النخبة العالية التي تتربى على أرفع المبادئ وأقوم الأخلاق.

والأستاذ سيد يذهب في هذا الأمر مذهباً آخر، إذ يرى أن الفرد الملهم ليس بحتمية تاريخية يتوقفُ عليها إنقاذ الأمة، بل على العكس من ذلك، فإن النجاة تتحقق بمجموع الأفراد ذوى المبادئ والأخلاق الذين يقوم علي جهدهم المجتمع المثالي. وفي هذا الصّدد يتحدث الأستاذ سيد عن تلك «الفئة» أو «الطليعة» التي تستعلي بالإيمان و»تقود البشرية» .

---

[١] مجلة الرسالة ، السنة الثامنة – عدد ٣٤٠ ، ١٩٤٠ ،تحت عنوان «الإصلاح الإجتماعي» ، عن كتاب «جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر» جمع الدكتور عادل سليمان جمال ، نشر مكتبة الخانجي ، ج١ص٢٥

[٢] المصدر السابق

يقول الأستاذ سيد: «لقد خرّجت هذه الدعوة جيلا من الناس – جيل الصحابة رضوان الله عليهم – جيلا مميزا في تاريخ الإسلام كله وفى تاريخ البشرية جميعه . ثم لم تعد تخرج هذا الطراز مرة أخرى . . نعم وُجد أفراد من ذلك الطراز على مدار التاريخ . ولكن لم يحدث قط أن تجمع مثل ذلك العدد الضخم ، في مكان واحد ، كما وقع في الفترة الأولى من حياة هذه الدعوة»[١].

وهذا الأمر - أمر هذه الفئة - هوما يجب أن يستلهمه المؤمنون إذ إن هذه الظاهرة « ذات أثر حاسم في منهج الدعوة واتجاهها» [٢]. وحقيقة أن الله سبحانه يرسل إلى البشرية رجلاً فرداً ليقودها من ظلماء الجاهلية إلى ضياء الحق لا دلالة لها على أن هذا هو المنهج الذي تسير عليه حتميات التقدم ، فإنه لو كان ذلك هو المنهج لكان وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم لازم لإنتشار الدعوة ، ولكان هذا أمر خارج عن نطاق القدرة البشرية إذ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم - بأبي هو وأمي ونفسي – بشر يموت كما يموت البشر ، والله سبحانه لا يكلف المؤمنين بالنهوض ويأمرهم بالإستعلاء ثم يحرمهم الأداة اللازمة لذلك النهوض.

يقول الأستاذ سيد: « لو كان وجود شخص رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتميا لقيام هذه الدعوة ، وإيتائها ثمراتها ، ما جعلها الله دعوة للناس كافة ، وما جعلها آخر رسالة ، وما وكل إليها أمر الناس في هذه الأرض ، إلى آخر الزمان . .» [٣] .

---

[١] المعالم ص ١١

[٢] معالم في الطريق ، الفصل الأول ص ١١

[٣] ولا نغفل هنا عن ذكر ما كتبه الدكتور جعفر شيخ إدريس مدّ الله في عمره في كتابه «نظرات في منهج العمل الإسلامي» عن هذا الموضوع وقد كان موفقا فيما كتب إلا في بعض النقاط التي تخصّ موضوع تعليقه على الأستاذ سيّد في أن الأمة الإسلامية إنقطع وجودها . .» فإن هذه النقطة تحتاج إلى مزيد من التحقيق.

إذن فإن أمر النهوض بالأمة موكول إلى الفئة المؤمنة ولا يرتبط بظهور رجل من الرجال ليخرج الناس من الظلام إلى النور .

قلنا إن الأستاذ سيد، إذن ، يرتقب ظهور تلك الفئة المستعلية بإيمانها، والتي يمكن أن تعلو حتى تقترب من جيل الصحابة الأبرار، وليس هناك ما يمنع ذلك. بينما يرجو الأستاذ محمود شاكر أن يظهر رجلا من بين الناس، يشعر بشعورهم ويألم لألمهم ويكون هو المنقذ المنتظر والأمل المرتقب.

والحق أنّ الشيخ جعفر شيخ إدريس - أطال الله عمره - لم يأت بدليل شاف على ما افترضه[١] من أنّ سيدا رحمة الله عليه يرى إمكان أن يأتي جيل مماثل لجيل الصحابة، بل إن كلّ ما ذكره الأستاذ سيد أنّ جيل الصحابة لم يتكرر في الواقع العملي، وأنّ غياب شخص رسول الله صلى الله عليه وسلّم لا يمكن أن يكون هو العنصر الأوحد في هذه الظاهرة، وهذه المقدمات لا يلزم عنها أنه يمكن أن ينشأ جيلا مماثلا للصحابة، وهو مالم يصرّح به الأستاذ سيد، بل أظن أن المقصود هو أن إيمان الصحابة واستعلائهم هو العنصر الحاسم في عدم تكرار جيلهم، ولكن مثل هذا الإيمان لا يمكن أن يتكرر، وبالفعل لم يتكرر ، لأنه مرتبط بما استقوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن لا يمتنع أن يخرج جيل قريب من أولئك المصطفين من الناس طالما أنّ الكتاب والسنة محفوظان الى يوم القيامة. ولتقرأ إن شئت فصل «جيل قرآني فريد» فلن تجد فيه كلمة واحدة يدّعي فيها المؤلف أن جيل الصحابة، الجيل المميز الفريد على حدّ قوله، يمكن أن يتكرر تكرر المثليّة ، وهذا هو مربط الفرس، المثلية ، ولكن تكرّر الجيل الذي يعلو على الأجيال ويكون من جيلٍ «أمثل» كما في حديث «ثم الأمثل فالأمثل» فهو ما لا يمتنع عقلا ولا شرعاً.

منهاجان ظاهرهما الإختلاف والتضاد ، إلا إنهما فيما أحسب، ليسا بهذا القدر من التباعد والتجافي، بل إنهما يتباعدا حتى نظنّ إنهما ضدان لا يلتقيان، ويتقاربا حتى نظن أنهما توأمان لا

[١] «معالم في منهج العمل الإسلامي»، الشيخ جعفر شيخ إدريس

يكادان يختلفان. وإليك شرح هذه الجملة بما فتح الله سبحانه عند التأمل في كلا المنهاجين، وفي شخصية صاحبيهما، إذ إن المنهج لا ينفصل عن صاحبه .

ومفتاح ذلك الأمر في أن «الرجل» و «الفئة» كما يسميها سيد رحمة الله عليه، هما خليط بعضه من بعض، فالرجل الذي يرتقب إمامنا محمود شاكر ظهوره لا يخرج إلا في فئة علت بنفسها وارتفعت بإيمانها حتى تنبت مثل هذا الرجل. ثم إنه يتميز بصفات شخصية كريمة تجعل محله القلب من تلك الفئة. وهو يعرف مشكلاتها ويعيش ثقافتها ويكتوى بآلامها فهي منه وهو منها. ومن كانت هذه صفاته لا يكون إلا قائدا مقدّما في هذه الجماعة، يفخر بها وتفخر به.

ثم إن الفئة التي تتربى على معالى الأخلاق والشرف والتضحية والكرامة، وكلّ ما يقدمه الإسلام لأبنائه من علوّ، لابد لها من قائد يقود مسيرتها، إذ إنه لا جماعة بلا أمير، كما إنه لا جسد بلا رأس، فحين تنضج الجماعة وتصل إلى مرتقاها الأعلى فلابد أن تتخذ لها رئيساً مقدماً تسلمه قيادها ليحدوها إلى ما شاء الله لها من قيادة البشرية إلى خيرها وفلاحها. ولا نحسب أن سيداً قصد إلى أنّ هذه الفئة التي يرتقب ظهورها لا تتخذ لها رئيساً قائداً، فإن هذا مما يخالف قواعد الإجتماع ومبادئ العقل جميعا.

إذن ، فإن المنهاجين يلتقيان، وإن ظهر إنهما يبدآن من نقطتين متباينتين. «الرجل» لا يظهر إلا من «فئةٍ» يصلُح أن تنبت فيها القيادة، و»الفئة» لا تتقدم دون أن تتخذ «رجلا» قائداً. وإفتعال «الرجل» لا يصلح أن تقوم عليه أمة، ومن هنا فإن أمتنا لا تزال جاهدة في سعيها إلى أن تجد الرجل المناسب لقيادتها، كما أن أمة لا ترتقي بنفسها حتى تتمخّض عن رجل صالح بكل معاني الصلاح، لن يكون من نصيبها أي تقدم أو فلاح.

ولهذا فإن أمتنا أمامها طريق شاق لتنشأ فيها فئةٌ ينشأ منها رجل، أو ينشأ فيها رجل يقود الفئة المستعلية، أيهما تختار، فهما أمران متحدان في المنتهى، وإن اختلفا في المبتدأ.

ثم إن المتأمل في معالم شخصية سيدٍ رحمة الله عليه، وتجربته في العمل الإسلامي التي أثمرت، على قصرها، أشجارا يافعة في العمل الإسلامي وأحدثت ظلالاً مباركة جنّبت الكثير من أبناء العمل الإسلامي لوافح الشرك وهجير البدع، وجدها قد اختلطت منذ بدايتها بتجربة «الإخوان المسلمون» التي كانت، ولا زالت ، تعيش منهج «الرجل» القائد الذي تمثلته في شخصية حسن البنا رحمة الله عليه، إلى حدّ يقرب من التقديس ويرفع مكانة الرجل إلى من لا يجوز عليه الخطأ أو المراجعة. ثم نجد سيداً وقد خالف الإخوان نظرياً وحركياً تمام المخالفة، ولم يقنع بما قدّموه من مناهج بعد رحيل القائد «الرجل»، وهذا مما لا شك فيه، كان له أثر حاسم على إختياره مذهباً يلقى بتبعة التقدم على عاتق «الفئة» المؤمنة لا على الرجل الفرد.

كذلك فإن الله سبحانه قيّض لسيد رحمه الله فئة من الرجال المخلصين الصابرين العاملين [١] ممن تتلمذوا له وأخذوا عنه ولازموه سنيه العجاف في السجن والحبس ، فرأي فيهم أملا منشودا ولواءاً معقوداً ، وكانت تلك الفئة [٢]، معه وبه، هي طليعة الفئة المؤمنة التي رأى حبال النجاة بها موصولة وبشائر الخير بنواصيها معقودة. ولا شك أنّ هذا التمازج بين الأستاذ وطلابه قد صاغ توجهاته، وهيأ له تبني هذا الإتجاه، فإن واقع الحال له قوة مؤثرة على الفكر الحركي وإتجاه النظر، وكأن حركة الفكر وفكر الحركة قد تمازجا لينشأ عنهما مذهب وليد، هو مذهب «الفئة المؤمنة» المرتقبة في حالتنا هذه.

ثم إذا تأمل الناظر في شخصية إمامنا وإمام العربية محمود شاكر، وجده قد تفرّد عن الأخلاط وابتعد جّلّ عمره عن الموافق والمخالف، ولزم بيته سنين عدداً، يعرف عنها

---

[١] منهم على سبيل المثال الشيخ عبد المجيد الشاذلي والشيخ مجدى عبد العزيز والشيخ أحمد عبد المجيد رحمهم الله جميعا، وكان كانوا من الأحياء وقت كتابة هذا البحث، تقبلهم الله في الصالحين.

[٢] وقد أسعدني الله سبحانه بأن قضيت سنوات من العمر رفيقاً لتلك الفئة وهو أمر أسأل الله أن يمهدّ في العمر حتى أدون منه ما بقي مما حفظته الذاكرة المتداعية

القاصي والداني، ولا مجال لسرد تفاصيلها. وهو مما لا شك فيه يقوّى إتجاه النظر إلى ذلك الفرد الذي تجتمع فيه كلّ ميّزات عصره ومحاسن أخلاق قومه، ما يؤهله لأن يكون القائد المقدم والسيد المطاع، خاصة إن كان صاحب هذا النظر هو من طبقة علّامتنا الإمام من حدة الذكاء وشدة النباهة وقوة النفس، فهو يتمثل هذا الرجل، في خلوته التي طال أمدها، ويرى فيه صورته إن اكتملت وهُيّأ لها أن تخرج إلى الناس لتنفعهم وتوجّههم لما فيه صلاحهم.

إذن فإن مذهب الرجلين هو قطعة من حياتهما، قد اختلطت بفكرهما، وتمازجت بتجربتهما العملية، فأنتجت ما رأيت من مذاهب يهتدى بها رجالات العمل الإسلامي في هذا العصر حين يرتبون لأمتهم ما يرتفع بها عن حضيض التخلف وبلاء التبعية.

نسأل الله أن يفسح لنا من العمر ما نتقصى فيه هذا المذهب في النظر إلى فكر الإئمة واستخراج مكنونات أصولهم فنربط الفكر وحركته بمعالم الشخصية وكُنْه النفس، وهو المذهب الذي ارتضيناه في كتابنا «مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم»[١] منذ قرابة ثلاثين عاما مضت.

رحم الله الإمامين، فإن الأمة قد فقدتهما في زمن - يعلم الله – هي أشد ما تكون حاجة إليهما.



[١] الأعمال الكاملة، د طارق عبد الحليم المجلد الأول ص ٣٣٢

القطبية .. والفكر التوحيدي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله صحبه وبعد

سألني أحد الأبناء الأحباء عن «القطبية»، ما هي، وما حقيقتها، وهل هي جماعة موجودة على الأرض، فإن كانت فما تاريخها؟

وحتى نجيب على هذا السؤال، يجب أن تعود بنا الذاكرة إلى فترة ما بعد إعدام الشهيد بإذن الله سيد قطب، في عام ١٩٦٦، ومحمد اسماعيل هواش وعبد الفتاح اسماعيل. وقد كان سيد رحمه الله على علاقة بعدد من الطلاب، خاصة طلاب الهندسة، يجتمع بهم فيدرسون عليه المعالم والظلال، وذلك في الفترة بين إطلاق سراحه بعد قضية ١٩٥٤ [١]، وبين إعادة محاكمته عام ١٩٦٦، وهي الفترة التي ترعرع فيها عمله الإسلاميّ الفكريّ العقائدي، وأخرج المعالم والظلال منقحاً. ثم خرج في عام ١٩٦٤، وفيها نشأت فكرة جماعة أطلقوا عليها جماعة ١٦٦٥، وكان على رأسها الأستاذ سيد، ومن طلابه عبد المجيد الشاذلي ومجدي عبد العزيز وأحمد عبد المجيد، ومصطفى الخضيري رحمهم الله جميعا، والشيخ ومحمد المأمون أطال الله عمره في الخير. وكان الشيخ الشاذلي قد تخرج من كلية العلوم - قسم كيمياء – عام ١٩٥٦، وكان له نشاط ديني مع جماعة الإخوان. حتى التقى بالشهيد رحمه الله، بعد أن تبلورت الخلافات العقدية بين الإخوان وبين الأستاذ سيد رحمه الله، ودارت رحى الصراع داخل سجن طرة بين الإخوان وعلى رأسهم مأمون الهضيبي، وبين تلامذة سيد قطب وعلى رأسهم منظرهم الشيخ الشاذليّ. وقد أنتج هذا الخلاف كتاب «دعاة لا قضاة» من جانب الإخوان، كما أنتج كتاب «حد الإسلام وحقيقة الإيمان» للشيخ الشاذليّ، وشتان بين الثرى والثريا!

أمّا عن إسم القطبية، فهو اسم أطلقته المخابرات على تلك الجماعة التي عملت معه بعد

[١] التي أعدم فيها من الإخوان العالم عبد القادر عودة ويوسف طلعت ومحمد خميس حميدة وغيرهم.

إطلاق سراحه عام ١٩٦٤، ومن حوكموا مع الاستاذ سيد، وغرضهم كما هو معروف من تلك التسميات، أن ينسبوا الفكر الذي يحملونه لشخص، لا للإسلام ذاته، كالوهابية.

وتلك الجماعة، لا تحمل فكراً غريبا ولا يختص به الأستاذ سيد، بل إن كلا من الأستاذ سيد، المنظر الأول في الاتجاه السنيّ في شرقنا العربي هذا القرن، في باب التوحيد والحاكمية، في الظلال والمعالم، أو الشيخ الشاذلي، وهو المنظر الثاني، الذي وضع للظلال والمعالم الأساس الأصوليّ وأرجعه لبنيات العقيدة السلفية بقوة وحجة، خاصة كتابه «حد الإسلام وحقيقة الإيمان»، بعد أن كانا يهاجمان من قبل الإخوان والنظام أن كتابيّ سيد رحمه الله، المعالم والظلال، هما كتابيّ أدب لا غير، لا يستندان إلى أدلة الشرع المُحكمة. ثم لم يأت من بعدهما من له أي بصمة في موضوع التوحيد، إلا النقل وإعادة الترتيب.

وهذا الفكر، هو الامتداد الطبيعي لدعوة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن عبد الهادي وابن رجب، وقبلهما أعلام السنة في القرون الثلاثة الأولى. كما إنه خرج من ذات المّعين الذي خرجت منه أعمال الإمام المجدد أبو الأعلى المودودي، صاحب السبق في تدوين معالم التوحيد وتجديد رسومه قبل الأستاذ سيد، في القارة الهندية. فليس هناك قطبية بمعنى الفكر، ولا قطبية بمعنى الحركة، بل كانت، واستمرت بعد إطلاق سراح الشيخ الشاذلي رحمه الله وإخوانه، وتأسيس ما عُرف بجماعة إحياء الأمة.

وقد عاشرت الشيخ الحبيب الشاذلي، والحبيب مجدي عبد العزيز رحمهما الله في عام ١٩٧٦ عشرة قريبة متواصلة، كما التقيت بغالب إخوانهم في مناسبات متعددة بعدها، ولا زلت على اتصال بالحبيب الشيخ محمد المأمون أطال الله عمره. ولكن علاقتي بالشيخ الشاذلي والشيخ مجدي عبد العزيز، كانت علاقة خاصة جداً، وحميمة جداً. قضينا عدة سنوات بحثا ودراسة ومناظرة، في مدينة نصر، نلتقي كل أسبوع مرات لعدة ساعات، وكان

لي بعض الأحباب الزملاء، منهم الشيخ محمد عبد الهادي المصري، وغيره. وقد دونت كتاب «الجواب المفيد في حكم جاهل التوحيد»[١] عام ١٩٧٨، وكتاب «فتح المنّان في بيان حقيقة الإيمان»[٢] عام ١٩٧٩، ولم يرهما الشيخ الشاذلي حيث سافر إلى السعودية قبل صدورهما، على ما تسعف به ذاكرة ابن السبعين من العمر. وكنت على اتصال تليفوني به طوال فترة خروجي من مصر عقب أحداث السادات.

وقد كان الشيخ الشاذلي رحمه الله يقول «الشيخ أحمد عبد السميع هو قلبي، والشيخ طارق عبد الحليم هو عقلي». وهذا قول أفخر به كثيراً[٣].

الحق أن هذه الجماعة التي وصمها النظام والإخوان بالقطبية، هي الرعيل الثاني في

[١] وله طبعات متعددة، كما يجده القارئ على موقعي https://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/72839 كما سيصدر إن شاء الله في المجلد السادس من الأعمال الكاملة للعبد الضعيف إن شاء الله.

[٢] وقد كبع عشرات المرات، انظر مجموعة العمال الكاملة د طارق عبد الحليم المجلد الأول ص

[٣] إلا أن البعض، ممن لم يعرف حقيقة علاقتنا وما كان بيننا في تلك الفترة، نسبني إلى تلامذة الشيخ رحمه الله، وهو ما أعتز وأفخر به، لكن الأمر لم يكن على هذا الوضع حقيقة، فقد كنت وقتها في الثلاثين من العمر، فكان الأخ الأكبر لنا. وقد كنت، والشيخ عبد الهادي قد عملنا معا كثيرا لتكوين اتجاها عقدياً مبنيا على فكر شيخ الإسلام والمودودي ومحمد بن عبد الوهاب وسيد قطب، قبل أن نلتقى بالشيخ الشاذلي رحمه الله، وكان يُطلَق علينا «قطبيو مدينة نصر» وهو ما أطلقته علينا الإخوان كذلك خاصة، بعد أن أصدرتُ كتاب الجواب المفيد، ووصمونا بالتكفيريين كعادتهم. وقد كان أثر لقائنا بالشيخ الشاذلي في قولبة هذا الاتجاه قويا بحيث صار خارجا من مشكاة واحدة، أثراً كبيرا وفضله علينا عميما ولا شك، وقد استفدت كثيرا من كتبه وحديثه، ومكنني ذلك من مراجعة الموافقات والاعتصام، وأصول الفقه عامة بعين أبصر وأخبر بمواضع النظر. وقد شرحت وأضفت على بعض ما كتب الشيخ من قواعد في «حدّ الإسلام» في مجموعة أبحاث أسميتها «أبحاث في التوحيد» لتكون دروسا تعليمية للدعاة خاصة. كما نسب البعض بالخطأ كتابي «الجواب المفيد» للشيخ الشاذلي، لكنه أنكره علناً، وليس في ثبت كتبه أصلاً. كما حسب البعض أن كتابي «فتح المنان في بيان حقيقة الإيمان» من وضع الشيخ الشاذلي، وهو خطأ محضٌ، لاشتباه العنوانين في كلمة حقيقة الإيمان. وهو لم ير كتابي إلا بعد سنوات عدة من إصداره، لكن كما بينت، المشكاة واحدة.

عملية إنشاء الفكر التوحيديّ وترسيخه، بعد أن وضع أسسه من قبلهم الرعيل الأول في القرن الماضي سيد قطب والمودودي بالذات ثم فضل رشيد رضا، وما دونه شراح كتاب التوحيد لمحمد ابن عبد الوهاب، بناء على كتب السلف من أهل السنة الجماعة، وبصمة الشيخين العلّامتين أحمد ومحمود شاكر. وكان الشيخ الشاذلي رأس الرعيل الثاني هو من أصل هذا الفكر ووصله بالأصول، وهو عمل تجديدي لم يُسبق اليه. وليس لأحد جاء بعده أيّ تجديد في هذا الباب «التوحيد» فكلهم عيال على ما كتب الرعيل الأول، ثم ليس منهم من حمل تجديد الشيخ الشاذلي كما حمله العبد الفقير من بعده. إذ كلّ من كتب فيه من بعد، فإنما هو في صيغة دراسية، ونقولات من كتب السلف وكتب الرعيل الأول الذين ذكرنا. لذلك تجد أن كبار من له بصمة في الفكر الإسلاميّ بعد الرعيل الأول لم يكتبوا في موضوع التحاكم، كتابات منفصلة، إلا خلال أبحاث معينة تستلزم قدراً من ذكر الموضوع، مثل ما كتب العلامة رفاعي سرور والشيخ الحكيم د أيمن الظواهري، فليس لهم كتاب محدد في موضوع التوحيد. فالشيخان لم يكونا ناقلين، بل صائغين ناقدين. ومع الأسف لا يعرف أبناء الحركة الإسلامية قليلا ولا كثيرا عن هذا الرعيل الذي حمل مهمة تأسيس وترسيخ وتقعيد وتأصيل الفكرة التوحيدية بعد الهجمة العلمانية عقب الحرب العالمية الأولى، فوقفوا لها بالمرصاد. إنما اقتصر أبناء هذا الجيل، خاصة خارج مصر، على من أعاد كتابات ونقول في موضوع التوحيد، دون تجديد فيها، إذ بعدما كتب أبناء الرعيل الأول، وأصل وقعّد أبناء الرعيل الثاني من جيل الأسماء التي ذكرت في الستينيات والسبعينيات، لم يبق في هذا الأمر «التوحيد» وجهة تجديد لأحد. لكن جهل الأجيال التي تبعت الرعيل الثاني بتاريخ الحركة ككُل، جعلهم محدوي النظر، ينسبون الفضل لغير أهله في كثير من الأمور.

ومن المهم هنا، في هذه الحديث المتعلق بالتوحيد ودراسته، أن نذكر أمراً يتعلق بالسنن وبدورة التاريخ. فإن التوحيد كما هو معلوم، دين الأنبياء جميعا، ثم هو الركن الأساس في دين الإسلام، بل هو دين الإسلام مجملاً. فترى القرآن نزل به مفصلاً والسنة

بينته وشرحت مجمله. ثم استقر تطبيق التوحيد في القرن الأول، وبعد إقامة دولة الخلافة الإسلامية، وتركّز الاهتمام بجمع الحديث الشريف. ثم حين بدأت الهجمة على توحيد الربوبية، في منتصف القرن الثاني، انتعش الردّ على الفلسفات الواردة والتوجه الاعتزاليّ المستحدث. لكن لم يكن كبير اهتمام بقضية توحيد العبادة والتحاكم من حيث استقرارها ورسوخها. واستمر ذلك حتى جاء التتار، وجاءت معهم فتنة الحكم بالياسق وبغير ما أنزل الله، فكان رد فعل اهل السنة متمثلا في كتب ابن تيمية وابن القيم وتلامذتهما، في باب توحيد العبادة والتحاكم أساساً. كما استمر ردّهم على أهل البدع في الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية. وبعد أن انزاح كابوس التتار ودخلوا في الإسلام، توارت قضية التحاكم مرة أخرى من الكتابات السنية، حتى عادت إلى السطح مرة ثانية، في عهد الإمام محمد ابن عبد الوهاب بجزيرة العرب، فتركز تجديده على توحيد العبادة من الناحية الشعائرية أصلاً، والشرائعية فرعاً، حيث كان الشرك في الشعائر على أيامه في الجزيرة هو الهمّ الأول للموحدين. ثم برزت قصية توحيد العبادة في جانبها التشريعيّ كأقوى ما ظهرت في تاريخ الإسلام منذ نزول القرآن، عقب الاحتلال الاستعماري لبلدان الشرق الأوسط، وتغيير مرجعيات الحكم إلى القوانين الوضعية، فبدأ من لقّبْتهم هنا بعلماء الرعيل الأول في القرن الماضي، عملهم في بيان توحيد الحاكمية والعبادة. فتاريخ التدوين في بابيّ التوحيد الربوبية والعبادة كالمنحنى، تراه يعلو في جانب التحاكم في فترات التغيير التشريعيّ كأيام التتار ثم أيام العلمانية، وتراه عالياً طوال تاريخنا من حيث استمرت البدع النظرية كالاعتزال والإرجاء والتصوف مستمرة على الدوام.

ففي هذا الشأن، بيان التوحيد، ليس هناك، بعد حلقتي أبناء الرعيلين في عصرنا الحديث، حلقة ثالثة برزت وقدمت جديداً بعد تأصيل وتقعيد الشيخ الشاذلي لما دوّن أبناء الرعيل الأول من الأعلام. وما كتبه البعض من بعد، ما هو إلا إعادة عرض ونقل لنصوص وآيات التوحيد مما دوّن الرعيل الأول من الأعلام.

هذا بعض مما في صندوق الذكريات ... رزقنا الله الإخلاص في طاعته.

والله المستعان ..

د طارق عبد الحليم

١ صفر ١٤٣٧ – ٢ نوفمبر ٢٠١٦



سيد قطب ومجلة «الإسلاميون»

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

ليس من عادتي التعرض لصغار الكتاب، من ناشئة عصر النت، إذ ما أكثرهم اليوم، وما أجهل أكثريتهم من الأشبار والأفتار!. فمن العبث وضياع الوقت أن نبل جهدا في تتبع تلك الفقاعات المتطايرة، تريد أن تكون جزءاً من تركيبة الجو الإسلاميّ، فيفقأها الضغط، أولا بأول.

لكن، يأتيني على البريد الألكتروني نشرة من مجلة «الإسلاميون»، وهي مجلة، كما قلت سابقا، إخوانية الروح والمنهج، لا يكتب فيها إلا من طُبع، أو تطبّع بالفكر الإخواني. فرأيتها تستكتب رجلا اسمه شريف طه. والمعذرة في إنني لا أعرف عن الرجل شيئا، أفقيه هو، أم أصوليّ، أو صاحب حديث، أم متخصص في السيرة النبوية أو التاريخ أو الفرق الإسلامية! إنما وجدته «ناقدا هزيلا متهافتا جدا» من الدرجة الخامسة، لفكر سيد قطب رحمه الله.

وبالبحث السريع، وجدته من خبثاء حزب الزور، وأتباع برهامي، ممن ارتدوا على أدبارهم من وراء السيسي! ويكفي معرفة أن هذا الفقاعة (شكلا وموضوعاً) قد شكر محمد إبراهيم سفاح رابعة والنهضة على قتل أربعة آلاف مسلم ومسلمة، رجالا وأطفالاً، لينتصر للسيسي!

والأعجب أن إعلام الملحد السيسي يتهم أبناء رابعة والنهضة بأنهم إخوان، بينما هذا الفقاعة الذاهلة عن دين الله، يمدح القرضاوي رأس الإخوان الشرقيّ، ويكتب في مجلة إخوانية .. جهل وتناقض وخبث ونفاق أكبر ليس له مثيل ..

هل يستحق هذا المخلوق أن نتتبع ما يكتب بنقد؟ لا، فإنه أقل قيمة من أن نوجه إليه نظر، إلا بالتقريع. فهو يأخذ على معلم سيد سيده، سيد قطب رحمه الله، أنه يكفّر الناس، بينما لا يستحي هو أن يرى قتل الآلاف من الأبرياء، المستمر حتى اليوم، إلا مما يُشكر لإلهه

السيسي، لعنهما الله معا ...

هؤلاء، من قامة سيد قطب رحمه الله، كدابة الأرض من سيدنا سليمان، لم يجدوا متنفسا ينقدونه إلا بعد موته .. لكن الرجل أكبر من أن تمسه دواب الأرض الزاحفة البرهامية المنكرة لحاكمية الله على البشر، الراضية بالحاكم الطاغوت الذي يفرض أحكام البشر، المشجعة له والداعمة لمذهبه .. فبعدا للقوم الكافرين.

د طارق عبد الحليم



سيد قطب والقرضاوي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

الشيخ يوسف القرضاوي شيخ جليل له مكانته من العلم والدعوة في أيامنا هذه[١]، خاصة بعد أن رحل الكبار من أمثال الشيخ شاكر وغيره من قبله من أمثال الشنقيطي والدوسري وغيرهما من العلماء. ولكن الشيخ القرضاوي كغيره من العلماء متأثر بخلفيته العلمية وبالبيئة الدعوية الإخوانية التي تربى فيها، وكان لها أكبر الأثر في صياغة فكره، ودخول شبه الإرجاء عليه. ولسنا بصدد الحديث المفصّل عن القرضاوى، ما له وما عليه، فإن له الكثير من الفضل، كما أن له الكثير من الزلات التي من آخرها إباحة القروض الربوية للمقيمين بالخارج لشراء منازل سكنية، غير ترخصه في الكثير من المحرمات حتى عُرف عنه من قديم أنه صاحب كتاب «الحلال والحلال» في الإسلام! وهذا ثمن يدفعه من يتعرض للجمهور على شاشات التلفاز ويصبح من الشخصيات العامة، فيفتى بما يرضى الناس ويأمن أن يتقبلوه وأن ترضى به حكوماتهم. وهذه حقيقة يعترف بها القرضاوي نفسه حين يقارن نفسه بعلماء أجلاّء ممن ارتقوا بأنفسهم عن مثل هذه الترخصات من أمثال الشيخ الجليل عالم الإقتصاد الفقيه على السالوس رئيس القرضاوى في مجمع الفقه الإسلامي بقطر.

ومما تعرض له القرضاوي فكر سيد قطب رحمة الله عليه، وقد نقده بفكر إخواني إرجائي محض، في سلسلة بعنوان «مع الأستاذ سيد قطب: محطات تاريخية ووقفات نقدية»! انظر إلى قوله «الأستاذ» إذ يستكثر على صاحب أضخم تفسير، لا هو ولا عشرة مثله معه دونوا مثل الظلال، أن يكون الرجل شيخاً! وبالطبع، تلقف هذا الكلام من طلبة الإرجاء ومحبيه من عديمي العلم وصغار الدعاة ومرضى الإرجاء، فراحوا يروجونه على

[١] كان ذلك منذ أعوام، قبل أن يعتزل الشيخ القرضاوي، ويتولى أحمد الريسوني محلّه، فإذا به طامة أشدّ وأنكى والله المستعان.

صفحات مواقع يقرأها الناس، ويرون اسم القرضاوي، الشهير بضيف الجزيرة، عليها فيسبق إلى عقولهم التصديق بها أو بالأحرى عليها، لمكانة اسم القرضاوى في هذه الأيام، ولقلة الحصيلة العلمية القادرة على النقد والنظر.

وإننا نرى أن سيدا رحمة الله عليه كان من أشفّ الناس في عصرنا هذا في فهم التوحيد وأخلصهم في تأدية معناه، مرافقا في ذلك السيد المودودي والشيخ الدوسري وغيرهم من أجلة علماء السنة في عصرنا، ممن حصّنهم الله ضد جراثيم الإرجاء، ومن قبلهم الإمام محمد عبد الوهاب، ومن قبلهما شيوخ السنة والجماعة كابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن رجب ثم سابقيهم في العصور الثلاثة الفضلى، إلا إننا نرى أن سيداً قد جاوز الصواب في بعض ما كتب، قبل أن يفئ ويرجع عن زلاته، إمّا مدفوعاً بقلم الأديب الذي يتقدم عنده اللفظ لتأدية المعنى وإن شطّ عن القصد، أو لخلل في فهم بعض التنزيل، كما حدث في تعليقه على بعض آيات الصفات، ونحن نصدر في تأييدنا ومخالفتنا لسيد عن قناعة عميقة حقيقية، ولإيمان صادق بمقولة أن «كلٌّ يُؤخذ من كلامه ويترك إلا صاحب المقام النبوي عليه أفضل الصلاة والسلام»، مخالفين بذلك أدعياء العلم من أتباع القرضاوي أو الألباني أو غيرهم ممن يدعى الإنصاف وعدم التقليد ظاهراً، وهو هالك فيه حقيقة.، بل هم أول من تنطبق عليهم تلك القاعدة الحكيمة، فيُترك كلامهم عن الشيخ سيد رحمه الله.

وقد داء تعليقي التالي، حيث وضعت نص القرضاوي بين قوسين، وجعلت تحته خطاً لتمييزه، ثم نقلت أحمد ومحمود شاكر بالخط الثقيل لأهميتها :

«وفي هذه الفترة بدأ سيد قطب يقترب من الإخوان، ويرى بعينيه نشاطهم والتزامهم، وما بينهم من رباط وثيق، وإخاء عميق، وما يتميز به كثير منهم من وعي دقيق، وشعور رقيق، وكان المرشد العام الأستاذ حسن الهضيبي يصطحبه معه في رحلاته، ليرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، ويحكم بعد ذلك بعقله، ويختار لنفسه.

وقد اختار بملء إرادته الانضمام إلى دعوة الإخوان، ولا سيما بعد أن خاب ظنه في رجال

الثورة، الذين علق عليهم في أول الأمر آمالا وأحلاما، فتبخرت وضاعت، كما تبخرت أحلام الشاعر العاشق الذي قال:

على الماء خانته فروج الأصابع

كأني من ليلي الغداة بقابضٍ

وأحيل القارئ إلى ما ذكرته في الجزء السابق عن سيد قطب وانضمامه إلى الإخوان، وتسلمه رئاسة قسم نشر الدعوة في الجماعة، ورئاسة تحرير مجلتهم، إلى أن دخل معهم في محاكمات محكمة الشعب وحكم عليه بعشر سنوات.»

مما لا شك فيه أن سيدا بعد أن كان من الأدباء الأفذاذ وإن لم يتخذ الإسلام مرجعا له بعد، كان قد بدأ عملية التحول بعد أن انفتحت عيناه على حقيقة الإسلام وعظمته، وقد حدث هذا تدريجيا وبشكل عفوي وكانت الإخوان هي الجماعة الوحيدة على الساحة التي تعرض الإسلام كبديل سواء صحت توجهاتها كلها وكانت الأمثل أو مع تجاوزاتها التي رآها من بعد واختار بعد التعمق في الإسلام والتحلي بمعاني التوحيد أن ينفصل عنها. والشيخ القرضاوي يصور سيد أنه بعد أن انتمى إلى الإخوان ووصل إلى ذروة العمل الجهاديّ بهذا الإنتساب قد رجع القهقري وانفصل عن الإخوان لتغير غير مرضٍ منه في الفكر الذي دفعه إلى التكفير وما إلى ذلك مما سأعرض له لاحقا، والحق أن سيدا رحمة الله عليه دخل في الإخوان كمرحلة من مراحل رقيه الفكري أولا ولأنه لم يكن هناك بديل لها ثانيا، ثم استمر في الترقي إلى أن أدرك ما عند الإخوان من خلل عقائدي وفكر ارجائي، فانفصل عنها وتعداها إلى مرحلة جديدة كما سنبين بعد. فسيد تحرك من أسفل إلى أعلى ثم إلى أعلى الأعلى، لا كما يصور القرضاوي أنه تحرك من أسفل إلى أعلى الأعلى ثم انقرض إلى الأسفل مرة أخرى!

«وهذه مرحلة جديدة تطور إليها فكر سيد قطب، يمكن أن نسميها «مرحلة الثورة

الإسلامية»، الثورة على كل «الحكومات الإسلامية»، أو التي تدعي أنها إسلامية، والثورة على كل «المجتمعات الإسلامية» أو التي تدعي أنها إسلامية، فالحقيقة في نظر سيد قطب أن كل المجتمعات القائمة في الأرض أصبحت مجتمعات جاهلية.

تكون هذا الفكر الثوري الرافض لكل من حوله وما حوله، والذي ينضح بتكفير المجتمع، وتكفير الناس عامة

سبحان الله العظيم! كذب وافتراء على الرجل! فهو لم يكفّر الناس عامة في أي نص من نصوصه وإنما هي استخراجات مريضة مغرضة تريد أن تسلب الرجل مكانته لضآلة حجمها بالنسبة اليه رغم اسباغ صورة الموضوعية والإنصاف في مثل قولها بأنه «وهو على كل حال مخلص في توجهه، مأجور في اجتهاده، أصاب أم أخطأ، ما دام الإسلام مرجعه، والإسلام منطلقه، والإسلام هدفه»!!

إن سيدا – لمن أراد أن يتعلم – إنما قال إن المجتمعات الحالية التي لا تحكم بشرع الله هي مجتمعات جاهلية وأن الناس الذين يرضون بهذا الوضع ويشجعونه ويعملون تحت رايته لتحقيق أغراضه إنما هم خارجين عن الولاء لله كافرين بشرعه، وهذا كله صحيح لا شائبة فيه فإن قاعدة التحاكم لله تفرض أن الشرع في حياة المجتمع المسلم يجب أن يستمد من الله سبحانه، أو هي الجاهلية لا ثالث لهما، وأن من يسلم روحه ونفسه لأمثال الحاكمين بغير شرعه عنادا واستكبارا، ويعمل بعملهم وينصرهم على الدعاة إلى الله، هو من نحلتهم، ومن حذا حذوهم فهو منهم، وآيات الولاء في القرآن ناضحة بهذا المعنى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ولكن سيداً لم يكفر الأفراد الأعيان من هذه الأمة فردا فردا وحاشاه، وعلى من قال بهذا أن لا يلقى بالقول على عواهنه، بل أم يأتي بنصوص محكمة لا تحتمل الشبهة من كلام الرجل تنص على التكفير العام. وقد تابع القرضاوي على مثل هذا القول لفيف من أنصار الإسلام «الشيوعيّ» أو الليبرالي من أمثال د. محمد

عمارة الذي رمى سيداً بنفس التهم من قبل.

ثم نكمل نقد القرضاوي:

«لأنهم «أسقطوا حاكمية الله تعالى» ورضوا بغيره حكما، واحتكموا إلى أنظمة بشرية، وقوانين وضعية، وقيم أرضية، واستوردوا الفلسفات والمناهج التربوية والثقافية والإعلامية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية وغيرها من غير المصادر الإسلامية، ومن خارج مجتمعات الإسلام.. فبماذا يوصف هؤلاء إلا بالردة عن دين الإسلام؟!»

ماذا في هذا الكلام ما يستدعي علامات التعجب، إنما هي شبه الإرجاء دخلت على القرضاوي كما دخلت على بقية المنتسبين للإخوان من أن «القدرة التامة والإرادة الجازمة قد لا يتبعها عمل» كما قال بن تيمية. فإن العمل بالشريعة لمن هو قادر على العمل بها ومريد للعمل بها هو أمر لا يشك فيه إلا مرجئ يؤخر العمل عن الإيمان، وهو موضوع يطول شرحه في هذا الموضع. ولكنه مُبرَّر بأن الإخوان، كما أثبتنا في بعض ما كتبنا، أنهم مرجئة العصر الحديث. لذلك فالشيخ يعجب من أن من هذا حاله كيف يقول عنه سيد أنه مرتد عن الإسلام، سبحانك اللهم! وها هو نص ما قال أحمد شاكر في تفسير سورة المائدة في تفسير قوله تعالى «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأؤلئك هم الكافرون»، وعن أثر بن عباس وأبي مجلز التابعي أنه كفر دون كفر، أنقله هنا للفائدة:

قال أحمد شاكر: وهذه الآثار - عن ابن عباس - مما يلعب به المضللون في عصرنا هذا من المنتسبين للعلم ومن غيرهم من الجرآء على الدين يجعلونها عذرا أو إباحة للقوانين الوثنية الموضوعة التي ضربت على بلاد الإسلام. وهناك أثر عن أبي مجلز في جدال الإباضية الخوارج إياه فيما يصنع بعض الأمراء من الجور فيحكمون في بعض قضائهم بما يخالف الشريعة عمدا إلى الهوى، أو جهلا بالحكم. والخوارج من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة كافر فهم يجادلون يريدون من أبي مجلز أن يوافقهم على ما يرون من كفر هؤلاء الأمراء ليكون

لهم عذراً فيما يرون من الخروج بالسيف. وهذان الأثران رواهما الطبري وكتب عليهما أخي السيد محمود شاكر تعليقا نفيسا جدا فرأيت أن أثبت هنا نص الرواية الأولى للطبري ثم تعليق أخي على الروايتين.

«فروى الطبري عن عمران بن حيدر قال: أتى أبي مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس فقالوا: يا أبا مجلز أرأيت قول الله تعالى: ومن لم يحكم بما أنزل الله فألئك هم الكافرون؟ أحق هو؟ قال:نعم، قالوا: ومن لم يحكم بما أنزل الله فألئك هم الظالمون، أحق هو؟ قال: نعم، قالوا: ومن لم يحكم بما أنزل الله فألئك هم الفاسقون، أحق هو؟ قال: نعم، قالوا: يا أبا مجلز، فيحكم هؤلاء بما أنزل الله (يريدون الأمراء الظالمين من بني أمية) قال: هو دينهم الذي يدينون به وبه يقولون، واليه يدعون، فإن تركوا منه شيئا عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً، فقالوا لا والله ولكنك تفرق! قال: أنتم أولى بهذا مني (يعني أنهم هم الخارجين لا هو) لا أرى، وأنتكم ترون هذا ولا تحرّجون» فكتب أخي السيد محمود بمناسبة هذين النصين:

الله إني أبرأ إليك من الضلالة، وبعد، فإن أهل الريب والفتن ممن تصدوا للكلام في زماننا هذا، قد تلمس المعذرة لأهل السلطان في ترك الحكم بما أنزل الله وفي القضاء في الدماء والأموال والأعراض بغير شريعة الله التي أنزلها في كتابه وفي اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة في بلاد الإسلام. فلما وقف على هذين الخبرين، اتخذهما رأيا يرى به صواب القضاء في الدماء والأموال والأعراض بغير ما أنزل الله وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تكفر الراضي بها والعامل عليها. والناظر في هذين الخبرين لا محيص له من معرفة السائل والمسئول، فأبو مجلز (لاحق بن حميد الشيباني الدوسي) تابعي ثقة وكان يحب عليا وكان قوم أبي مجلز وهم بنو شيبان من شيعة علي يوم الجمل وصفين، فلما كان أمر الحكمين يوم صفين، واعتزلت الخوارج، كان فيمن خرج على علي طائفة من بني شيبان ومن بني سدوس بن شيبان بن ذهل، وهؤلاء الذين سألوا أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس وهم نفر من الإباضية..... هم أتباع عبد الله بن إباض من الحرورية (الخوارج) الذي

قال: إن من خالف الخوارج كافر ليس بمشرك! فخالف أصحابه ...

ومن البين أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء لأنهم في معسكر السلكان، ولأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عنه، ولذلك قال في الأثر الأول: فإن هم تركوا شيئا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبا، وقال في الخبر الثاني: إنهم يعملون بما يعملون وهم يعلمون أنهم مذنبون»

وإذن، فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعي زماننا من القضاء في الدماء والأموال والأعراض بقانون مخالف لغير شرع الإسلام، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام، بالإحتكام إلى حكم غير الله في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم فهذا الفعل إعراض عن حكم الله ورغبة عن دينه وإيثار لأحكام الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي له.

والذي نحن فيه اليوم، هو هجر لأحكام الله عامة دون استثناء وإيثار أحكام غير حكمه، في كتابه وسنة نبيه، وتعطيل لكل ما في شريعة الله ....فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سنّ حاكما حكما جعله شريعة ملزمة للقضاء بها ..

وأما أن يكون كان في زمان ابي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء في أمر جاحدا لحكم الله أو مؤثرا لأحكام أها الكفر على أهل الإسلام (وهي حال اليوم من آثر أحكام الكفر عليأحكام الإسلام) فذلك لم يكن قط، فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه، فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما في بابها، وصرفها عن معناها، رغبة في نصرة السلطان، أو احتيالا على تسويغ الحكم بما أنزل الله وفرض على عباده، فحكمه في الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله، أن يستتاب، فإن أصر وكابر وجحد حكم الله ورضي بتبديل الأحكام، فحكم الكافر المصر على كفره معروغ لأهل هذا الدين» أحمد محمود شاكر» انتهى نص أحمد ومحمود شاكر جزاهما الله خيرا عمياً والجاهل بقدرهما عليه أن يسأل عنهما فهما علمين من أعلام الحديث واللغة العربية والتفسير لا يجاريهما أحد من أهل

هذا الزمان ولا يكاد القرضاوي أن يقرض بعلمه طرف علومها.

وانظر رحمك الله فهو يقول باستتابة من يتخذ هذه الآثار لنصرة السلطان ممن يدعي العلم (من أمثال بعض الجماعات الإسلامية في كتاب «دعاة لا قضاة» إذ استشهدوا بهذه الآثار على الوجه الذي ذكره محمود شاكر) لا باستتابة السلطان إذ لا محل لإستتابته وحكمه معروف لمن له عقل.» تفسير الطبري بتحقيق الشيخين، تفسير سورة المائدة آية ٤٤.

«بل الواقع عنده أنهم لم يدخلوا الإسلام قط حتى يحكم عليهم بالردة، إن دخول الإسلام إنما هو النطق بالشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وهم لم يفهموا معنى هذه الشهادة، لم يفهموا أن «لا إله إلا الله» منهج حياة للمسلم، تميزه عن غيره من أصحاب الجاهليات المختلفة، ممن يعتبرهم الناس أهل العلم والحضارة.

أقول: تكون هذا الفكر الثوري الرافض، داخل السجن، وخصوصا بعد أن أعلنت مصر وزعيمها عبدا لناصر، عن ضرورة التحول الاشتراكي، وحتمية الحل الاشتراكي، وصدر «الميثاق» الذي سماه بعضهم «قرآن الثورة»! وبعد الاقتراب المصري السوفيتي، ومصالحة الشيوعيين، ووثوبهم على أجهزة الإعلام والثقافة والأدب والفكر، ومحاولتهم تغيير وجه مصر الإسلامي التاريخي.»

هذا إغراض وتلميح بما رماه به خصومه من ملحدي مصر من أن آرائه «المتطرفة» مرجعها إلى العذاب الذى رآه على يد النظام، لا إن آرائه تحمل في ذاتها حقاً! حيلة رخيصة للتخلص من مواجهة الموضوع ذاته، بتحويل النظر إلى ظروف صاحبه الصعبة وإلقاء ظلالا للشك على موضوعية الآراء من هذا الباب، ولكن هيهات هيهات، فهناك من هم متيقظون لهذه التكتيكات المغرضة، فأين النقد الموضوعي للجمل التي ذكرت يا شيخ قرضاوي؟ أين دليلك من الكتاب والسنة على عدم صحتها (عدا الحديث عن ظروف سيد في السجن وتجربته وعن ظلم عبد الناصر والثورة!!!)؟

هنالك رأى سيد قطب أن الكفر قد كشف اللثام عن نفسه، وأنه لم يعد في حاجة إلى أن يخفيه بأغطية وشعارات لإسكات الجماهير، وتضليل العوام.

«هنالك رأى أن يخوض المعركة وحده، راكبا أو راجلا، حاملا سيفه «ولا سيف له غير القلم» لقتال خصومه، وما أكثرهم. سيقاتل الملاحدة الجاحدين، ويقاتل المشركين الوثنيين، ويقاتل أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ويقاتل المسلمين أيضا، الذين اغتالتهم الجاهلية، فعاشوا مسلمين بلا إسلام!

وأنا برغم إعجابي بذكاء سيد قطب ونبوغه وتفوقه، وبرغم حبي وتقديري الكبيرين له، وبرغم إيماني بإخلاصه وتجرده فيما وصل إليه من فكر، نتيجة اجتهاد وإعمال فكر أخالفه في جملة توجهاته الفكرية الجديدة، التي خالف فيها سيد قطب الجديد سيد قطب القديم.. وعارض فيها سيد قطب الثائر الرافض سيد قطب الداعية المسالم، أو سيد قطب صاحب «العدالة» سيد قطب صاحب «المعالم».

ولقد ناقشت المفكر الشهيد في بعض كتبي في بعض أفكاره الأساسية، وإن لامني بعض الإخوة على ذلك، ولكني في الواقع، كتبت ما كتبت وناقشت ما ناقشت، من باب النصيحة في الدين، والإعذار إلى الله، وبيان ما أعتقد أنه الحق، وإلا كنت ممن كتم العلم، أو جامل في الحق، أو داهن في الدين، أو آثر رضا الأشخاص على رضا الله تبارك وتعالى.

ونحن نؤمن بأنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل أحد غيره يؤخذ من كلامه ويرد عليه، وأن ليس في العلم كبير، وأن خطأ العالم لا ينقص من قدره، إذا توافرت النية الصالحة، والاجتهاد من أهله، وأن المجتهد المخطئ معذور، بل مأجور أجرا واحدا، كما في الحديث الشريف، سواء كان خطؤه في المسائل العلمية أو العملية، الأصولية أم الفروعية، كما حقق ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم وغيرهما.

وأخطر ما تحتويه التوجهات الجديدة في هذه المرحلة لسيد قطب، هو ركونه إلى فكرة «التكفير» والتوسع فيه، بحيث يفهم قارئه من ظاهر كلامه في مواضع كثيرة ومتفرقة من «الظلال» ومما أفرغه في كتابه «معالم في الطريق» أن المجتمعات كلها قد أصبحت «جاهلية». وهو لا يقصد بـ «الجاهلية» جاهلية العمل والسلوك فقط، بل «جاهلية العقيدة» إنما الشرك والكفر بالله، حيث لم ترضَ بحاكميته تعالى، وأشركت معه آلهة أخرى، استوردت من عندهم الأنظمة والقوانين، والقيم والموازين، والأفكار والمفاهيم، واستبدلوا بها شريعة الله، وأحكام كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.»

وماذا في هذا من خلاف للحقيقة؟! إن هذه المجتمعات - بصفتها الجمعية، لا أفرادها الذين يعيشون فيها – قد ارتضت الحكم بغير ما أنزل الله (هل في شك من ذلك؟) واستبدلت شريعته (هل في شك من ذلك؟) وحاربت أولياءه من الدعاة إلى الله (هل في شك من ذلك؟) وهي بهذا قد ارتضت شرائع الكفر في نظمها وإن لم يكفر أفرادها وهو ما لم يدعيه سيد أبدا - أي كفر الأفراد بعامة - أما كفر الأنظمة فلا يشك فيها مسلم يؤمن بالله ورسوله وفيه بقية من عقل! الأمر هنا هو لم التعجب دون إيراد الأدلة على نقض هذا الكلام، والإعتماد على إدارة المآقي في العيون وكأنما جاء الرجل بما استقرت الشرائع على خلافه؟ تكتيك رخيص مرفوض!

«وعلى هذا، ليس الناس في حاجة إلى أن نعرض عليهم نظام الإسلام الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو السياسي، أو القانوني، ونحو ذلك؛ لأن هذه الأنظمة إنما ينتفع بها المؤمنون بها، وبأنها من عند الله. أما من لا يؤمن بها، فيجب أن نعرض عليه «العقيدة أولا» حتى يؤمن بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، وبالشريعة حاكمة.»

قال سيد أن على الدعاة أن ينهضوا بدعوة الناس إلى فهم كلمة التوحيد والتركيز عليها حيث أن مثل هذا الواقع المرير قد يكون قد زعزع المستقرات من المعاني في عقول الكثيرين، وأن ما أن ينجلى الصدأ عن القلوب بفهم أبعاد التوحيد الحقة، فإن الصراع

سينحسم أسرع ألف مرة مما لو اصطنعنا الحديث عن عدالة الإسلام ورحمة الإسلام وغيرها من الأبعاد الإجتماعية ..

«وهذا ما أشار إليه في كتابه «المعالم» وفصله في كتاب «الإسلام ومشكلات الحضارة». وشبه مجتمعاتنا اليوم بمجتمع مكة في عهد الرسالة، وأن الرسول لم يعرض عليه النظام والتشريع، بل عرض عليه العقيدة والتوحيد.»

وماذا في هذا الفرض إن كان لم يعلن تكفير الأفراد عامة؟! بل هو مجرد استنتاج من هؤلاء البشر ينبني على أنه دعا إلى الدعوة إلى التوحيد وتجديده في النفوس، كما فعل. وهذا دوران في الدليل (أو دور الدليل) كما يقول أصحاب علم الجدل والمناظرة لا محل للتوسع فيه هنا على أي حال، وقد فعل ذلك محمد بن عبد الوهاب من قبل حين دعا إلى نبذ عبادة القبور وإلى التحاكم للشريعة فهل كان هو كذلك من مكفّري الأمة؟ الله نعم، عند القرضاوي وأمثاله من المرجئة، الذين لا همّ لهم إلا الهجوم على سيد وعلى الإمام ابن عبد الوهاب وتلاميذهما، إرضاء للحكام، وتنمشيا مع النظم الحاكمة الطاغوتية الحالية.

«كما رأى عليه رحمة الله أن لا معنى لما يحاوله المحاولون من علماء العصر لما سموه «تطوير» الفقه الإسلامي أو «تجديده» أو «إحياء الاجتهاد» فيه؛ إذ لا فائدة من ذلك كله ما دام المجتمع المسلم غائبا، يجب أن يقوم المجتمع المسلم أولا، ثم نجتهد له في حل مشكلاته في ضوء واقعنا الإسلامي.

وقد ناقشت أفكاره عن «الاجتهاد» وعدم حاجتنا إليه قبل أن يقوم المجتمع الإسلامي، في كتابي «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية» وبينت بالأدلة خطأ فكرته هذه.

وكما ناقشت الشهيد سيد قطب في رأيه حول قضية «الاجتهاد» ناقشته في رأيه في «الجهاد» وقد تبنى أضيق الآراء وأشدها في الفقه الإسلامي، مخالفا اتجاه كبار الفقهاء

والدعاة المعاصرين، داعيا إلى أن على المسلمين أن يعدوا أنفسهم لقتال العالم كله، حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون!

وحجته في ذلك آيات سورة التوبة (أليس في سورة التوبة وآياتها حجة كافية!!!)، وما سماه بعضهم «آية السيف» (بعضهم الذي يذكره الشيخ بصيغة المبني للمجهول لخفض ذكره هو ابن القيم وابن كثير وغيرهما من عتاة المفسرين! فتأمل!) ولم يبال بمخالفة آيات كثيرة تدعو إلى السلم، وقصر القتال على من يقاتلنا، وكف أيدينا عمن اعتزلنا ولم يقاتلنا، ومد يده لمسالمتنا، ودعوتنا إلى البر والقسط مع المخالفين لنا إذا سالمونا، فلم يقاتلونا في الدين، ولم يخرجونا من ديارنا، ولم يظاهروا على إخراجنا.»

أود هنا، قبل الاستطراد أن أسجل شعوري بالغثيان من نفاق هذا الرجل، الذي مثّل الشيخ سيد في ثياب شيطان تكفيري هدّام دمويّ، ثم يترحم عليه، ويلقبه بالشهيد! درءاً لصفة التعصب والحقد عن نفسه، وكأنما هو المنصف العادل في تقييمه! شذوذ وسقوط، ولو كان ألف قرضاوي وقرضاوي!

ثم سبحان الله العظيم !! الشيخ يقول بمنتهى الصراحة أن القرآن يخالف بعضه بعضاً!!! أيقصد في قوله «مخالفة آيات كثيرة» أي مخالفتها لآيات سورة التوبة؟ وهو الواضح من السياق، أم مخالفتها لفهم سيد لآيات التوبة ولم يأت هنا بدليل على الفهم الصحيح لآيات التوبة واكتفى بأن هناك الكثير مما يخالف (الله أعلم ماذا!؟) لآيات التوبة!!!!! ويلغي في الوقت نفسه جهاد الطلب وهو مما استقر عليه الشرع بل من المعلومات من الدين بالضرورة كما في سيرة الرسول صلى الله ليه وسلم وسير خلفائه الأبرار، وأين قتال الفرس والروم من جهاد من اعتدى علينا؟ ولكنه الهوى الذي يردي بصاحبه، والضعف والهزيمة النفسية، وصغر النفس، ومحاباة الحكام، والرضوخ للحضارة المنتصرة.

«هذا ما تدل عليه الآيات الكثيرة من كتاب الله مثل قوله تعالى: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ* وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخْرِجُوهُم

مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمُسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ» [البقرة: ١٩٠،١٩١]. «فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً» [النساء: ٩٠].

«فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا» [النساء: ٩١]. « وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ» [الأنفال: ٦١]. « لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» [الممتحنة: ٨].»

هذه الآيات حق لا شك فيها ولكن هي في موضعها من التطبيق حسب الظروف والأحوال، فالأمر أمر مرحلية هذه الأحكام وتنزيلها على مناطاتها.

«والأستاذ سيد رحمه الله يتخلص من هذه الآيات وأمثالها بكلمة في غاية السهولة أن هذه كان معمولا بها في مرحلة، ثم توقف العمل بها، والعبرة بالموقف الأخير، وهو ما يعبر عنه الأقدمون بالنسخ، وقولهم(! من هم الذين تعنيهم بقولك - وقولهم – ولا تأخذ برأيهم وتلقي به عرض الحائط وتذكرهم بالمبني للمجهول يا شيخ قرضاوي!؟ هم أعلام التفسير على مرّ العصور!! ثم تأخذ على سيد ظلما أنه هاجم بعض المحدثين من العلماء وأشباههم! في هذه الآيات: نسختها آية السيف.» لا إله إلا الله !! سيد لم يتخلص من هذه الآيات بقوله بالنسخ، بل إن قرأت كتبه تعلم أنه مما أُخذ على سيد في بعض أقواله أنه لا يرى النسخ في القرآن بشكل عام. بل أنت تخلصت من آية السيف في التوبة حتى بدون دعوى النسخ إذ لا يصح نسخ المتأخر بالمتقدم، ولكن تخلصت منها دون دليل!

«ولا أدري كيف هان على سيد قطب –وهو رجل القرآن الذي عاش في ظلاله سنين عددا يتأمله ويتدبره ويفسره– أن يعطل هذه الآيات الكريمة كلها، وأكثر منها في القرآن،

بآية زعموها (!) آية السيف؟ وما معنى بقائها في القرآن إذا بقي لفظها وألغي معناها، وبطل مفعولها وحكمها؟!»

مرة أخرى لمن لا يفهم من المرات الأولى! لم يلغها سيد ولكنه رآى بحق أن كل آية تعمل في مناطها، فآيات كفوا أيديكم لها مناط تعمل فيه، وآيات أذن للذين ظلموا لها مناط تعمل فيه، وآيات وقاتلوا الذين يقاتلونكم لها مناط تعمل فيه وآيات قاتلوا المشركين كافة لها مناط تعمل فيه، فأين الخلاف في هذا يا فقيه عصرك!! ثم ما قولك «زعموها آية السيف»! هذا ما أطلقه عليها عمالقة العلماء الأئمة بحق، لا القرضاوية منهم، مثل ابن القيم في زاد المعاد، وابن تيمية في الفتاوى. عجيب جرأة هذا الرجل!

«ويقول الشهيد رحمه الله: إننا لا نفرض على الناس عقيدتنا، إذ لا إكراه في الدين، وإنما نفرض عليهم نظامنا وشريعتنا، ليعيشوا في ظله، وينعموا بعدله.

ولكن بماذا نجيب الناس إذا قالوا لنا: إننا أحرار في اختيار النظام الذي نرضاه لأنفسنا، فلماذا تفرضون علينا نظامكم بالقوة؟ إن كل شيء يجرعه الإنسان تجريعا رغم أنفه يكرهه وينفر منه، ولو كان هو السكر المذاب، أو العسل المصفى!.»

نقول لهم ما قاله لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أوحى اليه ربه: أن لا وألف لا: لن نرضى بنظام يحكم الناس غير نظام الله إن كنا قادرين على تغييره، أما إن كنا لا نقدرعلى تغييره، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها!!!

«وما الحكم إذا كنا نحن –اليهود أو النصارى أو الوثنيين– أصحاب القوة والمنعة، وأنتم الضعفاء في العدة أو الأقلون في العدد؟ هل تقبلون أن نفرض عليكم نظامنا ومنهج حياتنا؟ كما هو شأن أمريكا اليوم، وتطلعاتها للهيمنة على العالم؟.»

لا حاجة للإستفتاء في هذا فهذا هو الواقع يا فقيه الأمة، إذ إنهم يفرضون نظامهم علينا فرضاً أم أن هذا أمر لم تلاحظه، أم تدعى أن اليهود والنصارى يتركون المسلمين يحكمون بشريعتهم، وأين يحدث هذا في العالم، ما هذا الخلط والخبط؟!

«ومما ننكره على الأستاذ سيد رحمه الله أنه يتهم معارضيه من علماء العصر بأمرين:

الأول: السذاجة والغفلة والبله، ونحو ذلك مما يتصل بالقصور في الجانب العقلي والمعرفي.

والثاني: الوهن والضعف النفسي، والهزيمة النفسية أمام ضغط الواقع الغربي المعاصر، وتأثير الاستشراق الماكر مما يتعلق بالجانب النفسي والخلقي.

والذين يتهمهم بذلك هم أعلام الأمة في العلم والفقه والدعوة والفكر، ابتداء من الشيخ محمد عبده، مرورا بالشيخ رشيد رضا، والشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ محمد مصطفى المراغي، والمشايخ: محمود شلتوت، ومحمد عبد الله دراز، وأحمد إبراهيم، وعبد الوهاب خلاف، وعلي الخفيف، ومحمد أبو زهرة، ومحمد يوسف موسى، ومحمد المدني، ومحمد مصطفى شلبي، ومحمد البهي، وحسن البنا، ومصطفى السباعي، ومصطفى الزرقا، ومحمد المبارك، وعلي الطنطاوي، ومعروف الدواليبي، والبهي الخولي، ومحمد الغزالي، وسيد سابق، وعلال الفاسي، وعبد الله بن زيد المحمود، ومحمد فتحي عثمان، وغيرهم من شيوخ العلم الديني.

هذا فضلا عن الكتاب والمفكرين «المدنيين» الذين لا يحسبون على العلوم الشرعية، من أمثال: د. محمد حسين هيكل، وعباس العقاد، ومحمد فريد وجدي، وأحمد أمين، ومحمود شيت خطاب، وعبد الرحمن عزام، وجمال الدين محفوظ، ومحمد فرج، وغيرهم وغيرهم في بلاد العرب والمسلمين.»

الأستاذ سيد لم يذكر أحدا باسم، وهو تكتيك رخيص أن تضع على فم الرجل أسماء ناس من الناس لتستعدى عليه المشاعر، وإنما هو قال أن هناك الكثير من المسلمين «الطيبين» ووضع كلمة الطيبين بين قوسين، ليدل بها على غفلة عند البعض أو إغراض عند البعض أو ترخص عند البعض، ومن هذه الشخصيات ما فيها كل هذا بالفعل،

ولكن تسمية الناس هي من عمل القرضاوي لا من عمل سيد، فسيد أكبر من مثل هذا الصغار.

«وقد حدثني الأخ د. محمد المهدي البدري أن أحد الإخوة المقربين من سيد قطب –وكان معه معتقلا في محنة ١٩٦٥م– أخبره أن الأستاذ سيد قطب عليه رحمة الله، قال له: إن الذي يمثل فكري هو كتبي الأخيرة: المعالم، والأجزاء الأخيرة من الظلال، والطبعة الثانية من الأجزاء الأولى، وخصائص التصور الإسلامي ومقوماته، والإسلام ومشكلات الحضارة، ونحوها مما صدر له وهو في السجن، أما كتبه القديمة فهو لا يتبناها، فهي تمثل تاريخا لا أكثر.

فقال له هذا الأخ من تلاميذه: إذن أنت كالشافعي لك مذهبان: قديم وجديد، والذي تتمسك به هو الجديد لا القديم من مذهبك.

قال سيد رحمه الله: نعم، غيرت كما غير الشافعي رضي الله عنه. ولكن الشافعي غير في الفروع، وأنا غيرت في الأصول!.

فالرجل يعرف مدى التغيير الذي حدث في فكره. فهو تغيير أصولي أو «إستراتيجي» كما يقولون اليوم.»

هذا حوار سخيف وقصة عقيمة لا دلالة فيها، فأولاً واضح أن سيداً أراد ممازحة علمية، إذ لا يقارن نفسه بالشافعي إلا مجنون! ثم إنه لم يكن هو من عقد المقارنة، بل عقدها مُحدّثه، فأراد أن يعدل بها إلى أقرب من قول محدثه رشدا. ثم إن الأصول التي قصدها يعني بها أنه تناول شرح التوحيد، لا تبديل التوحيد، لذلك كان تعليقه على قول مُحدثه بعدم المقارنة، دفعا لحرج قوله له صراحة «لا، أنت أخطأت، فلا تشابه بيني وبين الشافعي، فهو غيّر آراءه في الفروع، وأنا كنت على فهم خاطئ في بعض الأصول فعدّلت فهمي لتلك الأصول، ولم أعدل الأصول».

ثم إن كتب سيد القديمة تمثل فكرا غير إسلامي بالمعنى الدعوي، بل فكر كفكر العقاد ومحمد حسين هيكل ممن أسماهم القرضاوي نفسه «الكتاب المدنيين الذين لا يُعَدّون على العلوم الشرعية»، من هذا المنطلق تخلى سيد عن كتبه القديمة وتبنى كتبه الحديثة، كما نقل القرضاوي نفسه. وهو حين يقول إنه غيّر في الأصول يقول أنه غير في فهمه الخاص للأصول كما غّير الشافعي في إجتهاده في الفروع، والشافعي لم يقصد أنه غير الفروع ذاتها بل غير إجتهاده هو، كذلك سيد يقصد أن الأصول كانت وستظل دائما كما هي ولكنه أدرك حقيقتها، لا كما يحاول شيخ الأمة القرضاوي أن يوحي أن سيداً يغيّر في أصول دين هذه الأمة!

قلت:

تحدثت عن عالمٍ جـللٍ
حديثا عار عن الحيـاءِ

تروج سلعة مضمونها
عرفناه من قبل بالإرجاء

والله المستعان

د طارق عبد الحليم



واحسرتاه على ضياع الإنصاف!

الفقه في كتاب «في ظلال القرآن»

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد

وصلني من أخٍ شيخٍ حبيب، كتاب بعنوان «أقوال العلماء المنصفين في سيد قطب» لمؤلفه د مشاري المطرفيّ، نقل فيه كلمات لعدد من العلماء، لا أدري كيف «حشر» بينهم الحوينيّ، الذي هو تلميذ مُقلّد للألباني ليس إلّا، ليس لقوله في سيد أيّ وزن كان! وهي غلطة قلّلت من قيمة الكتاب في نظري.

والحق، رغم محاولة المؤلف إنصاف سيد، ودفع الظلم والتكفير عنه، فإن الكتاب لم يعجبني كثيراً، إذ لم يغنِ في هذا الصدد كثيراً!

فأنت ترى أن أقوال غالب من نقل عنهم يقول، بلا غضاضة: لم أقرأ كتبه، أو قرأت نذراً يسيراً منها! وكلهم يكرر نقطة أن سيداً كان أديباً، وهذه مشكلته! حتى الكاتب نفسه قرر ذلك في خلاصته لتقييم سيدٍ رحمه الله! ..

وهذا فيما أرى هراء في هراء، وصراخ في عراء! ... فإن سيداً – أو كتب سيدٍ أو أعمال سيدٍ إن شئت - ستظل أكبر كثيراً حتى من هؤلاء الذين سُئلوا عنه. فقد رأينا أنّ الله وضع لها القبول في الأرض بما لم يضع لكتب غيره ومنهم كلّ هؤلاء المسؤولين، بلا ريب. فكم من سمع بسيدٍ والظلال؟ وكم من سمع بكلّ هؤلاء، على شهرتهم وجلالة قدرهم عندي، إلا زلة الحوينيّ؟

فسيد عالمٌ أديبٌ فقيه، ضمّن تفسيره – كأي تفسير – مناقشات فقهية فيما تتعرض له الآيات، وهذا واضح في تفسيره، لا أفهم كيف يتجاهلونه هذا التجاهل المعيب؟ أم يحسبون أنه قفز علي تلك الآيات وتركها دون تعليق؟ وإن لم يكن هذا فقه، فما هو الفقه؟

ولننظر مثالاً مما تضمنه الظلال من فقه. ففي تفسير سورة النساء «يوصيكم الله في أولادكم» قال، وسأنقل جزءا معتبراً منه:

«هاتان الآيتان، مضافا إليهما الآية الثالثة التي في نهاية السورة، ونصها: يستفتونك. قل: الله يفتيكم في الكلالة: إن امرؤ هلك ليس له ولد، وله أخت، فلها نصف ما ترك. وهو يرثها - إن لم يكن لها ولد - فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك. وإن كانوا إخوة رجالا ونساء، فللذكر مثل حظ الأنثيين. يبين الله لكم أن تضلوا، والله بكل شيء عليم .. [ص: ٥٩٠] هذه الآيات الثلاث تتضمن أصول علم الفرائض - أي: علم الميراث - أما التفريعات فقد جاءت السنة ببعضها نصا، واجتهد الفقهاء في بقيتها تطبيقا على هذه الأصول. وليس هنا مجال الدخول في هذه التفريعات والتطبيقات فمكانها كتب الفقه - فنكتفي - في ظلال القرآن - بتفسير هذه النصوص، والتعقيب على ما تتضمنه من أصول المنهج الإسلامي..

يوصيكم الله في أولادكم: للذكر مثل حظ الأنثيين..

وهذا الافتتاح يشير - كما ذكرنا - إلى الأصل الذي ترجع إليه هذه الفرائض، وإلى الجهة التي صدرت منها، كما يشير إلى أن الله أرحم بالناس من الوالدين بالأولاد ، فإذا فرض لهم فإنما يفرض لهم ما هو خير مما يريده الوالدان بالأولاد..

وكلا المعنيين مرتبطان ومتكاملان..

إن الله هو الذي يوصي، وهو الذي يفرض، وهو الذي يقسم الميراث بين الناس - كما أنه هو الذي يوصي ويفرض في كل شيء، وكما أنه هو الذي يقسم الأرزاق جملة - ومن عند الله ترد التنظيمات والشرائع والقوانين، وعن الله يتلقى الناس في أخص شؤون حياتهم - وهو توزيع أموالهم وتركاتهم بين ذريتهم وأولادهم - وهذا هو الدين. فليس هناك دين للناس إذا لم يتلقوا في شؤون حياتهم كلها من الله وحده وليس هناك إسلام، إذا هم تلقوا في أي أمر من

هذه الأمور – جل أو حقر – من مصدر آخر. إنما يكون الشرك أو الكفر، وتكون الجاهلية التي جاء الإسلام ليقتلع جذورها من حياة الناس.

وإن ما يوصي به الله، ويفرضه، ويحكم به في حياة الناس – ومنه ما يتعلق بأخص شؤونهم، وهو قسمة أموالهم وتركاتهم بين ذريتهم وأولادهم – لهو أبر بالناس وأنفع لهم، مما يقسمونه هم لأنفسهم، ويختارونه لذرياتهم.. فليس للناس أن يقولوا: إنما نختار لأنفسنا. وإنما نحن أعرف بمصالحنا.. فهذا – فوق أنه باطل – هو في الوقت ذاته توقح، وتبجح، وتعالم على الله، وادعاء لا يزعمه إلا متوقح جهول! قال العوفي عن ابن عباس: يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين .. وذلك أنه لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها ما فرض، للولد الذكر، والأنثى، والأبوين، كرهها الناس – أو بعضهم – وقالوا: تعطي المرأة الربع أو الثمن، وتعطي الابنة النصف، ويعطى الغلام الصغير. وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم، ولا يحوز الغنيمة! اسكتوا عن هذا الحديث، لعل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ينساه، أو نقول له فيغير! فقالوا: يا رسول الله، تعطى الجارية نصف ما ترك أبوها، وليست تركب الفرس، ولا تقاتل القوم. ويعطى الصبي الميراث، وليس يغني شيئا – وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية، ولا يعطون الميراث إلا لمن قاتل القوم، ويعطونه الأكبر فالأكبر .. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ..

فهذا كان منطق الجاهلية العربية، الذي كان يحيك في بعض الصدور اليوم – وهي تواجه فريضة الله وقسمته العادلة الحكمية.. ومنطق الجاهلية الحاضرة الذي يحيك في بعض الصدور اليوم – وهي تواجه فريضة الله وقسمته – لعله يختلف كثيرا أو قليلا عن منطق الجاهلية العربية. فيقول: كيف نعطي المال لمن لم يكد فيه ويتعب من الذراري؟ وهذا المنطق كذاك.. كلاهما لا يدرك الحكمة، ولا يلتزم الأدب وكلاهما يجمع من ثم بين الجهالة وسوء الأدب!

للذكر مثل حظ الأنثيين ..

وحين لا يكون للميت وارث إلا ذريته من ذكور وإناث، فإنهم يأخذون جميع التركة، على أساس أن للبنت نصيبا واحدا، وللذكر نصيبين اثنين .

وليس الأمر في هذا أمر محاباة لجنس على حساب جنس. إنما الأمر أمر توازن وعدل، بين أعباء الذكر وأعباء الأنثى في التكوين العائلي، وفي النظام الاجتماعي الإسلامي: فالرجل يتزوج امرأة، ويكلف إعالتها وإعالة أبنائها منه في كل حالة، وهي معه، وهي مطلقة منه.. أما هي فإما أن تقوم بنفسها فقط، وإما أن يقوم بها رجل قبل الزواج وبعده سواء. وليست مكلفة نفقة للزوج ولا للأبناء في أي حال.. فالرجل مكلف – على الأقل – ضعف أعباء المرأة في التكوين العائلي، وفي النظام الاجتماعي الإسلامي. ومن ثم يبدو العدل كما يبدو التناسق بين الغنم والغرم في هذا التوزيع الحكيم. ويبدو كل كلام في هذا التوزيع جهالة من ناحية وسوء أدب مع الله من ناحية أخرى، وزعزعة للنظام الاجتماعي والأسري لا تستقيم معها حياة.

ويبدأ التقسيم بتوريث الفروع عن الأصول:

فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف .

فإذا لم يكن له ذرية ذكور، وله بنتان أو أكثر فلهن الثلثان. فإن كان له بنت واحدة فلها النصف.. ثم ترجع بقية التركة إلى أقرب عاصب له: الأب أو الجد. أو الأخ الشقيق. أو الأخ لأب. أو العم. أو أبناء الأصول.. والنص يقول: فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك .. وهذا يثبت الثلثين للبنات – إذا كن فوق اثنتين – أما إثبات الثلثين للبنتين فقط فقد جاء من السنة ومن القياس على الأختين في الآية التي في آخر السورة.

فأما السنة فقد روى أبو داود والترمذي وابن ماجة من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل بن جابر « قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع ، إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيدا وإن

عمهما أخذ ما لهما فلم يدع لهما مالا ولا ينكحان إلا ولهما مال. قال: فقال: « يقضي الله في ذلك « فنزلت آية الميراث. فأرسل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى عمهما، فقال: « أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك ..

فهذه قسمة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – للبنتين بالثلثين . فدل هذا على أن البنتين فأكثر، لهما الثلثان في هذه الحالة.

وهناك أصل آخر لهذه القسمة وهو أنه لما ورد في الآية الأخرى عن الأختين: فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك .. كان إعطاء البنتين الثلثين من باب الأولى، قياسا على الأختين. وقد سويت البنت الواحدة بالأخت الواحدة كذلك في هذه الحالة.

وبعد الانتهاء من بيان نصيب الذرية يجيء بيان نصيب الأبوين – عند وجودهما – في الحالات المختلفة.مع وجود الذرية ومع عدم وجودها:

ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك – إن كان له ولد – فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث. فإن كان له إخوة فلأمه السدس ..

والأبوان لهما في الإرث أحوال:

الحال الأول: أن يجتمعا مع الأولاد ، فيفرض لكل واحد منهما السدس والبقية للولد الذكر أو للولد الذكر مع أخته الأنثى أو أخواته: للذكر مثل حظ الأنثيين. فإذا لم يكن للميت إلا بنت واحدة فرض لها [ص: ٥٩٢] النصف، وللأبوين لكل واحد منهما السدس. وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب، فيجمع له في هذه الحالة بين الفرض والتعصيب. أما إذا كان للميت بنتان فأكثر فتأخذان الثلثين، ويأخذ كل واحد من الأبوين السدس.

والحال الثاني: ألا يكون للميت ولد ولا إخوة ولا زوج ولا زوجة ، وينفرد الأبوان بالميراث. فيفرض للأم الثلث، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب، فيكون قد أخذ مثل حظ

الأم مرتين. فلو كان مع الأبوين زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف، أو الزوجة الربع. وأخذت الأم الثلث (إما ثلث التركة كلها أو ثلث الباقي بعد فريضة الزوج أو الزوجة على خلاف بين الأقوال الفقهية) وأخذ الأب ما يتبقى بعد الأم بالتعصيب على ألا يقل نصيبه عن نصيب الأم.

والحال الثالث: هو اجتماع الأبوين مع الإخوة – سواء كانوا من الأبوين أو من الأب، أو من الأم – فإنهم لا يرثون مع الأب شيئا، لأنه مقدم عليهم وهو أقرب عاصب بعد الولد الذكر ولكنهم – مع هذا – يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس. فيفرض لها معهم السدس فقط. ويأخذ الأب ما تبقى من التركة. إن لم يكن هناك زوج أو زوجة. أما الأخ الواحد فلا يحجب الأم عن الثلث، فيفرض لها الثلث معه، كما لو لم يكن هناك ولد ولا إخوة.

ولكن هذه الأنصبة كلها إنما تجيء بعد استيفاء الوصية أو الدين :

من بعد وصية يوصي بها أو دين ..

قال ابن كثير في التفسير: « أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية .. وتقديم الدين مفهوم واضح. لأنه يتعلق بحق الآخرين. فلا بد من استيفائه من مال المورث الذي استدان، ما دام قد ترك مالا، توفية بحق الدائن، وتبرئة لذمة المدين. وقد شدد الإسلام في إبراء الذمة من الدين كي تقوم الحياة على أساس من تحرج الضمير، ومن الثقة في المعاملة، ومن الطمأنينة في جو الجماعة، فجعل الدين في عنق المدين لا تبرأ منه ذمته، حتى بعد وفاته:

عن أبي قتادة – رضي الله عنه – قال: قال رجل: يا رسول الله. أرأيت إن قتلت في سبيل الله، أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « نعم. إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر « . ثم قال: « كيف قلت؟ « فأعاد عليه. فقال: « نعم. إلا الدين. فإن جبريل أخبرني بذلك ..أخرجه مسلم ومالك والترمذي والنسائي .

وعن أبي قتادة كذلك: أتي النبي - صلى الله عليه وسلم - برجل ليصلي عليه. فقال - صلى الله عليه وسلم - : صلوا على صاحبكم فإن عليه دينا « فقلت: هو علي يا رسول الله. قال: « بالوفاء؟ « قلت: بالوفاء. فصلى عليه .

وأما الوصية فلأن إرادة الميت تعلقت بها. وقد جعلت الوصية لتلافي بعض الحالات التي يحجب فيها بعض الورثة بعضا . وقد يكون المحجوبون معوزين أو تكون هناك مصلحة عائلية في توثيق العلاقات بينهم وبين الورثة وإزالة أسباب الحسد والحقد والنزاع قبل أن تنبت. ولا وصية لوارث. ولا وصية في غير الثلث.

وفي هذا ضمان ألا يجحف المورث بالورثة في الوصية.» الظلال تفسير سورة النساء

أليس في هذا فقه، يا أولى الألباب**!**؟ أعيب أن يبدأ سيد بالحديث عن فقه المقصد من الحكم الشرعيّ، ليفهمه القارئ، ثمّ يُعرّج على تفصيل الحالات المختلفة للإرث؟ أأستطرد في نقل الفقه الذي ذخر به الظلال، في مواضعه، ليفهم هؤلاء أن الرجل عالمٌ بما يقول؟ بل هو عالمٌ تأصيلاً لا تفريعاً عن وصفه كأديب.

قد والله تاه عن هؤلاء أن سيداً إنما تبحّر في «**فقه المقاصد والمآلات**»، تبحراً يعزّ على أحدهم، أجمعين أن ينفذ إلى دقائقه. وإنما فعل ذلك بقلم أديب يفهم العربية، ويعرف إلى جانب ذلك ومع ذلك، كيف ينفذ بهذه الأحكام، والأقوال، التي سردها غيره جافةً من الشعور، إلى قلوب القارئين المسلمين، ولو البسطاء منهم.

هؤلاء العلماء، نظراً لطبيعة بيئتهم النجدية والتعليمية، يعتبرون العالم هو من يكتب بأسلوب أهل الحديث لا غير ... كما يفعل بعض أشبار هذا الزمن ممن حفظوا أسماء رجالٍ ونقلوا جرحا منهنا وتعديلا منهناك، فصاروا علماءً**!!** هذا ليس إنصافاً بل اعتسافا في القول ...

لقدنسي هؤلاء المتاعيس أنّ القرآن، معجزة الإسلام الأولى، هي في أسلوبه الأدبيّ قبل أيّ شئ، وبها تحدى الله العرب أن يأتوا بسورة من مثله. هو الأدب إذن، وهي نفس الأديب،

التي تستشعر القرآن، وتفهم عنه، أكثر من أصحاب الجفاف الشعوريّ والتعامل المحض مع أسماء الرجال وأحوالهم. فأين الألبانيّ من مقام الشيخ سيد؟! نعم، أين هذا من ذاك؟ لقد أبدع سيد في التفسير، مما يحتاجه عصرنا الجاهليّ الطاغوتيّ، بما لم يأت به غيره، إلا النذر اليسير، مثل المودودي، والشيخان محمد ومحمود شاكر، والشيخ محمد بن إبراهيم والشيخ الدوسريّ، الذي لا أدري لم لم ينقل عنه المطيري قوله في الشيخ سيد؟!

لقد تصدى الشيخ سيد لفقه النوازل، وهو لبّ العلم وأصله، في أهم قضية عقدية تعرض على بني آدم، ولها أرسلت الرسل وبها أنزلت الكتب، ألا وهي قضية «التوحيد»، ثم يُقال «هو أديبٌ وليس بعالم»!!

وإن من الحقّ على تلامذة سيدٍ، أو الأحرى، تلامذة تلامذته، فإن تلامذته هم جيلي الذي فنيَ أو كاد، أن يجمعوا كتاباً، أو مجلداً بعنوان «الفقه في كتاب الظلال». وأحسب أن سيكون أكثر من مجلدٍ أو اثنين. فإنّ هذا هو ما سيخرس أولئك المتكلمين، الذين يعتذرون عن سيدٍ بأنه «ليس عالناً، وإنما هو أديب! فرية في شكل إنصاف، وذمّ في لباس مدح، وقع فيه الكلّ، حتى من أراد إنصافه كالمطرفيّ في كتابه. ولا ألومه، فإن الغشاوة والضبابية التي فرضها على أولئك «العلماء» ممن لم يلحقوا بسيدٍ، أجمعين، كثيفة، لم ينفذ من خلالها بصيرة حتى هؤلاء الذابين عنه.

ثم كلمة أخيرة. أيجب أن يكون العالم ممن تحدّث في الجرح والتعديل تفصيلاً، ونقد الأسانيد، وقارنها وخرّج كتباً حديثية؟ اللهم هذا لغطٌ وعبثٌ ولهو حديث!

خذ الألباني مثالاً، ماذا عن عقيدته الإرجائية؟ هل منع هذا من اعتباره عالماً بالحديث، يؤخذ منه، مع التحفظات المرعية بهذا الشأن؟

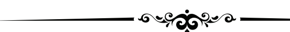
فما أسموه سقطات سيد، هي كلها في كتبه التي تبرأ منها بعد، فإين مبادئ الجرح والتعديل هنا؟ حتى لو أخطأ الرجل، فأين هذا من عقيدة الإرجاء التي تبرر لحكام أفعالهم،

وتنشر مبادئ سلمية، وتجعل أمثال الحويني، التلميذ، يفزع من أن ينطق بكلمة ضد المجلس العسكري أو السيسي، ويرتمي في أحضان آل زايد وآل سعود وآل تميم، وينزل ضيفاً على أمثال عبد اللطيف آل الشيخ!!؟

هل يمنع هذا من أن يخطأ سيد في بعض ما كتب، وأن يأخذه التوسع في العبارة إلى ما يتشابه من القول؟ اللهم لا، فكلّ ابن آدم خطّاء. لكن النظر بعين الحسد، كما هو الحال فيما كتب عنه القرضاوي مثلا، مما بيّنته في مقال طويل بعنوان «سيد قطب والقرضاوي»[١]، شٌر لا يأتي منه خير أبداً.

لكن، أين العدل اليوم، وأين النُصَفة، وبل أين العقل والمنطق؟ ذهبوا مع من ذهب، وتركونا مع تراب لا ذَهَبْ!

د طارق عبد الحليم
٢٢ يونيو ٢٠٢٠ - ١ ذو القعدة ١٤٤١



[١] https://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/73117





نظرات في التمكيـن

في واقعنا المعاصر



تقدمة الكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

أقدّم بين يديّ القارئ، كتاباً، أحسب فيه شمولاً واستيعاباً، لموضوع الساعة في حياة أمتنا الإسلامية اليوم، ألا وهو «كيف نعيد للإسلام سيطرته في الرقعة التي حكمها قرونا عديدة».

وإجابة هذا السؤال تعتمد على شخصية الكاتب، وعلى خلفيته العلمية والحركية، كما تعتمد على طريقة تناوله للواقع الحال.

فإن الكُتّاب في هذ الأمر، انقسموا إلى ثلاثة أصناف

صنفٌ استبشر وآمل خيراً يأتي من وراء الشر، فاعتمد على وعد الله سبحانه ورجاء نصره، وعلى أحاديث غالبها يتعلق بآخر الزمان، فخرج بصورة مورقة مبهجة، تصف النصر، وتعد به، بل تتعدى ذلك إلى تحديد أين، ومن أين!

وصنفٌ رأى الواقع أسوداً كئيباً محطماً، لا أمل فيه ولا رجاء. فإما نزوع إلى يأس قاتل، وإما إلى محاولة هدم الشكل المطلوب إسلامياً، والتوجه إلى النماذج الغربية بدلاً منه.

وصنفٌ ثالثٌ، وهم من أرجو الله أن أكون منهم، قد رأى الواقع على حقيقته، بسواده وكآبته، إلا جذوات من نار غائرة تحت الركام هنا وهناك. لكنه، يعرف ويؤمن أن لهذا النفق المظلم نهاية مشرقة، فهو وعد الله الذي لا يُخلف وعده. لكن الزمان والمكان والحال، لدى هذا الصنف، من عالم الغيب المحض، الذي لا ينكشف لأحد أيا من كان، حتى لرسول الله المعصوم ﷺ، قال تعالى «قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ « فمن فرض زمانا أو مكانا أو حدد طائفة فقد وهم وتألى على الله.

وهذا الصنف الثالث، يرى أن يتوجب أن نأخذ بالأسباب، دون النظر إلى مسببَاتها

(نتائجها)، كما أشار لذلك الشاطبي في كتاب الأحكام. فلا نأمل أملاً واهماً، ولا نيأس يأساً محطماً.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا، كتاب قد دونته في مراحل متعددة، أساير به الواقع، وأجدد فيه بحسب معطياته. لذلك فقد قسمته إلى أربعة أجزاء كأنها مستقلة، وإن كانت تجمعها وحدة واحدة، وهي أنها تتعلق بتوصيف الواقع، وكيفية التعامل معه، للوصول إلى التمكين ومن ثم إلى الدولة المنشودة.

فالجزء الأول، يتناول مخططاً عاماً للفكر المطروح في ساحة العمل الإسلامي، وبيان رؤيته للواقع وإشكالياته وأطروحاته. (قيام الدولة بين الواقع والأوهام)

والجزء الثاني، يقترب أكثر من الواقع الذي عليه المسلمون اليوم، وتقديم أفكار عملية تساعد في تحسينه وتوجيهه الوجهة المطلوبة. (الحقيقة العارية)

والجزء الثالث، يتكون من سبعة أبحاث منفصلة، لكنها تجتمع على مناقشة مفهوم جيل التمكين وجيل الاستبدال.

والجزء الرابع، يتناول مخططاً عاماً لمنهج، أحسبه متكاملا، لتكوين الشخصية الإسلامية السنية الشابة، التي يجب إعدادها لتحمل أمانة التمكين لهذا الدين.

فهو باختصار كتاب يُلقى أضواءً على مسائل الدولة والبيعة وأهل الحلّ والعقد، والتمكين، وواقع شعوبنا، ووضع أمتنا، ويصف دواءً واقعياً عملياً علمياً، لمن أراد السير على خطوات منهجية محددة.

أدعو الله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، صحيحاً على سنة رسوله ﷺ.

د طارق عبد الحليم

الجزء الأول

قيام دولة الإسلام بين الواقع والأوهام

مقدمة البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد

كُتب هذا البحث في الفترة بين ١٣ رجب ١٤٣٥ - ١٢ مايو ٢٠١٤ و ١٤ يوليو ٢٠١٤ - ١٦ رمضان ١٤٣٥، بعد أن تبينت حقيقة تنظيم البغدادي المعروف «بالدولة الإسلامية في العراق والشام». وقد رأينا وقتها أنّ الحديث عن الدولة، ومن ورائها «الخلافة» أصبح يدور على الألسنة كأنه أمرٌ واقع، تم بحمد الله تعالى. وأنّ دولة الإسلام المنشودة قد تحققت في هذا المسخ الذي خرج به إبراهيم بن عواد على الناس. فكان لزاماً أن نبين بعض أبعاد مثل هذه «الدولة» المرتقبة، وصفاتها، وشروطها، حتى لا يكون هناك مجال للخلط بين ما هو حقيقة وما هو وهم في هذا الشأن.

ونحن لا ندعى أننا غطينا كل النقاط المتعلقة بهذه الغاية، بل ندرك أنّ هناك الكثير مما يمكن أن يضاف، أو يفصّل في هذا البحث، لكنه، كما نظن، كان واجب الوقت، لا يجوز تأخير بيانه، وتفصيل عنوانه.

وإليكم ما فتح الله به في هذا الأمر، والفضل له وحده، وله المنة التامة.

حين يتحدث «الإسلاميون» اليوم عن دولة «الإسلام»، فغالباً ما يرِد على خاطرهم خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأكثرهم واقعية، يرد على باله الخلافة الأموية أو العباسية.

وأعني بالإسلاميين صنفين من المسلمين، أحدهما عامتهم، والآخر خاصتهم من الشرعيين أو الباحثين، حسب انتماءاتهم العقدية والحركية.

فالشرعيون، في الحركات الجهادية مثلا، لا يختلفون كثيراً في تصورهم عن عامتهم في هذا الصدد، وهو التصور الذي ذكرنا، تصور بسيط مباشر «لدولة» أو «خلافة» تقوم فجأة لا يحول بيننا وبينها في عالم الناس إلا أن نجد «خليفة» نجتمِع عليه، أو يجتمع عليه من يؤصل هذا النظر منهم، ويلتزم ببيعته المسلمون، عامة وعلماء في نواحي الأرض كلها!

والباحثون، سواء المُنتمون منهم إلى حركات إسلامية كالإخوان، أو المستقلون العلمانيون، ينظرون إلي الدولة بمنظار جدّ مختلف عن أولئك الآخرين.

فهؤلاء الذين ينتمون إلى حركات إسلامية «وسطية» يرونها دولة ديموقراطية وطنية، يحكمها شرع الله بحكم الأغلبية التي تعيش على أرضها، لا أكثر. أما العلمانيون اللادينيون، فإنهم يرون الدولة بأي شكل إلا أن يكون للإسلام فيها موضع قدم، فقد تكون ديموقراطية أو دكتاتورية أو عسكرية، لابأس بأيها، طالما ليس فيها أي صبغة إسلامية. وهؤلاء الأخيرون هم من نعتبرهم، بالتعبير الشرعيّ، مرتدون.

ومن ثم، فإن بحثنا هنا لن يمس تصوراتهم إلا من حيث نقاط تلاقيها مع التصورات «الإسلامية».

والحقّ، أن دولة الإسلام، تقع وسطا بين هذين الطرفين «الإسلاميّين»، كما سنبين في هذا المبحث.

وقد أدى تصور «الإسلاميين» للدولة الإسلامية، إلى ما نراه منعكساً على الساحة اليوم، في مصر والشام والعراق على الأخص، ثم اليمن وليبيا وتونسة، ثم السودان والجزائر، بشكلٍ أو بآخر.

ففي مصر، أدى تصور الدولة الإسلامية في ذهن الإخوان إلى تضارب في المصالح، بين منهجين عقديين لا يمتا لبعضهما بصلة، منهج العلمانية اللادينية، ومنهج الإسلام.

ولم يدرك هؤلاء أن اللقاء بينهما مستحيل، وأن إمساك العصا من المنتصف، لا يقبله العلمانيون اللادينيون من ناحية، ولا يقبله الغرب الصهيو-صليبي من جهة أخرى، فسقطوا، وسقطت معهم فكرة الدولة الإسلامية المبنية على هذا التصور.

أما في العراق والشام، فإن الأمر اختلف عنه في مصر اختلافاً بيّنا.

ذلك أن «التيار السلفي الجهاديّ»، إن صحت التسمية، قد انقسم على نفسه إلى تيارين، التيار السلفي الجهاديّ الأصلي الأصيل، المتمثل في مواقف الكثير من علماء أهل السنة، عقدياً، وفي قاعدة خراسان عقدياً وعملياً، وما آثرنا أن نطلق عليه هنا «التيار السلفي الجهاديّ الجديد-أحاديّ النظرة» إلا للأسباب التي سنقدمها بعد.

فالتصور السوسيو-ديني، عند هؤلاء المنتمين «للتيار السلفي الجهاديّ الجديد-أحاديّ النظرة»،[١] بشأن فكرة الدولة الإسلامية، بكافة طوائفهم المتصارعة، هو أنهم يرون الدولة بالمفهوم الذي قدمنا أولاً، دولة أبي بكر وعمر، أو خلافة الأمويين أو العباسيين.

وهذا التصور إنما نشأ لعدة عوامل، نذكرها بعد.

كلّ تلك العوامل، قد أنشأت جيلاً «إسلاميا»، صالحاً تقياً، لكنه أقرب إلى السذاجة في النواحي السياسية والإجتماعية، والتي نسميها في التعبير الشرعي، بالسنن الكونية في مسائل العمران، وبالسياسة الشرعية.

والأمر هنا أن كلا التصورين، الإخواني، أو السلفي الجهاديَ، بشكله الحاليّ، على خطأ في تصور «الدولة الإسلامية».

ولا بأس هنا أنْ نعيد رسم مسار الخطأ في الطريقين، لنبني عليهما ما نراه في هذا الصدد.

---

[١] - وسنطلق عليه «التيار الجهادي الجديد» اختصاراً.

وسنقوم ببناء هذا البحث على ثلاثية جدلية، ننظر فيها إلى التصورين اللذين ذكرنا، وينبثق عن كل منها ثلاثة محاور، فتكون بهذا تسعة نقاط ، هذه الثلاثية هي :

- **المعطيات**: وفيها نضع تصورات التيار المقصود بلا نقد، سلباً أو إيجابا، بل نكتفي بسردها، إثباتا وبيانا.
- **الإشكاليات**: وفيها نطرح المشكلات العقدية والعملية في تلك التصورات، كما نراها، فننقدها، سلباً وإيجابا.
- **الأطروحات**: وفيها نبيّن الموقف السنيّ القويم في تلك المسائل، ثم نطرح لبنة بناءٍ في موضوع تصور «الدولة الإسلامية» على هذا الأساس.

وسنعتمد في هذه الدراسة على ما تراكم لدينا من معلومات تحليلية للواقع في الساحة الإسلامية، خلال العقود الأربعة الأخيرة، دون أن نشغل الصفحات بتأييد رأي أو قول من نقولات العلماء، بل نحيل إلى ما دوّن علماء السنة في موضوع السياسة الشرعية خاصة، وفي تاريخ الفرق، وما دوّن المحدثون من علماء أفاضل فيها، سواء الناحية العقدية، وما أكثرهم، كعملاق التوحيد الشهيد سيد قطب، والعلامة أبو الأعلى المودودي، والعلامة السعدي، ومن قبلهم شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب وعلماء الدعوة النجدية. وفي الناحية السياسية-الاجتماعية، ككتابات المعلم التربويّ محمد قطب رحمه الله، والشيخ رفاعي سرور رحمه الله، والشيخ د هاني السباعي، وننوه خاصة بتحقيقات الدكتور أكرم حجازي التي يجد فيها القارئ كمّاً هائلاً من الاستشهادات والنقول من المختصين في الساحة السياسية، كذلك ما دوّنا من قبل في مجال الفرق والعقيدة .

المعطيات

معطيات الفكر السياسيّ الإخوانيّ في موضوع الدولة:

الإخوان، كأي تنظيم اجتماعيّ بشريّ، يتفقون على مبادئ عامة، ثم يختلفون على بعض تطبيقاتها، حسب شخصية الناظر منهم.

شكل الدولة:

أما المبادئ التي يجتمعون عليها بشأن «الدولة الإسلامية»، فهي أنّها دولة «حديثة»، أي تخضع، خارجياً، للمعايير الدولية في إقامة الدول، وأشكالها، وتدخل تحت هيئاتها العامة ومؤسساتها العالمية، كالأمم المتحدة، وتعترف بمواثيقها ومعاهداتها، ومنظمات العفو الدولية، بل وتتعامل مع صندوق النقد الدوليّ، بضوابط تتغير حسب شخص القياديّ الإخواني. كما أنهم يرونها داخلياً، دولة تقوم على النظام الديموقراطيّ الانتخابيّ، من حيث يصورونه على أنّه الشورى الإسلامية، وأنه الوسيلة الحديثة لتطبيق مذهب الشورى. وهم في ذلك يُدخلون عنصر الواقع في معادلة عقدية، من حيث إنهم يرون أن المسلمين هم الأغلبية بالفعل في بلاد الإسلام، فواقعياً وعملياً، ستأتي ديموقراطية الأغلبية بالمسلمين وبالتالي بشريعتهم، يُملونها من داخل التنظيمات البرلمانية، والهيئات التشريعية، بحكم الأغلبية.

الأسباب:

كما أنهم يؤمنون بارتباط الأسباب الدنيوية مع نتائجها ارتباطاً لا فكاك منه، وإن لم يصرحوا به في منشوراتهم أو يظهروه في خطابهم.

وهم في ذلك يتبعون الفكر الإعتزاليّ عملياً لا نظرياً، من حيث لا يشعرون.

فهم يتعاملون مع النظم العالمية من حيث أن قوتها ومكانتها سببٌ في وجوب اعتبار طرقها ووسائلها، وأنّ التفاعل معها على مائدتها وبشرائطها، سبب للوقوف معها على بساط واحدٍ. ومن ثم، فإنّ هذا يرتبط بما قدّمنا من أنّ «تغيير» الواقع غير ممكن، ولا يرتبط بإرادة ما، بل هو سببٌ تنشأ عنه نتائجه التي يتعاملون معها حسب قانون الأسباب والمُسبّبَات.

الواقع:

وهؤلاء، في الحقيقة، يعتبرون الواقع إعتباراً كلياً، ويرونه، من حيث يرونه، حاكم بذاته، وأن قوالبَه الحاضرة هي التي يجب أن تتشكل بها «الدولة الإسلامية»، بل إنهم لم يتلفظوا باسم «الإسلامية» مراعاة لذلك الواقع لديهم، فهم يتحدثون عن دولة مصر الديموقراطية الحديثة، لا «الإسلامية»، ولا يعتبرون هذا إلا بابا من أبواب «الحيلة» على المجتمع الدوليّ، ليمرّر دولتهم عبر قنوات مؤسساته وهيئاته. فالواقع هو الثابت، والشكل الإسلاميّ هو المتغير. ويجب أن يتشكل المتغير حسب قواعد الثابت ومعطياته. ومن ثم، فهم لا يرون إمكانية «تغيير» الواقع، لأنه الثابت.



معطيات فكر التيار السلفي الجهادي والاتجاه الحروري في موضوع الدولة : [1]

ويختلف هذا الفكر اختلافاً جذرياً أصيلاً مع فكر جماعة الإخوان، ومن سار على دربها مؤخراً كالجماعة الإسلامية في مصر بعد انحرافها.

فالمبدأ التي تجتمع عليها طوائف الفكر السلفيّ الجهاديّ واحدٌ، ومن داخله الفكر الحروري، وإن اختلفوا في بعض تفاصيله، إلا إنها تتفق في عناوينه الكبرى، كما سنشير إليها هنا.

شكل الدولة:

الحقيقة التي قد يستغرب لها الباحث هنا، أن هذه النقطة لم تسترعِ انتباه غالب الجماعات التي تنتمي لهذا الفكر، إلا من ناحيتها العقدية، لا من الناحية التطبيقية، أو على الأقل بأي شكلٍ يحمل تفصيلاً تطبيقياً.

فمن الناحية العقدية، نجد أن أصحاب هذا التيار يرون أن «لا حكم إلا لله»، وأنّ ذلك هو أسّ التوحيد العملي، الذي دونه الكفر، وأن الشريعة هي المصدر الأوحد للتشريع، على اختلاف في مصادرها لدى البعض بين سنة أو ظاهرية. وهم من ثم يبنون مواقفهم من مخالفيهم على هذا الأساس، وهذا الأساس وحده لا غيره. ومن ثم، فهذه العقيدة هي التي يجب أن تحكم الدولة، أيا كان شكلها، داخلياً أو علاقاتها خارجياً، وهو باب الولاء والبراء.

وإذا نظرنا إلى شكل «الدولة» داخلياً، فهي تقوم على نهج «الخلافة»، فلا يسمى رأسها رئيساً، بل أميراً للمؤمنين، ثم يطلب بيعة، لا انتخاباً، ولا يحتمل الأمر تعدداً في «الترشح»، بل يُقتل من يدعو إلى نفسه للترشح في مواجهة «أمير المؤمنين».

---

[١] – باستثناء قاعدة الجهاد في خراسان، فأبناؤها ومنشؤها قد خاضوا غمار التجربة عقدياً وعملياً، لأكثر من ربع قرن، بما يجعلهم ينتمون إلى مستو مختلف كلية عن هؤلاء الذين يتواجدون على الساحة اليوم في الشام والعراق واليمن ومصر وليبيا وبقية الساحة الإسلامية، من منتسبي هذا التيار.

وأمير المؤمنين، يصل إلى هذا المنصب بموافقة «أهل الحل والعقد»، وهم كجماعة البرلمان في العرف الديموقراطيّ، إلا إن العامة لم ينتخبوهم لهذا المنصب، وما يكون لهم، إذ هذا يجعل أمر الدين مشاعاً، ويُرجع الحكم للأغلبية، التي قد تكون مسلمة أو غير مسلمة. فحكم الأغلبية مرفوض عقدياً بشكل قاطع.

كذلك، فإن أتباع هذا التيار لم يحزموا أمرهم بالنسبة لتعريف الدولة وحدودها، فإنه بالرغم من معارضتهم للشكل العالمي الحديث للدولة، وخاصة فيما يتعلق بالحدود، فإنهم لم يقدموا بديلاً واقعياً لهذا الشكل، بل اكتفوا بالحديث عن سقوط سايكس-بيكو، ووحدة «الأمة»، وردة القومية والوطنية، وهذه المفاهيم التي يجب أن تختفي من «الدولة» الإسلامية.

وهناك طائفة داخل هذا التيار، وأقصد به الحروري، تميزت عن بقيته، وأصبحت مؤخراً «ظاهرة»، تلفت انتباه علماء الاجتماع والباحثين خاصة.

خلاصة الأمر في «شكل الدولة»، عند هؤلاء الحرورية، هي الدولة «الدكتاتورية» التي تتخذ النموذج «الهتلري» أنموذجاً في العلاقة بين التابع و»التنظيم».

وهذا الشكل، قد نجح من خلال عملية دعاية مكثفة، تدعو «للتنظيم» ذاته، وتعطيه صبغة دينية بحتة، كأنه مطلوب لذاته، ومقصد شرعيّ أصليّ.

وتصل، من خلال هذا التوصيف «للدولة» المقدسة، إلى تقديس الأشخاص القائمين عليها. وهي خطة في غاية الذكاء والمهارة. وقد تهيأ لي منذ أمد قريب، مناقشة شخصية من أحد أتباع «الدولة»، فإذا بتغيير رهيب ساحق، قد طرأ على طريقة تناولها للأمور، ونظرتها للعامة والعلماء، وتصوراتها لقدسية «الدولة» ككيان «باقٍ» وإسباغ صفة الخلود عليه، وكانت هذه المناقشة هي ما أوردت في نفسي النموذج الهتلري، الذي جعل «الرايخ الثالث» دولة مقدسة، وجعل هتلر، تبعاً لذلك، مقدساً لدى الأتباع.

وفي ظاهرتنا هذه، فقد استخدم «الدين» و»الشرع» لإصباغ هذه الصفة التقديسية،

والتي تمثلت في أعلى درجاتها في تعبير «باقية»، وجعلت حتى مناقشة أمرها، بأي شكل من الأشكال، هرطقة غير مقبولة، وجعل مخالفيها «مرتدين» ديناً.

وهي الظاهرة التي تُعرف في عالم الفرق الإسلامية «بالحرورية».

أما عن شكل العلاقات الخارجية لهذه «الدولة»، عند أتباع هذا التيار السلفي الجهادي الجديد عامة، بما فيه أصحاب تلك الظاهرة، فإنه لم يظهر في هذا البعد أي منحى يصف من قريب أو بعيد كيف يكون هذا التعامل، إلا، مرة أخرى، نصوص للفقهاء الأُول، كالجويني وابن القيم والماورديّ.

وتقوم فكرة العلاقات الخارجية، عند أصحاب هذا التيار على مفهوم الولاء والبراء.

وهو، بالنسبة لهم، مفهوم مباشر لا التواء فيه، بل ولا تفصيل، يتلخص في آية الممتحنة **«قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ»**.

الأسباب:

والبعد السببيّ في نظر هذا التيار هو بعدٌ قريب الشبه إلى التصور السببيّ الصوفيّ، أو الأشعريّ، بشكلٍ لا-شعوري.

والحق إنهم للتصور الصوفي أقرب، إذ الأشاعرة يفصلون بين السبب ونتيجته صورياً، ولا يرفعونه من صورة الأفعال بالتمام.

بينما النظر الصوفي، وقريب منه التصور السلفي الجهاديّ (الحروري) الجديد، يعتمد على البعد الغيبي والمدد الإلهي بطريق مباشر، دون النظر إلى السلسلة السببية التي بنى الله سبحانه عليها الكون، وسننه في الدنيا والآخرة، وربط بها الأعمال بنتائجها، في الدنيا والآخرة.

وهي سبب طبيعي ومباشر لتصورهم عن الواقع كما سيأتي.

الواقع:

أما عن نظرة أبناء هذا التيار للواقع (سواء السلفي الجهادي أو الاتجاه الحروريّ)، فهي مختلفة تماماً عن نظرة الحركات «الإسلامية» التي ذكرنا.

والحق، أنهم لا يكادون ينظرون إلى الواقع على الإطلاق، أعني خارج دائرتهم الضيقة.

فالواقع بالنسبة إليهم، شيء حادث، غريبٌ، يجب أن لا يكون موجوداً، بل يجب أن يكون معدوماً، يمكن بتجاهله أن يختفي.

فبمجرد إعلان دولة الإسلام، أو خلافة أو إمارة، أو ما شئت، ستختفي بقية دول العالم، بقدّها وقديدها، ولن يكون هناك، من ثم، داع لعلاقاتٍ أو تعاملات أو تطبيقات لولاء أو براء! بل هو مجرد غزوهم في عقر دارهم، في القارة الأمريكية، وأوروبا، ثم آسيا والصين، وهم – هؤلاء الكفرة – ساكتون لا يحيرون فعلا، ولا يردّون غزواً.

ذلك هو، في حقيقة الأمر، تقدير هذا التيار للواقع الخارجيّ.

إلا من آثر منهم التعامل بشكلٍ خفيٍّ مع «الواقع»، فأخذ مالاً، وعتاداً، ودخل بهما حلبة التيار السلفي الجهاديّ، من الباب الخلفيّ!

وقد أفرزت الأحداث الأخيرة، على الصعيدين العراقي والشامي، عدداً من الجماعات الإسلامية التي تحمل هذا التصور، تتراوح في أعداد منتسبيها بين العشرة والعشرة آلاف مقاتل، على أكثر تقدير. بدأت في قتال الروافض في العراق، ثم تابعت إلى الشام، ثم لحقت إحدى هذه التنظيمات، المعروفة بتنظيم «الدولة الإسلامية في العراق «، إلى الشام، وخاضوا، ولا يزالوا، معارك مع بقية الجبهات والكتائب المسلحة في الشام، على أصل أنهم «الدولة»، وأن بيعتهم هي «البيعة»، وأن أميرهم هو «الأمير»، بل أمير المؤمنين كما يسمونه.

إلا أنّ كل تلك الأحداث، والتنظيمات التي أحدثتها، والأصول التي بنيت عليها تلك التنظيمات، عليها إشكالات عديدة، منها شرعية، ومنها واقعية، أعني في تطبيق أحكام الشرع على مناطاتها.

من ذلك مفهوم البيعة والإمامة والتمكين.

لكن، الأهم، هو ما سنتناوله في بيان صحة تطبيق تلك المفاهيم على واقعنا الحالي، كما سنبيّن لاحقاً إن شاء الله.



الإشكاليات

نعزو تلك التصورات كلها، والتي تعجّ بها ساحة العمل الإسلاميّ إلى عاملين مشتركين بينها، ثم إلى عوامل خاصة بكل جماعة.

أولها: الإحباط الديني والنفسيّ الذي يشعر به أبناء هذا الجيل من جرّاء بُعد مجتمعاتهم عن الإسلام، عقيدة وعملاً.

فالأمر بُعده نفسيّ أولاً وأخيراً، سواء عند قادة تلك الجماعات، أو عامتهم.

والحق، أنه ليس في قيادات ذلك التيار «السلفي الجهادي الجديد» قيادات لها خبرة وتأسيس، إذ هو تيارٌ ناشئ وليد كله، لا تزيد أعمار قياداته عن بداية الأربعينيات، مما يجعلهم جيلاً حديثاً قليل البضاعة في الخبرة، ويكاد يُلحقهم بأتباعهم في هذا المجال.

بينما اتجاهات أخرى، كالإخوان أو قاعدة الجهاد، تجد فيهم جيلاً مخضرماً، عاش خلال عهود مختلفة وعاشر أنظمة طاغوتية متعددة، ومنهم من جاهد مختلف قوى الصهيو-صليبية كالشيخ الجليل أيمن الظواهريّ، حفظه الله، أو قيادات الإخوان عامة، على انحراف منهجهم.

والعامل الثاني هو ضعف العلم الشرعيّ بين «شرعييهم» أو «فقهائهم»، في التيارين، واقتصار عوامهم على التقليد الأعمى في طرفٍ، والاجتهاد المطلق في بعض المسائل المفصلية في طرفٍ آخر.



إشكاليات الفكر السياسيّ الإخوانيّ في موضوع الدولة

أما العوامل التي اختصت بها جماعات الحركة الإسلامية الديموقراطية، فهي تتلخص في إشكالية التعامل مع أبناء الأمة ممن ليسوا من المبايعين لها.

فمن ناحية، تجد الجماعة منفتحة على «الأمة»، التي هي كلّ من عاش على أرض الوطن المشترك لديها، حتى اليهود والنصارى والمجوس.

وقد رأينا كيف أنّ تلك الجماعة لا ترى مانعاً من حاكم قبطيّ، أو امرأة، بل تجد في هيئتها الحزبية نصارى مثل رفيق حبيب.

لكنها في نفس الوقت، من ناحية أخرى، منغلقة على نفسها، تستخدم من لا يبايعونها، ولا تتحشى من هذا الاستغلال، الذي تبرره بالصالح العام لجماعتها.

وهذا أسوأ ما يمكن أن يكون من تصور للعلاقة بين «الجماعة» و»الأمة»، إذ فيه ما فيه من كذب واستغلال وخداع، بل ونفاق.

كما أنك واجدٌ، نتيجة لهذا المنهج، إشكالية أخرى، وهي بناء تنظيمهم على مبدأ «الولاء لا الكفاءة». فالجماعة لا تقبل في هيكلها إلا من ينتمون إليها، وإن قلّت أو انعدمت كفاءاتهم.

والآخرون إنما هم «متعاطفون»، يستخدمونهم لتحقيق أغراض، مادية أو معنوية.

شكل الدولة:

- والشكل الذي تطرحه معطيات الفكر الإخواني الديموقراطي، لا يكاد يتميز عن الطّرح الديموقراطيّ العلمانيّ، سواءً في البنية أو الهيكل التشريعي والتنفيذي والقضائي، والذي يعتمد الانتخابات العامة طريقا لشغل مناصب هذا الهيكل.

  وهذا الطرح له إشكاليته في الفكرة الإسلامية، إذ إن هذا البناء يقوم على قواعد الديموقراطية، التي هي حكم الأغلبية، مسلمة كانت أو نصرانية أو مجوسية.

وهي فكرة مرفوضة عقدياً، إذ تخالف أساس التوحيد الذي لا يمنح المُشرك ابتداء أيّ حقٍ في الهيكل التشريعي والقضائي، ويقيد دوره في الهيكل التنفيذي.

- ولهذا، فإن الطرح الإخواني لم يقدم جديداً في هذا المضمار، ولم يتخذ من المصادر الشرعية مصدراً إلا مبادئ عامة، في أعلى مستوياتها، والتي أسموها «مبادئ الشريعة» [١]

وهذا يتفق مع النظرة العلمانية التي لا تبالي إن أخذت بالمبادئ العامة للشريعة، فهي قواسم مشتركة لدى المسلم والكافر، وهي من قبيل العوائد التي لا تختلف باختلاف الأعصار والأمصار، والتي غالبا تكون مما اتفق عليه عقلاء الجاهليات المتتابعة، بعيدا عن هدي الوحي، وتلقته عقولهم بالقبول. [٢]

- أما عن العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية الإخوانية، فإن إقرارها بالمعاهدات والمواثيق الدولية، يُعتبر إشكالية أخرى، من المنظور الإسلاميّ.

إذ إن تلك المعاهدات والمواثيق تقوم على مبدئين، أولهما حفظ المصالح الحيوية الصهيو-صليبية، وثانيهما المرجعية العلمانية لتلك المواثيق.

لكنّ هذا التوافق يأتي من مبدأ اعتمدته الجماعة في تنظيم الدولة الداخليّ، وهو «المشاركة لا المغالبة».

---

[١] - راجع مقالنا «بين مقاصد الشريعة ومبادئها» http://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/53959/%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D9%85%D9%82%D8%A7%D8%B5%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%B1%D9%8A%D8%B9%D8%A9-%D9%88%D9%85%D8%A8%D8%A7%D8%AF%D8%A6%D9%87%D8%A7-%D8%B1%D8%AF%D9%8C-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84-%D8%AC%D8%A7%D8%B3%D8%B1-%D8%B9%D9%88%D8%AF%D8%A9

[٢] - الموافقات ج٢ ص٧٩٢.

وهذا يوقع الجماعة في حرج كبير واشكالية عميقة مع الفكرة الاسلامية؛ إذ يقود مباشرة إلى التصادم مع النصوص، والاجتهادات المبنية عليها، بدافع المصلحة، التي يجعلونها مرجعاً شرعياً عاماً، كما فعل الطوفي الحنبليّ. [١]

بل يقودها إلى التسليم المطلق للقوى الخارجية في نهاية الأمر، فمتى بدأ الانزلاق في هذا الاتجاه صعب تقييده وتحديده.

ولا يخفى ما في مثل هذا الانزلاق من هدم لأساسياتٍ ومطلقات وثوابت شرعية تودي غاليا إلى خرم التوحيد والتلفت من الدين بالكلية.

الأسباب:

والنظرة الإخوانية في علاقة الأسباب بالمسببات، نظرة خاطئة ابتداء من المنظور الإسلاميّ، فإن الله خلق النتائج تتبع أسبابها، لكنّ هذا لا يعنى أنّ ما نراه في عالم الأسباب لا يمكن أن تنشأ نتيجة بخلافه، أو يقع أمر لا يوافقها.

وكمثال، ادعاء أنّ أمريكا تمسك بمفاتح الدنيا كلها، وهو صحيح في عالم الأسباب التي تحدّها أمور كثيرة، فإن أمريكا لها حساباتها الخاصة في تناول الأمور أولاً، ثم إن ما يراه الخصم من قوتها وسيطرتها، فإنما يراه من منظور ضعفه هو، قبل منظور قوتها.

وهذا التصور ينشأ في النفس استلاماً للأقوى، من حيث أنّ قوة الخصم لا بد أن ينشأ عنها هزيمة الأضعف واستسلامه له، بلا استثناس، كما ذكر ابن خلدون في مقدمته.

ولو عرضنا مواقف الإخوان بعامة على هذا النظر لوجدناه سبباً في الكوارث التي حلّت بالحركة المصرية والتونسية، ومفسراً لمواقفهم الانهزامية في علاقاتهم الخارجية وضعفهم في وجه القوى الفاسدة الداخلية.

---

[١] - راجع كتابنا «المصلحة في الشريعة الاسلامية»، طبعة دار ريم ص١٥ وبعدها.

الواقع:

والواقع الذي تحدثنا عنه عند قادة هذا التيار، ينشأ عنه إشكالية محيرة، إذ إنه يعتبر السطوة الصهيو-صليبية كاملة تامة، ومن ثم يحاول التحاور معها، والرضا والخضوع لقراراتها، من حيث هو يريد، غائياً، أن يتخلص من سطوتها.

كذلك إشكالية التعامل مع الهيئات والمؤسسات الاجتماعية والتنفيذية القائمة، فإن الواقع يملى التعامل معها، إذ لا داعٍ لاستبدالها، فالقائمون عليها «مسلمون»، وهي مؤسسات «شرعية» لا تحتاج هدماً بل إصلاحاً، حتى المؤسسات العسكرية والأمنية. وهذا ما يبرر سقوط دولة الإخوان في مصر في عامٍ واحدٍ، بسبب خلل تقييم الواقع لديهم، ومن ثم كيفية التعامل معه.



إشكاليات الفكر السياسيّ الحروري الجديد في موضوع الدولة

أما هذا الفكر، فحدث ولا حرج عن نقاط ضعفه وتناقضه وتبسيطه المخلّ. ولعل من أسباب اتباع كثير من الشباب العاميّ لهذا الفكر ما يلي:

- اليأس من التغيير، بأي طريقة أخرى غير التي يرونها، خاصة ما كان من تجاربٍ فاشلة، عقدياً وعملياً، في مصر وتركيا على سبيل المثال، مما استبدل مواجهة «الواقع» لدى هؤلاء، باستبطان «حلم»، ثم العمل على الوصول اليه، دون التفكير في مدى واقعيته.
- ضعف العلم الشرعيّ والوضعيّ، والإقتصار على مصادر السلف الصالح في وضع تصور دولة إسلامية، في القرن الحادي والعشرين، أو الخامس عشر هجرية.
- قلة الخبرة والوعي بما هو عليه واقع الدنيا اليوم، وعدم إدراك التوازنات العالمية على الأرض.
- انعدام العلماء الربانيين من الطبقة الأولى، الموجّهين لحركة هذا القطاع من الجيل)[١]، في الاتجاه الصحيح، مما أدى إلى أن يكون تحرك أبناء الإتجاه مبنيّ على تصورات طلبة علم، صغار في السن والعلم والخبرة، فباءت محاولاتهم بالفشل، كما رأينا في تجربة «الجماعة الإسلامية المسلحة»، التي كانت وليدة تجربة حركة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر، والتي فشلت بدورها لتبنيها النهج الديموقراطيّ، ولأسباب أخرى ذكرناها في محل آخر، وبرغم ذلك، فإنها قد أنتجت حركة جهادية أخرى

---

[١] – راجع مقالنا «عن تنظيم ~~الدولة..لعلهم يتقون ٢~~ – شهادة العلماء» http://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/72614/%D8%B9%D9%86-%D8%AA%D9%86%D8%B8%D9%8A%D9%85-%-D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9-%D9%84%D8%B9%D9%84%-D9%87%D9%85-%D9%8A%D8%AA%D9%82%D9%88%D9%86!-2-%D8%B4%-D9%87%D8%A7%D8%AF%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D9%85%-D8%A7%D8%A1

كانت الأقرب للنجاح، وهي الجماعة الإسلامية المسلحة» في طورها الأول، بقيادة أبو عبد الله أحمد، لولا ما آل اليه فكرها الحروريّ، على يد الزيتوني والزوابري من بعده، فأجهضاها، وأفشلا التجربة الجهادية برمتها. فكأنما ولدت حركة الإنقاذ المُفرّطة حركة الجماعة المسلحة المُفرِطة، حسب نظرية «البندول»، التي نتبناها في فهم الحركة التبادلية بين طرفيّ المعادلة الإسلامية.

لكننا هنا لا نرى أنّ شكل «الدولة» كان من النضوج الكافي لدى هؤلاء جميعا كي يصل بها إلى مرسى الأمان، على أية حال.

شكل الدولة:

(١)

مقدمة:

- وهذا البعد النفسيّ الذي ذكرنا آنفا، هو الذي يجب أن يشد اهتمام الباحثين في أمر الإسلام، والجهاد العالمي خاصة؛ فإنه هو المحرك الدافع وراء كافة التصرفات، والتصورات التي تعج بها الساحة، إن استثنينا العملاء فيها.

وهذه الحقيقة تجعل أبناء هذا التيار، سواءً المشاركين فيه فعلاً على الأرض من مجاهدين، أو أتباع الفصائل المختلفة على الصعيد الإعلاميّ، هم آخر من يجب أن يُستمع إليهم في تحليل الموقف القائم في ساحة القتال، إذ إن نظرهم يفتقر إلى الموضوعية اللازمة للوصول إلى القرار الصائب، وأعني به على المستوى الاستراتيجي، لا على مستوى التحركات اليومية من موقع إلى آخر، أو تقديم وتأخير أوقات الهجوم وغير ذلك.

وهذه القرارات الأخيرة، هي من عمل القادة الميدانيين بالقطع.

- أما ما قصد إليه علماء السلف، ممن أشاروا إلى أنه يُستمع إلى علماء [١] الثغور، فهو فيما يخص أوضاعهم في الساحة الجهادية، إذ يلجأ إليهم القادة هناك ليُفتوا لهم في معضلاتهم الشرعية، كموضوعات الأسر ومعاملة المحاربين، وتوزيع الغنائم وما إلى ذلك، وأما ما نقصد إليه هنا، فهو أمر مخالف للشأنين اللذين ذكرنا.

فإن التقدير العام لتوجه الحركة الجهادية، يصعب، بل قد يستحيل على من هم في غمار الأحداث أن يقوّموه.

وهو أمر عام شائع في كافة أمور الحياة، أن يعجز المرء عن تقدير حقيقة موقف ما طالما هو جزء منه. بل الأفضل إما أن ينفصل عنه أو أن يكون أساساً ممن هو خارجه، ليصلح النظر، ويصح الاستدلال.

- لهذا، فإنه قد غابت حقائق وتقديرات كثيرة جدا، عن أنظار قادة تلك التنظيمات، حتى ورّطوا الساحة في أوضاع لا يرون حقيقة أبعادها وخطورة نتائجها، مما يجعل نهاية هذا الوضع الحاليّ لا تشير إلى أيّة بشارة خيرٍ، عند أصحاب العلم والخبرة والموضوعية.

(٢)

- الحركة الجهادية السنية العالمية، التي تقوم بالجهاد اليوم، منها ما يعرف معنى الدولة من حيث مارسها، كما في قاعدة خراسان، من خلال ملازمتهم ومصاحبتهم لدولة طالبان.

ومنهم من يريد أن يعرف ضوابطها وحدودها، وهم من في قاعدة الشام،

---

[١] – وحين نقول «علماء» لا نقصد «شرعيون» انتقلوا من بلادهم وهم أنصاف طلاب علم، ليلتحقوا بالجهاد، فصاروا علماء بين تلك الجماعات بين عشية وضحاها! هذا باب من أعظم أبواب الخلل في الساحة الجهادية، خاصة منذ أيام الجهاد الجزائري، إلا من عصم الله كالحركة في أفغانستان.

كالنصرة[١]، أو الملتزمون بالقاعدة في بلاد أخر.

ومنهم من يتيه في صحراء الأحلام، لا يعرف «دولة» شكلاً ولا موضوعاً، إلا أمنيات تجترها قياداتهم، يغذون بها أحلام تابعيهم، وهم أصحاب الجهاد الحروريّ.

ونركز كلمتنا هنا على هؤلاء الأخر، من حيث أنّ قاعدة الشام، تسمع وتطيع لمن هم أعلم منها وأسبق في هذا المضمار[٢]، أما هؤلاء فإن رؤوسهم حديثة عهد بعلم وجهاد، مع انحراف رؤية وتصور، مما يسميه أهل السنة ابتداعاً.

- والاشكاليات على النظر الحروريّ منه، كثيرة متعددة، لدرجة تجعل تكوين الدولة ذاتها، وبناءها الداخلي، أمر مشكوك في القدرة على تطبيقه، لضبابية مفاهيمه، بل لانعدامها نظرياً.

فالحركة هي التي تحدد شكل الكيان الذي يرسمون صورته، لا استقرار وضع على الأرض، وهو ما يجعل «الدولة» هلامية الشكل لا استقرار فيها، إذ هي في مكان ما في يوم من الأيام، ثم إذا بها تتركه في اليوم التالي، كما حدث في إعزاز وحريتان وكفر حمرة على سبيل المثال، حين تمّ إخلاؤها من قبل تنظيم «الدولة»[٣].

وهذه إشكالية كبرى تنعكس أساساً على موضوع البيعة كله، وتضعه رهن التساؤل.

- و«الدولة» عند هؤلاء هي «اسم» أكثر منه حقيقة، سواءً في التعريف الغربيّ، أو في التعريف الإسلاميّ.

فأنت واجدٌ أنّ ما أطلقوا عليه «الدولة الإسلامية في العراق والشام» هو في حقيقته

[١] مع الأسف تحولت النصرة إلى جبهة ثم هيئة، ثم خاب مسعاها مؤخرا بتبنيها العمل السياسي

[٢] انفصل الجولاني عن القاعدة ففقدت الحركة توازنها وانهارت وانتهت بحصارها في الشام

[٣] وكما استشرفنا، فقد انتهى تنظيم الدولة الحروري إلى دمار شامل، وتحطيم كامل.

تنظيم كبقية التنظيمات التي تعُجّ بها الساحة، تتحدد جغرافياً بحواجز على مناطق سيطروا عليها، وتتكون من مجموعة مقاتلين، وهيئات تدير بعض أنشطة اجتماعية قائمة بالفعل في تلك المناطق، بعد تغيير اللافتات التي على جدران منشآتها.

ثم هذه الحواجز يتغير وضعها بين يوم وليلة، حسب الكرّ والفرّ.

وليس لهم منطقة مركزية يُرجع لهم فيها، وهي ما اصطلح على تسميتها «العاصمة»، والتي تمثل مركز الدولة في المفهوم الحديث، وفي المفهوم الإسلاميّ المُحدث على السواء.

والفكرة العقدية [١] التي تبنونها فكرة إسلامية بدعية، عرفت بالحرورية [٢]، وهي

[١] – أو الأيديولوجية، حسب تعبير الباحثين الاجتماعيين، وكذلك ما تبناه د أكرم حجازي في دراسته الماتعة المطوّلة.

[٢] – يعتقد البعض أن فكر الخوارج أصله تكفير المسلم بالسرقة أو بالقتل أو بالزنا أو ما شابه من المعاصي. وهذا تبسيط مخل بأصل الفرقة، ووصف لها بأعراضها، فأصلها تكفير المسلمين ممن يرتكب معصية في نظرهم، لذلك بدؤوا بتكفيرعلي ومعاوية ولم يكونا سارقين ولا زانيين رضى الله عنهما. فقد رأوا أن تحكيم الرجال هو كفر بمبدأ الحكم لله، ثم ألبسوا هذه الصورة من التحكيم لباس الكفر فكفروا فاعلها ثم حاربوا ووالوا وعادوا عليها، ثم تطورت فكرتهم بعد ذلك مع الزمن لتشمل المعاصي الواردة مع اختلاف شاسع بين فرقهم فيها.

وهذا الأصل هو ما عليه هذه الدولة المارقة، لكن بالنسبة لآمور منها ما قد يكون معاصٍ مثل بعض صور التعاون مع المشركين، أو ممن أوّل في موضوع الديموقراطية، فيكفرون العاذر، ومنها مه هو محض افتراء مثل ما فعل العدناني الحروري في تكفير الظواهري، برميه بكل صفة اجتمعت الأمة على كفر فاعلها. فهم إذن يتخذون معاص يلبسونها ثوب الكفر ثم يرمون بها المسلمين ثم يقاتلوهم ويقتلوهم عليها، وهو أصل دين الحرورية بلا خلاف. ولا يلزم أن يشاركوا من عشرين فرقة تختلف بين حرورية في كل جزئية، فالخوارج أكثر من عشرين فرقة يجمعها أصل واحد، هو تكفير المسلمين ثم قتالهم على ما رأوه كفرا.

ولو ظل أمر التكفير هذا نظريا لما اكتملت أركان وصفهم بالحرورية، لكنهم خرجوا بالسيف يقتلون على بدعتهم هذه، فتمت أركان التوصيف، وصح وصفهم بالحرورية.

فرقة لم يكن لها في يوم مركزاً أو عاصمة أو دولة أو حتى إمارة صحيحة في الشرق، إلا بعض دول في الغرب الإسلامي كالدولة الرستمية ودولة بني مدرار.

ذلك أن فكرتها تقوم على محاربة «الأمة» التي تعتبرها كافرة بعامة، ومن ثم، فإن تلك الفرقة قد آل أمرها على الدوام إلى أن استهلكتها الأمة، وهضمتها، وقذفت بها خارج جسدها كما يقذف المرء بقاياه.

- ثم إشكالية أخرى، لا تختصّ بها الفكرة الحرورية على وجه الحق، بل تشاركها فيها كافة تيارات السلفية الجهادية، وهي إنها لا تعرف آلية حقيقية حتى الآن، لتمييز «أهل الحل والعقد»، عدا استناد كلّ طائفة على نصوص أئمة السنة والجماعة، في تعريفاتهم العامة التي وردت في كتب السياسة الشرعية القديمة.

أما آلية اختيارهم، ومن يستحق أن يكون منهم ومن لا يستحق، وأي محلة لها أن تدعى أنّ أهل حلّها وعقدها هم «أهل حل وعقد» كافة مسلمي الأرض؟ فهذه الأسئلة لم تُطرح بأي جديّة على وجه الإطلاق.

إقامة الدولة:

سبق أن قررنا بعض الإشكاليات التي تُطرح على الفكر الجهاديّ، خاصة الحروريّ، بشأن إقامة «دولة». ونعيد القول الذي سبق أن قررناه من قبل بهذا الشأن، في رسالتنا المفتوحة إلى قادة تنظيم البغداديّ، قلنا فيها «التعامل مع مصطلح «الدولة»، وما جرّه ذلك المصطلح من أزمات على ساحة الحركة الإسلامية كلها في الشام.

فقد انطلقت «الدولة» من قناعات وتصورات، قد خُلّط عليها أمرها فيها، فاستصحبت أفكارا وأوضاعا سياسية وتركيبات اجتماعية لا تنطبق على أرض الواقع من ناحية، ولا تسير على نهج الشرع أو رواية التاريخ من جهة أخرى، حتى وإن أقرّ عليها الشيخان أسامة بن لادن وأيمن الظواهري، وهي إنها «دولة» نتيجة ظروف تاريخية لا محل لذكرها هنا.

وقد تساءلت في مقال لي، لا بأس من نقل جزء منه هنا لأهميته، قلت «غموض مفهوم «الدولة» لدى مسؤوليها، وبالتالي لدى أتباعها ومن يتبع الأحداث.

فالدول، من حيث هي دول، لا تزال تنظيمات اجتماعية، تقوم بأدوار معينة، في مجالات الحياة، وهو ما قد تقوم به جبهات أو إمارات، أو ما شئت أن تسميه.

وفي رأينا أن توصيف «الإمارة» أقوى من توصيف «الدولة»، إذ توصيف الدولة أمرٌ لا دلالة عليه في الشرع، بل هو تاريخي وضعي، أمّا الإمارة، فهي مما ثبت شرعاً في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابته وتابعيهم. ومن تمسك بتعبير الدولة إنما وقع في شرك تسمية محدثة، وتعريف وضعيّ، بنكهة إسلامية! وإلا فيجب أن يتحدد معنى «الدولة» المقصودة هنا، وما تشبيهها بدولة المدينة إلا إسقاط لتسميات مؤرخين مُحدثين على وضع الجماعة المسلمة في المدينة وقت النبوة.

ولم يكن معروفا أيامها «دولة» مكة في مقابل «دولة» المدينة. وما هذا التمسك إلا أثر من الآثار الخفية لسايكس بيكو [١]، التي تعطي تعبير «الدولة» احتراماً وحقوقاً أكثر من الإمارة أو الولاية أو الخلافة».

الشاهد أنّ تنظيم «الدولة» هنا، قد ألزم نفسه، وعامل غيره، بمفهوم غير واضح ولا مستقر.

فإن عَنى بإطلاق لفظ «الدولة» ما يقصد به القانونيون في العصر الحديث، فلابد لها من عاصمة، وحدود مستقرة، لا تتغير كل فترة حسب ما تفقد من أرضٍ، أو تستولي عليها .

وأظن أن «الدولة» لا تقصده، من حيث إنه اتباع لمفهوم سايكس بيكو في تقسيم أرض الله! وقد كانت الدولة الكندية عرضة للإنقسام عام ١٩٩٦، من قبل الجزء الفرنسي فيها،

[١] – ولنا في مفهوم سايكس بيكو كلام في مقالٍ سابق، نعود اليه بعد إن شاء الله.

وكانت تستعد لتغيير كلّ ما هو متعلق بكيانها إن حدث الانشقاق، إذ تغير الحدود يملى تغيرات كثيرة تتبعه، في منطق الدول الحديثة.

وإن لم تكن تقصد هذا المصطلح بمعناه الوضعيّ، فلماذا تحارب دونه، وتوالى وتعادى دونه، بل وتغرس في عقول أتباعها وأنصارها كلّ هذا التحيز والتعصب للمصطلح، حتى إنهم يفاصلون عليه.

ثم إن «المدينة المنورة» لم تكن دولة، ولم يُطلق عليها أحدٌ اسم الدولة إلا المؤرخون المحدثون في القرن الماضي. ولذلك قال د أيمن الظواهري «ليس هناك شيء الآن في العراق اسمه القاعدة، ولكن تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين اندمج بفضل الله مع غيره من الجماعات الجهادية في دولة العراق الإسلامية حفظها الله، وهي إمارة شرعية تقوم على منهج شرعي صحيح وتأسست بالشورى وحازت على بيعة أغلب المجاهدين والقبائل في العراق». فكما قلنا فيما سبق، إن توصيفها الحقيقي في العراق هو «الإمارة»، وهي بإذن الله مشروع دولة، إن التزمت بالسنن.

بل إن حركة حماس، التي تتحكم في قطاع غزة منذ سنين، لا تعتبر دولة على وجه الحقيقة.

إذن، فنحن نرى أن «الدولة الإسلامية في العراق والشام» ليست إلا «مشروع» إمارة شرعية، تقوم على تنظيم جهادي على الأرض، وإن اختار لنفسه أن يسمي كيانه «الدولة».

ونرى أنّ هذا كان مقنعاً في وقتٍ ما بالعراق، من حيث أنّ هناك دولة المالكيّ الرافضية، ودولة الأكراد ذات الحكم الذاتي، فلم لا يكون هناك «دولة» للسنة، إغاظة للعدو، واستعدادا لما هو آت؟ [١] « اهـ

---

[١] - راجع مقالنا «خطاب مفتوح إلى جماعة الدولة - الإنصاف فيما يجرى على أرض الشام من اختلاف» بتاريخ ٩١ أبريل ٢٠١٤، http://www.tariqabdelhaleem.net/new/Artical-72582

ولنتحدث هنا بشكل أكثر تفصيلاً في هذا الأمر، وسأطرق هذا الموضوع بشكلٍ أحسبه جديد يناسب ما نحن فيه.

فنقرر أنّ هناك وجهان أساسيان في موضوع إقامة الدولة:

الدولة الإسلامية شكلاً وتنظيما: وهذه الوجه يتعلق أساسا بثلاثة نقاط بارزة:

التمكين: والتمكين ركن من أركان إقامة الدولة، لا شرط من شروط إقامتها. والفارق هنا أنّ الركن يقع من داخل العمل، أمّا الشرط فيقع من خارجها. وهذه من النقاط التي خفيت على مؤسسي ما أطلقوا عليه «الدولة الإسلامية»، إذ اعتبروا التمكين شرطاً، والشروط من أوصافها أنها قد تكون شروط صحة أو شروط كمال، كما يمكن أن يؤجّل الشرط لسبب من الأسباب، أو يصح العمل دونه في بعض الصور. أمّا الركن فلا. فلا دولة دون تمكين، قولا واحدا. كما لا صلاة دون تكبير، ولا حج دون وقوف بعرفة. والتمكين كلمة ليس لها حدّ محدود بمعنى أنه يصف كلّ ما يقع في حيزها، وما يخرج عنه.

والتمكين له شقان:

المُمَكَّن فيه: وهو الممالك والأراضي التي يقع عليها التمكين، ولا معنى لتمكين إلا بها، وإلا كان التمكين كعدمه، وهماً لا أكثر.

وقد أكثر الناس في الحديث عن هذا الأمر، لكن نتفرد هنا بما يستحق النظر خاصة ما نرى أنه فات على أكثرهم.

وهو أنّ ما كتبه القدماء من حدود وتعريفات للتمكين، تعتمد كلها على أنّ هناك مُمَكَّن فيه ابتداءً. ومن ثم، تحدثوا عن الأئمة إن عدموا، أو تنازعوا أو شبه ذلك. وما ذلك إلا لأنهم انطلقوا في تنظيرهم من واقع وجود «أمة» وخلافة وعسكر وجيوش، ثم انعدم الإمام، كما في غياث الأمم، أو انحرف أو خرج عليه خارج، كما في الماوردي وغيره. ومن

ثم، ناقشوا شرائط الإمام، والتمكين في ظلّ أرض موجودة ودول قائمة بعناصرها، يمكن أن يُمَكَّن فيها.

وادرس هذا الذي كتبه الجوينيّ في «غياث الأمم»، لتعرف مصداق ما ذهبنا اليه.

قال في معرض حديثه عن التسليم لإمامٍ ولو من غير عقد بيعة «..أن قصر العاقدون وأخروا تقديم إمام، وطالت الفترة وتمادت العسرة وانتشرت اطراف المملكة وظهرت دواعي الخلل ..»[١] . ومثل هذا منتشٌر في أنحاء الكتاب، يبني عليه أحكام نصب الإمام إنْ غاب لكن دون غيبة المُتَمَكَّن فيه، وهو الأرض والناس، وباختصار «الأمة». ومن ثم، فإننا نحسب أنّ كثرة من كتب في هذا الأمر، اعتماداً على كتب المتقدمين، لم ينتبه لهذا الفرق العظيم بين الحالين، حال وجود المُتَمَكن فيه (الأمة، الأرض..) فيه دون المُتَمَكِن (الإمام)، بينما نحن نتحدث في انعدام وجود الاثنين المُتَمَكن فيه (الأمة، الأرض..) فيه والمُتَمَكِن (الإمام). بينما تتحدث طائفة الحرورية عن إيجاد المُتَمَكِن (الإمام)، قبل إيجاد المُتَمَكن فيه (الأمة، الأرض..) [٢] ! وهذا قلبٌ للحقائق وقصور فهم لما تدل عليه كتب السلف، ونقص في الوعي بما عليه الماضي، والحاضر، وما قد يكون عليه المستقبل.

ولقائل أن يقول: كيف هذا، والأمر اليوم هو على ما تصف، ويصف القدماء، وهاهي أراضي المسلمين منتشرة، وممالكهم متسعة، ودواعي الخلل فيها ظاهرة، أفليس هذا ما يصفه الجوينيّ؟

قلنا، لا والله بل هو فرق دقيق لا يفطن له إلا القليل. ذلك أنّ تلك الممالك محكومة ابتداءً بمن هم متمكنون فيها تمكناً أصلياً، لعقود متطاولة، ويحكمون فيها بغير ما أنزل الله، وبقوانين العلمانية. فهي ليست ممالك إسلامية البتة، بل لن يخضع منها أحدٌ لو

---

[١] – راجع «غياث الأمم في التياث الظلم» للجويني ص١٢٢، طبعة دار الدعوة

[٢] – وهو ما سبق أن أشرنا اليه إشارة سريعة من قبل في إحدى مقالاتنا حيث ذكرنا أن هذا من قبيل وضع العربة أمام الفرس، لا خلفه!

دعي إلى إمامٍ على ما وصف الجوينيّ. بل إن ما قصد إليه القدماء هو وجود ممالك تقبل بحكم الله أصلاً، وإن مزقتها الخلافات واختلت فيها وسائل الحكم، لكنها لا تزال أرض إسلامٍ، وممالك مسلمة، مُمكَّن فيها للإسلام، دون إمام. فتنصيب الإمام هو، حين ذاك، واجب الوقت، سواءً ببيعة أو بشوكة أو بغير ذلك لتحقيق المراد من حكم الله للعباد. لكن، هل هذا ما نحن عليه اليوم؟ إن تجاوزنا عن أنّ الأصل في الناس اليوم الإسلام، وهو ما لا تقول به طوائفٌ بدعية، فإن هذا لا يمنع أنّ هذه الممالك اليوم لا يد للإسلام فيها، ولا تمكين.

إذن، فإن السعي اليوم لتنصيب إمام حسب القواعد والأساليب الي كانت يوم كتب القدماء ما كتبوا، هو أمرٌ بعيد المنال. بل الواجب هو استلهام المنهج الذي نظر به القدماء في هذه المسائل، مسائل الإمامة والبيعة، ثم توجيه النظر بما يليق بما نحن فيه اليوم من حال.

وهذه، فيما نرى، هي الإشكالية الكبرى التي نرى كافة من تحدث في هذا الأمر قد وقع في حبائلها، ولم ينتبه لها، فراح ينقل نصوصاً ويحشد أقوالا، دون التفكر فيما تقع عليه من مناط. وللأسف، فإن هذه الثقافة، ثقافة النقولات والاستشهادات هي التي باتت تسيطر على كتابات أكثر من نرى على الساحة اليوم من طلاب علم أو رويبضاته، إلا شيوخ الدعوة وعلمائها. فترى المقال أو البيان حشداً هائلاً من نصوص ونقولات، يخرج به صاحبه، أو يخرّجه بما لا يدل عليه أصلاً ولا فرعاً، والله المستعان.

ولعل ما ذكرنا هنا، هو ما أشارت إليه كتابات عدد من علماء الأمة ومشايخ الجهاد، من ضرورة النظر إلى «الأمة» واعتبارها. وهو ما سنكشف عن الاتصال بينه وبين ما عرضنا في الحلقة الثالثة من هذا الكتاب «الأطروحات».

وهذا التمكين، يحتاج، كما ذكرنا، إلى أرضٍ مُمكَّن فيها، لا ينازع فيها غير المُمَكَن، وأن تكون هذه الأرض ذات حدود معروفة ثابتة، ليدفع عنها الصائل وتحمى بيضتها

وأموالها، كما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه سلم، والخلفاء كلهم من بعده. ولا يستلزم ذلك أن لا يُنتقص منها في حينٍ من الأحيان، لكن يبقى مركزها محفوظاً محمياً برياً و بحريا والأفضل جوياً كذلك، لتبقى لها صورة «الدولة» أو «الإمارة» قائمة على الأرض، لا على الورق وفي البيانات.

والتمكين، ليس فيه حدّ معروف جامع مانع، بل هو أقرب بالتعريف التطبيقي من التعريف المنطقي أو اللفظي أو التعريف بالماهية. كما نقول «ما التفاحة»، فيشار اليها «بهذه». إذ تختلف صوره وحدوده من وضع إلى آخر، فيقال «من المُمَكَّن» فيقال فلاناً. ولهذا علامات وأمارات يجب أن يتحقق أقلها ليمكن أن يطلق اللفظ، كما أنه لا يقال عن بذرة التفاح أنها تفاحة. وهذه العلامات والأمارات، هي ما أشار إليه العلماء في كتبهم من أنه يحصل التمكين لصاحب القوة والمنعة والشوكة، القادر على حفظ الأمة وحماية الديار والذب عن البيضة ودفع الصائل وقطاع الطرق وزجر اللصوص ومعاقبتهم، وإقامة الحدود الشرعية، وإرهاب العدو، وتحصين الحدود.

ومن هنا فإنه لا يقال لمن استولى على أرضٍ ما، وسط مملكة لا يزال ينازع العدو المغتصب في كلّ شبرٍ فيها، عسكرياً، أنها مُمَكّن فيها، إلا بالاستعمال اللفظيّ للكلمة، لا الاصطلاحيّ، والأقرب أنها أرضٌ «محررة»، لا مُمَكَّن فيها. ومن هنا جاء قول من قال بجواز عدم إقامة بعض الحدود في تلك المناطق، لعدم التمكين بأقل حدوده مما ذكرنا، بما يصلح أن يقال أن المسلمون «مُمَكَّنون» فيها.

ويجب هنا أن نعيد التذكير بأننا آثرنا استخدام مصطلح «التمكين» ومشتقاته، في بحثنا هذا، لعدة أسبابٍ:

أولها : فكّ الارتباط التلازميّ بين ما نحن فيه اليوم، وبين ما صدرت بشأنه أقوال العلماء القدامى في كتب السياسة الشرعية، لعدم تحقق مناط تلك الأقوال على كثير من المستويات، إلا تشابهاً، فيكون الاستفادة منها على مستوى الأحكام العامة، لا الفتاوى الخاصة.

والسبب الثاني : هو البعد عن التوصيفات العامة الكلية، التي يبهر بريقها عقول الخاصة بله العامة، كالأمير والإمام والبيعة. وهي أوصاف شرعية صحيحة يجب استخدامها، لكنّ الموقف اليوم يحتاج إلى تفكيكها، واستعمال مدلولاتها، لا أعيانها، ما أمكن، حيث غابت المدلولات وبرزت الأعيان، تحمل مدلولات أخرى مضللة، للخاصة، بله العامة كذلك.

ثم سبب ثالث : وهو ربط إقامة الدولة بركنها الذي هو في رأينا «التمكين»، فمن البديهيّ إذا أن نستخدم مشتقاته لنصف مقومات الدولة وعناصر إقامتها.



ذكرنا من قبل أنّ ركن إقامة «الدولة» هو التمكين، وأن «التمكين ينقسم، حسب ترتيب أولوياته، إلى:

- **مُمكَّن فيه**: وهو الأراضي والممالك التي يعيش فيها مسلمون قابلون للإسلام، أي ممُكّن فيها للإسلام.
- **مُمكِّنُون**: وهم أهل الحل والعقد، أو الطائفة التي يرضى بحكمها واختيارها المسلمون الذين يعيشون على تلك الأراضي والممالك القابلة للإسلام.
- **المُمَكَّن له**: وهو هنا إما أمير الولاية، أو الدولة، إن شئت استخدام المصطلح المحدث، أو الإمام أو الخليفة، صاحب البيعة الكبرى والولاية العظمى.

واتضح، فيما ذكرنا من قبل، أنّ ما تحدث عنه الفقهاء، من شقّ «التمكين» الأول، وهو «المُمَكَّن فيه» أي الممالك والأراضي التي يمكن أن ينصّب عليها إمامٌ، وأن تقام فيها الحدود، هي ليست أراض متناثرة تتصارع عليها قوى شتى، لعل أضعفها على الأرض هي القوى الإسلامية. بل هي الأراضي التي يتم تحريرها، والتمكن في حدودها، والقدرة على دفع الصائل عنها، وحفظ أمنها واستقرارها، بشكل دائم يوحى باستقرار حقيقيّ، لا استقرار

أسابيع حتى يُطرد منها أتباعها!

والواقع الحاليّ، أو الإشكالية التي يعيشها الجهاد في العصر الحاضر، أنّ هذه الأراضي والممالك، غير موجودة تحققاً، بل هي كما سبق أن ذكرنا، قطع أرض متناثرة، غير مترابطة، لا حفظ لحدودها ولا ثبات لها، مما يقطع الحديث عن «الإمامة العظمي» من باب تحقق وجود المُمَكَّن فيه.

المُمَكِّنُون: أهل الحل والعقد:

وهذا الموضع ينقسم إلى قسمين، حسب طرق تمكين الإمام أو الأمير، إما ولاية الغلبة، أو ولاية الاختيار. والأولى بالقوة، والثانية بأهل الحل والعقد، ولكلٍ مجالها وشروطها.

فأما تمكين القوة، فهو أن يكون للأمير أو الإمام قوة يبسط بها سطوته على الأراضي والممالك التي استوفت الشروط التي ذكرنا، بما لا يدع مجالاً لخارج عليه في تلك الأراضي، أو يكون عرضة بشكل يوميّ مستمر لهجومٍ يمنع من سيطرته وسيادته عليها، وتأمين أهلها، براً وبحراً وجواً.

وما من سبيل أن تكون هناك ولاية لأميرٍ، بله إمامٍ، يُلزم الناس ببيعته، ويقتل الخارج عليه، وأراضيه تقع تحت القصف الجويّ مثلا من الداخل والخارج، بشكلٍ مستمر!

هذا لا تمكين له بأي شكلٍ من الأشكال، بل هو وهم إمارة عامة لا أكثر، يعيش في ظله عامة من المسلمين، غالبهم يعيش ابتداءً في ظل دولٍ أخرى معادية للإسلام، ويلتزم وجدانيا بما يسميه «دولة».

إذن، فالقوة المجاهدة هنا، لا يسعها إلا بيعة حرب أو جهاد، لا غير.

أما بيعة يلتزم بها الخلق في حياتهم بشكلٍ عامٍ، فهذا خلط في التصورات، وخبلٍ في التهيئات، وصدى «الأنا» المفسدة التي لا تعلم شرعاً من وضع.

وسنتعرض لحكم الأراضي المحررة بعد إن شاء الله.

أما تمكين الاختيار، فيستلزم الحديث عن المُمَكِنون أو أهل الحل والعقد وهم من يسميهم الجويني «العاقدون»، وهم قسمان، إمّا المُمَكِنون لبيعة خاصة كبيعة الجهاد، لدفع الصائل، وتحرير أراضٍ يصلح أن تنشأ عليها بعض الممالك التي يُقام عليها خلافة أو إمارة. أو المُمَكِنون لبيعة عامة تقوم بها الإمامة العظمي. وبينهما، عموم وخصوص نبيّنه إن شاء الله.

فأهل الحل والعقد، لهم شروط وردت في كتب السياسة الشرعية، بألفاظ مختلفة. كما قد يناقش الفقهاء أمر العبد والمرأة، وغير ذلك. ومنهم من اشترط القدرة على الإفتاء أو حتى الاجتهاد.

لكننا وجدنا الأجمع فيها والأكثر قرباً من الواقع هو ما قرره الجويني بقوله «فالفاضل المطلع على مراتب الأئمة البصير بالإيالات والسياسات، ومن يصلح لها، متصف بما يليق بمنصبه في تخير الإمام » [١] .

ويصفهم كذلك بقوله: «وهم الأفاضل المستقلون الذين حنكتهم التجارب وهذبتهم المذاهب، وعرفوا الصفات المرعية فيمن يناط به أمر الرعية، فهذا المبلغ كاف في بصائرهم والزائد عليه في حكم ما لا تمس الحاجة اليه» . [٢]

وتعليقاً على هذا الكلام، فإنا نقف موقفاً وسطاً بين الجويني، ومن اشترط الاجتهاد في أفراد أهل الحل والعقد، ونسير على ما قرره الباقلاني في التمهيد، مما نقله عنه الجويني، من أنه «لا نشترط بلوغ العاقد مبلغ المجتهدين، بل يكفي أن يكون ذا عقل، وكيسٍ وفضل، وتهد

[١] - غياث الأمم ٢٨

[٢] - غياث الأمم ٢٨

في عظائم الأمور، وبصيرة متقدة بمن يصلح للإمامة» [١] .

والنقطة الأخرى هي العدد الذي تنعقد به البيعة. وقد زعم الباقلاني في التمهيد إنها قد تنعقد بواحد! وهذا خطأ إذ يناقض أصل التعريف بأنهم «أهل» وهو ما يوحى بالتعدد، وإن لم يلزم عدد معين لذلك. وهو عين ما قال الجويني «مما يؤكد ذلك إتفاق العلماء قاطبة على أن رجلاً من أهل الحل والعقد لو استخلى بمن يصلح للإمامة، وعقد له البيعة، لم تثبت الإمامة» [٢] .

ولكن، الأمر هنا، والذي تطابقت عليه الأمة، مهما كان العدد، هو أن» ينقاد» بقية الناس لاختيارهم.

وفي هذا يقول الجوينيّ «ولكن لمّا بايع عمر تتابعت الأيدي، واصطفقت الأكف واتسقت الطاعة، وانقادت الجماعة، فالوجه عندي في ذلك أن نعتبر في البيعة حصول مبلغ من الأتباع والأنصار والأشياع التي يحصل بهم شوكة ظاهرة ومنعة قاهرة.

بحيث لو فرض ثَوَرَان خلافٍ، لما غلب على الظن أن يصطلم اتباع الإمام، فإذا تأكدت البيعة، وتأطدت بالشوكة والعدد، واعتضدت وتأيدت بالمنة، واستظهرت بأسباب الاستيلاء والاستعلاء، فإذ ذاك تثبت الإمامة وتستقر، وتتأكد الولاية وتستمر، ولمّا بايع عمر مالت النفوس، إلى المطابقة والموافقة. ولم يبد أحدا شراسا وشماسا، وتظافروا على بذل الطاعة حسب الاستطاعة» . [٣]

المحصلة هنا كما نراها ، تتلخص في التالي:

- أن أهل الحل والعقد، الذين يعقدون أو يُمَكِّنون لإمام، يجب أن يكونوا على تلك

[١] – وهو ما يفهم من كلام الباقلاني في التمهيد في باب الحديث في الإمامة، ولم نجده نصا عنه.

[٢] – الغياثي ص٧٨

[٣] – المصدر السابق ص٧٨

الصفات المذكورة، وأن يكونوا لذلك من المعلومين لجميع الأمة، بحيث يصح أن يوالوهم على اختيارهم، لا أن يكونوا مجاهيل، غير معروفين إلا لأصحاب محلتهم.

وبهذا يمكن التأكد من صحة الشروط التي ذكرنا فيهم. وإلا فبيعة مجموعة ممن هم معروفون لأهل محلة خاصة لا تصلح إلا لبيعة مخصوصة كبيعة الجهاد مثلا، لا تتعدى إلى غير ذلك ولا يلزم منها أكثر من ذلك في رقاب المسلمين.

- أن العاقدين المُمَكِّنين، مسموعو الكلمة من الناس عامة، حتى تتحقق بهم، وبأتباعهم الذين يلتزمون برأيهم واختيارهم، الشوكة والمنعة الظاهرة.

وإلا فإن لم يتحقق هذا، فهؤلاء لا فائدة منهم، ولا يحصل بهم شوكة ولا منعة.

كما لو اختلف عليهم الناس خارج محلتهم، فصار عقدهم غير مُلزم لأحد.

- أن البيعة العامة، يُشترط فيها المتابعة والموافقة، وإلا لم تثبت.

كما يشترط فيها حصول الشوكة و»لو فرض ثوران خلافٍ، لما غلب على الظن أن يصطلم أتباع الإمام، فإذا تأكدت البيعة، وتأطدت بالشوكة والعدد، واعتضدت وتأيدت بالمنة، واستظهرت بأسباب الاستيلاء والاستعلاء«.

وهذه الشروط غاية في الواقعية ومراعاة المصالح، ودرأ مفاسد التعارض والاختلاف، ومن ثم التشاحن والتقاتل. فإن البيعة لابد فيها من أن يكون أهل الحل والعقد، في سائر الأمصار، على معرفة بمن أعطى القياد للإمام أولاً، وأن يكون هناك رضا مُتوقع منهم لثبوت البيعة. وإلا فإن من أعطى القياد أولاً، فقد أهليته في إجراء العقد، إذ هذا الرضا هو شرطٌ في صحة العقد، وهو شرط صحة، إذ بغيره لا تثبت البيعة التي هي محل العقد، كما تَحصّل من الكلام.

الاشكالية الحالية، بالنسبة للتصرفات التي اعتمدها الفكر الحروري البغدادي، المتمثل

في تنظيم الدولة، أنهم خلطوا خلطا شديداً بين هذه الأمور كلها.

فهم قد أثبتوا «بيعة»، لإقامة «دولة»، قالوا إنها ليست بيعة لإمامة عظمى، بناءً على عقد أثبته لهم عدد ممن قالوا إنهم «أهل حل وعقد»، والله أعلم بحالهم على الحقيقة، من أهل أيّ محلة في العراق، ثم انتقلوا بها إلى الشام، وألزموا بها أهله، رغم عدم موافقة أهل الحل والعقد في الشام، بل ولا في غيرها، عليهم! ومن ثم، كانت النتيجة التي حذر منها الجويني رحمه الله، من أن ذلك لا ينشأ عنه إلا بيعة باطلة مبنية على عقد باطلٍ غير ملزم، لا شرعاً ولا حقيقة على الأرض، كما هو واضح، ثم حرب وقتال، وقتل وانشقاق.

وقل لي بالله عليك، مَنْ مِن أهل الحل والعقد، المسموعي الكلمة في بلادهم، من أصحاب الأتباع والأشياع، يؤيد أو يتابع على عقد هؤلاء الجمع المجاهيل في محلة بالعراق، على بيعة إمام؟ بل قد عارضها أكابر من هم من مسموعي الكلمة بالفعل من علماء أهل السنة كما هو معروف.

ودع عنك إشكالية أنّ البغدادي نفسه شق عصا الطاعة على أمرائه ابتداءً، فبطلت بيعته وكلّ بيعة أخذها بعد ذلك، إذ ما بُني على باطل فهو باطل.

ثم، إن هؤلاء قد زعموا أن بيعة أميرهم ليست بيعة عامة لإمامة، لكنهم راحوا يقاتلون غيرهم عليها، ويرونهم بغاة، بل مرتدون، لّما قرروا أنهم يرتكبون ما يرونه أنه من المكفرات لديهم! فجمعوا بين البغي في طلب البيعة لمن لم تثبت له بيعة، والتكفير والحرورية بقتل المسلمين على شبهات وفتاوى قدّروها ثم عملوا بها.

ناهيك عن ذلك التنظيم الوهمي الذي أطلقوا عليه «دولة» دون أي مقوم من مقوماتها.

وما ذكرته آنفا، أن أهل الحلّ والعقد، في محلة معينة، يمكن أن يعقدوا بيعة خاصة، لحرب أو جهاد، في تلك المحلة بذاتها، والتي لهم فيها أو على أهلها، كلاماً مسموعاً. أما من وراء ذلك، فهو تعدٍ على حدود الله، وتسوّرٍ على حقوق الآخرين، لا ترضي به

شريعة ولا يقبله عرف، ولا ينطبق في واقع. وهذا هو ما حدث في بيعة البغدادي، الخاصة بالحرب، والتي أقرها له أمراء الجهاد في خراسان، بشرطها، فإذا به يحوّلها إلى بيعة عامة، دون أن يُسميها بذلك، ويستخدم اسم «الدولة»، الذي لا يصاحب إلا بيعة عامة، بل ويمتد بها إلى الشام، تأكيداً على حقيقة ما يراه وشيعته، من إنها بيعة عامة، دون أن يسمونها بذلك لعلمهم أن لن يطير لهم بها جناح! [١]

فالإشكالية هنا، هي:

- اعتقاد أن جمع من المجاهيل على المستوى الإسلامي، وإن كانوا معروفين محلياً لأهل محلتهم، يمكن أن يكونوا أهل حلّ وعقد بالنسبة لجموع المسلمين في أي مكان آخر.

وهو ضد طبائع الناس، ومعاكس لفائدة أهل العقد ابتداءً، إذ إن قد شُرِعَ الأخذ برأيهم، لحقيقة إمكانهم السيطرة على كلّ من يطلب منهم أميرهم البيعة، لا مجرد أنهم «أهل حل وعقد» صورياً. وهو التصور المريض الذي نشأت عنه هذه الحرب بين المسلمين.

- تحويل بيعة هؤلاء النفر إلى بيعة عامة على الحقيقة، تجب التوبة على من لا يأخذ بها، ثم مدّ أثرها إلى الشام، حيث لا قدر لهؤلاء النفر ولا سمع ولا طاعة.

المُمَكَّن له: وهو الأمير أو الإمام

والحديث عن الإمام حديث ذو شجون. فقد أصبح «الإمام» عند أهل السنة اليوم، أقرب إلى أسطورة «الإمام الغائب» عند الشيعة. فالسنة يؤمنون بوجوب نصب إمامٍ، وهو صحيح، لتنتظم به أمور الدين والدنيا، كما عبر عن ذلك فقهاؤنا القدماء. كما أنه مطلوب عقلاً وعرفاً. فإن الجماعات الإنسانية عامة لا تحيا إلا بزعامة، تأخذ بزمام الأمور، فتقيم المعوج، وتصلح الفاسد، حسب ما تصطلح عليه تلك الجماعة من سياسات وتصورات

[١] – بل قد تعدى بها أخيراً بعد كتابة هذا البحث إلى إعلان «خلافة» المسلمين! مما يؤكد الانحراف الأصيل في فكر تلك الجماعة.

ومبادئ، وضعية أو شرعية.

لا يصلح الناس فوضى لا سُراة لهم

ولا سُراة إذا جُهَّالهم سادوا

لكنّ أمر تنصيب إمام للمسلمين اليوم، بات أمراً في غاية الصعوبة والتعقيد. بل تواجهه إشكاليات لا حصر لها، عملياً وواقعياً. وما ذلك لعدم وجود من تتحقق فيه الشروط الشرعية التي عدّها الفقهاء القدامى، بل لعدم وجود الشروط التي يمكن فيها وبها تعيين هذا الإمام، وتنصيبه واقعاً لا وهماً ولا خيالاً، وانتفاء الموانع التي تمنع من ذلك، وهي أكثر من أن تُحصى.

فإنه قبل أن يُنصّب إمام لإمامة، ونعنى بها الإمامة العظمي، التي تعم كافة أقطار الإسلام، وتُلزم بسطوتها كافة المسلمين، يجب أن يكون هناك مسلمون يلتزمون بها، ومكانٌ محصّنٌ تقع فيه. وهم، إن واصلنا الحديث عن مكونات «التمكين» :

المُمَكّن فيه، وهي الأرض التي يُمَكّن للإمام عليها، دون منازعة.

والمُمَكِّنون وهم «أهل الحل والعقد» من بين جموع المسلمين الراضين بهم، ومن ثم، بما يقررونه.

وهؤلاء المُمَكِّنون يجب أن يكون لهم السطوة الشرعية على من يُطلب منهم البيعة لذاك الإمام الذي اختاروه. أمّا أن يختار جمعٌ من الناس، يعتقدون، أو يعتقد من اختارهم من حملة السلاح، أنهم أهل حلّ وعقد، في محلة، فينصبون أحداً، ثم يطلبون من كافة المسلمين القبول به، فهذا استدعاء للفتنة، بل هي الفتنة بعينها.

وقد رأينا ما يمكن أن يحدث حين يستبدل الخارجون عن منهج أهل السنة جمعاً لا هنا ولا هنالك، بأهل الحلّ والعقد في تصورهم الصحيح المؤدي لجمع الشمل لا لتفرقته، ثم كيف إنّهم خرجوا على مشايخهم ومعلميهم، الذين هم أصلح ما يكونوا

اتصافاً بأهل الحلّ والعقد، كالمقدسي وأبي قتادة والسباعي والعلوان وغيرهم كثير من أهل الفضل في بلاد المسلمين، فاختاروا لأنفسهم، وأهل حلهم وعقدهم طلبة علم، أو أقل من ذلك، كالعدناني والبنعلي، ومن ليس لهم في عالم الشريعة ناقة ولا جمل، إلا التتلمذ على أيدى هؤلاء الأفاضل، ولا قيمة لهم، احتراما وتبجيلاً إلا بين حاملي السلاح من جماعتهم ثم عدد من الناس لا يعلم بحالهم إلا الله، في بلدة من بلاد العراق، فإذا، بقدرة قادرٍ، هم أهل الحلّ والعقد الذين تسري كلمتهم على مسلمي الدنيا، ويُقتل من يخالف اختيارهم!

وقد ذكرنا أنّ كافة الممالك والأراضي التي يعيش عليها «مسلمون» اليوم، ليس فيها تمكين، لا لإمام ولا لإسلام.

بل المسلمون[١] فيها عبيد خاضعون لأحكامٍ لا يرضونها ولا يؤمنون بها، بل يسجنون ويقتلون ويعذبون إن طالبوا بتمكينها. ثم إن كافة المسلمين، الذين نجوا بعقيدتهم من كفر العلمانية، أو الإلحاد، هم شتات في البلاد. والعلماء الذين يثقون بهم، ويمكن أن يكون لهم السطوة الشرعية على غالبهم، هم إما في السجون أو مكممي الأفواه في بلادهم، أو هاربون إلى الغرب. وهو موقف يستدعى تطويراً لمواجهة هذه المسألة، نتعرض له في القسم الثالث إن شاء الله «الأطروحات».

أمّا إمارة الجهاد، فهذا أمرٌ قد سار عليه الناس منذ نشأة الحركة الجهادية في أنحاء الدنيا، لا غضاضة فيه، بل ثابت بالسنة والقياس. ويجب فيه مراعاة التسلسل التنظيميّ، حتى لا ترتبك الأمور. كما حدث حين نزع البغداديّ يداً من طاعة للشيخ الفاضل أيمن الظواهري.

وتبرز من الشروط السبعة التي ذكرها العلماء، وأبدع في تحقيقها الجويني، حيث قال، متحدثاً عن صفات الاستقلال المكتسبة ولواحقها «توقد الرأي في عظائم الأمور،

[١] – وأقصد بالمسلمين أولئك الرهط الذي لا يزال على التوحيد، ومحبة الله ورسوله، لا شعب السيسي على سبيل المثال.

والنظر في مغبات العواقب، وهذه الصفة ينتجها نحيزة العقل ويهذبها التدريب في طرق التجارب، والغرض الأعظم من الإمامة جمع شتات الرأي، واستتباع رجل أصناف الخلق على تفاوت إراداتهم، واختلاف اخلاقهم ومآربهم وحالاتهم، فإن معزم الخبال والاختلال يتطرق إلى الأحوال من اضطراب الآراء، فإذا لم يكن الناس مجموعين على رأي واحد لم ينتظم تدبير، ولم يستتب من إيالة الملك قليل ولا كثير، ولاصطلمت الحوزة واستؤصلت البيضة» . [١]

وهذا النص درة من درر الجويني في هذا الأمر. فإنه بلا عقل للإمام المختار، يؤدى به إلى جمع الشمل وشتات الآراء المختلفة، قامت الحرب، وفقدت الإمامة غرضها، فإن الإمامة ذاتها لا معنى لها على الأرض، إن ظلت فرقة بين الفرق المتناحرة، لا أكثر. وما ذكره الجويني هو ما رأيناه في بيعة أبي بكرٍ الصديق رضى الله عنه. إذ توالت البيعات عليه من كلّ مكانٍ، بمجرد أن سلمّ له عمر رضى الله عنه صفقة يده، دون مغالبة. فإن تحجج أحدٌ بفعل معاوية رضى الله عنه في عدم التسليم لعليّ، قلنا، هيهات، هذا ليس بناقض على الإطلاق، إذ مغالبة معاوية لم تكن عن رفضٍ لعليّ رضى الله عنه بذاته، بل قد سلّم له من حيث الكفاية والدراية والاستحقاق، لكنها كانت أولويات بالنسبة إليه، يجب أن تراعى قبل استقرار البيعة، وهي حدّ قتلة عثمان رضى الله عنه. والخروج عن رأي إمام اجتمعت عليه غالب فئات المسلمين، في أمرٍ اجتهاديّ، فيه بغي عليه.

والإشكالية هنا، في الفكر الحروري الحديث، هو أنهم يريدون أن يثبتوا «دولة»، وإمام أو أمير أو رئيس لها، سمه ما شئت، دون المبايعين لها، أو المُمَكّنِين منها، بل ودون الأرض التي يُمَكّن عليها. «فالدولة»، ومن ثمّ الإمام أو الأمير أو الرئيس، يأتي أولاً، ولو بشكليات تشبه الشرعية صورة، ولا توافقها مقصداً ولا حقيقة، بل تناقضها على طول الخط، من حيث صارت يداً للأعداء يقتلون المسلمين المخالفين لهم، بدلاً من قتل النصيرية، وهذا هو عين

[١] - الغياثي ص ٦٩

الضلال، ولب الفساد والإفساد. فهم، باختصار يجعلون السبق للاسم قبل تحقق الفعالية على الأرض. ومن كان هذا منتهى عقله وآخر دربته، فكيف بالله عليك يحقق «الغرض الأعظم من الإمامة جمع شتات الرأي، واستتباع رجل أصناف الخلق على تفاوت إراداتهم، واختلاف أخلاقهم ومآربهم وحالاتهم»!

هذا الخلل العميق في فهم منظومة الإمامة، وعلاقتها بقيام «دولة» هو من أشدّ الأمور اضطراباً في الفكر الجهادي عامة والحروري خاصة.

وخلاصة القول فيها أنه يجب ان يكون أهل الحل والعقد ممن يحصل باختيارهم الوئام والاتفاق، لا الخلاف والقتال، وهي ذات الصفة التي يجب توفرها في الإمام المختار كذلك، عدا غيرها مما نراه أقل أهمية منها خاصة في عصرنا هذا. إذ إن «الإمامة» قصدها جمع الشمل والكلمة، لمواجهة العدو، لا لمواجهة بين المسلمين بعضهم البعض، فإن لم تتوفر أدت النتيجة إلى فوات القصد، وهو عكس مقصود الشارع.

«الدولة الإسلامية» في مواجهة الخارج:

وهذه إشكالية كبيرة في الفكر الجهادي عامة، والحروري خاصة. فإن تحرير مفهوم «الولاء» وعلاقته بالاتفاقات الدولية، ومدى توافق محدثاته مع الشريعة، سيكون محتاجاً إلى إجتهاد عظيم، وفهم تام لمقاصد الشرع، ولمدلولات أحداث السيرة ومفاهيم الحديث الشريف. كذلك يحتاج إلى دراية كاملة بالخريطة السياسية، ثوابتها ومتغيراتها، والقدرة على التأثير فيها. فإن البندقية لا تقدم حلاً في كلّ وقت ولكل مشكلة. السلاح يشكِّل بداية الحلِّ ونهايته. أما في خضم الحياة، فلا دور له إلا إرهاب العدو المتربص، أو دفع الصائل المعتدي.

إشكالية العوائق:

العوائق السياسية التي تواجه قيام «دولة إسلامية»، للناظر من باب الأسباب الدنيوية

البحتة، لا يكاد يحصرها العدّ. فقد تكالبت القوى العالمية، على اختلاف مذاهبها وأديانها وتوجهاتها، على أن لا تقوم للإسلام دولة مركزية، تخلف الخلافة العثمانية، سواءّ كانت دولة أو خلافة، سمها ما شئت. اجتمع على ذلك الغرب الصليبي الصهيوني متمثلاً في أمريكا وأوروبا، والشرق الشيوعيّ، متمثلاً في روسيا والصين، والشعوب اللادينية التي تعبد الأحجار والأبقار، في الهند وجنوب شرق آسيا. لم يختلفوا على هذا القدر، ثم اختلفوا على كلّ شيء من ورائه.

بل، قد اتفق حكام العرب، من العلمانيين المرتدين، بلا استثناء، سواء كانوا رؤساء جمهوريات أو تيجان ملكيات، على ألا تقوم مثل هذه الدولة، بأيّ حالٍ من الأحوال، إذ في المركزية فقدان كلّ منهم ما يتمتع به من ميّزات.

ومن ثم، فإن فكرة قيام «دولة إسلامية سنية على النهج النبويّ» هي فكرة أسهل ما تكون تمنياً، وأصعب ما تكون تحقيقاً على الأرض.

وقد رأينا مِصداق ذلك في مصر، حيث تحركت قوى الخليج العميلة، لتضرب الإخوان، على ما في دولتهم التي صمدت عاماً يتيماً واحداً، من كلّ بلاء واستسلام، يجعلها أسوأ مثال لدولة سنية. لكن هذا لم يشفع لها عند الشرق، ولا الغرب، ولا العرب!

كما رأينا كيف استطاعت تلك القوى الصهيو-صليبية، بالتعاون مع عملاء الخليج، أن يحوّلوا ما كان صحوة للشعوب ضد قاهريها، إلى حكومات علمانية في تونس ومصر، ولا يزال الصراع دائر في ليبيا واليمن والسودان والجزائر.

ثم، لا يجب أن ننسى في معادلة «الدولة الإسلامية» أنّ الولايات المتحدة لا تزال تحتفظ بقوة ضاربة هائلة في شرق جزيرة العرب، وفي قطر والبحرين والكويت. وهي قوى مستعدة للتدخل إن هُدّدت مصالحها النفطية بأي شكلٍ، أو بأي كيان. فأمريكا لا يهمّها من يقود، وبأي عقيدة يقود، وأي شعب يقتل، رافضة أو سنية أو حرورية، كلهم سواء، طالما أن مصادر

النفط وقواعدها العسكرية محفوظة. هؤلاء لا يتحركون بوازع دينيّ، بل بوازع اقتصاديّ تحميه القوة، لا غير.

ثم، العامل الأهم في هذه المعادلة، هو القوة الصهيونية النووية، التي تقبع في قلب الرقعة المسلمة، تهددها كلها، إن تعرضت لأي تهديد كان. بل قد تحالفت معها بقية عملاء العرب، كفاحاً، كمصر والخليج بعامة، تحالفاً ذليلاً، حين شعروا بالخوف من القوى الصفوية المتعاظمة، ومن الخلاف مع تركيا، ومن الخطر الجهاديّ القادم من العراق والشام، والذي قد ينتج عنه «دولة» لا يعلمون ما يفعلون إزاءها!

كذلك، فإننا رأينا أنّ «الحصار» الاقتصاديّ عامل مؤثرٌ في الدول التي يقف منها العالم كله موقف عداءٍ، مثلما حدث مع العراق قبلاً، ومع كوريا الشمالية ومع غزة الحبيبة اليوم. ومع علمنا بأن الحصار لا يهزم الأمم، ولا يكسر الهمم، إلا إنه مؤثر هام قوي يعين على إضعاف الكيانات القائمة إضعافا شديداً، خاصة إن كانت مخترقة من الداخل بالروافض، أو كانت حكوماتها غير مقبولة قبولاً واسعاً كما لو تحكّم الحرورية في العراق.

أما العوائق العقدية، فتتمثل في وجود ذلك الانشقاق الأخير، الذي ظهر في صفوف المجاهدين، بظهور تنظيم البغداديّ الحروريّ، في مقابل غالب الجبهات الأخرى التي انقسمت إلى سنة عامة، كجبهة النصرة[١] وعدد من الكتائب المستقلة، وإرجائية إخوانية ظهرت في الجبهة الإسلامية[٢]. هذا الاختلاف، هو ضربة قوية لإمكانية قيام دولة سنية موعودة. إذ إن الحرورية، لو قامت لهم دولة، ولا نظنها قائمة، فلن تكون تلك الدولة التي بشر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا هي التي تقيم الإسلام على نهج النبوة. وإن ظفرت الجبهة الإسلامية بهذا النصيب، فإنها لن تكون إلا تابعاً، في غالب أمرها للخليج،

[١] وقد كتبنا ذلك قبل أن تتبدا حال النصرة، وتتحول لتوجّه إخوانّي موال للأتراك، وترك دفع الصائل، ولا حول ولا قوة إلا بالله

[٢] وهذه الجبهة أصبحت اليوم أثرا بعد عين، بعد أنّ سلم جيشها الممول سعوديا، الغوطة على طبق من ذهب للنصيرية!

ماديا ومعنوياً. أما عن مجاهدي السنة، وهم قليل، فهم محُاصرون بين كافة الجبهات «الجهادية» الأخرى، منهم من يكفّرها ويقاتلها كالحرورية، ومنهم من يحرجها باتفاقيات ومواثيق تجعل التقارب والتعاون بينهم مستحيلاً دون خيانة الله ورسوله.

و»الدولة الإسلامية»، حين قيامها، ستكون مطالبة بالتعامل مع جوار. وهذا الجوار، في أيامنا هذه عَفنٌ خَرِبٌ، لا دين له. لكنه مرتبط بقوى عالمية لن تسمح بأن تتحطم مصالحها كلها في المنطقة، وأن تخسر كلّ رصيدها، خاصة والكيان الصهيونيّ في وسط هذه المعمعة. وهو كيانٌ متسلحٌ بقوى نووية، وأحدث أنواع الأسلحة في العالم، بل ويقوم بتصنيعها وتطويرها بنفسه على أرض فلسطين المحتلة.

لكن، لغرض هذا الجزء من الدراسة الذي يتعامل مع الإشكاليات، علينا أن نفترض إمكانية قيام مثل تلك الدولة، حتى نكمل دراستنا، فننظر في الأطروحات التي يمكن أن يتبناها العمل الإسلامي، الجهاديّ أو السياسيّ، ليصل إلى غرض قيام تلك الدولة، إن شاء الله.



الأطروحات

إنشاء الدولة في النظر الإخواني :

فلنقرر أولاً وقبل كل شيء أنّ التوجه الإخوانيّ السلمي الديموقراطي، لن يُنشأ دولة إسلامية، مهما توهّم أتباعه، ودع عنك التوجه السروريّ، فلهؤلاء نظرة لدينهم لا تطابق لها مع معنى التوحيد إلا لماماً.

الأطروحة الإخوانية فاشلة بكلّ معايير العقل والشرع والواقع. فالشرع يعاكس المبدأ الديموقراطيّ على طول الخط. إذ الديموقراطية هي تقنين ما تراه الغالبية الشعبية صالحاً، وتجريم ما تراه فاسداً. وهذا النظر لا محل له في دين الإسلام البتة. إذ الصالح هو ما أحله الله وأوجبه، والفاسد هو ما حرمه الله ومنعه في شرعه، دون استثناء. ثم إن العقل يشهد أنّ الغالبية الشعبية عادة هي من العوام الجهلة، فبأي منطق عقليّ يوكل لها تحديد الصالح والفاسد؟

فإن قيل: بل يوكل إلى ممثليها، قلنا: هي عين المسألة، كيف تحدد ممثليها ممن يوثق فيهم ابتداءً، بغير معايير الدين والخلق؟ ثم إن العادة والواقع قد استقر على عدم جدوى هذا التوجه، لمضادته لمصالح الدول الكبرى، وأذنابهم من رؤساء وملوك وأمراء العرب. ويكفي تجربة الجزائر والسودان ومصر وليبيا وتونس واليمن والكويت في إثبات أن حكومة إسلامية لن تأتي بالحل الديموقراطيّ، كما لن يتمكن مصاب بسرطان الرئة من معالجة دائه بالإكثار من التدخين!

إذن يجب أن يحذف هذا الخيار من برنامج المخلصين المصلحين الأتقياء، ويُترك للعابثين المُخلطين العملاء.

أطروحات إنشاء الدولة في النظر السنيّ:

بعد هذا البيان في مفهوم الدولة، وبعض ما يحيط به من متعلقات تختص بالوضع الحاليّ، فسنعاود النظر في الإشكاليات المعروضة، ونعقب عليها، ثم نحاول أن نتصور

طريقاً لإقامة الدولة المَنشودة.

وحتى نلتزم الوضوح في حديثنا، فإننا نرى أن لا طريق لإقامة دولة إسلامية، تحكم بالشريعة، في هذا الواقع الذي تحدثنا عنه، إلا عن الطريق الجهادي في الرقعة الإسلامية، الذي يستهدف إزالة حكم، وإحلال حكم بديل. هي عملية هدم وبناء كامل. هدم لنظام قائم، من جذوره، بكل مؤسساته، وتصوراته، وبناء نظامٍ بديلٍ يقوم على التصور الإسلاميّ، ومن ثم تقوم عليه كلّ مؤسساته.

هذا هو الهدف المنشود. لكن الطريق إليه، لا يتم، ولن يتم، فيما نرى، في قفزة واحدة، مما نحن فيه اليوم، إلى هذا الواقع الذي نحلم به. ومن يتصور هذا، ويعمل عليه، هو إما واهم أو مغفل، أو كلاهما، كما هو الحال فيما تفعله اليوم جماعة الحرورية البغدادية. وسنتوسع في هذا الصدد فيما يأتي.

ناقشنا فيما سبق، موضوع التمكين ومكوناته. وقررنا أنّ الوضع اليوم يختلف كلية عن المناط الذي تحدثت عنه كتب السياسة الشرعية، ونظّر له علماء السنة القدماء. إذ نحن ننطلق من أرض عاش عليها الإسلام أكثر من ثلاثة عشر قرناً من الزمان، كحاكم متمَكن، وإن تغيرت أشكال الدول وأسماؤها. ولا يزال تعيش على أرضها بقايا «أمة»، آمنت يوماً بهذا الدين، ومكنته، ورَضت به، وأقامت حياتها على أساسه، تصوّراً وتطبيقاً.

مفهوم التمكين هنا يأتي بمعنى خاص، وهو «استعادة» السيطرة على أزمَّة الأمور، بطريق القوة، في «دولة» قائمة بالفعل، أو في جزء متحيزٍ من أرضها، يمكن «لأهلها» حمايته والدفاع عنه.

ونقول «استعادة السيطرة» إذ إن هذه الأرض هي أرض مسلمة ابتداءً، وهو معنى لا يجب أن يغيب عن أذهان «الأمة» أو أولئك المقاتلين للحصول على هذه السيطرة.

ونقول «بطريق القوة»، إذ لا طريق إلا القوة المسلحة في مرحلة نهائية، لإزالة حكم

الطغاة الطواغيت وإزاحتهم عن عروشهم، بهدم قوتهم العسكرية والأمنية، التي يتقوون بها.

ونقول في «دولة قائمة بالفعل، أو جزء مُتحيّز منه»، إذ هي عملية استعادة لا إنشاء من عدم، بل هي تحرير لأرض مغتصبة. والتحيّز هنا ضرورة واقعية على الأرض، إذ إن انتشار المقاتلين على مسافات متباعدة، لا يعنى تمكيناً حقيقياً، ولا يتوافق مع مفهوم الدولة أو الإمارة على الأصح، لا شرعاً ولا وضعاً.

ونقول «يمكن «لأهلها» حمايته والدفاع عنه» إذ إن الأصل هو أنّ أهل المحلة قابلون للمجاهدين، مرحّبون بهم، حاضنون لهم، بلا ضغط أو تهديد. وذلك من حيث أن عملية التحرير والسيطرة ليست كما حدث في الفتوحات الأولى، للأسباب التي قدّمنا. فإن لم يكن أهل المحلة قابلون، لم يكن هناك تمكين، بل هو شكلٌ آخر من أشكال الاحتلال، يؤدى إلى تخالفٍ وتقاتل.

«الأمة» و «الحاضنات الشعبية»

ولا نرى ذلك يتم إلا من خلال «الحاضنة الشعبية المُسلمة»، أو ذلك الجزء من «الأمة السّنية» التي تعيش على تلك الأرض.

ولابد هنا أن نبيّن مفهوم «الأمة» عند أصحاب الفكر الحروريّ. فهؤلاء يرون أنّ الأمة هي كلّ من ناصرهم ووافقهم فكراً وعملاً، وأنّ قلبها هم المقاتلون من حاملي السلاح. وهو نفس المنطق العسكري الذي تتعامل به الديكتاتوريات على مر التاريخ، كما كان هتلر وموسوليني وستالين. القوة العسكرية هي الأمة، لا غيرها. ومن وافقهم وخضع لهم خضوع الذليل الموافق، فهو «مقبول» لديهم، مجرد مقبول. ومن خالفهم فكراً أو عملاً، فهو مرتد يستحق القتل على الفور دون رحمة. ولا يغرنك أقوالهم، فهم يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما ينكرون. أصحاب هذا الفكر لا يعترفون بأمة سبقت وجودهم، أو خرجت على مراسيمهم. ومن ثمّ، هاجموا الحاضنة الشعبية، وهو حق أريد به باطل. فكما بيّنا من

قبل، أنه إن أريد بالحاضنة الشعبية ذلك الخليط من الكفار والمرتدين العلمانيين والمسلمين، كما تراها الإخوان، فهي حاضنة غير مبروكة، لن تنتج إلا خداجاً، وهو ما رفضناه ورددناه سابقاً. وإن أريد بها المسلمون ممن لا يوال إلا على حب الله ورسوله، مطيعهم وعاصيهم، فهي التي تقوم عليها «الأمة»، كما كان «أهل المدينة» من الأنصار هم «الحاضنة الشعبية» لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

فمفهوم «الأمة» مغلق محدود بالموافق في الفكر الحروريّ. وهو منفتح متنوع، محكوم بالكتاب والسنة وفهم القرون الثلاثة الأولى الفضلى في الفكر السنيّ.

وهذا التنافر بين المنهجين نابعٌ من الفهم العقديّ الأصلي لموضوع الإيمان. فالحرورية يرون أنّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص، بل هو عندهم ثابت، بينما أهل السنة يرون أن الإيمان يزيد وينقص، وأن المسلم تقع منه الطاعة كما تقع منه المعصية بدرجاتها دون الكفر بيقين. ونحن نعلم أنّ حرورية هذا الزمن لا يصرحون بهذا القول، بل يردونه ما استطاعوا. لكن القول في هذا ليس إليهم، إذ لا يقر صاحب بدعة ببدعته، وهو يعلم تفاصيلها، ويعلم أن مخالفيه يعلمون تفاصيلها. إنما الحكم هنا يرجع إلى تصرفاتهم التي تحكم على عقيدتهم وفهمهم للإيمان وحدّه. فهذا النظر إلى الإيمان هو الذي يبرر تكفيرهم لمن خالفهم، وإلباسهم أفعال معصية، لباس الكفر، والقتل عليه.

ولا يخفي ما في هذا التوجه من نفاق ظاهر. إذ يمكن للموافق المصاحب لهم أن يرتكب معاصٍ، أو حتى كفراً مما يرونه كذلك، فيغفر له، أو يعاقب عليه كما في السنة، لكن نفس الفعل من المخالف المفارق يُعتبر كفراً لا معصية فيه، يُقتل عليه. وانظر إن شئت كيف قتلوا أبا سعد الحَضرمي لأخذه بيعاتٍ من بعض عوام أتباع الجيش الحرّ «المرتدين»عندهم، بينما هم أنفسهم قبلوا بيعات بعثيين من العسكريين بين صفوفهم الأولى، وأتباع للأركان في موحسن مؤخراً، غير تعاونهم مع النصيرية في حصار وقتل مسلمي الدير!

الأمة إذن هي مفهوم هلاميّ في الفكر الحروري، يتغير حسب موقع أفرادها وجماعاتها

من تنظيمهم بالذات، لكنه واضح جليّ في المفهوم السنيّ. وهو الذي أشار إليه الشيخ المجاهد أسامة بن لادن رحمه الله من قبل، حين فرح بالربيع العربيّ، واقترح إقامة مجلس شورى لدعمهم وتوجيههم، وما أقره الشيخ المجاهد أيمن الظواهريّ في كلّ قوله، ضداً لما قالته الخوارج البغدادية.

فالساعون لإقامة الدولة الإسلامية المنشودة، يجب أن يلتزموا بهذا المفهوم للأمة، وأن يتبنوا الحاضنة الشعبية المسلمة في صراعها للوصول إلى الوجود، ثم البقاء.

وقد تحدثنا عن «حاضنات شعبية» بصيغة الجمع، من حيث إنّ ذلك يتمشى مع مفهومنا للتمكين، وهو أنه استعادة السيطرة في أماكن متعددة من أرض الإسلام. ومن هنا، فإن «الدولة» قد تنشأ في أماكن متعددة، مستخدمة لحاضنتها الشعبية الخاصة. وهو أمرٌ طبيعي بالنسبة لتعدد العادات والخصائص والطبائع، ومن ثم طرق التعامل والتعاون والمقاومة.

ومن هنا كذلك، يفترق مفهوم «الدولة» أو «الإمارة» عن مفهوم «الخلافة».

فمفهوم «الدولة» أو «الإمارة» هو الأليق بأن يسعى له الساعون اليوم، للعوائق المُتراكبة التي تحدثنا عنها، والتي لن يتمكن فريق أنّ يتخطاها، إلا من عاش في وهم أنه يعمل في فراغٍ سياسيّ، بلا مراقب متربص أو عدو مترصد.

ولهذا فإن مجاهدي أفغانستان كانوا من الحَصافة والذكاء أن لم يسعو لتسمية إمارتهم أو دولتهم خلافة، بل لم يغيّروا اسمها الأصلي «أفغانستان». هذا من قبيل تحييد المراقب المتربص والعدو المترصد. ومع ذلك لم تتركهم القوة الغربية الصليبية إلا خمس سنوات، مُتمكنين حقاً في بلادهم. وهو درس لا نعرف كيف يغيب عمن يتحدث اليوم عن خلافة إسلامية، بل عن دولة إسلامية تتجاوز حدود المناطق التي لا تزال تجاهد فيها دون تمكّنٍ بعد.

ومن ثمّ، فإننا نرى أنّ انتشار «الوعي الإسلامي» وتوسيع رقعة «الحاضنة الشعبية»،

هو من أهم عوامل إقامة «الدولة أو «الإمارة». ويشبه تصورنا هذا في إقامة «الدولة» بعملية «تفتح الزهرة» أكثر من «تفجّر القنبلة»، وإن كانت العمليتان تنتجان أثراً واحدا، لكن الأولى تدوم وتتنتج حياة وتترعرع، والثانية تؤذى وتقتل وينتهي أثرها.

وهذا لا يعنى أن «الجهاد المسلح» هو وسيلة التغيير الوحيدة، كما قررناه من قبل، بل يعنى أنّ هناك فرقٌ بين التعامل مع الحاضنة الشعبية، وهو مَثَل تفتح الورد، وبين التعامل مع العدو الصائل، وهو مَثَل تفجّر القنبلة. والأول يراد له الدوام وإقامة الحياة، والثاني محدود بتحقيق الهدف وهو هدم النظام، لا أكثر.

التمكين:

لابد أن يكون واضحاً أنّ التمكين الذي تقوم عليه «دولة» أو «إمارة» في هذا العصر، بل وفي كل ّعصر، يرتبط بوجود «حدود» ثابتة، تحت السيطرة الدائمة، وعلى وجود عاصمة للإمارة، تدير شؤون الحكومة المركزية، وأن يكون هناك «أمير» لهذه الإمارة معلوم ظاهرٌ بين الناس.

والشكل الذي تدير به الجماعات والتنظيمات الإسلامية جهادها اليوم، لا يمت لشكل «الإمارة» أو «الدولة» بصلة، وإن ادّعى بعضها التسمية.

فالأمر ليس أمر تسميات، وإلا كان عبثاً لا معنى له، لكنه أمر حقائق وترتيبات على الأرض، يكون فيها تمكن حقيقي، لا عسكريّ محض، لهذه الإمارة أو الدولة الناشئة.

وسبب هذا، هو أنّ المقصود بهذه «الإمارة» أو «الدولة» هو إدارة شؤون الرعية في تلك البقعة، بما يضمن سلاسة حياتهم، وأمنهم وحمايتهم من العدو.

ولو فرضنا أنّ جماعة، أو تجمعاً، استولى على أرضٍ ما، مهما اتسعت، وتناثرت فيها قواته العسكرية، وما زال يحارب عدواً يعيش بين ظهرانيه، ولم تتمتع رعاياها بالأمن أو الاستقرار، ولم يظهر لها أميرها، ولم تعرف تصاريف ماليتها وإدارتها، ما كانت هذه الجماعة أو التجمع

دولة أو إمارة بعد، بل ظلت «مشروع دولة أو إمارة»، وظلت تلك الجماعة أو التجمع تحارب في سبيل ترسيخ الوضع الحقيقي المطلوب للدولة أو الإمارة.

واقع الحصار:

الذي يجب أن يفهمه الناظر في مسألة قيام «دولة» الإسلام، هو ذلك الحصار الشامل التي تفرضه قوى العلمانية والصهيو–صليبية، بدعم حكام العرب في المنطقة بلا استثناء، على أية محاولة لقيام «دولة» إسلامية في المنطقة، ويقر لها قرار، وتستمر في أداء وظيفتها لحماية رعيتها.

وهذا لا يعنى استحالة هذا الأمر، بل يعنى أنه يجب أن يكون هذا التصور قائماً في أذهان المخططين لهذه الدولة، وواضعي تصوراتها وأهدافها القريبة والبعيدة.

ورفع هذا الحصار، ولو جزئياً، يجب أن يكون من التصورات التي تقوم عليها الجهود الساعية لإقامة مثل هذه الدولة. ولا يكون ذلك بمخالفة الشرع الحنيف، مثلما يفعل البرزاني العلماني الكردي اليوم من بيع نفطه للكيان الصهيونيّ[١]، فهذا فشل وضعيّ وشرعيّ، إذ فيه تقوية للعدو الذي يريد هدم كيانك، كردياً كنت أو غير كُرديّ، طالما تنتسب لإسلام ما، بصيغة ما.

وصيغة الاكتفاء الذاتيّ هي الصيغة الأقرب في هذا الصدد، إلا إننا لا نزال نصارع فطرة الاكتفاء الذاتيّ في التسليح. فتقنيات الأسلحة الثقيلة والتكنولوجيا، لن يُسمح لها بالتسرب إلى هذا الكيان الوليد، إلا ما تسرب منها، بأي شكلٍ من الأشكال. وفرض الحصار البريّ أو البَحريّ أو الجويّ هو من الأسلحة التي يجب أن تحذرها الكيان الوليد، لشدة أثره الذي رأيناه على جيش صدام والشعب العراقيّ عقب حرب الخليج الأولى.

---

[١] وقد ظهرت كارثة التطبيع بهد كتابة هذه السطور فصار ابن زايد وابن سلمان أنجس من االبرزاني وأشد تصهينا من نتنياهو!

أهل الحل والعقد:

فإن ترسخ وضع الدولة، وكان أهل تلك الأنحاء في حرية من أمرهم، جمع الناس أهل الحل والعقد فيهم، واتفقوا على أمير للدولة. وهذا الأمير لا علاقة له بأمير الجماعة أو التنظيم بالمرة. فهذه بيعة وتلك بيعة. ومن ثم، فإن فرَضَت تلك الجماعة المسلحة بيعتها وأميرها على أبناء «الأمة» في تلك الأرض المحررة، كانت بيعة غصبٍ، لا بيعة شرعية، وأصبحت تلك الجماعة غاصبة للسلطة، معادية للأمة ولرعاياها، فإن تغلب عليهم بلا مقاومة كانت إمارة تغلب، وإن ظلت المقاومة ضده قوية فليست بإمارة.

والمشكلة هنا هي أنّ الإسلام جاء لتحرير رقاب الناس من كلّ مغتصب، حتى لو كان من هم من أبناء جلدتهم، لحقّهم في المخالفة داخل إطار السنة. ونظام الحكم في الاسلام السنيّ يقوم على الشورى لا على الحكم الجبريّ، أو النظام الديكتاتوري، حتى لو تبنى الشريعة نظاماً، فالدكتاتورية أمرٌ لا يعرفه الإسلام ولا يقره، وإن ادّعى أصحابه توخى المصلحة، تماما كما لا يعرف الديموقراطية وإن ادّعى أصحابها نفس الدعوى.

الإسلام نظامٌ ثالث لا يعرف ديكتاتورية ولا ديمقراطية. لا يعرف ديكتاتورية الحرورية، ولا ديموقراطية الإخوان. كلاهما ساقطٌ في النظر السنيّ. وهنا يأتي التوصيف الصحيح والوظيفة الحقيقية لأهل الحلّ والعقد.

ومن ثمّ، فإن أهل الحلّ والعقد، يجب أن يجتَمعوا، بعد مرحلة التمكن، وأن تكون كلمتهم هي الأعلى. وليس لأمير تنظيمٍ، قاتَل في مراحل التمكن، قبل التمكين، وأسمى نفسه «أمير المؤمنين» أن يفرض نفسه على كافة رعايا «الدولة»، فإن هذا لا يكون إلا نتيجة فهمٍ منحرفٍ ظاهريّ لقواعد الإمامة ودور الإمام ووظيفة أهل الحلّ والعقد. ومثل هذا التصور الظاهريّ، الجبريّ، الديكتاتوريّ، لن يُنتج إلا صراعا مستمراً داخل «الأمة»، ولن يكون إلا أداة لقتل الأرواح المسلمة، بدلا من حمايتها، بمبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة. وحتى إن ظهر أتباع هذا الفهم المُنحرف الظاهري الديكتاتوريّ الحروريّ، فإن هذا الكيان لن

يكون ممثلاً «للدولة» التي تقوم على منهاج النبوة، وإن ظن أتباعها ذلك، بل سيكون ذلك محض تخرّص على السنة وعلى الإسلام. ويكون، في تلك الحالة، لا يزال الحكم الجبريّ الشامل، واقعٌ على «الأمة»، لكن مع تغيير المسميات دون الحقائق.[١]

والصفتان الأهم في صفات أهل الحل والعقد، في هذه الحالة هما نفاذ الكلمة على العامة، مع العلم الشرعيّ. وبدون أيهما، لا يصح أن يُعتبر الفرد من أهل الحل والعقد. فبدون الأولى، لا تجتمع الكلمة، وبدون الثانية ينحرف النظر والتصور.

هل تقوم «الدولة» دون عصبية؟

ومفهوم العصبية الذي قرره ابن خلدون هو مفهوم رائعٌ حقٌّ كلّه، وإنما يتلبس بصفة مغايرةٍ مع الزمن. فالعصبية القبلية، والعزوة العشائرية التي قصدها في مقدمته، كانت هي السبب في قيام الدول الأولى في الإسلام، بعد عصر الراشدين.

لكن، مع تطاول الأزمان، وتخالف العادات بين المتابعين للدين، في أنحاء الأرض، واستقرار الكثير من القبائل والعشائر، وظهور النعرات القومية التي حاول الغرب جعلها مكان النزعة المتسلطة في نفوس البشر من الولاء العصبيّ، وهو ظاهر فيما اقام من الحزبية السياسية، وأو الدوريات الرياضية، كقنوات تفريغ للطاقة تشغل الناس عن توجيه العصبية إلى أمرِ مالكي السلطة، فيزعزعها تدخلهم فيها.

يقول ابن خلدون «في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين، إما من نبوة أو دعوة حق. وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة. وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه. قال تعالى: « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم «، وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق

[١] وهو الأمر الذي تفرضه هيئة تحرير الشام اليوم في إدلب.

ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله. اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد، واتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة، كما نبين لك بعد أن شاء الله سبحانه وتعالى، وبه التوفيق لا رب سواه.» [١]

وقد رأينا في مصر أنّ فقدان العصبية بين المعارضين، وتشتت أغراضهم بين علمانيّ وإخوانيّ وعاميّ لا وجهة له، قد أفشلت الحراك في ٢٠١١. ورغم أنّ الإخوان قد لجأوا إلى عصبية الجماعة، إلا إنهم لم يعززوها بما هو لازم لها من القوة، فلم تجدي عنهم شيئاً. بينما لجأ العسكر إلى العصبية العسكرية المتلائمة في غرضها، الحائزة على القوة، فتغلب، على باطله.

يقول ابن خلدون «في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية.

وفي الحديث الصحيح كما مر «ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه « وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد، فما ظنك بغيرهم ألا تخرق له العادة في الغالب بغير عصبية.» [٢]

كما رأينا أن الحِراك في العراق، لم يثمر حقا إلا بعد تدخل قوى العشائر والقبائل في أوائل شعبان ١٤٣٥، إلى جانب التنظيم البغدادي الحروريّ، مما أتاح هذا الاكتساح السريع للرافضة الأنجاس.

ونعود قليلاً إلى ما سبق أن ألمحنا إليه من معنى العصبية لتكتمل الصورة. قلنا :

«فالعصبية تجمع عنصرين، أولهما المُتَعَصّب له، والمُتَعَصِّبون. والأول، المُتَعَصّب له، قد يكون فرداً أو فكرة، والمُتَعَصِّبون هم من يقفون وراء الفرد أو الفكرة، بقوة قادرة على

---

[١] – مقدمة بن خلدون بتحقيق د على عبد الواحد وافي ،ج٢ص٦٢٥، طبعة نهضة مصر.

[٢] – المرجع السابق ص٨٢٥

حمايته أو حمايتها من أعدائهما». وغالباً ما يكون الفرد المُتَعَصّب له حاملاً لفكرة، إذ يصعب أن يكون فرد لذاته محل تعصبٍ دون سبب، فالملوك تقف خلفهم فكرة الولاء والانتماء والإحساس بالذات المتميزة عن الغير عند الرعية، ورؤوس القبائل تقرب من هذه الفكرة في العصبية، والأنبياء يحملون الفكرة الدينية، التي ترتبط بهم ارتباطاً عضوياً محكماً. وقد تكون الفكرة أبرز من الفرد كما في حالة الفاشية والنازية، التي استعمل فيها هتلر وموسليني «الفكرة» أحسن استخدامٍ لتوظيف العصبية. ولذلك، نرى أنّ الجامعة العسكرية لا يمكن أن تكوّن عصبية ناجحة مستمرة، دون فكرة من ورائها. وهذا ما يميز كلب الروم السيسي عن الهالك عبد الناصر، فالأخير هذا قد سخّر فكرة القومة العربية من ورائه، فاكتسب الشعبية الجارفة مدة خمسة عشر عاماً، حتى بعد هزيمته النكراء في ١٩٦٧، ظلّ المتعصبون له على ولائهم، من باب التصاقهم بالفكرة التي يمثلها في عقولهم. والأول الأنكد، ليس من ورائه إلا قبضة عسكرية تضرب بلا تعقل أو تفكير في مآلات، ومن ثمّ فإن حياتها دائما سترتبط بقوة هذه القبضة، ولن ترتبط بشخصه يوما إذ لا يحمل فكراً ولا وطنية تجمع من حوله العصبة اللازمة للبقاء. والعسكر كانوا، وسيظلوا على ولاء لمن يدفع لهم، لا لغيره.

وقد رأينا أنّ العصبية الدينية قد لعبت دورها ابتداءً في إقامة ممالك آل سعود وآل الحسين في الجزيرة العربية، حيث اعتمد الأولون على مرجعية الشيخ محمد بن عبد الوهاب حتى نالوا الملك وعززوه، ثم حولوها إلى عصبية قبلية عائلية، فَصَلوا فيها الدين عن السياسة واقعاً صراحاً. كذلك مع آل فيصل في الحجاز أولاً ثم في الأردن ثانيا، بالنسب القرشيّ، ثم بالعصبية العشائرية بعدها.

وقد كان خطأ الإخوان الفادح هو أنهم ظنوا أنّ الدعوة الدينية كافية لإقامة الدولة دون العصبية المدعومة بالقوة، والتي تجسدت مصيبتها في قولتيهما «المشاركة لا المغالبة»، و»سلميتنا أقوى من الرصاص». والكلمتان قد آتتا أكلهما بالخيبة والخسران المبين، والسقوط المُزري للجماعة ككل.

والدعوة الدينية هي عصب الدولة النبوية بلا شك، وقد تقوم دول وممالك بغيرها، كما نرى في الغرب النصرانيّ، إلا إننا نتحدث هنا، على صنف العرب خاصة، وإن اشترك في الكثير مع بقية البشر. وصدق عمر رضي الله عنه «لقد كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام، فإذا إبتغينا العزة بغيره أذلنا الله». وهذه خاصية للعرب على وجه الخصوص، تشهد لها القرون الأربعة عشرة الماضية على الصحة والدقة. فلن تقوم لنا قائمة إلا بهذا الدين، والعصبية تحت لوائه.

الفرق بين انتشار الإسلام قديماً وحديثاً

وفي هذا الصدد، فإنه يجب أن نثبت الفرق بين تطبيق مبدأ العصبية بشكلٍ مباشر، كما استخدمها ابن خلدون، بناء على ما استشف بعبقريته من أحداث قيام الإسلام ودوله حتى عصره، وبين ما نحن فيه اليوم، فالفرق واسع شاسع، في الوسائل، وإن كانت المقاصد لا زالت قائمة لا تتبدل.

لا شك أن العصبية الدينية في القرون الثلاثة [١] الفضلى لا يمكن أن يوجد لها مثيلٌ اليوم، من حيث قوتها ونقاء فهمها وحسن سيرة القائمين عليها. ودع عنك هنّاتٍ، جرت بين الصحابة، فكلّ يسعى لصالح دين الإسلام والعدل كما يراه. وقد ظهر ذلك جلياً في آخر ما رميت به الأمة من حرورية التنظيم القائم على جزء من الدعوة الدينية في العراق والشام، وأقصد البغدادية.

وقد رأينا كيف أنّ علياً رضى الله عنه قاتل الحرورية، كي تصفو صفوف المسلمين من خبث البدعة، خاصة إن تجمّعت في شكل تنظيم مسلح.

ثم الفارق الآخر، وهو التغير الساحق في وسائل الحرب وطرقها، وظهور التكنولوجيا الحديثة. وهذا أمرٌ لا يجب أن يتخطاه الباحث بسرعة، أو أن يستهين به. فإن شجاعة

[١] - وأرى أن القرون هي الأجيال، أي الثلاثة أجيال التابعة لجيل رسول الله صلى الله عليه سلم، أي جيل الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، لا القرن بمعنى مائة عام. وهو ما يأخذنا إلى حوالي الربع الثاني من القرن الثاني الهجريّ، على أكثر تقدير.

الشجعان، قد خسرت بعض موقعها العالي لحساب تلك الوسائل التي لا تحتاج لشجاعة ولا جسارة، بل إلى خسة ووضاعة، دائما تجدها متوفرة عند من يملكون تلك الوسائل الحديثة.

كذلك، ما أشرنا إليه آنفا، من ضعف ولاء الحاضنات الشعبية وتغير تصوراتها بشكل تحول في بعض الدول إلى كفر صريح بالله سبحانه، كما رأينا في مصر وتونس على الأخص. وقد رأينا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحرك من مكة إلى المدينة حين توفّرت الحاضنة الشعبية القوية المخلصة المسلمة في المدينة، ليكون بين أهلها في أمان ومنعة وعزة. ولم يكن للإسلام كيان ينتسب إليه أو عصبة يعتمد عليها قبلها.

هذه العوامل، كلها، يجب اعتبارها في وضع أيّ تصور عن قيام دولة للإسلام، ونعنى هنا دولة حقيقية لها مقومات السلطان والمنعة والعصبية، لا ذلك الكائن المسخ الحروري، الذي يريد أن يفرض نفسه بالقوة على ساحة، ليس له فيها كمال القوة والمنعة والسلطان. بل يتقاسمه معه قوات مجاهدة سنية، وعشائر تكاد تنكر وجوده بالكلية [١]، ويعمل على إزالتها عن طريق «قتل المصلحة»!

والنتيجة:

أما وقد وصلنا إلى توضيح هذه النقاط المتشابكة، فإننا نخلص إلى أنه لا بد من توفر العصبية الظاهرة، والقوة القاهرة، والحاضنة الشعبية القابلة القادرة، والسياسية الشرعية الواعية الصابرة، لقيام أي «دولة إسلامية». وبدون أيّ من هذه المركبات، فلا يمكن أن تقوم لدولة قائمة، مهما بلغت قوة المركبات الأخرى في تلك المعادلة الرباعية.

من العصبية تنشأ الحماسة والجرأة على القتال

---

[١] – كما رأينا على شاشة أحد الفضائيات التي استضافت قائداً ورأسا من العشائر المقاتلة في شمال العراق، فلم يشر في حديثه من قريب أو بعيد لتنظيم البغدادي، بل تحدث عن ثورة عشائرية سنية، وحكومة وطنية وانتخابات!

ومن القوة تنشأ المنعة وحفظ البيضة والحدود

ومن الحاضنة ينشأ المدد والاستقرار، ومنها يأتي اختيار أهل الحل والعقد، ثم اختيار الإمام.

ومن السياسة الشرعية، التي تدعمها القوة تنشأ المرونة في التعامل حسب ضوابط الشرع بما يقلل من الأخطار المحيطة بالدولة الناشئة.

قيام دولة الإسلام في العصر الحديث:

وقد مرت بنا نقاط التشابه والاختلاف بين مستلزمات قيام دولة أو إمارة إسلامية، قديماً وحديثاً، فبات ممكنا أنّ ننتقل إلى تصور قيام هذه الدولة أو الإمارة في عصرنا هذا.

أشرنا إلى أنّ «الدولة الإسلامية» اليوم، ليست قائمة على عدم، كما كان الحال عهد رسول الله صلى الله عليه سلم، كما أنها ليست بذات قواعد صلبة على الأرض، بل تفتقد كافة المركبات اللازمة لقيامها إلى حدٍّ كبير. ومن ثمّ، فإن قيام هذه الدولة أو الإمارة يستلزم عملية هدم وبناء، وإصلاح وترقيع في نفس الوقت.

وقد أدى عدم فهم هذه المعادلة إلى فشل التجربة الإخوانية التي اعتمدت نهج الإصلاح والترقيع وحده منذ عصر حسن الهضيبيّ، وفشل التجارب السلفية الجهادية التي اعتمدت أسلوب الهدم وحده، كحركة الجهاد المصرية، والجماعة الإسلامية. هذا عدا فشل سائر الحركات السلفية الأخرى التي لم تراعي أيّ من الأبعاد التي ذكرنا، بل راحت تحاول البناء لا غير، على قواعد مهترأة، فسقطت وفشلت فشلاً ذريعاً، بل صارت معول هدم في عملية التحول للدولة الإسلامية، بعلمٍ أو بجهل، كسلفية الحويني واسماعيل المقدم وعصبتهما، وهم من الغفلة والتراجع الشديد مما أدى إلى فشلها في توجيه الشباب إلى بناء دولة إسلام، بل ساعدت على قهر العصبية الدينية في نفوس أتباعها وزرع روح الاستسلام والتبعية الذليلة محلها، وأعجب لمن يضع أمثالهم في سلة واحدة

مع المجاهدين الصادقين من أمثال الظواهري وأبو يحي الليبي وأبو مصعب السوري! ولا أشير إلى عصبة المرتد البرهامي إذ هذا قد خرج عن الملة ابتداءً بموالاته المطلقة للطاغوت، تأييداً وتعاوناً.

قلنا من قبل أنّه قد أدى عدم فهم هذه المعادلة [١] إلى فشل التجربة الإخوانية التي اعتمدت نهج الإصلاح والترقيع وحده منذ عصر الهضيبيّ، وفشل التجارب السلفية الجهادية التي اعتمدت أسلوب الهدم وحده، كحركة الجهاد المصرية، والجماعة الإسلامية.

ونبدأ بالقول بأنّ الخلافة على منهاج النبوة قادمة لا محالة، فهو قول الصادق المصدوق. لكنّ اليوم أمر واقعٍ يجب قراءته بدقة وعناية. ولا شك أن هناك إرهاصات وعلامات على وقوع هذا القدر المحتوم، و»ثم» تقع على التراخي فقد يكون بين الحكم الجبريّ ورفعه وإحلال الحكم على منهاج النبوة محله زمن طويل تقع فيه إرهاصات عديدة، صغرى وكبرى. فأن نفترض أننا في زمن إرهاصاته الكبرى، واقتراب موعده، بعض التفاؤل الزائد، وإن كان محتملاً، لكنه، بالنسبة لنا، مرجوحاً في هذا الوقت.

القوى الجبرية لن تسقط بهذه السرعة. بل، كما سنوضح، ترتبك بتغيير في المعادلة الدولية ككل، لا في شرقنا وحده، لكنها لا تسقط أمام بضع آلاف مهما كانوا. فإنه يجب أن نتذكر أننا لسنا نحارب بوسائل القرن السابع الميلاديّ. لذلك فإني أرى أن ما يحدث اليوم هو من الإرهاصات الصغرى، التي تنبئ بالانحلال عامة، وبصدق الوعد خاصة. لكن هناك خطوات، وإرهاصات يجب أن يعمل عليها المجاهدون، بعين مفتوحة على حركة التكتلات العالمية، وبخطة موضوعة محكمة، تبيّن ما هو من الثوابت القطعية التي لا مجال لاجتهاد

[١] – وهي العلاقة بين وضع الإسلام والدولة في واقع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم في عهد الخلافة الإسلامية، وبين وضعها اليوم في بلاد رفضت الإسلام شكلاً وموضوعاً، كنظام حكم، وبقيت ثلة من أهلها عليه عقيدة، لا حيلة لهم، وإن صلحوا كحاضنات شعبية حسب الحال.

فيها، وما هو من قبيل الاجتهاد، حسب الواقع والمناط والمصلحة وغيرها. ذلك أنّ العالم اليوم، غير عالم الأمس، بشكل كليّ عام. وتوازناته والتعامل مع متغيراته يحتاج إلى فقه دقيق عميق، لا مجرد قوة عسكرية محمودة.

الحركة الجهادية هي الوسيلة الأولى والوحيدة التي ستعيد الإسلام إلى الصدارة. لكن، لا يمكن تجاهل أنّ هناك دول كبرى في العالم، وستظل. فقد ظلت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وظلت في عهد الراشدين، وظلت في عهد خلافة الإسلام الكبرى أيام الأمويين والعباسيين، ومن بعدهم كافة ممالك الإسلام. فأن يظن أحدٌ أن المسلمين سيغزون نيويورك، ويأتون برأس أوباما تحت قدميّ البغداديّ أو غيره، أو أن تفجير قنبلة هنا أو هناك سيقوم بإزالة هذه الدول، هو واهم مسكين، لا يحسن النظر في أمور جيرانه، بله أمته. بل الأمر أمر توازنات يجب أن يعمل المسلمون على خلخلة ثوابتها القائمة اليوم، حتى يتم استبدال قوة محل قوة، واستبدال حكم طواغيت العرب بحكم الشريعة والإسلام.

الحديث اليوم عن فتح واشنطن ولندن حديثٌ لا يدل إلا على الجهل بسنن الله في قيام الحضارات وسقوطها، وجهل مطبق بالواقع، وعمى عن السياسة الدولية. فهمّ المسلمين اليوم هو إيجاد محلٍ يمكن أن يتمكنوا فيه، ويستقروا، ويؤسسوا نظاماً إسلامياً خالصاً، دون محاولة التصادم المباشر مع القوى المحيطة، إلا من صال عليها.

إن القوة اليوم، لا زال مركز ثقلها يقع في الغرب، بلا شك. وقوة الجماعات الجهادية المختلفة لا يمكن أن يكون نداً لتلك القوى إلا بالحاضنة الشعبية التي تمنع تلك القوى الصهيو-صليبية من الإبادة العامة الشاملة، وهي تحوز قوتها ووسائلها.

المشكلة التي وقع فيها الإخوان المرجئة، أنهم لم يؤسسوا نظاماً إسلامياً خالصاً، بل نظروا إلى قوة العدو الهائلة، غير معتبرين أن لهم أيّ ثقل في توجيه الأحداث. ومشكلة الحرورية اليوم أنهم اغتروا بعدة مركبات اكتسبوها، وأراضٍ دخلوها، متناسين أية قوة خارجية بالمرة، وكأنهم يعيشون وحدهم، في فراغ!

مفتاح الدولة الإسلامية التي تريد أن تنجح في البقاء والاستمرار هو في تحقيق التوازن بين ثقلها الحقيقيّ على الأرض، وبين ثقل القوى الخارجية الهائلة، دون تغليب ثقل أحدهما على الآخر.

وهو توازن يحتاج إلى ذكاء فائق، وحنكة سياسية وعسكرية، وإدراك لنفسيات الشعوب ومواطن ضعفها وقوتها، وفهم لمقاصد الشريعة وأولوياتها، وزعامة حاسمة في اتخاذ قراراتها دون ظلم أو إجحاف، ثم حسن تقدير للواقع القائم على الأرض.

الخطوات التي نراها تُهيأ لقيام دولة إسلامية

في أي بقعة من البقاع التي عاش عليها، ولا يزال يعيش عليها «أمة مسلمة»، هي كما يلي:

- تكوين جماعات مسلحة مجاهدة، غير مركزية، تتمتع بمرونة كبيرة في الحركة، وتملك التصرف الذاتي في اتخاذ القرارات.
- أن تتعاون هذه الجماعات بينها بشكل فعّال في تحطيم البنية العسكرية والأمنية للمنطقة التي تعمل فيها، دون أن تتعرض لأي من الأهالي بسوء.
- أن يقتصر عمل هذه الجماعات على بلاد المسلمين دون استعداء لأيّ من بلاد الغرب بعمليات لا تأثير لها في أيّ شأن من شؤون حياتهم إلا «خربشات» لا تضرهم، بل تنفعهم في رسم سياساتهم المضادة، وهي نقطة نؤكد عليها، مرارا وتكرار.
- أن تتخذ هذه الجماعات من الحاضنة الشعبية المسلمة درءاً ووقاية وملجأ، إذ يستحيل أن تنتصر جماعة إلا بهذا التكافل، لحاجتها إلى «أمة» هي المادة الأساسية للدولة أو الولاية. فالمجاهد ليس أمة، والجماعة ليست أمة.

وإذ قررنا هذه الصورة، فإننا نعود مرة أخرى لنتحدث عن أهل الحل والعقد، والإمارة.

فمن أحشاء هذا الحاضنة، ومن بين صفوف أهل الجهاد، سيبرز من هم أهل لتمثيل هذه الأمة حين يتم التمكين الصحيح، والتغلب على نظامٍ قائمٍ وإسقاطه بالكامل، كما حدث، ظاهرياً فقط، في أيام حكم الإخوان في مصر.

لكن هنا يجب أن يكون التطهير عاماً سريعاً حاسماً بلا هوادة أو رحمة أو استثناء، لمن ثبتت عمالته وردته، ليس بطريقة الحرورية، ولكن تبعاً للشرع الحنيف. ومن ثم، يكون أهل الحل والعقد، جمعٌ معروف الأسماء والهوية، مقبولٌ لدى الحاضنة الشعبية، وقادة الجهاد، على اختلاف تجمعاتهم.

ثم يجرى، بمعرفة أهل الحل والعقد، اختيار من يرونه الأصلح لقيادة الدولة الناشئة، مع مراعاة حقيقة الصفات المطلوبة في الأمير، دون مجرد مسمياتٍ لا أثر لها إلا محاولة فرضها على الشخصية المقترحة، ما حدث مع البغداديّ في كذبة قرشيته تلك. وهي صفة لا لزوم لها حالياً، إلا بعد أن يكتمل قيام إمارة (دولة) حقيقية، ثم فرض سيطرتها، وبسط سلطانها، بما يجعلها أهلاً أن تعين المسلمين وتدافع عنهم في أماكن هوانهم وظلمهم، لا أن تسألهم العون أن ينصروها في عقر ما يسمونه دار خلافتهم!

وحتى نستأنف البحث، ونصل به إلى نهاية محددة، فيحسن أن نذكر باختصار بعض ما ناقشناه من قبل. فقد قررنا من قبل:

١. أننا حين نستعمل كلمة «المسلمون» هنا، فإنما نعنى أولاً السنة، وثانيا، من هم منهم محبٌ لله ورسوله، لا يعاديهما ولا يقف في وجه تطبيق شريعة الإسلام، ولا يوالى المرتدين والكفار ضدهم، ويحزن لقتل المسلمين في أيّ بقعة من بقع الأرض، وإن كان منهم عصاة فسقة.

   أمّا خلاف ذلك، فهم مرتدون خارجون عن الملة، وإن كانت وسيلة التعامل معهم تختلف بإختلاف درجة عدائهم وقوة تأثيرهم، بدءاً بالدعوة لإيضاح الحق، حتى إقامة الحدّ الشرعيّ المناسب، حين تتحقق الشروط وتنتفي الموانع.

٢. التنبه إلى حقيقة أن المسلمين محاطون بالأعداء من كلّ جانب، داخليا بحكامهم، وخارجيا بالقوى المجوسية أو الصهيو-صليبية.

٣. أنّ الاستعمار العسكريّ لبعض دول الخليج يمثل ضغطاً أكبر على المسلمين في محاولاتهم لكسر هذا الحصار.

٤. أنه من العبث الطفوليّ أن يصرف الناس جهدهم في الحديث عن غزو الغرب، وجهاد الطلب، وتدبيرات تفجيرات هنا وهناك في بلادهم، فإن ذلك يعتبر من قبيل الطاقة السالبة لا الموجبة، فإن مثل هذا الأمر، يضيع جهداً وأرواحاً مسلمة دون مقابل على الإطلاق، إلا حفزهم على زيادة الترتيبات الأمنية، والبقاء في حالة استنفار بشكلٍ دائم. وقد ناقشنا هذا الأمر بالتفصيل في مقالنا «عن الجهاد والمقاومة.. نظرة فقهية تطبيقية» المنشور في أكتوبر ٢٠٠٩.

٥. أن الخيارات المطروحة أمام المسلمين السنة اليوم ليست بكثيرة ولا عظيمة آملة. إنما المسلم اليوم، في واقعنا هذا، عليه أن يستجلب النصر باستحضار الإيمان، وبإعداد العدة، وباتخاذ الأسباب الصحيحة، وهي نقطة جديرة بالتأمل والاعتبار، إذ إن الكثير يردد نفس هذا القول، ولكن يستعمل الأسباب الخاطئة، كما فعلت الإخوان بالارجاء، وفعلت البغدادية بالحرورية. وكلاهما ساقط فاشل.

٦. أنّ الواجب إعداد موضوع «الدولة» قبل إعلانها، و»تمكين» أميرها قبل تنصيبه. وهو ما ناقشناه في أبواب التمكين وأهل الحلّ والعقد.

من هنا فإننا نرى أنّ الخيارات التي أمام المسلمين، للتعامل مع الداخل والخارج محدودة بحدود قوتهم، ومهارتهم، وتقواهم لله، ومراعاتهم لسننه الشرعية والكونية.

الخيار المطروح للتعامل مع أنظمة الداخل المرتدة:

وتتحدد معالم تلك الخيارات حسب درجة نضوج الحركة الجهادية داخل تلك البلاد فمثلاً في سوريا والعراق أو أفغانستان، حيث تطورت الحركة الجهادية إلى تحقيق معادلة حقيقية على الأرض، غيرها في مصر أو الأردن أو الجزائر، حيث الحركة الجهادية تكاد تكون معدومة، أو مطحونة بالنظام طحناً كاملاً.

وفي كافة الأحوال، فإن التعامل مع النظام يختلف في طبيعته عن التعامل مع الشعب المسلم. ففي الحالة الأولى، يجب على الحركات الجهادية أن تفرّق بين أبناء الشعب المسلم، وبين العدو المقاتل من جنود النظام ومناصريه. أمّا عن حق الشعب المسلم عليهم فهو أن تكون هجماتهم على النظام نوعية على الدوام، لا يتأذى بها مسلم، إذ ليس في الإسلام ما يسمونه «إصابات عارضة» [١]، إلا في حالات خاصة جداً ناقشها العلماء، وفيها اختلاف، كرمي الترس، وهي ليست من المناطات التي نتحدث عنها. كذلك يجب أن تكون تحركاتهم واضحة الهدف، صحيحة الوسيلة، تصدر بها بياناتٍ موضحة شارحة للعمل وما تحقق منه، بعد وقوعه، حتى لا يتخذه العدو وسيلة للتأثير على الجهلة من العوام، وما أكثرهم!

وما يجب أن يحذره المجاهدون هو تلك «الاستراتيجية العسكرية»، التي تتعامل مع الشعب كأغنام تساق إلى تطبيق الشريعة، حسب زعمهم. بل يجب أن تكون الرغبة متحققة في الحاضنة المسلمة، إذ بدونها يصبح جيش المجاهدين كأنه جيش غزو واحتلال، تحت أيّ اسم كان. وسرعان ما ينتفض الشعب على خانقيه، سواءً بحق أو بباطل، فيخرج على الإسلام، ويصبح هؤلاء مدعاة للردة من حيث أرادوا نشر الإسلام!

إن نشر الإسلام وتطبيق الشريعة يجب أن يكون نابعاً من رضاء الأغلبية، كما رأينا في المدينة المنورة، تلك الحاضنة المسلمة التي أمّنها رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً وقبل كلّ شيء، ثم انطلق بعدها للغزو والفتح. ولو كان الأمر على غير ذلك التصور، لرأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمّع مجموعات قتالية في مكة، ويحارب ويغتال المشركين، ثم يسيطر على أجزاء منها، ويقيم عليها «خلافة»!. هذا ليس منهج النبوة، ومن ثم فهو منهج فاشل دنيوياً وتطبيقياً، إذ إن الباطل شرعا، فاشل وضعاً، ومن ابتغى التمكين بغير وسيلة السُّنة، ضاع منه الدين والدنيا جميعا، كما نرى اليوم في منهج الإخوان الساقط، وحركة الحرورية البغدادية.

---

[١] Collateral damage-

إن اكتساب الحاضنة الشعبية، إلى جانب العمليات الجهادية، هو الطريق إلى بناء الدولة الإسلامية. فالعدو الخارجي غاية في القوة عدة وعتادا وتقنية. ومن غير أن يتبنى أبناء الشعب أيديولوجية التوحيد، ونصرة المجاهدين، فسيظل هؤلاء كأنهم «خارجون عن القانون»، لا يعينهم أبناء الشعب بسلاح أو مال أو سترة أو معلومة. ومن ثمّ، وجب «تجنيد» العامة بالدعوة، والشرح والبيان، دون أن يلزم من ذلك أن يحملوا سلاحاً، فالمجاهدون يقومون بهذا القدر، لكنه «تجنيد معنويّ»، ينشأ عنه التعاطف والولاء والإعانة والمساعدة بكلّ أشكالها.

إن عملية التعامل مع النظم الداخلية المرتدة، ومع الحاضنة الشعبية «المسلمة» هي عملية هدم وبناء، سلب وإيجاب، تماماً كالنفي والإثبات في «لا إله إلا الله».

هدم للنظم القائمة على الأرض، وهدم للعقائد الخربة في النفوس، ثم هي عملية بناء نظمٍ بديلة على الأرض، تقيمها نفوس مستنيرة واعية بمعنى الإسلام ومقاصده وأهدافه، بعد تجدد فهمها للإسلام وانبعاث أملها في عدله وكمال شرعه.

والمجاهدون لن يتمكنوا، مهما كثر عددهم، أن يراقبوا كلّ وزارة أو ديوان أو محل عمل. وهم لن يقوموا بدور البوليس العقدي في كلّ حين، كما يحدث اليوم من مهازل إصدار «صكوك التوبة» في الدير! والله إنّ هذا نهج آباء الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى الأوروبية المظلمة، يتبناه من يدعى السير على هدي محمد صلى الله عليه وسلم. التوبة ليس لها صكوك، والتحلي بالإسلام لا يمكن أن يُفرض على شعب كامل، أو غالبه.

الخيارات المطروحة للتعامل مع قوى الخارج:

الكلام «ببلاش» كما يقول المثل المصري العاميّ. ومن ثمّ فإنا نسمع ترديد العوام، ، لكلام مثل أنّ المجاهدين سيغزون واشنطن ونيويورك ولندن، وكيف سيركع أوباما أمام

«الخليفة»، وكيف سيأتون برأس الملوك والسلاطين .. الخ، مما يملأ مواقع التواصل الاجتماعيّ، خاصة من تبخّرت عقولهم من حديث الخلافة والدولة، تلك الفقاعات الصابونية والزوابع الفنجانية، التي رأيناها مؤخراً في العراق والشام.

وهذا التبسيط للواقع العالمي، ومعطياته وأبعاده، والتهوين من قدر العدو المترصد، وقَصْرِ النظر على البيئة المحيطة، يؤدى بطريق اللزوم إلى سياسات تقوم على المجازفات.

والحقيقة أنّ عدم تقدير قوة العدو الحقيقية، دون تهويل أو تهوين، هي الكارثة الأكبر في مسار أية محاولة لإقامة دولة إسلامية في محيط الكفر العام الذي يعيش فيه المسلمون.

إن الخطر الأكبر على تحقيق هذا الهدف هو ذلك الخيال الواهم الذي يعيشه الأكثر من أبناء الإسلام، المحبين لله ورسوله، والقادرين على المجالدة والصراع، وَهْمُ أننا لا نزال نحيا في القرن السابع الهجريّ، بوسائله ومعادلاته وطرق حربه وسلمه. هذه هي القاصمة. فأنت تسمع، ليس عواما فقط، بل قيادات بزعمهم، يتحدثون عما تحكيه كتب التاريخ من مواقف الصحابة أو قادة المسلمين في عز علو الإسلام، ويتصورون أنّ هذا الأمر ممكناً، اليوم، أن يتحقق. ووالله ليس هناك لنا أمل أعزّ من هذا، لكن العقل والعادة والواقع يأبون إلا أن تسير الأمور حسب سنن الله في علو القوم وهبوطهم، ومن ثم سطوتهم وعزتهم. فهؤلاء كانوا في عزة ونحن اليوم في ذلة. هؤلاء صَفَتْ لهم السنة، ونحن قد عُجِنت عقيدتنا بالبدعة، أو غالبنا.

وقد كان من تأثير هذا الانحطاط والتردي، والسيطرة الغربية على عالمنا الإسلاميّ، أن فزع المخلصون من الشباب للتاريخ، للماضي، يحيون فيه، من حيث أنه أسهل عليهم من التعامل مع الواقع من ناحية، وأحيا للكرامة وأحفظ لعزة النفس من ناحية أخرى، فتسموا بأسماء السلف وكنياتهم، ومظهرهم وملبسهم، من باب غريزة حب البقاء، التي تجعل هذه الأفعال، فيما يرون، تضمن استمرار بقائهم، وحفظ وجودهم.

لكنّ هذه الظواهر النفسية، لا تجدي نفعاً حين يأتي وقت الصراع الحقيقيّ. بل إنه من لوازم النصر أن يعود المسلم ليحيا في الواقع الحاضر، وإن احتفظ بماضيه يستلهمه الرؤية الصائبة ويتخذه درعاً واقياً من الانزلاق في مستنقعات الحضارة المعاصرة، فالماضي يمثل جذور البقاء، والحاضر يمثل أوراق النبت وثماره، تحيا في شمس الواقع، وتتحمل ريحه وتقلبات طقسه.

والشرع هو الشرع، في الماضي والحاضر، وفي المستقبل. إنما الأمر هو أنّ الواقع الماضي يحمل مناطات تختلف عن مناطات الحاضر، فالأحكام العامة ثابتة، والفتاوى تتغير. ومن الأحكام ما يستجد حسب الحاجة، وحسب الحالة.

أما وقد قدمنا بهذه المقدمة، فإننا نرى أنّ أمام أيّ كيان إسلاميّ وليد، ثلاثة خيارات في التعامل مع القوى الخارجية التي تتحكم اليوم في مفاصل السياسة والاقتصاد وتحوز القوة العسكرية الفائقة:

١. الفهم الظاهري والمواجهة الفورية

٢. اللين والتفاهم وسياسة التعايش والتوافق

٣. التوسط بتقسيم الأهداف إلى مرحلياتٍ تكتيكية - يلزم لها درجة عالية جدا من الوعي!

ونضيف هنا أنّ السيكولوجية البارعة ليست التي تفكر فيما تريد أو كيف تصل إلى أهدافها مع عدوها، بل هي التي تفكر بعقلية أعدائها، وتضع نفسها محلهم، لترى الخطوات التي يمكن أن يتخذوها قبل أن يتخذوها.

ضع نفسك محل عدوك، ثم انظر ما عساه يفعل، بعقله هو لا بعقلك أنت.

وهي قدرة تحتاج إلى دربة كبيرة وطويلة، أن يضع الإنسان نفسه محل عدوه، في كل منحى من نواحي الفكر والتطبيق، ليرى ما يفعل عدوه، ويكون منه على أهبة الإستعداد.

هذه الدربة معدومة في القيادات الحالية انعدام الماء في الصحراء الجرداء. فالمسلمون لم يتعودوا هذا المنطق من النظر، بل هم يفكرون دائماً إلى «الخارج»، أيّ ماذا يريدون أن يفعلوا؟ أو ما هو ردّ الفعل الأنسب على فعل وقع من العدو؟ أمّا الفكر الاسْتباقي، الذي يتخذ من عادات العدو، ومن أهدافه، ومن مناحي قوته وضعفه، ومن احتياجاته المرحلية، ومن علاقاته الآنية ومصالحة العاجلة والآجلة، ومن طبيعة قياداته وعاداتهم وطرق تعاملهم وأساليبهم، عوامل يؤسس عليها ما يمكن أن تكون الخطوات التالية للعدو، فهو ما ليس في فكر أحدٍ من قيادات العمل الإسلاميّ، ولا قريب منه.

الأطروحة الأولي: الفهم الظاهري والمواجهة الفورية:

وهي الأطروحة التي نراها اليوم سائدة على الساحة الجهادية، في التيار السلفيّ الجهاديّ بعامة، سواء من الحرورية أو من أهل السنة. وملخصها أننا سوف نفعل كذا وكذا، وسنحتل كذا وكذا، وسنقتل كذا وكذا. وهي أطروحة تعين على حماس المقاتلين، وتشدّ أزرهم، وتكتسب عطف الكثير من العوام الذين اشتاقوا إلى الإحساس بالعزة والكرامة والاستعلاء.

لكننا لا نرى أنّ هذه الأطروحة هي المثلى في عالم اليوم، إلا بعد التمكن الحقيقيّ من الحرب والمواجهة. فإنه ليس من السياسة ولا من الحكمة مواجهة عدوك بنواياك تجاهه وأنت تعلم أنك غير قادر على تحقيقها، بعد. ورسول الله صلى الله عليه سلم، لم يرسل وفوداً للفرس والروم وهو في مكة أو في أوائل سنواته في المدينة قبل أن يتمكن من بقية الجزيرة، ويعلم قدرته على المواجهة. وعالم اليوم عالم تقنيّ، يقول القائد الكلمة، فإذا هي وفده إلى العالم كله، قريبه وبعيده، في لحظة واحدة.

وهذا المنطلق ينشأ من ظاهرية عامة في تناول النصوص، وسطحية في فهم الواقع، وغلبة العاطفة على العقل، وقلة فقه بالسياسة الشرعية في عصرنا الحاضر. فكما أنّ الفقه قد تتغير فتاواه بتغير الزمان والمكان والحال، فإن السياسة الشرعية من الفقه. ومن ثمّ وجب أن ينظر إليها المجتهدون من باب ما تتغير فيه الفتاوى حسب حال القوة والضعف، والاستعداد والانتكاس.

وهذا المنطلق يصح ويصلح في حالة وجود «دولة» قائمة لها جيش وعدة وعتاد، ليكون من مثل هذه الكلمات والسياسات تخويفاً وإرهاباً للعدو أن يصول عليها. لكن، في مراحل النشأة والتكوين، فإننا لا نرى إلا أنها وبالاً على الحركات الجديدة الناهضة.

الأطروحة الثانية: اللين والتفاهم وسياسة التعايش والتوافق

وهذا المنطلق هو الطرف الآخر من سابقه، وهو إبداء الضعف والتنازل وإمكانية الخضوع للعدو من اللحظة الأولى، وتقديم الحركة على أنها صورة «معدلة» مما هو قائم! وهو المنهج الإخوانيّ في التعامل مع الخارج. وإن كنا نتحفظ، إحقاقاً للحق، فيما أبدي د محمد مرسي من رغبة في تغيير موازين التعامل مع العدو، وما صار له نتيجة ذلك، من حيث إنه لم يأخذ المنهج متكاملاً، بل اقتصر على العلاقات الخارجية، وترك ظهره مكشوفاً لعدوه الداخليّ الأخطر.

وقد يبدو هذا المنطلق أكثر حكمة وروية وتعقلاً من سابقه، لكنه، في حقيقة الأمر، ليس إلا استسلاما مبكراً وحكماً على الحركة الوليدة بالوأد في مهدها. فهذا المنطلق لا يصح ولا يصلح، إذ ليس هو بموافق للشرع ولا للوضع والعقل.

الأطروحة الثالثة: تقسيم الأهداف إلى مرحلياتٍ تكتيكية

وهي التي نحسب أنها أفضل وسيلة للتعامل بين الحركات التي تسعى لبناء الدولة الإسلامية، وبين الخارج. وفي هذا المنطلق، تتعامل الحركة مع استراتيجية واحدة، وهي بناء دولة قوية منيعة مكتفية ذاتياً، لها هيبة وقدرة وصولة.

لكن هذه الاستراتيجية لا يمكن الوصول لنتائجها أو تبنّيها دفعة واحدة. ومن ثمّ يكون تقسيم الأهداف إلى مراحل تكتيكية. في كل مرحلة يتغير الخطاب إلى الخارج، حسب الحاجة، مع محاولة تقليل هذا الخطاب أصلاً، إن لم توجد الحاجة الملحة له.

ففي المرحلة الأولى مثلاً، يجب تجاهل الخارج بشكلٍ تامٍ وإخراجه من معادلة الحوارات والبيانات، وهذا هو عين ما تجد الخارج يتعامل به مع الحركات الوليدة، تجاهلاً كأن أمراً

لا يحدث، إلا ما هو من قبيل ثرثرات الإعلام غير الرسميّ. وهذا التصرف مبنيّ على أنهم يدرسون الحركة، ويستوعبون أبعادها ليكون ردّ فعلهم مرسوماً مقدّراً. [١]

ومن ثمّ، فإنه كلما قلت المعلومات التي تخرج من الحركة كلما عُمِيّ عليهم معرفة أغراضها أهدافها، أو طريقة التعامل معها. وما كلّ هذه التصريحات النارية إلا سذاجة وصبيانية، ضرّها أكبر من نفعها. ثم تأتي مرحلة الإعلان، متأنية خافتة، تعنى بالداخل أكثر من الخارج، وتسمح بالحوار، ما لم يتجاوز الشرع، ولا يبعد عن ناظرها حاجتها للجيرة من حيث الإمداد والتموين.

ونقطة الجيرة أو المتاخمة هذه، من أهم ما عميت عنه أبصار الحركات الجهادية اليوم، إذ إنه، سواءً أردنا أم لم نرد، أحببنا أم كرهنا، فإن حدود سايكس بيكو لا تزال جاثمة على صدورنا، ولا تزال الحكومات العميلة تتشبث بها حتى تسقط، إذ في انهيارها سقوطها على أية حال. والدولة الوليدة سيكون لها جوار معادٍ وكاره بلا شكّ، من كلّ ناحية. ولهذا نرى أنّ أبا حنيفة قد جعل من شروط دار الإسلام «الجوار» أو «المتاخمة». وهو رحمه الله، في هذا كان أبعد الفقهاء نظراً، حيث اتفق معهم في شرطيّ تطبيق أحكام الشرع، والأمان الأول للمسلم، ثم زاد عليهم شرط المتاخمة. وهو أجدر ما يكون بالاعتبار في عصرنا الحاليّ، إذ كيف يمكن أن يكون هناك دار إسلام، وهي محاطة من كل جانب بدول الكفر؟ هذا لا يكون، شرعاً ولا عقلاً. فالأمان مفقود، وإمكانية الغزو قائمة، والاكتفاء الذاتي مستحيل، وفرار المرتد ميسور. وهي نقطة أخرى تضاف إلى عوار ما أسموه بالخلافة اليوم!

---

[١] - من أمثلة ذلك تلك الدراسة التي أصدرها جاريت براشمان، عام ٩٠٠٢، المتخصص في دراسة «الإرهاب» في قاعدة وست بوينت الأمريكية الشهيرة، قسم رصد الإرهاب. وقد تحدث فيها بتفصيل عن الحركات الجهادية، وعن عدد من أبرز الشخصيات في هذا المجال كأبي محمد المقدسي وكتابه «ملة إبراهيم»، وأبو يحي الليبي والشيخ أيمن الظواهري وكتابة «الولاء والبراء، كما نقل عنّا ما دوّناه في كتابنا «فتنة أدعياء السلفية وانحرافاتهم»، واستخدمه في بحثه على طول ما يقرب من عشرين صفحة. إقرأ Global Jihadism, Jarret Brachman p ٢٢-١٤، وهو كتاب جدير بالقراءة لمن يهتم بأمر الفكر الغربيّ في الواقع الإسلامي الحركي والجهاديّ.

ثم تكون بعد ذلك مراحل متلاحقة في الإعلان، تتصاعد فيها وتيرة الاستقلالية والاستغناء والكفاية، وإن لم يلزم منها «التحدي» والاستفزاز، والفرق بينهما واضح لمن لديه فقه في سياسة الشرع والعقل.

خاتمة البحث:

مما لا شك فيه، بعدما قدمنا في بحثنا هذا من تفاصيل، أنّ إقامة «دولة إسلامية» في عصرنا هذا، أمرٌ جللٌ يحتاج إلى جهدٍ في العلم والعمل، في الفقه والجهاد، في دراسة الماضي واستيعاب الحاضر، في فهم أنفسنا وقدراتنا، وفهم العدو الداخل والخارج.

من ثمّ، فإن اعتساف هذا الأمر، ومحاولة اصطناع ظروف تتشابه في عقول العامة على أنها هي ما نسعى إليه، هو من قبيل خداع النفس، لكنه خداع للنفس ذو تكلفة باهظة، في الأنفس والأموال، وتأخيرٌ لجني ثمار الجهود الحقيقية المخلصة، وقد تقرر في القواعد، عقلاً وشرعاً، أن من استعجل الثمرة قبل أوانها عوقب بحرمانها.

وإذ وصلنا إلى هذا الحدّ في البحث، فإننا نكتفي بما قدّمنا، مع الاعتراف بالعجز والقصور، لكنه، يعلم الله، جهد المُقل.

ونحن على يقين أنّ كلّ نقطة مما تعرضنا اليه في ثناياه، تحتاج إلى شرح وتفصيل وإيضاح، لعل الله سبحانه أن يقيد من العلماء وطلبة العلم من يقوم بجبر تقصيرنا فيما قدمنا.

لكننا نوصي أهل العلم أن ينظروا فيما دوّنا، ولعله أن يكون من مناهج التدريس في معاهدهم، ليتفهم من يريد أن يتأهل للجهاد، ما هو مقدمٌ عليه، فلا يقع فريسة أهواء ضالة وبصائر منحرفة[١].

والحمد لله ربّ العالمين

---

[١] بحث «بعد أن انقشع الغبار» http://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/72579/%D8%A8%D8%B9%D8%AF-%D8%A3%D9%86-%D8%A7%D9%86%D9%82%D8%B4%D8%B9-%-D8%A7%D9%84%D8%BA%D8%A8%D8%A7%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D9%88%-D8%AB%D9%8A%D9%82%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%A7%D9%85%-D9%84%D8%A9

الجزء الثاني

إقامة الدولة وبناء الأمة

الحقيقة العارية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد

تقدمة

القسم الأول – قيام الدولة

١- المسرح العالميّ

أمرٌ أظن أنه قد فات غالب العلماء والمفكرين والشيوخ والسياسيين والدعاة الإسلاميين، المخلصين لشهادة التوحيد، في سعيهم الحثيث للبحث في مقومات الدولة الإسلامية، وعناصر بنائها، ومواصفات أمرائها وعمالها، وكتابة دساتيرها وعلاقاتها مع جيرانها في حالتيّ السلم والحرب، ونظام اقتصادها ..الخ، وهو مدى واقعية إمكان إقامة دولة جديدة في «عصرنا هذا»، تتخذ مكاناً بين الدول، ويعترف بها مجتمعهم، ويسمح باستمرارها ناديهم!

السنن الكونية لا تتبدل ولا تتغير، لكنها تزداد وضوحا وتحديداً مع تعقيدات الحياة وتشابك المصالح، اقتصاديا وسياسيا واجتماعياً.

عالم اليوم ليس بعالم الأمس، بأي مقياس كان. عالم ما قبل الحرب العالمية الأولى ليس هو عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، وليس هذا الأخير بعالم اليوم. ونحن لا نتحدث عن رقعتنا الإسلامية فقط، بل على المسرح العالمي كله. وها هي المؤشرات الكبرى لذاك التحول:

١. الحرب الأهلية الأمريكية في القرن التاسع عشر، بعد حرب الاستقلال الأمريكية عن بريطانيا، التي عُرفت بحرب الشاي، في القرن السابع عشر.

٢. بدء اضمحلال الإمبراطوريتين البريطانية والعثمانية، والذي تم بعد الحرب العالمية الأولى بالقضاء على الخلافة العثمانية، ثم تحول القوة العالمية إلى أمريكا بعد تفكك الإمبراطورية البريطانية، عقب الحرب العالمية الثانية، واكتفائها بالكومنولث.

٣. ظهور قوة «النفط» الذي زاد من أهمية الرقعة الإسلامية، كموضع للتنافس بين القوى العالمية في التشكيل الجديد قبيل الحرب العالمية الأولى.

٤. إعادة تشكيل المنطقة العربية، بالسماح بإنشاء دول جديدة تابعة للقوى العظمى آنذاك، كمملكة آل سعود، ودويلات الإمارات والخليج، والتمهيد لإقامة دولة مستقلة في الرقعة الإسلامية، وهي الكيان الصهيوني (إسرائيل).

٥. لم تتأسس دولة جديدة بعد ذلك إلا ما جاء نتيجة انشقاقات وانقسامات كما في دول الإتحاد السوفياتي وشرق أوروبا، أو في أفريقيا مثل جابون.

٦. ظهور الأحلاف والتكتلات الدولية، خارج مظلة الأمم المتحدة الي تشكلت للتحكم في مصائر الدول الصغرى الأعضاء، مثل حلف الناتو وحلف وارسو، الذي انهار عقب انهيار الاتحاد السوفييتي.

٧. التغيرات الواقعة في ميزان القوى الدولية، والتي انتهت حاليا بوجود أربعة أطراف تمثل القوة العظمى عسكريا واقتصاديا وسياسيا، أمريكا، روسيا، الصين والإتحاد الأوروبي.

٨. الانقلاب التكنولوجي الرهيب في عالم الانترنت، وأثره على تطور السلاح «التقليديّ»، لا النووي المخزون في الصوامع»، مثل الطائرات بغير طيار والقنابل العملاقة وغيرها.

٩. التطور الهائل في وسائل الاستخبارات والتجسس، لدرجة انتهاء عهد «الخصوصية» في أنحاء العالم.

١٠. توظيف كافة الأنظمة الحاكمة بجيوشها ومؤسساتها، في رقعتنا المسلمة بالذات، لصالح الكيان الصهيوني والمصالح الأمريكية البحتة، إن كان ثمة فرق بينهما.

وقد دلّت هذه المؤشرات على تغير انقلابيّ هائلٍ في وسائل التعامل بين الدول، أو بالأصح القوى، على المسرح العالميّ، وتبدلها لغير رجعة، كما كرّست بزوغ منظومة جديدة، تتكون من شبكات من العلاقات المصلحية، وتتمثل في تلك القوى الأربع العظمي التي سادت المسرح العالمي بكامله، وعقرت مؤخرا منظومة ما يُسمى بالأمم المتحدة، لعدم الحاجة اليها.

وكان من نتيجة ظهور هذه المنظومة، أن أصبحت كلّ رقعة من الأرض واقعة تحت سيطرة كاملة تامة، بطريق مباشر أو غير مباشر، سواء عسكريّة أو اقتصاديّة أو سياسيّة، أو كلها معا، كما في حالة رقعتنا الإسلامية، التي تخضع للقوى الأمريكية خضوعاً، بل خشوعا تاماَ!

وأخيراً، نود في هذا الجزء من المقال أن نشير إلى إنه، مع التخاصم والعداء والمنافسة الشديدة بين تلك المنظومات الجديدة، في الشمال والجنوب الغربي الأسيوي أو أمريكا أو أوروبا، في مجال التسلح والاقتصاد والتكنولوجيا، ومن ثم بسط سيطرتها على رقعة أكبر من العالم المُستعبَد، فإنها مجُمعة على أمر واحد، وهو العداء للمسلمين، عداءً أصيلاً متجذراً في تاريخها وفي وعيها الجمعيّ، فهي كالحيوان الصائل، قد يتعاون مع غيره لإسقاط الفريسة، فإذا أخذها من عنقها، بدأ التنازع والتحرش مع بقية الصائلين على لحمها ودمها.

الرقعة الإسلامية

ساد الإسلام غالب العالم المتحضر مدة أكثر من تسعة قرون، منها أربعة قرون في أول ظهوره حتى سقوط الدولة العباسة، ثم حوالي ستة قرون منذ ظهور القوة العثمانية حتى سقوط الخلافة. وبين ذلك، كان العالم كله في نزاع مع القوة الإسلامية، بين غالب ومغلوب.

حقيقة مذهلة قد لا يدركها البعض، تظهر مما قلنا آنفاً، وهي أن التاريخ الإنساني كله، والذي يمتد في الوعي الإنسانيّ لحوالي ثلاثين قرناً، قد تحكم فيه المسلمون تحكما كاملا، وساده سيادة تامة، ما يقارب ثلثه! وهذا وحده يَكفي أن يستقر العداء للإسلام في قلوب كافة شعوب الأرض ودياناتها، الكتابية وغيرها، رغم التسامح والقبول والأمن الذي وفرته تلك الحضارة الرائعة لكل من وقع تحت سيطرتها، بلا اعتبار لدين أو جنس.

ولم تنس الشعوب المهزومة لحضارة المسلمين ذلك التغلب المُهين، على مدى تلك العقود الطويلة، قرابة ثلث عمر البشرية المعروف! فتربصت بها، وتوددت لها، وتقربت منها ومن حكامها، حتى أتى زمن الصيد، بالغزو النابليونيّ، وعصر الانحراف الفكري بتولي محمد على سلطنة مصر، وتغلب العثمانيين والانجليز على الدولة السعودية الأولى، ثم على حركة إخوان من أطاع الله، ومن ثم بزوغ الدولة السعودية، في ظل السيادة البريطانية.

ولعل سماح الخلافة العثمانية بتحالف محمد علي، أميرها على مصر، مع الإنجليز للقضاء على الحركة الإسلامية الجديدة، المتحررة من الأثر الغربيّ البغيض، والذي أتمّه الخائن عبد العزيز آل سعود في أوائل القرن العشرين، كان من أكبر أخطائها وذنوبها، رغم العداء السنيّ/ الصوفي بينهما. لكننا لسنا بصدد تقييم وتحليل ما حدث في تلك الحقبة.

باتت الرقعة الإسلامية مرتعاً للعالم الغربيّ، تتحكم في مفاصله ومقاطعه، وكلّ شئ فيه حتى جاء أوان إعادة ترتيب المنطقة، حسب الصالح الصهيوني بإطلاق، ولإخماد الصوت السنيّ بالكامل في كافة أنحائه، عقديا وسياسياً. فكانت حرب الخليج الأولى ثم الثانية وتدمير العراق وسوريا وليبيا واليمن.

وفي المقابل، لننظر ما فعل المسلمون السنة، في مواجهة الوضع العالميّ الجديد، وما ترتب عليه في رقعتنا الإسلامية.

١. **الجهود المبعثرة**: تلقى المسلمون واقعة سقوط الخلافة برد فعل بارد، يتناسب مع ما هيأته القوى العظمى لمثل هذا الواقعة من قبل في نفوس المسلمين، وإن صاحبه شبه ذهول عن حقيقة ما يجرى، وأحلام بإعادتها فورياً لأيّ من ملوك العرب! وكان

الاتجاه الرئيس في وسط هذه العاصفة الهائجة هو العمل على إعادة الخلافة بشكلٍ ما، في رقعة ما، خاصة بعد أن حوّل كمال أتاتورك، ملحد الأتراك، مركز الخلافة إلى وكرٍ للإلحاد ومعاداة الإسلام. وتمثل ذلك في شكل جماعة الإخوان بالذات، التي وصلت السياسي بالشرعيّ، وإن تخبطت في توصيف الواقع كلية. ثم تابعت بعد ذلك جماعات عدة تولت أجزاء من الواجب الإسلامي العام، كالدعوة للسنة، أو للأخلاق العامة، أو لتحفيظ القرآن، وابتعدت عن السياسة، برضاها، أو بغير رضاها، عقب تسليم الدول المُستَعمَرة إلى وكلاء الاستعمار من أبناء البلاد. وكان هذا الجهد مبعثراً لا اتجاه له، بُنيَ على فرضيتين، أولهما أن هناك دولاً إسلامية لا تزال قائمة، وثانيهما، أن الأمة الإسلامية لا تزال متماسكة متجانسة تعرف أصل دينها، رغم انتشار البدع والمعاصي بين أبنائها.

٢. **الجهود الجماعية**: تركزت الجهود بعد ذلك إلى جهود جماعية، اتخذت ثلاثة طرق مختلفة حسب توصيفها للواقع:

a. طريق الإصلاح والتكملة، كما فعل الإخوان، فحاولوا إصلاح ما فسد، وتكملة ما نقص في المجتمع عامة، بناء على أسلمة الأنظمة، وإمكانية التعامل معها.

b. طريق الإصلاحات الجزيئة المتعلقة بالحض على أركان الإسلام خاصة، وعمل الخير وبرّ اليتيم، وإعانة المريض، ومثل هذا من فضائل الأخلاق.

c. طريق الدعوة الجهادية التي اتخذت تصوراتها من تقييم الواقع حسب ما رأوه من مظاهر علمانية كفرية في نظم الحكم الوضعي، فانقسموا إلى قسمين، أحدهما اتخذ منهجا سنياً في الفهم الجهاديّ، بغض النظر عن التطبيق، والآخر اتخذ طريق الخوارج، فأشاع الفوضى وهدد الوجود السني ذاته، كما نرى في سوريا مع جماعة البغداديّ.

٣- التصور القاصر وأثره على عملية البعث

كان من أثر الدعوات القاصرة، أو المنحرفة أن شتّت جهودا وأربكت عقولا، واختزلت الإسلام في بعض شعائر، وفصلته عن الشرائع.

لم يكن هناك أيّ تصور صحيح لوضع «المسلمين» بالنسبة للوضع العالمي، سواء قدراتهم وإمكانياتهم أو تصوراتهم واتجاهاتهم، فتعامل الناس مع الأنظمة على أنها «دول» إسلامية، وتخلص المنافقون مخربو العقيدة من أزمة مفهوم الحكم بغير ما أنزل الله، برمي أهل السنة بالخروج والتكفير والإرهاب من ناحية، والتبرؤ من أي لون من ألوان الجهاد ضد الحاكم، بل موالاته والوقوف في صفه، والدعوة لنصرته، بل والقتال بجانبه كما رأينا في ليبيا.

هذا الموقف الذي ساد كافة الرقعة الإسلامية، لم يدع ما يُسمى بالحركة الإسلامية، في صورتها القاصرة، جدوى على الإطلاق إلا التضليل والتشتيت، وذر الرماد في العيون، كسحرة فرعون.

أما الاتجاه الجهاديّ السلفي الجماعي الذي تمثل في جماعات ذات قوة وسطوة في بعض البلاد الآسيوية، فقد اتجهت إلى تجنيد الشباب لصد هجمات العدو الصائل، والرد ببعض العمليات التي هي في تحليلها النهائي عونا للعدو أكثر منه إثخانا فيه! مع العلم بأن غالب قوات العدو، بل كلها، قد جاءت بتوكيل من حكام الرقعة الإسلامية ومباركتهم!

الخلاصة الآن، أن تصور إقامة دولة ليس له إلا طريقان، الإحلال أوالانشقاق. الأول: أن تحل حكومة إسلامية محل حكومة علمانية في دولة ما، سواء في مصر أو تونس أو بلجيكا أو فرنسا أو الجزائر، فكلها حكومات معادية للإسلام، تحكم بغير ما أنزل الله، يعرف أهلها أقل القليل عن حقيقة الإسلام، وما يدخلهم فيه وما يخرجهم منه، رغم تفاوت النسبة في الشريحة السكانية التي تعرف عن شعائر الإسلام، ويمارس بعضها بعض تلك الشعائر. والثاني: أن تنجح عصبة من الثائرين في اقتطاع جزء من دولة قائمة وإعلانها أرضا إسلامية! وكلا الطريقين، يعني أن تتجاوز أوضاع ذلك البلد الوضع العالمي، وتكون خارجة عن سيطرة أي من القوى العظمي التي وصفنا من قبل، وهو ما نضعه في خانة غير

المقدور عليه وبند ما هو خارج عن المستطاع، ولنا في كتالونيا في أسبانيا مثلا قريباً معبراً. ولولا رضا ومساعدة الغرب للشرق الأوروبي ما استطاعت دولة منه الفكاك من الاتحاد السوفييتي!

ونزيد هنا، أن إمكانية حدوث ذلك في بلد من بلدان الرقعة الإسلامية، قد تكون أصعب كثيرا منه في أي بلد آخر، أسيويّ أو أوروبيّ، نتيجة الشراسة والحقد والتحامل الذي لا يحدّه حدّ على الإسلام وأهله ودعاته، وبين أيديكم جزيرة العرب ومصر والإمارات وتونس مثالا حياً ناضجاً لهذه الحقيقة.

ونعتذر لبعض إخواننا ممن يخالفنا فيما ذهبنا اليه، دون تقديم مبررات، ويروا أن الأمة بخير ويضربون مواعيدا ثابتة يجزمون فيها بفناء الكيان الصهيوني ودخول المجاهدين القدس! وهو أمرٌ نسأل الله سبحانه بقدرته وعزته أن يحققه فقد طال أمد الاستضعاف وزمن العبودية. لكن التحليلات السياسية لا يمكن أن تغض البصر عن معطيات الواقع ومؤشراته ودلالاته، فقد بنى الله الدنيا على سلسلة مترابطة من الأسباب والنتائج، لا ينفكّان إلا إن شاء سبحانه في حالة المعجزات. والطريق الذي يتبعه هؤلاء «المتفائلون» في استشراف الأحاديث النبوية، يماثل ما يفعل الحرورية في إنزال أحاديث آخر الزمان على أوضاعنا القائمة، فيظلمون الشريعة ويفتئتون على الشارع.



القسم الثاني – بناء الأمة

٤– تعريف الأمة:

«الأمة» في المصطلح الغربي، هي مجموعة من البشر، يشتركون في رقعة من الأرض، وفي اللغة والعادات والتقاليد والبناء الاقتصادي وطرق الحياة، والأمل في المستقبل.

ويُلاحظ أن هذا التعريف ليس بجامعٍ ولا مانع. كما إنه يخلط بين الأمة والحضارة والثقافة، مع العلم بأن المشتركات بينها كثيرة متعددة. وعلى كلّ حالٍ فإن الأمة، كما فهمنا من الكتاب والسنة، هي تلك المجموعة من البشر، التي تجتمع على دين واحد (سواء كتابي أو غيره، كما في أمة المجوس)، وتعتمد لغة واحدة، وتتبع، نتيجة لاتحادها في الدين، أو تصورها للكون والوجود، مجموعة من التقاليد والعادات والتصورات لا تتبدل بتغير الزمان والمكان. وقد تتغير تلك العادات والأعراف تبعا لحكم الزمان والمكان، في نطاق محدد مرتبط بخط الوحي الإلهيّ الأصلي. ومن ثم، فإن معنى الأمة في قوله تعالى «وأن هذه أمتكم أمة واحدة» تتجاوز حدود الزمن لتضم كلّ من اتبع الحنيفية السمحاء على امتداد التاريخ.

كما نلاحظ إنها لا تتفق مع التعريف الغربي في اشتراط الرقعة الأرضية، فالأرض كلها لله، ولا معنى لتقييد الأمة بحدود قطعة منها. ومن ثم، فإن مفهوم الدولة ليس مرتبطا بمفهوم الأمة، بل قد تكون الدولة جزء من الأمة، وقد تنحصر الأمة في دولة من الدول، في وقت من الأوقات. وقد ينتمى شعب من الشعوب بأكمله إلى أمة معينة، وقد تكون أمة المسلمين مُركباً من مركباته، ولا دخل لهذا بعدد المنتمين للأمة، كما في حديث البخاري وغيره واللفظ هنا لابن ماجة عن أبي سعيد الخدري «**قَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرجل ا يَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ ا وَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ ا وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقَلُّ**».

٥- أين هي أمة المسلمين اليوم؟ الأمة المبعثرة!

عرفنا أن الأمة لا يجب أن تكون موحدة على رقعة أرض، وإنه قد لا تكون لها دولة قائمة بالفعل، وأنها لا يحدها عدد، صغيرا أو كبيراً. فلننظر اليوم لنتعرف على أمتنا. أين هي؟ من هي؟

وفّر أصحاب الاتجاه الإصلاحي أمر البحث في هذه المسألة برمتها، وافترضوا أن الدول الإسلامية قائمة، ثم انقسموا، بعضهم قال بأن الحكام مسلمون كذلك، وهؤلاء انقسموا إلى من قالوا يجب طاعتهم ومن قالوا يمكن الخروج عليهم.

الاتجاه الجهاديّ قال، إجماعا، إن الحكام كفار ولكن الأمة باقية كاملة في الرقعة الإسلامية، وسيخرج منها المجاهدون زرافات ووحدانا، لترفع عن نفسها هذا الحكم الكافر. ومنهم من حدد وقتا بذاته، ومنهم من وجّه لتربية الأمة القائمة، استعداداً للتحرك.

لكن الأمر، أحسبه، ليس بهذا الشكل، بل إن هذه الأطروحات تزيد الأمر تعقيدا، وتجعل الحل جزءاً من المشكلة! فاستعجال نتائج لم يحن وقتها بالفعل، إلا في عقول بعض المشايخ أو المحللين، هو عائق حقيقي في سبيل سلوك طريق الحق المستقيم.

يجب قبل أن يضع الباحث تصوراً أو أطروحة، أن يضع مقومات صحتها أو نجاحها أو حتى معقوليتها، ليكون لها نبض حقيقي على أرض الواقع. فأين المقومات التي يراها كلّ من ذكرنا، سواء من الاتجاه الإصلاحي أو الجهادي، في الكتلة المجتمعة في الرقعة الإسلامية، تجعلها مهيأة، أو قابلة لأن تتهيئ للقيام بدورها في لمّ شمل الأمة، وفي إقامة الدولة؟

من هم أبناء «الأمة اليوم» الذين سيعينون على نشر التوحيد، وبيان حقيقة الطواغيت، وحفظ البيضة لتسليم الراية إلى من بعدهم؟ أمنهم تلك المرأة التي كانت تسجد للسيسي؟ أمنهم السديس؟ أمنهم برهامي وبقره؟ أمنهم العفاسي وتامر يوسف؟ أمنهم جاليات كاملة

ترى السيسي منقذ مصر كما أرى بعيني رأسي في كندا، حيث ٩٠٪ من المصريين المسلمين يرونه بطلهم؟ أمنهم أولئك المشايخ من كلاب بني سلول أو السيسي كسعد الهلالي والطيب وعلى جمعة وأشباههم بالآلاف، ومحبيهم ومتابعيهم وداعميهم؟ أمنهم السعوديون والسعوديات الذين رقصوا أمام مقر السينما، في بلاد الحرمين، أم الشيخ الذي قال «الحمد لله الذي بلغنا السينما في السعودية؟» أمنهم جيوش وشرطة تلك البلاد التي تقتل المسلمين اليوم وترفع عرش الطواغيت على رؤوسها بل وتموت دونه؟ أمنهم كتاب الليبرالية والديموقراطية وغالب نواب برلماناتها؟ والقائمة لا نهاية لها.

أيّ من هؤلاء سيعين أيّ امرئ يدعو إلى، أو يستحسن أو يشجع عملٍ إسلاميّ ولو تعليم التوحيد، الذي يجهلونه تمام الجهل، بل ويعادونه بهذا الجهل، أو بغيره؟ أيّ من هؤلاء سيقف مع الطائفة الأخرى المنحازة للإسلام والمعادية للشرك، في محاولة بناء «الأمة»، التي يُفترض ظلما أنهم منها، ليقفوا بالقوة في وجه الطاغوت القريب والبعيد، المتربص بهم، يحسب عليهم أنفاسهم؟

دعونا نتحدث مرة واحدة دون تعميم وضبابية وخوف ورهبة من ردود الأفعال، ولنتق الله في تلك الأمة التي نخونها كل يوم بخلطها بمخلفات البشر التي عاشت على هذه الرقعة يوماً، فنفسد أكثر مما نصلح.

نحن نتحدث هنا عن «بذرة الأمة» التي تعي ما حولها مما وصفنا، وتريد الخلاص منه، منهم من يسعى ومنهم من ينتظر، منهم العالم ومنهم العاميّ الذي على دين العجائز، وكلهم يعي حقيقة واحدة، أن هذا الذي تعيشه الرقعة الإسلامية اليوم تدمير للإسلام والمسلمين بما لم يسبق له مثيل، وإن عجز عن حلٍ أو طريقة لدفعه. لكن ليس منهم من وقف مع طاغوت يوماً، لا بكلمة ولا إشارة ولا تهنئة ولا تردد، ولا تشجيع لمشروع ولا تأييد لموقف، ولا رضا بما هو كائن، بأي شكلٍ من الأشكال أو درجة من الدرجات.

فإن استطعنا أن نرغم أنفسنا على تمييز الحق من الباطل، وتمييز أهل الحق من أهل الباطل، ومعرفة من سيقف معنا في مرحلة البناء ومن سيبلغ عنا السلطات، أومن سيعيننا

ومن سيدينا، وتحققنا من أننا نرى الحقيقة الوقعة دون خيالٍ متفائل راجٍ يرى بعين واحدة، فيرى انطباع الحقيقة على عقله بما يريده لها أن تكون، لا بما هي عليه، رأينا على وجه الحق أين هي بذرة الأمة، ومن هم، وما حجمهم الحقيقيّ في وجه ما وصفنا من مسرح عالميّ يشمل حكام رقعتنا الإسلامية، بلا فرق.

بذرة الأمة الاسلامية التي يجب رعايتها وحفظها والتعرف عليها، تجدها مبعثرة في شكل تجمعات بشرية في كافة دول العالم اليوم، تزيد وتنقص في عددها حسب حجم الدولة وتاريخها، فإن كانت دولة في رقعتنا الإسلامية، كانت بطبيعة الحال أكبر عدداً مما هي عليه في أمريكا أو انجلترا على سبيل المثال. وتلك التجمعات اليوم لا تجمعها أو تمثلها دولة، بل هي لاجئة حتى في موطنها الأصليّ. تقابل منهم من تقابل في وسائل الإتصال أو المواصلات أو العمل أو دائرة الأصدقاء والأقارب، لكنك تجدهم يهمسون بآرائهم في موضوعنا، بناء الأمة وإقامة الدولة، فالغالبية التي من حولهم لا ينتمون لطائفتهم، بل هم من أعدائهم ومع أعدائهم، قلبا وقالباً. فترى جاليات مسلمة تبلغ عددها مليونا أو اثنين في بعض البلاد، وعشرات الآلاف في دول أخرى. لكن تلك هي مادتنا في البناء، نعمل بها ومعها، ولا نعمل مع مشوهي عقيدة، مخربي فكر، مضطربي عقل، لأي سبب من الأسباب. فإن أولياءهم يعملون كادحين أن يسحبونهم لأسفل مما هم فيه، وأن يقطعوا يد كل من يحاول أن يرفعهم لأعلى، ذلك إن كانوا هم ذاتهم يريدون ذلك!

٦- كيف نتعامل مع بذرة الأمة؟

مواجهة الحقيقة كما هي، لا كما تعودنا أن نراها أو نحكي عنها، سنوات طوال، فإن الأمة اليوم ليست هم من يعيشوا على هذه الرقعة الإسلامية. لا، الأمة مختبئة داخل ذلك الكم المختلط من البشر، أقلية مستضعفة، مثلها مثل الأقليات في الغرب، إسلامية أو غير إسلامية سواء.

وأقول هنا، ما سيرده عليّ البعض دون دليل معقول أو منقول، إنني لا آبه لما عليه بقية ذلك الخليط من دين، منهم نصارى ومنهم «بدون» أي غير معلومي الهوية، ومنهم من

قد يكون مسلما باطنا، لكن ليس على الظاهر. لا أريد ببحثي هذا أن أصنّف الناس دينياً، وإنما أريد أن أحدد كيف نتعامل مع «بذرة الأمة» الحقة، التي يجب الانتباه لها والعمل معها والتعويل عليها. أما أن نسقط أحكاما دون أفهام، وأن نكتفي بذكر أن الأصل في الناس الإسلام في رقعتنا الإسلامية، فقد يكون هذا صحيح، بل هو صحيح على مستوٍ معين في تلك الكتلة البشرية، بعد كلّ ما نرى بأعيننا التي في رؤوسنا، وما نسمع بآذاننا التي في وجوهنا. إن صحّ أن تطبيق تلك القاعدة منذ عقود عدة، على مستوى القاعدة الشعبية كلها، فلأن الخبث لم يكن غالباً بل كان أقلية، لا يصلح معها أن تُرفع صحة القاعدة. لكن اليوم، وما أدراك ما اليوم، نعلم ويعلم الجميع، أن العلمانية والليبرالية وتمجيد الثقافة الكفرية والإعراض عن الدين وكراهة الشريعة وموالاة الظلمة وتفضيل حكم البشر ووسائل البشر وتقاليد البشر هو السمة العامة للعامة في رقعتنا هذه، وإن رأينا فيها صلاحاً وتديناً.

نعم، ما ثبت بيقين، لا يزول إلا بيقين مثله، لكن هذا يكون عند المقارنة بين حالتيّ فرد واحد في وقتين مختلفين، لا يفترقان إلا في الظن الطارئ، أو جماعة واحدة في حالتين لم يفترقا في التكوين النوعي للجماعة، أما إذا تغير التركيب النوعي للجماعة، فثبوت الوصف يتعلق بالغالب الظاهر، لا بما كان من قبل.

ونحن ندرك تماماً ما سيشيعه الكثير بشأن تلك المسألة، لكن الحقائق أقوى من أن تُحبس رهينة فهم معينٍ محدود لأدلة مرتبة واقعة على مناط مختلف.

نحن لا نحب التكفير ولسنا من أهله ولا نرضاه ولا نثبته إن لم يثبت يقينا، كما هو مذهب أهل السنة، فإن أبى أحدٌ إلا أن يربط تلك المسألة، مسألأة التكفير، بتحديد معالم الأمة في حالتها اليوم، ليكون العلاج والحلّ على بينة واقعية، فهو وشأنه!

«أمتنا» باختصار حبيسة مفتتة مبعثرة متشظية في داخل كتلة كبيرة مترهلة لا شكل لها ولا انتماء، تعودنا أن نسميه «الأمة»، أو كما يسميها البعض اليوم «الحاضنة» ويا لها من حاضنة!

٧- الحل في واقعنا المعاصر

مما تقدم كلّه، نجد أن الحديث عن «الحاضنة» هو حديث عن «الخانقة» في نفس الوقت. فإنك إن نظرت، لم تجد لما أسموها الحاضنة أي أثر في إنقاذ وضع متدهور للمجاهدين، بل عكس ذلك تماما في مصر، حيث وقفت غالب الحاضنة تحضن السيسي ونظامه! وانعزال شبه تام في سوريا في آخر الأمر، إلا في مناطق القصف على بيوت الناس مباشرة. وقد يكون سبب ذلك الفشل الذي تدهورت فيه كافة الفضائل، ومثّل مانعا نفسيا من دعمها بقوة، أو عدم الإيمان بالقضية أصلا، أو دعم الطاغوت والوقوف في صفه إما إيجاباً مزريا أو صمتا مخزيا «**وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)**»الأعراف. فألحق الصامتين بالظالمين.

ما يجب علينا اليوم هو أن:

١. نعيد تصور وتشكيل نواة الأمة، التي نعيش في محيطها، وتصور حجم معارضيها وشانئيها، دون تحيز أو اعتذار أو مجاملة أو تبرير أو ورع بارد، لنعرف حدود قدراتنا وحقيقة موقفنا الحاضر.

٢. أن نعمل على برامج صغيرة خاصة تُعنى بحفظ القرآن، والسنة، ومعالم التوحيد، فتحفظ تلك المعالم وتكون هي التي تهديها في تصرفاتها.

٣. أن تنقل هذه العلم بالتوحيد، الذي لا يستلزم توغلا في أي علمٍ شرعيّ، بل ببساطته التي بعث الله بها نبيه ﷺ، مع بيان ما استغلق بسبب ضياع اللسان وعجمة الأفهام على مر الأزمان، أقول نقله لأبنائهم وإخوانهم وأقاربهم ممن ينتمي «للأمة»، والعمل جماعياً على الحفاظ عليه بمراجعته بشكلٍ دائم منتظم.

٤. أن نتذكر أن أمر التوحيد الذي نحمله في قلوبنا صافيا غير مكدراً، لا يستدعي تعالياً على أحد، بل هو فضل أعطانا الله إياه للشكر لا للإستعلاء.

٥. أن يكون من المشترك بين تلك البذور المبعثرة من الأمة في شتى بقاع الأرض، تواصل ما، لا يجب أن يكون تنظيميا أبداً، بل يكفي أن يكون جزءاً من منهج الولاء والبراء، وتطبيقه بعاطفة غالبة، على تلك التجمعات الأخرى التي تنتمي لأمتنا المتشظية اليوم.

٦. أن يحذر أبناء الجيل في بذرة أمتنا، من اتّباع مشايخ الوهم والخلط، من أصحاب أحاديث نهاية العالم والمهدي والدجال وخروج الدابة، فإن تلك العلامات تُظهِر نفسها، يوم يأتي حينها، لا يبحث الناس عنها وسط غرائب الدنيا فيلحقوا أنفسهم بها جهلاً وغباءً. وقريب منهم من يتنبأ بالنصر المبين في عشر سنين!

٧. أن يستمر هذا النهج بلا كلل حتى يرى جيلٌ قادم شعاعاً من النور يخترق حاضنتهم الخاصة، ويحمل وضعا جديداً يبعث الأمل الحقيقي على التغيير.

أما ما نرى من بقايا اشتباكات هنا وهناك، في سوريا مثلا، فهي تصفية حسابات وإعادة تقسيمات لم يعد للثوار دور كبير فيها على الإطلاق، وإن ظهرت هكذا لمحبي الأوهام والعيش في الأحلام. وما علينا إلا أن ننظر في وضع السيسي الذي يقوى مع الأيام رغم صراخ الإخوان «انظروا.. هو يترنح...!!!» أو وضع الثورة السورية التي أوضحت حقيقة وحجم «أمتنا» بما لا مزيد عليه، لمن بَلَغَ وعقِل! فلا يجب أن نلتفت إلى الكثير مما يشيع بعض أبناء بذرة أمتنا أنفسهم عن الانتصارات القادمة السريعة المنجزة، كما لا يجب أن يصيبنا هذا بشعور الفشل والإحباط، فآيات الله واضحة في بقاء هذا الدين، لكن على النهج والشكل الذي يختاره الله سبحانه، لا ما يتصور كلّ جيل مفرد، أو شيخٍ معمم.

وأخيراً

دين الله باق لن يزول، فقد تكفل سبحانه بحفظه، لكن إملاء شكل من أشكال الحفظ أو وسيلة من وسائل البقاء والتمكين، أو مدته، أو حدوده أو مكانه، هو محض تخيلات الكتاب و«المفكرين والمشايخ» الذين قدموا الفهم السائد على النظر الواقعي للأمور.

والله المستعان



ملحق إيضاحي على جُملٍ في البحث

أود أن أبيّن، مرة أخرى، أن العلم، في معناه الشامل، يعني أموراً ثلاثة، بلابد. التحقق بالعلم الشرعية للدرجة التي ترتاح له نفسه ونفوس من في طبقته لينضم لزمرته في تلك الثلة. ثم معرفة الواقع أو الوقعة الحية التي ينظر فيها، ويعرضها على علمه ليجد ما يناسبها من فتوى ويلائمها من مخرج. ثم ثالثة، لا تقلِّ عن ايهما أهمية وهي نور من الله مغروز في الفطرة، لا يحمل إعجازاً ولا استثناءاً، بل هي درجة القدرة غلى الاستنباط من المقدمتين الأوليين، وهي تعتمد على الدرجة الأصلية للذكاء، ونوعيته، رياضي أو اجتماعي أو تحليلي. ومن فاز وعلا في هذا المضمار تفوق على من حصّل ثم حصّل ثم حصّل!

بعد تلك المقدمة، يعلن البعض من المخلصين من الوجهاء أصحاب العلم أن:

١. لله سنن في الأرض تؤكد على استمرارية هذا الدين وانتصار أوليائه. «إنا لننصر رسلنا والذين أمنوا»، «ولينصرن الله من ينصره»، «وكان وعدا علينا نصر المؤمنين»، وغير ذلك من دواع الإرادة القدرية، غير المتعلقة بالتكليف، وإن وردت دائما مقيدة بوصف مصاحب أو شرط ملازم، مثل «من ينصره»، ومثل المؤمنين أو الذين أمنوا».

٢. الباطل ضعيفا مهزوما، يذهب جفاء، ويبقى ما ينفع الناس في الأرض.

٣. أن قولة أن الكيان الصهيوني لم يبق له إلا سنينا معدودات لينهار، وتنقلب قوته ضعفا واستعلاءُه مذلة! وأن المسلمين سيدخلون عليهم بيت المقدس ليدكون حصونهم ويقضون على وجودهم «وليتبرِّوا ما علوا تتبيرا»، هو مما فيه تجوّز ظاهر.

وتلك الآيات البينات المذكورات تدل بلا شك على بقاء هذا الدين وظهوره، كأمر قدري سيتغلب على ما يقع فيه المسلمون من تقصير بسيط أو إخلال.

ولننظر إلى غزوة الأحزاب، وهي أدق ما وصل به الموقف من المسلمين، من أزمة

عسكرية وحصار خانق، ولنسمع كلا الطرفين، المسلمين والمنافقين، يشرح الموقف من وجهة نظره الإيمانية، بعد أن ارتسمت الصورة الواقعية دون مداراة ولا رتوش

«إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١)» .

يقول المنافقون: «وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)».

بينما يقول المؤمنون «وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)»الأحزاب

لم أتمكن من مقاومة وضع الصورة كاملة بين يديّ القارئ! لننظر في تفاصيلها.

مدينة دخلتها أفضل عصبة من الرجال عرفتهم البشرية. واستقبلتهم فئات من الأنصار لا يقلون عنهم إيماناً وتصديقا. ثم كان في هذه المدينة خبث معروف قديم، وملك تفلت من يد مدعيه، فجاهروا المؤمنين بالعداء، بلا تخف أو تبطّن. ثم كانت فيهم عصبة يهود بني قريظة الذي ظاهروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليُقاتلنه مع الأحزاب. وقد أظهر كل أولئك الخيانة في أول الزحف. بل نبئ الله سبحانه بما في قلوبهم، وأخرج ما في صدورهم، بحيث لم يدع لداع عذراً في تفنيدهم.

الآن، أين أولئك من الكتلة الهلامية، التي تختلط وتمتزج بأمتنا لا يُعلم لها دين؟

١. هل أظهرت الكتلة الهلامية الوقوف مع المسلمين ساعة واحدة، أذ إنهم بادروا بمعاداة الأمة، وتصيدوا كل عذر، من الدعم، إلى التصنيف، إلى الفهلوة السياسية، إلى المصلحة، إلى ترهات جهال أغبياء، كلامهم فيمن هم أرفع منهم قدْراً غير مسموع.

٢. هل تخفّى منهم نفر في الأمة بعد الأحزاب، وبعد أن أخرج الأعز منها الأذلّ.، إلا أقل القليل ممن عرفهم ﷺ؟ هل باتوا معروفين ترتعد فرائصهم مما سيلقونه على يد الله ورسوله ﷺ وصدق الله ورسوله ﷺ ؟

٣. هل كانت تلك الفئة الهلامية هم الأضعف يداً وقوة، أم، كما هي اليوم، الأقوى مالا وجنداً، وهم الذين بيدهم تنفيذ الأمر والنهي؟

٤. ثم هل يتدخل العامل القدري فيزيح الأسباب عن مسبباتها، ويفصل الأمور عن نتائجها، إلا بعد أن تتمحص الأمة ويخرج خبثها، الذي هو اليوم أضعاف أضعاف ما تبقى من الأمة، وبعد أن يقوم عصبة المؤمنين، بكل ما يمكنها من استعداد وترابط وتوحد صفٍ ليس بينهم وبين عدوهم إلا طبقة دهنية خفيفة جدا لا تغيّر التركيبة الإجتماعية لنسيج الأمة المرصوص. ساعتها، وساعتها فقط، يُكمل القدرُ

الإلهي المرادَ الشرعي، ويتنزل نصر الله على من استحقه.

٥. ثم، هل فينا رسول الله ﷺ يتصل به ما بين الأرض والسماء، بلا انقطاع فيضئ كل خطوة في الطريق ويبيّن كل عثرة فيه، فقد كان الأمر وقتها وقت عصبة سيقوم بها الدين قياماً، لا استمراراً، وهم، من ثم، أفضل من على الأرض جهادا وإيمانا وصبرا وبذل نفس ومال وولد. فأين من يقل لي هذا ضريب زهران ابن علوش أو حسان ابن عبود، أو سمير كعكة أو الكناكري أو لبيب النحاس أو الجولاني وابا الحارث!



أبحاث في التمكين

تقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

من أهم متعلقات التوحيد في دين الإسلام هو أن يتحاكم الناس إلى شرع الله وحده، وألا يشركوا به غيره، تحت أي زعمٍ من مزاعم الإرجاء المُحدث، أو نفاق علماء السلاطين.

وقد وقعت الرقعة الإسلامي بأسرها، تحت السيطرة الفكرية، ثم العسكرية، ثم كليهما منذ بداية عصر محمد على في مصر.

ولسنا بصدد كتابة المراحل التي وصلت بنا لهذا الحال، الذي صارت فيه مصر، وكافة بلاد المسلمين، تُحكم بالعلمانية، دون استخفاء أو حياء. ولعل في بحثنا «بعد أن انقشع الغبار» فائدة في هذا الباب، لمن يريد.

لكن غرض هذا الكتاب، الذي دُونت فصوله على فترات، متقاربة تارة، ومتباعدة تارة أخرى. لكنها، كلها قد دُونت كلها في العقد الثاني من هذا القرن، والذي شهد ما يُسمى «الربيع العربي. وفي هذا «الربيع»، الذي ما فتئ أن تحول إلى شتاء متجمد قارص، قامت تحركات شعبية، لو شئت أن تسميها «ثورات»، في تونس، ثم مصر، ثم ليبيا وسوريا، ثم الجزائر في وقت جمع هذا الكتاب.

ومع الأسف، فقد لعبت القوى لعبتها التي اعتادت عليها. ظهور قوى وحركات إسلامية وراءها زخم شعبي كبير، يتبعه مباركة القوى العالمية لتلك الثورات وقياداتها، والإشادة بها، ثم الدعوة إلى سلوك السبيل الديموقراطي «المتحضر» ثم إشراف العسكر على هذا المسار الديموقراطي، الذي ينتهي عادة، برجوع السلطة إلى العسكر، وواقع الناس إلى أسوأ مما كان! وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ومما استشففت من خلال معاصرتي للحركة الإسلامية بشكل عام، والمشاركة فيها،

بشكلٍ أو بآخر، خلال ما يقرب من خمسين عاماً، ثم من خلال معايشتي الدقيقة ومتابعتي القريبة لكلّ حدثٍ يقع في ثورة مصر والشام، من خلال عدد من الداخل المصري والسوريّ. أقول مما استشففت هو أن هذا الجيل برمته، قد أصابه الوهن، إلا النادر القليل. وهذا يعني أنّنا قد لحقنا قول الله تعالى «**وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم**» محمد ٣٨.

وهذا كذلك يعني أن جيل التمكين القادم، متى وأين شاء الله، هو من وقع عليه قول الله تعالى «**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**» النور ٥٥.

فجيل التمكين له صفات حددتها الآية الكريمة، يستحيل من دونها أن يكون هناك تمكيناً، مهما لغط اللاغطون ولهج اللاهجون وتصايح المتصايحون. تلك هي سنن الله، تعمل في الأرض كما تعمل في الكون، لا مفر منها.

وهذه الصفات، كما جاءت في الآية الكريمة، تصف من يأتيه هذا الوعد، وحالهم أثناءه وبعده بأنهم:

الذين آمنوا، حقا وصدقا، لا ادعاء ونقصا

عملوا الصالحات، لا الإصلاحات

عبادة الله وحده، عبادة الطاعة والقصد

لا يشركون به شيئا، من طاغوت حاكمٍ أو مجلس نيابي مشرّع، أو وليّ مبتدع، أو صنم أو حجر أو شجر.

إنه التوحيد الخالص «يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ «

ولعل القارئ الفَهِم أن يرجع إلى كتابي «المختصر المفيد في مفهوم التوحيد» فقد أوضحت الكثير من الجمل المتعلقة بهذا الأمر.

وقد بذلت وسعي، ما استطعت، أن أبيّن عدد من المفاهيم المتعلقة بالتمكين، ووضع خطوات عملية لبناء الشخصية والعقلية المسلمة، التي أحسب أن جيل التمكين سيكون بحاجة الاستحواذ عليها.

فهذا الجهد، هو لبنة من لبنات بناء ذلك الجيل المستقبلي، الذي سيحظى بالتمكين والنجاح، فيما أخفقنا نحن فيه.

ولعله يكون خالصاً لوجه الله، صحيحاً على سنة رسوله ﷺ.



البحث الأول

مفاهيم في طريق التمكين

الفصل الأول

أول الطريق إلى النصر اكتشاف الواقع. هذه بديهية عقلية لا شك فيها، ولا مَعدل عنها، لمن أراد نصراً.

من هنا فإننا يجب أن نبدأ طريقنا للتمكين بإزالة الأوهام التي تُعشّش في عقول الكثير من «الطيبين» التائهين في غيبوبة الوهم، وتصور المستحيل والتعلق بالأحلام. وهؤلاء أصنافٌ عدة هم من نصف لاحقاً.

١ - السيطرة الأمريكية

أولئك الذين يتصورون أنّ الولايات المتحدة أعطت الضوءِ الأخضر للمجرم السيسي لأنها لا تقبل قيام دولة إسلامية في مصر، تطبق الشريعة وحدودها. هذا مفهومٌ خاطئٌ لا يعرف أبعاد السياسة الخارجية اليوم. الولايات المتحدة هي سيدة عالم اليوم بلا جدال. والحديث عن انهيارها لا يزال حديث سابقٌ لأوانه بقرنٍ أو قرنين، إلا أن يشاء الله شيئاً من تصرفات الغيب. والقرار السياسيّ، في بلاد الدنيا اليوم خاضعٌ للإرادة الأمريكية، إلا في قليل من البلاد التي تتمَلمل في قراراتها بعداً أو قرباً عن صانعي القرار في أمريكا، ككوريا الشمالية، وكوبا.

والمشكلة الأساسية التي حدثت في مصر هي أنّ «شخص» محمد مرسى، فكّ الله أسْره، أراد أن يحرّر القرار المصريّ، وتواً، من الإرادة الأمريكية. وقد كان هذا القرار بحت قراره، لا قرار الإخوان المسلمين كجماعة، إذ إن الفكر الإخوانيّ لا يمنع الخضوع للقرار الأمريكيّ

«مصلحة» كما يرون في أصولهم الحديثة، وإن تحدثوا بغير ذلك. لكنّ محمد مرسى خرج عن منظومة الإخوان يوم تولى الحكم حقيقة، وأبت نفسيته إلا أن يُحرّر هذا القرار على التوّ. وهو ما حذرته منه السفيرة الأمريكية من قبل الإنقلاب.

أمريكا لا تهتمّ كثيراً بتطبيق الشرع أو الحدود، أو ما شاء المسلمون أن يقيموا في بلادهم. أمريكا تهتم بالقرار المصريّ، حين إتخاذ القرارات الي تمس سيادتها من قريبٍ أو بعيد. هذا هو مربط الفرس في السياسة الأمريكية. وقد أمّنت أمريكا قرار الدول العربية النفطية بلا استثناء، بفرضّ سيطرتها على منابع النفط، عسكرياً وتقنياً، وبحيازتها للأموال النفطية في بنوكها، حيث يفضّل أصحاب «العروش والكروش» العربية أن تكون أموال النفط تحت السيطرة الغربية من أن تستثمر في بناء بلادهم وتحريرها. كما أمّنت قرارها في مصر وتونس والعراق وليبيا والمغرب والجزائر والأردن وسوريا عن طريق عمالة حكامها، وخيانتهم لشعوبهم ووضاعتهم وخِسَّتهم التي تخرُج عن المِلة وترضى بالمَذلّة.

والولايات المتحدة، حسب الحسابات الدنيوية التي تقوم على عالم الأسباب، لن تنهار اليوم أو هذا العام أو هذا العقد، إلا عند من لا يفقه قواعد قيام وسقوط الحضارات، فإنها لا تزال في عنفوان القوة العسكرية الطاغية الهائلة، على أشدّها، بلا خصمٍ حقيقيٍّ في واقع الأمر، وإن بدأ الإنهيار الخلقيّ والقيميّ يفعل فعله في بنيانها الإجتماعيّ.

القوة، هي التي كانت، وستظل، ترتفع بها الأمم أو تتلاشى. وقد رأينا أنّ الأمة الإسلامية لم يعلو نَجمها إلا بعد أن واجهت، بالقوة العسكرية، القوى العالمية التي كانت سائدة وقتها. وهو ما لا يمكن تَخيّله في عالمنا اليوم، إلا بعد أن تعود السيطرة الإسلامية على أرض الإسلام، على أقل تقدير. وهذا ما لم تفهمه قيادات «الإسلاميين» ودَع عنك عوامهم.

٢- وهم الديموقراطية

أولئك الذين لا يزالون يعيشون وهْم الديموقراطية، ويعتقدون أنّ الإستفتاء على الدستور، أو الإنتخابات القادمة، يمكن أن تغيّر من أيّ وضع قائمٍ على الأرض، إنْ صوّت الناس بنعمٍ أو لا! هذا وهمٌ آخر يجب أن يفيق منه من لا زالت لديه بقية عقلٍ، في بلدٍ غاب فيه العقل والمنطق والدين والخُلُق.

هناك أكثر من مليون مُسلحٍ شَرسٍ عديم الدين والخلق، بين جيشٍ وشُرطة وأمنٍ مركزيّ وأمن دولةِ الكفر، وبلطجية تابعة لهم، تُموّلهم موارد الدولة بلا حدود، بل وموارد دول أصحاب «العروش والكروش»، مع ماكينة إعلاميةٍ هائلةٍ، وقضاءٍ فاسدٍ مرتشٍ، وشعبٍ مواز، يمثل الغالبية من سكان تلك الأرص، من كافة الطبقات، يتمنى قتل الإسلاميين، إخواناً وغير إخوان. السؤال لهؤلاء هو كيف يتصَوّرون، عملياً، أن يَخرج ممثلي نظامهم يوماً على الناس فيقرّرون إسقاط نظامهم، واستبدال قادتهم، وتسليم سُلطتهم إلى المسلمين؟ أيكون هذا بسببِ نسبِ انتخاباتٍ تعلو وتَنْخَفض حسب عدد الصناديق التي يُرسِلها المُزَوّرون؟ أم بسبب السلاسل البشرية التي تخرج بمئات المخلصين من الرجال والنساء، أو التظاهرات التي أصبحت بالآلاف التي تُعدّ على أصابع اليد الواحدة؟

حلّ هذه الأزمة الحالية يكمن في طريقين، إما أن يَحَلّ بهم عذاب قوم لوطٍ أو قوم عادٍ أو قوم صالحٍ، بهلاكٍ عامٍ، كأن يجف ماء النيل، أو أن يغزو اليهود البلاد، ويقسِمها بين الصهاينة والصليبيين، وهو السيناريو الأكثر توقّعاً.

من الضروريّ أن يفهم المسلمون اليوم أنّ الصراع المسلح الذي بدأته قوى الظلام الكفريّ في مصر، لا يمكن أن يتبدّل إلا بحراكٍ موازٍ. هذا الحراك يكون باستمرار التظاهرات، وإن كانت تؤدى إلى «صداع للسلطات»، لن يكون بها إسقاط للنظام الفاشيّ السيسيّ الملحد.

إنّ الوضع الحاليّ في مصر باق قائم، سنيناً وعقوداً، طالما لم يتحرك المسلمون في الإتجاه الوحيد الذي قامت به، وستظل تقوم به، سنن الله في الأرض، القوة والمغالبة والمواجهة المسلحة، بعد الإستعداد بالعدد والعدّة، والعلم اللازم لهما. وهو أمرٌ لا أرى عليه دليلاً في وقتنا هذا.

الفصل الثاني

يجب أن يكون مفهوماً أن الغرض من الحركة في طريق التمكين هو بالأساس تحرير هذه الحركة من الإنحراف العقديّ أولاً وتحرير التوحيد في عقول وقلوب المسلمين، بلا غَبشٍ ولا شركية.

٣- وهم السيطرة الإخوانية

الأمر الذي يجب أن يكون مفهوماً هو أنّ التمكين «لن» يمر من خلال جماعة الإخوان، أو من هم على طريقها ونهجها من جبهة دعم الشرعية. وهذا التأكيد يأتي أولاً من الرؤية الشرعية البحتة، التي ترى أنّ الحقَ لا ينشأ من باطلٍ «**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ**»يونس٨١. ويأتي التأكيد ثانياً من الواقع المشهود والتّجربة المحسوسة، التي رأيناها بأعيننا وعشنا فصولها على مدى الخمسين عاماً الماضية، حيث أثبتت بما لا يدع مجالاً لشكٍ عند عاقلٍ أن النهج الإخوانيّ الإنتهازيّ التفاوضيّ، خاصة ممن لا علم لهم بسياسة أصلاً، لا يمكن إلا أن يصل ببلادنا إلى ما وصل بها اليه اليوم من تحكّم الكفر، واستشراء الإلحاد وتسلك العسكر. ولا عليك ممن يدّعى العلم ويغفل عن السنن، ويرى أنّ الإخوان هم سادة هذا الزمان ومنقذيه!!

لقد وقع الإخوان في أخطاءٍ قاتلة، يسمونها اليوم إجتهاداً، وهي والله جَهلٌ محَضٌ بسنن الله تعالى وبقواعد السياسة، بل وأصول المنطق البسيط البدائي. وهم اليوم يسيرون، بكل غطرسة على نفس الطريق، أو من بقي منهم خارج السجون، طريق التفاهم والتفاوض

والمشاركة مع «القوى الثورية» التي تمثل عشر معشار القوة الإسلامية على الأرض، من خارج التجمع الإخوانيّ.

إن التبريرات التي لا يزال يقدّمها هؤلاء، ومن هم على شاكلتهم، في أنّه يجب أن يكون هناك حلاً وسطاً، وأن يكون هناك تعاونٌ مع قوى «ثورية»، لا علاقة لها بالإسلام ابتداءً، فهي كلها تبريرات قد استُهلكت في الثلاثين شهراً التي سبقت انقلاب كفّار السيسي، سواء في أيام حكم المجلس العسكريّ أو حكم محمد مرسى، فكّ الله أسره.

إن الخطوة الأولى في الطريق إلى التمكين، يجب أن تتجاوز خطاب جماعة الإخوان بالكُليّة، فكّ الله أسر المأسورين[١] منهم ومن بقية المسلمين. إنّ الجَماعة، قادة وشَباباً هم، بشكلٍ عامٍ، عائق في سبيل التحرّك في طريق التمكين، لا مُعين عليه. ومن ثم، وجب على المخلصين أن يتحركوا في سبيل غير سبيل هؤلاء، وأن يدعوهم لحكم الله فيهم، فمن وعى الحكمة رجع وتاب، ومن ظلّ قلبه غُلفٌ منهم فهو وشأنه.

ونودّ أن نذكّر إخواننا من أهل العلم والإخلاص بما قال الشاطبيّ رحمه الله في الموافقات، في معرض حديثه عن الحرج والمشقة، ننقلها بتمامها لما فيها من فائدة، يقول رحمه الله «فصلٌ: فإذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط فإن رأيت ميلاً إلى جهة طرف من الأطراف فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في االطرف الآخر . فطرف التشديد وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر يؤتي به في مقابلة من غلب عليه الإنحلال في الدين. وطرف التخفيف وعامة ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص يؤتي به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد فإذا لم يكن هذا ولا ذاك رأيت التوسط لائحا ومسلك الاعتدال واضحا وهو الأصل الذي يرجع إليه والمعقل الذي يلجأ إليه. وعلى هذا إذا رأيت في النقل من المعتبرين في الدين من مال عن التوسط

[١] لا أدرى والله عن عصام العريان وسعد الكتاتنيّ، فقد أوغلا في العلمانية الإسلامية وكانوا أكثر القوم تغفيلاً وتمييعاً للحق وذلة نفس أمام العدو، فليجزهما الله بما يستحقا.

فاعلم أن ذلك مراعاة منه لطرف واقع أو متوقع في الجهة الأخرى وعليه يجري النظر في الورع والزهد وأشباههما وما قابلها، والتوسط يعرف بالشرع وقد يعرف بالعوائد وما يشهد به معظم العقلاء كما في الإسراف والإقتار في النفقات»[١].

هذه الكلمات تلخّص مجمل القول في موقفنا من هؤلاء، ومن طريقة التعامل مع الواقع الحاليّ، بل وتتعدى إلى رأينا في الواقع الشاميّ كذلك، كما سنبيّن في مقالٍ آخر. وخلاصة ما ورد أن الأحكام الشرعية، والفتاوى القائمة عليها، تقوم على التوسط، لكن في الأحوال العامة حيث تجرى الأحوال على منوال الشريعة. أمّا إن مالت الأحوال عن ذلك إلى أحد من الطرفين الغائيين، الإفراط أو التفريط، تجد الأحكام، والفتاوى المبنية عليها، تميل بالمفتي إلى الجانب الآخر، ليقوم بها ميزان الإعتدال، فتعود الأمور إلى التوسط. ومن هنا، فإن وجدت فتوى معينة في واقعٍ ملئ بالتسيّب والخِيانة والعِمالة، تدعو إلى التقارب والتعاون، فاعلم إنها لا تجرى على مَهيع الشّرع الحنيف، بل هي حاملة بذور إفسادٍ تميل بالواقع إلى الطرف الفاسد، ولا تُصلح ولا تعود إلى التوسط. ومن هنا، فإنّ هذا المنطق الأعوج الذي تتعامل به تلك الجماعات والجبهات، لا يعكس إلا جهلاً بالشرع الحنيف، وقواعده وأسسه وبنيانه الأحكم.

فإذا قلنا هذا، وجب أن ننبه إلى ضرورة قيام جماعة جديدة، ولا أقول حزباً بالمعنى السياسي الحاليّ، تحمل الفكر التوحيديّ الصحيح، وأسس الحركة الصائبة التي تبنى آراءها وتوجهاتها العلمية والعملية على أسس شرعية صحيحة، وتقديراتٍ واقعية سديدة، لا تعبأ بماضٍ منحرفٍ، ولا تتعلق بتاريخٍ ملوّثٍ بأخطاء منهجية وعقدية لا حصر لها. ولتكن حركة «إخوان الإسلام» مثلا أو «التيار الإسلامي» أو غير ذلك، فالإخوان المسلمون ليسوا أولى باسم الإخوان منّا، وليسوا أولى بصفة الإسلام منّا. لكننا نهدم تلك القاعدة الفاسدة البدعية التي قامت عليها، ونقيم جماعة تتّبع الشرع، ولا تجرى وراء

[١] الموافقات ج٢ ص ٧٦١.

أسماء دعاة يصيبون ويخطئون.

وكما ذكرت سابقاً، عدة مرات، أنّ الباطل قد كسب هذه الجولة، وأنه كسبها من كسبها من طريق فئة الشعب الضالة في مصر، وهي أكثر من نصفه، وعن طريق القوة التي يحوزها جيش احتلال وعدوان وشرطة بَغْي وطغيان، ومناصرة قضاء نجسٍ مرتشٍ ملحد، وإعلام فاجرٍ خسيس، ثم دعم دويلات النفط من المثليين ذوي الغتر والجلاليب.

هذا أمرٌ واضحٌ وحقيقة مؤكدة، لا يمارى فيها إلا جاهلٌ أو ذاهلٌ. وهؤلاء الذين يرون تقدماً في وضع المقاومة المسلمة، ويخرجون على الناس في التلفاز على الجزيرة يؤكدون أنّ الكفة ترجح لصالح الإسلام، هؤلاء يهديهم الله، ولا أزيد.

الحلّ الحقيقيّ لن يكون إلا إن قرع السلاح السلاح. هكذا دون مواربة ولا تحفّظ.

قد تكون المصلحة الصهيو-صليبية اليوم أن يُستبدل وجه السيسي بوجهٍ آخر علمانيّ، وأن تختفي الدبابات والمصفحات من الشوارع، بعد أن يُعتمد دستور الإفك الإلحاد، وتتأسس دولة لا دينية ملحدة، وتُرسم صُور ديموقراطية وتقام برلمانات علمانية، لكنّ هذا لن يغيّر من حقيقة أنّ الباطل قد كسب هذه الجولة بالضربة القاضية.

إن الغرب لا يقصد أن يظل السيسي اللعين على رأس المنظومة المصرية، أبداً. بل يقصد إلى إزاحة أي توجّه إسلاميّ قد يخرج بمصر من المستنقع الوحِل التي هي فيه، وأنْ يبرر قرارها، ولو بعض الشيء، حتى ولو على المذهب «الإخواني-الإسلامي-العلماني».

من هنا، فإننا نقرر أنّ القوى الإسلامية التي لا تزال تعيش بالإسلام، وللإسلام في مصر، على ضعفها وهوانها على الناس وقلة حيلتها، يجب أن تنتبه أنّ الطريق ليس طريق مفاوضة أو حلول وسط، لم يكن، ولن يكون. إذ نحن نتحدث هنا عن إسلامٍ وكفر، وهما لا يلتقيان في طريقٍ وسط بحالٍ من الأحوال. وليخجل أولئك الذين يتحدثون عن الحديبية وكفاهم هذراً وجهلاً وبروداً. إنما الطريق هو طريق المقاومة المسلحة لجيش الإحتلال وجند

فرعون، سواء السيسيّ أو صباحيّ أو غيرهما. فالكفر هو الكفر، سواءً كان عسكرياً أو مدنياً، إنما يُمهد الكفر العسكريّ للكفر المدنيّ، ليستقر ويبقى، إلى حين.

الأمر ليس أمر السيسي، يا أبناء الإسلام، الأمرُ أمر إقامة دين الله في الأرض، أرضنا، مصرنا وشامنا وعراقنا. فإن لم يتحقق هذا، وتلاعب الكفار بتغيير أوجه الباطل، فاحذروا أن يخدَعكم الخِبّ اللئيم، فالمسلم كيّس فطنٌ لا يُخدع، إنما يُخدع من دخلت دينه البدعة أو تشوّه فهمه للواقع جهلاً أو سذاجة وغفلة.

السؤال اليوم، هل يقدر شعبنا على مواجهة مسلحة مع جيش الإحتلال؟ هل شعبنا المسلم مهيأ أصلاً لمثل هذه المواجهة؟



الفصل الثالث

أمرٌ يجب أن أنَبِّه عليه في سلسلة المفاهيم هذه، وهي أنّ أمتنا ليست محصورة في نطاق مصر، بل هي منتشرة في كلّ بقعة من البقاع التي فتحها المسلمون يوماً، واستقر الأمر فيها للأكثرية المسلمة. ومن ثمّ، فإنه يجب أن يكون معلوماً أنّ ظهور الدين وإقامته قد لا تبزغ شمسه من مصر. وقد فقدت الشام جذوة الجهاد أخيراً، والتي كانت تحمل إرهاصاتٍ واقعية تدل عليه. وليس يعني هذا أنْ يستسلم مسلمو مصر لكفارها، بل يعنى أن يتسع نظر المسلم في مصر ليشمَل حال «الأمة» بعامة، ويدعمها في كافة أنحائها.

٤- بين اعتقال الحرائر وتكريم العواهر.

حادثة الفتيات المسلمات، الذين اعتقلهن جيش الإحتلال، وحكم عليهن قضاة التزوير والكفر بالسجن إحدى عشر عاماً، تدلّ دلالة قطعية على مذهب هؤلاء الكفرة الفجرة، أن اضرب بغاية القسوة والوحشية، اضرب في كل اتجاه وبأي وسيلة متاحة، لتلقى الرعب في قلوب الناس، وتمنع أية محاولات قادمة للمعارضة وتحطم الشعب المسلم نفسياً.

لكنّ هؤلاء الكفرة الفجرة، الذين تعدّى فجورهم كفر أبي جهلٍ وأبي لهب، لا يرقبون في أحدٍ إلا ولا ذمة. وشعبهم المختار من عواهر النساء ومخانيث الرجال وفاقدي الدين والخلق، يدعمون هذا الإفك العظيم، ويقفون وراءه صفّاً كما سيقفون وراء السيسي صفاً، حين يقدمهم يوم القيامة إلى جهنم فأوردهم النار، «وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ»هود ٩٨.

أيّ دين هذا الذي يدين به هؤلاء ممن أقدم على اعتقال هؤلاء الفتيات الطاهرات، وممن أشرَف على حبسهن، وممن ساقهُن للمحاكمة، وممن حكم عليهِن بالباطل؟ أيّ دين هذا الذي يدين به هؤلاء إلا دين الشيطان ذاته، بل هم والله أحقر دينا من الشيطان « كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ» الحشر ١٦.

ثمّ أيّ رجولة وأيّة نخوة، ولا أقول إسلاماً وسُنّة، عليها هؤلاء الرجال الذين يروْن هذا واقعا ببناتهن وأخواتهن من المسلمات، ثم لا يحملوا سلاحاً يقطّعوا به أوصال هؤلاء الظلمة الفجرة؟ أين رجال مصر؟ يقولون «بناتنا رجالة»! نعم، لكن «رجالنا بنات» في المقابل. يا عيب «الشوم» كما يقال. لقد تصورت أن الدماء، دماء الكفار من جيش الاحتلال وداخليته، ستسيل كالفيضان بعد هذه الواقعة، لكن لم نر إلا ثبات آبائهن من الصابرين على البلاء.

إنّ العدو اليوم يتمثل في أربعة جهات أساسية، جيش الإحتلال، الداخلية، القضاء ألإعلام. هذه الجهات هي التي خرّبت مصرنا، وسلمتها لقمة سائغة لليهود والنصارى.

المفهوم هنا، هو أنه إن رضى الناس بهذا الأمر، فليس هناك سَقفٌ لِما يُمكن أن تفعله قوى الكفر بالشعب المسلم.

هي والله حالقة وواقعة وآزفة، أن تسكن الحرائر السجون، وتسكن العواهر القصور.

٥- من نَفّسَ عن غضبِه بالكلام قلّ أثره بالعمل.

سبق أن ذكرنا، في منشورات التيار السني لإنقاذ مصر، وفي بعض مقالاتنا بعد أحداث ٢٥ يونيو ٢٠١٣ ، أنْ هناك خصائص طبيعية وطبوغرافية وتاريخية لشعب مصر، تجعل الحلّ العسكريّ مستبعدٌ في مصر. قلنا ما نصه «أنّ مصر، شعباً وجغرافية، لا يصلح فيها تغيير بالعمل المسلح الذي ينبني على حرب العصابات، أو على المواجهة الشاملة. فإن الشعب المصريّ لم، ولن يكون شعباً تصادمياً في يوم من الأيام، وهو ما ثبت في الخمسين قرناً الماضية، إلا فئة ضئيلة منه قد لا تبلغ الألفين! أما عن المواجهة الشاملة، فإن لها قواعد تحكمها من تحيّز المعسكرين، وقوة التسليح المضاد، والقدرة على التعبئة، وغير ذلك، مما هو مُفتقد بشكلٍ كليٍّ عامٍ في مِصرنا. كما أنّ ما حدث من قبل في تجربة الجماعات الجهادية في مصر، من ضربات محدودة لا أثر له إلا العكس، كما هو ثابتٌ معروف. وهذا لا يعنى

أنّ هذه الوسائل لا تجدى في أماكن أخرى من العالم، فنحن نقف صفاً مع إخواننا في الشيشان، وفي الشام التي فرضت عليها هذا اللون من المواجهة، في أفغانستان، وفي سائر بقاع الأرض المجاهدة»[١].

وقد اندفع وقتها عدد من الإخوة الأفاضل، من مناصري الجهاد، يصيّحون أنّ ذلك تخاذلٌ عن الجهاد، وما إلى ذلك من حديث.

إلا إننا لا نزال نرى ما ذكرنا حقاً إلى يومنا هذا، فها نحن نرى أنّ الغالبية الشعبية من الشعب المسلم يناصرون النهج الإخوانيّ القائم على مقولة أنّ «سلميتنا أقوى من الرصاص»، ويواجهون العدو مَكشوفي الصدر في مظاهرات سلمية، ويحاربون الكفار بالنكات، وعلى صفحات النت. ولا أقول هذا استهزاءً، لكنها طبيعة الشعب المصريّ، أن ينتقم من عدوه بالسخرية منه، ويخرج أضغانه وإحباطه في صورة نكاتٍ أو تعليقاتٍ على الفيس بوك وتويتر. لكن الحق أحق أن يقال، من يتكلم لا يعمل، ومن يعمل لا يتكلم. قاعدة عامة كلية لا شك فيها.

ولا أعنى بهذا أنّ مصرَ خالية من المُجاهدين، أو ممن يقدر على أن يدفع حياته ثمناً لدينه وعرضه، لا والله، بل أثبتت الأيام الماضيات أنّ في مصر من المجاهدين الصابرين من هم على أعلى درجة من الوفاء للدين والشرف والكرامة وإباء الضيم. لكننا حين نتحدث عن الجهاد، فإننا لا نتحدث عن قدراتٍ فردية واستعدادات شخصية، بل نتحدث عن تكنيك وتكتيك جماعيّ محدد، يستلزم القدرة على العمل الجماعيّ واستعمال السلاح والتخطيط والمناورة والإختفاء والتنكّر والحصول على الإمدادات، وغير ذلك من احتياجات الجهاد وضرورات استمراره. هذا ما لا نرى قدرة عامة بين أبناء الشعب المصريّ عليه في وقتنا هذا، إلا أن يشاء ربي شيئاً.

[١] «التيار السّني لإنقاذ مصر .. فِكرٌ ومَرجعية»

٦- الحلول المُمكنات[١]

الأمرٌ أنّ هناك ثلاثة حُلول ممُكنة للأزمة الحالية في مصر. حلٌّ يضع العلمانيين الليبراليين في الحكم، كما حدث في ليبيا وتونس. وحلٌّ يأتي بصاحب النصيب بطريقٍ المظاهرات المستمرة إلى أن يسقط النظام وحده، وحلٌّ يعود بالمرجعية الإسلامية حاكمة في مصر بطريق القوة المسلحة.

أمّا **الحلّ الأول**، وهو ما فد تسعى اليه الولايات المتحدة يوما، أن تخلع السيسي، وتسترضى الجموع الغاضبة بإخراج أكثرية المعتقلين، وكبح جماح الشرطة، وإعادة الجيش إلى ثكناته، وإقامة برلمانٍ علمانيّ الصبغة، يدعمه الدستور الكفريّ الجديد، ويرأس دولته أحد العلمانيين من فصيلة كرزاي أفغانستان، كالصباحيّ. هذا ما يَدعَمه الغَرب عامة، ويرى فيه الحلّ الأمثل للموقف الحاليّ، الذي يَضمنُ إزاحة الإسلام من الحكم، ويكتفي فيه الإخوان، كعادتهم، بدور هامشي يقوم على «المشاركة لا المغالبة»، إذ حلّ الجهاد، أو السعي اليه، بالنسبة إليهم حرامٌ شرعاً!

أما **الحلّ الثاني**، وهو ما تسعى فيه الجهات الإخوانية، وجبهة دعم الشرعية، فيقوم على مقامرة لا تُعرف نتيجتها، أن تستمرّ التظاهرات، والقتل والاعتقالات، حتى «يتعب» العسكر، و»تزهق» الداخلية، وينهار الإقتصاد، وقد يتحرك بعضٌ من الشعب الضال من عبيد السيسي ضده لشيوع الفقر وتدهور الأحوال، حينها «يسقط» النظام، يعلم الله كيف، ثم يأتي العسكر ليتفاوضوا مع الإخوان على صورة «مشاركة لا مغالبة» وهي الصورة المُفضّلة لديهم على أيّة حالٍ.

وهذان الحلان لا يأتيان بحكم الإسلام السنيّ الخالص، بل يأتي الأول بحكم كفريّ علمانيّ صرفٍ، ويأتي الثاني بحكمٍ شِركيّ مختلط، يقوم على المبدأ الشِركيّ «مشاركة لا مغالبة»، بل أقلّ كثيراً حتى مما كان عليه عهد محمد مرسى فكّ الله أسره.

---

[١] سنشرح معنى الإمكان والإحتمال وتفصيلاتهما في المقال التالي إن شاء الله

أمّا **الحلّ الثالث**، وهو الحلّ الأوحد الذي يضمن أن يحكم شرع الله في الأرض، وأن تستولى القوة المُسلمة السنية المخلصة على مقاليد السلطة دون مشاركة الكفر، هو عن طريق مواجهة مسلحة مع جيش الإحتلال. وهو ما لا نرى أيّة إرهاصات لتحقيقه في أرض مصر، في زمن الناس هذا.

والله غالبٌ على أمره.



البحث الثاني

جسر العبور .. من الإستبدال إلى التمكين

لا أكاد أجد ما أتحدث به إلى القارئ، فقد تجاوز الأمر في مِصرنا ما يمكن أن يحاول المحاولون السيطرة عليه أو التقليل من أثره المدمر علي الإسلام والمسلمين، كما هو حال أهلنا في الشام. قتل وتدمير واعتقال وسحل واعتداء على الحرائر والأطفال.

لكن الفارق بين مصر والشام أنّ غالب الشعب السنيّ في الشام، معتدى عليه من الأقلية النصيرية المسلحة، التي يرأسها الكلب النصيري بشار. لكن في مصر، أمّ العجائب، يقف غالب الشعب «السنيّ»[١]، صفاً مع المرتدين من جيش وشرطة وبلطجية، برئاسة السيسي الخائن الصهيونيّ، يقفون ضدّ المسلمين «السنيّين» الذين يدافعون عن الحرية والشرف والكرامة والإسلام.

هذا ما تحتارُ في استيعابه العقول، وتتعثر في وصفه الكلمات، ويتجمد بإزائه العقل، وإن عرفنا سببه تحليلاً وتحقيقاً.

ما يحدث الآن على أرض مصر، يتجاوز كل التوقعات في ضرب الإسلام والمسلمين، والقضاء على كل ما يمت للدين بصلة، بتأييد ودعم وتفويض الشعب الأعمى المرتد من غالبية المصريين.

الخطة الآن هي أن تلفق تهمة الإرهاب لمحمد مرسى، ثم يُحكم عليه بالإعدام، ويُنفّذ الحكم على الفور، فإن وجوده على قيد الحياة، في أي وضعٍ كان، يمثل للمرتدين عقبة كأداء لا حل لها، إلا بموته.

المتظاهرون، أو ما بقيَ منهم، من عشرات أو مئات في سلاسل بشرية، يتم إبادتهم رويدا

---

[١] المرتد عن دينه

رويداً، عشرات كل مرة، كما صرّح فلوباتير اللعين، أن لا حياة للصليبيين في مصر مع من يحمل فكرة الإسلام، فمصرُ مسيحية كما قالوا!

القوانين والدستور، وسائر الزفة الديكورية، يطبخها عملاء المرتدين في مؤسسات الدولة المختلفة لتناسب ما يريد الحيوان الأعظم، السيسي.

السيطرة التامة على أرض مصر قد تحققت للمرتدين.

الشعب الضال قد غيبه سحر الإعلام، والطبع المُشَوّه، والفطرةُ المنكوسة رأسا على عقب، فما عادت فيه فائدة مرجوة.

إنه عصر الإستبدال ولا شك، لمن عنده أدنى معرفة بالسنن الإلهية والشريعة الإسلامية.

انظر إلى قول الله تعالى «**وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم** » محمد ٣٨، فالتولي يستلزم الإستبدال، والإستبدال لا يأتي إلا بالمصائب والفتن، تقرع المستبدَلين، وتقتلع جذورهم.

ثم انظر إلى قول تعالى «**وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً**» هذه الفتنة التي تصيب مصائبها من استحقها، لا تصيب الظالمين المرتدين خاصة، بل والمتورّعين المخلصين كذلك من الأقلية التي تعاشرها. وقد جاء في الشريعة بعض ما يبيّن حكمة هذه السنة الإلهية، ومنها أنهم تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو الإنحراف في العقيدة والحركة، أو غير ذلك مما صَحت فيه أحاديث كثيرة. لكن هذا ليس ما نسعى لتقريره هنا، بل إننا نقرر، أنّ الإستبدال، أي الإستئصال، واقع لا محالة، وليس للظالمين وحدهم، بل لمن حولهم كذلك. وهذا قَدْرٌ لا يشك فيه إلا شَاكٌ في القرآن نفسه.

ولا يحسبنّ أحدا أنّ الإستبدال قد بدأ في عصرِ السيسي المجرم، بل والله بدأ منذ أن ضَعفت الدولة العثمانية، قبل غزوة الفرنس على مصر والشام. ذلك بأننا تجاهلنا سُنن الله التي ذكرنا، ولم نتق الفتنة، فحسبنا أنّها ستتجاهلنا، ولا تصيبنا منها قارعة. لكنها

بلغت الذروة في أيام الناس هذه، فأثمرت شجرة الشيطان ثمارها، وألقحت كشافاً وسفاحاً، وأنتجت توائماً، السيسي والمرزوقي وبشار والغنوشي وأضرابهم، ومخانيث الخليج كلهم.

أقول، والله شاهدٌ على ما أقول، إن الإستبدال واقع أمام أعيننا الآن، والفتنة تضرب الكلّ، الغافلين والمرتدين ممن لا يعون حقيقة ما يؤيدون ويدعمون ويفوضون، كما لم يدرك قوم فرعون نتيجة ما يفعل فرعون، ولم يدرك آل لوط ما سيحل بهم. فهي تُضرب بفعل السنة الإلهية التي لا تختار من تستأصل، كما ورد في حديث عائشة رضى الله عنها عن الجيش الذي يغزو الكعبة[١]، كما تضرب غير الغافلين من أصحاب الدين، مخُلّطين فيه أو غير مخُلّطين. فهي تأخذ من ظلم وفوّض ودعم بجريرته، ومن لم يفوّض ولم يدعم بجريرة السكوت عنه.

ويقول قائل، لكن المرتدين المباركين للكفر والداعمين والمفوضين لا يصيبهم أذى، بل يصيب غير الداعمين من المسلمين، قتلا وسحلاً واعتقالاً؟ فنقول إنما هو المدّ والإملاء من الله حتى يأخذهم أخذة واحدة في الدنيا، ثم ينقلبون إلى جهنم في الآخرة خالدين فيها أبدا، جزاء للكافرين. أما المسلمون، فهو جزاؤهم في الدنيا على السكوت عن الردة التي تفشت بينهم فلم يردوها، بل لم يعرفوا عنها إلا بعد أن ضربتهم ضربة قاضية، ثم يردون إلى الله، فيجازى المُحسن منهم بإحسانه، ويعاقب المسيء منهم أو يتجاوز عن إساءته. قال تعالى «أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾» القلم. «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ» الرعد ١٦.

---

[١] عن أم المؤمنين أم عبد الله عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم قالت : قلت يا رسول الله ، كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال ، يخسف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم» متفق عليه

الإسلام باقٍ بقاء الدهر، لكن هذا الجيل، زائلٌ مُستبدلٌ لا محالة، إلا مختارون موفقون منه، من عوامه ودعاته وعلمائه.

المهم اليوم هو أن نتصور كيفية الإنتقال من جيل الإستبدال إلى جيل التمكين، فلابد من جسر يعبر عليه المختارون من جيلٍ إلى جيل.

سيكون هذا الإنتقال إنتقائياً إلى أقصى حدود الإنتقاء، بحيث لن يبقى أحدٌ ممن تشوب عقيدته شائبة، أو تنحرف حركته درجة، مهما صحت نيته، فهو من الذين تصيبهم فتنة الإستبدال، وإن لم يظلموا خاصة. ذلك أنّ التخليط قد يصلح حين يكون المجتمع غالبه صحيح الإتجاه، كما أن قليل الخبث لا ينجس الماء إن كثر، لكن ينجس القلة والقلتين. هكذا الحال في المجتمعات، حين يصبح النجس هو الأصل والطهارة هي الفرع. حينها، لا ينجو إلا من هو على الجادة، قدر الفطرة الإنسانية.

هؤلاء الناجون، هم قِلَّة من قِلّة، مثلهم مثل من حارب مع موسى عليه السلام بعد أن تمت تنقية صفوفه ثلاث مرات.

المشكلة اليوم أنّ دعاة الجيل الوسيط، بين جيل الإستبدال وجيل الإنتقال، لا يزال أكثرهم لا يرون الصورة الكونية التي يمر بها الإسلام اليوم. لا يزال الكثير منهم يتمسك بماضٍ زائل، وحاضرٍ واهم. لا يزال منهم من يتحدث عن الإخوان، الذين هم مشكلة الماضي وكارثة الحاضر، ولا يعلم هؤلاء المفتونون أنهم ملتحقون بركب المستبدلين، وأن تنقية الصف، وإخلاص التوجه، وتصحيح البداية هو شرطٌ في أن يكونوا ممن كُتب لهم العبور من على جسر الإنتقال إلى الجيل الجديد، جيل التمكين.

نعم، من العامة الدعاة والعلماء، من سيعبر هذا الجسر، لكن هؤلاء هم كما قلنا قِلَّة من قِلّة. ونحن لا نعرفهم بأسمائهم، بل نعرفهم بأوصافهم، وعلى رأسها أنهم نبذوا الماضي المُخلّط، نبذاً تاماً ولم ينظروا إلى وراء، كما لم ينظر الناجين من أهل لوط إلى الوراء «وَلَا

يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ »، بل حرّروا توحيدهم، وارتفعوا عن واقعهم، ورءوا الفتنة واستوعبوا سنن الإستئصال والإستبدال، واحترموا سنن الله تعالى، ولم يعاندوها، أو يحاولوا تجاوزها، وكأنها ستُحابيهم لأنهم مخلصون، رغم علمهم بالآية التي ذكرنا، أنّ الفتنة لا تُصيب من ظلم خاصة. هؤلاء، عوام ودعاة وعلماء، هم من سيعبرون على جسر الإنتقال، وهم من سيقودون جيل التمكين، في العقود القادمة، لا السنين القادمة، فسنن الله في التغيير بطيئة لا تأبه بحياة الإفراد، بل تتعامل مع حياة المجتمعات، وصعود وسقوط الحضارات.

فمن أراد أن يَجِد هذا الجسر، وأن يكون ممن تأهّل للعبور عليه، فعليه بالخلاص من خَلطَة الدين التي عاشها المسلمون منذ عقودٍ، وقادهم في صحرائها الإخوان، وأغرقتهم في لجُجِها سلفية الداعرين.

هذا، أخي المسلم، هو ما يجب، أن ينصَبّ عليه جهدك اليوم، أن تكون من هؤلاء، ولا تيأس فتقول «لكنى كنت من عوام هذا الخَليط البالي»، فإن التمحيص اليوم هوالإختبار النهائي، فإن أصرَرت على موقفك، فأنت في ركب الإستبدال، وإن أردت النجاة، فالطريق إلى جسر العبور واضح بيّن، على ما فيه من صعوبة مخالفة العادات ومصارعة التصوّرات الباليات، والقدرة على مواكبة سنن التغيير بفهم وثبات.

فهلم نُصَفّى تصورات العقيدة، ونعدّل انحراف الحركة، ونتبرأ مما فعل السفهاء منا، قديماً وحديثاً، ونجأر إلى الله في الصَعدات أن يجعلنا ممن يَستدل على جسر العبور، لنكون طلائع جيل التمكين، الذي لا بد قادم، لكن بعد حين.

ألا هل بلغت، اللهم فاشهد.



البحث الثالث

جيل الإستبدال .. وجيل التمكين

إن القلب ليكاد ينفطر حين أقول ما سبق أن قلت، أنّ الباطل قد غلب في هذه الجولة. هذا أمرٌ أصبح ظاهراً لا يحتاج إلى دليل عليه، إلا لمخلصٍ اضطرب عقله من وقع الصدمة، فأصبح لا يريد أن يصدق الواقع.

لكنّ هذه الغلبة هشة ضعيفة، لا تستطيع أن تقوم بحالها في وجه الحق، إلا بقوة السلاح وسفك الدماء وهتك الأعراض، إذ هي غلبة كفر، فهي بلا شك ليست قاضية عليه، فالباطل لا يقضى على الحق، إلا أن يستبدل من لا يستطيعوا أن يقوموا به، كما هو الحال اليوم مع الإخوان.

لكن هذا الإستبدال لا يحدث بمعجزة تزيح جمعاً من الناس من على الأرض، وإن كان ما يحدث اليوم من مجازر للمسلمين يقترب من هذا الحدّ، ثم يخلق الله جمعاً آخر أفضل وأقوى وأشد في مواجهة الباطل. لكنها تحدث عن طريق الإعداد النفسي والماديّ، إعداد العدد والعدة، كلاهما معاً. وهو ما سقطت فيه جماعة الإخوان بجدارة فائقة. فهي لم تعد شباباً يواجه الكارثة الحاضرة بما هو من قبيل القوة القاهرة، لكنها أعدت شباباً عدداً يتعبد إلى الله باتباع قيادتها، لا بما أمره الله أن يتعبد به اليه. ثم لم تمنحهم العدة، بل اكتفت بتصريحاتٍ شفوية جوفاء، ثم راحت تتنكر لما تمليه السنن الإلهية من طلب الإعداد والعدة، بالتمسح بالديموقراطية المزورة الشوهاء، فقضت على نفسها، وعلى شبابها، وعلى بقية المسلمين من أهل مصر.

الإستبدال يستلزم التمكين، الذي يستلزم في سنن الله سبحانه أن يبدأ الإعداد. إعداد جيلٍ من المسلمين، يعرف دينه حقّ المعرفة، لا دين الإخوان الذي يقدمونه لعوام الجهلة من الشباب على أنه دين الله.

الإعداد يعني تغيير النظرة الحالية التي تقمصها مسلموا مصر، من محبي الله ورسوله ﷺ، والتي ينشا عنها مسلماً ضعيفا متسلساً مسالماً تابعاً لا يملك يداً يبطش بها بإعدائه وأعداء دينه، ولا سلاحاً يدفع به عن نفسه وأهله وعقيدته، بل ولا يملك الفكرة التي تجعله يعمل عل تحصيل تلك الوسائل ابتداءً.

هذا الإعداد هو حق الله علينا الآن. حق الله على القادرين علي. والقادرين على منحه، والقادرين على تلقيه. العلماء والدعاة، وطلبة العلم والحركة.

يحسن اليوم بالعلماء والدعاة، من بقي منهم خارج السجون، أو من بقي في قلبه ذرة من شجاعة ممن هم خارجها، أن يدرك أنّ العلم الشرعي الاكاديمي ليس هو المطلوب لإعداد جيل الإستبدال. فنحن لا نعيش في ظل دولة إسلامية، نتفيأ ظلال العدل ونتحاكم إلى الشرع، فنتمتع بالبحث العلميّ وتحقيق المخطوطات، وتدوين الهوامش على كتب السلف. هذا علمٌ يصلح في عصر الخلافة إن شاء الله، لكنه ليس علم إقامة الإسلام بلا خلاف.

اليوم هو العلم للعمل، العلم للحركة، العلم للدعوة، العلم لإقامة الدين، العلم لدحر الكافرين، لا يصلح علم سواه

جيل اليوم يُستبدل أمام أعيننا، لكننا لا نرى سنن الله على وجهها الحقيقيّ. ولهذا يجب أن يبدأ القادرون على التوجيه والأعداد دورهم التاريخيّ دون تأخير. فهو اليوم فرضُ عينٍ عليهم جميعا، كالصلاة والصيام، لعدم توفر من يقوم بهذا الواجب الأصيل.

إن ظهور الحق له خطوات لا يمكن أن نتخطاها أو نختصرها،

- أولها معرفة الحق وتبَيّنه، ومعرفة الباطل وكشفه
- ثم تبيين الحق ونشره، والحذر والتحذير من الباطل وأهله
- ثم تجميع المخلصين القادرين عليه، وفرز المندسين عليه وتنقيحه
- ثمّ العزم على القيام به مهما كانت التكاليف،

- ثم إعداد العدة لمواجهة الباطل والتدريب على وسائله، دعاية وإعلاما ومقاومة وجهاداً
- ثم تحديد ساحات المواجهة، والبدء في إنفاذ الخطة
- وقبل ذلك كله، وفوق ذلك كله، التوكل على الله وطلب نصرته، واللجوء اليه في الخير والشرّ واتباع أمره ونهيه في كلّ أمر. فنحن نعمل لرضا الله، لا لدنيا ولا لدولة.

هذا ما يجب أن يبدأ اليوم، وهذا ما يجب أن يستمر، على أسس جديدة لا علاقة بها بما عليه الجيل الذي يستبدله الله اليوم، أمام أعيننا. فجيل الإستبدال لا يمكن أن يكون جزءاً من جيل التمكين.



البحث الرابع

بين دُعاة الإستبدال .. ودُعاة التَمكين

ذكرت فيما تقدم «جيل الإستبدال .. وجيل التمكين» أنّ «الإستبدال يؤدي إلى التمكين، الذي يستلزم في سنن الله سبحانه أن يبدأ الإعداد. إعداد جيلٍ من المسلمين، يعرف دينه حقّ المعرفة، لا دين الآخرين الذي يقدمونه لعوام الجَهَلة من الشباب على أنه دين الله».

كما ذكرت من قبل، في سلسلة «بعد أن انقشع الغبار»، أنّ الُمنظرين والعلماء والدعاة يجب أن يأخذوا مكانهم في بناء الدعوة الصحيحة وفي قيادة ركب التمكين، وأنهم يجب أن يكونوا في طليعة التغيير المرتقب، لا ذيلا فيه.

وهنا يجب أن نتوقف قليلاً لننظر في حال هؤلاء، خاصة الدعاة منهم، من حيث إنهم المتحدثون إلى الناس بلغتهم، الناقلون عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فهم أئمة الناس إلى هذا التغيير ثم إلى ذاك التمكين. ومن ثمّ فإن المنطق يملي اليوم أن نتحدث عن الدعاة، الذين يحملون كلام الله سبحانه إلى الناس، وعلى فكرهم ومنهجهم وتوجهاتهم تتربى الأجيال، فإن انحرفوا انحرفت وإن صَلحوا صَلُحت.

الدعاة اليوم منقسمون إلى قسمين، قسم كلّه شرٌ لا فائدة فيه. فهم محاربون لله ورسوله صلى الله عليه وسلم في حقيقة الأمر، وهؤلاء هم علماء السلطان ودعاته، كمفتي الديار العلمانية، الفاسق عن أمر ربه علي جمعة، وكالعاهر البرهاميّ، ومحمد حسان وبقية شلة أمن الدولة وعملائها. هؤلاء لا دين لهم ولا خلاق، فلا نعيرهم اهتماماً فيما نقول هنا.

والقسمُ الثاني فيه خير قد يشوبه شَرٌّ في بعض أصنافه، وهم أصناف ثلاثة:

صنفٌ أولٌ، وهم من صنعوا الجيل الذي يستبدِله الله سبحانه اليوم، أعني بهم دعاة الإخوان ومن لفّ لفيفهم وسار على دربهم وساير فكرهم ممن يسمونهم «المفكرون

الإسلاميون». فقد قاموا بتشكيل تصوّرات عشّشت في عقول غالب المسلمين، وقادَتهُم إلى طريق ضالٍ عقدياً، وحركة مُنحرفة عملياً. وقد رأينا بعينَي رؤوسنا ما أنتجه هؤلاء الدعاة من وبيل الأثر على المسلمين وديارهم، وما جرّوه على أنفسهم وعلينا من خرابٍ وتقهقرٍ في طريق دعوة الله الصحيحة التامة. وهؤلاء يقعون تحت سُنّة الإستبدال، هم والجيل الذي ربّوه، ثم لهم ما لهم عند الله، وعليهم ما عليهم، لعل الله أن يتقبل أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم.

وصِنفٌ ثانٍ، وهم الأخطر أثراً اليوم، من أسميهم «**الجيل الوسيط**» من الدعاة، وهم أكثرية في الوسط الداعي للإسلام. وهؤلاء هم منْ أدركوا خطأ ما كانت عليه دعوة الصنف الأول، وعرفوا عوارهم وعوارها، فتحدّثوا بالحق، في مناسباتٍ معينة، لكنهم، ظَلوا غير قادرين على استشفاف ما وراء الأحداث، والنظر عبر ضباب الحاضر واختراق حجبه والإستفادة التامة من عِبراته.

ذلك النقص في صحة التوجه يرجع إلى عدة عوامل، منها الشخصية، فكلُّ امرئ له من الطبيعة الذاتية ما تتلائم معه أفعاله وتتطابق حركاته. فمنهم من يغلب على طبعه الرفق والهدوء، ومنهم من يغلب عليه الشدة والحدة.

ثم عاملٌ آخر طبعيّ خفيّ، وهو عامل «الأتباع»، إذ مِنْ هؤلاء من صار له اسمٌ معروفٌ، وصار له أتباع كثر من طبقة ذلك الجيل المُستبدل، فهو دائماً على حذرٍ من أن يذهب بدعوته إلى خلاف ما هو على الأرض اليوم بشكلٍ تامٍ، أو أن يرى التغيير شاملاً عاماً، بل يحدوه دائماً أملٌ زائفٌ لا دليل عليه أنّ جيل التمكين سيكون من بين هؤلاء المُستبدلين. وقد يكون هذا صحيح إلى حدٍ ما، فإن رحمة الله لا حجر عليها، وقد يتوجه بعض هؤلاء إلى الطريق الصحيح، لكنّ الأمر هنا هو القدر الذي ننحرف فيه بدعوة الحق لتقابل هؤلاء في منتصف الطريق. وهو ما يعود بنا مرة أخرى إلى حلول الوسط الدعوية، وما أدراك ما حلول الوسط الدعوية! فتجدهم يميلون إلى عدم تسمية بعض الناس

بأسمائهم أو يصفونهم بأوصافهم، أو بيان انحراف بعض الجماعات الإسلامية انحرافاً كلياً عن المنهج، تحت دعوى «مصلحة الدعوة»! التي تقتضي عدم التنفير، وسائر ما يتحجّجون به في خاصة أنفسهم. وينسى هؤلاء في خِضَم هروبهم من «التنفير» أنهم يقعون فيما وقع فيه الصِنف الأول الذي أشرنا اليه، فيتقربون إلى بعض العامة، لكنهم يبعدون أضعافاً عن الرؤية الصحيحة المُتكاملة التي تفتقدها الحركة الإسلامية برمتها اليوم. وهذا شرٌ خفيّ لا شك فيه. ثم عامل آخر وهو أنهم، شاءوا أم أبوا، متأثرون بتلك البيئة التي أنشأها دُعاة الصنف الأول، فهم لا يعيشون في فراغ. وهذا العامل يؤثر مباشرة في طريقة الدعوة وخطابها، ومن ثم في أثرها ونتاجها. وهؤلاء هم، في حقيقة الأمر «إصلاحيون»، لا «تغييريّون» ولا «تمكينيّون»، ولكن لا يشعرون.

ثم الصنف الثالث، وهم «دعاة التمكين»، وأعمدة «التغيير»، وهؤلاء هم من نريد أن نراهم يتحرّكون على الساحة اليوم أو غداً، يُدركون أخطاء الماضى، ويُبصرون قصور الحاضر، ويقدمون رؤية واضحة صحيحة للمُستقبل، سواءً عقدياً أو حركياً. تراهم يُنشؤون خطابهم على أساس ما هو قادمٌ لا ما هو قائمٌ، تتجاوز نظرتهم أفق الواقع، وترتفع عن حضيض الحاضر، ولا تقبل أن يجرّها وهم باطل وأملٌ زائفٌ في منهج «**الإصلاح**» عن إتباع منهج «**التغيير**». هؤلاء لا يتمَلقون العامة، ولا يغيّرون من طبيعة خطابهم الدَعويّ لأجل تقريبٍ أو تجميع أو عدم تنفير، أو أيّ من هذه الحجج. وإن كانوا يدركون طبيعة المرحلة التي تمرّ بها الأمة، فتراهم يرحمون أولئك المسلمين من شباب المسلمين عامة وشباب الجماعات الإسلامية المنحرفة منهم، الذين تَجبّر عليهم الكفر اللعين وراحوا ضحايا غشمه وإلحاده، يتعاطفون معهم ويرحمونهم، لكن لا يؤثر ذلك على طبيعة خطابهم، أو بيان ما يجب بيانه بكل صراحة ووضوح. فهم يتحدثون عن طبيعة الإنحراف الإخوانيّ وحقيقة النفاق السلفيّ بما يستحق، ويقررون أنه إن كان لزاماً على أحدٍ أن يبدل خطابه، فهؤلاء من أهل الباطل أولى من أن ينحرف به أهل الحق.

هذا الجيل من الدعاة هم من نرقب ظهورهم، ونعمل على دعمهم والوقوف وراء دعوتهم، ونشر كلمتهم فهؤلاء هم الأساس المتين الذي سيُبنى عليه جيل التمكين بإذن الله.

ثم صنفٌ هامشيّ، وإن كان له خطره الكبير على الإسلام اليوم، هم طائفة من دعاة النت. فأنت تجد على النت كَمّا هائلاً من الشخصيات التي اكتسبت قدراً كبيراً من الإنتشار بين رواد هذا أو ذاك من المواقع التواصلية، لما يقدمونه من «نصائح» و»آراء» لتوجيه العامة، وهم ذاتهم عوام إن اعتبرنا أنّ العلم الشرعي قائمٌ بذاته، يحتاج إلى دليل عليه من مؤلفات وأبحاث، مثله مثل أيّ علمٍ آخر تعرفه البشر. فتراهم يتحدثون بلهجة العلماء، وليسوا منهم، وقد يكون بعض رأيهم صحيحاً، لكن دون أن يرتكز على علم شرعيّ، مما يجعله باطلاً وإن صح. وترى بقية العامة يُسبغون على هؤلاء أوصافاً لا يليقون لها، ويتبادَلون المدح والإطراء على الفيس بوك، وكأنهم يرقصون على أشلاء العِلْمِ الإسلاميّ الحقّ. هؤلاء، جيل «الدعاة الإلكترونيون»، هم من أخطر ما تقدمه مثل هذه المواقع، خطورة على نشر دعوة التمكين اليوم.



البحث الخامس

حقائق ثابتة على طريق التمكين

أود أن أذَكّر القارئ الحبيب بعدة حقائق، تتسرب من العقل من حين لآخر، تحت ضغط الظروف وأحداث الواقع. وهي حقائق يجب ألا تغيب عن الأذهان، يشرحُها العلماء والدعاة ويكرّرونها، ويستمع لها العوام ويحفظونها، إذ ما جاءنا الخراب، وتداعت علينا الهوام والذباب، فلا يكون إلا تجاهلها أو الجهل بها، وهو ليس بعذرٍ فيها

إن كنت لا تدري فتلك مصيبةٌ

أو كنت تدري، فالمصيبةُ أعظم!

هذه الحقائق منها ما هو من قبيل القواعد العقلية والشرعية، ومنها ما هو من قبيل تحقيق مناطات تلك القواعد وتطبيقها على واقعنا الأسيف، نذكرها من باب قوله تعالى «لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنْ بَيِّنَةٍ» الأنفال ٤٢.

١. أنّ الله سبحانه هو الحقيقُ بالطّاعة في تشريعه، وقبول كلِّ أمرٍ منه ونهيّ، قبولاً مطلقاً عَارياً عن القيد والشَرط، سواءً في حق الفرد أو الجماعة أو المجتمع، وأنّ دون ذلك كفر بواحٌ لنا فيه من الله برهان.

٢. أنّ ولاء المسلمين بعضهم لبعض، والبراء من المُشركين كلهم، هو حدّ من حدود التوحيد، وهو مظهره الخارجيّ في التعامل بين الناس. فمن والى مشركاً ونصره في حربه ضد المسلمين فهو كافرٌ مشرك حلال الدم والمال.

٣. أنّ إقامة الدين هي تطبيق شرعه واتباع تعاليمه كلها، وهي لا تتحقق إلا بتولي المسلمين الحكم في بلادهم، لا أن يتولاه كافرٌ مشركٌ، معادٍ للشرع، موالٍ للكفار، وإن تسمى بأسماء المسلمين وخالطهم، وأوهمهم بغير ذلك.

٤. أنّ فهم الواقع الحاليّ بدقة وبصيرة هو واجبٌ عينيّ اليوم على كل مسلمٍ، إذ إن هذا الوعي اليوم هو مناط الإسلام والكفر، ليس فيه اختلاط، لتمايز المُعسكرين على الأرض.

٥. أنّ التلاعبَ في مفاهيم الإسلام وتصوراته وأحكامه الثابتة المطلقة، وتمييع المصطلحات وتبديلها، تحت أي سبب من الأسباب، هو خيانة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، وهو مصدر البدع والكفر.

٦. أنّ مفهوم الجهاد وأصل الدفاع عن النفس ضِد الصائل المُعتدي، حقٌّ مكفول وواجبٌ مفروضٌ على كلّ مسلمٍ، بل هو مكفول لكل مخلوقٍ على الأرض، مسلماً أو كافراً، إنساناً أو حيواناً. فمن تنازل عنه قصداً وطواعية فقد خرج من الدين، وانحرف عن الفطرة، بل فقد العقل رأساً.

٧. أنّ تمييز الحقّ من الباطل، وتحديد المسلم من الكافر، والسنيّ من البدعيّ، هو أمرٌ مشروعٌ في الدين، خاصة في عصر الفتنة وانتشار الكفر والفسق والبدع، لا يستقيم أمر الدين إلا به[١]. وهو واجبٌ على العلماء أن يبينوه وعلى العامة أن يتبعوه، فيعاملوا كلّ إمرء بما هو عليه.

٨. أنّ التعلق بالمصالح والمفاسد التي يؤدي اعتبارها إلى مُضادة الثوابت الشّرعية هو محض تألٍ على الله، وخروج عن الدين، والتنصّل من أحكامه. فالمصالح المُعتبرة شرعاً لها شروطٌ وموانع، على رأسها أن لا تضاد نصّا شرعيا ثابتا.

---

[١] فإن قال قائلٌ «لكنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرف أعيان المنافقين في المدينة ولم يكشف عنهم»؟ قلنا: ذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان متمكناً في المدينة، صاحب الكلمة العليا، وكان الشرع هو الحاكم. والتلاعب اليوم بمثل هذه الأدلة هو ورع بارد ومحضُ جهل قد يؤدى بصاحبه إلى المروق من الدين.

أما الثوابت التي أسدل عليها ليلُ الواقع الأسيف ستائر نسيانه، منها:

١. أنّ الوضعَ العسكريّ الفاشيّ الحاليّ في مصر، هو حُكمٌ علمانيّ كافرٌ خارجٌ عن المِلة، سواءً نظامه (مؤسساته كالجيش والشرطة والقضاء والإعلام) أو القائمين عليه (كأعضاء المجلس العسكريّ والرئاسيّ والقضاة الموالين لهم وخلافه) أو منفذي خُططه (كضباط وجنود الجيش والشرطة وأمن دولة الكفر) أو داعميه ومُفَوّضيه (من العامة الذين يصرون على دعم الإنقلاب ويؤيدون الحكم الحاليّ تحت أي سبب من الأسباب، إلا أن تابوا). هؤلاء كفارٌ خرجوا عن مقتضى التوحيد من كلِّ جهاته، ولا حُجة للتبرير لهم إلا من جاهلٍ بدينه، أو مُوالٍ لهم في كفرهم.

٢. أنّ هذا التصور ينطبق على كافة أنظمة وشعوب منطقتنا العربية التي حَكم فيها الإسلام يوماً، قبل أن تُسيطر عليها، كلها، العلمانية العميلة للغرب الصهيو-صليبيّ، فنحن «كُلُّنا في الهَمّ شَرقُ»، كما قال أمير الشعراء.

٣. أنّ نهج السلمية نهجٌ لا يصح أن يكون مبدأ عاماً لا يخرج عنه المسلمون، وكأنه دين الله الذي أنزله على رسوله ﷺ، بل إن دين الله هو المدافعة والجهاد ودفع الصائل المعتدي على الأنفس والأموال والأعراض، ومن شكّ في ذلك فقد كفر بدين الإسلام وخلع الربقة، بأي تأويلٍ كان. أما السلمية، فقد تكون مناطاً في واقعٍ محددٍ، لا شعاراً دائماً كما يفعل أولئك الجمع من الإخوان، ومن يسمون أنفسهم «جبهة دعم الشرعية». إن هؤلاء يأخذون مناط الجهاد ودفع الصائل المعتدي بالقوة على أنه ليس من دين الإسلام، ويرسخون مبدأ السلمية في عقول العوام على أنه دين الله المفروض.

٤. أنّ هناك فرقٌ كبير بين «إعتماد السلمية» كمبدأ، وبين «التذرع بالصبر لحين القدرة». فالأول استسلام تامٌ، يؤدي بصاحبه إلى أن يتنازل عن ثوابته في أول

موقفٍ، ويلجأ إلى التفاوضات والتنازلات، كما رأينا في سياسة الإخوان منذ حركة ٢٥ يناير، وكما نرى اليوم من موقف «جبهة دعم الشرعية» المتخاذل المريض، الذي بدأ مسيرة التنازل بالفعل، كأن هذه هي سلميتهم التي أقوى من الرصاص، أحبط اللهُ خُططهم إن شاء.

٥. أنّ الوضع في مصر، كما هو في شامنا الحبيب، قد وصل به الكفار من القائمين على السلطة اليوم إلى حدٍ لا يجوز معه أن يكون هناك سلمية بحالٍ من الأحوال، بل قد يسيغ صبرٌ على الوضع القائم لحين استكمال عدة المقاومة التي تقرع قوة السلاح العسكريّ الفاشيّ بمثله، دون هوادة.

ومن يَسقى ويشربُ بالمَنايا
إذا الأحرارُ لم يَسقوا ويَسقوا

٦. أنّ أيّ تنازل عن شَرع الله، ولا أقول عن الشرعية الدستورية الديموقراطية الشركية، هو خيانة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ودينه وللمؤمنين وللشهداء الذين دفعوا دماءهم بإسم الإسلام، وطعنٌ للأمة في ظهرها، وتمكينٌ للباطل. وهو ليس انسحابٌ مرحليّ كما قد يموّه به أصحاب التخاذل والتنازل والتراجع، إذ الإنسحاب التكتيكيّ لا يجوز فيه إقرار الكفر على كفره، بل يكون تحت مبدأ «وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ» الأنفال ١٦. وهو مبدأ قرآنيّ عام في القتال والسياسة والتعامل مع الأعداء بأي شكلٍ كان. وهؤلاء ليسوا منحرفين لقتال، بل هم وضعوا السلاح ابتداءً تحت شعار السلمية، ومَكّنوا العدو أن يأخذ كلّ مقياسٍ ليمنع أيّ تحركٍ في اتجاه القوة مرة أخرى. وليسوا متحيزين لفئة، إذ هم يتبرؤون أصلاً من الفئة التي ترى الحق حقاً، وتعتمد سنن الله في الجهاد ودفع الصائل والمقاومة، ويعتبرونهم «خوارج» كما يُشيع عنهم عدوهم! هؤلاء إذن هم قد ولوّا

العدو الدُبر، إن قبلوا بمفاوضة لا تأتي بشرع الله حاكماَ، وتقتصّ من القتلة الكفرة الفجرة، وخانوا الشعب المسلم الذي لن يرضى عن مثل هذا التصرف الخائن، مرة أخرى، بعد أن تجرعنا منه غُصص كامب سليمان، ومحمد محمود وحصار مجلس الشعب وكافة التظاهرات التي خرجت ضد المجلس العسكريّ في ٢٠١١ و ٢٠١٢، وتنحى عنها الإخوان ومن هم على نهجهم، واستعملوا نهج التظاهر «الماتينيه»، من «ستة لتسعة» لإفشالها!، وكان هذا النهجُ هو سبب هذه الكوارث كلها، بقدر الله الذي لا يرحم من يَغفلُ عن السنن.

طريق التمكين طويل، شاقٌ، ملىء بالإبتلاءات والفتن، لا يسلكه إلا من يقدر عليه، ولا يقدر عليه إلا من عرف سنن الله في المدافعة والمغالبة، وكفر بما دونها من قواعد المشاركة والمفاوضة.



البحث السادس

«مشروع الإحياء والتمكين» .. لدين رب العالمين

تعبنا من الكلمات.

تعبنا من الخطب والدروس مسموعة ومقرؤءة.

تعبنا من «أهل الهيصة والزمبليطة» ممن يكتبون وينشرون ويسجّلون، ثم لا يعملون.

عرفنا ما يحدث من مكرٍ لدين الله، وفهمناه وحللناه واستدللنا عليه آلاف المرات، ونشرنا الآلاف من التويتات والتعليقات.

رأينا عشرات، بل مئات الصور لجند الشيطان الأكبر في جيوش الإحتلال، في مصر والشام، يقتلون ويَسحلون ويعتقلون ويكشفون الحرائر ويفضحون الولايا على رؤوس الأشهاد.

وعرفنا هويتهم. كفارٌ مرتدون لا دين لهم ولا خلاق. بل ضَمّوا الفُجور إلى الكفر «أولئك هم الكفرة الفجرة».

فماذا نحن فاعلون إذن؟

هذا وقتٌ لا ينفع فيه البكاء ولا العويل، ولا الصراخ أمام الميكروفونات وتسجيل الحلقات والفيديوهات. ولا تجدى التظاهرات السلميات، ورفع الأصبع في التجمعات، ولا الصفير على أسطح المنازل. هذا وقت التخطيط والعمل والحركة الإيجابية، علماً وحركة. هذا وقت العبرة بالماضى، والإستبصار بالحاضر، والعمل للمستقبل.

أرى والله فيكم، أحبائي الإخوة والأخوات، براعم التمكين، بل بعضها أثمر شهادة في سبيل الله بالفعل، أو اعتقالاً لا يأبه لتوابعه وزوابعه، على نفسه أو على أهله.

ثم لا أظن أحدكم يريد أن يظل من «التويتيّون»، أو الفيسبُكّيّون» الذين يقضون نهارهم تعليقا على كيبورد، دون أن نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام. أظنكم خيراً من هذا وأصلب عوداً وأقوم طريقة وأكثر عَطاءً. والخير لا يزال في أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وإن قلّ وندر في أيام الناس هذه، فإنها أيام التمحيص والتخليص.

ولا علينا من قلة وكثرة، ونحن مبتلون، وإن كيد الشيطان كان ضعيفاً، ومن يُهِن الله فما له من مكرم، فكثرة الكفار من العامة وقادة الكفر، من العسكر والعلمانيين، لا أثر لها إذ هي بيوت عنكبوت، شريطة أن نتمسك، نحن أصحاب الحق، بطريق الله، وإلا استوينا معهم في المنهج، وفاقونا في العدد والعدة، فهو خسار الدنيا والآخرة.

ثم إن يد الله مع الجماعة، ومن شَذّ شذّ في النار. وأقصد بالجماعة هنا العمل الجماعيّ الذي يشترك فيه جمعٌ من الناس، لا الجماعة بمعناها الإصطلاحيّ الذي تعارف عليه «الإسلاميون» في العقود القليلة الماضية.

ثم إنّ التكاتف في سبيل الخير جُنّة «وتعاونوا على البر والتقوى»، وليس أتقى لله من أن نعمل على إعادة بناء أمته وتمكينها، لا نقول إحياؤها فقط، بل نتعدى إلى التمكين، بكل وسائله التي أتاحها الله سبحانه لنا.

وهذا مشروع «الإحياء والتمكين» الذي أتقدم به إليكم اليوم، أيها الإخوة والأخوات.

وهو مشروع يرتبط فيه العلم بالعمل، بلا انفكاك بينهما. إذ إنهما مرتبطان في دين الله، من فصل بينهما كان مبتدعاً ضالاً.

وهذا المشروع هو ناتجٌ من نتاج سلسلة «بعد أن انقشع الغبار»، ونتيجة من نتائجها، إذ تحدثنا إلى عدد من الدعاة المخلصين ممن توسمنا فيهم الخير والفضل، فمنهم من حاور واشترك، ومنهم من توارى وترك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونحن إن شاء الله ماضون في مشروعنا هذا، وسنأتي بتفاصيله في قريبا إن شاء الله تعالى.

دوركم يا شبابنا اليوم هو أن نتعاهد على الإجتماع على هذا المشروع، وأن ننشر خطواته وتفاصيله، وأن نُشرك معنا من يريد، ممن أخلص وصَفَى، في هذه المرحلة من المشروع، دون الإلتفات حالياً لمن خَلّطَ وتخبط. فهذا يأتي في مرحلة متقدمة بعد أن نحكم صفوفنا ونبني بنياننا.

وقد آلينا على أنفسنا أن نضع تصوراً عاما مبسطاً لتحديد معالم الشخصية والعقلية المسلمة، في الفصول القادمة من الجزء الثاني

ويد الله معنا إن شاء الله







خطوات في سبيل منهجية جديدة لإعداد

شباب التمكين



الفصل الأول

تقدمة

إن أخطر الأمور على العمل الإسلاميّ الحركيّ اليوم هو من يتخذه الشباب المعنيّ بذلك العمل من رموز وعلماء، يرجعون اليهم في مسائل العلم وطلبه، وفي التوجيه الحركي ووسائله.

ذلك أن الشباب هم مادة المستقبل، التي يجب الإعتناء بها، وصيانتها من المخاطر الفكرية والحركية، وحسن صياغتها في قوالب سنية بحتة، لا تَصْفُ من البدع فحسب، بل وتعرف كيف يكون التمسك بالسنة، نظرياً وعملياً.

يجب أن يكون الشباب على علمٍ بكيفية التمييز بين الحق والباطل، فكم من حقٍ رُميَ بباطلٍ فانحرفت عنه الشباب. وكم من باطلٍ تزّين بلباس حق، فاجتمع حوله الشباب، وما ذلك إلا من تقصير العلماء في بيان كيفية الحكم على الأفكار والأشخاص والأحداث، الثلاثيّ، الذي أشار إليه مالك بن نبي، المفكر الجزائريّ. وهي نقطة ضعف خطيرة لدى الشباب اليوم.

فإن قدرات شباب الجيل على استيعاب المواقف المختلفة، ثم تحليلها لعناصرها الأولية، ثم إعادة تركيبها بعد تخليصها من الشوائب والزينة التي تحيط بها، تكاد تكون منعدمة. وهذا هو سبب ما نراه من ظواهر تتمثل في اتباع الكثير من العلماء، لكن هؤلاء الموجهون إما قليلو الغناء في صياغة العقل العلميّ أو الحركيّ، أو معدوموه!

الشباب اليوم يسير بطريق في طلب العلم النظري، يكاد يكون منفصلاً عن الطريق الحركيّ، إلا في نقاط نادرة، تظهر عند الاستشهاد ببعض أدلة هنا أوهناك. لكنّ هذا ليس بمنهج يُربى عليه الشباب على الإطلاق، إن أردنا إصلاح الجيل وإعداده للمستقبل، بل وبعثه من تحت ركام الأزمات التي أحاطت به، خاصة في العقدين الأخيرين من الزمن.

ربما كانت المنهجية العلمية التي سادت في النصف الثاني من القرن السابق، لكنها تحتاج إلى مراجعة دقيقة لتربط العلم بالعمل، وأقصد بالعمل هنا «الحركة»، من حيث مفهوم «العمل»، لا يزال في عقول الشباب، بل وكثير من الشيوخ، مرتبط بالتعريفات النظرية التي طرحها السلف، في أضيق نطاق، مثل قولهم «الإيمان علمٌ وعمل» أو «إقتضاء العلم العمل»، وهم يعنون الشطر العباديّ من العمل، أي قيام الليل وحسن الخلق وكثرة التلاوة وسائر ما هو من قبيل العبادات.

ومعلومٌ سبب هذا القصر، أو التقصير الحاصل في فهم «العمل» إذ هو تابع لما شاع في المجتمع الإسلاميّ لعدة قرون سابقة، من تفرقة حادة بين العبادات والمعاملات، بين الفقه والحركة، من حيث أن تلك الأخيرة لم تكن مطلوبة أصلاً لوجود الدولة المركزية الإسلامية أولاً، ولانتشار المذهب الصوفي والأشعريّ ثانياً.

أما اليوم، فإنه يجب أن يُقدّم مفهوم «العمل» بشكل أكثر اتساعاً وشمولاً، يبدأ من أول خطوات تعليم التوحيد والإيمان، الذي هو الأول والأهم في تعليم أي جيل من الأجيال.

إن إعادة النظر في الطرق التي يُقدّم بها الإسلام، للشباب الناشئ، يجب أن تواكب تلك الأحداث التي مرت في الماضي القريب، والاستفادة من تجاربها، وإلا فقد ذهب دماء الشباب عبثاً، سواءً في سوريا أو في ليبيا أو اليمن أو العرق أو غيرها من مواقع الصدام مع النظام العالميّ.

وباختصار، فإن المرادُ اليوم، هو ربط العلم الشرعيّ بالحركة الإسلامية، وهو ما فعلت ضده الحركات الإسلامية الكبرى المعاصرة، وأقصد بهما التيار الإخواني والتيار الجهاديّ، حيث اتخذ كلاهما، على غير ما يظهر، آلية وتحقيق ربط العلم الشرعي والحركة الإسلامية.

فقد اتفق التياران على منهجية تقديم الحركة على العلم، ثم اختلفا في موضوع الحركة

بعد ذلك. فرأت الإخوان أن تكون الحركة في إطار الأنظمة العلمانية، متواكبة معها، ورأى التيار الجهادي الصدام المباشر مع الأنظمة العالمية، من حيث هي صائلة في بلاده، تعيث قتلاً وفساداً في الأرض.

وقد اختلف التياران في تقديم أهمية العلم «نظرياً». فالحركة الإخوانية، بمفهومها الواسع الشامل لكل من يسير على نهجهم كحركة النهضة أو ما شابه، لم يجعل للعلم نصيباً إلا أقله وأندره. لكن، كذلك فات الطرف الجهاديّ أن يربط ما يقدم من العلم بالواقع الحركيّ الجهاديّ، فكان سبباً في انهزام وسحق تلك الحركات الجهادية، بدءاُ من الحركة الإسلامية في مصر، إلى فصائل المقاومة في الشام، بفارق خمسين عاماً!

وحين أتحدث عن هذا الربط، فإنني أحمّل العلماء المهتمين بأمر العلم الشرعي والموجهين للحركة الإسلامية معا، أن ينظروا، بعين الخبرة والعلم، في هذا الذي أشرت إليه، والبدء في تطوير منهجيّ، يضع خطوطا عريضة واضحة، تحكم تحصيل العلم وربطه بالعمل الحركيّ، في تلازم متين، يضمن حسن تصرف القيادات الناشئة، والعناصر التابعة، حتى لا تتكرر المأساة التي رأيناها في ساحة الشام على وجه الخصوص.

والأمر الذي أتحدث فيه هنا أمرُ جدٍّ لا هزل ولا هامشيّ، بل هو صلب مستقبل الحركة الإسلامية المستقبلية، والتي يجب أن تستفيد مما حدث، وأن يرعاها العلماء القادرون المتصدون لهذا الأمر.

والحق أن هؤلاء العلماء ذاتهم، يحتاجون إلى فترة تأمل وتفهم، وعودة للتجارب التي مرّ بها المسلمون في القرن الماضي، لا أن يظلوا سائرين على مناهجهم دون مراجعة أو إعادة هيكلية لمناهج تعليمهم ودوراتهم وشروحهم، لتكون شاملة لحصيلة تلك التجارب.

وشرح تلك الجمل السابقة يطول. فسنواصل الحديث عن الخطوط العريضة لتلك

المنهجية إن شاء الله تعالى.

الفصل الثاني

أعتبر أن قضية الربط بين التوحيد النظريّ والعمليّ، هي أهم القضايا التي تؤرق الناظر في حال ساحات العمل الإسلاميّ على الجملة. ويليها في الأهمية، عندي، تربية شباب تلك الساحات، لا في الأعمال العبادية فحسب، بل وفي التصرفات حيال الأزمات، التعاملات مع الغير، وتقويم النظر في الثلاثي الذي ذكرنا، ونقصد به الأشخاص والأفكار والأحداث.

وهاتان النقطتان هما ما سنحاول أن نبني بهما ذلك القالب الفكريّ الذي يجب أن يُصَبَّ فيه علم الشباب، فتتحد فيه وجهات نظرهم، ووجهة عملهم، ما أمكن للبشر أن يتفقوا!

أولاً: التوحيد النظريّ والعمليّ:

مما لا شك فيه أن غرس مفهوم التوحيد، بكل تفاصيله وأدلته، ربوبية وألوهية، ومفهوم الشرك، سواء في الشرائع والشعائر، وضبط ما يحكم وما يدور حوله من تفاصيل فقهية كحكم المرتد، وأحكام الديار ومثلها. وهو ما نقصد بالتوحيد النظري، على أولية منهج الدعاة.

وهذا التوجيه ثابت لا يتغير، على مرّ العصور والدهور. فهو الحقيقة الأصيلة في الكون وفي حياة البشر، لا حقيقة أعلى منها، ولا أهم.

لكنّ ما تعلمناه، من تجارب ومحن، خاصة في العقود القليلة السابقة، أن الحديث عن التوحيد، يختلف عن الحياة بالتوحيد، الفرق شاسع بيّن.

هاهم من ادّعو السلفية، وأطلق الناس عليهم «السلفية العلمية»، ومنهم العبد الضعيف إلى ربه في كتابي الذي خرج بطبعتيه الإنجليزية ثم العربية بعنوان «فتنة أدعياء السلفية وانحرافاتهم»، ظلوا يعلمون التوحيد أجيالاً بعد أجيال، ربوبية وألوهية وأسماء وصفات... لم ينقصوا منه شيئا. لكن ماذا كانت النتيجة؟ انهاروا عند أول اختبار للتوحيد العمليّ، وخرج من جعبتهم البرهامي ورسلان ومحمد حسان، وسائر المنافقين الخُلّص، الذين مرقوا عن دين الله، بلا ممارة في الفوق! فما نفعهم توحيدهم ..

لكن كانت هناك مجموعات أخرى، أشرف على تربيتها شيوخ، عرفوا الفرق بين النظر والعمل، بين تحقق القلب وتحرك الإرادة، فكان منهاجهم في غرس التوحيد، مرتبطاً بدفعة عملية، تنزله، بكافة قضاياه على الواقع، ولا تخشى عاقبة ذلك، بلا مجاملة ولا مداراة ولا تصنع ولا اجتزاء، كما فعل العلماء من أيام العلامة المودودي، والأستاذ الشهيد، نحسبه، سيد قطب، وتلامذته الشيخ عبد المجيد الشاذلي ومجموعته، ثم في الجيل التالي لهؤلاء ظهر الشيخ المقدسي، والشيخ السباعي وغيرهما ممن له يد في هذا الأمر، وهو تصدى لغرس التوحيد العمليّ بصورة واضحة صريحة.

وتدريس هذا التوحيد يمكن أن يكون من الكتب المعروفة في هذا الباب، وهي كثيرة.

وهناك بعض أمور تتعلق بتقديم الإسلام للشباب، سواء جانب التوحيد أو جانب الإيمان نختصرها فيما يلي:

- لابد من أن يُقدم الإسلام للشباب بصورة كاملة صحيحة غير منقوصة ولا مبتورة بأي شكلٍ من الأشكال.
- أن يكون هناك مراعاة للجانب الأمني في هذا التقديم، فمثلاً لا يبدأ الشارح بالحديث عن أمور غير مطروحة عملياً، كجهاد الطلب، لكن يكون ذكر مثل هذه المواضيع في غاية الاختصار، مع ربطها بسبب ذلك الاختصار. ويمكن بيانها إبان تدريس مادة أخرى مثل السيرة أو التاريخ.
- أن يناسب الطرح المُقدّم للتوحيد شريحة الأعمار التي يُقدم لها. وهذا يستدعي إيجاد شرائح عمرية، تراعي فرق التطور الذهني للمُتلقي.
- أن يكون الطرح ملائما للبيئة المطروح فيها. وهذه من أهم النقاط على الإطلاق. فالطرح لساكني الشرق غير الطرح لساكني الغرب، من حيث أن مسلمي الغرب قد أثّرت فيهم الحضارة الغربية، شئنا أو أبينا.

- التجديد في وسائل الطرح: وأعني به أن يكون الطرح مواكباً للتطور العلميّ الذي خطته البشرية، فيعمل الشارح على أن يربط المعنى بالحقائق العلمية الثابتة، والمتعارف عليها، مثل كروية الأرض ودوران الكواكب حول الشمس، وما توصل إليه العلم من موضوع بدء الخلق ... وهلم جرا.
- وهذا لا يعني تقديم الإسلام العلمي أو محاولة استنباط حقائق العلم من القرآن. بل على العكس، يجب دائما أن يكون التركيز على أن الإسلام هو المرجعية، لا العلم .. وإنما الاستشهاد للاستئناس لا غير.

التوحيد العمليّ أو الحركيّ:

وهو ما أعني به مناقشة حقائق الأوضاع القائمة، بعد بناء التوحيد النظريّ بشكلٍ متين. فيقوم الشارح بربط الفكرة الديموقراطية البرلمانية الغربية مع حقيقة شورى الإسلام. ثم ربط البناء الإقتصادي والإجتماعي بأيديولوجيته العلمانية، وربط النظام الإقتصادي والإجتماعي في الإسلام بالتوحيد كقاعدته الوحيدة. مع ضرب أمثلة تبين أنه لا يمكن الخلط بين النظامين، في مجتمع إسلاميّ على وجه الإطلاق. فهما لا يتمازجان، فإما إسلام أو كفر.

كما يبين للشباب أن هذا لا يعني عدم التعايش مع أهل الكتاب أو غيرهم، سواء في مرحلة الاستضعاف التي يمر بها العالم الإسلاميّ، أو في حالة التمكين، حين يأذن به الله سبحانه. ويبين للطالب أن هذا التعايش هو ما حدث منذ عهد النبوة إلى أن سقطت الخلافة. وإنما النقطة هنا أن يبين لهم مواطن الائتلاف، ومواطن الإختلاف، ما يمكن أن نتعايش بصدده وما لا يمكن، ما هو مقبول «في الإسلام» أن تتقبله أقلية خارج المجتمع الإسلاميّ، حين يقوم، وما لا يمكن أن تتقبله.

وهذا التطبيق يجب أن يراعى فيه أموراً عدة، كما سبق أن بيّنا في طرح التوحيد النظريّ، منها البيئة والعمر ومستويات الفهم، والجنس. واختلاف الجنس بين الرجال والنساء في هذا الجانب مؤثر أكثر منه في الجانب النظريّ، نظراً لاختلاف دور كل منهماً في البناء الإجتماعي الإسلامي، وطبيعة الوظيفة المقررة له، فطرة وعقلا وشرعا.

وفي هذا الصدد، يجب أن نبيّن أن فكرة « الجماعة» بمعناها اللغويّ، لا الاصطلاحيّ، تقع في القلب من ضمان تحقق التوحيد العمليّ. وأقصد بالجماعة هي ألا ينطوي الفرد على نفسه، بل يكون وسط «مجموعة» من الشباب الذين يشاركون بعضهم البعض في الإسلام، وفي تعلم وتطبيق معنى الولاء والبراء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيما بينهم، والدعوة، خارج مجموعتهم.

وأكرر هنا، أن الأمر ليس كما سارت عليه الإخوان، أو غيرهم، من تنظيم خلايا تأتمر بأمير، في صورة هرمية. بل هي أقرب ما تكون لمعنى «الرفقاء» أو «الأصحاب». وليس في هذا عيب، إذ أنه مأخوذ من تسمية الصحابة رضي الله عنهم. وهذا ما نختلف فيه عن تلك التجارب السابقة التي أثبتت فشلاً ذريعاً في تحقيق النتائج النهائية، وإن كان لها أثر في تحقيق بعض المكتسبات المرحلية.



الفصل الثالث

حين نتحدث عن توجيه المعلم لطلبة العلم، فإننا نتحدث عن طرفين، طرف إلقاء وطرف تلقي، وكلاهما يجب أن تكتمل فيه الشروط التي تجعل الدرس نافعا مفيداً. فعملية التعليم عملية تبادلية، لا تصلح إلا بصلاح طرفيها. وقد يصلح الطرفان، ثم لا تكون نتيجة مثمرة، لسبب من الأسباب كما سنذكر إن شاء الله.

المعلم - طرفُ الإلقاء

هناك شروط يجب أن تتوفر في الطرف المُعَلِم لتتم عملية التبادل العلمي بشكل ناجح. وقد تعرض لها عدد من العلماء في كتب خاصة، مثل الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، وآداب العالم والمتعلم للنووي، وما جاء في كتب الأصول من آداب المفتى والمستفتي في باب الاجتهاد.

وقبل الشروع في ذكر ما ورد على ذهني منها، أود أن أوجه كلمة إلى علمائنا الأفاضل، إذ إن الأغلبية العظمى من العلماء والمشايخ، طاهري اليد من عطايا الحكام، والأرجل من وطأة بلاط السلطان، تجدهم يدورون بعلمهم بين طلبة العلم، يقجمون المادة التي دونها سلفنا، كما ألقوها على تلامذتهم، منذ قرون عدة! فتجدهم يشرحون المتون، ويعملون على فراءة الشروح، والحواشي، ويدللون بها على وقائع محدثة، قد تُخالف ما وجدوه في كتب السلف، فيعملوا بما هو قريب منه أو ما تظهر فيه صلة شبه.

وهذا ما أريد أن أتوجه بشأنه إلى علمائنا ومشايخنا، أنهم طالما استوعبوا العلم، وشربوا من بحره الزاخر، وتضلعوا في أصول فقهه، وفي فروعه، وقارنوا أقوال الفقهاء، وما بُني على اختلاف الأصول من أقوال، فلابد إذن أن يكونوا قد صاروا من أصحاب الفطرة الشرعية النابهة، والتي صار لها العلم طبعاً ووصفاً لاصقاً، كما وصف الإمام الشاطبي.

من ثم فإنهم يجب أن يوجهوا شباب اليوم، إلى درس ما يفيد، وأن يقوموا على

تدريسه، لا مجرد شرح كتاب أو حواشيه، بل يضعون في الدرس من روحهم واستيعابهم واستقرائهم ما يناسب ذاك الشباب في هذا الزمان. فلا يقرؤون عليهم ما لن يستخدمونه بأي حال، ولن يرد عليهم بحال، لا لشيء إلا لأنه من كتب الإمام فلان في الموضوع الفلانيّ، سواء في علوم الأصول كمبادئ علم الكلام، وكبعض الفروع التي لا خير فيها مثل الحيلة السريجية. بل يكون درسهم فيما يرونه مقدما، وخادماً بين يدي التعامل مع الواقع، لتحصيل مقصد الشريعة.

ثم إن تلك الشروط التي أشرنا إليها، يمكن إثبات قدرٍ منها ها هنا. فمنها،

١. أن يكون المُعلم مستوفياً لشروط الاجتهاد في العلم الذي يقوم بتدريسه، على حسب درجته كما بيّنا من قبل. فإن لم يوجد من هو أعلى درجة، تعيّن على الأقل التعليم، حتى لا يندرس العلم رأساً.

٢. أن يكون المُعلم ممن حاز القدرة على الوصول لعقول المتعلمين، فكم من أصحاب علم، لا قدرة لهم على التعليم، الذي هو موهبة قائمة بذاتها. فإن تصدى من لم يحز على موهبة نقل العلم، كان ضرّه أكبر من نفعه من حيث يؤدي إلى الاضطراب الموقع في الشك.

٣. أن يكون بشوشاً صبوراً، مع شدة في مقابلة التميع واللعب والاستهزاء، لا يسمح بها في مجلسه، كما روي عن مالك رضي الله عنه.

٤. أن يُقبل على طلبته بكلّ نفسه، فلا يرون منه تشتت في الانتباه، أو تحيراً في السرد.

٥. أن يكون له حضور وشخصية متميزة، ليكون قبول كلامه أولى عند المتعلم

٦. أن يُقدم من يجده للأقل فهما للمسألة، فلا يتجاوزها حتى يفهمها الأقل فهماً.

٧. ألا يسمح بمقاطعته أثناء إلقاء الدرس بأي حال من الأحوال، إلا لصلاة حان وقتها.

٨. أن يداوم النظر في الكتب، ولا يتركها معتمداً على ذاكرته، فالذاكرة تخون في كثير من

الأحيان.

٩. أن لا يستحي من الرجوع لطلبته لتصحيح معلومة نقلها خطأ أو سهواً، حتى لا يلتزمونها، فيقع إثمها عليه.

١٠. أن يبدأ الدرس بسرد ملخص، ولو موجز، لما سبق من الدرس السابق، لينعش الذاكرة، ويصل الموضوع بعضه ببعض.

١١. أن يأتي بالدليل، حيثما قدر ما أمكنه ذلك، وإلا فليُحِل الطالب إلى كتاب أو مرجع يجد فيه الدليل.

١٢. ألا يُخفي من العلم شيئاً، إلا أن يكون لم يحن حينه، أو لم يكن مكانه، سواء لداع أمنيّ أو غيره. بل يتلطف بالأمر حتى يصل المعنى إلى الطالب فلا يكون علمه خداجاً.

١٣. أن يشجّع طلبته على أن يدونوا ما يسمعوا ولو اختزالاً، فاستعمال القلم يثبت المعلومة في العقل أكثر من سماعها.

١٤. ألا يكون جافا صارما طوال مجلسه، بل يتعهد طلبته بالتفكه حينا، أو برواية شعر أو حكاية، حينا آخر، حتى لا يقع في نفوسهم الملل والضجر.

١٥. أن يكرر المعلومة ثلاث مرات على الأقل، كفعل رسول الله ﷺ، لتبثت في الأذهان.

١٦. ألا يستحي إن سؤل سؤالاً لم يعرف إجابته لتوه، أن يُنظر السائل حتى يعود إليه بالجواب.

١٧. ألا يدخل قاعة الدرس إلا مستعدا بأوراقه، أو في حافظته، وأن يدخل وقوراً مهيباً ليحفظ للعلم مكانه في النفوس.

١٨. ألا يجعل الطلبة يشتغلون بمأكل أو مشرب أثناء الدرس بأي حال من الأحوال، حتى لا يستهينوا بقدر العلم.

١٩. أن يبدو حسن المظهر والملبس، نظيف، لا تخرج منه رائحة مؤذية، وكلّ هذا من

الحرص على هيبة العلم.

٢٠. ألا يسمح باختلاط في مجلسه، أو بحضور سافرة، فتؤذي الطلبة وتفتنهم عن درسهم.

٢١. ألا يواجه النساء، إن كان درسه للنساء، مباشرة، بل يكونوا إلى جانب منه، منعا للحرج والانشغال وقطعاً لطريق الشيطان.

٢٢. ألا يدخل إلى درس غاضبا مضطرب النفس، مشوش الفكر، بل يجب أن يراعي حالته النفسية التي تنعكس على جودة أدائه.

٢٣. أن يحرص على إعطاء أمثلة مما يشرح، تكون من واقع الحال الذي يعيشه المتعلم، لا أمثلة لم تعد تطرق سمعا ولا تحصل واقعاً.

٢٤. أن يكون ممن يحسن قراءة الأحداث، دون تعصب ولا حزبية.

٢٥. أن يكون ممن يحسن قراءة الأشخاص، ونفسياتهم، والاستدلال على ما في بواطنهم بتصرفاتهم، فلا يسير وراءه كلّ ناعق، يجرّ خلفه طابوراً من الطلبة النعاج، ولنا في أمثال المدخلي وياسر برهامي وأبو بكر البغدادي عبرة لمن اعتبر.

٢٦. أن يبدأ بصغار العلم وأوائل المسائل، حتى لا يفاجئ الطالب بما يوئسه من الطلب.

٢٧. والأهم، هو أن يتقي الله، ويُخلص له النيّة في عمله، وفيمن يعلمهم، وليكن على قدر مفهوم الآية « **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** »

الطرف المتلقي - المُتَعلم

أما عن آداب المتعلم، فهي كثيرة، نذكر منها:

١. أن يكون إقباله على العلم، تقوى لله وحرصاً على معرفة دينه، لا ابتغاء سمعة أو شهرة أو مال.

٢. أن يعرف قدره من العلم، حتى لا يتجاسر على ما ليس له به علم.

٣. أن يبدأ طريق العلم من أوله، ولا يقفز فيه خطوات، يريد أن يختصر الطريق، فهذا المسلك هو أسرع الطرق إلى صنع الرويبضة.

٤. أن يسير في العلم على منهج خاص، مرتب، موضوع من قبل أصحاب علم أكبر منه وأسبق، حتى لا يتحير، فينحرف دون أن يعرف.

٥. أن يكون ملازماً لمن يراه أهلاً للملازمة، في العلم والدين والخلق. سواء كان أستاذاً أو زميلا مرافقا

٦. أن يحرص على الرفقة، فإنما يأكل الذئب القاصية. وأن يتخيرهم ممن هم على دربه، فهم مرآته المُبيّنة.

٧. أن لا يترك العلم فترات متطاولة، فالعلم كرائحة العطر الجميل، إن لم تغذيها بالمزيد، زالت!

٨. أن يكون متبصراً بالواقع، على ما هو عليه، وأن يحرص على السؤال المفيد، دون المجادلة، فجدال المعلم، خسارة في الدنيا والآخرة.

٩. أن يفرق بين صيغة السؤال وصيغة الجدال. السؤال يكون طلبا للمعرفة، والجدال يكون طلباً للمخاصمة.

١٠. أن يكون لبقاً في صياغة أسئلته، حتى لا يضطر مُعلِمه إلى الإعادة، لعدم وضوح السؤال.

١١. ألا يتعود مقاطعة مُعلِمه، حتى لو عرف ما سيأتي من قول، فللآخرين حق المتابعة دون مقاطعة.

١٢. أن لا يفرّق في معاملة طلبته، فإن ذلك يورث غيرة تشغل عقل المتعلم، وتمنعه من الإستفادة.

١٣. أن يحضر إلى الدرس في ملبس حسن، ونفسية مستقرة، حتى لا يعكس سوء حاله على غيره.

١٤. أن يُراجع الدرس السابق قبل الحضور لدرس جديد، فيصير التواصل بين المعاني في ذهنه، فتكمل الفائدة.

١٥. ألا يسرح بفكره في الدرس، أو يخاطب من يليه، ولو همساً، فإن هذا عيب من أشد العيوب التي تصنع فجوة بين المُعَلم والمتعلم، كما أنها من سوء الأدب وقلة احترام العلم.

١٦. ألا يسبق بالقول بين يدي معلمه، فينطق بها على لسانه، فيقع للمعلم انقطاع ذهن وتلعثم قول. وهذا من أهم أسباب انقطاع المعلم عن الطالب.

١٧. أن يتواضع في نفسه كلما تقدم في العلم، من حيث أنه يرى في كل درس أن بحر العلم لا يُدرك قاعه، فإن طالب العلم النجيب يعرف ما بقيَ عليه من تحصيل، وتتفتح أمامه أبواب يدرك معها أنه لا يزال على شاطئ، لم يُبحر فيه بعد.

١٨. أن يبدأ التدرب على الإنتاج، إن كان من أهل الإنتاج، وجاء وقته. وأن يعرض ما يسطر على معلمه ليصحح له القالب والمعنى.

١٩. ألا يتعالم على غيره بما حصّل فإن الغرور هو سلاح الشيطان، ولا يتحدث بعلم تعلمه قبل أن يستأذن فيه معلمَه.

ثم نصل إلى تلك المعارف والنقاط الأساسية التي يجب أن يحصلها شباب التمكين، سواء شرعية أو فقهية أو تقعيدية، أو عقلية.

الفصل الرابع

هناك نقاط ثابتة راسخة، يعمل من خلالها العمل الواعي على أن يقيّم الدليل، ثم الواقع المحيط، ليصل إلى أفضل الحلول الممكنة للوصل إلى الهدف المنشود. وهذه النقاط، كما ذكرنا، منها عقديّ أو فقهيّ أو تقعيدي أو عقلي. وكلها تنبع من مشكاة واحدة، ألا وهي المحجة البيضاء التي تركنا عليها رسول الله ﷺ كما ورد في الحديث الصحيح.

وهذه النقاط هي التي تضبط الفكر السنيّ، وتوجهه نحو بناء منظومة متكاملة:

١. القلب المتعلق بالإيمان
٢. العقل المتشوف للمعرفة
٣. مصاحبة العالم الرباني
٤. الصبر على التلقي
٥. تمييز الضرورات عن الحاجيات، وترتيب الأولويات
٦. عدم اليأس حين مرور ساعات العسرة - ساعات العسرة الشخصية والاجتماعية
٧. فهم قوة العقل الجمعي لا الفردي والقدرة على العمل الجماعي
٨. العمل الجماعي لا يلغي التفرد الذاتيّ والاستقلالية
٩. نفي التعصب والتحزب وتحري الحق
١٠. التخلص من الحسد والكفّ عن النظر لما في أيدي الآخرين
١١. تمييز الامتحان والإبتلاء ، من العقاب والجزاء
١٢. البراءة من حب الرياسة والتسلط والتعالم - مع التطلع لخدمة المجموع
١٣. الإحساس بآلام الأمة
١٤. حسن التوفيق بين العمل العلمي والدعوي والحركي والشخصي

١٥. تحديد مناحي القوة والضعف في حياتك وشخصيتك وقدراتك، لتتعامل مع الواقع بشكل لا يؤدي لضرر لك أو لمن حولك.

١٦. الولاء دائما لمن تبع دينك

١٧. العمل الدؤوب على الاستقلال في الدخل وعدم الاعتماد على دخل من الدعوة إلى الله.

١٨. الالتزام بعدد من القواعد الشرعية الأصولية والعقلية التي يتعرض لها المسلم بشكل دائم، للتمييز بين الحق والباطل، والمبينة، قدر الإمكان، فيما يأتي:

- العمل بالظاهر هو الأصل
- الأمور تعتبر بمقاصدها
- العبرة بالمعاني لا بالمباني
- التمييز بين البنود الثلاثة السابقة
- يؤخذ الكلام على قصد القائل إلا في الحلف أمام القاضي
- اليقين لا يرتفع بالشك
- الغاية لا تبرر الوسيلة
- المصلحة المعتبرة هي ما توافق الشرع، لا ما أفرز العقل وحده
- الضرورات تبيح المحظورات ومعناها
- الضرورة تقدّر بقدرها
- الحاجة التي تعمّ تنزّل منزلة الضرورة
- لا تصح فتوى العاميّ وإن وافقت الحق
- لا يصح تطبيق حكم شرعي في مسألة خاصة حتى تصدر بها فتوى من عالم

مختص

- اعتبار مقاصد الشريعة لا يُعتبر إلا من جهة عالم مختص.
- منع الضرر بإطلاق
- دفع الضرر مُقدّم على جلب المصلحة
- الأخذ بأدنى المفسدتين، وبأعلى المصلحتين
- الاعتبار يقوم بالجمع بين المتماثلات والتفرقة بين المختلفات
- النادر ليس له حكم في الشرع
- الطاعة لا تكون إلا في معروف
- من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه
- مراعاة السنن الكونية والشرعية والاجتماعية
- مراعاة الفرق بين المُمكن، والمُحتمل، والمقدور عليه
- الأحكام الشرعية في مقابل الأحكام الوضعية
- الفرق بين الشورى والديموقراطية
- حق الفرد وحق المجتمع، أو أيهما أولى المصلحة العامة أم المصلحة الخاصة؟

ذلك هو المخطط الذي ارتضيناه لبناء شخصية مسلمة قوية متعلمة، سلاحها الإيمان، وذخيرتها العلم ودافعها رضاء الله سبحانه والجنّة.

والأمر، كما هو واضح بيّن، ليس بالسهل الهيّن، ولا بالعسير المتعذر. بل يتوقف على مدى قدرة العالم وطالب العلم على الإلقاء والتلقى، الشرح والاستيعاب، ثم الهمة والعزيمة التي لا تملّ ولا تكلّ.

وخذوها ممن خبرها عقوداً خمسة، الهمة، في كلّ أمر، هي مفتاح النجاح.

وقد يكون هناك مزيد من النقاط التي يجب اعتبارها في سبيل بناء تلك الشخصية.

وسنأتي على كل نقطة مما ذكرنا بشرح، نحاول فيه البسيط لا البسط، قدر الإمكان.



الفصل الخامس

بناء الشخصية المسلمة

النقاط هي التي تضبط الفكر السنيّ، وتوجهه نحو بناء منظومة متكاملة

١. **القلب المتعلق بالإيمان**

a. وتعلق القلب بالإيمان ورسوخ التوحيد فيه هو أول الواجبات الشرعية، في كل وقت ومكان وحال «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ «. فالتوحيد هو قاعدة هذا الدين، والفرائض الخمس هم أعمدته، والأحكام الشرعية بعد ذلك كلها هي حجارة البنيان، تُرصّ فوق قاعدته، وتمسك بها أعمدته. لذلك لا ينهدم البنيان بغياب بعض حجارته، فهي كالمعاصي، لا تهدم التوحيد. فإن انتزعت كل الحجارة، وبقيت الأعمدة والقاعدة، ظل البناء قائماً، خاويا، لا يصلح لسكنى. فإن انهارت الأعمدة، لم يظل بنياناً، ولا يعلم أحداً إن كانت القواعد قد سلمت أم لم تسلم، فإن تزلزلت القواعد، لم يعد هناك مبنى ولا شبه مبنى!

b. والتوحيد لا يستقيم في قلب العبد حتى يُنتزع منه الشرك الأكبر كافة، بكل أنواعه، فحين يخلو القلب من الشرك، يحلّ محله التوحيد. فهما لا يجامعان لحظة في قلب العبد. إما شرك وإما توحيد.

c. والتوحيد هو إخلاص الطاعة لله وحده في كلّ شؤون الحياة، ومجالاتها، اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وعسكريا وقانونيا وثقافيا، وكل ما يفرّق جنس الإنسان عن الحيوان. فالحكم في حياة الناس، بكلّ معانيه مصدره كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وما اشتّق منهما من أدلة وقواعد.

d. وقد جعل الله للتوحيد عنوان، يجب أن يطابق ما في القلب من طاعة ومقتضى وتسليم، «لا إله إلا الله». لكن الكلمة وحدها، كما سنبين، لا يكون لها مدلول إلا إن حملت معنى ومبنى، لا حرفا وكلمة. فمن تلفظ بالكلمة وخالف مقتضاها، عالما غير جاهل، مُكلفا عاقلا، فيما هو من قواعد التوحيد، لم تُغنه من الله شيئا.

e. فالتوحيد هو الطاعة، وهي مقتضى العبادة لله وحده. بالتسليم لأمره والكف عن نهيه. وهذا لا يكون حتى يُبنى التصور الصحيح لصفات الله العُلى وأسمائه الحسنى. ومذهب أهل السنة في ذلك سهل ميسر، إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل. فنحن نثبت الصفة كما جاءت، لكن لا نعرف كيفيتها، فنثبت السمع بلا كيف والبصر بلا كيف واليد بلا كيف، وهكذا في كل صفات الله تعالى. ونحن ننزه الله سبحانه عن الخلق وعن كل ما يمكن أن يصدر عن العقل من تصوّر له سبحانه، لكن دون أن نزعم أن هناك صفات أثبتها الله لنفسه في كتابه، ليست بثابتة له، بل إما نأوّلها أو نعطلها! وهذا مخرج البدع والأهواء.

f. والتوحيد، كما ذكرنا، يستلزم ترك الشرك الأكبر كله. وهذا يعني، حسب النصّ القرآنيّ، الكفر بالطاغوت. والطاغوت هو كلّ ما، أو من للعاقل وغير العاقل، نازع الله في سطوته على الناس وألوهيته فوقهم. فمن أشكال الطاغوت، كل ما اتخذه الناس طاغوتا من شجر أو حجر أو وثنٍ، يقدمون لها القرابين تزلفا، حتى لو كان التزلف مقصودا به الوساطة لله ، قال تعالى حكاية عن الكفار «أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ». فلا زلفى إلى الله بشرك. بل بالعمل الصالح، ودعاء الأحياء من الصالحين، أو دعاء الولد لأبويه.

g. كما أن الطاغوت هو كل من يعطي لنفسه السلطة، أو يخوّله غيره، ليشرّع أحكاماً غير أحكام الله تعالى، التي وردت في كتابه، وثبتت بصحيح حديثه وسنة رسوله ﷺ، وما استُنبط منها بدليل من الأدلة الثابتة المتفق عليها. فهذا

التشريع، هو نزع لسلطة الله تعالى، حيث يقول «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ»، وقال تعالى «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ»، وقوله تعالى «وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ» فحذر من بعض الإتباع، كما حذر من كلّه، وكثير غير ذلك من الآيات، يجدها القارئ في مظانها، تثبت الحكم لله، وتنزعه عمن وعما عداه.

h. كذلك فإن التوحيد يلازمه الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، والولاء يعني المناصرة، وسنتوسع في ذكره في النقطة رقم (١٧) إن شاء الله.

i. والإسلام والتوحيد، متلازمان، وهما دين الأنبياء جميعا، لا دين لهم غيره، فقد جاء في سورة هود «وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ» وردت بنصّها على لسان كافة الأنبياء عليهم السلام.

j. كما أنه لا يوجد إسلام بدون إيمان، ولا إيمان بدون إسلام. فكلاهما مكمّل لبعضه البعض. والقاعدة في التفريق بينهما هي أنه إذا ورد النص بالإسلام وحده، فهو عمل الظاهر والقلب، وإن ورد الإيمان وحده، فهو كذلك عمل الظاهر والقلب، فإن اجتمعا في نصٍ، كان الإسلام هو الظاهر، والإيمان هو العمل الباطن في القلب.

٢. العقل المتشوف للمعرفة

a. وأمر التشوف للمعرفة فمن أهم ضرورات حيازة العلم، واستيعابه. فقد رأينا أجيالاً، خاصة في أيامنا هذه، خاصة في زمن الحواسيب، وما رأيناه من تأثير سلبيّ على الساحة الشامية خاصة، رأينا أجيالاً تكره القراءة، ولا تقدر عليها، وتحسب أن قراءة الجمل المتطايرة من هنا وهناك، والنص العابر هنا وهناك، هو معرفة كافية لحصول العلم. وهذا من أكبر الخطأ وأفحشه. فطالب العلم يجب أن يكون شغوفاً بالمعرفة في ذاتها، محباً للإطلاع، متنوعاً في معارفه. وهذا

التشوف أمرٌ طبعيّ، لكن يجب تعهده باستمرار القراءة، وحيازة الكتاب، ومحبته. فالكتاب هو مصدر التلقى للمعارف، لهذا جعل الله سبحانه معجزة نبيه ﷺ كتابٌ مقروء، وقال تعالى في أول لفظة فيه «اقرأ».

b. واقتناء الكتب، لا يجب أن يكون زينة للبيوت، يُظهر بها المرء نفسه بمظهر العارف، بل يجب أن يكون اقتناءً للتحصيل، واهتماما بالمعرفة. فالمعرفة، لذة في حدّ ذاتها، تحصل للقارئ حين يتعهد نفسه بالقراءة والتحصيل. والفرق أنّ المعارف الشرعية يجب أن تكون مصحوبة بالنية للعمل بها، حتى تتم فائدتها. كما أن المعرفة كالأكل والشراب، يتشوق الإنسان لها إن تركها فترة قد تطول وتقصر، حسب شغف المتعلم بها. ولعلك ترى أناساً يمر عليهم دهراً لم يفتحوا كتاباً قط. ومع ذلك تراهم في مجالسهم يتحاورون ويتناقشون ويدلون بآرائهم، فتعجب، من أين يأتي الصواب في قول هؤلاء، وكيف الثقة فيما يقولون، وكيف يرى المرء منهم نفسه حين يخلو بها، يعلم أنها خواء من داخلها! فسبحان من علّم الإنسان ما لم يعلم.

c. وهذا الشغف بالمعرفة، يستمر مع المتعلم طوال حياته، لا يفارقه، لكنه يتغير بتغير مراحل حياته. فيبدأ بلون من المعارف العامة، ثم كلما مرّ به الزمن، وجد في نفسه شغفاً بعلم معيّن، فتراه يحرص على اقتناء كتبه، والاظلاع فيها أكثر من بقية العلوم. ثم في وقت لاحق، إن كان من أهل القلم، يبدأ في التلخيص، ثم الشرح والتعليق، ثم التدوين والتحقيق. مراحل يمر بها المتعلم في عمره، لا يكاد يخطئها أحد، أو لا تكاد تُخطئ أحداً.

٣. مصاحبة العالم الرباني

a. ولعل الكثير من الشباب لم يحظ بشرف التعارف على، أو مصاحبة عالمٍ ربانيّ، لأسباب عدة، منها ندرة العلماء في قرننا هذا، واختلاف مشاربهم، ونمط الحياة المتسارع، وكثرة الاحتياجات المعيشية التي تمنع المتعلم من قصد العالم.

b. وفوائد التعرف على العالم أو مصاحبته إن أمكن، هو الاستدلال على صحة الطريق من تلك المصاحبة، وقلة احتمال الخطأ، أو تصحيحه قبل الرسوخ في العقل، وتجنب البدع، وتحديد ما يلزم للمتعلم خاصة من كتب يعينها له معلمه، حسب ما يرى فيه من قدرات وتوجهات. كما أن تلك المصاحبة، تعين على النفس التي تدفع بالمتعلم إلى التكاسل، خجلاً من معلمه، خاصة لو كان اللقاء في مجموعة من المتعلمين. كذلك تفيد في توجيه المتعلم في أمور تُشكل عليه خاصة، قد لا تكون لها أهمية عند غيره.

c. وصحبة العالم، تؤدى إلى حسن الخلق من احترام الكبير وتوقيره، وتقدير قيمة العلم، خاصة لو كان العالم من الجاهدين في العمل بجانب العلم. كما يعين تلك المصاحبة على كشف أسرار ما قد يكون مغلقاً في بعض الكتب المتخصصة.

d. والعلاقة بين العالم والمتعلم هي علاقة من لون خاص، فيها من علاقة الأب بابنه، مع التوسع من المتعلم مع معلمه، فهو يرى فيه قدوة، يحتذي بها في سيره، ويلوذ بها إن تعثر في الطريق.

e. لكن هذه العلاقة يجب أن تكون محكومة بالشرع، فقد وقعت الصوفية، وغيرهم من طرق الباطل، في تضخيم قدر «الشيخ» في عين «المريد» حتى صار الأمر أقرب للتقديس، حتى إن أمره بطلاق امرأته لطلقها، فإن من اعرض انطرد! وهذه مهانة ومذلة لنفس المتعلم، لا يخرج منها إلا الجهل والهوان والانكسار لغير الله. واتباع الشيخ لا يكون إلا فيما وافق الشرع وأقره العقل، فلو طلب منه الخروج للصحراء بلا زاد ولا ماء، فخرج، فقد أثم وعصى الله في نفسه.

ولجلسة العلم مهابة وأسساً يجب أن يتّبعها المتعلم، فيجب على المتعلم الدخول للحلقة منتبها، متشوقاً، وأن يكون حسن الرائحة لعدم إيذاء من حوله، وأن يأتي في موعد البدء لمنع اضطراب الحلقة، ولا يجب عليه كثرة الالتفات حوله، أو الحديث مع من بجواره ولو

همساً، أو مقاطعة المُعلم وإن ظنّ أن سؤاله هام، بل يبقيه لآخر الدرس، عسى أن يجيب عنه المعلم في موضع آخر أليق به، وأن يمتنع عن الأكل والشرب أو الضحك بصوتٍ عال، أو أن يسبق معلمه بالقول حتى لو علم ما سيقول المُعلم، فإن في هذا تشتيت لذهن معلمه، كما لا يصح التعقيب على معلمه ولو ظن أنه أخطأ فيما قال، إلا بطريقين، أولهما أن يتوجه بصيغة السؤال لمعلمه عن هذه النقطة بالذات، طالباً إعادة شرحها حين فتح باب الأسئلة، أو أن يسأله عنها في خلوة بعد الدرس. والمُعلم الرباني لن يتمسكّ بخطئ إن ظهر له ذلك، بل سيعيد شرح النقطة في الدرس التالي، فإن غير ذلك يولّد الجفوة بين المعلم والمتعلم، وفي هذا ضرر على المتعلم.



الفصل السادس

١. **الصبر على التلقي**

a. والصبر على التلقي تالٍ للتشوف للمعرفة. فإن العقل الذي تكون المعرفة بالنسبة اليه كالغذاء للجسد، يصبر صاحبه على التلقي، ولا تعجزه عوائق الطريق، وصعوبة المواصلة، وملالة الاستمرار.

b. وقد رأينا الكثير من طلاب العلم، بدؤوا مشوار التعلم، مقبلين عليه، مشتاقين له، ثم تفتر عزائمهم، ويضمحل صبرهم. وهذا يأتي لأسباب عديدة، يمكن ان يعالجها المتعلم في نفسه.

i. عدم ارتياحه لشخصية المعلم. وعلاجه التحول إلى معلم آخر، أو محاولة إيجاد الجوانب الإيجابية في معلمه الحالي

ii. عدم شغفه بموضوع العلم. وعلاجه الصبر، من حيث لا يدري فلعل ما لا يحتمله اليوم يشتاق لمعرفته بالغد القريب.

iii. تكاثر المشاغل عليه. وعلاجه سيأتي بيانه في النقطة رقم (١٤) إن شاء الله

iv. وساوس الشيطان، بتحسين ما عدا العلم من ملاهي، على صرف الوقت فيه. وعلاجه قراءة القرآن، والالتزام بمجموعته، والدعاء.

v. استصعاب الطريق: وهو غالبا أهم وأقوى العوائق في سبيل التعلم. وهنا يجب أن يستحضر المتعلم معاناة السلف في طلب العلم، وسعيهم الحثيث الدؤوب العجيب، على مواصلة السير، ففي قراءة تلك الأخبار عبر ودوافع، تحيي النفوس الضعيفة، وترد عليها شغفها وصبرها. كذلك استحضار أحاديث نبينا ﷺ في فضل العلم وطلبه والصبر عليه، وفيما جاء في منزلة العلم والعلماء في آيات الله سبحانه،

وأنه يسعى ليكون من ورثة الأنبياء، فما الصبر إلا ثمن زهيدٌ لهذا المطلب الشريف.

٢. **تمييز الضرورات عن الحاجيات، وترتيب الأولويات**

a. وهذا الأمر يتعلق بتربية العقل على التفرقة بين مراتب الأفعال، ومن ثم تقديم ما يجب تقديمه، وتأخير ما يمكن تأخيره.

b. والأوليات في حياة المسلم بعامة، مرتبطة بمقاصد الشرع في حياة الناس. فأولوية المسلم حفظ دينه بأداء ما عليه وترك ما يبعده عنه، ثم حفظ نفسه بالسعي للرزق والمطالب الأساسية للحياة، وترك ما يؤذي النفس في أي شكل من الأشكال، ثم حفظ العقل بمعرفة خالقه وبتنمية قدراته والانتهاء عمّا يُذهبه من خمور أو غيرها، ثم حفظ النسل والعرض (وهناك من فرّق بينهما)، وذلك بالزواج وحفظ البيضة والانتهاء عما يعارضهما للزوال كارتكاب الزنا وترك الزواج للقادر وإهمال العيال، ثم حفظ المال، وذلك بالعمل وتنمية الثروة بالحق والانتهاء عن الإسراف بلا تقتير.

c. ومن هذا نرى أن الشرع قد رتّب أولويات الحياة لتجلب للمسلم أعلى المصالح وتدفع عنه أسوأ المفاسد. ومن غير الخالق يعلم أفضل مما يعلم «ألا يعلم من خلق»

d. وهذه الأولويات تأتي على درجات متفاوتة، فمثلاً توفير الغذاء اللازم للحياة، مقدمٌ على توفير الحلوى والمشهيات، فالأخيرة من باب التحسينات. والجهاد في سبيل حفظ الدين مقدمٌ على جلسات العلم والذكر، في وقت الحرب، وهلم جرا. لذلك جاءت تلك المراتب الخمس مقسمة إلى ما ضروري، أي لا تقوم الحياة إلا به، وحاجي، أي تقوم بغيره الحياة بمشقة زائدة، وتحسيني وهو ما يُعتبر من الترفيهات التي لا تمس أصل الحياة ومشقتها. ثم جاءت الأحكام الشرعية في كلّ من تلك المراتب الثلاث بالأحكام التكليفية الخمسة، فمنها

واجب، ومندوب ومباح ومكروه وحرام.

e. فمثلا معلوم أن الحجاب أو النقاب من حاجيات حفظ العرض، لكن لو تعرضت المرأة لمرض يشق عليها مع عدم توفر الطبيبة الأنثى، رُخص في أن يراها طبيب ذكرٌ في حضور محْرَمِها، لأن ذلك من باب حاجة حفظ النفس، وهي أعلى من حفظ العرض.

f. كذلك يجب أن يكون معلوماً أن هناك أمور قد حرمها الشارع من حيث أنها وسيلة إلى المحرم بالضرورة، ففي المثال السابق مثلا، قد فرض الله الحجاب أو النقاب كوسيلة لمنع الزنا، وهو أعلى درجة في حفظ العرض، لأن المرأة لو خرجت سافرة، لن تموت! لذلك تجد هذا التحريم يرتفع مؤقتاً للحاجة، مثل تعرضها لمشقة كبيرة في المرض. والقاعدة هنا «ما حُرِّم وسيلة حّلّ للحاجة» وبالطبع، يعود إلى التحريم بعد زوال الحاجة.

g. ويقول قائل: قد ثبت في الحديث أن من مات دون ماله فهو شهيد، ومن مات دون عرضه فهو شهيد، أفيعني هذا أن حفظ المال والعرض مقدّم على حفظ النفس؟ قلنا: لا، لأن القتل هنا ليس مقصوداً، بل جاء عَرَضاً في إقامة حفظ العرض والمال، فكانت له منزلة خاصة ارتفعت بصاحبها إلى درجة الشهادة.

h. هذه هي منظومة الشريعة بوجه عام. من استوعبها عرف جلال هذه الشريعة، ودقتها وعظمة واضعها، إذ ترى فيها ما تراه في الكون المشهود من تناسق وتناغم يبهر العقول ويحيي القلوب.

i. وتفاصيل تلك الجمل موجودة في أصول الفقه لمن أراد المزيد. وسنذكر في ختام البحث الكتب التي نوصي بها في كلّ موضوع إن شاء الله.

j. وأنبه إلى أن ما أوردت إنما هو نقطة من بحر هذا العلم الشريف، لذلك لا يجب

على قارئ البحث هنا، تطبيق أيّ مما ذكرت، إلا أن يدرس العلم مكتملاً، ويُسمح له بالقول فيه أو به.

٣. عدم اليأس حين مرور ساعات العسرة - ساعات العسرة الشخصية والاجتماعية

a. تمر بالمرء ساعات عسرة شديدة، سواء في بيته، مع أفراد أسرته، بسبب شقاق أو مرض، أو خلاف مادي، أو تناحر، أو شدة مع ابن او بنت، من مرض أو طلاق أو دين، أو فقد وظيفة، أوغير ذلك من موجات المتاعب التي لا تكاد تنتهي في حياة الفرد الشخصية، وكذلك متاعب اجتماعية مثل خلافات مع البعض، وتراكم الدين، أو التشاحن مع قريب أو جار، أو مواجهة متاعب الدعوة من أذى واعتقال أو تضييق، وهلم جرا

b. وقد قال تعالى «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ»، فهذه المتاعب جزء من نسيج الحياة، لا تخلو من أحدها ساعة من حياة فرد، بغض النظر عن الغنى والفقر، فهما عاملان غير قاضيان على الانسان، أي لا يرجح أحدهما الحياة للأفضل أو الأسوأ.

c. واليأس في ساعات العسرة يدفع المرء إلى الشعور بالإحباط، وعدم الرغبة في الاستمرار في أي عمل قد يكون بصدده، بل ويدفعه في بعض الأحيان بعيداً عن أهله وولده وأحبابه، فيفضل الانعزال، وتسوء حاله، فلا يصلح معه في هذه الحالة تَعَلُّم، ولا يستوعب فيها علم.

d. ومعالجة هذه الحالة يحتاج من المرء القوة والصلابة، والتفكر في سبب خلقه وهدف وجوده. فإن الله سبحانه وضع سنة كونية إجتماعية «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» فأنشأ سبحانه السنة، ثم أكدها، كي لا يكون فيها شك ولا ريب. والإيمان بها، هو من جنس الإيمان بالله وسننه التي لا تروم. فإن كان هذا وعد الله الذي لا يخلف موعده، فليكن الصبر قليلاً، فاليسر قادمٌ، لا محالة.

e. كما أن الصبر في العسرة، يقوى عود المرء، ويعده لما هو آت في الحياة التي لا تخلو من عسرة وعثرات، لا تكاد تنتهي، فإن الله تعالى جعل في هذا سببا في الخلق «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ»، فهذا المشكلات الدائمة، هي من أسباب خلق الإنسان، ليتميّز من يُحسن الفعل ممن يسيئه، والبلاء قرين الحياة، لا تكون إلا به، ولا يكون إلا فيها، فليس في الآخرة للمؤمن بلاء.

f. كما يحسن بالمسلم أن يتذكّر أن العسر والبلاء هو طريق الأنبياء والصالحين من قومهم «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ»، وقال تعالى «أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ»، فالفتنة والعسرة والابتلاء، هي ما نحمل من عذر أمام الله سبحانه، أن قد صبرنا وشكرنا، وما كفرنا بالنعمة بل حمدنا.

g. وهذا ما وقع للأنبياء في حياتهم، وفي دعوتهم، ألم يجد نبينا ﷺ ما وجد من قسوة قومه، ومن شظف العيش ولأواء التنقل بين الناس بدعوته، ما لاقى؟ ألم يُصب أيوب المرض وفقد الأهل؟ ألم يُلقى يوسف في البئر صبيا صغيرا، وفي السجن شاباً يافعا؟ ألم يقذف بإبراهيم في النار؟ ألم يبتلع الحوت يونس؟ ألم يتعرض عيسى للقتل لولا قدر الله السابق؟ ألم يحتمل نوحٌ استهزاء قومه قرابة ألف عام، ثم رأى ابنه يموت أمام عينه؟ عليهم جميعا صلوات الله وسلامه. فما نحن ومتاعبنا ومشكلاتنا أمام تلك المتاعب التي لاقاها أنبياء الله جميعا؟

h. ثم ما حدث للصحابة الكرام، عمار وسمية، وبلال وحمزة، ومن قُتل في بدر وأحد؟ وسائر ما نقرأ من سيرهم العطرة التي نرى فيها حق العسرة وحق الصبر.

i. ثم تفكر فيما لاقى كبار العلماء والأئمة من متاعب في حياتهم الخاصة والعامة، ألم يجلد أحمد ويسجن في خلافة أربع خلفاء، ألم يلقى السرخسي في البئر سجينا؟

ألم يسجن ابن تيمية ظلما؟ ألم يواجه المودودي حكم الإعدام؟ ألم يُقتل الشهيد، نحسبه، سيد قطب؟

j. التفكر في أحوال هؤلاء، يجعل ما يأتينا من مشكلات ومتاعب، يهون ويصغر، ويعيننا على الاحتمال والصبر

k. كما أن وعد الله للصابرين، عامل قوة وتحمل لا يستغني المسلم عن اعتباره، قال تعالى «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ»، كمن فقد ولداً مثلا، فأي وعد أفضل من هذا يتقوى به المرء على ما يصيبه. بل هو دافع ليكون المرء عند حسن ظن الله به، فلا يتوقف عن الحياة، وينكمش على نفسه، إن أصابته عسرة، ولا يُعرض عن العلم والتعلم استسلاما لمحنة، فإنه لهذا الابتلاء خُلق.



الفصل السابع

٤ . فهم قوة العقل الجمعي لا الفردي والقدرة على العمل الجماعي

a. من اللازم لشباب التمكين أن يكون على وعي بأن هناك فرق بين ما يؤديه إليه عقله، بذاته، وما يؤديه تعاضد العقول، سواء على مستوى الجماعة أو المجتمع، وهو ما أسميته العقل الجمعي.

b. والعقل الجمعي هو مصدر الأعراف والتقاليد بعجرها وبجرها. ومن ثمّ فإنه لا يؤخذ بما يقرره إلا في الأحوال التي لا تخالف شرعاً، مثل أن يكون هناك جهة تسجل الزواج الشرعيّ بعدما انتشر الخداع وقلّ الضمير، وهو مأخوذ من الدليل الشرعي «المصلحة المرسلة»، وإن لم يكن عدم التسجيل مبطلاً للزواج إن تمّ.

c. لكنّ العقل الجمعيّ له قوته في بعض الأحيان، إذ هو ما يقوى لُحمة المجتمع ويشدّ أواصر الولاء بين أفراده، على أساس الدين، لا الأرض. ولذلك كلما قوي الحس الإسلاميّ بين أبناء الشعب، كلما كان العقل الجمعيّ أصوب وأقدر على تحقيق الأهداف العليا والمصالح العامة، من عقل الفرد.

d. كذلك، فإن العقل الجمعيّ على مستوى الجماعة أو المجموعة، هو من أفضل ما يمكن اللجوء إليه في تحديد معالم الطريق، والدراسة العلمية، والآراء الصائبة، فهو معنى الشورى ومُنشأها.

e. وهذا التوجه، أي الأخذ بالشورى واستثمار العقل الجمعي هو ما رأيناه مفقوداً في الحركات الإسلامية، التي، مع الأسف، تشبعت بنتائج العقل الجمعي الإجتماعيّ، الذي رضخ للديكتاتورية الفردية، فتابعوه على ذلك، وتكلموا بالشورى دون تحقيقها عملياً، وتغلب العقل الفرديّ على قراراتهم. كما كان

من نتيجة ذلك كثرة الأخطاء وتراكمها، وتكرارها دون عبرة.

f. ويجب التنويه إلى أنّ الديكتاتورية الفردية، قد لا تعنى القرار الفرديّ بالحرف، بل قد تكون في بعض الأحيان، في شكل مجلس قليل أفراده عظيم سلطانه، كما في المؤسسات العسكرية على سبيل المثال. وهذا لا يمثل أي درجة من درجات الشورى أواعتبار العقل الجمعي لمن هم في موضع يسمح بالمشاركة في صنع القرار. فالمجلس متفرد، من حيث صيغت عقلية أفراده في قالب موحد، نتيجة تلك الخاصية التي تقتل عقل الفرد وتمنعه من العمل أصلاً.

٥. العمل الجماعي لا يلغي التفرد الذاتيّ والاستقلالية

a. ومع ما قررنا في النقطة السابقة، فإنه يجب التأكيد على المحافظة على الشخصية الفردية واستقلالها في الفكر، طالما تمكنت من الآلة وتفهمت الواقع. فإن ما ذكرنا من عقل جمعيّ، لا يعني صب قالب واحد في مجلس ما، لجماعة أو حكومة مثلا، وادعاء أنه قرار تعدديّ جمعيّ! بل يجب أن تظهر الفروق الفردية وتتبين الشخصية الفردية، فإن وافقت وافقت، وإن خالفت، فعليها الدليل.

b. وهذه الاستقلالية، لا تنشأ إلا من خلفية علمية متميزة، وشخصية قوية راسخة، ومن هنا يأتي معنى فشل الديموقراطية، التي توهم الخلق بأن لهم حق متساو في إبداء الرأي، وتدعي بهذا، تمويها وتدليساً، أنها تحتفظ باستقلالية الفرد وحفظ حقه.

c. فالمراد بأن يكون هناك مجال يسمح للفرد أن يُبرز ما عنده من رأي، ويبيّن ويشارك في صنع القرار، هو لمن لديه القدرة على ذلك، لا لكل أفاك، أو مجنون أو عاهر، أو مجرم، أو جاهل.

d. ومن هنا تنبع فكرة «أهل الحلّ والعقد». ففيها تتحقق المحافظة على ميزات

العقل الجمعي والاستفادة من الشورى، كما أن فيها الفرصة متاحة للفرد ليكون مبدعا مجددا بشرط التقدم بالدليل، العلمي أو الشرعيّ، على ما يدعي.

e. والاستقلالية هي ضد التقليد الأعمى. فالفرد، وإن لم يجز على آلة القول في موضوع معين، إلا أنه يجب أن يُطالب من قال بالدليل، ديانة. وقد ربت الجماعات الإسلامية أتباعها، كما ربى الحكام شعوبهم، على قبول القرار بلا سؤال ولا استفسار. مع العلم بأن أي قرار صادر يجب أن يكون مصاحباً له حيثياته العلمية والشرعية والواقعية. ثم يكون الباب مفتوحاً للاعتراض العلمي دون خوف الاعتقال أو المحاكمة أو الفصل من الوظائف أو الكتائب، كما تفعل الحكومات الفاشية في بلادنا، وكما تفعل الجماعات الإسلامية مع المعارضين من أتباعها، سواء بسواء.

٦. نفي التعصب والتحزب وتحري الحق

a. ومن توابع الاستقلالية أن ينفي المرء عن نفسه التعصب لحزب أو جماعة أو حكومة، دون أن يعي ما تقول وأن يعرف دليلها المقبول.

b. ولنا في التعصب أقوال ننقلها ها هنا للفائدة:

c. فالتعصب شيمة من شيم الضعف، وخلّة من خلل الجهل يبتلى بها الإنسان فتعمي بصره وتغشى على عقله، فلا يرى حسنا إلا ما حَسُن في رأيه، ولا صوابا إلا ما ذهب إليه أو لمن تعصب له.

d. وقد نسبناه للضعف لأن النفس القوية لا تهاب ولا تحذر ولا تشفق إلا من الحق، والتشبت برأي أو اتجاه - واعتبار كل ما عداه باطل لايستحق أن ينظر فيه أو أن يستمع له - لا يكون إلا من هيبة الرأي المخالف، وحذرا من أن يظهر فيه بعض الحق مما ينقض مذهبها، وإشفاقا على النفس أن يبين خطأها فيما تعتقده.

e. ولذلك نرى أن التعصب غالبا ما يتدثر برداء القوة يظهر فيه، ويستبد بالاشتمال

عليه ليخفي من ورائه ضعفا متوازيا أمام الحق، وحذرا وإشفاقا من المخالفة والخطأ .

f. فالمتعصب قوي في ظاهره بما يبديه من تشبث برأيه ورفض قاطع لما يخالفه دون تمحيص ولا روية ، ولكنه - في حقيقة أمره - ضعيف بخوفه وهيبته وإشفاقه .

g. ونسبناه للجهل لأن العقل العالم المدقق لا يفتأ في البحث عن الحق والصواب ومراجعة نفسه، وترديد النظر في أقواله ومذاهبه، لعلمه بأن النقص هي ميزة البشر الأولى التي جُبل عليها، وأن الكمال لله تعالى وحده والعصمة لرسوله ﷺ ولذلك قيل: (لا يزال المرء عالما حتى إذا ظن أنه علم فقد جهل).

h. والتعصب فرع عن العصمة لا ينفك عنها، وادعاء العصمة فيه ما فيه من خطل في الرأي ومجانبة للحق، وعنه نشأت فرق كالرافضة، فخرجت عن خط الإسلام السوي المستقيم الذي يضع الإنسان - أي إنسان - في موضعه الصحيح من النقص والكمال ومن الخطأ والصواب.

i. فالضعف والجهل - إذن - هما جناحا التعصب: ضعف النفس وجهل العقل

j. والتعصب عند الإطلاق ظاهرة ذميمة لا تؤدي إلا إلى التفرق والتعادي وهو من خصال أهل الكتاب التي تكون في هذه الأمة. قال تعالى» فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ « فوصف اليهود بأنهم كانوا يعرفون الحق قبل ظهور النبي ﷺ فلما جاءهم من غير طائفة يهوونها لم ينقادوا له، وهذا يبتلى به أكثر المنتسبين إلى طائفة في العلم أو الدين أو إلى رئيس معظم عندهم ، فإنهم لا يقبلون من الدين - لافقها ولا رواية - إلا ماجاء به طائفتهم.

k. ويقابل التعصب الثبات على الحق والتمسك به، وقد يتقارب المعنيان فلا يتمايزا إلا في نظر المدقق الفاحص، وقد يخلط بينهما العامي

l. فنرى البعض يمدحون التعصب على أنه دلالة قوة إيمان ورسوخ عقيدة، بينما نرى البعض الآخر يذمون المتمسك بالحق الثابت عليه ويرمونه بالجمود والتعصب، والحق أن البون شاسع بين المعنين في المنشأ والطريق والثمرة .

m. فمنشأ التعصب ضعف في النفس وجهل في العقل، بينما التمسك بالحق ينشأ من القناعة بالرأي ووضوح الدليل.

n. وطريق المتعصب هو الصد عن معرفة دليل المخالف أو الإستماع إليه أو اعتباره في النظر بأي وجه من الإعتبار .

o. بينما طريق المتمسك بالحق المناقشة الحرة والإستماع إلى دليل المخالف برحابة صدر واتساع أفق، والرد المشفق الذي يرجو هدى المخالف ولا ينتظر سقطته.

p. وثمرة التعصب الإختلاف والفرقة والتباغض، وثمرة التمسك بالحق اجتماع المؤالفين عليه واتحادهم ومراجعة المخالفين لمنهاجهم، ثم نور في القلب يضيء لصاحبه الطريق ويهديه الصراط المستقيم .

q. أمّا أن لكل من التعصب والتمسك بالحق مجالا وحدودا .

r. ففي أصول الدين وقواعده الثابتة المتواترة وما صح عن رسول الله ﷺ، فلا مجال لتهاون أو تسامح، بل الإعتصام بالحق إلى أقصى حدوده هو المطلوب المحمود. أما فيما يسوغ فيه الخلاف من مسائل الفقه التي تحتمل تعدد أوجه النظر - فإن الثبات على الحق لا ينافي التسامح أو المؤالفة أو احترام اجتهاد الغير.

s. يعرف الشوكاني التعصب فيقول: (بأن تجعل ما يصدر عنه {الإمام المتبع} من الرأي ويروي له من الإجتهاد حجة عليك وعلى سائر العباد، فإنك إن فعلت ذلك كنت قد جعلته شارعا لا متشرعا، ومكلِفا لا مكلفا). وما قصده الشوكاني هو المتعصب لرأي إمام مجتهد أو عالم من علماء الشريعة.

t. فالمتعصب إما أن يتعصب لرأي إمام مجتهد أو عالم فقيه.

u. أو أن يتعصب لرأي من يحسبه كذلك، وهو ليس بذاك.

v. أو أن يتعصب لرأيه الشخصي ونظره الذاتي.

w. والثلاثة مآلها سوء، ولا تؤدي إلا إلى آفات التعصب البغيضة ، فالمسلم الذي ليس عنده قدرة على البحث والنظر في الأدلة الشرعية وليس مؤهلا لذلك فهذا إن سأل عالما تقيا وقلده أو اتبعه فيما أجاب به هذا العالم ، فلا بأس عليه ، ولكن إن خرج من ذلك إلى التعصب وتسفيه آراء الآخرين المستندة إلى الكتاب والسنة أو إلى مذهب لأحد الأئمة الأعلام ، فتلك هي الآفة التي يجب الحذر منها، فالعالم المُقلد ليس بمعصوم، بل إن أكابر الأئمة قد حذروا الناس من ذلك، وحثو أتباعهم على ألا يتعصبوا لأقوالهم، ولكن المُقلد قد يحيك في نفسه أن كلام إمامه خطأ ولكنه يتوقف في رد ذلك لإعتقاده أن إمامه أكمل منه علما وعقلا ودينا، وهذا مع علمه أن إمامه ليس بمعصوم

x. أبان شيخ الإسلام عن أهم حجة يتمسك بها المتعصب في مواجهة الحق وهي اعتقاده بكمال إمامه فيتخذ خطأه صوابا وينحرف عن الطريق السوي دون أن يدري، (فإن الحق يستحيل أن يكون وقفا على فئة معينة دون غيرها والمنصف من دقق في المدارك غاية التدقيق).

y. أما من تمسك برأيه الشخصي واجتهاده فهو بين أمرين:

z. إما أن يكون من أهل الإجتهاد والذين تحققت فيهم الشروط المعروفة عند العلماء، فهذا غير ملوم ولا مذموم بل الواجب عليه أن يتمسك برأيه وبما وصل إليه باجتهاده الذي هو الحق في ظنه. وهذا شريطة أن يسيرعلى نهج المتمسك بالحق لا المتعصب كما أسلفنا،

aa. وإما أن لا يكون ممن أهل للإجتهاد ولم يرفع بالعلم رأسا، بل غاية أمره أنه

اطلع على ورقات أو كتيبات من هنا وهناك ، واستمع إلى بعض الآراء من هذا العالم أو ذاك ، وأدار بعض المناقشات مع أترابه ونظرائه ممن فتنوا بالعلم فاعتقدوا أن تحصيله هين سهل لا يحتاج إلا القليل من الاطلاع والنظر في كتب الأقدمين ثم تكديس الكتب بالبيوت، وأنه بذلك تكتمل لهم القدرة على الفتوى، بل وعلى رد آراء الأئمة الأعلام، بدعوى الفرار من التقليد، فهؤلاء حالهم أسوأ ممن سبقهم من المقلدة، وترى التعصب فاشيا بينهم إلى أقصى مداه، فالمقلد للمجتهد، وإن تعصب له، فالاحتمال قائم في أن يصيب قوله الحق، فيكون ممدوحا على إصابة الحق بفعله مذموما لتعصبه .

bb. أما من تعصب لقول نفسه دون أن يكون ممن تحلى بالعلم بالمطلوب فهو أولا مذموم لتعصبه، ثم مذموم لعدم اتباعه من أمر باتباعه من أهل الذكر العالِمين فيما هو مفروض عليه، ثم إن إصابته للحق إحتمالها قليل، فهو مذموم كذلك لاتباعه ما لم يغلب على الظن، وما هو خطأ في غلبة الظن.

cc. وقد استدل بما صح عن رسول الله ﷺ أو الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، وقد نقل هذا القول عن مالك والشافعي وابي حنيفة وأكثر الفقهاء.

dd. والمقصود بقولة أن الحق واحد هو في المسائل الاجتهادية التي لا نص فيها. أما ما جاء من اختلاف التنوع مثل أنواع الاستفتاح أو التشهد أو غير ذلك في أحاديث صحيحة فالحق فيه هو كل هذه الوجوه على وجه مفهوم يجتمع عليه العلماء.

ee. وقد أطلنا في شرح التعصب من حيث هو آفة تصيب الفرد، والجماعة، فتعين على الفرقة والتشتت، كما رأينا في ساحة الشام.

الفصل الثامن

١. التخلص من الحسد والكفّ عن النظر لما في أيدي الآخرين

a. وهذه الخُلّة فيها تنقية لقلب المتعلم، بل المسلم عامة. فإن الحسد من أشد الآفات القاتلة للقلب، والمناوئة للقدر، والجالبة للتعاسة. وقد أمرنا الله سبحانه بالاستعاذة منه فقال سبحانه «وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ».

b. والحاسد ضعيف النفس في أصل جبلته، إذ لا يحسد إلا من لا يتمكن من الحصول على ما يريد، فإن اجتمع ما يريد بما يراه في أيدي الآخرين، وقع الحسد، إن كان من أهله. ومن ثم فإن النظر إلى ما في أيدي الآخرين طبعٌ ملازم للحسد، يُنبأ عن عدم الرضا والقناعة، مع ضعف عن محاولة التحصيل على ما مكّنه الله منه. وقد حذرنا الله سبحانه منه كذلك فقال عزّ من قائل «لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ».

c. وبديل ذلك هو الجِدّ في العمل، ومحبة الخير للآخرين، ومحاولة أخذ العبرة والقدوة مما فعلوا، لا تتمنى ما في أيديهم، وعدم اليأس من القدرة على تحصيل ما حصّلوا. فإن فعل المسلم ذلك، فقد نال رضا الله، وتقدم في أسباب الحياة.

٢. تمييز الامتحان والإبتلاء، من العقاب والجزاء

a. وهذه النقطة من الأهمية بمكان، إذ إن التمييز بين الابتلاء والجزاء، يحدد ما يكون عليه تصرّف المرء خلال، وبعد، الابتلاء أو الجزاء.

b. والمرء يرى المصائب والبلايا تحطّ عليه، مرة تلو المرة، وقد تتراكم فتلجؤه إلى اليأس الذي قد يصل به إلى درجة القنوط، وهو المنهيّ عنه في قوله تعالى « «ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون». وقد تحدثنا من قبل عن هذا الأمر في النقطة (٦).

c. والابتلاء يُعرف حين يكون صاحبه من أهل التقوى والإيمان، وإن أصاب

اللّمم ساعة وساعة، فهذا مما لا يفارق المرء ما دام حياً، ولذلك قال المعصوم ﷺ في حديث مسلم «ما أصاب المؤمن من هم ولا غم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله من خطاياه»، فوصف المُبتلى بوصف المؤمن. والصفة هنا تقع في محل الشرط.

d. أمّا الجزاء، فإنما يعرفه المرء صاحب الأفعال السيئة، الذي عرف عن نفسه التهاون والتكاسل والتميع في دين الله سبحانه. فإن الله يصيب الناس بعقاب في الدنيا، كما يصيبهم في الآخرة. قال تعالى «وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ». كما قال تعالى «أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ».

e. فلا يغترّن أحدٌ ممن يقترف الآثام، فيحسب أن له في بلائه ثواب، بل قد يكون عقاباً من الله سبحانه، إن شاء. كما يجب أن يستبشر من يصيبه من مصائب الدنيا وبلائها ما يحمد الله عليه، لما له فيها من ثواب، كفقد الولد أو المال أو الصحة، فإنها، إن رافقها الصبر والشكر، كانت من أكبر مكفرات الذنوب إن شاء الله.

٣. البراءة من حب الرياسة والتسلط والتعالم - مع التطلع لخدمة المجموع

a. وهذا هو الداء العضال، ومنهج الانحراف والضلال، الذي يصيب النفس فيجعلها تدّعي ما ليس لها أن تدّعي من السيطرة على مصائر الخلق بالتسلط عليهم، وقهرهم، حباً في أن يكون صاحبها رأساً، دون حق.

b. والتسلط وحب الرئاسة مرضٌ نفسيّ، يظلّ كامنا ما كان صاحبه قليل القَدْر غير متمكن من الغير، ثم يظهر في تصرفات من يعاني منه حين تتاح له الفرصة، ويتخذ مكانا يمكّنه من أن يُذل العباد، ويتسوّد عليهم، وكأنه رب من الأرباب أو إله من دون الله، وفي ذلك من المعصية الكبيرة ما فيه.

c. ومن صور التعاظم دون حق، التعالم دون علم. فإن «المتشبع بما لم يُعط كلابس ثوبي زور» كما صحّ عن المعصوم ﷺ. وآفة المتشبع هذا أنه مدع، مدلس، كاذب، مضلل... كلها بسبب من هذا الداء. ولهذا حذر المعصوم ﷺ من الرويبضات التي تظهر في آخر الزمان، وفي أوان ضعف الأمة، حين يقلّ العلم ويكثر الجهل، فيتفشى التعالم، وتروج تجارة ألبسة الزور.

d. وعلاج هذا هو «حسن معرفة المرء بنفسه والوقوف عند حدّه». وملاك ذلك التحقق من أن الله هو صاحب الملك وحده، لا مالك غيره، فيكف عن التسلط والترأس الفارغ، ويدع التشبه بفرعون الذي وصل به التسلط وحب الرئاسة والزهو بالنفس إلى أن «**فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ**».

e. ونحن نعيش فترة من أحلك فترات أمتنا المسلمة، يتعرض فيها الإسلام ذاته للهجوم والتبديل والتغيير، على أيدي فراعنة زمننا، الذين لم تخل منهم بلد عربي واحد، بلا استثناء. فهم يتسلطون على العباد، فيكثروا فيها الفساد، ويفسدوا الحرث ويقتلوا النفس والنسل، عشقا في السلطة وتمسكا بالرئاسة. بل إن هذا الداء وصل إلى بعض متزعمي حركات إسلامية وفصائل جهادية، مما تسبب في أفول نجمها وتضاءل شأنها.

f. أما التعالم، فعلاجه هو نفس علاج التسلط وحب الرئاسة، فإن مصدرهما واحد، وهو الفشل في معرفة قدر المرء لنفسه، علماً وحجماً. فعلى المسلم أن يتّبع طريق المتعلم، يبدؤه خطوة خطوة، من أول السلم، لا يقفز فيه خطوات، فالعلم لا يصلح معه تجاوزٌ في الدرجات، وتلاعب في المدارج. العلم كبناء لا يقوم إلا على قواعد متكاملة، كلّ منها يقوم على صحة البناء وقوامته بما يحمل.

g. ولابد من الإشارة هنا إلى خطر هذه الأدواء على الأمة، وعلى الفرد. فهي تقضي على الفرد الجبار المتسلط، وتلقيه في جهنم آثماً أو كافراً. وتقضي على المتعالم

الرويبضة فتجعله أولاً سببا في إضلال الناس، وثانيا سخرية لغيره ممن يعرف قدره الحق، ويكيله بمكيال الصدق.

٤. الإحساس بآلام الأمة

a. وفي هذا البند تتجلى معاني التماسك بين أبناء الأمة الواحدة، ومعاني الولاء والبراء الذي هو ركن، أو شرط، من أركان التوحيد. فالإحساس بآلام المسلم المقهور في مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب والخليج وسوريا والأردن والعراق والجزيرة واليمن، والصومال ومالي ووسط أفريقيا والصين وتركستان والشيشان، وكل بقعة يعيش عليها مسلم، هو مصدر قوة وشعلة نور لكل مسلم، إذ المسلمون كما قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال المعصوم ﷺ «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» متفق عليه، وعن النُّعْمَانِ بنِ بشِيرٍ رضي اللهَّ عنهما قال، قال النبي ﷺ «مثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ وتَعاطُفِهِمْ، مَثَلُ الجَسَدِ».

b. فهذا التواد والتراص والتراحم هو نسيج المجتمع المسلم القوي. ويظهر هذا في ساعات البلاء والعسرة كأقوى ما يكون، فتجد الجار يعين جاره، والجماعة تعين أفرادها، والمجتمع يسنّ القوانين التي شرعها الله لحماية المواطن ورفع البلاء عن المنكوبين. وما فرضُ الزكاة، والحث على الصدقات إلا مظهراً من هذا التراص والتراحم. فالمسلم حين يُزكي، وحين يتصدق، يستحضر ما سيفعله ماله أو طعامه من رفع معاناة أخيه المسلم المُستحق للزكاة.

c. التواد والتراحم والتراص يكون في أوقات الغزو والصيال من العدو الكافر. فالجيوش المسلمة، التي هي الآن مؤسسة على عقيدة قتال أبناء شعبها لحساب أي قابض على السلطة، يُفترض أنها تكون في خدمة الشعوب المسلمة في أي مكان على الأرض، إن تعرض المسلمون لبغي أو عدوان. وهذا ليس من قبيل التمني الواهم، بل كان حقيقة واقعة عاشها المسلمون يوم كانت لهم خلافة

راشدة، وبعدها من عصور الخلافة. وكيف ننسى عصر الرشيد والمأمون والمعتصم، وصلاح الدين ومحمد الفاتح وغيرهم من الخلفاء والسلاطين المسلمين في كافة عواصم الإسلام، من الراشدين إلى العثمانيين، يوم عِزّهم وقوتهم. فلمّا خاروا ووهنوا، تقطعتهم الدول، واجتالتهم شياطين الإنس، وتكالبت عليهم الأمم، قويها وخسيسها، حتى يهود، فعاثوا في الديار، وقتلوا الناس والولدان، دون مدافع عنهم، إلا بفمٍ لا بيد، كما هو حال أردوغان ومهاتير! اللذان لا يحركان شرطيا لحماية مسلم، إلا أن يكون تهديداً لبلادهم خاصة، وبشكلٍ مباشر. ولا يُغني الكلام عن العمل، وصدق الشاعر «وما يُغني البكاء ولا العويلُ»

d. الرعاية والتلاحم بين المسلمين، قد يكون محبباً ومندوبا اليه على وجه الخصوص والإفراد، لكنه واجب تكليفي لازم على مستوى المجتمعات والدول. وأمة الإسلام أمة واحدة، قرآنها واحد، ورسولها ﷺ واحد، وقبلتها مكة واحدة «هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» الأنبياء ٩٢، وقال تعالى «وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ» المؤمنون ٥٢. لكن، واحسرتاه، فقد أهمل الناس وصية ربهم، فأعقب آية الأنبياء بقوله تعالى «وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ» وأعقب آية المؤمنون بقوله تعالى «فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ». لم يعمل الناس بوصية ربهم، التي وصاهم بها، فيما بينهم، كأمم مختلفة، وكأمة الإسلام بعضها بين بعض، كما في حديث الترمذي عن النبي ﷺ «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي. وفي بعض الروايات: هي الجماعة. رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم. والحديث واضح في معناه، جليّ في مآلاته،

التي نراها بيننا اليوم، متقطعون، كلّ حزب بما لديهم فرحون، منقسمون إلى فرقٍ وشُعَب، لا يكاد يحصي فروعها إلا الله، فصح فينا حديث ثوبان عن المعصوم ﷺ قال «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ قال بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن فقال قائل يا رسول الله وما الوهن قال حب الدنيا وكراهية الموت». ولولا أنه لم يكن من دلائل النبوة إلا هذا الحديث لثبتت لنبينا ﷺ، لما ظهر من صدقها عياناً بياناً.

فالوجب على مسلم التمكين، أن يعي هذه المعاني، فيجتنب الشقاق والتفرق، بالابتعاد عن أسبابهما، والتآخي والتحاب والتراحم والتراص مع إخوانه، في كلّ بقعة من بقع الأرض، على خلفية الإسلام، لا على قومية ولا وطنية ولا حزبية ولا طائفية، بل هو منهاج النبوة ونهج الصحابة، وطريق أهل السنة والجماعة.



الفصل التاسع

١. حسن التوفيق بين العمل العلمي والدعوي والحركي والشخصي

a. حياة الإنسان، بعامة، تنقسم إلى عدة جوانب يصرف فيها وقته، ليؤديها على وجهها، مراعياً كل جانب من جوانبها، يصرف فيها وقته المطلوب له، وهذه الجوانب، عامة، دون حاجات النوم والأفعال الطبيعية وساعات التنقل، تشمل العمل، الشأن العائلي، اللقاءات والأعمال الترفيهية، تتراوح في نسبها حسب شخصية كلّ امرئ وجديته أو كسله. وهذه الأعمال الثلاثة التي يقصد لفعلها المرء هي العمود الفقري الذي تجرى عليه حياة الغالب الأعم من الناس، يستوي فيه مسلمهم وكافرهم. والهدف من تلك الأعمال هو توفير الحياة المادية له ولأهله، ثم تربية أبنائه والقيام على تعليمهم، ثم قضاء وقت ممتع يصرف فيه طاقته الباقية، استمتاعا بنزهة أو سفرٍ أو ما شابه.

b. والمسلم عامة، والشاب المسلم، شاب التمكين والاستعلاء خاصة، له في الحياة غرض آخر. غرض لا يتعلق بهذه الحياة ابتداءً، بل هو يراها، ويرى تلك الأعمال الثلاثة كلّها خادمة له، وهو الوصول إلى رضاء الله سبحانه، والجنة.

c. ورضاء الله سبحانه والجنة، لهما طريق معروف واضح مميّز، تركه لنا المعصوم ﷺ، بلا شبهة ولا غموض، بل تركنا على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك. ومدارها حول القيام بالواجبات الشرعية التكليفية، من صلاة وصيام وحق، وبعض الذكر والتلاوة، هذا بالنسبة لعوام المسلمين، بل أفاضل عوامهم في زمننا هذا.

d. وشباب التمكين لهم عمل آخر هم مكلّفون به كلّ حسب استطاعته، وهو العمل الإسلامي الجماعي، بجوانبه المختلفة، مثل العمل الاجتماعي كرعاية المحتاج والجمعة في المساجد، وحضور المؤتمرات وسماع المحاضرات العامة.

وقد جعل الله سبحانه العمل الجماعي جزءاً من التكليف اليوميّ، فسنّ صلاة الجماعة، وصلاة الجمعة للإجتماع فيها، وفرض الحجّ، وصلاة العيدين.

e. ثم العمل الدعويّ، وهو أخص من العمل الإسلامي الإجتماعيّ، إذ يهدف إلى نشر الوعي بدين الله وفروضه ونواهيه بين المسلمين، وبنشر الإسلام بين غير المسلمين. وهذا اللون من العمل يلزم له التعلم، بل والوصول فيه إلى درجة يصلح معها أن يكون المسلم مؤتمناً على أداء دوره الدعوي. وهو مما ذكرنا من قبل في النقاط (٢و٣و٤).

f. ونريد أن ننبه إلى أن الإعداد لهذا العمل، أمر لازم حتم، فلا يصح التهجم على العمل الدعوى دون تحصيل العلم اللازم له. وقد رأينا خطر ذلك ونتيجته العكسية فيما كان من مذهب الإخوان. فقد قام المنهج الإخواني على دفع الشباب «للحركة» بين الناس دون أي خلفية علمية، على أي مستوى، أيّا كان. لذلك تجد شبابهم، وشيوخهم الذين كانوا شبابهم يوما، على أحط درجات العلم الشرعي، وأمامك أمثال عبد المنعم أبو الفتوح وسعد الكتاتني، وعصام العريان الصوفي، الذي جلّ بضاعته في تدريس كتاب حكم أبي العطاء السكندري!

g. والعمل الحركي يختلف في مصطلحنا عن العمل الدعويّ. وشرح هذه الجملة في أنّ العمل لهذا الدين، ينقسم إلى أربعة أقسام

i. الإعانة والعمل الإجتماعي

ii. العمل الدعويّ، وهو تعليم الشريعة وإعداد الدعاة، على حسب مستوياتهم وقدراتهم، فمنهم الخطيب، ومنهم الكاتب، ومنهم المُعلّم.

iii. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو عمل الحسبة، ويحتاج إلى معرفة شرعية بالمعروف (الواجب والمندوب) والمنكر (الحرام والمكروه) خاصة في التصرفات العامة المتعلقة بنفع المجتمع أو ضرره.

iv. العمل الحركيّ، ويعني الانتظام في هيكل ما بغرض تحقيق هدف معين، ينتهي هذا الانتماء بتحقيقه. وهذا منشأ الجماعات، في كافة صورها.

h. ومن الجدير بالذكر أن مفهوم «الجماعة» قد أخذ منحنيات ومنعطفات كثيرة، خاصة في النصف الأخير من القرن الماضي، وما انصرم من هذا القرن. كما تشاكل الناس على ارتباطه بمفهوم «البيعة»، حيث تعددت الآراء، ووصلت إلى أن الخروج عن جماعة انتمى اليها كفر! وهذا في الفكر الحروريّ.

i. ولابد هنا أن نبيّن أن البيعة الأولى والثابتة التي لا تُنقض هي بيعة الإسلام، وهذه يكفر الخارج عنها، والثانية هي البيعة على السمع والطاعة في المنشط والمكره، كما ورد في حديث عبادة ابن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَايَعْنَا رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم عَلَى السّمْعِ وَالطّاعَةِ، فِي العُسْرِ وَاليُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالحَقّ أَيْنَمَا كُنّا، لاَ نَخَافُ فِي الله لَوْمَةَ لاَئِمٍ». متفق عليه.وهذه البيعة هي التي لا يأخذها إلا خليفة المسلمين أو إمام المسلمين المتمكن، والخارج عليها مفارق للجماعة، فإن قاتل الإمام المسلم المتمكن، قوتل وقتل. وغيرها من البيعات هي بيعات صغرى، على أداء مهمات معينة محددة، تزول بقضائها، أو برغبة المُبايع في تركها طواعية. ولا إجبار في أي من تلك البيعات الصغرى. وهي كلها على غرار بيعة المسافر، الغرض منها تنظيم العلاقة بين الأفراد، وتوجيههم وتأمين المطالب اللازمة لقضاء الحاجة المُبايع عليها.

j. والانتظام في أي من الأعمال الأربعة السابقة الذكر، مستحبة للمسلم، فهي من أعظم القربات إلى الله، فيُندب له الانخراط في أحدها أو أكثر، حسب إمكاناته. وصرف الوقت فيها، بما لا يطغي على حق أهله وولده، بحسب حاجة الوقت، أفضل من صرفه في أي من اللهو والترفيه، إلا ما قلّ.

٢. تحديد مناحي القوة والضعف في حياتك وشخصيتك وقدراتك، لتتعامل مع الواقع بشكل لا يؤدي لضرر لك أو لمن حولك.

a. نرى في كل ما سبق أن كثير من الأمور المتعلقة بالتعلم والانتظام في أعمال دعوية وغير ذلك، يتوقف على قدرات المرء الشخصية التي أعطاها الله سبحانه إياها. فالقدرة هي شرط العمل، فإن انعدمت انعدم المشروط، بل بطل العمل، من حيث لم يتوفر فيه شرط الصحة.

b. والمسلم قادر بنفسه وبغيره أن يعرف مواطن ضعفه، ومناحي قوته. منها،

i. أن ينظر في خُلل من يصاحب، فالمرء مرآة أخيه،

ii. ومنها أن يستمع لأقرانه وخلانه فيما ينصحونه به، فهم يرونه أفضل مما يرى نفسه، إذ الشيطان يزين للمرء عمله فيراه حسنا،

iii. ومنها، بل وأهمها أن يعرض أعماله على الشرع بشكل دائم، فما وافق أقام عليه، وما خالف انتهى عنه.

c. ومن المعلوم أن من الطبائع والقدرات ما هو مجبول لا حيلة للمرء فيه، وقد يكون مجبولاً على الشجاعة والكرم والإقدام والصدق، أو قد يكون مجبولاً على الجُبن والبخل والتردد والكذب، خوفا ورياء، أو يكون فيه خليط من هذا وذاك. لكن التجربة البشرية المتراكمة، تشهد أن جُبل على صفات الخير، حاز أكثرها، ومن جبل على صفات شر حاز أكثرها، فالصفات عادة يأخذ بعضها ببعض، وترسم الشخصية الإنسانية دون مجاملة.

d. والحلّ فيمن وجد في نفسه ما لا يرضاه لها وما يستاء منه الناس، فعليه أن يأخذ نفسه بالتهذيب، ويضغط عليها في نقاط ضعفها، ويتحين الفرص التي تحتاج إلى صفة معينة فيلقي بنفسه فيها، ليذوق حلاوة الخير، وطعم المعروف، فيتبدل إن شاء الله له أن يتبدل.

e. لكن من واجب المرء أن لا يضع نفسه في مواضع، يعلم من نفسه عدم القدرة عليها، اكتساباً أو طبعاً، حتى لا يؤذي نفسه أو من حوله. بل يصبر على نفسه ويتحين الفرص التي لا يكون فيها أذى لاحق أو ضرر تابع، ليعمل على اكتساب ما التوى انتقص من جبلته.



الفصل العاشر

١. الولاء دائما لمن تبع دينك

a. ورد في القرآن العديد من الآيات التي تظهر أنّ الولاء للإسلام والمسلمين، ولاء أكبر من حدّ التوحيد، وأن البراء من المشركين في حده الأعلى، هو من التوحيد الذي يفصل بين الإسلام والكفر.

b. قال تعالى «لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَ ٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ» آل عمران ٢٨

c. «وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ» النساء ٩٢

d. «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا» النساء ١٤٤

e. «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ» المائدة ٥١

f. «وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ» المائدة ٨١

g. «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَ ٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَ ٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَ ٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ» الممتحنة ٤

h. «لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَ ٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ» المجادلة٢٢

i. وغير ذلك عشرات من الآيات التي تجعل الولاء المطلق للكفار كفراً أكبر ينقل عن الملّة. وهذه الصورة هي التي تظهر في ولاء المناصرة والمظاهرة، خاصة في

القتال، بين مسلم إسلاما ظاهراً وبين كافر، ضد مسلم آخر، عداءً للإسلام، وكرهاً للدين ولأهله.

j. فإن قيل: لكنّ عداء الإسلام وكره الدين وأهله، هو في ذاته كفرٌ، فلا يحتاج إلى فعل آخر كالولاء لتكفير المسلم، ويكون من عادى الإسلام وكره الدين وأهله كافراً بذلك ابتداءً، فما لزوم وضع القيد وصورة الولاء؟

k. قلنا، لأن عداء الإسلام وكره الدين وأهله، أمرٌ باطن لا يمكن الاستدلال عليه يقينا إلا بفعل، هذا مذهب أهل السنة والجماعة. ففعل الولاء في صورته الكبرى، دون أيّ قرينة محتفية بهذا الفعل تدرأ تأويله بالكفر الأكبر، هو كفرٌ أكبر لا شك فيه.

l. والولاء، كما ذكرنا، أمر له وجهان، وجه ظاهر، وهو عمل يمكن أن نشهد به على الفاعل، وهو الأضعف في حالة الولاء، ووجهُ باطن وهو انعكاس هذا الفعل على إيمان الفاعل وهو الأقوى والأهم. لهذا وجدنا حادثة حاطب تبين لنا الحدود التي يمكن أن يكفر بها فاعل الولاء، ومناطه المكفر.

m. المفيد هنا إيراد قصة حاطب ابن أبي بلتعة:

قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه

فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبَا مَرْثَدٍ الْغَنَوِيَّ، وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ، وَكُلُّنَا فَارِسٌ قَالَ: انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنْ الْمُشْرِكِينَ مَعَهَا كِتَابٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَأَدْرَكْنَاهَا تَسِيرُ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا حَيْثُ قَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْنَا: الْكِتَابُ. فَقَالَتْ: مَا مَعَنَا كِتَابٌ فَأَنَخْنَاهَا فَالْتَمَسْنَا فَلَمْ نَرَ كِتَابًا فَقُلْنَا: مَا كَذَبَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُجَرِّدَنَّكِ فَلَمَّا رَأَتْ الْجِدَّ أَهْوَتْ إِلَى حُجْزَتِهَا وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ فَأَخْرَجَتْهُ فَانْطَلَقْنَا بِهَا إِلَى رَسُولِ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ عُمَرُ: «يَا رَسُولَ اللهَّ قَدْ خَانَ اللهَّ وَرَسُولَهُ

وَالْمُؤْمِنِينَ « « دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ « « فَإِنَّهُ قَدْ كَفَرَ « فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْت؟. قَالَ حَاطِبٌ : « وَاللَّهِ مَا بِي أَنْ لا أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « « وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي وَلا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلام» «وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ كُفْرًا» «وَمَا غَيَّرْتُ وَلا بَدَّلْتُ « «مَا كَانَ بِي مِنْ كُفْرٍ وَلا ارْتِدَادٍ « « أَمَا إِنِّي لَمْ أَفْعَلْهُ غِشًّا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلا نِفَاقًا قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ مُظْهِرٌ رَسُولَهُ وَمُتِمٌّ لَهُ أَمْرَهُ « « فقلت أكتب كتاباً لا يضر الله ولا رسوله « أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ لِي عِنْدَ الْقَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ إِلاَّ لَهُ هُنَاكَ مِنْ عَشِيرَتِهِ مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِه. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَ وَلا تَقُولُوا لَهُ إِلاَّ خَيْرًا. فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَدَعْنِي فَلأَضْرِبَ عُنُقَهُ. فَقَالَ: أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَال: لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ، أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ وَقَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

يظهر من هذا الحديث ما يلي:

- أنّ التكييف الشرعيّ الأصلي لفعل حاطب رضى الله عنه، هو الكفر، وهو ما شهد به حاطبٌ نفسه حين أقرّ أن ظاهر الفعل كفر، ذلك في قوله «وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ كُفْرًا».
- أنّ الدلالة التي دلت على أن هذا الولاء كفر هي مكاتبة العدو وكشف اسرار المسلمين، وفيها معنى المناصرة.
- أنّ وجود قرينة أو قرائن قوية احتفت بالفعل، تغيّر من تكييفه[١]، وهو باب هامٌ من أبواب أصول النظر والاستدلال، يجب على الناظر التبحر فيه قبل التجرؤ على الفتوى.
- أنّ شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم له، وهو الموحى اليه، وأنه شهد بدرا، هي قرينة أخرى اعتبرت في الحكم.

p. مطلق الولاء، أو الولاء الأصغر

[١] راجع الطرق الحكمية في السياسة الشرعية» لابن القيم ص١١، وص٦١ وبعدها

وهو ولاء المعصية، فإنّ ذلك الولاء لا يكون في المناصرة التي هي من قبيل الخيانة للإسلام عامة، بل تكون في بعض صور تفضيل المخالف في العقيدة على المسلم، مع تساويهما في الإمكانات، أو المصادقة والمخاللة كما نرى في كثير من الحالات ما يقوم بين عائلاتٍ مسلمة ونصرانية، ويعلن المسلم أنه يحب هذا أو المسلمة أنها تودّ هذه.

كذلك، وهي الصور الأهم، ما قد يشتبه بالولاء المكفر، من تعاون مسلم ومشرك في حرب على عدوٍ مشتركٍ كافر، متفق على كفره، أو على مسلمٍ باغٍ متفق على بغيه. ولذلك صور شتى.

فلا شكّ أنّ التعاون بين طائفة مسلمة وأخرى مرتدة، لقتال طائفة مسلمة أخرى، عملٌ باطلٌ وحرامٌ شرعاً، ومن الحرام ما هو كفرٌ ومنه ما هو دون ذلك. وهو صورة من صور الولاء، لكن يجب تحديد إن كان من الولاء المطلق المكفّر أو من مطلق الولاء، حسب صورته ومناطه. والنظر في هذا ينقسم إلى نقاط عدة:

* **هل ثبتت ردّة تلك الجماعة، التي قيل إن المسلمين تعاونوا معها، بيقين أم لا؟**

وهذا أمرٌ جللٌ يجب ألا يتصدى له إلا العلماء بحق، إذ يترتب عليه استباحة أموال وأعراض وأموال، لا يجب استحلالها إلا بالحق. وتحديد اسلام طائفة من عدمه، يتوقف على أمرين، عقيدتها المعلنة، وتصرفاتها على الأرض.

١) فإن كانت عقيدتها المُعلنة هي الرضا بتحكيم الشرع، ورفض الكفريات الظاهرة والبدع المكفرة كلها، فهي مسلمة، سواء كانت باغية أو غير باغية، مرتكبة لمحرمات أم لا.

٢) ومفهوم المخالفة هنا لا يعمل، بمعنى أنه لو قالت: نرضى بحكم الإسلام ونسعى له بطريق ديموقراطيّ، فهنا تقع الشبهة التي يجب التحري عنها، وعن مقصودها، فإن كان ذلك منها إيماناً بمبادئ الديموقراطية التي هي رفض حكم الله للشعب، وقبول حكم الشعب للشعب، فهذه ردة بيقين. وإن كانت ممن يقول هي وسيلة

إلى حكم الله الذي هو الغاية، لا غيره، فهي طائفة بدعية كالإخوان، ثمّ يبين لها أن حكم الوسائل هو حكم المقاصد، وأن من اخترع الديموقراطية قصد بها حكم الشعب للشعب، فتحريف المُصطلح عن أصله فيه تشابه وتشويش وتعمية. ثم يّنظر في تصرفاتها التفصيلية، إذ وقوعها في شركيات تشريعية غالبٌ في معظم الأحيان، ويعامل كلّ تصرف بقدره.

٣) وإن شاب عقيدتها المُعلنة شرك واضح جليّ كأن ذكرت أنها لا تتحاكم إلى الشرع، بل إلى القوانين الوضعية وتتبنى العلمانية، فهذا نقض لعقيدة الإسلام، وردة صريحة **بيقين**.

❊ **وهل حكم الردة لجماعة ينسحب على كافة أفرادها أم لا؟**

ثم يأتي هنا وقوع الحكم على المعيّن، فكما ذكرنا، المعيّن لا ينسحب عليه حكم الجماعة تلقائياً، إلا عند بعض الغلاة. لكن يجب استصحاب أصل الاسلام عليه، إلا إن كان كافراً أصلياً، ثم تقام عليه الحجة الرسالية، ويبيّن له الأمر بتفصيله، فإن استمر على عقيدة الكفر، كفر بذلك، وإن لم يفهم الحجة، فإن إقامة الحجة هي الواجب لا إفهامها، وإلا لم يكفر أحد على وجه البسيطة. وإن ظلّ على فهم البدعة ظلّ مبتدعاً، ويعامل على هذا الأساس.

❊ ثم هل يعتبر هذا التعاون بين المسلمين ولاءً مكفراً، أم له صور متعددة؟ وهي قضية **التعاون**، فنقول:

- القتال بين طوائف المسلمين حرامٌ ابتداءً ويجب وقفه وعدم تبريره وتمريره.
- إن تعاونت طائفة مسلمة مع طائفة كافرة كفرا أصليا أو مرتدة **بيقين**، فهذا حرام شرعاً، بل يكون ولاءً في بعض صوره:

– فإن كان لقتال إخوة في العقيدة، سواءً طائفة سنية أو فيها بدعة غير مكفرة عند المجتهد، فهي قسمين:

- فإن كان لدحر بغي رأوه واقع عليهم حالا لا مآلا، لا يمكنهم رده وحدهم، فهذا

مرفوع عنه الجناح شرعاً

- وإن كان نصرة للمرتدين على المسلمين لهزيمة الدين وعداء للإسلام وأهله فهذا ولاءٌ مكفّر.

- وإن كان لقتال عدو كافر مشترك، ففيه صور متعددة، إذ:

❋ يجب أن يكون للمسلمين الغلبة في القوة داخل ساحة القتال

❋ وألا يعلو الكفار على المسلمين في القيادة، بل تظل القيادة في يد المسلمين، حتى لا يوجه الكفار مسار القتال ويحرفوه ضد المسلمين والاسلام،

❋ وأن لا يتمكنوا من إقامة قواعد تظل شوكة في حلق المسلمين، تهددهم.

فهذه كلها صور ولاء، إذ إن الكفار أو المرتدين غرضهم من قتال الكفار ليس محَضاً، وليس لنصرة الإسلام، بل فيه بغضٌ للإسلام وتربُص به وبأهله. وقد رأينا كيف أنّ الله قد أعلن فرح المؤمنين بنصر الله الذي هو نصر الروم على الفرس، لأنهم، وإن كانوا كفاراً، إلا إنهم أقرب للمسلمين من عبّاد النار. فالحكم هنا من ذلك النوع، يرجع إلى أصل القصد في القتال بدلالة ظاهرة لا باطنة من ناحية، وإلى السياسة الشرعية من ناحية أخرى.

n. ونرى من هذا البحث المختصر عن قضية الولاء، جوانبه العملية، إذ الولاء والبراء أمران عمليان، لذلك اعتبر بعض العلماء أن قضية الولاء والبراء شرط في صحة التوحيد من خارج، لا ركن من الداخل، وهو خلاف لا يترتب عليه شيء في الواقع.

٢٠. العمل الدؤوب على الاستقلال في الدخل وعدم الاعتماد على دخل من الدعوة إلى الله.

a. وهو أمر آخر يجب أن يعتمده الجادّ في سعيه للعلم وللدعوة، وهو ألا يعيش عالة على تلك الدعوة. فنحن نرى الكثير، بل الغالب اليوم، ممن يعملون في حقل الدعوة هم إما كسالى لا يريدون أن يعملوا عملاً فيه مشقة والتزام جديّ،

بل يفضلون العمل من «الإخوة» في «الدعوة»، أو فاشلون في حياتهم الدراسية والعملية، فعمل الدعوة بالنسبة لهم مورد للرزق، لا أكثر!

b. ويؤدي هذا الخلل إلى مصائب عدة، منها انكسار الذات أمام نفسها، وعدم استقلال الذات فلا تعد لها الهيبة ولا الاحترام ولا الصفات التي ذكرنا من قبل في الداعية المُجدّ. ومنها، عدم استقلال القرار، فمن دفع الراتب وجبت طاعته، فيصبح الداعية مسيّراً في رأيه وتصرفاته، حسب الجهة الداعمة له، يأتمر بأمرها، لا بما يراه حقاً! وهذا أسوأ مصيراً من الموت جوعاً، إذ تنعدم في هذه الحالة الصفة الإنسانية التي ترفع الإنسان عن رتبة الحيوان، وهي صفة الإرادة الحرة التي لا تخضع لبشرٍ إلا لله تعالى.

وبهذا نكون قد انتهينا من الشق الأول من بحثنا، في سرد متطلبات بناء الشخصية المسلمة القابلة لتكون عنصراً من عناصر جيل التمكين. وننتقل إلى الشق الثاني وهو المتعلق بالتزام بعدد من القواعد الشرعية الأصولية والعقلية التي يتعرض لها المسلم بشكل دائم، للتمييز بين الحق والباطل، والمبينة، قدر الإمكان.



الفصل الحادي عشر

بناء العقلية المسلمة

بعد أن انتهينا بحمد الله تعالى من الحديث عما رأيناه لازماً في بناء الشخصية المسلمة السنية القوية، التي يمكنها المساهمة في عملية التمكين، ننتقل إلى نقطة هامة، وهي التي تساهم في بناء العقلية المسلمة السنية، التي ينبني نظرها على عدد من القواعد الشرعية الأصولية والعقلية، والتي تتحكم في توجيه التصرفات فيما يتعرض له المسلم بشكل دائم، للتمييز بين الحق والباطل، والصحيح والفاسد.

وهذا التمييز هو مفتاح النجاح في تلك العملية الانتقالية من جيلنا إلى جيل التمكين، التي أرجو أن أكون ممن يُسهم في بنائها بجهد المُقل، ليَخرُج من ضئضيّ هذا الجيل الخَرِب، إلا من رحم ربي، جيلٌ قادرٌ على العمل الصائب المُحكم، ومواجهة التحديات العقدية والفكرية التي تواجه أمتنا، وعلى أن يتخرج منه فئة تنفر في سبيل الله، فتخلّص الأمة من تلك الأوبئة الحاكمة الطاغوتية، التي تمكنت، في غفلة طويلة من أمتنا، أن تتحكم في شعوبها، بجيوشها المرتدة، ومؤسساتها الخربة، وأن تستبدل بهم قادة مسلمون حقا وصدقاً، مؤتمنون حقاً وصدقا، باغون نصرة الدين حقاً وصدقاً، فلا يتكرر ما رأيناه من تجارب الجماعات الإسلامية المنحرفة عقدياً أو حركياً أو كلاهما معا! وما تجارب الجزائر ومصر والشام ببعيد، عشناها، كلها، رجالاً ثم شيوخاً، وتمزقت نفوسنا حسرة على ما رأينا، لكن لله الأمر من قبل ومن بعد.

وتلك الضوابط أو الأصول العقلية والشرعية مبينة، قدر الإمكان، فيما يأتي

- الأصل هو العمل بالظاهر

- وهذا المبدأ العظيم هو، كما يسميه الشاطبيّ، عمدة التكاليف وكلية الشريعة، لا تقوم إلا به وعليه. ذلك أن الله سبحانه لم يجعل للناس قدرة على استشفاف ما في باطن الغير[١].

[١] الموافقات .... & ج٢ص ٥٧٢

- قال تعالى «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**» **الحجرات ١٢**. **والظن** قد يكون إثما أو لا يكون إثماً، ولذلك قال تعالى «بعض». والظنّ الآثم هو الذي لا يقوم عليه دلائل، وهو الأكثر في ظن الناس، لذلك قال تعالى «كثيراً». إنما قد يَصدق الظن إن قامت دلائل وقرائن تدل على صحته، وليس هنا محل بحث هذه النقطة.

- ورد عن أُمِّ سَلَمَةَ رضي اللهَّ عنها: أَنَّ رَسُول اللهَّ ﷺ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا بشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ؛ فأَقْضِي لَهُ بِنحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بحَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ «متفق عليه.

- وعن أُسامةَ بنِ زَيْدٍ رضي اللهَّ عنهما قَالَ: بعثَنَا رسولُ اللهَّ ﷺ إِلَى الحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَصَبَّحْنا الْقَوْمَ عَلى مِياهِهِمْ، وَلحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصارِ رَجُلًا مِنهُمْ، فَلَمَّا غَشيناهُ قَالَ: لا إِلهَ إِلَّا اللهَّ، فَكَفَّ عَنْهُ الأَنْصارِيُّ، وَطَعَنْتُهُ بِرُمحْي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا المَدينَةَ بلَغَ ذلِكَ النَّبيَّ ﷺ فقَالَ لِي: يَا أُسامةُ! أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ: لا إِلهَ إِلَّا اللهَّ؟! قلتُ: يَا رسولَ اللهَّ إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، فَقَالَ: أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ: لا إِلهَ إِلَّا اللهَّ؟!فما زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذلِكَ الْيَوْمِ» متفق عليه.

- وعن عمر رضي الله عنه ما رواه البخاريّ بسنده «إنما كانوا يؤخذون بالوحي على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم».

- إذن، فالواجب هو العمل بما يظهر لنا من المسلم، أو الكافر. فمن شهد الشهادتين، ولم يأت بما ينقضهما، حكمنا له بالإسلام، ولا نتوقف في حكمنا عليه، رغم أن الشوكاني، قد ذكر ما يوحى بغير ذلك فقال في نيل الأوطار في شرح حديث أسامة، قال «فهل يصبح بهذا مسلماً؟ الراجح لا، حتى يُختبر» أي يختبر إسلامه، وأحسبه يقصد من انتقل من كفر إلى الإسلام، لا من هو على الإسلام أصلاً، ومن هنا

اعترض رسول الله ﷺ على أسامه رضي الله عنه، حيث لم يترك من قتله ليعرف هل قالها خوفا من الموت أم لا.

- وقد هلك الكثير من الناس، ممن اختلط عليه أمر هذا الأصل. فمنهم من طردها في كلّ ما يقع ممن نطق بالشهادتين، ثم ظهر منه ما ينقضهما، بينما هو لا يزال مقيما على قولهما، وهم المرجئة، ومنهم طائفة الإخوان في عصرنا. ومنهم من لم يعتبرها ابتداءً، بناءً على ما ظنّ من كفر المجتمعات كافة، نتيجة رضوخها للحكم بخلاف الشرع، وأنزل ذلك على الأفراد بأعينهم، وهم الغلاة والخوارج.
- والأصل هو أن هذه الحالة، حالة الناس، العامة، اليوم، هي ما استقر عليه اليقين بأنهم مسلمون من نسل مسلمين من نسل مسلمين، لم يثبت عليهم، أفراداً، خروج عن الإسلام، أصالة، فيبقوا على حكمهم. فإن ظهر من أحدهم، بعينه، عملٌ مكفّر، فيجب أن يتّبع المسلم خطوات معينة في هذا السبيل:

i. إما أن يكون من أصحاب العلم بنفسه، أو لا يكون، فإن لم يكن، فعليه أن يرجع إلى صاحب علم يستفتيه، بأن يشرح له بدقة وصدق، ما قال الرجل وما وقع منه، فيفتيه في حاله.

ii. وإن كان من أصحاب العلم، أن ينظر في القول، هل هو قولٌ مكفّر بذاته، أم بالتسلسل.

iii. ثم ينظر، هل هناك تأويل للقول أم لا.

iv. ثم ينظر، هل هو من الأقوال الظاهرة التي هي من قبيل ما عُلم من الدين بالضرورة، أم هو من المسائل الخفية.

v. ثم ينظر هل هي من المسائل التي يكون في حق صاحبها استتابة أم هو الكفر دون استتابة، مثل الاستهزاء بالدين والنبي ﷺ والله سبحانه أو سبّهم.

vi. ثم إما أن يكون قاضياً، فيملك حق القيام بما ظهر له، أو يكون مفتياً، فليس له حق إقامة حدٍ.

- فأمر التكفير قائم على العمل بالظاهر، لكن الأصل يجب أن يُعتبر، وكما سنرى «ما ثبت بيقين، لا يزول إلا بيقين مثله». فإن ظهر ظاهرُ كفر، اتبع المسلم ما أشرنا اليه من خطوات، فيكون هذا من باب تعارض ظاهرين، ولهذا في الفقه حالات مختلفة يتعامل معها الفقهاء حسب رحجان أي الظاهرين، إلا في باب الردة، فإن الإسلام لا يجتمع مع الكفر بحال.

- وفي مقابل الظاهر، الباطن، وهو لا معول عليه، إلا فيما يتعلق بالأعمال التي تجب فيها النية. وهي غير معلومة إلا لصاحبها. ولا عبرة بما يدّعيه الصوفية من أحوال باطنة تؤدي إلى حالات ظاهرة، كالرقص والتشنج، فما لنا ولهذا. حتى إذا قال الرجل أقوالا مكفرة، مثل «أنا الله»، أو «والله ما في الجبة إلا الله» ومثل هذه الكلمات، فهذا ليس له إلا السيف، يُقتل ردة.

- وإلى جانب العمل بالظاهر، يجب العلم بأن «الظاهر دليل على ما في الباطن» والتفرقة بينهما هي من التلاعب بالدين، مما يُشاهد في عصرنا. فتجد من يفعل المعاصي والكبائر مجاهراً بها، لا يستحي ولا يستخفي، فإن قلت له: اتق الله، قيل لك «قلبه نظيف»! وترى المرأة سافرة متمايلة مبرزة لحمها لكل أفاك عاصٍ، فإن قلت هذا حرام، قالوا «هل تعرف ما في قلبها؟»! وهذه التفرقة باطلة، فإن الله سبحانه قال عمن قعد عن الجهاد مع رسول الله ﷺ وادعى أنه سيجاهد «وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً» فجعل دليل كذبهم هو ظاهر عملهم بعدم إعداد أي عُدَّة. وقال تعالى «يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيَاهُمْ» فجعل السيماء، وهي العلامة الظاهرة دالة على حالتهم الباطنة المستخفية.

- فلا يغرّن المسلم النابه، ما يتحايل به هؤلاء الساقطون والساقطات، بل يعرفهم، ويتجنبهم، ويقوم فيهم بما أمر الله من أمرٍ بالمعروف ونهي عن المنكر، حسب القدرة.

- كذلك من هنا تأتي أهمية الهدي الظاهر، مثل اللباس واللحية وحف الشوارب وسائر الأعمال الظاهرة التي تدلّ على الباطن السليم. فإن قيل لك «لكن نرى

محجبات وأصحاب لحى يكذبون ويقترفون المعاصي! قل: فما ذنب من هو ملتح أو محجبة، طاعة لأمر الله؟ هل معنى هذا أن الحجاب واللحية هي سبب العصيان؟ وهل نأمر المحجبات الصادقات بنزع الحجاب، أم ننصح المستخفية وراء الحجاب بتقوى الله؟

- ومن هنا جاءت أحكام المنافقين، فهؤلاء يظهرون إسلاماً ويبطنون كفراً، لكن كفرهم لا دليل عليه، فلا نعمله، وليس إلا وحي ليُعرف به المنافق، وهذا انقطع من عهد النبوة. لكن الأمر اليوم أنه لم يعد هناك داعٍ إلى نفاق. فالدول تحمي المرتدين، من الفنانين والإعلاميين و»المفكرين»، الذين يتحدثون بالكفر الصراح، ثم يُقال «هم ينطقون بالشهادتين» فهذا مثال على ما قدّمنا.

- كذلك ينبني على ما فات أمرٌ لابد من ذكره، وهو أنّ من صلُح ظاهره، وتوجهت إرادته للطاعة، فلابد أن يظهر منه عمل صالح يقينا. فقد ذكر ابن تيمية قاعدة عظيمة في هذا الشأن، هي أن «القدرة التامة مع الإرادة الجازمة، لابد أن ينشأ عنها عمل». فمن المستحيل أن يريد إنسانٌ عمل شيء، وهو قادر عليه لا مانع له منه، ثم لا يفعله! هذا مستحيل الوجود. فإما أن إرادته ناقصة، أو قدرته محدودة. فمن رأيته لا يصوم وهو سليم معافى غير مسافر، ثم يدعي أنه يريد الصيام، فاقرأ عليه هذه القاعدة، إذ هو بين أمرين، إما أنّه غير قادرٍ، والظاهر يكذبه، أو أنه غير مريد، فيكون بهذا كاذبا حين ادعى أنه يريد الصوم.



الفصل الثاني عشر

- **الأمور بمقاصدها**

١. هذه القاعدة هي القاعدة الكلية الأولى من الخمس القواعد المعتبرة في الشريعة، كأساس للبناء الفقهي. وهي تعني أن الاعتبار بما يقصد المرء لا بما يقول أو يفعل، مما قد لا يقصده. وهي راجعة إلى حديث البخاري عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى». وقد ذكر البعض اختلاف النية عن القصد، وإنما هذا فرق دقيق جداً ليس محل مناقشته هاهنا.

٢. ومثال ذلك حديث الرجل الذي وجد ناقته المفقودة، فأخطأ من شدة فرحه فقال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك». فهذا قول يكفر به القائل في ظاهره، لكن قصد ذلك الرجل هو أن يقول «اللهم أنت ربي وأنا عبدك» فالاعتبار هنا بقصده.

٣. والنية تدخل في غالب أبواب الفقه، إذ لا تصح صلاة بدون نية، ولا صوماً، وتنازعوا في الطهارة، والأصح أنها لازمة. أما في المعاملات، فهي لازمة في زواج، وبدونها لا يصح، فإن تمّ ظاهراً للتحليل بطُل على قول أصحاب المذاهب إلا الشافعي. كما تجب في الصيام والحج،.

٤. وهناك من الأمور ما لا تجب فيه النية مثل أداء الدين، وإتيان الزوجة، وشراء الثياب، لكن هي من المستحبات ليجري فيها الثواب.

٥. وهناك من الأمور ما لا تعتبر فيه النية، بل القول الظاهر، مثل رجلٍ قال لزوجته أنتِ طالق، ثم قال: أنوي أنها طليقة بمعنى الحرية، لم يُقبل منه، مثله في العتاق، إذا قال لعبده: أنت حرٌ، لزمه ذلك، ولو ادعى عدم نيته تحرير العبد.

- العبرة بالمعاني لا بالمباني

١. وهذه القاعدة فرع عن القاعدة الأولى، وهي أن العبرة بمعنى الكلام، لا بمركبات الألفاظ. وقد أسهب ابن القيم رحمه الله في شرح هذه القاعدة المتفرعة عن الأولى، فأسهب وبيّن وأجاد، في كتابه «أعلام الموقعين» في معرض حديثه العظيم في شرح كتاب عمر إلى أبو موسي الأشعري رضي الله عنه، في القضاء، حيث ضرب مثالاً بمن قيل له: كلْ، فقال والله لا آكل، أو نم، فقال والله لا أنام، هذا يفهم العاقل أنه لا يريد الانقطاع عن الأكل أو النوم تأبيداً، مع أن ظاهر اللفظ يحتمله، انظر ج١ ص ٢١٨ وبعدها.

- التمييز بين القواعد الثلاثة السابقة

١. ذكرنا فيما قبل ثلاثة قواعد في الشريعة، كلها أساسية كلية عامة، هي

i.	العمل بالظاهر	كلية الشريعة وعمادها
ii.	الأمور بمقاصدها	القاعدة الكلية الأولى
iii.	العبرة بالمعنى لا باللفظ	فرع عن القاعدة الأولى

٢. وقد يختلط الأمر على المتعلم في التوفيق بين تلك القواعد، إذ قد يظهر فيها تخالفاً وتضاداً، فإن كان العمل بالظهر، فلم يكون القصد أو النية معتبرة؟ أو لماذا يكون المعنى هو المقدم لا اللفظ؟

٣. فنقول وبالله التوفيق: أن هذه الشريعة متكاملة متعاضدة لا يضرب بعضها بعضاً، بل هي جاءت أصلاً لرفع الخلاف بين الناس، لا لإيقاعه. قال تعالى «**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**»

٤. فالواجب أن يعلم المتعلم أن الظاهر من الكلام هو المتقدم في كلّ حالة، والمُفترض أنه مُطابقٌ للنية والمقصد. لكن الكلام عادة، لا يقع في فراغ،

بل يأتي في سياق من واقع أو سياق قوليّ محدد، فتحفه قرائن ودلالات وشرائط قولية وعملية، تُنبئ عن نية قائله وقصده إن تعارض مع لفظه. ومن هنا فإن الفقيه وحده هو من يجب أن يتصدى لفتوى، إذ هو من يعلم كيف يُفرّق بين الحالات المختلفة، حين يؤخذ اللفظ على ظاهره، وهو الأصل، وحين لا يكون اللفظ معبراً عن النية والمقصد. فحين يأتي ما يعارض ظاهر النص من دلالة أو قرينة، فيجب أن يأخذها الفقيه بعين الاعتبار. فكما ذكرنا في حالة من قال لزوجته: أنت طالق أو أنت حرة، فلا يمكن أن يقول إن العمل بالنية، وأنا لم أنوي الطلاق، فيقال: لا دليل ولا قرينة على عدم النية هنا. لكن لو كانت زوجته اسمها حرة، فقال يا حرة، فقالت الزوجة، قد طلقتني، فلا اعتبار بظاهر ما قال، إذ هناك قرينة تعضد ما يدعيه من نية.

٥. وهنا يجب أن ننوه بين الحكم قضاءً، وهو المبنيّ على ما قررنا من قواعد من قبل، وبين الحكم ديانة. فإن القاضي يقضي بما ظهر له، سواء بظاهره، أو بما احتفت به القرينة. لكن، إن قصد الرجل الذي قال لامرأته: أنت حرة، ناويا طلاقها، ثم ادعى أمام القاضي أنه إنما كان يناديها باسمها، فهو لم يطلقها قضاء، لكنه آثم ديانة.

٦. فنخرج هنا بمعنى أن التمسك باللفظ على الدوام، أو التمسك بالقصد على الدوام، كلاهما يوقعا الناظر في أخطاء كثيرة. وقد أسهب ابن القيم في أمثلة على هذا الأمر تحت عنوان «كيف يُعرف مراد المتكلم» و «أخطاء أصحاب الألفاظ وأصحاب المعاني» في ذات الموضع فراجعه.

- يؤخذ الكلام على نية القائل، إلا في الحلف أمام القاضي

وترد هذه القاعدة بعنوان «مقاصد اللفظ على نية اللافظ إلا في موضع واحد، وهو

اليمين عند القاضي» الأشباه والنظائر للسيوطي ص٤٤

وهي قاعدة في غاية الأهمية، تتفرع من قاعدة «الأمور بمقاصدها». إذ إنه في كثير من حالات البيوع والعقود والنكاح وغيرها، ما يختلف الطرفان، في قصد أحدها بكلامه. فنقول في هذا ما سبق أن قررناه في موضع آخر وهو ما يلي:

فيقال، صحيح، لكن لأن كلام المتكلم، هو من الظاهر، والله يتولى السرائر، فيجب حمل كلامه على محمل ما يَظهر منه بإعتبار الكلمات المفردة، وسياق الحديث، ثم عادة العرب في تركيب الجمل، ثم الواقع والقرائن المحيطة بالقول. فالأمر إذا ليس مطلقا، كما يجب الآخذ بهذا القول أن يصوّره، حتى يرفع صورة التناقض عن أقواله، أو أقوال غيره.

أما عن الكلمات المفردة، فلعل فيها اشتراك، أو تواطؤ أو ترادف أو تباين، كما قسمها الغزالي. وكل منها له أقسام، لا نبغي التفصيل فيها في هذا الموضع، وإن كان مما سنفصله في الجزء الثاني من مبحث الخلاف بعون الله تعالى.

فهل يصحُ أن يُترك القائل ليتخير ما يريد مما قد يحتمله اللفظ المُفرد؟ وأي انضباط في الكلام إذن، بل هذا يؤدي إلى الهرج وضياع المعاني والحقوق بالكامل!

لذلك يجب أن تُضم قيود على هذا الإطلاق، حتى لا يعبث عابث بعقول الخلق، فيستمر في تبديل مراده من وقت لوقت، متحججا باتساع معنى اللفظ المُفرد.

وهذه القيود تأتي، كما سبق، من سياق الكلام، فاستعمال اللفظ، كما قرر الشاطبي وغيره، يجب أن يحسب فيه حساب مساقه، ليحدد الوجه المقصود.

فمثلاً إن جاء رجلٌ فوصف رجلا بأنه متحلل، في مساق حديث عن ضلال المرجئة، ثم بعد حين من الدهر، قال: لم أقصد بالتحلل أنه تارك لأحكام الله بل قصدت أنه يسهل على الناس أمر دينهم بأن يأخذ بالأيسر في التحليل!

هذا عن السياق، أما عن تراكيب الجمل، فإن للعرب طريق في أداء المعنى بألفاظ قد تُقصد بإفراداها غير ما تُقصد في تركيبها، ومنه جاء المجاز، وترك الإطناب للإيجاز، وغير ذلك مما تجده مبسطا بسطا وافيا في الخصائص لابن جني. فمثلا إن قيل: جاء الأسد إلى منزلنا أمس، وكان الكلام عن مشاهير الدعاة، عرفنا قصد المتكلم، لاستحالة أن يكون المراد هو الأسد على ما وضع له لفظه المفرد حقيقة، وهو المجاز. ثم اعتبار تراكيب الجمل نبينه في مثالٍ واضح، ورد في الخصائص في قوله تعالى « فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ» النحل ٢٦. من حيث أن الله سبحانه قال «من فوقهم» وهذا قد يظهر تكرارا لمعنى «خرّ عليهم السقف» كما في قول العرب «سرنا عشرا وبقيت علينا ليلتان، وقد حفظت القرآن وبقي علي منه سورتان»، كما قال «قد أخرب عليّ ضيعتي وفوّت علي عواملي وأبطل عليّ انتفاعي»، فالعرب تقول بذلك التركيب، فيمكن أن يحتمل قول «فسقط عليهم السقف» من هذا المعنى لاحتماله في تراكيب الجمل، ولكن لكمال البيان الإلهي، قال «من فوقهم» حتى لا يرد احتمال أن السقف قد وقع وهم ليسوا تحته. انظر الخصائص لابن جني ج٢ ص ٢٧٠ وبعدها. كذلك ذكر ابن جني، بغاية الوضوح، ما أكدناه في الأصول، فبوّب بابا يختص بقوله «باب في إقرار الألفاظ على أوضاعها الأُول، ما لم يدع داع إلى الترك والتحول» الخصائص ج٢ ص ٤٥٨، طبعة المكتبة العلمية. فمن هذا وجب على من أراد أن يدّعي احتمالا لقوله غير ما هو عليه في الظاهر ووضعه الأول، أن يأتي بالداعي لهذا، لا أن يتذبذب بين أقوال مدعيا عدم التناقض لمجرد ورود الاحتمال. فهذا معناه إما قصور في تعبيره أولاً فلم يبيّن كما أمر الله «لتبيننه للناس» أو تذبذبه في قوله وتخفيه وراء الاحتمالات، وفي هذا ما فيه.

إذن فالأمر لا يُترك على عواهنه، يدع كل امرئ أن قوله يحتمل هذا أو ذاك، بل هناك قواعد أصولية ولُغوية تحكم هذا الأمر.

ولعل فيما قلنا أعلاه كفاية للمبتدئ وبداية لطالب العلم

الفصل الثالث عشر

- **اليقين لا يرتفع بالشك**

١. وهذه القاعدة هي من القواعد الكبرى الخمس. وينبني عليها، فروع كثيرة في كثير من أبواب الفقه. كما يتفرع عنها كثير من القواعد الفرعية. وقد بنيت على حديث رسول الله ﷺ الذي رواه البخاري ومسلم عن عباد بن تميم عن عمه: أنه شكا إلى رسول الله ﷺ الرجل الذي يُخيل اليه أنه يجد الشيء في الصلاة (كريح مثلا)، فقال ﷺ لا ينفتل حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا». ومن فروع هذه القاعدة على سبيل المثال:

٢. «استصحاب الحال»، وهو من الأدلة الشرعية المُعتبرة، فمثلاً إن وُجد شيء مع أحد من الناس، ثم ادعاه آخر، فالأصل أنه يبقى في ملك الأول حتى يأتي الثاني بدليل يقيني. ويسمى كذلك «الأصل بقاء الشيء على ما هو عليه».

٣. و «الأصل براءة الذمة» وهذا أصل عظيم، إذ إن الذمة معناها ما يدخل في ذمة الفرد من دين أو هبة أو بيع. فهنا الأصل أن تُعتبر براءة الذمة، أي عدم وجود دين أو هبة أو بيع عليه، حتى يثبت العكس.

٤. و «من شك في أداء عمل أو عدم فعله فالأصل عدم فعله لبراءة الذمة الأصلية، إلا أن تكون الذمة مشغولة به فيفعل» مثال ذلك من سها، ثم شك هل سجد سجود السهو أم لا؟ فعليه السجود، لأن الأصل أنه لم يفعله، لهذا قالوا «الأصل العدم» أي عدم وقوع الفعل.

٥. وهذه كلها تجدها تعمل في أبواب الفقه متناثرة، وكثير منها في الأشباه والنظائر.

- الغاية لا تبرر الوسيلة

١. رضاء الله سبحانه هو الغاية العليا للمسلم، ووسيلته إلى ذلك هو اتباع أمره

والانتهاء عن نهيه. وتلك الأمور الواجبة على المسلم، يجب أن يؤديها بما لا يخالف أو يصادم أمراً آخر في الشرع.

٢. وطريقة أداء الأعمال الواجبة، هي في حدّ ذاتها مشروعة للمسلم، لا يصح أن يسلك في سبيل أداء ما عليه، بطرق أخرى.

٣. فمثلا، إن كان على أحد دينا، فلا يصح أن يشرق لأدائه. أو أراد أحد أن يحج، فأخر دينا حلّ الوفاء به لصاحبه، إذ الحج يقع على التراخي، أي يمكن أداؤه في عام مقبل، أما الدين، فإن حلّ موعده، وجب حالاً. وهكذا.

٤. فنحن متعبدون فالوسائل المؤدية للأحكام، كما نحن متعبدون بغايتنا من أدائها. فمن أراد أن يصل لغاية مشروعة بطريق غير مشروع، لم يقبل منه العمل. كمن اغتصب بيتا، أو اشتراه بالربا، ثم وَقَفَه كمسجدٍ، فلا تحل الصلاة فيه.

٥. وقد انبني على هذا دليل من أهم الأدلة الشرعية، وهو دليل سدّ الذريعة.

٦. ومعنى الذريعة، الوسيلة التي يُتوصل بها لعمل ما، فتكون ذريعة له.

٧. وأحكام الشرع كلها، باعتبار الغايات والوسائل، تنقسم إلى أربعة اقسام، الواجب والوسيلة اليه، والحرام والوسيلة اليه. وواضح أن الوسائل المؤدية إلى الواجب واجبة، أما الوسائل المؤدية إلى حرام فحكمها حكم الحرام، فيجب سدّها. لذلك قيل «سدّ الذريعة ربع الشريعة».

٨. ومثال ذلك المُحلل في الزواج، فإن المحلل، ولقبه التيس المستعار، يُتخذ وسيلة لتحليل أمرٍ لم يُقصد حلّه بتلك الوسيلة. فإن حكمة منع زواج المرء بمن طلقها ثلاث مرات، أنه قد ظهر عدم القدرة على التعايش بينهما. فإن تزوجت المرأة بآخر، وعاشا سويا، ثم طلقها، فيكون ساعتها زوجها الأول ضمن من يحق لهم طلب يدها مرة أخرى، فلعلهما راجعا أنفسهما، بعد الحياة المنفصلة. فأن

يتحايل الزوجان على هذه الغاية المقصودة في الشرع، وهو إقامة المرأة في ذمة رجل آخر، والدخول بها، بقصد العشرة، فإن هذا التحايل باتخاذ تيس مستعارٍ لليلة، ولا يدخل بها أصلاً وينعدم قصد العشرة. وقد ذكرنا فيما تقدم، أن القصود معتبرة في العقود.

- المصلحة المعتبرة هي ما توافق الشرع، لا ما أفرز العقل وحده

١. وهذه الجملة مبنية على دليل شرعيّ هو «المصلحة المرسلة» أو الاستدلال المرسل.

٢. ذلك أن الله سبحانه قد شرع الشرائع وأقام التكاليف لجلب المصالح للعباد، ودرأ المفاسد والمضار عنهم.

٣. فالعمل المشروع هو في حدّ ذاته مصلحة للمُكلّف، والنهي هو في حدّ ذاته مفسدة للمكلّف. ومن ثم، فلا يجب أن يبحث المكلّف عما وراء النص الشرعي الثابت في كتابٍ أو سنة من قول أو عمل أو تقرير، حسب ترتيب ذلك.

٤. لكن هناك من الأمور مستجدات لم ترد في أعيانها نصوصاً. فماذا يفعل المفتي في هذه الحال؟

٥. رأينا كيف أن هناك قواعد كلية عامة وقواعد فقهية وقواعد صوليةأصوليةاالذأأصولية، وبيّنا الفرق بينها. لكنها كلها تجتمع على أمر جامع وهو طريقة استنباطها، وهي «الاستقراء».

٦. والاستقراء يعني تتبع معنى معين في عدد كبير من النصوص الجزئية (آية أو حديث) حتى يتكون لدى الفقيه أو الأصولي الناظر من وجود ذلك المعنى في جزئيات كثيرة جدا، أصلٌ عام يمكن الركون اليه والوثوق بقصد الشارع له، كما لو كان ورد ذلك المعنى في نصٍ محدد.

٧. ومثال ذلك أصل «لا ضرر ولا ضرار» أو «الضرر مرفوع»، فإن هذه القاعدة الجليلة لم تثبت بنص، إذ الحديث الوارد فيها ضعيف السند، لكن معناها مبثوث في الشريعة وأحكامها بما لا يدع مجالا للشك في أنها مقصودة للشارع، أن الأصل هو رفع الضرر عن المُكلّف.

٨. فقد قال تعالى «لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ »، وحديث البخاري حيث أمر رسول الله ﷺ الزبير بأن يسقي أولا ثم يسرح الماء لجاره، ومنع الرجل من حفر البئر في طريق المارة ولو كانت الأرض مملوكة له، وأحكام الدية لرفع الضرر عن ولي الدم أو الحق، ووصاية الأباء على البنات في الزواج، وآلاف من الأحكام تجدها في كل محل بالشريعة. فهذا يجعل قاعدة رفع الضرر ثابتة مستقرة بالاستقراء التام، أي بعد مراجعة كافة أحكام الشريعة، وليس فيها استثناء.

٩. فتلك الأمور التي تثبت بالاستقراء، ليس فيها نصّ محُكم، ولكنها وردت باستدلال مرسلٍ معتبر في الشريعة، وهو مرسل لأن ليس له أصل من نص واحد يعينه، ومعتبر لأنه، كما رأينا تعتبره الشريعة أصلاً.

١٠. ومن مثال ذلك فرض عمر للدواوين، رغم عدم وجود نصٍ في ذلك، لكنه حكمٌ يقع تحت دائرة الاستدلال المرسل أو المصلحة المرسلة، التي دلت عليها أدلة جزئية لا تكاد تُحصر من ضرورة الحفاظ على الحقوق، لرعاية مصالحهم من الضياع.

١١. وقد توسع المحدثون، من أتباع المنهج الاعتزالي العقلاني (كما يحسبون)، أنه طالما أن المصلحة هي المراعاة، وهي مقصد الشارع الأول، فإنه إن رأينا مصلحة أخذنا بها، ولا علينا إن عارضت نصاً! فإن كانت المصلحة واضحة، فكيف نتركها لنص؟

١٢. وهؤلاء لا شرعا فهموا ولا مصلحة جلبوا! بل هم شؤم على قومهم، لا يأتونهم إلا بالباطل والضرر.

١٣. فمن شروط اعتبار المصلحة، ألا تصادم نصاً شرعياً ثابتاً، وأن تكون حقيقية لا متوهمة، وأن تكون قطعية لا ظنية، وأن تكون غير مُعارِضة لمصلحة أنفع منها.

١٤. وأود هنا أن أثبت مقطعا دونته قديما عن المصلحة والعقل، يفيد المتعلم في فهم المسألة، ورفع شبهات المخالفين

« وتعريف «المصلحة» الأصولي أنها «الحكم الذي لم يأت بالشرع ما يدل على اعتباره أو إلغائه، وإن شهدت له أدلة الشرع الكلية العامة». فالمصلحة التي تترتب على حكم ما، يجب أن تكون مرتبطة بشرع الله، تفصيلاً أو إجمالاً.

والفرق بين النظرين واسع عريض، يقع بين الإيمان والكفر أو السنة والبدعة حسب الحال.

ومعلوم أنّ الوقائع البشرية التي تحدث على مر قرون متطاولة، في حياة البلايين المتشابكة، لا يمكن أن يغطيها أيّ عدد من النصوص التفصيلية المباشرة في الكتاب أو السنة.

ومن هنا نشأ النظر في كيفية دلالة النصوص على معانيها في مصادرها. فوجد العلماء أن النصوص تستخدم «القياس» الجامع بعلة، فاستخدموه، ودققوا في النظر بطرق الكتاب والسنة في استنباط تلك العلل الصالحة المؤثرة، ليبنوا عليها، كما بنى الكتاب والسنة. كذلك استقصوا دليل الاستصحاب، ومنه أن الأمر يبقى على ما هو عليه لحين وجود ما يدل شرعا على تغييره. وسد الذرائع، التي رأوها منتشرة في النصوص والأحكام الثابتة، والتي، هي من معناها، ربع الشريعة، إذ هي تحريم ما يؤدي لفعل المحرم. وهكذا أثبتوا الأدلة الشرعية الاجتهادية، والتي يعنون بها اجتهاد من داخل النصوص لا من خارجها.

ومعلوم أنّ التنزيل لم يقتصر على نصوص تفصيلية في كتاب أو سنة، بل يشمل ما ينشأ

عنها من قواعد كلية تثبت باجتماع بعضها تحت معنى واحد، عام أو كليّ، وتكون تلك النصوص التفصيلية هي كلها جزئيات من ذلك العام القطعي الدلالة، بل والأقوى في دلالته من كلّ نصّ تفصيلي منفرد.

وفي كلّ هذا الجهد المضنيّ الذي لا يعرفه ويقدّره إلا من درسه وعاناه، استخدموا «العقل» الذي له مرجعية ثابتة موحدة عند كلّ ناظر، وهي نصوص الشرع وقواعده الكلية، وإلا فبأي أداة أجروا الاستقراء والاستنباط والاستدلال؟ بأي أداة استخرجوا العلل المنصوصة والعلل المستنبطة، وهي من أدق العمليات العقلية؟ بأي أداة عدلوا في بعض الأحكام عن قياس إلى غيره لمناسبة الحكم لقاعدة كلية مختلفة، وهو ما يُعرف بالاستحسان؟ كم من جهد «عقلي» احتاج العلماء لبذله كيّ ينقحوا السنة المطهرة من شوائب الوضّاعين والكذابين والمبتدعين، ويجردوا صحيحها صافياً، كما لم يحدث في تاريخ أمة أن فعلت لتأمين سلامة وصحة أحاديث نبيها؟

استخدم العلماء العقل، لكنه العقل المؤمن، لا العقل الشارد الضال في متاهات فكرية تتعدد بعدد عقول الناظرين.

فإن مصطلح «العقل» عند العلمانيين والمعتزلة «العقلانيين» والليبراليين وأمثالهم، غامض لا حدّ له ولا محدود. فأي عقل يجعلونه حاكما على الفكرة ومؤديا اليها تأدية صحيحة؟ أي مرتكزات تجمع تلك «العقول» التي تُعد بالآلاف، لتقرر ما هو صحيح وما هو سقيم... سؤال لم يجب عنه أحد من الفلاسفة ليومنا هذا.

قد يقول البعض، هو المنطق الذي يمكن أن يكون مرتكزاً لهؤلاء، يتحاكمون اليه. فإن عنوا المنطق الأرسطيّ فإنهم قصروا الدليل على ثلاثة أشكال: القياس والتمثيل والاستدلال[١]. وقد بينّ ابن تيمية معنى تلك وبينّ خطأ الحصر فيها. كما تعرض بتوسع موسوعيّ لمن استلّ علم الكلام من المنطق، وحاجّ كلّ من له فيه حجة في كتابه العظيم «درء

[١] «الرد على المنطقيين» ابن تيمية ٥٠٢.

تعارض العقل والنقل»، وليس هنا محل نقل استدلالات وردود في هذا الأمر، لكن مما أعجبني جدا وصفه لحال أهل الكلام، في التطويل الزائد بلا غرض ولا مناسبة قوله «مثل من يريد الحج من الشام فيتوجه إلى الهند فينقطع عليه الطريق فلم يصل إلى مكة!»[١]

والقصد هنا أنّ استقلال العقل، سواء بطريق المناطقة أو بطريق أهل الكلام، ليس مكتملاً ولا جامعاً مانعاً، لما نرى في خلطهم في أوليات النظر من الحدّ والمحدود[٢]، فكيف يُحكم به على ما ثبت يقينا أنه وحي من عند الله سبحانه؟

والمصلحة المجردة عن الشرع، في هذا السياق، هي تركيبة عقلية، تنشأ في عقل الناظر، تأخذ ببعض معطيات النظر البديهيّ[٣]، مخلوطا ببعض النظريّ[٤]، فتنشأ بهذا النظر، الذي اختص بعض البديهيات والنظريات دون بعض، نتائج تراها أصلح له مما يُتوصل به عن طريق الأدلة القرآنية التي استخدمها القرآن لتوجيه العقل إلى صحة الاستدلال، مثال اعتماده قياس الأولى على القياس البرهاني المنطقيّ.

ومن أفضل ما يمكن قوله في شأن اختلاف النظر عند الناظرين من أصحاب الكلام والمنطقيين، ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية[٥] رحمه الله:

١٥. ومعلوم أن الناس يتفاوتون في قَوَى الأذهانِ أعظمَ من تفاوتهم في قوى الأبد
وتون في حسن التصور وتمامه وفي سوء التصور ونقصه. فمن الناس من يكو
ة التصور وجَودته في غايةٍ يباين بها غيرَه مباينة كبيرة. وحينئذ فيتصور الط
راً تامّاً بحيث تتبين بذلك التصورِ التامّ «اللوازمُ» التي لا تتبيّن لغيره الذي لم يت
نن التصوُّرَ التامَّ.

---

[١] درء تعارض العقل والنقل» ابن تيمية ج ٣ ص ٢٩١

[٢] راجع درء التعارض ج١ ص ٤٧

[٣] البديهيّ أو الضروري هو ما يمكن تصوره دون واسطة بل يكفي فيه طرفان لتصوره.

[٤] النظريّ هو ما يحتاج إلى نظر وتركيب لتصوره

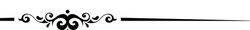
[٥] الرد على المنطقيين ص ٠٣١

١٦. وهذا الكلام الثمين هو ما عنيناه أولا في تساؤلنا عن أي العقول تعنون، تلك التي نأخذ بقولها وتصورها؟

فأصحاب القول بالمصلحة لا يدركون حقيقة ما يقولون، ولا مرجعية ما يستندون اليه، إلا تشدقا بلفظ «العقل» و «العقلانيون»!

والمصلحة الشرعية متحققة تمام التحقق، سواء فيما ثبت بالنص، أو ما اسُتنبط بأدوات عقلية مرتكزة على النص كما بيّنا.

والفرق الحقيقي بيننا وبين من يدّعون المصلحة «بعقلهم» أنهم إما جهلة بالشرع تمام الجهل، أو لا يؤمنون بالوحيّ أساساً، وكلاهما واجب المخالفة. ولهذا وجب أن تظهر كلمة الشرع، على لسان أصحاب العلم، لتكون هي العليا وتكون كلمة أولئك هي السفلى.



الفصل الرابع عشر

- **الضرورات تبيح المحظورات ومعناها**

١. وهذه القاعدة متفرعة من إحدى القواعد الخمس الكلية الكبرى وهي «إذا ضاق الأمر اتسع»، وتسمى كذلك «المشقة تجلب التيسير». وهي الدالة بذاتها على يسر هذا الدين، ورحمة رب العالمين، وأن مقصود الشريعة هو مصالح العباد دون إثقال عليهم ولا تحميلهم ما لا يطيقون. قال تعالى «يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ»، وقال تعالى «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»، وقال تعالى «لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا »، وما أجملها من آية عظيمة محببة للنفس، مطمئنة للروح، ولولا أن هذا المقام ليس بمقام تفسير لتحدثنا في تفسير بقيتها حديثا ذي شجون. وجاء في حديث رسول الله ﷺ من رواية أبي أمامة «إني إنما بُعثت بالحنيفية السمحة».

٢. وقاعدة «إذا ضاق الأمر اتسع» تشمل كلّ ما جاء في الشريعة من رخص، وما ورد فيها من ديات وكفارات. إذ كلها تَرِدُ حين يحتاج المُكلف إلى أن يُخَفَف عنه التكليف، فلا يُضطر إلى معصية، وكذلك حتى تكون تلك الأحكام كفارات للذنوب، ترتفع بها سيئات العبد. وهذا من معاني اتساع الأمر.

٣. ورفع المشقات له حدود تُعرف به نوع المشقة، حيث إنها لا تترك لكل فرد يحدد ما يراه مشقة، فإن ذلك قد يهدم الدين كله.

٤. وطبيعة «التكليف» من الكُلفة أي المشقة، والالتزام بأوامر ونواهي تحمل شرعيا ولُغويا معنى المشقة، لكن المشقات تختلف باختلاف الظروف والحالات.

٥. وقد تحدث العلماء عن أنواع المشقات، وممن كتب في ذلك الإمام العز ابن عبد السلام في «قواعد الأحكام في إصلاح الأنام» ج٢ ص ١٣ وبعدها، وكذلك الشاطبيّ في الجزء الثاني من الموافقات، تحت عنوان مقاصد وضع الشريعة

للتكليف، وغير ذلك من كتب.

٦. والحاصل أن أنواع المشقات ثلاثة:

a. المشقة المعتبرة، وهي الخارجة عن العادة، أو عما يحتمله المرء عادة، فهذه غير مُكَلف بها، طالما وُجد سبب المشقة، بل تجد الشارع قد شرع فيها الترخص، مثل الاغتسال في شدة البرد لوجود مظنة المرض، أما إن لم توجد مظنة المرض، فشدة البرد ليست مانعا من الاغتسال. فالمشقة فد قيدت بعلة ظاهرة وهي المرض. كما جعل الله السفر دليل المشقة من حيث أن المرء في حياته الطبيعية، لا يلاقي ما يلاقيه وهو على سفر. ويمكن التوسع في هذا بمطالعة أبواب العلل في الأصول.

b. المشقة غير المعتبرة، وهي المشقة التي تأتي مع التكليف بالأمر والنهي، فالحج فيه مشقة، والقيام للوضوء والصلاة والجهاد كلها تحمل مشقة، لكنها غير معتبرة عند الشارع، لأنها لا تنفك عن العمل ذاته، فإن أسقطناها أسقطنا العمل، فلا حج ولا صلاة ولا صيام، وهذا ليس بدين.

c. المشقة المترددة بين الطرفين، فينظر الفقيه إلى أي الطرفين هي أميل. فإن كانت المشقة أميل للخروج عن العادة، مُنعت برخصة، وإن كانت أميل لما هو مُعتاد من مشقات الحياة، فلا تُعتبر.

٧. هذا الذي ذكرنا هو قطرة من بحر هذه القاعدة، التي قد يعرف عنها البعض بأنها تبيح أكل الخنزير أو شرب الخمر في وسط صحراء جرداء، بلا أمل في حضور أحد. لكن الأمر، كما رأينا، يتعلق بأكثر أبواب الفقه، تجري فيه هذه القاعدة، إذ لا يخلو تكليف من أن يقع تحت شكل من أشكال المشقة التي ذكرنا.

٨. ومن حكمة الله سبحانه أنه لم يدع أمر التخفيف حتى تصل المشقة إلى حالة

الضرورة الشرعية، أي بحدّها في الشريعة، لا كما يعتبرها الناس في عرف الكلام، حيث يشيرون إلى كلّ أمر يجدون فيه مشقة ما «بالضروري»، وهو في الحقيقة ليس ضروري بالمصطلح الشرعي بالمرة!

٩. وهنا يجب أن نشرح درجات التكليف في حدّ ذاته وأصل وضعه، لا المشقة التي تنشأ عنه، والتي تحدثنا عنها آنفا. ودرجات التكليف هذه ثلاثة، تقع كلّ منها تحت كلّ مقصدٍ من مقاصد الشريعة الخمس التي ذكرنا من قبل، وهي التي قصد الشارع حمايتها، ونقصد بها الدين والنفس والعقل والمال والنسب، فيكون هذا خمسة عشر نوعا.

١٠. وهذه الدرجات هي

i. الضرورة: هي ما يُخشى منه فقد النفس أو الولد أو عضو من الأعضاء أو المال كله. ففي هذه الحالة يحل ما هو حرامٌ شرعاً، ليس بمعني أنه أصبح حلالا، بل بمعنى أنه قد رُخص فيه حتى تزول الضرورة، كما سيأتي.

ii. الحاجة: وهي ما يمكن للمكلّف تحملها لكن بمشقة زائدة عن المعتاد المألوف، أي ما يحتاجه الناس وتصبح حياتهم صعبة بدونه، لكن لا يرقى لدرجة الضرورة. والحاجة تقع في كافة ما تجري فيه الأحكام الشرعية. فمثلاً تحتاج المرأة إلى أن تتكشف أمام طبيب بحضور محرمها، إن كانت مصابة بألم شديد، وإن لم يصل إلى حدّ الموت، لعدم وجود طبيبة قريبة.

iii. التحسين: وهي الأعمال التي فرضها الشارع، لا لضرورة ولا لحاجة، لكن لإقامة الحياة بشكل أليق بالإنسان، مثل إيجاب الطهور والغسل من الجنابة، والندب إلى لبس الثوب الجديد يوم العيد، والسواك، وسنن الفطرة، وتحريم لبس الذهب والحرير على الرجال، وغير ذلك مما يجعل الحياة كريمة لائقة بالتكليف الشرعيّ. وهي في نفس الوقت ليست ضرورة ولا هي حاجة، إذ

يمكن للمرء أن يعيش بدونها، دون مشقة.

iv. وقد تناول هذه الدرجات الشاطبي في الموافقات، الجزء الثالث، وهو كتاب الأدلة، من المسألة الأولى وبعدها. كما تحدث عنها الغزاليّ، قال «القسم الثالث ما لم يشهد له من الشرع بالبطلان ولا بالاعتبار نص معين وهذا في محل النظر فلنقدم على تمثيله تقسيما آخر وهو أن المصلحة باعتبار قوتها في ذاتها تنقسم إلى ما هي في رتبة الضرورات وإلى ما هي في رتبة الحاجات وإلى ما يتعلق بالتحسينات والتزيينات» المستصفى ج١ ص ١٧٤.

v. ويجب هنا أن أبيّن أن هذه الدرجات الثلاث لا دخل لها بأنواع الحكم الشرعي الخمسة، من وجوب وندب وإباحة وكراهة وتحريم. بل تجد هذه الأحكام التكليفية الخمسة في كلّ من الدرجات الثلاثة التي ذكرنا. كما أن لكل درجة مكملات ومتممات «ويتعلق بأذيال كل قسم من الأقسام ما يجري منها مجرى التكملة والتتمة لها» السابق. وهذه التكميلات تأتي في شروط الحكم ليتم على أكمل وجهز، فمثلاً القتال مع الإمام من حاجيات حفظ الدين، وعدالة الإمام مكملة لهذه الحاجة، بحيث لو تخلف المكمل، لم يسقط الواجب الحاجيّ، ولذلك شُرع القتال مع الإمام الفاجر، من حيث أنّ صفة العدالة شرط كمال في هذا الواجب. فشروط الكمال إذا هي كلها من المكملات والمتممات. وهكذا في كلّ درجة ورتبة. ولتراجع التفاصيل في مظانها.

١١. ويُعتبر الترخص في الضرورة من حيث إنها عادة ما تكون في حفظ المقاصد ذاتها. أما الحاجة، فيكون الترخص فيها مما حرُم كوسيلة لا مقصد، كما ذكرنا في حالة المرأة المريضة، فقد ترخص الشارع في كشف عورتها لغير محرم من حيث أن تغطية المرأة عورتها ليست مقصداً في حد ذاته، إذ مهما نظر رجل إلى امرأة، فلن تحمل منه، فتخرق مقصد حفظ النسب، فكان تحريم كشف العورة لأنها وسيلة إلى خرق المقصد، فما حرُم لأنه وسيلة، فإنه يُرخص فيه للحاجة. أما ما حرُم لأنه

مقصد من المقاصد، فلا يحل إلا للضرورة. وأهل الأصول يصيغون هذه الجملة بقولهم «ما حرُم مقصداً، حلّ للضرورة، وما حرُم وسيلة حلّ للحاجة».

١٢. ويجب أن نذكر هنا أن هناك عِلمان يتعلقان بما نحن بصدده في هذه القاعدة، وهما فقه النوازل وفقه عموم البلوى. وهذان العلمان بينهما خصوص وعموم. فإن النازلة قد تكون عامة للأمة كلها، أو غالبها، كاستحداث الصور اللازمة للوثائق، فهذه نازلة، تعرِض على أصل تحريم التصوير، وهي من عموم البلوى في الأشخاص لا الأحوال. كذلك قد يقع عموم البلوى في حالة فرد معين، طيلة حياته كمن به مرض لا يشفى منه، فهذه نازلة خاصة في الأحوال، وقد يتعرض عدد محدود من العمال في موقع إنشائي لسنوات طويلة، فيصيبهم وسخ على وجه الدوام، فهذا من عموم البلوى في المكلّف على وجه الخصوص فيما يعرض من أحوال، وهكذا.

١٣. وقد تنازع العلماء في موضوع ما يكون من عموم البلوى بالنسبة للأشخاص أو الأحوال، وبالنسبة لعموم المكلفين أو المكلف الفرد، وليس هنا موضع التوسع في ذلك، لكننا نوجه المُعلّم إلى أن يقوم بتوجيه طلبة العلم في هذا الأمر لأهميته، وعلاقته المباشرة بموضوع قاعدة المشقة تجلب التيسير، الآنفة الذكر.

١٤. كذلك فإنه يجب ملاحظة أنه يجب أن يكون الفقيه أو المفتي محيطاً بما ذكرنا، خاصة إن تعرض لفقه النوازل وعموم البلوى، من أبواب الفقه.

- الضرورة تقدّر بقدرها

١. وهذه القاعدة تظهر حاجتها بجلاء فيما ذكرنا من أن المشقة غير المعتادة الواقعة على المُكلف تأتي بالترخص فيها، لكن هذا الترخص له حدود، فمثلاً من كان بالصحراء، فوجد خمرا وليس له طريق إلى ماء، شرب منه ما تقوم به الحياة، لا أكثر، وكل قطرة أكثر من ذلك فحكمها حكم شارب الخمر. كذلك في مثال المرأة تكشف عورتها، في حضور محرمها لحاجة، فإن الرخصة هنا في إظهار

موضع المرض لا أكثر، وإلا كان سفوراً.

٢. وهذه تؤدي إلى قاعدة «ما جاز بعذر بطُل بزواله» كما شرحها الشيخ أحمد مصطفى الزرقا في «شرح القواعد الفقهية ص ١٨٩ ، وعكسها «إذا زال المانع عاد الممنوع» السابق ص ١٩١.



الفصل الخامس عشر

- **الحاجة التي تعمّ تنزّل منزلة الضرورة**

١. وهذه القاعدة نابعة من يسر هذا الدين، فقد علم الله سبحانه أن المكلفين تمر بهم ظروف شاقة، وإن لم تصل إلى حد الضرورة إلا أنها تقرب منها، فتكون حاجة الناس اليها شديدة. وهذا يدخل في الباب الذي ذكرنا مسبقا من عموم البلوى. والضرورة كما عرفناها، هي حاجة ملجئة، أي تلجئ المُكلّف إلى فعل ما لا يجوز فعله في غير حالتها، وهي الضرورة. والحاجة المعتادة أقل من ذلك إلحاحاً. ومثال ذلك حلّ الإجارة، فإنها في الأصل ممنوعة لأنها عقد على معدوم، وهو حصول المنفعة، لكن رخّص فيها من حيث الاحتياج الشديد اليها. لكنّ هذا لا يكون إلا حين لا يوجد نص في المسألة أو علة ظاهرة معتبرة، لكن المعنى معتبر بشكل عام في الشريعة، وهو منع الضرر، ومنع الإجارة بلوى عامة تخص كافة المكلفين في كافة الأحوال، فحلّت لذلك.

- **لا تصح فتوى العاميّ وإن وافقت الحق**

١. وهذا منطلق شرعيّ أكثر من أنه قاعدة شرعية. وقد ذكره كثير من السلف في أقوالهم، تحذيرا للعوام من التهجم على الفتوى والتصدي لها دون علم صحيح متحقق بشروطه التي ذكرنا. إذ القصد بالإفتاء هو تحري الحق، والبعد عن الهوى. والعامي، بطبيعة الحال لا يمتك الآلة التي تمكنه من الاستنباط الصحيح. فإن حدث ووافق قول العاميّ الصواب، فهو لا يزال آثماً في تهجمه على الفتوى، حيث يعلم أن غالب الظن، هو مخطئ فيه، وأنّه قد استعان بالهوى لا بالدليل الشرعيّ. لذلك لا يجب أن يُسأل العاميّ ابتداءً حتى لا نرهقه من أمره عسراً، فيقع في التباهي، فيفتي بغير علم فيَضل ويُضل.

- **لا يصح تطبيق حكم شرعي في مسألة خاصة حتى تصدر بها فتوى من عالم مختص**

١. وبناء على ما سبق يجب أن يكون المتعلم متيقنا من شروط من يتوقع منهم الفتوى، فإنه كما قيل: إجتهاد العامي هو في إختيار مفتيه». فإن قصّر العامي في معرفة قدر من يسأل، ومن يُمسك الميكروفون، لا يكاد يطلقه، بأن يطلب منه ثبت بأعماله ومشاركته العلمية الشرعية المقبولة في الوسط العلمي. أمّا غير ذلك من خربشة المخربشين وتنطع الغاوين، فلا حكم له ولا اعتبار.

٢. ومن المناسب هنا أن نذكر أن كلّ عامي له اجتهاد خاص في فتواه، لا ينفك عنه، ويسميه الشاطبيّ «الاجتهاد الخاص»، ويعني به ما لا يعرفه من مناط العمل إلا هو، ولا أحد سواه. ومثال ذلك الضحك في الصلاة أو الالتفات، ومثل ذلك، فحكمها أنه إن كانت كثيرة أبطلت الصلاة. وهنا لا يمكن لمفتي أن يقرر لسائل عن كمِّ ضحكه أو مدى التفاته، بل على المكلف أن يحدد ذلك بنفسه ليُحكم مناط الحكم.

- **مقاصد الشريعة لا تُعتبر إلا من جهة عالم مختص.**

١. لاشك أن مقاصد الشريعة هي من أهم أدوات فهم التركيبة الفقهية الأصولية التي بُني عليه صرح الشريعة. وإعتبار تلك المقاصد هو العمل المصاحب لكل حكم شرعيّ أو فتوى تُبنى عليه، ليوافق قصد الشارع، ولا يخالفه.

٢. لكن، كما رأينا، فإن كلمة «المقاصد» هذه قد سيئ استعمالها، وابتذلت وامتُهنت على يد فئتين، فئة من «المفكرين الإسلاميين» أو «العلمانيين»، وهما يقصدان بها غير ما قصد الشارع، وغير ما وُضعت له، بل وغير ما استخدمها علماء الإسلام منذ أن ظهرت في كتاباتهم بشكلٍ مستقل. والفئة الأخرى هي فئة الجهلة الصغار من رويبضات الزمن، يتسورون على الشرع، بعد أن هيأت لهم الشبكة العنكبوتية محلاً يتحدثون فيه إلى الناس، بأي حديث كان.

٣. فالمقاصد عند علماء المسلمين تهدف إلى تحرير الحكم الشرعي، والتأكد من مطابقته لما أراد الشارع الحكيم منه، ولكنها عند هؤلاء هي ما تصل به عقولهم

اليه لتبرير هوى معين، قرروه ثم نبشوا على دليل يدل عليه، فلما لم يجدوا، لجئوا إلى أن فيه «مصلحة» القوم، وأن المصلحة هي مقصد الشارع! فقدموا الهوى على قول الله ورسوله ﷺ.

٤. وكما رأينا أن استنباط المصلحة المقصودة للشارع بضوابطها، وتعيين محلها من مقاصد الشريعة العامة وقواعدها الكلية، أمر يحتاج إلى علمٍ واسعٍ محقق، لكافة ما أشرنا إليه آنفا، وأضعاف أضعافه مما أومأنا إلى بعضه.

٥. فلابد إذا أن يكون المخوّل بتحديد المصلحة الشرعية من العلماء المعتبرين، علماً وتقوى وإلا كانت عبثاً، وجرى مع هوى النفس، وضرب بمقصد الشارع عرض الحائط.

- **منع الضرر بإطلاق**

١. وهذه القاعدة هي من القواعد الكبرى الخمس التي ذكرناها أعلاه. ويقال كذلك «الضرر مرفوع». وهذا المعنى مبثوث في أحكام الشريعة المنصوصة بالاستقراء التام، أن الشارع قد قصد بالأحكام التي كلّف بها العباد رفع الضرر عنهم، ودرء المفاسد التي تعرض لهم.

٢. والضرر الذي تريد الشريعة أن تتجنبه، هو ما يصلح أن يقع تحت مفهوم «الضرر شرعا». فإنه إن أتت امرأة فقالت: الحجاب يسبب لي ضررا، وهو أن زميلاتي يستهزؤون بي، أو أن الرجال لا يتقدمون لطلب يدي! فهذا ليس بضرر في نظر الشرع، من حيث أن الله سبحانه قد فرض الحجاب في سورة النور، بنص صريح، وأكدته السنة القولية والعملية بما لا يدع مجالاً للمراءاة فيه، فصار من المعلوم من الدين بالضرورة، أي ما اشتهر بين الناس، حتى الكفار منهم، فلم يسع أحد أن يدعي الجهل بحكمه. فإن ثبُت هذا، فالحكم الشرعي الثابت بالنص الشرعي هو المصلحة بعينها، فكيف يؤدي إلى مفسدة؟ الأمر كله راجع إلى أن القائلة قد ادعت على الشريعة ما ليس لها به دخل، فالزواج رزق من

الارزاق، يأتي للمحجبة والسافرة على حدّ سواء، كلّ على شاكلته. والاستهزاء بالحجاب، لا يقع من مسلمين، بل من كفار ماردين على حكم الدين، فهؤلاء يجب ردعهم والاستهزاء من سفورهم وعرضهم للحومهم رخيصة في سوق الرجال، لا العكس.

٣. كذلك الجهاد، إن قيل أن فيه ضرر القتل، قلنا، على العكس، فهو يدفع الصائل عن أن يقتل المزيد من المسلمين، ثم إن هذا المقتول شهيد بشهادة الله في القرآن «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)». وهكذا سائر الأحكام الشرعية.

٤. ومن هنا كان تحديد الضرر الذي هو مُعتبرٌ شرعاً لا يكون بالهوى والتشهي، بل يكون من جهة عالم متحقق بالعلم الشرعي وتقوى الله عزّ وجل.وقد بنى الله سبحانه أحكام الدنيا على اختلاط المصالح والمفاسد، كما بيّن الغزاليّ والجويني والشاطبيّ والعز ابن عبد السلام السلميّ وغيرهم. فلا سبيل في الدنيا إلى خير دون شر، ولا إلى شر دون خير، فالخير المحض لا يكون إلا في الملائكة والمرسلين، والشر المحض في الشياطين، وغير ذلك ففيه اختلاط، ترتفع فيه نسبة الخير تارة عن الشر، ونسبة الشر عن الخير تارة أخرى.

٥. لذلك، فإن الله سبحانه جعل الحكم الشرعيّ مبني على ما فيه الخير والمصلحة الغالبة، وإن رافقها بعض مفسدة، كما في الجهاد من مفسدة ازهاق الروح، لكنها مرجوحة بحفظ الدين. ومنع الله الحكم الشرعي الذي تزيد فيه المفسدة على المصلحة، مثل الزنا، ففيه لذة ومتعة، لكن فيه مفسدة اختلاط الأنساب وهتك الأعراض.

- **الأخذ بأدنى المفسدتين، وبأعلى المصلحتين**

١. وتجد حالات لا حصر لها، يكون هناك عملان، يجب أن يرجّح بينهما الفقيه للمكلف، أحدهما فيه مصلحة أعلى من الآخر، مثل أن يكون في صرف الوقت المُتاح في قراءة القرآن أو في لهو مشروع، فيختار المشرع الحكيم قراءة القرآن على اللهو المشروع لما في القراءة من ثواب عميم، أكثر مما في متعة النفس باللهو ولو حلّ. كذلك لو خُير المفتي بين دفع الصائل أو طلب العلم، لقدّم دفع الصائل لضرورة حفظ النفس الآنية. كذلك في المفاسد، فهناك من الأمور ما يحمل مفاسد أكبر مما تحمله أمور أخرى، فيختار المفتي ما فيه المفسدة الأقل لدفع المفسدة الأعلى مثل أن يُخيّر الطبيب بين بتر عضو فاسد أو وفاة المريض، فيُقدّم بتر العضو الفاسد لتجنب مفسدة أعلى وهي الموت.

- **الجمع بين المتماثلات والتفرقة بين المختلفات**

١. أصل القاعدة ورد في القرآن الكريم، في قوله تعالى «أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ»، وقوله تعالى «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ». وقد قال تعالى «الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ «

٢. وقد فصّل ابن القيم هذه القاعدة، الشرعية والعقلية، في كتاب «أعلام الموقعين»، فهي أساس القياس، الذي أراد من نفوه أن يثبتوا في الشريعة ما لا يثبت عقلا، وهو أن أساس القياس غير صحيح، من حيث أن الشريعة قد جمعت بين مختلفين وفرّقت بين متشابهين! وضربوا مثلاً من أن الحائض تقضي الصيام دون الصلاة، وهما متماثلان. قال ابن القيم: «وأما إيجاب الصوم على الحائض دون الصلاة فمن تمام محاسن الشريعة وحكمتها ورعايتها لمصالح المكلفين، فإن الحيض لما كان منافيا للعبادة لم يشرع فيه فعلها، وكان في صلاتها أيام الطهر ما يغنيها عن صلاة أيام الحيض ، فيحصل لها مصلحة الصلاة في زمن الطهر،

لتكررها كل يوم ، بخلاف الصوم ، فإنه لا يتكرر، وهو شهر واحد في العام ، فلو سقط عنها فعله بالحيض لم يكن لها سبيل إلى تدارك نظيره ، وفاتت عليها مصلحته ، فوجب عليها أن تصوم شهرا في طهرها، لتحصل مصلحة الصوم التي هي من تمام رحمة الله بعبده وإحسانه إليه بشرعه» اهـ ج٢. وقد رد على عدد كبير من إشكلاتهم الباطلة في ردّ القياس.

٣. وهذا، مع كونه خطأ عظيم من نفاة القياس، وهم الظاهرية من أتباع ابن حزم، فهو افتئات على الشريعة ورميها بما لا يصح في عقول العقلاء.



الفصل السادس عشر

- **النادر ليس له حكم في الشرع**

١. وقبل أن نبدأ الحديث عن هذه القاعدة، نود أن نوضح أن معنى «لا حكم له في الشريعة»، أن الشريعة ليس فيها حكم خاص منصوص من آية أو حديث يبيّن حكم النادر من الحالات بذاتها.

٢. فأحكام الشريعة قد نزلت عامة كلية، عموما ينطبق على الأغلبية من أفراد المكلفين، في غالب أحوالهم. أما ما يتعرض له فرد بعينه فقد لا يكون داخلاً تحت نص من آية أو حديث. ومن هنا جاءت حكمة الاستقراء، واستنباط القواعد الكلية من جزئيات النصوص، لتكون مرجعا للفقيه في مثل تلك الحالات، وتكون نابعة من الشريعة من حيث أن تلك القواعد قد ثبتت من جزئيات (نصوص) كثيرة مبثوثة في الشريعة، تحمل معنى القاعدة الكلية. ويكون الأمر كله لله.

٣. الهام هنا، أنّ مثل تلك الحالات، تحتاج إلى فقيه أريب، ليتمكن من وضعها تحت القاعدة الصحيحة، التي تنتمي اليها. وهذه الحالات تجرى مجرى النوازل الخاصة، أو عموم البلوى في شخص معين، في كل حالاته، كما بيّنا من قبل.

٤. والمناسب هنا أن نتحدث عن الحالات الفردية، التي، وإن ثبتت في الشريعة بنصٍ من آية أو حديث صحيح، لكنها تأبى أن تدخل تحت القاعدة التي يُفترض أنها تنتمي اليها. بل تجدها تعارضها بشكل ما. وهذه الحالات تسمى قضايا الأعيان، أو حكايات الأحوال. ومثال ذلك ما جاء في البخاري ومسلم من رواية المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه لحديث النبي ﷺ «مَنْ نِيحَ عَلَيْهِ يُعَذَّبُ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ »، ووردت أحاديث صحيحة أخر عن عدد

من الصحابة بنفس هذا المعنى. لكن عائشة رضي الله عنها، لمّا سمعت أنّ عمر رضي الله عنه في وقت وفاته قال، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»، فقالت «رَحِمَ اللهُ عُمَرَ، وَاللهِ مَا حَدَّثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِنَّ اللهَ لَيُعَذِّبُ الْمُؤْمِنَ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ» وَلَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ، «إِنَّ اللهَ لَيَزِيدُ الْكَافِرَ عَذَابًا بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ» وَقَالَتْ: حَسْبُكُمْ الْقُرْآنُ (وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى). فيتضح هنا الاختلاف بين عائشة رضي الله عنها وبين ما روى صهيب عن عمر رضي الله عنهما، واستشهادها بقاعدة كليّة متينة في الشريعة وهي «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ». وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية اختلاف الصحابة والعلماء في تأويل الحديث بعدة معان. لكن الشاهد هنا أن هذا الحديث لا يقدح في صحة القاعدة الكلية القرآنية «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ».

- **الطاعة لا تكون إلا في معروف**

١. وهذا الأصل في غاية الأهمية في عصرنا هذا، حيث كثرت المعاصي وانتشر الفجور، بل الإلحاد والكفر، فصار في البيت والعمل والشارع والإعلام. فوجب أن نعود لهذا الأصل حتى لا تتوه الأمور.

٢. والطاعة المطلقة ليست إلا لله سبحانه ولرسوله ﷺ، أما طاعة أي بشر كان، فلا تكون إلا مقيدة بالمعروف. قال تعالى في سورة المائدة ٩٢ «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا»، فدلّت على مطلق الطاعة لله ولرسوله. وقال تعالى في سورة النساء ٥٩ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» ويتضح جلياً من السورتين، كيف أن الله تعالى، مرة أخرى، أكّد على استقلالية طاعة رسول الله ﷺ، وفي الثانية على تبعية طاعة أولي الأمر طاعة مقيدة بطاعتهم لله ولرسوله ﷺ.

٣. وعلى المستوى الشخصي، فإن الله أمر الزوجة أن تطيع زوجها، لكن إن أمرها بمعصية لم تطعه. كذلك الأب مع ابنه، أو العامل مع رئيسه.

٤. أما على المستوى العام، فوليّ الأمر له حالات ثلاث، أن يكون تقيا نقيا عابدا ورعا، أو أن يكون مسلما فاسقا مرتكبا للآثام والظلم، أو أن يكون ممن ارتد بفعل مكفّر فيه من الله برهان.

٥. فأما ولي الأمر الأول فهذا يجب طاعته وموالاته جزماً.

٦. أما الثاني ففيه حالتين:

i. ألا يكون هناك مقدرة على تغييره، بلا سفك دماء المسلمين، فهذا تجب طاعته، مع الندب إلى نصحه من العلماء الربانيين، فإن قتل من نصحه، فهو من الشهداء. روى الحاكم في المستدرك وصححه، عن جابر رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»، ووردت في المعنى أحاديث كثيرة. وقد روي مسلم بسنده عن عوف بن مالك قال قال رسول الله ﷺ (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم قيل يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف فقال لا ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئا تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يدا من طاعة».

a. وقد دلّت هذه الأحاديث بمجموعها على أمرين، أولهما أن النصح واجب على من قدر عليه، وأن الطاعة مقيدة بإقامة الصلاة، وهي دالة على إقامة الشعائر وتحكيم الشرائع. فمن فرق بين إقامة الشعائر وتحكيم الشرائع، فقد خبل عقله!

b. أن بغض هؤلاء الحكام واجب على المسلم، من حيث يرتكبون المعاصي والآثام. لكنهم لا زالوا في عصمة الإسلام، يقيمون الشعائر والشرائع ويجاهدون في سبيل الله.

ii. أن تكون هناك مقدرة على تغييره دون سفك دماء معصومة، فهذا يجب تنحيته، وإقامة الأعدل الأتقى. وكيف يكون في مقدور العبد استبدال العدل بالظلم: فيحاج في ذلك، إلا أن يكون ملوث اليد واللسان، كما قال الغزالي رحمه الله «وأما الآن؛ فقد قيَّدتِ الأطماع ألسن العلماء؛ فسكتوا، وإن تكلموا؛ لم تساعد أقوالَهم أحوالُهم، فلم ينجحوا، ولو صَدَقوا وقصدوا حقَّ العلم؛ لأفلحوا». والله المستعان.

٧. وأما وليّ الأمر الذي جهر بالكفر عيانا بيانا، بفعل كل عمل مكفر في دين الله، ووقع في كافة نواقض الإسلام، من تنحية الشريعة، والتضييق على إقامة الشعائر، واعتقال وقتل من ظهر منه تديّن، وموالاة الكفار وبيع البلاد لهم، بل وتحريضهم على المسلمين المقيمين في الخارج، وتولية كلّ كفار أثيم، وإعلاء شأن العهر والعاهرات، والسماح بالإلحاد وتكذيب الرسول ﷺ ونقد القرآن علنا في الإعلام، فهذا يجب العمل على إزالته ولو بالقوة، وكفره فيه من الله براهين لا تحصى، بل من شك في كفر مثل هذا الحاكم، كفر بذاته، لو كان ممن يقرأ في أمور الدين، فكيف بمن والاه ومدحه وانضم اليه، وعانق كبير النصارى ولبس الصليب، ولا تكاد قائمة البراهين على كفر وليّ الأمر هذا، تتوالى لا تكاد تنتهي.



الفصل السابع عشر

- **من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه**

١. وهذه قاعدة شرعية أخلاقية عظيمة، تقوم على إعطاء كلّ ذي حق حقه، وعدم التعدي، والصبر، وأصلها سد الذرائع. إذ استعجال الثمرة وسيلة لجلب منفعة لم يأت وقتها الذي حدده لها الشارع. فهي إذن وسيلة إلى محُرّم فتبطل بحكم سدّ الذريعة.

٢. فمثال ذلك من قتل من سيرث منه، فعقابه في الدنيا ألا يرث على الإطلاق. كذلك إذا طلّق رجلٌ امرأته وهو على فراش الموت ليمنع عنها الميراث، ورثت منه.

٣. لكن هذه القاعدة لا تُطبّق على إطلاقها، بل هي مرتبطة بثبوت علة التحريم. ومثال ذلك، الرجل يأخذ شراباً ليمرض قبل الصيام حتى يصوم، فيمرض، فليس عليه الصيام وقتها، بل عليه القضاء كمن لم يفعل تلك الفعلة. وحكمة ذلك أن الإفطار مرتبط بالمرض، وهو علة نصية ظاهرة، فلا يمكن تعديها، لأنها ثبتت بالفعل. لكن هذا في أحكام الدنيا، أما أحكام الآخرة فالرجل آثم على تحيله.

- **مراعاة السنن الكونية والشرعية الاجتماعية**

١. أقام الله سبحانه هذا الدين بشكل تنتظم فيه أحكامه، على الفرد وعلى المجتمع، كما تنتظم الكواكب والمجرات في أفلاكها، قال تعالى «لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ». فهذه الآية دالة على السنن الكونية التي لا تتخلف حتى يرث الله الأرض وما عليه.

٢. ومثل ذلك في السنن الإجتماعية. ألم تر قول الله تعالى «كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ». فانظر إلى ثبوت السنن في

المجتمعات العمرانية. يوجّه الله سبحانه المؤمنين لهذه السنة، فيقول سبحانه: انظروا إلى القوم من قبلكم، رغم أنهم كانوا أشد منكم قوة وأكثر ولدا، لكنهم أخذوا حظهم في الدنيا، ولم ينكروا منكرا ولا أمروا بمعروف، فإن فعلتم مثلهم فأخذتم حظكم في الدنيا، ولم تنكروا منكرا ولا أمرتم بمعروف، بل قمتم بفعل المعاصي والفسق الذي كان فيهم، فقد كان جزاءهم أن حبطت أعمالهم في الدنيا، فانهزموا وبادوا وتشتت أممهم، كما خسروا الآخرة، أولئك من يُطلق عليه الخاسرون حقاً. فالعبرة هنا أنكم إن فعلتم ذلك، أصابكم ما أصابهم، وكنتم معهم من الخاسرين.

٣. وقد تواتر هذا المعنى في آيات القرآن، إذ يُحمل على هذا المعنى كلّ ما جاء في القرآن من آيات مثل «يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ». فانظر، يا رعاك الله، كيف ربط الله سبحانه بين السنة الكونية، فجعلها عبرة يعتبرها الناس في حياتهم الإجتماعية، ليراعوا تلك السنن. لذلك قال رسول الله ﷺ فيما ثبت عنه في البخاري»عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ». فأخبر ﷺ بما سيكون من أمته من اتباع اليهود والنصارى، في كل أمرها، وصدق المعصوم ﷺ.

٤. فالسنة الإجتماعية لا تتخلف. لكن الواجب على علماء الشريعة، والإجتماع والتاريخ، أن ينظروا، في ضوء قصص القرآن عن الأمم البائدة، وعما نحن فيه اليوم من ترك السنن التي أدت لرفعة المسلمين، ردحا طويلاً من الزمن، واستخلاص العبر مما جرى في التاريخ المعروف، من مصادر موثوقة، ثم استنباط ما على المسلمين اتباعه، من أمور الدنيا، التي قال فيها المعصوم ﷺ في صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بقوم يلقحون النخل فقال: لو لم تفعلوا لصلح، قال: فخرج شيصا « تمرا رديئا» فمر بهم فقال: ما

لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا.. قال: أنتم أعلم بأمور دنياكم.» فهذه الأمور هي التي يُحتاج فيها إلى علماء ناظرين، يتعاونون مع علماء الشريعة في ضبط أمور الناس، وإصلاح شؤونهم، وتجنيبهم ويلات خرق السنن الإلهية.

٥. لكن، واحسرتاه، قد صدق المعصوم ﷺ، ودخلت أمة الإسلام كلّ جحور اليهود والنصارى، وباتوا تابعين أذلاء فقراء متخلفين في كل مجال من مجالات الدنيا، التي أمرنا الله سبحانه بأن نكون فيها أقوياء، فننصر دينه بقوتنا وننتصر بقوة هذا الدين «وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ». فكان أن أرْهَبنا عدو الله وعدونا، في عقر دارنا، وصدق المعصوم ﷺ في حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، فقال قائل: ومِن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن ؟ قال: «حب الدنيا، وكراهية الموت». وقد كان كما أخبر ﷺ.

٦. وأود أن أحيل القارئ هنا إلى مجموعة من الدراسات الإجتماعية، التي كتبتها في منتصف الثمانينيات، تبين القصد من ضرورة قيام المسلمين بهذا اللون من الدرس، على غرار ما كتب ابن خلدون، فاتبعه الغرب جميعا فيه، وما دونه ابن تيمية في شؤون العمران، مما هو من عبر الكتاب والسنة[١].

٧. ولا عليكم ممن يقول برفض كافة ما أنتجه الغرب في ذلك المجال.

[١] http://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/72962/%D9%86%D8%B8%D8%B1%D8%A7%D8%AA-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AC%D8%AA%D9%85%D8%A7%D8%B9%D9%8A%D8%A9-ndash-%D9%85%D8%B5%D8%A7%D8%AF%D8%B1%D9%87%D8%A7-%D9%88%D9%85%D9%86%D8%A7%D9%87%D8%AC%D9%87%D8%A7

٨. فإن هناك ما هو مرفوض ابتداءً كنظرية داورين ومنهج فرويد في التحليل النفسيّ، وكتب الفلسفة عامة، إلا ما ندر، وما يتصل بها يسمونه علم الميتا- فيزيقيا، ويقصدون به عالم الغيب، والفنون المحرمة كالموسيقى والرسم وصناعة التماثيل!

٩. ومنها من هو مقبول ابتداءً مثل ما يخص علوم الحاسوبات والنظريات الفيزيقية والرياضيات وعلوم الطب والبناء، والصناعات بأنواعها، وعلوم فن الإدارة، والتي كتبت فيها بحثي في الماجستير، وكتابي في الدكتوراه.

١٠. ومنها ما يجب نخله وتصفيته للحصول على ما فيه من حق، وترك ما فيه من الباطل. ومقياس ذلك هو أن يعرض ما هو متاح على الكتاب والسنة، فإن وافق، فمصدرنا هو الأوثق، وإن خالف رُفِض، وإن كان من جنس المصالح المرسلة (ولا أعنى المصلحة المرسلة بعينها، من حيث المصالح المرسلة تجرى في الوسائل لا المقاصد)، ويجري مجراها في الفهم، فلا بأس من النظر فيه، مع الاحتراز بصحبة عالمٍ وتوجيهه. ومثاله علم التاريخ، إذ معظم ما دوّن الغرب من تاريخ للأمم، يجري على مفاهيم الغرب النصرانية وطبائعهم الإستعمارية، إلا قليلا منهم ممن أنصف، مثل ويل ديورانت وتوماس كارليل وجوتة الشاعر والفيلسوف الألماني.

الفصل الثامن عشر

- **مراعاة الفرق بين المُمكن، والمُحتمل، والمقدور عليه**

١. أودّ، قبل أن أنشأ في هذه النقطة، أنْ أُبَسِّط أمراً، في دائرة أصول الفقه، أراه لازماً ليستفيد القارئ ما أمكن مما يأتي، وهو يتعلق بأصناف الأحكام التي يخضع لها المسلم في حياته. فالأحكام صنفان، أولها الأحكام الشرعية، ولها شقّان، التكليفية، وهي خمسة، الواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام، ثم الوضعية، وهي خمسة، السبب والشرط والمانع، والرخصة والعزيمة، والصحة والبطلان. ثم الصنف الثاني وهو الأحكام العقلية، ويعنى بها الأصوليون ما هو ثابتٌ في العَقل الإنسانيّ من ضروراتٍ لا تتخَلّف، كقولنا أنّ الكلّ أكبر من الجزء، وأنه يستحيل اجتماع الضدين. وتتكون في العقل البشريّ أحكام «عادية»[١]، تربط بين هذين الصنفين وتصبح لازمة من لوازم العقل المنطقيّ.

٢. الممكن، والمُحتمل، والمقدور عليه

ثلاثة أصنافٍ، تشترك فيها الضرورات العقلية مع الأحكام الشرعية الوضعية، يجب أن يتفهمها الناظر في شؤون الاجتماع وحركة التاريخ، حيث تتشابك معانيها عند الكثير من الناس، مما ينعكس على أحكامهم على الأحداث والأفكار والناس.

٣. فالممكن، هو قسيمُ المستحيل. وذلك يعنى أنّ كلّ ما هو ليس مستحيلاً، فهو ممكن بالطبع. والمُمكنات أكثر من أن تُحصى، إذ هي كلّ ما يَتصور العقل وقوعه، بلا استحالة. ومثيل ذلك أن يطرق باب بيتٍ رجلٌ يقول أنّ قريباً لهم مات وترك لهم وللعائلة مئات الملايين من الجنيهات! وممكنٌ آخر أن

[١] أي تصبح من قبيل العاديّ المقبول عقلًا ومنطقاً.

تشرق شمس الغد على عبد الفتاح السيسيّ، فإذا به يشهد أن لا إله إلا الله حقاً وصدقاً، وأنّ شرع الله لابد أن يسود في بلاد المسلمين، وأنّه قرّر الإفراج عن كافة المعتقلين، وتسليم نفسه للمحاكمة حسب قواعد الشريعة وأحكامها. هذه كلّها من المُمكنات، إذ لا يُتصَور فيه استحالة عقلية. ومثل هذه المُمكنات أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة.

٤. أمّا المحتمل، فهو تخصيص من الممكن بإحتمال الوقوع. فالمُحتمل هو الممكن الذي يتعلق به سببٌ ظاهر. إذ إنّ من تلك الممكنات ما يصاحبه أحوالٌ وأسبابٌ تَرْجُح بها ملابسات تجعلها أقرب للتحقق، وأسهل في تصور الوقوع من غيرها من الممكنات. من ذلك أن يُقال لمن يطلب وظيفة ويسعى لها أنّ هناك من سيطرق بابه في الأيام القادمة بخبرٍ سارٍ، أو أنْ يقال أنّ استمرار التظاهرات سَيَسْهُم في إسقاط النظام السيسيّ الكفريّ. هذه المُحتملات لها شواهد تجعلها مقبولة في العقل، وقريبة من المنطق. فالساعي للعَمل بجِدّية، سيجد بغيته على الأرجح، والتظاهرات هي بلا شك قلاقل تسهم في زعزعة النظام تجعل سقوط النظام باستمرارها سبب محتمل من بقية الأسباب التي تؤدى لتلك النتيجة.

٥. أمّا المقدور عليه، فهو تخصيص من المُحتمل بما يمكن أن يقوم به المُكَلّف[١]، سواءً كان فرداً أو جماعة. وليس كلّ مُحتملٍ مقدور عليه. بل تتحدّد القدرة على المحتملات بقدرة المُكلّفين، كما تُحْكَم بالأحكام التكليفية، طلباً ونهياً وإباحةً. فمثال ذلك أن يُطالبَ فردٌ بعينه بالإلتحاق بالجهاد، وهو غير قادرٌ عليه ابتداءً. وعدم القدرة هنا إمّا أن يكون عن عجزٍ جسدي طبيعي، وهو المرخّص فيه شرعاً، أو تأهيلي كانعدام الدُرْبَة، فيطالب الفرد بالتدريب، لكن لا يحاسب على عدم الجهاد لعدم القدرة عليه. أو يكون عجزاً نفسياً كالجبن

[١] المُكَلَّف، يعنى المسلم الذي هو تحت تكليف الله سبحانه.

والخوف، وهو ما يوقع في الإثم والحرج[١]. أمّا عن الجماعة، فإنها تأثم كلها إن لم يوجد فيها من يقدر على فعلٍ مطلوبٍ كالجهاد وغيره، إلا إن كان عدم القدرة هنا يختصّ بطبيعة عامة تجعل أفرادها لا يحسنون هذا العمل ابتداءً، كما نحسب أنّ المصريين لا يُحسنون الصراعات المسلحة، سميه جهاداً أو غير جهاد، إلا المحترفين منهم كأفراد الجيش مثلاً. فهذا الطلب يُعتبر محتملاً لكنه من غير المقدور عليه بالنسبة لهم.

٦. ثم من المقدور عليه ما هو مفعولٌ، وهو ما يثاب عليه الفرد، أو متروك وهو ما يحاسب عليه، فمثال ما هو متروك مع القدرة عليه الدفاع عن النفس ضد العدو الصائل، كما يحدث في مصر من تصدي للرصاص بالصدر المكشوف مع القدرة على الدفاع عن النفس، فهذا واجبٌ مقدورٌ عليه متروك معاقب على تركه.

٧. والأصل، هو أن يقوم الفرد بكلّ واجبٍ شرعيّ عينيّ كلّفه به الله سبحانه. ثم يأتي من بعد ذلك أصناف الناس ودرجاتهم في اختلاف القدرات، ومن ثمّ اختلاف طبقاتهم في حساب الآخرة، بين ظالمٌ لنفسه، ومقتصدٌ ومُسارعٌ للخيرات.

٨. وفائدة هذا التصنيف الذي ذكرنا هو تنمية قدرة القارئ المهتم بالشأن الإجتماعيّ والسياسي في بلاد المسلمين على أن يرى الأوجه المتعددة التي ينظر بها الفقيه عادة إلى الأحداث، سواءً على مستوى الفرد أو الجماعة، ومن ثمّ يحكم على أدائه أو أدائها بما يوافق حكم الشرع.

٩. ولعلي لا أكون أعْسَرْتُ على القارئ أمرَه، فليسامحنا، ولنجتهد سوياً في التعرف على أصول النظر، ليكون حديثنا على بصيرة.

---

[١] وهو ما يقع هنا بين أمرين «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها»، وتحقق الوجوب العينيّ عليه. والفقيه يحكم حسب الحالات الخاصة، ويكون المطلوب بما هو مقدور عليه، لا بترك الأمر كلية، كأن يجاهد بالكلمة، أو بالمال، أو بكليهما.

- **الأحكام الشرعية في مقابل الأحكام الوضعية**

١. الفرق بين الأحكام الشرعية والأحكام الوضعية هو الفرق بين الإسلام والكفر. فالأحكام الشرعية هي «خطاب الشارع لمجموع المكلفين بالاقتضاء والتخيير والوضع»

٢. والجملة الأخيرة تعني أن الأحكام الشرعية هي ما خاطب به الله سبحانه، سواء من ذكرٍ منزّل أو سنة ثابتة، عباده الذين تتحقق فيهم شروط التكليف، سواء الأحكام التكليفية الخمسة، وهي بالاقتضاء (أي بالأوامر بشقيها الوجوب والندب، والنواهي بشقيها الكراهة والتحريم)، والتخيير أي الإباحة، والوضع أي الأحكام الوضعية الخمسة (السبب والشرط والمانع والرخصة والعزيمة والصحة والباطل).

٣. والحكم هو أعلى مقام الألوهية من حيث يمثل الطاعة المطلقة لله، والتسليم له «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ». وهو ذروة سنام التوحيد، فمن شرّع من دون الله، ووضع شرعا موازياً جديداً، فقد كفر بالله سبحانه كفراً أكبر ناقلا عن الملة. هذا في التشريع الذي يُلزم به الناس وتسنّ به القوانين. وهو ما يحدث في كافة رقع البلاد «الإسلامية» التي كانت تُحكم من قبل بشريعة الإسلام.

٤. فحكام تلك البلاد، القائمين على التشريع فيها، وجيوشهم التي تحافظ على تلكم النظم، وتقمع الحركات التي تبغي عودة الإسلام للحكم، وشرطتها وأجهزة أمنها التي تعتقل وتعذّب وتقتل من يجهر بالحق، وأجهزة إعلامها التي تروّج لتلك الأنظمة وتقبل باطلها حقاً، ومشايخها الذين اشتروا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، وراحوا يصدرون الفتاوى المبيحة للمحرمات، فأحلوا ما حرّم الله وحرموا ما أحل الله، وصدق فيهم قول الله تعالى «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ»، ثم من تابعهم

ووالاهم وأعان على كفرهم، مع علمه به، فكلّ أولئك هم كفار مشركون، لم يصيبوا من الإسلام حبة خردل.

٥. لذلك، فإن الخروج على هؤلاء الحكام هو فرضٌ واجبٌ إن اكتملت القدرة وتوفرت أدوات الاستطاعة، وإلا فالعلم والتخطيط والترتيب، لعل الله أن يحدث بعد ذلك أمرا.

- **الفرق بين الشورى والديموقراطية**

١. يقع الخلط بين مبدأ الشورى الإسلامية، والديموقراطية الغربية الوثنية، ليس بين العوام فحسب، بل حتى في أذهان كثير من الدعاة، بل من مشاهير الدعاة والخطباء!

٢. ويأتي هذا الخلط من أمور، أحدهما قياس الشبه بينهما، مع الفارق. والاضطراب في تعريف كليهما، ثم في النتيجة المترتبة على تطبيق كليهما.

٣. فهؤلاء المخدوعون يرون التشابه في مبدأ «الاستشارة» العامة في الديموقراطية، فيقيسونه على صورة «الشورى»، فيجمعون بينها بلا جامع حقيقي لوجود الفارق بين الاستشارتين، كمّا وكيفاً، فيفعلوا فعل إخوة يوسف في قياسهم الباطل «قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ»، فقاسوا قياس شبه باطل.

٤. ومبدأ الديموقراطية يقوم، نظرياً» على أن رأي «الشعب»، بكل طوائفه، على اختلاف طبقاتهم العلمية وقدراتهم الذهنية، فردا فردا، فيمن هم في سن الانتخاب، هو الرأي الذي يُشرعه الشارع، فيعطي الجاهل وزن العالم، والعاهر وزن الصالح. وهذا في أصله خطأ فادح ومقياس فاشل، إذ يسوى بين مختلفين. ثم تدخل عملية الدعاية الانتخابية، التي تزيّن للعامي الجاهل

والعاهر وكافة الطبقات الدنيا، ما هو في حقيقته شر محض. وتكون النتيجة فوز من أنفق أكثر على دعايته، لا من هو أفضل لشعبه. ومن هنا أبطل كثير من العلماء مثل ويل ديورانت، أصل الديموقراطية وأسموها وهماً.

٥. أما الشورى، فإنه لا مرجع فيها لرأي يخالف لكتاب والسنة، ولو أجمع عليه أهل الأرض قاطبة. كما أنها تقوم على اختيار النخبة في المجتمع، سواء من ناحية العلم الشرعي أو العلوم المكمّلة، بحيث يكونوا ممن عرفوا بالأمانة والتقى ونظافة اليد. وهؤلاء هم أهل الحلّ والعقد. ومن هؤلاء يتم اختيار منصب وليّ الأمر، وهم من يرشحون أعضاء الحكومة، في لجان مختصة بكل فرع من فروع إصلاح الرعية.

٦. فالفرق بين الشورى والديموقراطية هو الفرق بين الإسلام والكفر. وعليه يقوم مبدأ شرعية الانتخابات للمؤسسات الديموقراطية كالبرلمان، فإن المرفوض فيها ليس الصندوق الخشبيّ، بل ما يمثّله من مبدأ زائف مضادٍ للشريعة.

- **حق الفرد وحق المجتمع، أيهما أولى المصلحة العامة أم المصلحة الخاصة؟**

١. يطرح هذا التساؤل نفسه في المقارنة بين التشريعات الإسلامية والتشريعات الوضعية البشرية، التي مصدرها الغرب.

٢. فالغرب يزعم أن حضارته تقوم على ثلاثة ركائز أساسية، اجتماعية وهي مبدأ الليبرالية، واقتصادية وهي مبدأ الرأسمالية، وسياسية وهي مبدأ الديموقراطية. وهذه الثلاثة تأخذ بعضها برقاب بعض، لا يصلح أحدها دون الآخر. أما الديموقراطية فتحدثنا عنها.

٣. والرأسمالية، أو نظام السوق الحرّ، كالديموقراطية، نظامٌ خدّاع من خارجه، فاسد من باطنه، يقوم على النظام الربوي الذي أسسته اليهودية العالمية، منذ

أيام الرومان. وهدفه باختصار هو إيجاد طبقتين اجتماعيتين، طبقة الأغنياء، وهم المسيطرون على المؤسسات الكبرى والبنوك، وطبقة العمالة، التي تتراوح بين القادر على مصروف يومه، ومن لا يملك شيئاً البتة. والرأسماليون يعملون على إزالة الطبقة المتوسطة، لصالح الطبقة الغنية، فيزيد الأغنياء غنى، والفقراء فقراً.

٤. أما الليبرالية، فهي الطريقة التي ترسم العلاقة بين الفرد والمجتمع. وفي ذاك النظام، تظهر الفردية كأشد ما تكون، فيُمنح الفرد حرية شبه مطلقة، يصل بها إلى حدّ التعدي على حقوق الآخرين، وعلى حقوق المجتمع. فللفرد حرية السكر والجنس بلا قيود، إلا ما هو صوريّ، يمنع شراء الخمر وممارسة الجنس إلا بعد الثامنة عشر سنة، وهو ما يتسبب في ارتفاع نسبة الجريمة، وبخاصة مع خفة العقوبات ومنع قتل النفس بالنفس. كذلك تجد الفرد يطلق الموسيقى بأعلى صوت، لا يأبه بجار ولا مريض، فحريته تعلو على حرية المجتمع.

٥. أما في الإسلام فقد وازن الشرع بين حرية الفرد والمجتمع، فأعطى الفرد حرية يقيّدها بحدود مصلحة المجتمع، فلا تطغي أحداهما على الأخرى. فمنع الجلوس في الطريق، وأمر برفع الأذى منه، وحدّ الحدود الملائمة للجريمة بقصد الردع، فمثلاً إتلاف عضو سرق به سارق، اكتملت فيه شروط التهمة وانتفت الموانع، أفضل للمجتمع وأحرص على مصلحته الجميع، من مراعاة مصلحة الفرد السارق، وفيها ردع صارمٌ لمن تسوّل له نفسه السرقة. كذلك في الزنا، الذي يرتكبه محصن، أو محصنة، بشكل مكشوفٍ لا يُبالي، حتى يراه أربعة شهود عدلً معا، فهذا رجمه رادع أمثل لصيانة العرض، ومنع اختلاط النسب والتلاعب بالشرف. وقتل قاتل النفس التي حرّم الله، فيه إقرار مبدأ عظيم شرعا وعقلاً، وهو أن «وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ

بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

هذا شرع الله كما أنزله على أهل الكتاب، وكما أقره في شريعتنا الخاتمة، ونبّه أن من لا يفعل ذاك فهو عين الظلم الأكبر، المضاد لحكمة الله والخروج عن طاعته، فأتى بوصف الظلم، لما يكون من تعدٍ من الأفراد على حق المجتمع في الصيانة والصلاح.

انتهى بعون الله وتوفيقه في

د طارق عبد الحليم

٦ أبريل ٢٠١٩ – ١ شعبان ١٤٤٠



خطوات منهجية في ظل الحقيقة العارية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد

كشفنا فيما سبق «قيام الدولة وبناء الأمة - الحقيقة العارية» ،وأفضنا فيه عن القوى الفعلية المسيطرة على تحرك أمتنا. ثم، وبالأخص والأهم، أعدنا تحديد معنى الأمة وتصوراتها ومقوماتها، وميّزْنا بين «الشعب» وبين «الأمة»، فالشعب قد يحتوى أمة كاملة، والأمة قد تشمل شعبا كاملاً، لكن بلا تلازم حتميّ بين العلاقتين. فأمتنا المسلمة، التي تعيش على الرقعة الي حكمها المسلمون قروناً، ليست هي ذاتها الشعوب التي تعيش على هذه الرقعة اليوم، بل هي مختلطة بها ممتزجة بنسيجها إلى حد الأسرة الواحدة، في شكل هلاميّ أشبه «بالجيلو» الذي يأكله الأطفال! كبير الحجم، ضعيف البنية، ليس له عمود فقريّ، ولا يرى الناظر في داخله شئ يقيم به انتظاما أو تماسكاً.

وأمتنا المنهكة محصورة داخل تلك المنظومة الهلامية، تشاركها الكثير من آلامها ومحنها، لكنها تختلف عنها في تحديد سبب المشكلات الحقيقي وطرق حلها وتحديد العدو من الصديق وحفظ حقوق المودة وأواصر الولاء حية فاعلة. بل إن الأكثرية من تلك الأمة الهلامية لا يكادُ يُعرف له دين ولا هوية ولا توجه. فلا يجب الخلط بين «الأمة» وبين عناصر تلك الكتلة الهلامية، التي تضرُ ولا تنفع، وتخذل ولا تدفع.

فما هو الحل الممكن الوقوع، في دائرة المحتملات الواقعية، الذي يمكن أن تسير عليه الأمة الأسيرة لحفظ المقاصد التالية:

١. بقاؤها وعدم ذوبانها في الكتلة الهلامية.

٢. توسعة وجودها في كل رقعة يوجد عليها عناصر من تلك الأمة.

٣. ترسيخ مبادئ ضرورة السعي للتمكين في الوقت المناسب والظروف المناسبة

وحين نذكر ذلك فإننا نريد به أمراً مشمولا بحفظ الدين، إلا إنه يختص بمواجهة خطر جديد على الدين، ليس من قبيل ما تحدث عنه الأصوليون في مقاصدهم بالتمام.

ولا شك أن في بقاء الأمة حفظٌ لبقاء الدين، فالخطوات التي تتخذ هنا تصلح هناك، مع اعتبارات التقديم والتأخير حسب ظروف الواقع من ناحية، وتركيزاً على حفظ دين الفرد أو الجماعة أكثر مما يُعنى بكليات حفظ الدين لأمة قائمة حية.

لا شك أن الخطورة الكامنة في الجسد الهلامي المحيط بالأمة ليس وجودا سلبياً، بل هو كالفيروس يحاول أن يتغلغل في جسد الأمة المحاصرة، تارة بالاستهزاء بطرقها ووسائلها مثل التخلف وعدم مسايرة الواقع الحديث، وأن دين الإسلام الصحيح هو ما يراعي الظروف المحيطة ويستوعب التجديد ... وهلم جرا! وتارة بالعداء فيعلن كراهته لما عليه هذه الأمة، وعدم اطمئنانه لها وخوفه منها، رغم عدم التناسب العددي بينهما! وتارة التشبه بالخلق يالعلمي والمجادلة بالباطل، لكن ما أسرع ما ينهزم الباطل وتظهر الحجة الضعيفة الساقطة، فيقع العدو في حيرة من أمره! وتارة بمغريات التوجه الجديد في الإسلام الوسطي، وما سيجد من ملذات ومباهج ومال وفرصٍ مفتحة الأبواب، وعلاقات دولية ميسرة!

كل تلك المغريات، لا حقيقة لها في واقع الأمر، فالطاغية متحكم، والطاغية مجرم، والطاغية كاره، فأنّى لمجرم متحكم كاره أن يعطى، ولو فتاتاَ. بل ها هو الفتات الذى كلن يلقيه للشعوب عقوداً متطاولة، قد بخل بها عليه، انتزعه منه وتركه لا يملك شيئا ولا من أمر نفسه!

يجب على بذرة أمة المسلمين، التي بقيت تحمل التوحيد الخالص وسط ذاك الركام الهائل من النتاجات العقدية المشوهة، كمحصلة لتجارب الغرب في عقيدتنا، أن تحمي وجودها وبقاءها، فهي اليوم أمانة ما بعدها أمانة وتكليف ما فوقه تكليف، خاصة ونحن نرى أمام أعيننا أطفال التوحيد وشبابه وبراعمه يُقتلون، ليقضوا على الجيل الجديد مرة واحدة.

أولا

بقاؤها وعدم ذوبانها في الكتلة الهلامية

الخطوة الأولى: إقامة الحدود والمتاريس، سياجاً لعقيدتك

١. التغلب على ذلك الشعور بالقهر والوحدة والغربة، حتى وسط الهلاميين، مع رفض أي تعامل يخرج بعلاقته بهم عن دائرة المعروف الإنساني أو المصلحة المشروعة بشروطها.

٢. توقف الجدل العقيم حول الموضوعات الثابت حرمتها وكفرها بيقين، مثل الديموقراطية والانتخابات والبرلمانات والحرية والعدالة القائمة على فكر البشر وتطوير الإسلام وتجديده وحرية المرأة والمصالح المترتبة على «وسطية» الاسلام المعتدل في مقابل الاسلام «المتطرف» الذي نراه لنا نهجا وشرعة. فلا يسحبنك أحد لمثل ذاك الجدل أبدا، بل ليكن شعارك «وأعرض عن الجاهلين» لكنه إعراض بطريقة الانبياء «سلام عليك سأستغفر لكم ربي»، بلا مزيد كلمة.

٣. لا تظن أن موقفك هذا فيه تراجع أو ضعف أو إمساك علم، بل هو إعلان حد فاصل بين ثوابتك وثوابت غيرك، وشتان بين من جاءك متعلما طالبا للمعرفة، ومن جاءك مجادلاً ساعيا لاثبات نقطة عليك! قلها بصراحة وبقوة «لا وقت لدي لمثل هذا العبث والهراء، هذه ليست دعوة، هذه حلقة صراع كرويّ بين أنصار فريقين، أربأ بديني أن أدخله تلك الحلبة».

٤. احذر كل الحذر من الوارد اليك من الخارج، المدرسة، التليفزيون، النت وهو أخطرهم... فهي مسارب للفساد مزروعة في البيت والبيئة لتكسر حواجزك، وتنفذ لعرينك.

٥. لا تشك لحظة في ثوابت دينك وتوحيدك، لا مقاصداً ولا وسائلاً. فأنت على

صراط مستقيم.

٦. لا تدع الأحداث اليومية التي تمر بك، في البيت أو العمل أو غير ذلك، تصرفك بالكلية عن هدفك الذي هو نصب عينيك «حفظ ديني وبقاء أمتي».

الخطوة الثانية: إعداد النفس والذرية:

وهي الأصل الأصيل في منظومة الحفاظ على الأمة وبنائها. والإعداد يشمل الروح والعقل والجسد.

وهذا الإعداد مشكلة عويصة في كل رقعة إسلامية، وبالمثل في كل بلد غربي، إذ البيئة كلها مسمومة بسموم من شتى البدع والضلالات، في كل أرجاء البلاد. لكن الوسيلة الأنفع هنا هي إنشاء مجموعات متقاربة، يكون هدفها تحصيل العلم الشرعي، وإنشاء فصول بيتية للأبناء والبنات في التوحيد والتاريخ والسيرة.

ومن أهم الأمور هنا هو ربط العقيدة النظرية بما يحدث على الأرض الآن، ربطا كاملاً واعياً مفصلاً، يبين أسباب الانهيار، ومن المسؤول، كما يُنشأ ارتباطا وولاءً بين الشباب وبين المسلمين في كل أنحاء الأرض، يشعرون بآلامهم ويشاركونهم همومهم.

ولا بأس أن يكون من المهام في الفصول تلك أن يُعين موضوعا أو بقعة من الأرض فيها ظلم للمسلمين، ليقرؤوا عن تاريخها وما يحدث فيها حالياً.

ومن المهم هنا هو تأصيل فكرة أن الوقت محدود في حياة المرء، فصرفه كله في اللعب على النت وغير ذلك، هو ضياع لوقت يمكن صرفه في الأهم، وأن التوسط والاعتدال هو مقياس الإسلام في تقدير كل مسألة.

الخطوة الثالثة: إزالة الشبهات:

ولاشك أن الجيل الحالي يتعرض لمنظومة من الشكوك والشبهات، في كل مجال، وجود الله، نبوة رسول الله ﷺ، صلاحية القرآن لكل زمان ومكان، حجية الأحاديث ومكانها في ديننا وتشريعنا. ثم بعد ذلك مسائل جزئية فرعية لا حصر لها، مثل حقوق المرأة والمساواة

في كل شئ، المساواة مع «الآخر»، الإعراض عن تكفير فاعل الكفر بواحاً، وغير ذلك من الشبهات المريضة.

والطريق الأوحد إزالة تلك الشبهات، هو العودة بالشباب إلى مبدأ وجود الخالق بلا ريب، ثم ضرورة مبدأ النبوة، فضرورة اتفاق الآنبياء واستحالة اختلافهم في الله، ثم الثبت التاريخي في حفظ القرآن وضياع غيره، وهكذا، تُبنى كل خطوة بعد أن تُستكمل سابقتها، فإن آمن صاحب الشبهة بتلك الأمور، فتقبل الفروع يصبح في غاية اليسر عليه أو عليها.

أما الردّ على كلّ شبهة فردية وحدها، مبتوتة الصلة بأصل الدين ومعنى التوحيد فهو نوع من العبث في غالب الأحيان، لا يستأهل إضاعة الوقت فيه، إذ سينتقل الشاك من شبهة لآخرى، لا غير.



ثانياً

توسعة وجودها في كل رقعة يوجد عليها عناصر من تلك الأمة.

الخطوة الرابعة: التميز المتواضع والعزة بالدين

من الأخطاء البشعة التي وقع فيها المنتمون للحركة الإسلامية في العقود السابقة هو ذلك الشعور بالتعالى والتميز على الأخرين، حتى الآباء والأمهات، من حيث شعروا بأنهم حملة دين الله والأوصياء عليه في مجتمع جاهلي، سواء كفروهم أم لم يكفروهم. وهذه النظرة الإستعلائية قد أوجدت حاجزا سميكاً بين الشباب والحركة عامة، وبين مادة الدعوة الي هي عامة الناس والأهل والأقارب. وقد برزت هذه الظاهرة نتيجة فهم ملتو لآيات قرآنية، مثل «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين»، وآيات تظهر عزة هذا الدين بعامة «فأن العزة لله جميعا»، ثم الفهم الخاطئ لما دوّن الإمامين المودودي وسيد قطب بالتحديد في عصرنا هذا، خاصة ما ذكر سيد رحمه الله عن «العزلة الشعورية». والشهيد لم يعن بحال من الأحوال الاستعلاء على الغير، بل كان نفسه غاية في التواضع، يعرفه عنه حراس سجنه، وكل من عاشروه، لكن اختلط على الشباب مفهوم العزلة الشعورية، كما اختلط عليهم مفهوم المجتمع الجاهلي، والذي أوضحناه في تصورنا عن الكتلة الهلامية المحيطة بالأمة.

والعزلة الشعورية لا تعني التكبر ولا الإستعلاء بحال من الأحوال، كما لا تعني التفرد والوحدة والانقطاع عما حول المسلم من حياة تضطرب بشتى أنواع المعاملات الضرورية للإنسان. إنما العزلة الشعورية هي حالة مرّ بها كل من تفتحت عينيه على حقيقة الوحي المحمديّ، بعد أن جذبه جاذب بفضل الله تعالى من ذلك المجتمع الجاهليّ أو، إن شئت، من تلك الكتلة الهلامية مجهولة الهوية. وهذه الحالة تجهل الموحد ينكر كثيرا مما يراه الناس عادة مقررة، لا عيب فيها، وينفر من كثير مما يمارسونه باسم العادات على أنه من تقاليد القوم وموروثات الثقافة. ذلك الإنكار والنفور هو ما يجعله، بطبيعة الحال غائباً عن كثير من منلسباتهم وأفراحهم وأعيادهم المصطنعة. ويجعله غائباً عنهم، حتى وقت حضوره بينهم،

في مناقشاتهم وتحاوراتهم في التافه من الأمور التي تخص الدنيا وأحوالها ومعاشها ووسائلها وكل ما فيها، إلا الآخرة وما يخص دين الله وحال المسلمين. وهذا الشعور الذي وصفنا لا يستلزم، عند سويّ الفطرة، العارف بالشرع، أن يستعلى على أحد، إذ طبيعة الإستعلاء بدين الله تظهر في مواقف فردية وجماعية محددة، وتفترق عن الغرور والتكبر اختلافا بيّنا شاسعاً.

ومن ثم، فإن الخطوة الرابعة هي محاولة الانتقاء والاختيار من تلك الكتلة الهلامية بالتواصل معها فيما لا يضر ديننا ولا يهز أصولنا وثوابتنا. كما يجب ألا نجعل التوبيخ والتسفيه هو الأصل في خطابنا مع أبناء تلك الكتلة، فإن في هذا صدّ عن سبيل الله، وتنفير الناس منه. نعم، لا يصح أن نجاريهم في رأي خاطئ أبداً، ولا للحظة واحدة، لكن إظهار الخطأ ومخالفة السنة يمكن أن يتحقق بابتسامة وعرض للرأي الصائب بطريقة علمية، فإن انتبه الخصم، فبها ونعمت، وإن لم، «قالوا سلاما»، ولعل غيرك يكن أوفر منك حظا أو أقوى منك حجة، فتكون هداية ذاك الخصم على يديه.

الخطوة الخامسة: التخلق بالخلق الحسن والرجوع إلى المقومات الأساسية للفطرة السليمة:

معالجة الإنسان من الداخل أعلى مرتبة وأعمق أثراً في التنشئة الحضارية وإعادة بنيان الأمة، خاصة وقد استُهدِفت الأمة في صفات أبنائها الأساسية، فزعوا في الجبن والبخل والتردد وعدم الوفاء بالعهد واستحسان الخدعة وضعف الهمة، وسم من تلك الصفات القبيحة ما شئت. وأمة هذا حال أبنائها ليست جديرة بالبقاء بله النماء. ولذلك فقد بنى الإسلام على الخلق الأصيل والشيم العالية لعرب الجاهلية من كرم وشجاعة وإقدام ونصرة للمظلوم. كيف لا، وقد خرجت بنو هاشم وعلى رأسهم أبو طالب، وهم كفار مشركون، ينصرون رسول الله ﷺ والمسلمين في الشِعَب! ومن هنا جاء حديث رسول الله ﷺ «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام، إذا فقهوا» مسلم واللفظ لابن حبان، أي أخذوا بأحكام الله التشريعية فقها وتطبيقا.

ومن ثمّ، فإن على الساعين إلى تغذية بذرة الأمة المحاصرة، أن يكون هذا البعد في وعيهم

وفي درسهم. فإنه لا صلاح في رجل يتحنث ليلا ونهارا، ثم يتراجع جبنا عن نصرة أخيه في وقت الحاجة!

ويأتي على رأس تلك الشيم، مع ضرورتها كلها بلا استثناء، الوفاء بالعهد والحفاظ على الكلمة الوعد. وهي خصلة اندثرت اندثارا شبه تام من بقايا الأمة. وقد مدح الله سبحانه نبيه اسماعيل بأنه كان «صادق الوعد» مريم، ونعت رسول الله ﷺ مخلف العهد بالنفاق «وإذا وعد أخلف» كما في حديث أبي هريرة المتفق عليه. والرجل يُعرف من صدق لسانه، فإن وعد أوفى، سواء كان في دَيْنٍ أو موعد لقاءٍ أو أي وعدٍ يُلزم به نفسه، أو يقطعه لغيره. وهو متشعب من باب الأمانة بشكلٍ عام.

١. ترسيخ مبادئ ضرورة السعي للتمكين في الوقت المناسب والظروف المناسبة



ثالثاً

ترسيخ مبادئ ضرورة السعي للتمكين في الوقت المناسب والظروف المناسبة:

وهذا المبدأ قد غالت في تجاهله جماعات كالإخوان، ومن بعدهم السلفيون من أهل حزب النور، ومن بعدهم الجماعة الإسلامية، وغيرهم ممن هم أقل وزناً في الساحة، عدا من انتمى إلى الأمة من أهل السنة.

الإخوان حذفت معنى التمكين أصلاً، وغالت فيه جماعات حتى جعلته أصل هدفها دون أن تحوز على أدواته. وكلاهما تسبب في هدم الجزء الأكبر من الأمة وتخريب بنيانها. فإن هناك مبادي تحكم مفهوم التمكين في الأرض، يجب أن تكون راسخة في عقول الكبار قبل الصغار، منها:

١. أن التمكين مشروط بالقدرة عليه، لا على الإطلاق. والشروط تلك لا تلاعب فيها ولا محاورة. بل هي سنن أكثر منها شروطاً. ولهذا يجب رصد الأوضاع العالمية وتغيراتها وتقلبات موازين القوى، فإن تلك القوى تهدم نفسها بنفسها، وبأيدى أعدائها من غير المسلمين كذلك.

٢. أن التمكين يجب أن يقع متكاملاً كما حدث في أفغانستات في أيام سيادة دولة الإسلام، لا تمكيناً على حيّ من أحياء منطقة في مدينة! فهذا عبث بارد.

٣. أن التمكين يكون في رقعتنا الإسلامية خلافاً للعابثين ممن يقولون بأنه يمكن التمكين في دولة من دول الغرب، وهو إدعاء لم أسمع أسخف منه!

٤. دراسة ما دونه عدد من الكتاب عن هذا الأمر، وهم ليسوا بالقليل في مجال الحركة. وأوجه النظر إلى سلسلة مقالات التمكين التي دونتها إبان الثورتين المصرية والسورية وهذه هي روابطها

http//:tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-71806

http//:tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-72017

http//:tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-72110

http//:tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-72452

http//:tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-72463

http//:tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-72467

http//:tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-72470

٥. والحق أن التمكين يجب أن يكون مبني على توازن في الرؤية بميزان لا خلل فيه. فقد رأينا تجربة طالبان، نجحت ثم تراجعت جزئيا. ولو كان لجماعة أن تحقق تمكينا حقاً على الأرض لكانت القاعدة، بسبب اتساع شعبيتها بين فئات المجاهدين. كما رأينا ما فعل التقييم المغرق في الخطأ والانحراف في جماعة الحرورية البغدادية. ثم ما آل اليه حال أتباع الجولاني من انحسار وحصار داخل منطقة واحدة تحت وصاية دولة علمانية، وتهديد يوميّ من القوى العالمية القذف والقصف.

٦. وما كان كلّ ذلك إلا بسبب غياب الرؤية الصحيحة المتوازنة. وقد يُعتذر لطالبان أنها نجحت جزئيا، ولها سيطرة فعلية قائمة حرة الإرادة في قراراتها. وقد يُعتذر للقاعدة أن التمكين لم يكن من أهدافها أصلاً، بغض النظر عن تصحيح او تخطئة تلك الأهداف. لكن الأمثلة الفذة الواضحة في العقود القريبة، تتمثل في حركة الزوابري وحركة البغدادي وحركة الجولاني. فقد قصدوا جميعهم تمكينا لم يحظوا به بعد تقدم ما في طريقه، إما لانحراف عقيدة أو تمزق وبلبلة حركية، أو كليهما.

٧. وفي نظرنا أن ذلك التمكين لن يحدث إلا في ظلّ أحد أمرين، أولهما أن تصل الأمور إلى قاع القاع، فتخرج الجماهير في ثورة عارمة لا تُبقي ولا تذر. وفي هذا المشهد لابد أن يكون هناك قدرة متوفرة للإسلاميين على استثمار الوضع استثمارا

حقيقيا، بلا تكرار لمأساة الإخوان وما أحدثوه من خراب. وثانيهما، أن تسير بقايا الأمة التي تحدثنا عنها، والتي هي موضوع بحثنا هذا، في الطريق الذي رسمنا.

٨. واعتقادي أن العمل يجب أن يكون مُرَكزاً على خطة «الحقيقة العارية». من حيث أن الظروف الراهنة في العالم لن تسمح بأي تحرك في اتجاه دولة إسلامية[١] .. وما حدث في الأعوام السبعة السابقة شاهد على صحة ذلك بما لا يدع شكاً إلا للحالمين المغرقين في الإحلام، أو ناشئة الشباب، أو من يبحثون لأنفسهم عن موضعاً بين أصحاب العلم، بهتانا وزورا.

٩. كما يجب أن يكون واضحاً أن خطة «الحقيقة العارية»، ليست خطة سلبية التوجه، بل العكس، هي إيجابية على قدر ما يسمح به الواقع، في ضوء تصوره الحقيقي، دون وهم أو خيال. وهي، من ثم، لا تدع أمراً ممكنا ومقدورا عليه إلا واتخذته سبيلا من سبلها، بتعقل وحكمة.

والله ولي التوفيق

د طارق عبد الحليم

ذو القعدة ١٤٣٩



[١] اطلعت حديثا على كتاب الدولة المستحيلة، The Impossible state, Colombia University Press لوائل حلق، باللغة الإنجليزية، وهو فلسطيني كنديّ مسيحيّ مهتم بالدراسات الاستشراقية، فوجدت فيه الكثير من النقاط التي تاهت عنها الجماعات الإسلامية الديموقراطية! والتي أشرنا إليها من قبل، في بحثنا هذا، وفيما سبق من مقالات.

متطلبات «الدولة الإسلامية» بين الوهم والتحقيق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

(١)

لا شك أنّ المسلمين اليوم يتشوفون إلى إقامة «دولة الإسلام»، كلّ حسب نظره وتعريفه لها.

فهناك محوران أساسيان يعملان على تحقيق هذا الهدف، محور التغيير بالسلاح والجهاد، ومحور الدخول في المنظومة السياسية التي أقامتها تلك النظم. وكلاهما يدعو لإقامة «الشريعة»، حسب مفهوم كل محورٍ لها، من خلال مفهومها الخاص لتعبير «تطبيق الشريعة».

وغرض المحورين واحد، هو تحقيق «التسلط» على الحكم، بلا مخالف. فالتسلط هو ما يسعى أتباع كلّ محور لتحقيقه لإقامة تلك الدولة، وبدونه، فلا دولة، إسلامية سنية ولا دولة إسلامية ديموقراطية، إن صح وجود الأخيرة أصلاً.

ولكن يتفق أنصار المحورين، في أمرٍ واحدٍ، وهو عدم معرفة ما هو التصرف، ساعة يقع «هذا التسلط» حقيقة، إن وقع! كيف يمسكون بزمام الحكم ويسيّرون الدولة التي «سيطروا عليها»؟

فالجماعات الإسلامية قاطبة، تلك التي تنتمى لأيّ من المحورين، يتحدا معا في هذا النقص، الذي رأيناه جلياً حين استيلاء جماعة الإخوان، وهم رأس جماعات المحور الثاني، على الحكم، إذ استعانوا بنفس منظومة العمل وقوانين النظام الذي ظنوا أنهم أسقطوه! فسحقهم بأدنى جهد. كما كانت طالبان مثالا للدولة التي قامت على أساس من فكر المحور الأول.

فأي نظام إسلاميّ طبقته أي من دولتي المحورين؟

أمّا طالبان، ففرضت النقاب، وقيدت خروج النساء للشارع، وأقامت الحدود الخمسة، ومنعت التدخين.

وأما حكومة الإخوان، د مرسي، فلم تطبق شيئاً، من حيث يقبل فكرها النظام القائم، مع بعض الإصلاحات الطفيفة، والترقيعات الشكلية، هنا وهناك.

(٢)

حين نتحدث عن إقامة «الشريعة»، فإننا، دون أن نعي ذلك، نتحدث عن أمرٍ هائل عظيم الشأن، لا أحسب أن شبابنا، بل جلّ مشايخنا يعي أبعاد معنى هذا الطلب.

ذلك إنني أدعى أن الحركات الإسلامية بصفة عامة، لم تنتج «فقيها مشرعا» واحداً، أو فقيها على وجه التحديد، إلا واحداً أو اثنين على أقصى تقدير.

فكافة من يسمونهم «علماء» أو مشايخ «الجهاد» أو «الساحة»، في المحور الأول، ليسوا بفقهاء البتة. بل هم علماء في ناحيتين، وهما الناحية العقدية، وما يحفّ بها من لوازمها، من شرح التوحيد ومستلزماته ومقتضياته ونواقضه، وناحية أخرى تخدم الغرض الأول، وهي التاريخ، وقلما تجد اللغة كذلك، والذان يعززان الناحية العقدية، ويلهبا حماس الشباب في تلقيها. ويدور هؤلاء المشايخ حول تلك القضايا تقريراً وتفصيلاً، ليلا ونهاراً، كلّ واحد منهم مختصٌ بناحية تخدم ذاك الاتجاه العام، وهو الاتجاه العقدي.

أما المحور الثاني، فعلماؤهم، مع الأسف، هم نفس علماء النظام الذي استولوا على سلطته، لا غيرهم، وينتظرون منهم إقامة الشريعة، بمعنى من المعاني!

فعلماء، أو مشايخ اليوم يعتنون أشد العناية بالناحية الأولى، سواء عقدياً أو أيديولوجياً، من حيث هم يريدون أن يصلوا إلى غرض «السيطرة» و»بسط النفوذ»، وكلاهما يقوم على العقيدة في المحور الأول، أو الأيديولوجية في المحور الثاني.

أمّا أن نرى فقيها تشريعياً حقا، كما كان الإمام محمد أبو زهرة أو الشيخ مصطفى الزرقا، أو الشيخ عبد الكريم زيدان وأضرابهم، فهذا ما خلت منه الساحة الإسلامية خلوا تاما عاماً.

(٣)

والدولة، مهما كان شكلها، تقوم على جانبين، أحدهما عقديّ أيديولوجي، والثاني تشريعيّ تقنينيّ.

وكما ذكرنا، فقد غطى المشايخ و»العلماء» الجانب الأول بشكل مرضٍ، مع الخلل في التصورات، التى تقع بينها، فتثير جدلاً وتفرقاً هنا وهناك.

أما الفقه التشريعي، وعلمائه، فهم أبعد الناس عن استيعابه، أو الاهتمام به، أو التحريض عليه، من حيث هم أنفسهم، لا يعرفون عنه إلا القليل الذي يخدم الجانب العقدي. ومشاركة هؤلاء العلماء «مشايخ الحركة» في الفقه لا يتعدى باب السياسة الشرعية، من حيث ارتباطه بالأحكام الرابطة بين الراعي والرعية، وباب أحكام الدار والردة، لأسباب معروفة تتصل بتحديد هويات الدول والأفراد، وكيفية التعامل معهم في سبيل تحقيق خطوة «التسلط».

ومن الواجب أن أشير هنا إلى أن «إقامة دولة» شئ، و»القيام على دولة» شئ آخر بالكلية.

فالجهد كله منصبٌ اليوم على «إقامة الدولة»، ومن ثم يُربى شباب الحركات على مفاهيم الجانب العقديّ، صحيحة أو باطلة، ومن ثم كذلك، ترى مشايخهم لا يجيدون أو يحسنون إلا التربية في هذه المجال، لا غيره.

والجانب التشريعيّ، وإفراز علماء فقهاء، وقضاة شرعيون، هو من أخطر القضايا وأهمها، وهوعائق يمنع استمرارية أية دولة، حتى ولو تسلطت جماعة من أي المحورين، على الحكم. بل سيُسقط في أيديهم، ويقفوا مسمّرين في أماكنهم، متخذين وضع المزهرية! لا يعرفون ماذا يفعلون، فلا يكون أمامهم، إلا السعي في استخدام القوانين الوضعية، مع تعديلها قشرياً، كما حدث في موضوع القانون العربي الموحّد.

(٤)

وفقهاء التشريع، وقضاته ينتمون إلى مستو آخر، بعيد كلّ البعد عن المجال الذي يدور فيه «علماء» ومشايخ اليوم. إذ يقوم على نوعٍ مختلف من الدراسات، لا إخال أحداً من

طلاب العلم يعتنى به، أو حتى يعرف تفاصيله، إن اعتني به أي من العلماء المشايخ أنفسهم!

والفقهاء والقضاة، في الدولة الإسلامية، قد يتمثلا في شخص واحد، أو ينفصلا في الأداء، فيكون أولهما مفتٍ لا يملك قوة التنفيذ، والثاني قاضٍ تدعم أحكامه قوة الدولة لإنفاذها. ومثال من اجتمعت فيه قدرة الإفتاء والقضاء، القاضي شريح، أو الإمام ابن جماعة أو السبكيّ، وأضرابهم، ممن تولى منصب قاضي القضاة في ظلّ الدولة الإسلامية التي دامت قروناً تحكم أرجاء شاسعة من العالم المتحضر.

وكان الفقه آنذاك، والفقهاء، هم مصدر «التشريعات» القائمة على الكتاب والسنة، تبعا لمذهب فقهي من المذاهب الأربعة، حسب أصول كلّ إمام، ويقوم الخليفة بتعيين قضاة من كلّ مذهب ليكونوا بمثابة السلطة التي ترعاها الدولة من الناحية التنفيذية.

والبناء التشريعيّ الإسلاميّ، الذي يمكن أن تقوم عليه «دولة» إسلامية، منظومة هائلة، متعددة الجوانب، متشعبة المسالك، تغطي احتياجات المسلمين، في مجتمع إسلاميّ، لتنظيم وضبط حياتهم اليومية وفقا للشرع. وهي مسألة أكبر بكثير جدا من تطبيق الحدود الخمسة، أو منع التدخين وفرض النقاب!

(٥)

وقد جرت عدة محاولاتٍ لإنشاء هذه المنظومة الفقهية، منها ما كان من مجامع فقهية عقدتها دولا لتنظيم الفقه الإسلاميّ وتقنينه، كما في مجمع الفقه الإسلامي بالكويت، أو ما حاوله بعض أفراد من أفذاذ العلماء الفقهاء، كعائلة الزرقا «محمد الزرقا، وابنه أحمد وحفيده مصطفى الزرقا»، وجهد فقهاء التشريع من أمثال الأمين الشنقيطيّ، والشيخ محمد أبو زهرة، و الشيخ عبد الكريم زيدان.

وأود أن أعقب هنا على أمرٍ، وهو موضوع «تقنين» الشريعة، أي صبها في قالب قانونيّ مشابهةً بالقوانين الوضعية. وهذا الأمر قد ظهر في منتصف القرن التاسع عشر، في عهد العثمانيين، وبدأ بإنشاء ما يسمى «مجلة الأحكام العدلية» والتي وضعت تسعة وتسعين

قاعدة كلية، من القواعد الكلية الفقهية، والتي وصل بها فقهاؤنا إلى ألفين ومائتين وخمسين قاعدة، كما أورد المقريّ (ت ٧٥٨هـ) في كتابه «القواعد الفقهية». كذلك محاولة خير الدين التونسي الذي دعا إلى تقنين الشريعة على أساس من الكتاب والسنة والإجماع، مع اعتبار المصالح والمتجددة في حياة الأمة دون الرجوع للقانون الغربيّ.

ثم إن الجهد في هذا الباب قد توقف بعدها، ثم استُأنف في النصف الأول من القرن العشرين، ممثلة في محاولات أشهرها ما دوّن عدد من الفقهاء في وضع مدخل للقانون الإسلاميّ مبني على الشريعة الإسلامية وحدها، ككتاب «المدخل الفقهي العام» للعلامة مصطفى الزرقا عام ١٩٤٩. وبعده كتاب «المدخل لدراسة لشريعة الإسلامية للعلامة عبد الكريم زيدان. وكان هذا المدخل محاولة لإصدار قانون إسلاميّ شامل، لا يحوي أي أجنبيّ فيه، لولا أن أصدرت القيادة العسكرية وقتها أمراً باتباع القانون المصريّ، والذي أسسه القانوني الأشهر عبد الرزاق السنهوريّ، واعتمد فيه، بشكل غالبٍ، على القوانين الغربية، إلا فيما يتعلق ببعض مسائل الأحوال الشخصية. ثم سرى هذه القانون بعدها في الكويت وسائر دول الخليج، ثم البلاد العربية، وصار حكمها علمانياً يطبق القوانين الوضعية ويُقصي الشريعة عن الحياة.

وقد رفض البعض فكرة تقنين الشريعة، على أساس أنها مما لم يأت به السلف من ناحية، ومشابهتها للتناول الأجنبي من ناحية أخرى، ثم تقييدها للمذاهب بقانون واحد، وهو ما لا تقره الأعراف الإسلامية السلفية التي تقر باتباع المذاهب المختلفة في الفتاوى الشرعية، حسب مذهب القاضي، أو المفتي والمستفتي.

إلا إن ذلك، مع صحة ما فيه، يمكن الردّ عليه بأن عدم فعل السلف له، ليس بحجة علينا، فقد سنّ عمر رضي الله عنه الدواوين في عهد الصحابة رضي الله عنهم، ولم يعترض عليه أحد. ثم إن ملاءمة احتياجات العصر، من ضرورة ضبط مصادر الأحكام التي يلجأ إليها القاضي، لتشعب أوجه الحياة تشعباً تضاعف ألف ضعف في القرن الفائت، فأصبح وجود مرجعية يقرّها وليّ الأمر، مع السماح بوجود قضاة على المذاهب الأخرى، يلجأ إليهم

من أراد من أتباع المذاهب تلك، أمر لا مفر منه. وهذا النظر لا يُخالف الشرع، إذ يمكن لولي الأمر تبنى حكماً في الدولة، وإن جاز التحاكم إلى غيره، حتى لا تذهب الثروة الفقهية المذهبية أدراج الرياح، وهو ما يقصد اليه دعاة التقنين، من وراء السُتُر!

(٦)

وحتى نخلص إلى موضوعنا في هذا المقال، بعد هذه التقدمة الطويلة، نوضح أنّ المنظومة الإسلامية التي يمكن أن يُرجع اليها في «القيام على الدولة» يجب أن تسبق أو تواكب، محاول «إقامة الدولة». فيبذل مشايخ الدعوة وعلماؤها الجهد الجهيد في تربية نشئ يتخرج منه فقهاء، لا مشايخ ودعاة في الجانب العقدي، أو العسكري لا غير. فلهذا، السبب نرى أهمية كبرى لما نحن بصدده نظرا لما بيّنا من قبل.

والمنظومة الفقهية التي يقوم عليها القانون الإسلامي، الذي ندعو للرجوع إليه، دون أن نسعى لإيجاده أولاً، تقوم على عدد من القواعد المستنبطة من الشريعة، خالصة في مصدرها إلا من الكتاب والسنة والإجماع. ثم يتم تفصيلها وشرح بنودها وضبط قوانينها، حسب ما تقرر في المذاهب المختلفة، كما سيأتي.

مركّبات منظومة التقنين الشرعيّ

المصادر:

لا يختلف مسلمان في أن مصدر التشريع الإسلامي هو الكتاب والسنة والإجماع، وما انبنى عليهما أو استُخرج منهما، بالنص أو بالاستقراء، من أدلة شرعية، تدل على الحكم الشرعي، كالقياس والاستحسان والاستصحاب وسد الذرائع والمصلحة المرسلة، والعرف.

وهذا الاعتبار موضع إجماع لا خلاف فيه، بل المُخالف في أصله خالع للربقة من هذا الدين. وإنما يكون التنازع بين الفقهاء، في صحة اعتبار دليل ما، كما خالف الشافعي في اعتبار الاستحسان خلافا للأحناف، وفي المصلحة المرسلة، خلافا للمالكية.

الأسس العامة:

والعلوم التي يحتاجها الفقيه أو القاضي، أو الفقيه التشريعيّ تختلف بعضها عن بعض، في بعض مواد، قد يحتاجها الواحد منهم أكثر من الآخر.

وهي، بشكل عام:

- علم العقائد
- الفقه بأبوابه على المذهب، ومواضع الاختلاف مع بقية المذاهب
- علم الحديث والسنة
- علم أصول الفقه
- القواعد الكلية وشرحها
- القواعد الفقهية، وتنزيلها على الفروع
- الضوابط الفقهية وتنزيلها على الفروع
- النظريات الفقهية
- المنهج العام للقوانين الحالية مقارنة بالشرع

وسنتناول هذه العلوم بشرح مبسط يرسم حدودها العامة، ليصير المتعلم على دراية بما يلزمه، حتى يكون فقيها، أو قاضياً، أو مقننا لأحكام الله تعالى، لتكون في شكلٍ شرعيّ يصلح للقيام بما تتطلبه الدولة من خلالها.

(٧)

أول هذه العلوم، وأجدرها بالعناية، هو علم العقائد، إذ بدون تحقيقه لا يأمن المرء على إسلامه أصلاً. والتوحيد هو المقصود الأول والمعرفة الأولى، لا النظر كما يجعله علماء الكلام! كما يجب أن يعرف كيف يتحقق السائر في طريق التفقه من طرق الراسخين من أهل الصراط المستقيم، ويميزها عن طرق الزائغين من أهل الأهواء والبدع.

والتحقق بالتوحيد يكون بمعرفة أسماء الله وصفاته، وإثباتها بلا تمثيل ولا تعطيل، ومعرفة معانيها. ثم العلم بما يجب عليه من الإيمان الواجب والكامل، من مندوبات ومستحبات أو مكروهات ومحرمات. فيجب العلم بما يقتضيه هذا التوحيد الخالص من طاعة واتباع وتحاكم وولاء وبراء، وتوجه وتوكل ومحبة، وما ينافي ذلك من طاعة غير الله طاعة تشريع، أو مناصرة المشركين، أو صرف الدعاء والنسك بأنواعه لغير الله، مما يخدش جناب التوحيد ويوقع المرء في الشرك، عالماً أو جاهلاً، حسب موقعه من قيام الحجة الرسالية.

ثم علم الفقه، وهو الاطلاع على الفقه في أبوابه المختلفة، ومعرفة ما تنتمي إليه الأحكام من تلك الأبواب، على مذهب من المذاهب. والفقه، علم واسع هو، في تطبيقاته، الهدف من دراسة كافة العلوم الأخرى، إذ هو مجموع الأحكام الشرعية منسقة على أبواب معينة، تنتظمها حسب موضوعها من التصرفات البشرية.

وينقسم الفقه إلى قسمين، ظهرا في أوائل القرن الثاني الهجري، وهما العبادات والمعاملات. وتعتني العبادات بالعلاقة بين المسلم وربه، فهي معرفة أحكام الطهارة والصلاة والصوم والحج والزكاة والصيام، ومعرفة ما تدخل فيه النية مما لا تدخل فيه.

وتعتني المعاملات بما هو من ضروب التعامل بين الناس، من بيوع وعرايا وهبات وقروض وزواج وطلاق ومواريث وعقود ومقايضات، وسياسة شرعية تشمل على أحكام الديار وصفات المقيمين فيها، وأحكام الردة، وسائر ما يعني الناس في حياتهم الاجتماعية، داخليا وخارجياً.

وهناك معاملات قد استجدت في عصرنا، غالبا ما تلحق بباب من أبواب الفقه القائمة، مثل التأمين، والبطاقات الإئتمانية وغيرها.

ومن فقه الفقيه أن يطلع على موسوعات الفقه المقارن سواء المختصر منها كبداية المجتهد، أو الموسع، كمبسوط السرخسي أو المغني لابن قدامة أو بدائع الصنائع للكاساني، أو الحاوي على مختصر المزني للماوردي، وغير ذلك من المسوعات الفقهية المتاحة اليوم بشكل سهل مرتب.

ويجب أن يكون في نية المتعلم أن يتبع الدليل الصحيح، فلا يتحزب ولا يتعصب، بل يدور مع الدليل حيث دار، ويأخذ به ولو خالف إمامه.

والمذاهب الفقهية، مبنية على أصول وقواعد أخذ بها إمام المذهب الأول، وعليها، يتبعه من يسير على مذهبه. فعلى الفقيه الناظر في مسائل الفقه أن يعرف أصول وقواعد مذهب إمامه. وهو ما ينتقل بنا إلى العلم التالي.

والعلم التالي هو علم الأصول. وقد اختلف الناس فيما إذا كان علم الأصول أولى بالتقدمة من الفقه، أم العكس. وقد أخذت بهذا الرأي الأول، من حيث أن الأصول والقواعد يجب إحكامها قبل تشييد البناء، وإن خالف في هذا علماء الأحناف عامة.

وعلم الأصول مداره حول القواعد والأصول التي يتبعها الفقيه لاستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية. فعلم الأصول هو، بمعنى مبسط، القوالب التي يتشكل بها عقل الناظر في الأدلة الجزئية التفصيلية للأحكام، أي الآيات والأحاديث، ليستنبط على أساسها الأحكام التكليفية المتعلقة بها أعمال المُكلف.

وينقسم علم الأصول إلى عدة أبواب، تتغير ترتيبها، حسب الإمام المدوّن، ولنا في هذا مبحث مفصّل يمكن الرجوع إليه، بعوان «تطور علم أصول الفقه بين الشافعي والشاطبيّ».
لكن هناك أبواب لابد أن يشتمل عليها كل كتاب من كتب الأصول، نبينها فيما يأتي:

فمن أبواب الأصول الأحكام الشرعية بقسميها تكليفية ووضعية. ثم النظر في دلالات الألفاظ من الناحية الفقهية، لا النظر إليها من الناحية البلاغية، ودلالات العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، وأحوال اللفظ المفرد: كالظاهر والنص، والحقيقة والمجاز، والمحكم والمتشابه، ودلالات المنطوق والمفهوم والاشتراك والإجمال والإبهام. كذلك، معرفة سياقات الكلام ومدلولات الألفاظ عند العرب في تراكيب الجمل. وكذلك بعض القواعد اللغوية الأصولية مثل: الأمر يفيد الوجوب،و الأمر من الأعلى للأدنى على سبيل الفور لا التراخي.

ثم النظر في الأدلة الشرعية، وأولها الكتاب الكريم، فينظر في المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ، وطرق التفسير، وسائر علوم القرآن.

ثم النظر في السنة والحديث الشريف، فيعرف المصطلح، ويميز الصحيح من السقيم، ويدرس سيرة المعصوم ﷺ، ويعتبر من أحواله، مصبحا وممسيا، قائما وقاعدا، غازيا وهاديا، صلى الله عليه وسلم.

ثم معرفة الإجماع وحجيته وأنواعه، فإن تبحر في العلم، فمعرفة مواضعه، ليتجنب الإفتاء بما ينقضه، إذ القاعدة «أن الإجماع لا يُنقض إلا بإجماع مثله».

ثم القياس وتقسيمه والعلة وظهورها وخفائها ومسالك استنباطها، وما يقدم منه وما يؤخر، حالة التعارض مع أدلة أخرى.

وكذلك البحث في مباحث الأهلية، سواء كانت أهلية وجوب أو أهلية أداء، والعوارض التي تطرأ على الأهلية فتغير من حكمها موقتا أو مؤبداً.

ومن أهم ما يهتم به الناس اليوم، نتيجة كثرة المستجدات في الحياة الإجتماعية والاقتصادية والسياسية، هو ما صار يقارب علماً بذاته، وهو علم مقاصد الشريعة، بأنواعها الخمسة، حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال. ثم ترتيب درجاتها الثلاث من ضروريات وحاجيات وتحسينيات، وما يتبع ذلك من مكملاتها ومتمماتها.

وكذلك بعض الموضوعات المتصلة بالأصول والقواعد عامة، مثل موضوع الاستقراء وأنواعه وما يتعلق به من مسائل.

ثم العلم بالقواعد الكلية، وهي خمسة قواعد كبرى، زادها البعض إلى ستة قواعد، هي الأمور بمقاصدها، واليقين لا يزول بالشك، ورفع الضرر، والمشقة تجلب التيسير، العادة محُكّمة. ثم يندرج تحت كلّ قاعدة من تلك القواعد الكلية الكبرى، قواعد صغرى تتعلق بها تعلقاً مباشراً وتخدمها في إتمام معناها.

والقواعد الكلية، هي أقرب، فيما أحسب من المقاصد العامة للشريعة، إذ هي كلمات موجزة يندرج تحتها غالب الجزئيات الشرعية غير المحدودة. وقد وضعنا في هذا التعريف قيدين. أولهما، «غالب» إذ أن لتلك القواعد استثناءات لا تندرج تحتها، رغم الاشتباه فيها. وقد نشرت بحثا تحت عنوان «الاستثناءات من القواعد الكلية في الشريعة الإسلامية - حدها، أحكامها، حِكَمِها»، يمكن الرجوع إليه، ففيه شرح موجز غير مخُل إن شاء الله. والقيد الثاني «غير المحدودة»، من حيث أن الجزئيات تتجدد بتطور الزمن، فيندرج تحت تلك القواعد جزئيات جديدة.

القواعد الفقهية والضوابط الفقهية والنظريات الفقهية

* أما **القواعد الفقهية** فقد وصل بها الفقهاء إلى ألفين ومائتين وخمسين قاعدة، كما في كتاب شرح القواعد الفقهية للمقري، والذي أشرنا إليه في التقدمة أعلاه، وهو مطبوع بشرح وتحقيق د محمد الدردابي المغربي. وقد عرّفها المقري بأنها «كل كليّ هو أخص من الأصول والقواعد العقلية العامة، وأعم من العقود والضوابط الفقهية الخاصة»،. والتعريف الذي اخترته في بحثي المذكور هو أنها «كليات تتعلق بالأحكام الفقهية التي تُستخرج من الأدلة التي تحكمها القواعد الأصولية» وهو الذي أخذ به الشيخ مصطفى الزرقا في كتابه «شرح القواعد الفقهية». لكنى عدلت عنه هنا الى تعريفي لها بشكل أبسط وأشمل وهي أنها «كليات تتعلق بالأحكام الفقهية التي تُستخرج من الأدلة التي تحكمها القواعد الأصولية». فالقاعدة الفقهية تضم تحتها جزئيات كثيرة يجدها الفقيه متفرقة في أبواب شتى. ومثلها:

- النية تعمم الخاص وتخصص العام - وترجع إلى الكلية الأولى
- العبرة بالمعاني لا بالمباني - وهي فرعية من القاعدة الأولى
- الأصل براءة الذمة
- لا عبرة بالتوهم

- لا عبرة بالقول البيّن خطؤه، وهي منتشرة في أبواب كثيرة في الاجتهاديات وأحكام القضاة والمعاملات من إقرار وعقود وإبراء .. وترجع إلى الكلية الأولى
- ما جاز لعذر بطل بزواله
- دفع الضرر مقدم على جلب المصلحة
- المعروف عرفا كالمشروط شرطا
- لا عبرة بالنادر بل بالغالب
- إعمال الكلام أولى من إهماله (وقد عدّ بعض العلماء هذه القاعدة من القواعد الكلية فجعلها بذلك ست قواعد).
- يُغتفر في الوسائل ما لا يُغتفر في المقاصد

وبعض تلك القواعد تندرج تحت القواعد الكلية الخمس، وبعضها يتخرج تحت قواعد فقهية جزئية، هي فروع لها. مثل:

- قاعدة « إعمال الكلام أولى من إهماله» يتفرع عليها قاعدة جزئية «الأصل في الكلام الحقيقة»
- قاعدة «اليقين لا يزول بالشك» يتفرع عليها القاعدة الفرعية «الأصل براءة الذمة».

* **الضوابط الفقهية**: وهي تلك الكليات التي تجمع جزئيات كثيرة تجتمع كلها تحت باب فقهي واحد. وبهذا يفترق الضابط الفقهي عن القاعدة الفقهية. فجزئيات القاعدة تقع تحت أبواب متعددة، أما جزئيات الضابط فتقع تحت باب فقهي واحد. ومن أمثلة الضوابط الفقهية، ما يلي:

  - قاعدة البائعان بالخيار ما لم يتفرقا - فهي ضابط في باب الملكية

- قاعدة كل فُرقَة من طلاق أو فسخ بعد الوطء توجب العدة - ضابطها «لا يعتبر في انقضاء العدة أقصى الأجلين» (الاشباه والنظائر السيوطي ص ٤٨١) وهي من باب النكاح

وقد يتداخل الضابط الفقهي مع القاعدة في كتب بعض القدماء أو المحدثين، فيجب التحقق من ذلك، ولا يكون إلا بالنظر الدقيق.

* **النظرية الفقهية**: وهي أعم من القواعد الكلية، إذ هي قضية لها أركان وشروط، تتعلق بموضوع فقهي واحد يقع تحته قواعد كلية وضوابطها المتعلقة بهذا الموضوع.

ومن أمثلتها، نظرية الملكية، نظرية العقد، نظرية الالتزام، نظرية الإثبات. وقد وضع المحدثون فيها كتبا مستقلة ككتاب الشيخ محمد أبو زهرة «الملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية» وكتاب د عبد الكريم زيدان «المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية» وهو في نظرية العقد والملكية.

وقد عرّف الشيخ الزرقا النظرية الفقهية «.. النظريات الفقهية الأساسية تلك الدساتير والمفاهيم الكبرى التي يؤلف كلّ منها على حدة نظاما حقوقياً موضوعياً منبثاً في الفقه الإسلاميّ ... كفكرة الملكية وأسبابها، وفكرة العقد وقواعده ونتائجه، وفكرة الأهلية وأنواعها ومراحلها وعوارضها، وفكرة النيابة وأقسامها، وفكرة البطلان والفساد والتوقف، وفكرة التعليق والتقييد بالإضافة في التصرف القوليّ، وفكرة الضمان وأسبابه وأنواعه، وفكرة العرف وسلطانه على تحديد الالتزامات، إلى غير ذلك من النظريات الكبرى التي يقوم على أساسها صرح الفقه كله ..» ص ٣٢٩. وقد عرفها محمد الزحيلي بتعريف قريب من هذا.

وحتى يتفهم القارئ ما تحويه هذه النظريات من أقسام، فسنأخذ مثالاً لما يقع تحت نظرية الملكية، فنجد أنها تشمل على:

- تعريف الملك.
- أسباب الملكية: إحراز المباحات، العقود، الخَلَفِيَّة (الميراث والتضمين)، التولد من المملوك.
- تقسيم الملك: من حيث المحل: ملك العين وملك المنفعة كالدين والوديعة والغصب. وتنقسم كلها باعتبار محلها إلى الملكية الناقصة والتامة. ومن حيث الصورة، فهي ملك متميز أو شائع كالأوقاف.
- خصائص الملكية، وفيها حقوق الانتفاع وحق الارتفاق والمرور وغيرها.
- الفرق بين التمليك والإباحة.

فمما سبق نجد أن النظريات الفقهية هي أعلى درجات التقنين، الذي يجعل الشريعة مسايرة للمتجدد من أحكام الحوادث. وهي التي، كما قال الشيخ الزرقا، تقوم عليها الدساتير الشرعية المستمدة من الإسلام وحده، بناء على ما تقدم من قواعد وضوابط فقهية وقواعد أصولية.

* **علم الأشباه والنظائر وعلم الفروق**

ويأتي علم **الأشباه والنظائر** كتحليل وتفصيل للقواعد الفقهية وفروعها وضوابطها، فموضوعه تلك القواعد التي تتشابه في أبوابها، وما تفرع عنها، وما هو من ضوابطها، وما هو مستثنى منها. وقد ألف فيه عدد من الكتب مثل الأشباه والنظائر للسيوطي ومثله لابن نجيم.

* **علم الفروق**: وهو أدق وأعمق من علم الأشباه والنظائر، إذ هو يتعلق بتلك المسائل الفقهية التي تتشابه صورتها، مع اختلافها في الأحكام، مثل الفرق بين الشهادة الرواية، فصورتهما متحدة، وأحكامهما مختلفة، والفرق بين الإنشاء والخبر، والذي ذكره القرافي في الفرق الثاني من كتابه المعروف باسم «الفروق»، فبين فيه أربعة اختلافات، بعد كلام طويل عن مدلولات كلاهما في الصدق والكذب وعلاقتهما بالتصديق والتكذيب في الخبر، قال في الفرق الثاني:

- أن الإنشاء سبب لمدلوله، والخبر ليس سببا لمدلولاته، فإن العقود أسباب لمدلولاتها ومتعلقاتها بخلاف الإخبار،
- أن الإنشاءات يتبعها مدلولها، والأخبار تتبع مدلولاتها .. فإن الطلاق والملك مثلا إنما يقعان بعد صدور صيغة الطلاق والبيع، أما الخبر (فهو)ساقطة تابع لمخبره، ونعني بالتبعية أنه تابع لتقرر مخُبِره في زمانه ماضيا كان، أو حاضرا أو مستقبلا،
- أن الإنشاء لا يقبل التصديق والتكذيب، فلا يحسُن لمن قال لامرأته: أنت طالق ثلاثا، صدقٌ أو كذب .. من حيث هوإنشاء، .. بخلاف الخبر فهو قابل للتصديق والتكذيب كما تقدم،
- أن الإنشاء لا يقع إلا منقولا عن أصل الوضع (الوضع الأول لغة)، في صيغ العقود والطلاق والعتاق ونحوها، وقد يقع إنشاء في الوضع الأول (أي ليس منقولا) كالأوامر والنواهي، فإنها تُنشأ الطلب بالوضع اللغوي الأول. أما الخبر يكفي فيه الوضع الأول في جميع صوره، فقول الرجل لامرأته: أنت طالق ثلاثا، لا يفيد طلاق امرأته، بل أصل هذه الصيغة أنه أخبر عن طلاقها ثلاثا (السابق)، وأن لا يلزمه شئ .. إذا سألته امرأته بعد الطلاق، فيقول لها أنت طالق ثلاثا إعلاما لها بهذا». اهـ الفروق ج١ص٤٢. وقد وضعت توضيحات بين قوسين ليُفهم الكلام دون عنت.
- والحق أن كتاب الفروق للقرافي لم يُسبق إليه، ولا لحُق فيه، فهو فردّ متميّز في هذا العلم، والذي اتضح لنا اختلافه عن الاشباه والنظائر.

خاتمة

وبعد، فهذا تطواف في الهيكلية العامة لذلك الصرح الشامخ الذي هو التشريع الإسلامي، بجوانبه المختلفة، وما يلزم أن يتحلى به الفقيه المّشرع، ليكون قادراً على التصدي للقيام على قوانين الدولة المسلمة ودوامها واستمراريتها.

وقد رأينا ما يجرى في ساحات الجماعات التي تقصد إلى «إقامة» الدولة، وفقرها التام المَعيب في وجود الفقهاء المشرعين، على هذا المستوى العلميّ، ولا قريب من نعل حذائه!

وهذا البحث يعتبر جزءاً مكملاً لبحث «خطوات منهجية في سبيل تكوين شباب جيل التمكين»، من حيث يوجّه إلى كيفية الإعداد لمن يحمل راية التشريع، ويقدر على التصدى لهذا الواجب العظيم، ورحم الله سلفنا، وخلفنا القريب، الذين كانوا علماء فقهاء بحق، لا علماء جماعات وحركات.

والله المستعان

د طارق عبد الحليم

٢٦ مارس ٢٠١٩ – ١٩ رجب ١٤٤٠



الجماعة الإسلامية .. في رحم المستقبل

(١)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد

خلصت في مقال سابق إلى أن «قيام جماعة إسلامية تعيد الإسلام الى مسرح الأحداث ليس ضرباً من المستحيل، لكنه يحتاج الى ظروف تاريخية مناسبة ومواتية، لا أظن أنّ حاضرنا اليوم يُظِلّها. بل أظن أن دورنا اليوم لن يتعدى الإعداد لها، ومحاولة تهيئة الفرصة لِنَبْتَتَها أن تنمو وتُثمر في المُستقبل الأقرب، لا الأبعد بإذن الله». وقد وعدنا أن نعود لهذه الجملة لنبيّن ما قصدنا اليه.

بعد إعدام سيد قطب رحمه الله وتقبله عنده في الشهداء، في الستينيات، اتخذت فكرة الجماعة الإسلامية التي تعمل على تغيير نظام الحكم، بعداً لم يكن موجوداً من قبل، وهو البعد العقديّ الذي لم يكن مطروحا قبلها، خاصة في فكر الجماعة الكبرى في ذلك الوقت، ونعنى بها جماعة الإخوان. ذلك أنّ جماعة الإخوان كانت جماعة إصلاحية ابتداءً، لا تلتزم بإتجاه عقديّ محدد، طالما يجتمع أفرادها على التلفظ بالشهادة. ومن ثم، أعطى هذا البعد زخماً كبيراً للحركات الوليدة، وإن صاحب ذلك قصورٌ معيب، بل مهلكٌ في بعض الأحيان، نتيجة ضعف الرؤية الواقعية، وخلل الفهم الشرعيّ على السواء.

أتذكّر في السبعينيات من القرن الماضى، حين كانت الجماعات الإسلامية تنشأ وتختفي في أسابيع أو أقل. كانت تلك «تجمعاتٍ» أكثر منها جماعات. وكانت فكرة التغيير عندها مشوّشة للغاية، وكان رصيد منتسبيها لا يزيد على الإخلاص للفكرة الإسلامية، دون تحقيق لأبعادها، ولا دراية بالواقع وارتباطه بالتاريخ الضارب في عمق الوجود الإسلاميّ على أرضنا. وكان من نتيجة ذلك أنْ فشلت تلك الجماعات في أن تكتسب أرضاً للإستمرار، ومن ثم للتأثير. ولم تترك إلا بَصماتٍ، ضَررها أكبر من نفعها، كما حدث من الجماعة الإسلامية المتخاذلة في أوائل الثمانينيات.

يجب أن يكون مفهوماً أنّ الغَرض من أي تجمع إسلاميّ ليس مجرد الإنتساب «لجماعة»، وإرضاء ذلك الوازع الخفيّ، الذي هو أقرب للهاجس منه للوازع، بل الغرض هو تحقيق هدفٍ لا يمكن تحقيقه بالعمل الفرديّ. ومن ثمّ فإنّ ذلك يَستدعى أوصاف معينة في ذلك التجمّع، لا يصلح إلا إنْ اجتمعَت فيه، أو أكثرها.

كما إنه يجب أن يكون مفهوماً أنّ هذا التجمّع لنْ، أكرّر وأقرّر، لن ينشأ إلّا في محَضن بيئة معينة تُعين على وجوده، وهذه هي البيئة التي نتحدث عنها وعن أوصافها.

هناك وهمٌ عند الكثير من المصريين البسطاء، الذين لا يزالون يرون الإسلام هو الإخوان، وأنّ الإخوان هم المسلمون. هذا الوهم هو العائق الرئيس أمام الإسلام السنيّ الصحيح أن يعود ويَحكُم. وهي مسألة ليست ببساطة الكلمات التي تعبر عنها. بل هي مسألة إقامة الدعوة من رماد، إذ البعث من الجهل كالبعث من الموت، وصدق أمير الشعراء

والجهل موتٌ فإن أوتيت معجزة

فابعث من الجهل أو فابعث من الرَجمِ (القبر)

ما يجب أن تبدأ به الدعوة الآن، هو نشر مفهوم التوحيد، بشكلٍ واسعٍ واضحٍ صريح، لا لبس فيه. يجب أن تتحرر الدعوة من فكرة إقامة جماعة بالمفهوم التقليلديّ، إذ لا سبب يدعو لهذا اليوم. بل الأولى هو العمل الدعويّ الخيريّ، من خلال جمعياتٍ تقوم بنشر العلم، وتقديم الخدمات العينية للمواطن، والعمل على الإرتقاء بقدراته التي أصبحت تحت الصفر في كل مجال. وقد رأيت بعينيّ بعض عيناتٍ من خطِ بعض المسلمين من خريجي الجامعات، ولا أبالغ إن قلت إنها أدني مما كان يكتب تلميذ الثالثة الإبتدائي في زماننا السابق! هكذا دمّر مبارك أعوانه الجيل كاملاً.

ثم إنّ المنظومة الأخلاقية التي تقوم عليها خلايا المجتمع اليوم، هي منظومة خربة لا تصلح أن تنشأ منها جماعة تقود، أو تجمعٌ يسود. لا أقول بسبب الفواحش الخلقية التي

يروج لها الإعلام الكافر فقط، بل أقصد تلك المنظومة الإخلاقية التي تسود بين الإسلاميين أنفسهم. فهم، في غالب أمرهم، كسالى، متواكلون، لا يرعون موعداً، ولا يحافظون على كلمة، متعالمون بلا علم، لا يجيدون صنعة يصنعونها، ولا يهتمون بجودة ما يفعلون عامة. هم بصريح العبارة، كالعاميّ الذي يعيبون عليه، بزيادة اللحية والثوب، وبعض الشكليات العلمية أو العلم الشكليّ.

ولا أريد والله هنا أن أثبط عزما، بل أريد أن أواجه واقعاً قد تجاهلناه كثيراً، ثم ظللنا نتساءل، لم يتأخر النصر؟ هذا هو السبب. أن العجينة التي نريد أن نخبز منها غير صالحة، قد ضرب فيها العفن من حيث لا يدرى خَبّازُها.

الواجب على الدعاة بحقٍ اليوم أن يركزوا جهدهم على إحياء الخلق الإسلاميّ، الخلق الأساسيّ، الخلق الذي كانت تتمتع به العرب، حين اختارها الله لتكون محضن دعوته. الخلق الذي بدونه لا يكون الرجل رجلاً، مسلماً أو جاهلياً. لقد إختار الله بيئة العرب في ذاك الوقت مع كلّ ما كان فيهم من عاداتٍ جاهلية، كالأنكحة الفاسدة، والمفاهيم الخائبة، لأنّ مجموعة الأخلاق الأساسية التي يجب أن يتمتع بها البشر حين يريدون الفلاح، كانت متوفرة فيهم على أكمل وجه، من كرمٍ وشهامة ورجولة وحفظ للعهد ونصرة للضعيف، ونخوة، وحياء، وإقدام في روية، وإحجامٍ في شجاعة. تلك هي منظومة الأخلاق الأساسية التي نفتقدها اليوم في هذه البيئة التي نريد أن ننشأ منها «جماعة»، تقوم بالحق وتهدى إلى الصدق وتصل إلى النصر... وهيهات هيهات.

إن تكوين جماعة من وسط هذه «العكّة» البشريّة، وسامحوني في التعبير، لن يجدى نفعاً، كما رأينا في العقود الماضية كلها. إن الجهد اليوم يجب أن ينصرف كلية إلى الإرتفاع بمستوى البيئة الخلقية التي يعيشها الدعاة أنفسهم، ومن حولهم، بنشر **الوعي الخلقيّ جنبا لجنبٍ مع فكرة التوحيد السويّ**. من هذا المزيج، يمكن أن نبدأ. يمكن أن تتحسن البيئة، وتصلح الأرض لزراعة بذور الجماعة التي يمكن أن يستخلفها الله في الأرض.

أما الآن، فهو حرث في الماء، أو زرع في الهواء.

(٢)

كتبنا في مقال سابقٍ، في الأسابيع الأولى للثورة، أنْ يجب أن تُحلّ جماعة الإخوان، إذ إن وجودها في ظل دستورٍ كان مأمولاً أن يكون إسلامياً وقتها، وهو ما لم يتحقق على أرض الواقع، يُعتبر تجنياً على السلطة المرغوبة، وفصلاً بين أبناء الشعب الواحد، بين إخوانيّ يدعى الإسلام لنفسه، وعاميّ مسلمٌ بطبيعته. كتبت هذا حين كان الأمل موجوداً ومعقوداً أن تتغير الحالة الإسلامية للدستور. ولكن هذا لم يحدث. وظلّ الدستور يشتمل على عوار شركيّ، يبرّره دين الإخوان المتنازل على الدوام.

ومن هنا، وجدنا أنفسنا نعود لنقطة الصفر من جديد. نعود إلى حيث بدأ سيد قطب رحمه الله تعالى، منذ نصف قرن من الزمان، في الخمسينيات والستينيات، يبشّر بجماعة سنية سلفية أصيلة، تعيد للإسلام حقيقته، وتنزع عنه تلك الحُلِيّ والبَراقع المُصطنعة، التي يقصد بها أهلها أن يجعلوه مقبولاً لدى كفار مصر، وكفار العصر في كلّ مكان على الأرض.

من هنا عدنا نبشّر، مرة أخرى بذات الجماعة. مع فرق واحدٍ، هو إننا لا نرى أن البيئة المصرية، بل والإسلامية بشكلٍ عامٍ، يمكن أن تكون حاضنة لهذه الجماعة بتركيبتها الحالية. فمحاولة إيجاد هذه الجماعة، بالأوصاف التي يجب أن تكون عليها، هو ضربٌ من المستحيل اليوم، في تقديرنا على الأقل. ذلك للطبيعة المنحدرة الساقطة للإنسان المسلم في عصرنا الحاضر، وطبيعة الإنسان المسلم الملتزم التي هي ذاتها منحوتة من تلك الطبيعة. وحصاد الزارع موقوفاً على نوع البذور التي يبذرها. ولم نر يوماً زارع الفول والثوم، يجنى العِنب والقضب!

إذن، نعود مرة أخرى إلى البيئة التي نتصور أنْ تكون حاضنة لمن يمكن أن يكون مؤهلاً لمثل تلك الجماعة الموعودة. هذه البيئة، هي على العكس من كلّ ما نراه حولنا اليوم، سواءً في البيئة المصرية العامة، أو في أوساط من ينتسبون لعملٍ إسلاميّ، في غالب أمرهم.

وحتى نتفهم تلك البيئة الوسيطة، التي يمكن أن يتمخّض عنها الجمع الكريم

الذي يقيم الأمة من وهدتها ويقودها للنصر ، يجب أن ندرك أن الإنهيار الخلقي هو تلك السمة العامة التي ضربت سائر الحضارات وأخرجتها عن مسار التاريخ، وألقت بها وراءه ظهريا. ونظرة إلى تاريخ الدولة الرومانية يبين المقصود، حيث انتشر البغاء والظلم والفواحش والخنوثة والكذب، وساعد على ذلك موقف الكنيسة المخزى من استغلالها للوازغ الدينيّ، بدلا من تقويمه. بل ونظرة إلى الدولة الإسلامية ذاتها، يشهد على ما ذكرنا، حيث انحدرت البيئة الإخلاقية منذ العهد العباسيّ الأول، شيئا فشيئاً، حتى انهارت هذه البيئة عشية غزو التتار لبغداد. وانتشرت الفواحش وضيّعت الأمانة وانقلب المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وشاع الكذب والظلم، ولعبت الصوفية دورها الخبيث في إشاعة الكسل والتواكل.

ليكن معلوما أنّ الإحياء الإسلاميّ له شروط وعليه موانع. أما الشروط فهي كثيرة من أهمها أن يكون أصحاب الإحياء هم أنفسهم أحياء، يعيشون الإسلام كاملاً، من كلّ ناحية، لا باللحية والبرقع والحوقلة والقلقلة. يحيونه جدية، ورؤية وتصرفا وخلقا وعلما ونشاطا، لا مؤتمراتٍ وحلقاتٍ وخطب ومواعظ. أما موانعه فهي الإستمرار على ذلك الخلق المتدني والفهم المنقوص لدين الله ولسننه العاملة في الأرض. ونبيّن هذه الجملة ما استطعنا في الجمل التالية.

خذ مثلاً، قيمة العمل. الإنسان المصريّ، والمسلمون منهم، والإسلاميون خاصة، قد تراجعت لديهم قيمة العمل حتى أصبح عبئاً يتهرب منه المرء لا واجباً تكليفياً يسعى لأدائه. وقيمة العمل تأتي من حفظ ضرورات النفس والمال والنسل، ثلاثتها جميعاً. فهي إذن قيمة لها مكانتها في الشرع. وحين أقول العمل، أقصد به العمل المنتج الذي يؤثر في القوة الإقتصادية للأمة، من بيعٍ وشراء وزراعة وصناعة وعيرها من أبواب النشاط الإنسانيّ. لقد رَكِن أبناء الشعب المصري، ولا أُبْعِد إن قلت الشعوب الإسلامية كلها، إلى «الرضا»، وخلطوا مفهومه باليأس، واختاروا وسيلة «أقصر الطرق» إلى الربح، يعاندون به سنن الله في الأرض. وشابههم في هذا إخوانهم من الإسلاميين، لكن بحجة أخرى

وهي «الإنخراط في العمل الإسلاميّ». فتجد أحدهم طبيباً يسرح في الشوارع يبيع الكتب والشرائط «الإسلامية». وتجد جلّهم يركن إلى الخلود إلى الأرض، متعللاً بشتى التعلات، مثل كفر أجهزة الدولة، أو احتياج الناس إلى دعاة، وهو لا يحسن الكتابة إن اختبرته، ولا يحمل من قشور العلم الشرعيّ إلا أقلها!

هذا الخلل الأصيل في العقلية المصرية الحاضرة، إسلامية أو غير إسلامية، هو من أكبر الموانع التي تقف في سبيل تحقيق معنى «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل». فالقوة غير رباط الخيل. رباط الخيل هو العتاد بشتى أنواعه، والقوة هي القوة البشرية والمالية والعلمية.

إنّ ظاهرة تكفّف الإسلاميين، واعتيادهم عدم العمل، واعتمادهم على مال الدعوة يعيشون على كفافه، ليست من دين الله، ليست من أصول الدعوة، ليست من وسائل النصر. وقد نجحت قيادات الإخوان في اجتياز هذه العقبة، وإن كان ذلك على حساب عقيدتهم البدعية، إلا أنها أعطت لهم زخماً ليس لأي جماعة أخرى عاملة، بلا خلاف على ذلك.

إن الحرص على العمل المنتج، وعدم التأفف من ممارسته أيّاً كان هو مفتاح من مفاتيح القوة، يجب على دعاة البيئة الإسلامية الصحية أن ينتبهوا له، ويعملوا عليه. لقد رأينا في الغرب معنى قيمة المل متجلية في أحسن صورها البشرية، إذ لا يأنف أحد أن يعمل عملاً يدوياً ليتكسب رزقه، أو لزيادة دخله، وهو محافظٌ على احترامه لنفسه ومكانته، فالبيئة كلها تقدّر قيمة العمل، ولا تزن المرء «بوظيفته» أو «رتبته». هذا ما يجب أن يكن درساً للمسلمين اليوم في حيازة القوة بمعناها العام الشامل.

ثم إلى مثالٍ آخر إن شاء الله.

(٣)

انتهينا في المقال الثاني من هذه السلسلة إلى أنّ الشخصية المسلمة، أو الإسلامية إن شئت، لا تتمتع بما يجعلها جديرة بأن تشكل تلك الجماعة التي تقود الأمة، ومن ورائها البشرية، إلى دين الله سبحانه. وما ذلك إلا لتخلف غالب الشروط الموضوعية التي يجب تحققها في تلك الشخصية. وبيّنا أن سبب ذلك هو خراب البيئة التي نشأت فيها تلك الشخصية، وما افتقدته، ولا زالت، تلك البيئة من عوامل ضرورية لصياغة مثل هذه الشخصية. فجاءت الشخصيات الإسلامية الحالية، مشهورها ومغمورها، ناقصة مشوهة، تفتقد إلى العلم إن صح توجهها، وتفتقد إلى الإخلاص إن توفر لديها علم. علمها الشرعيّ منفصل عن الواقع، وواقعها مجردٌ عن العلم الشرعيّ. هي مثالٌ لما أسميناه «عكّ بشري»، يريد أن يتعلق بالإسلام، وهو لا يعرف مقاصده، وإن عرفها نظراً لم يعرف حقيقتها واقعاً.

ثم ضربنا مثالاً من «قيمة العمل» عند المسلم، بل عند الإسلاميّ، ورأينا خراب الفهم الشرعيّ لضرورة الدعوة، وشاهدنا كيف أن الكسل وخيبة الأمل ألقت بالكثير في محاضن الدعوة، لا بسبب إجادتها، بل بسبب العجز عن غيرها.

مثال آخر، أصبح علماً على الشخصية المسلمة، والإسلامية، وهي عدم إحترام الكلمة. وأقصد بذلك أنّك ترى المرء يقول ويقول، بشأن أيّ التزامٍ في أيّ اتجاه، وهو، يشهد الله، لا يقصد إنفاذ كلمة واحدة مما قال! بل إن قيمة ما وعد لا تتعدى قيمة الهواء الذي أطلقه من فِيه وهو يصدر تلك الأصوات التي صاحبت قوله! إنّ البيئة المسلمة قد أقرّت فيما بينها هذه الخصلة البشعة، التي تجعل كلمات المرء لا قيمة لها على أرض الواقع. يَعِدك أحد الناس أن سيلقاك ساعة كذا أو كذا. ثم إذا به إما أن يأتي متأخراً ساعات، أو أن لا يأتي بالمرة، ثم يتصل بك بعد يوم أو يومين ليعتذر، إن كان من أصحاب المروءة! حين وعدك هذا الشخص بالحضور، لم يكن يعرف ما يَعِد به، ولا يقصد أنه سيوفي بعهده. لم

يُقَدّر هذا الشخص، حين تفوه بالوعد، أيّ التزامات أخرى قد تمنعه من الوفاء. وهذا يمثل قمة الإنحطاط في تحمل المسؤولية واحترام الذات، بله التنظيم والترتيب، بله فقدان الثقة في النفس، وتعوّد الإخلال بالإلتزامات. والعجب أنك تجد هذا الخلق البشع صفةً متواترة عند الكبير والصغير في بلادنا، الملتحين وغير الملتحين، الشباب والمشايخ، كلهم سواء. هي «ثقافة» العصر، أصبحت جزءاً من تكويننا الخُلُقيّ. وكلمة «الثقافة» culture تعنى في مفهومها الواسع، طرق التعامل التي ترتضيها وتتصرف بحسبها جماعة بشرية فيما بينها دون أن تقصد إلى ذلك[١].

ثم أمر آخر، وهو ضعف الهمة. ولا أدرى إن كان ذلك الخلق نتيجة للبيئة المريضة أو إنه سبب فيها. لكن هذا الأمر، أمر ضعف الهمة والركون إلى الكسل واستصعاب الواجبات أصبح علماً على شباب هذه الأمة. فأنت ترى كلّ منهم يريد أن يصل في شهورٍ معدودات، إلى ما لا يصل اليه الغير من الجادّين العاملين في عقود متواليات. ترى الرجل يريد أن يمتلك بيتاً وسيارة، ويقضى عطلته، إن كان يعمل أساساً، في أماكن المترفين ومتنزهاتهم، وهو لا يزال حديث النشأة، قليل الخبرة، لم يمارس عملاً إلا بالكاد. أما في وسط الإسلاميين، فإن هذا الخلق أكثر تغوّلاً، وأشد خطراً. فترى الشاب أو الرجل، لم يحظى من العلم إلا قليله، أو حتى ولا بقليله، إذا هو يريد أن يكون شيخاً عالماً يناديه «الإخوة» بالشيخ فلان! وهو لا يصرف وقتاً ولا جهداً في قراءة أو تحصيل، إنما هي وريقات حفظها، لا يعلم ما وراءها، ثم إذا به يدلى بآراءٍ ويفتى بفتاوى في الشرع والواقع، يزيد بها الطين بلّة. وما هذا إلا لضعف همته على التحصيل، وإرادة استباق السنن، وتجاوز حدودها. وهؤلاء لا يعلمون أنهم بهذا يسيئون إلى الدين، ولا يحسنون إلى أنفسهم. إنّ المشيخة ليست اسماً يطلقه الناس على أحدٍ فيكون له حقاً ويقيم لنفسه به وزناً. فالشيخ لغة هو من تجاوز الستين من العمر، واصطلاحاً هو من قدّم للدين علماً، كانت له به سابقة

---

[١] المعنى الأفضل الذي وجدته في أبحاث الغرب في معنى الكلمة هي ما أوردته هنا وترجمته "Without knowing it, People Behave alike".

فيه، فاحترمه الناس لعلمه، حين يُعرف به، كما يُحترم من تجاوز الستين، فصار شيخاً وهو دون ذلك من العمر. لكن ضعف الهمة واستباق السنة أخرج تلك الأجيال المريضة التي تعبث على «الفيس بوك» فساداً، وإذا بآلاف من «المشايخ» مصطفين على «الكيبورد»، يهنؤون أنفسهم بالمشيخة! ويتصدّرون مشهداً هم أنفسهم رواده وجمهوره. هذا نوع من التغييب العقليّ الذي ضُرِبَت به العقلية الإسلامية الحاضرة، نتيجة الإستشراف إلى مجدٍ راح وانقضى، ثم ضعفت الهمة عن أنْ تعيده حقيقة لا خيالاً.

ثم آخر، وهو الحياة في الوهم والإنقطاع عن الواقع. الواقعية هي أساس ركينٌ من أركان البيئة الصالحة التي يسعى أبناؤها إلى النهضة والتقدم، والوهم ليس إلا مرضاً عضالاً، يصيب الضعفاء فيدفع بهم إلى أحلام يقظة لا حقيقة لها. بلاد الإسلام يغزوها اليوم كل محقّرٍ من الصليبيين. فلسطين يحتلها كلاب الأرض وقردتها وخنازيرها. العراق يتنافس عليها الرافضة والصليبيون. العلمانية تضرب بجذورها في الأرض العربية المسلمة. حكام العرب وملوكها هم أخبث الخبائث في تاريخنا كله، خاصة من يسبحون في بحار النفط، ينفقون أموال الله في ملاهيهم ويدفعون بها إلى الصليبيينن يختزنونها لهم، إلى حين. جيوش العرب تدك شعوبها كما في سوريا، وفي سيناء مصر. هذا هو الواقع. هذا هو ما صرنا اليه. فلا يتوهمن أحدٌ أنّ الأمر أمر إعلان دولة خلافة عن طريق نصرة أحد من هؤلاء الشياطين، كما يتوهم غائبي العقل من أمثال منتسبي حزب التحرير. لقد كانت الصدمة من أعتى ما يكون حتى أذهلت العقلاء عن الحقيقة، والجأت الضعاف إلى الوهم والحلم.

ثم إنّ آفة التقدم والرقيّ الإستهانة بالوقت وإضاعته. وهذه الآفة مما يسرى في كيان المصريين اليوم ويجرى منهم مجرى الدم في العروق. فإن وحدة الزمن التي أصبح الناس يتعاملون بها لم تعد الساعة، بل صارت الأسبوع، إذ قد انحطّ قدر الزمن كما انحطّ قدر العملة، فصار جنيه اليوم هو قرش الأمس، وصار أسبوع اليوم هو ساعة الأمس. تجد أنّ الكلمة التي تسبق على لسان أحدهم «الأسبوع القادم إن شاء الله»، وكأنّ الأيام السبعة

حتى ذلك الأسبوع هي من فضول الزمان، لا قيمة لها ولا لزوم. ويشهد الله أنه ليس فيها، عادة، مانعٌ يمنع من إنهاء المهام الموكولة، ولكنه حسّ البطء والتراخي والكسل واللامبالاة وضعف الهمة قد اجتمعت كلها لتعطي للزمن هذا الحسّ المتراخى، الذى يرى أن تأجيل عمل اليوم إلى الغد، بل إلى غداة بعد الغد، أمرٌ طبيعيّ عاديّ لم يعد مستنكراً حتى عند كبار المشايخ ممن ينتسبون إلى أهل السنة! هذا الخلق هو خُلُقٌ حالقٌ لكلِ محاولة للتقدم وحيازة القوة التي يريدها الله سبحانه للجماعة المسلمة التي سيكتب لها تتسلم زمام الأمر.

إن النوعيات البشرية التي تمثل الدعوة اليوم تعيش في عالم خاص بها. وهي تعيش فيه بنفس آفات العالم العاديّ، إذ هي خريجة نفس البيئة. وأضرب مثالاً من واقع شخصي يبينّ طرفاً مما أقصد. فقد عرفت منذ عقودٍ عدة بعض الدعاة من دكاترة الشريعة، ممن اشتهر اسمهم وارتفع قدرهم بين الاسلاميين،. وصارت لهم مواقع تتحدث عنها الشباب ويرجعون لها في كثير من أمور العلم. وكانت علاقتنا أوطد من علاقة الإخوة الأشقاء. ويشهد الله إني كنت لهم خير عون في ملمات نزلت بهم في حينها. ثم وقعت كارثة ابني شريف، فكّ الله أسره، وإذا بهؤلاء ينقطعون عنى كلّ الإنقطاع، لا يتصلون ولا يسألون، بل يتبرؤون من معرفتي، خوفاً ورهبة من أن تصيبهم دائرة من الصليبيين. ولولا بقية من حِفْظِ العشرة لسَمّيتهم. فهل لهذا الخلق أيّ علاقة بما يجب أن يكون عليه المسلم، بل حتى بما كان عليه كفار قريشٍ من نصرة المظلوم، ووصل المكلوم؟ أبهذا الجيل من الدعاة الجبناء يمكن أن تقوم أمة أو تنهض حضارة؟ هذا هو نتاج البيئة التي أتحدث الي قرائنا عنها. هذا هو خِراجُها ونتاجُ زرعِها.

البيئة التي يسعى الدعاة القادرون إلى استصلاحها اليوم، بيئة قد مُلِئَت بخَشاشٍ لا يسمن ولا يغنى من جوع. هذه الثقافة المريضة التي انتشرت بيننا هي ما يجعل الإصلاح عسيراً. فما أسهل إدعاء الإصلاح، وما أصعب تحقيقه.

وللحديث بقية إن شاء الله

(٤)

أريد أن أبيّن هنا، قبل أن أمضى في الحديث، أنّ هناك من المسلمين، المجاهدين الصابرين العاملين، ما يفخر به الإسلام، وترتفع به آمال المسلمين. نراه في كلّ مكان، في العراق وسوريا والجزائر وسيناء والشيشان والصومال ومالي وكافة أقطار بلاد المسلمين، تدافعون عن دين الله، ويدفععون حياتهم ثمنا لإيمانهم، صدقوا الله فصدقهم الله، وصحّ فيهم قول المولى جلّ وعلا «**مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا**»الأحزاب ٢٣. هؤلاء رجالٌ قد اقتطعوا أنفسهم من تلك البيئة التي نتحدث عنها هنا في مقالنا. هؤلاء قد خرجوا عن منظومة الفساد والتشويه ليمارسوا أفضل الأعمال وأحبها إلى الله، ألا وهو الجهاد في سبيله، حقّ الجهاد. لكن الأمر أن، هذه الجماعات المباركة، بما هي عليه الآن، وبحساباتنا الأرضية التي لا نملك إلا سواها إلا ما شاء الله، لن تتمكن من إزالة العدوان الجائر الظالم الكافر الذي تتعرض له بلاد المسلمين في كلّ مكان. قد نوّهنا من قبل أنّ الواقعية هي صفةٌ لازمة لتكامل الشخصية الإسلامية. ومن هذه الواقعية أن نرى العدو على ما هو عليه دون تضخيمٍ أو تصغير. الواقع أنّ هذا العدو، سواءً منهم الصهيو-صليبيين، أو المنافقين من كفرة حكام العرب وملوكهم، قد بيّتوا النية أن لا يتوانوا في القضاء على أية بوادر إسلامية مهما كان الثمن الذي يدفعونه في هذا الصدد. وها هم أمراء الخليج يعادون مصر عداءً سافراً رغم أنهم يتعرضون لهجمة صفوية شرسة قد يحتاجون فيها لمصر دفاعاً عنهم. لكن الصفوية عند هؤلاء أخفّ وطأة من حكم الله السنيّ الشرعيّ. بل هاهم يقدمون الدعم الماديّ لفرنسا الداعرة للقضاء على مسلمي مالي، قاتلهم الله أنيّ يؤفكون.

هذا الجهاد مطلوبٌ مبروكٌ، فهو شوكة في حلوق الطغاة المستبدين، يؤرقهم وينغص عليهم فرح النصر على الإسلام. لكن مسألتنا هنا ليست بصدد **شوكة في حلق، بل هي بصدد رصاصة في قلب**. نحن نتحث عن دعوة تقضى ابتداءً على مصادر الكفر في بلادنا، ولا علينا أن يكون الكفر في بلاد الغرب، فهذا قدرهم وما خلقوا إلا له. هذا لا يكون

إلا بمناهج في غاية التقدم والتخطيط والتكتيك والمثابرة. ولن يكون هذا بخطباء يهزون المنابر، بل يكون بعقولٍ وهِمَم ومقومات شخصية تحيّ موتي النفوس والقلوب والعقول.

وهذه النظرة ليست تشاؤماً، ولا غضّاً من قيمة الجهاد والمجاهدين، وإنما هي تقديرٌ دقيقٌ للمعطيات الحاضرة التي تعمل فيها الدعوة الإسلامية المرتقبة، والعوامل التي يجب أن تأخذها في حسبانها، والشروط التي يجب توافرها لتحقيق مرادها. إن التوكل على الله سبحانه دون أخذ كافة الأسباب المؤدية للنصر، أو حتى جلّها، هو إلى التواكل أقرب، وهو ما يقترب فيه منتسبي أهل السنة الى الصوفية دون قصد. فهؤلاء يدخلون الصحراء دون زادٍ إدعاءً منهم أن الرازق سيرزقهم في البرّ كما يرزقهم في الحضر! وأولئك يقيمون دعوة للتغيير والإنقلاب على العلمانية بعدتها وعتادها دون إعداد الوسائل البشرية والبيئية والمادية الكفيلة بالنصر! كلاهما صوفيّ المنهج، واأسفاه.

ونحن نعلم أنّ هناك من الشخصيات التي ظهرت في قرون الخَلَف المتأخرة، بل وفي العقود السالفة، ما يعتبرها البعض من فتوحات الإسلام، وأحدثها سيد قطب والمودودي وأسامة بن لادن وبقية أعلام المجاهدين في هذا العصر. لكنّ هذا هو الإستثناء الذي يثبت صحة القاعدة. فإنّ ظهور تلك الشخصيات، متناثرة على خريطة الزمان والمكان، لا يغيّر من حقيقة ما قدّمنا شيئاً، إذ لسنا بصدد مناقشة ظواهر فردية، وإن عظم قدرها، بل نحن بصدد مناقشة ظاهرة إجتماعية تلقي بثقلها على مجتمعً بأكمله. مجتمع فشل في أن يحقق الشروط الخُلقية والمادية التي تكفل له نهضة، لا أقول النهضة. إن أوروبا حين تجردت من ثياب المسيحية البالية، وظهر فيها رجال يقيمون لها منظومة أخلاقية وعقلية، تكون لهم مرجعاً عقدياً بديلاً عن الدين، من أمثال كانْت وديكارت وبيكون وتوماس مور وغيرهم، اتبع أبناؤها هؤلاء الرجال والتزموا بتعاليمهم، وأقاموا صرح حضارتهم المادية عليها. لكننا نحن المسلمين، في المقابل، تخلينا عن كل عقيدة، ونبذنا تعاليم الأفراد الأفذاذ الذين منّ الله بهم علينا، وفقدنا حتى أخلاق الجاهلية الأولى. فالأمر ليس أمر ظهور شخصياتٍ فرادى، بل أمر مجتمع يحتضن ما يقولون، ويأتمر بما يعلمون.

ثم أين هؤلاء المجاهدين اليوم في مصر؟ كيف نترك فرق التخريب النصرانية كهؤلاء المُشركين البلاك بلوك، دون أن يخرج أبناء الرايات السود، الذين سمعنا كلامهم فصدقناهم، ورأينا أمورهم فتعجبنا، أقرب للنساء منهم للرجال؟ أين الإخوان الذين هم مخنثي هذا الأمة، يتركون مقراتهم تُحرق وتنهب، وهم أخنث من خصيان المماليك؟

وللحديث بقية إن شاء الله

(٥)

منذ ثلاثين عاماً مضت، وبالتحديد في عام ١٩٨٣، نشرنا كتاباً عن «أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم»[١]. كان هذا الكتاب معبراً بحقٍ عما رأيناه من أدواء المجتمع الإسلاميّ، خاصة داخل ما عُرف بالتيار الإسلاميّ. وقد حددنا في هذا الكتاب أسباباً خارجية لهذا التفرق والإختلاف، وأسباباً داخلية تعمل عملها في الجسد الإجتماعيّ كما يعمل الفيروس في جسد المُعَنّى. ونحن معنيون هنا بالسباب الداخلية التي لازالت تنخر في الأمة، كما كانت تنخر فيها يوم رصدناها منذ عقود عدة. هذه الأسباب التي أشرنا اليها آنذاك كانت الهوى والجهل والتعصب. عوامل ثلاثة تتعاون كلها على تفرقة الجمع وتشتيت الشمل.

الهوى، آفة النفس البشرية. وإن شئت فانظر كم من جماعة وتجمعٍ وحركة وتيارٍ على الساحة اليوم. أكاد أجزم أنها بعدد من ينتمون للتيار الإسلاميّ. هذا التشرذم والتفتت ليس إلا لأنّ كلّ يرى نفسه رأساً، ويهيؤ له شيطانه وغروره أنه جدير بقيادة جماعة، أو تزعم حركة! ترى هؤلاء في أنحاء مصر كلها، ولو سأل أحدهم نفسه، ما يفرقني عن غيرى؟ لم يرَ إلا إرادة العلو وهوى الرياسة والغرور بالذات، لا غير. ومن هؤلاء سذجٌ طالبي خير، لكن من غير بابه بغير مكياله.

ثم آفة **الجهل**، وإنه لفي غاية الصعوبة أن تقنع أحدا بأنه جاهل، أو محدود العلم، ذلك أن النفس قد خلقت بديناميكية دفاع ذاتية، ترفض الإعتراف بالجهل، إذ يضعها ذلك موضع الخطر،

---

[١] طبع طبعته الأولى، بالإشتراك مع الأخ الدكتور محمد العبدة، في مطبعة دار الأرقم، الكويت ،.

تماماً كما ترفض الدخول إلى النار أو الوقوف أما سيارة متحركة. ثم هناك أمرٌ آخر وهو الفرق بين المعرفة والإدراك. فقد يعرف أحد أنه جاهل، لكنه لا يدرك هذا إدراكاً يرتفع إلى مستوى أن يتعامل مع هذه المعلومة على أنها حقيقة، فيسعى إلى تغييرها والتعامل معها. والجهل منه بسيط، وهو أن يعرف من يجهل أنه يجهل، ثم مركبٌ وهو أن يجهل الجاهل أنه جاهلٌ وهو أكثر ما نرى من حولنا. ولا تغتر بما يقوله البعض «نعم، أنا والله أجهل الكثير، وأريد التعلم ..الخ»، فإنّ هذا لا يعدو مخارج لفظه، إذ تجده بعدها يسعى لقيادة جماعة أو يجلس يلقى دروساً، أو ما شئت من أنشطة، تعود بنا إلى أصل الهوى، الذي يُضل عن سبيل الله. وسبيل الله ليس هو كل ما يتلفظ به من حَسُنَت نيته، وأراد أن يخوض غمار التجربة الإسلامية، وأن يجد لنفسه مكاناً على خريطتها. بل هوسبيل من تحقق بهذا الطريق، وسلك دربه على علمٍ وهدى، دون القفز على القيادة والمشيخة. وقد يسّرت الإمكانات التكنولوجية مثل هذا الهراء العلميّ. فتجد موقعا لكل من هبّ ودبّ، وتجد أتباع الفيس بوك وغيره من تلك الكوارث التي لفتت الناس عن الدراسة الحقة، وجعلت القشور هي الأصل، فصغر العالم وكبر الجاهل.

ثم آفة **التعصب**، وهي ما نراه اليوم في تعصب أتباع الإخوان لقياداتهم، وتعصب أتباع السلفية المنزلية لمشايخهم، وأتباع حزب التحرير لمفاهيم حزبهم، إلا أهل السنة. فأهل السنة في عصرنا قد آلوا على أنفسهم ألا يتعصبوا لأحد، إلا أنفسهم! بأن يكون كلّ فرد فيهم رأساً قائداً، يدعى الإتباع والنفور من التقليد والتعصب، وهو يقع في أسوأ من ذلك بخلع ربقة العلم والإستهانة بالفتوى وارتداء ثياب الزور.

فما العمل اليوم إذن؟

يخطأ من يظن أنّ الأمر سهلٌ هينٌ قريب. لا والله بل هو صعبٌ شاقٌ بعيد. الحل اليوم لا يقوم به رجلٌ واحد، إذ ليس هنا مثل هذا الرجل قائمٌ بين ظهرانينا. الأمر يحتاج إلى ان تجتمع عزائم أصحاب العزائم، لتضع تصوراً يخرج بالأمة من هذا الموات الخلقيّ والعقليّ والماديّ. ولن يكون ذلك إلا إن اعترفنا بنقصنا، وعرفناه وحققناه وتحدثنا عنه، ليصبح شاغلنا الشاغل. حينها يمكن أن يكون ثمة تحديد صحيح للدواء الفاعل. يجب أن نتهادى بعيوبنا أولاً، وأن نعرض مواضع النقص

فينا، بدلاً من أن نحيا في وَهمٍ أننا بخير إذ نحن المسلمون وهم الكفار. إنّ العلو في الدنيا والنصر على كفارها يلزمه خلق الصحابة، وعزائمها وتصميمها وإيمانها، أو أقرب ما يكون إلى ذلك، إذ يعزّ أن يوجد مثل هؤلاء مرة أخرى.

إنّ الأمة اليوم في حاجة إلى أن تتوحد. ولا أقول ذلك بالمعنى الذي يُردّده أمثال القرضاوى أو محمد حسان أو غير هؤلاء من المتحدثين باسم الإسلام، داعين إلى وحدة الشرك والإيمان، أو السنة والبدعة، أو الفسق والتقوى. بل الأمة تحتاج إلى أن تتحد على منهج التوحيد الخالص لا غيره. وأن يعمل أبناؤها على تصحيح ما انحرَف من أخلاقٍ وتصرفات ومفاهيم. يجب أن يقوم الفرد المسلم اليوم بمراجعة جادةٍ صارمةٍ لكل ما هو عليه من خُلُقٍ وتوجهاتٍ، لا فقط في باب العلوم الشرعية، ومدى تحصيله في علم التوحيد أو الأصول أو المُصطلح، بل في خلقه الأساسيّ ونشاطه وهمته وتصرفاته، وصدق وعده ووعيده، وإخلاصه لله لا لنفسه وغروره. ولا أجد أصدق من كلمات الله سبحانه يصف فيها المفلحين «قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾».

ثم ها هي كلمات الخنساء التي وصفت أخاها صخراً، تمثّل النوعية التي نرجوها لبناء جماعة إسلامية:

هو الفتى الكامِلُ الحامي حَقيقَتَــهُ
مأْوى الضّريكِ[1] اذّا مَا جاءَ مُنتابَا

يَهدي الرّعيلَ إذا ضاقَ السّبيلُ بهم
نَهدَ التّليلِ لصَعْبِ الأمرِ رَكّابا

---

[١] الضرّيكِ: المحتاج البائس

المَجْدُ حُلّتُهُ، وَالجُــودُ عِلّتُــهُ
والصّدقُ حوزتهُ إنْ قرنهُ هابــاَ

خَطَّابُ محفلـةٍ فرَّاجُ مظلمـــةٍ
إنْ هابَ مُعضلةً سنّى لهاَ بابــاَ

حمَّــالُ ألويَــةٍ ، قَطّاعُ أوديَــــةٍ
شَهّادُ أنجيَةٍ ، للوِتْرِ طَلاّبـــــا

سُــمُّ العداةِ وفكّـــاكُ العُنـاةِ، إذَ
لاقى الوَغَى لم يكُنْ للمَوْتِ هَيّابا

د طارق عبد الحليم
٢٩ يناير ٢٠١٣

ماذا علمتنا الجماعات الإسلامية .. في قرن كامل

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

مقدمة

لا شك أن المائة عام الماضية، التي أعقبت سقوط الخلافة، قد حملت الكثير من التجارب والعبر التي يجب على الناظرين في شأن هذه الأمة ترديد النظر فيها مرة ومرات تلو مرات. فقد رأت الأمة خلالها كل أنواع الهجوم من الشرق والغرب، الشرق الشيوعي والغرب الصهيو-صليبي. كما كانت ردة فعل الأمة على درجات مختلفة، وإن تشابهت في عموماتها وفي درجة تأثرها بما طرأ عليها في مختلف البقاع، من جاكرتا إلى الدار البيضاء.

وقد كان التأثير الذي أحدثه الهجوم الثقافي والاقتصادي والعسكري، والذي تصاعدت وتيرته في ربع القرن الماضي، عنيفاً، عميقاً، شاملاً، لم يترك وجهاً من أوجه الحياة التي عاشتها الدول الإسلامية في تلك الرقعة إلا مسها، مسّاً ثقيلاً! فتبدلت القيم والعادات والتقاليد، ثم تدهورت الإخلاق والقيم، ثم انسحب الدين من مسرح الحياة السياسية، ليقبع في زوايا المساجد، ثم بدأ الهجوم على زوايا المساجد مؤخراً حتى يُستأصل الدين كله من أساسه، بل بدأ الهجوم على العقل والفكر الذي قد يحمل هذا الدين، بل الذي قد يحمل بذوره، لاقتلاعه من منبعه! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فهناك الأحداث، ثم هناك ردّة فعل الأمة عليها.

وهناك الكثير جدا للباحث مما يدعو للنظر والتأمل والاعتبار في كل تلك الأحداث، بل لا يسعها مجلدات تستوعبها سرداً وتحليلاً. لكننا، في هذا المقال سنحاول التركيز على وجه واحد من ردة الفعل من جانب الأمة، على تلك الأحداث. وهذا الجانب هو تكوين الجماعات الإسلامية، بمختلف أنواعها، والنظر في مواضع نجاحها ومواطن فشلها.

الجزء الأول

والجماعات الإسلامية، شكل من التجمعات الإسلامية، التي نعني بها الأحزاب «الإسلامية» كالأمة الكويتي، أو العدالة والتنمية الإخواني المصري أو النهضة التونسي أو غير ذلك من أحزاب، قامت كلها من داخل الأنظمة العميلة المرتدة، وعلى أسس علمانية خائنة لله ورسوله وكتابه. فلم يكن منها جميعا أمر رَشَدٍ أبداً، رأينا ما حدث في مصر وتونس، وما يجرى في الكويت إلا تعمية للشعب بأن هناك حزباً!

والشكل الثاني هو الجمعيات الإسلامية، والمنظمات الخيرية، والروابط والاتحادات العلمية، وهي أكثر من أن تُحصى، فمنها الجمعية الشرعية وأنصار السنة في مصر، ورابطة العالم الإسلامي، واتحاد علماء أوروبا، واتحاد علماء أمريكا الشمالية، وغيرها مئات. وباستثناء الجمعيات الخيرية التي تسعي لعمل الخير العام ومساعدة الفقراء، فإن بقيتها كلها روابط هيئات واتحادات ضرار، ضررها أكبر من نفعها، بل ليس لها نفع على وجه الإطلاق، فهي إما عميلة للحاكم أو الملك أو الأمير، وإما مستقلة (صوريا)، لكنها تحمل خبثا، فيُسمح لها بالبقاء من حيث يعرف الحاكم ما تجرّه من ضرر على الإسلام والمسلمين، ومثال ذلك رابطة العالم الإسلاميّ.

ثم نأتي إلى المقصود من مقالنا هذا، وهو الشكل الثالث من تلك التجمعات، ونعني بها الجماعات الإسلامية الحركية، مثل الإخوان المسلمون، الجماعة الإسلامية بباكستان، جماعة الجهاد المصرية، جماعة القاعدة، الجماعة الإسلامية بمصر، الجماعة الإسلامية في الجزائر (الزوابري)، جماعة تركستان الشرقية الإسلامية، وإمارة القوقاز الإسلامية بالشيشان، وجماعة الشباب المجاهدين في الصومال، وغيرها من جماعات كثيرة تتراوح في عمرها، ودورها وفكرها، بين عقد واحد وثمانية عقود، وبين فكر موغلٍ في الإرجاء، إلى فكر حروريّ متطرف، ومنها ما هو على مذهب السنة، فكريا وحركياً. ثم ينضم لذلك الحركات الإسلامية الأخيرة التي نشأت نتيجة حربي العراق والشام، حيث فرّخت تلك الحروب جماعات، في شكل فصائل جهادية، مثل هيئة تحرير الشام، وأحرار الشام، وحركة البغدادي

المسماة بتنظيم الدولة الإسلامية (داعش).

والحديث عن فكر تلك الجماعات وتوجهها، وظروف نشأتها وتطورها، ورؤوسها القيادية، وتاريخا الماضي وحاضرها الواقع، ومستقبلها المنتظر، وما آلت اليه، هو أمر وراء خطة هذا المقال، على أهميته وخطورته العظمي. فإن التأريخ لتلك الجماعات، لم يكن كاملا أبداً، لا زمنيا ولا فكرياً، كما أنه كتب كمقتطفات هنا وهناك، سرداً أكثر منه تحليلاً، وغالبه غير موثّقٍ مؤكد. وهذا من أعظم الخسائر الفادحة في عصرنا هذا. ولعل أحداً، وأظنه عمل لا يقوم به إلا هيئة متكاملة، أن ينهض بهذا العمل، تحت إشراف علماءٍ معروفين بقدراتهم الأكاديمية، وحيادهم الفكري، دون انتماء لأي من تلك الجماعات، درءاً للشُبَه.

والإسلام في الشرع الحنيف، يعتبر النهايات والنتائج بمعزل عن مقاصدها ووسائلها، بل يربطهما معا في نسق واحد، ويضعهما كلاهما في منظومة القضاء الإلهي المحتوم، الذي يقرر النتيجة بناء على السبب، في دنيا الناس، دون تخاذل عن السبب أو اندفاع لهدف.

ونحن حين نتحدث عن نجاح أمرٍ أو فشله، فإننا لا نعزو ذلك إلى جبر إلهي محتوم، وقضاء كوني مكتوب لا خيار لنا فيه، بل نعيده إلى الخلل في الأسباب والوسائل، مع التسليم بأنه مهما كان من العاملين، فلم يكن ليقع إلا ما وقع، وفقهاً لعلم الله التام، سبحانه.

والناظر إلى حال الأمة الإسلامية اليوم، في كلّ بقاعها، بلا استثناء أي بقعة منها، يرى أنه ما كان من عمل في المائة عام السابقة، قد فشل فشلاً ذريعاً في رفع الأمة من وهدتها، بل لم يعنها حتى على إبطاء سرعة تدهورها وانحطاطها، بل، في بعض الأحيان، أعان على هذا الانحطاط وساعد عليه!

كانت نشأت تلك الجماعات، السياسية التربوية، ثم الجهادية، تظهر كأنها هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن يسلكها من يريد أن يُصلح، ومن يريد أن يُغير، والفارق بينهما كبير، غاية ووسيلة.

وقد اختلط الحابل بالنابل في هذه الجماعات، ودخل فيها ما شاء الله أن يدخل من كل

أنواع البدع، واخترقها من اخترقها من جواسيس وعملاء الخارج، وشياطين النفوس من الداخل، منها ما تأسس على الانحراف أصلاً ومنها ما انحرف لاحقاً.

ولا أدل على ذلك من تاريخ الإخوان، والتحولات الفكرية والعقدية التي مرت بهم، ما قسّمتها إلى ثلاثة مراحل فيما دوّنت سابقاً. فغزتها بدعة الإرجاء، والتصوف، وانحرف مسارها الحركي مؤخراً إلى ما جرّ البلاد، في مصر وغيرها إلى شرّ منقطع النظير، هم وحدهم المسؤولون عنه أمام الله والناس. وقد ضيعوا حقوق الناس ودمائهم بما قاله مرشدهم إلى الضلال محمد بديع عن سلميته الملعونة. وما أحسب ما يقع بهم الآن فتنة وابتلاء، بل عقاب وجزاء.

ثم انظر إلى الجماعة الإسلامية المخذولة، بدأت حركتها البندولية بمغالاة في الدماء والأنفس، ثم تحرك بندولها لأقصى الجهة الأخرى، فصاروا يرعون الكفر ويتحدثون به ويتعاونون معه، ويتركهم السيسي بحزبهم الذي همّه جمع أموال للتجارة والعمل، خيبهم الله بما وقعوا فيه من كفريات محضة.

ثم انظر لحزب النهضة التونسي العلمانيّ بقيادة المخذول راشد الغنوشيّ، وهو أنكد من أي حزب علمانيّ المبادئ في الشرق المسلم اليوم.

وإذا وجهت شطر الحركات الجهادية في ساحات القتال المباشر، فحدّث ولا حرج!

أينما وجهت بصرك، وجدت خيبة وحسرة وانهزامية وانسحاق وعلمانية وكذب ونفاق، إلا من عصم الله، وهم قليل من قليل.

فحركة أحرار الشام بدأت بانحراف أصليّ في توجهها الشرعي، على يد حسان عبود، ثم جاء من بعده، وصحبه الذين إغتالتهم يد من لا نعرف، فرقة الطبالين النحاسية، وتبنوا عدداً من أسوأ الرويبضات الصغار، هاروش وشريفة ونجيب، كعلماء ومشايخ!! وهم بين جاهل أو علماني يدعي التجديد، أومتخرج على يد أحمد الطيب وعلى جمعة! وصلت إلى دعم الدولة المدنية (العلمانية) والقومية السورية، وحقوق المواطنة التي لا تقرها الشريعة،

وتبرؤوا حتى من عَلَمِ لا إله إلا الله!

ثم ما أسموه جيش الإسلام، وهو عميل مفضوح صريح لدولة بني سعود، فكراً وتمويلاً تحريضاً وخيانة لله ورسوله، قاده السعودي التوجه زهران علوش.

وقد ذكرنا هذين الفصيلين، ووضعناهما ضمن الجماعات، من حيث يدّعون أنّ لهم فكراً ومبادئاً وكتّاباً وعلماء، يعلم الله أنه لم يصل أكبرهم ليكون طالب علم.

هذا حال الجماعات الإسلامية، إلا ما كان من تجربة طالبان والقاعدة وشباب المجاهدين وحركة تركستان الشمالية، مع نظر ناقد في الوسائل التي استخدمت في فترة من الفترات.

وهذا، كما يظهر، فشل كبير في تكريس هذا اللون من العمل للوصول إلى إعادة الأمة إلى سابق عهدها، إيمانا وقوة وسيطرة.

أظن أن فكرة «الجماعة الإسلامية» منذ بدأ هذا النشاط قد انحرف عن مساره في وقت قصير للغاية، وكان ذلك الانحراف مع بداية الخمسينيات، أي بعد أقل من ربع قرن على ظهور الجماعة الإسلامية في باكستان، وجماعة الإخوان في مصر.

كان الهدف من «الجماعة» هو رصّ صفوف مؤمنة، تتعاون فيما بينها على نشر فكرها المشتق من الكتاب والسنة، بين الناس، ومن ثم توسيع «قاعدة القبول» عند أبناء الشعوب المختلفة، والتقريب بينها، بناء على أخوتها الإسلامية الأصيلة، دينا ولغة.

لكن، صارت الوسيلة هي الهدف، وصار ضم الأعضاء للجماعة، والولاء لأفكارها هو الهدف الأصليّ، واختلط فكر القائمين عليها بما هو من مسلمات الشريعة، فكان أن عاقبها الله سبحانه بالفشل والحسرة والانقراض في بعض الأحيان، كما حدث لحرورية شكري مصطفي، ثم الزوابري ثم البغدادي، وما هو شكل من أشكال الاستئصال لجماعة الإخوان المسلمين، وتحول بعضها إلى أحزاب علمانية فاشلة بحتة لا علاقة لها بالإسلام أصلا كحركة النهضة في تونس.

صار الانتماء والولاء مقدّم على الدين والعلم والكفاءة، من حيث صارت الجماعة

هي الهدف، لا إقامة الدين. ومن ثم، فقد الاجتماع غرضه ومصلحته، بل أصبح ضرّه أكبر من نفعه، من حيث أصبحت الجماعة، منفردة عن المجتمع، نائية عنه، بل ومستعلية عليه. ولم يصبح همّها نشر الدين للخارج، بل جذب الناس للداخل، بدين أو بغيره، طالما الولاء متحقق. وذلك متحقق في غاية الوضوح في طرفي منظومة الجماعات الإسلامية القائمة، في الإخوان قمة الإرجاء، وفي العوادية قمة الحرورية. فتراهما مشتركتين في

١. تقديم الولاء على الكفاءة والدين

٢. الجهل المدقع بالشريعة

٣. التحزب للجماعة، كأنها الدين، بل أهم.

مما ذكرنا، يتضح أنّ تجربة تكوين جماعات إسلامية بشكل عام، لم تنجح في تقريب الأمة للإسلام، بل على العكس، ساهمت في تفريقها وتفتيتها.

لابد إذن من أن ينظر علماء الأمة الربانيون، في وسيلة جديدة، تضمن القدرة على تحويل عقيدة الأمة إلى الصواب، وجمع كلمتها في منظومة إجتماعية لا جماعية، تأخذ في اعتبارها الأخطاء الجسيمة التي حدثت في الماضي، وتراعي ظروف الحاضر ومعطياته.

د طارق عبد الحليم
٢١ يولية ٢٠١٧ – ٢٧ شوال ١٤٣٨



الجزء الثاني

وحين نشير إلى الوسيلة الجديدة التي يتعين على حكماء الأمة وعلمائها أن يجمعوا كلمة الأمة بها، وأن تصحح عقائدهم، فإننا نراعى ما يلى:

١. أن المنهج الحق هو ما تركنا عليه رسول الله وما عليه صحابته وتابعيه وتابعيهم إلى يوم الدين، وهو التوحيد الخالص، والطاعة المطلقة غير المشروطة لله سبحانه في أوامره ونواهيه، شعائراً وشرائعاُ، حسب ما يفضي اليه النص الصريح، أو الإجتهاد الصحيح، لمن يحمل أدوات النظر فيهما، لا لكل عابث مخرّب.

٢. أنّ المناهج لا تقوم بذاتها، بل بمن يحملها بقوة «يا يحي خذ الكتاب بقوة»، «خذوا ما آتيناكم بقوة». وهؤلاء الحاملون للمنهج، الذي هو أمانة الإنسان في الأرض» يجب أن يعرفوا ماذا يواجهون، وكيف سيواجهونه.

٣. أنّ هؤلاء الحاملون للأمانة، هم «جماعة» من ناحية، وهم «جزء من كلٍّ» لا يتجزء من أمة من ناحية أخرى. وهذا التصور ينبني عليه خصوصية وعمومية. أما الخصوصية، فهي حركية تتعلق بالأداء لا بانعقاد ولاء، إذ ولاؤهم منصرف إلى الله والرسول وأمة الإسلام بعامة. وأما العمومية، فهي الإندماج في مشاكل الأمة، والرحمة بأفرادها، وعدم التعالى عليهم، ومعرفة أن «الجهل عارض يزول»، وأنّ الأصل فيهم الإسلام لا الكفر.

٤. أن يميّزوا بين أنواع ثلاثة أمر الله بها لنشر الحق المبين، وهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الدعوة إلى سبيل الله، والجهاد دفعاً وطلباً. فكم من «جماعة» و»مفكّر» بل و»داعية» خلط بين تلك الثلاثة فضَلّ وأَضَلّ!

٥. أن تلك الأنواع المذكورة كلها باقية إلى يوم الدين لكنّ منها ما لا يتوقف لحظة، ومنها ما يتوقف فترة أو فترات حسب الأحوال والظروف. وأنّ مناط التوقف هو من باب الإجتهاد الذي يجب أن يتمثل فيمن يقرر ذلك زماناً ومكاناّ.

٦. أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باق إلأى يوم الدين، لا يتوقف لحظة، فإن قام به أحد، سقط عن الباقين ممن في دائرته. ويجب أن يقوم به عدد يكفي لتغطية حاجة الأمة من ذلك الواجب الحتم.

٧. أن المعروف معروفاً لا ينقلب منكراً، وأن المنكر منكراً لا ينقلب معروفاً، لا بإعتبار مصالح متوهمة ولا بدرء مفاسد متوهمة. فالمصالح الصحيحة التي تتمشى مع الشرع وتطابق كلياته معروفها معروف ومنكرها منكر، لا يصادم نصاً ولا يقوم على وهمٍ أو آجل من الغيب.

٨. أن إنكار المنكر مقدّم على الأمر بالمعروف «كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون»، فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.

٩. أنّ إنكار المنكر قائم على نصوص صحيحة ثابتة، ومبثوث متكرر في الشرع الحنيف، ومتقرر ككلية عامة لا تخصص إلا باستثناء شرعي ثابتٍ بنص أو باجتهاد ضمن إطار الشرع، ممن له حق الإجتهاد[١]. ولا تصح مجرد إطلاق صفة المصلحة[٢] كاستثناء معتبر، إلا إن تحققت شروطها التي تجعلها في مصاف المستثنى من القاعدة الكلية.

١٠. أنّ الدعوة علم قائم بذاته، يلزمه حدّ أدنى من العلم الشرعيّ ليقى الداعية نفسه من الزلل، ويقى الأمة الضلال مما في حوزته من خلل. ونفي الخبث والخبثاء عن الدعوة واجب على كلّ صاحب علم، ولو بالقوة، حسب الحال، من حيث هو ضرر داخلي وسرطان مقيم غير مرئي.

١١. أنّ جهاد الطلب اليوم هو مما توقف وارتفع وجوبه عن الأمة، من حيث هي في

---

[١] راجع بحثنا «الإستثناءات من القواعد الكلية في الشريعة الإسلامية»
http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73154

[٢] راجع كتابنا «المصلحة في الشلايعة الإسلامية» http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-70583

أشد حالات ضعفها وفقدانها لكلّ مقدراتها، ثقافياً، وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً. والقدرة مناط التكليف.

١٢. أن جهاد الدفع، أو دفع الصائل المعتدي واجب حتمٌ لا يتوقف إلا بتحرير الأمة من المستعمر اللعين، الداخلي والخارجيّ، مهما كلّفها من ثمن، ومهما طال أمد هذا الدفع، فحفظ الدين والنفس والمال والعرض والعقل، مقاصد شرع الإسلام الحنيف، لا يتوقف الدفاع عنها، بعضها أو كلها، حتى يرتفع الأذي وينجلي العدوان. وهذا أمرٌ مركوزٌ في كل الفطر الإنسانية، وحقٌ لكل بشر مهما اختلف نوعه أو جنسه أو دينه، فهو من الأوامر الكونية قبل أن يكون من الأوامر الشرعية.

ولا أدّعى أنني جئت بكل النقاط التي يجب على من يتصدى للنظر في الوسائل الجديدة التي تحتاجها الأمة للتصدى للعدوان القائم الشرس اليوم على أصل وجودها وبقائها، لكنها جهد المقلّ، ولا أظن أنّ فيها ما يوجب خلافً بين أصحاب العلم، من أتباع هذا الطريق.

والله المستعان

د طارق عبد الحليم

١٦ فبراير ٢٠١٧ - ١ جمادي الثاني ١٤٣٩

المشكلة الإسلامية .. تأصيلاً وتطبيقاً

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

(١)

من نافل القول اليوم، أن يقول قائل إن «المشكلة الإسلامية»، قد دخلت نفقا مظلماً طويلاً بارداَ، هواؤه ثقيل الوطأة، لا يكاد شعاع شمس أو بارقة ضوء أن تنفذ إليه من تكاثف ظلماته، وتراكم عراقيله وعوائقه.

و»المشكلة الإسلامية»، ليست قاصرة على واقع تعيشه أمة الإسلام، على رقعة الإسلام، كما إنها ليست حلولاً يعرضها هذا أو ذاك، يتصور بها خروجا من النفق، أو خلاصاً من الورطة. بل إن من ظنّ ذلك فقد أبعد النجعة وبالغ في التبسيط المُخلّ، الذي يورد صاحبه موارد الهلكة، لا مصادر العون.

«المشكلة الإسلامية» هي تركيبة في غاية التعقيد والتشابك، زمنياً ومكانياً، لها أصول ضاربة في عمق التاريخ البشريّ المعروف، ولها فروع تشعبت عنها، في كلّ اتجاه، على مساحة الفكر الإنسانيّ كلّه، والتجربة البشرية كلّها، فأفرزت سبلاً في طريق تلك التجربة الإنسانية، منها ما فرضته فرضاً، لقوة حجته وصحة منهجه، ومنها ما طاوعت فيه ما هو خارج عن منهجها، فألبسته رداءً كأنه من صنعها، فأورثها الضعف والتخلف.

«المشكلة الإسلامية» هي في ذلك التاريخ المعقد، الذي مرت به أمة الإسلام، منذ أن أورث الله آدم الأرض واستخلفه فيها، حتى بعث محمداً صلوات الله وسلامه عليه، ليتمم نعمته على الناس، وإلى يومنا هذا، بما حدث من تصادم حقٍ وباطل، حضارة وحضارة، فكر وفكر، جيوش وجيوش، أطماع وأطماع. وحتى بلغت الذروة في التصادم، وتداخل مجالات التأثير، منذ قرنين من الزمن.

«المشكلة الإسلامية» هي في هذا الواقع الذي نعيشه اليوم، بناءً على ما أوصلنا إليه

ذاك التلاطم التاريخيّ العنيف أشد العنف، المتشابك أعقد التشابك، كجمع من «دويلات» ضعيفة على كثرة عددها، متخلفة على عظمة إرثها، ذليلة على عزة مجدها، فقيرة على اتساع ثرواتها. دويلات تتعادى وتتشاكس فيما بينها، في كلّ أمر، إلا أمر التخلص من الهوية المسلمة، خلاصاً تاماً. دويلات، تحكمها طواغيت، جبارين على شعوبهم، أحذية في أقدام المستعمر المتغلب.

«المشكلة الإسلامية» هي في تلك «الجماعات الإسلامية»، كما تصف نفسها، أو كما يصفها عدوها، والتي تريد أن تصل لحلٍّ للمشكلة، من خلال مسالك متباينة أشد التباين وأكثرها تضارباً، لدرجة التعارض التام بينها، فلم تنجحأحدها، حتى يومنا هذا في تحقيق خطواتٍ جادة نحو الحلّ الشامل، إلا تقدماً محدوداً جداً هنا أو هناك.

«المشكلة الإسلامية» هي في ذلك القاع السحيق الذي وصل إليه الانحطاط الحضاريّ، أيّا كان تعريف الحضارة في مفهومك، خلقيا وماديا ونفسيا واجتماعيا. ذلك القاع الذي تتواثب فيه علينا حشرات الفكر وجراثيم التصورات وجعارين الفسق والتحلل، تعبث بكل ثوابتنا، فتصيبها في مقتل، تحت ستار الظلمة الحالكة التي هي من طبيعة القيعان، على كلّ حال.

«المشكلة الإسلامية» هي في ذلك التوصيف الذي تقيم عليه تلك الجماعات، الباحثة عن حلٍّ، إن صدقت!، تصوراتها حول ذاك التاريخ، وهذا الواقع، ثم على ما تفهمه من رسالة الإسلام، عالميتها وشموليتها وديمومتها. وهو ما نسميه «البعد العقدي» للمشكلة.

«المشكلة الإسلامية» هي في الحيرة التي وقعت فيها «الأمة»، أيّا كان المقصود بهذا التعبير الذي يختلف عليه كلّ الناس!، بين «جماعات» لها توجّهات، خطأ وصواب، حق وباطل، وبين أفرادٍ استقلوا بفكرهم، دون انتماء، منهم من نهج نهج السنة واتبع الصراط، ومنهم من اتبع السبل، فتفرقت به عن السبيل، عقديا أو حركياً، او تحليلياً توصيفياً، أو طار به الهوى كلّ مطار. ولكلٍّ رأي وحكم وعلم!، ومن ثم أتباعٌ وأنصارٌ وشيعٌ، كلّ بما

لديهم فرحون.

«المشكلة الإسلامية» تكمن في خروج أمرنا وقرارنا وإرادتنا، من يدنا ليد أعدائنا، جملة وتفصيلاً، أعداء الداخل قبل أعداء الخارج. ثم في قوى العالم الظالم الكافر كلّه، تتكالب على منطقتنا، دون استثناء، وكأننا البشر الوحيد الكائن على هذه الأرض، ممن تتضارب معهم مصالح تلك القوى.

تلك هي «المشكلة الإسلامية». وتلك هي أبعادها. وذلك هو عمقها وغورها.

فمن أراد الحديث عن حلول، فليدلي بدلوه في كلّ جانب من جوانب المشكلة، وإلا كان حلّه جزءا من الداء، لا جرعة من الدواء.

(٢)

كما أشرنا آنفا، فإن النظر في «المشكلة الإسلامية»، لا يصح، ولا يستقيم على حالٍ، بالنظر في جزئيات المشكلة، على انفرادها. بل يجب اعتبارها في كلّيتها وعمومها، حيث يكون تقسيم المشكلة، سبباً في تعارض بعض أوجهها، ومن ثمّ حلولها.

لكن قواعد البحث تُملي أن يكون النظر في الجزئيات، أيسر، في البداية، لتحديد مسارات للرؤية، وكشف بعض الغائبات، وتزييف الزائف وتصحيح الصحيح. ثم لابد بعدها، وهو ما أراه غائباً في غالب الدراسات التي تُعنى بهذا الأمر، أن يُعاد ترتيب الأمور، حسب التوجهات الجديدة، ثم يعاد النظر فيها لاختيار أفضلها، وأقربها لتحقيق ما يناسب كلّ الجزئيات، أو غالبها. فإذا تمّت تلك الدورة الأولى، أُعيد النظر في مطابقة الحلول للكليَّات الحاكمة،، ثم يُرجع إلى الجزئيات مرة أخرى، للتقريب والتعديل، وهكذا دواليك، حتى يستقر الأمر على أفضل ما يُناسب الجزئيات، ويقع تحت الكلّيات.

ولا ينسى الباحث هنا، أنّ الواقع يفرض تغيّرات على الخطط والتوجهات، ومن ثمّ الحلول، فلابد من إعطائه أولوية في التركيبة المدروسة. لكن، يجب كذلك أن نعلم بأن التغيرات التي تحدث في الواقع بطيئة الأثر، موقوتة محدودة بزمان ومكان، فلا يجب أن تغير

في مسار الدراسة تغييراً استراتيجياً دائم الأثر. بل يجب أن يكون التغيير على قدر ما ينعكس على الساحة لا أكثر، دون إغفالٍ أو تهويل.

وتلك العملية البحثية الدؤوب يجب أن تستمر، بلا توقف ولا كللٍ، مراجعة وتعديلاً وأصلاحاً وتقويماً. إذ عليها تقوم سلسلة التصرفات التي هي بدورها عرضة لمراجعات تكتيكية لا أكثر، من حين لآخر.

وأحسب أن تلك السياسة هي التي تتبناها، مراكز الأبحاث العالمية الغربية، التي جاءت للوجود عقب الحرب العالمية الثانية، حيث أدرك الغرب الأمريكي، أهمية مثل هذه الدراسات، وضرورتها للسير على بينة في قرارات السياسة والاقتصاد والحرب. ولا أظنّ أن تقاريرها تغرت كثيراً منذ بدأت عملها، إلا في عمق التفاصيل، ومتابعة التفاصيل اليوية لعمل بعض الرتوش الملائمة من وقت لآخر.

وقد كانت الحرب العالمية الثانية، حجر الأساس في رسم الواقع الذي يعيشه العالم كلّه اليوم، تحت السيطرة الإمبريالية الأغربية الأمريكية، حيث وضعت القارة العجوز، أوروبا، في محلها بالمركز الثاني، كما تعمل جاهدة على كبح جماح العملاق الصينيّ، الذي يهدد مصالحها الاقتصادية، لولا تفوق القوة العسكرية الأمريكية الواضح.

أما بالنسبة لنا، نحن «المسلمون»، فلا دراسة ولا غيرها، إلا ما تجود به قرائح مفكرين وكتاب ودعاة، متفرقة منبثّة في كلّ اتجاه، لا يربطها رابط من هدف، يكون قد جرى فيه اعتبار كلّ الجزئيات، وتتطابقت النتائج مع الكلّيات المنشودة، ولو دورة واحدة!

ولنضرب مثلاً ما، «الإخوان المسلمون». منذ أن ظهر حسن البنا في مواجهة جزئية خطيرة، كانت نتيجة تراكمات لفشل جزئيات عديدة في الطريق، وهي سقوط الخلافة. فجعل همّه وبرنامجه صدى لأصلاح تلك الجزئية، وإعادة الخلافة من جديد. وقد يبدو هذا مناسباً وكافياً. لكن كما قلنا، لا هو مناسب ولا كافٍ. واستمر الإخوان يجرون بهذا الحلّ، المبنيّ على تصور أحاديّ «للمشكلة الإسلامية»، عبر الاربعينيات من القرن الماضي، وحتى العقد الثاني من هذا القرن، دون أن يقفوا لحظة لعملية إعادة نظر في مسار التحليل

والدراسة والتقييم. فكان ما كان مما نحن فيه، مما لا يَّخفى على أحدٍ.

كذلك، وعلى النقيض من ذلك، فإن الفكر الجهاديّ، رغم اعتباره لعدد من الجزئيات والعوامل التي تُشكّل أبعاد «المشكلة الإسلامية»، إلا أنه اضطر أن يضع العلاج، في إطار واحد، يناسب جزئيته الرئيسة، وهي الكفاح المسلح ضد الهيمنة الأمريكية المُطلقة.

كذلك قل في سائر من تحرك برغبة إصلاحية، في رقعتنا المريضة، سواء فرداً أو جماعة.

وسبب آخر في فشلنا في تلك الناحية بالذات، وهي الطبيعة العربية، على الأخص، والتي لا تُحسن عملاً جماعياً، فكرياً، أو غير فكري. فالتفرد والديكتاتورية، هي سمة الشخصية العربية، حيث يسبح كلّ فردٍ، أو مجموعة متحزبة، في فلكها، غير علبئة بما يجرى في الغرف المجاورة لها!

كما أعان على ذلك، الاستعمار الداخليّ، الذي لم يسمح بكتلة فكرية جادةٍ، تعمل بشكلٍ متكاملٍ، لوضع «المشكلة الإسلامية» في إطارها الصحيح، وتصويب أشعة الفكر الجماعيّ عليها، لتنير جوانبها كلّها، فتعيّن موطن الضعف الكامن، والمرض المزمن. ولمصلحة من يعين الحاكم العربيّ الطاغوتيّ مثل تلك التجمعات الفكرية، التي ستضعه، بلا شك، في عداد الآفات الوبيلة التي تعبث بالجسد الإسلاميّ، وترسّخ «المشكلة الإسلامية» أشدّ ترسيخاً وأكثر إعاقة.

فلم يعد إلا العمل غير الرسميّ، الذي يشارك فيه كلّ جادٍ صبورٍ صاحب علمٍ ووعي وضمير، وأهم من ذلك قلبٌ غير هيّاب، ممن يقتنع بما قدّمنا من تصورٍ عن العمل الاستراتيجي في إطار البحث عن استراتيجية فكرية وتطبيقية ثابتة، قدر ما يكون لمثلها من الثبات، فتكون جماعة باحثة، لا تُعنى إلا بالبحث والتفكيك والتركيب، ثم متابعة ذلك بلا مللٍ، وعرض النتائج على الكليات المنشودة، ثم العودة لطاولة البحث والتحليل مرة أخرى، وهكذا.

(٣)

خلاصة ما تقدم أنّ دراسة «المشكلة الإسلامية»، والتي يتفرع عنها «حل المشكلة الإسلامية»، أمر خطيرٌ عظيمٌ ذو بال، بل هو أخطر مسألة تواجه العالم الإسلاميّ منذ بدأ ما يسمونه «عصر النهضة» الأوروبي، ثم توجّه الغرب لهدم الإسلام منذ الحملة الفرنسي على مصر والشام.

وهذه الدراسة، كما ذكرنا في غاية التشابك والتعقيد، إذ يتداخل فيها عشرات العناصر الهدّامة، من الداخل والخارج، تعمل للوصول إلى هدف الغرب النهائي بمحو الإسلام.

ومن السذاجة، بل من البلاهة والغرور، أن يدعي أحدٌ أنه يمكنه، وحده، أن يقوم بهذا العمل، أو أن يغطي هذه الدراسة، مهما بلغ من العلم الشرعيّ والوضعيّ. فإن استيعاب التاريخ البشريّ، بتجاربه التي فرضها الله عليه، وما كان من سير الأوائل، ثم معرفة تاريخ المسلمين، ومعاصريهم من بشر وحضارات، ثم تحليل العوامل التي وصلت بنا إلى ما نحن فيه، في كافة المجالات، ثم تحديد نقاط القوة والضعف، في عدونا، وترتيب أولويات الصراع وأفضل طرقه ووسائله، ووسائل بناء القوة اللازمة، فكريا وعملياً، ومتابعة التغيرات الحادثة على مسرح الواقع، ثم وضع الخطط لتحويل ذلك كلّه إلى قوة حقيقية واقعية دافعة ... كلّ هذا، من العبث اللاهي أن يدّعى أحدٌ القدرة عليه، أو على غالبه، ولو من بعيد.

فما أردت أن أصف هنا، هو عملٌ جماعيّ طويل المدى، متشعب النواحي، يفترق ثم يلتقي، يُجمع ثم يُفرّق، حتى يكون منه محصّلة محورية، توجه المسيرة الإسلامية، في غدها، بدلاً من أن تسير سيرها اليوم، غير عارفة بطريقها، ولا مُدركة لمآلات تصرفاتها.

المطلوب اليوم، على صعوبة تصوره، لكن على ضرورة وجوده كذلك، هو جمعٌ من العلماء، المسلمين، المخلصين، المتواضعين نفساً والمتعالين خُلقاً وعلماً، الربانيين، من أهل الشجاعة والتضحية، ومن غير أصحاب الهوى أو طالبي المال أو الشهرة، يجتمعون على هذه النظرة للمشكلة الإسلامية، كما عرضتها، متوسعين في بيان مجملاتها، وتقسيم مفرداتها، ثم

وضع أجزائها في يد من هو قادرٌ عليه، أمين على القيام به. ومن ثم، تُجمع هذه الدراسات والنظرات، لينظر فيها من هم على رأس هذه المنظومة، إعادة توجيهها، فكّاً وتركيباً، تجميعاً وتحليلاً، لتعود، بعد هضمها، إلى يد من يزيدها دقة وتفصيلاً.

وهذا الذي ذكرت، هو ما قام به الغرب المعتدي، في دراسته لرقعتنا الإسلامية، حضارة وديناً ونفسية وأخلاقاً وواقعاً، في مركز بحثهم، التي أدركوا، قبلنا بقرنٍ من الزمن، أنا الوسيلة الوحيدة للهدم، كما أنها الوسيلة الوحيدة للبناء. وذلك مثل معهد كارنيجي أو مؤسسة راند، التي أقيمت عقب الحرب العالمية مباشرة، ويعمل بها أكثر من ثمانمائة وألف متخصصٍ على أعلى درجات التخصص في كافة مجالات الثقافة والحضارة الإسلامية.

ثم إني أعلم أني أكاد أطلب مستحيلاً، هو أقرب إلى الحلم منه إلى الواقع الممكن، لأسبابٍ عديدة، على رأسها، ترصّد عدونا بنا من ناحية، وندرة وجود من وصفت من القادرين على الانضمام لهذا العمل الجبار، الذي لا أرى غيره طريقاً للمسلمين، يخرجون به من النفق المظلم الطويل المعقد، إلى بر الاستقلال والعودة إلى المشاركة في بناء حضارة الجنس البشريّ على أسس العدالة والرحمة والتكافل، التي بيّنها الله سبحانه لنا في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، غير معتدين ولا ظالمين.

(٤)

وتجدر الإشارة هنا أنّ هذا العمل الذي ندعو له، ونراه الشعلة التي يمكن أن تقود جمهرة شعوبنا في طريق عودتها لدينها وحضارتها وثقافتها وكرامتها، لن يبدأ من الصفر المطلق. بل الحقّ أن هناك الكثير جداً من الدراسات والأبحاث والكتب، التي وُضعت في المجالات العديدة التي عرضنا كقاعدة لدراسة «المشكلة الإسلامية»، وغطّت قدراً لا بأس به من زوايا الموضوع، على قدر الرؤية الشاملة المستوعبة لصاحب الدراسة. فأمر الإستفادة منها، والرجوع إليها، أمرٌ مفروغ منه، لا يُهمله إلا جاهلٌ بسنن التطور الحضاريّ للأمم.

لكنّ أمر تلك الدراسات والأبحاث هو أنها لم تخرج ساعية إلى هدفٍ واحدٍ مُشتركٍ،

مستقرٍ في ذهن الباحث أو الكاتب، فيخرج عمله لبنة مستوية الأطراف، تسدّ مكانها في البناء المنشود. بل هي أقرب ما يكون إلى أن نعمد إلى محلاً هائلاً لتخزين اللبنات، مختلفة الأشكال والأحجام والأغراض، فنحاول أن نشيّد بها بناءً مستوياً متماسكاً، لا يخترقه ريح ولا مطر. وأنّى لنا هذا!

ثم أمر آخر ضروريّ، بل هو مفتاح ما نريد مدخلاً لحلّ «المشكلة الإسلامية»، وهو الإمكانيات المتاحة للشروع في هذا العمل، خطوة خطوة، دون عجلة أو تهورٍ، مستحضرين في الذهن أننا نتحدث عن مشروع «إحياء أمة»، لا عن إنشاء جماعة أو تجميع فصيلٍ أو تكوين منتدى فكريّ.

وقبل ذلك، فإن هناك شروط وموانع ترتبط بهذا المشروع، تختلف يسراً وعسرا، لكنها كلها ترتكز على بعض المعطيات الضرورية التي لا يمكن للوليد أن يُطلق صرخة الحياة دونها.

وهذه المعطيات، في نظرنا، هي:

• الإخلاص لله سبحانه ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ثم للدعوة إلى سبيل الله، دون غرضٍ أو هوى من أي نوع أو لون. وهي خصلةٌ نادرة أشدّ الندرة في عصرنا هذا، حيث أصبحت الشهرة هي الغالبة على أغراض أكثرية العاملين في هذا المجال، مع الأسف والحسرة، في عالم الإنترنت.

• الشجاعة في مواجهة الخطر، والخوف من الله سبحانه وحده، وهي، مرة أخرى، خصلة أشدّ ندرة في عصر التخابرات، وقوانين الإرهاب وملاحقة المسلمين حول العالم. وليس هذا موضع المحاضرة عن هذه الخصلة وموضعها من الإيمان، لكن يجب الإشارة إلى أنّ الخوف هو العامل الأول في تحجيم نشاط العديد من العاملين في الدعوة، حتى المخلصين منهم. ولا يعني هذا «التهور» في التصرفات، لكن عدم المبالغة في الحرص، والخوف المبنيّ على تصورات وافتراضات، للتغطية على جبن طبعيّ في المرء.

• العلم الحق المتخصص الذي يُثري صاحبه مجاله، بما له فيه من دقة فهم وعمق دراية وإحاطة بما كتب سلفه في، إحاطة استيعاب، لا إحاطة بَلّ لُعاب! فإن من الظواهر المريعة التي صاحبت عصرنا، عصر النت ومواقع التواصل، تدني العلم الحق، وقلة التحصيل الصادق والتحليل القيّم، فطفا على السطح عدد لا يُحصى من الصبيةُ والرويبضات والصغار، ممن لم يصرف لياليه في قراءة أمهات الكتب ومقابلتها وتلخيص بعضها والتعليق على بعضها الآخر، دعْ عنك قراءة ما يكتبه عدونا في لغته الأم، فهذا نادرٌ ندرة لبن العصفور، كما يقال!

وهذا العلم له علامات ودلائل ومؤشرات، على رأسها الإنتاج العلميّ الصرف، المتميّز بالجدة والأصالة وعدم النقل والتجميع. بل المقصود أن تظهر فيه شخصية العالم واضحة المعالم، تكاد تتجسد للقارئ، حتى يَعرفْه وإن لم يعرف اسمه ابتداءً. أمّا كتاب المقال اليوم، فهو فنٌ لا علم، يمكن أن يقال في أجوده أنه فنُ المقال، وهو لا يزال قليل نادر. والتفنن في القول، وإن أجاده البعض، لا يجعل منهم علماء ولا حتى طلاب علم.

• التواضع لله سبحانه، وترك الكبر والتعالي والتحاسد وإحسان الظن بالنفس فوق ما تستحق، فهذا داءٌ قتّالٌ لا يصلح معه علم ولا فن. بل يشرد صاحبه، دون أن يدرى فيه تيه كبريائه ظنّاً منه أنه لم يفارق الجادّة، وهو أبعد الخلق عنها. ثم عدم النعرة القومية التي صارت كذلك داءً خبيثاً، يسرى تحت جلد الحركة الإسلامية، أو ما يُطلق عليها كذلك! وبين أبنائها، في تدسس وخفاءٍ، تحت غطاءات مكشوفة للبصيرة، بيّنة للنظر المدققِ النافذ، مهما حاول صاحبها أن يخفيها حتى عن نفسه!

ولعل العوائق التي تقف في وجه هذه البداية تعطينا مدخلاً للنظر في الكيفية والوسيلة التي يمكن أن تكون لبنة أولى في هذا الصرح المنشود.

(٥)

أما وقد وصلنا إلى هذه المرحلة، فإن مما يُستحسن هنا أن أعرض ما أراه نقطة يمكن لهذا البناء المنشود أن ينطلق منها، إلى حيث يريد ربنا أن يعلو، أو بداية لهذا الطريق أن يصل. وهي الوسيلة التي يمكن أن نتخذها، بداية لهذا الإنطلاق.

وأود هنا أن أشدد على نقطتين، عسى القارئ ألا ينساهما، أو يتخطاهما.

أولاً: أنّ أي مشاركة في هذا البناء المنشود، هو لبنة صُنعت خصيصاً لهذا الغرض، ولموضعها من البناء. وكما نوهنا، فإنّ هناك مئات الآلاف من الدراسات، لكنها كلها مشتتة الغرض، كأن صانعها قد أتمها ثم ألقاها على قارعة الطريق، لعلّ بنّاءً يجدها يوما، فيستعملها لغرضه! وكلّ تلك اللبنات الملقاة في نواحي الفكر الإسلامي، العقديّ والحركيّ، فيها خيرٌ كثيرٌ وبركة، لكنها لم تُصنع لموضعها المخصوص من هذا البناء. ولذا يمكن الاستفادة منها، حسب ما هو مناسب للبناء، لا العكس، مهما علا شأن كاتبها.

ثانياً: أن الطريق لن يكون مستقيما ممُهّدا مفتوحاً، من نقطة البداية إلى نقطة النهاية. بل يجب أن يعي المهتمون أنه لابد وأن تكون هناك عقبات كأداء في هذا السبيل، تجعل السالكين، يخرجون إلى طرق جانبية، على وعي منهم بما هم سالكوه، حتى يعودوا، مرة أخرى، إلى الطريق الأصل، معا، في كلّ خطوة، تقودهم بصيرتهم التي تعرف الهدف، ولا تعرج عنه إلى ما يعطّلها عن الوصول إليه.

والوسيلة التي اقترحها هي إنشاء مجلة علمية إلكترونية، متشعبة المناحي، تغطي الجوانب التي سردناها، أو ما طرأ لنا منها في مقالنا الأول، ثم ما يتفرع عنها من شعبٍ علمية، تكون سائرة على منهجٍ دراسيّ معروف، يتبعه كلّ باحث، في إطار وسمه الخاص في الكتابة والبحث.

وهذا اللون من المجلات كثيرٌ معروفٌ منتشرٌ، إنما المشكلة فيه هي العشوائية، وفقد الهدف، وعدم وضوح الرؤية، ثم التعددية المنهجية الواسعة النطاق، التي تجمع الشاميّ على المغربيّ، كما يُقال في المَثَل! فأبحاثهم كأنها من كلّ بستان زهرة. وإن كان منها ما هو من كلّ قطرانٍ قطرة!

لكنّ هذا يتركنا مع حقيقة أنّ الفكرة الأساسية يمكن أن تبدأ بهذه النواة. مجلة إلكترونية تُعنى بالشؤون الاجتماعية والتاريخية والسياسية والاقتصادية، العربية والإسلامية.

أهم ما يميز هذه المجلة هو الاستقلالية المادية القطعية التامة. فلا يصح، بل يَحرم تقبّل مالاً من دولة أو هيئة أو جماعة إسلامية أو غير إسلامية، أيّاً كانت، وأينما وُجدت، ولأيّ سبب كان، سواء للمجلة مباشرة أو لأحد كتّابها. وهذا التوجه لا مماراة فيه ولا محاباة ولا استثناءات على وجه القطع. هو عملٌ لوجه الله تعالى من كلّ ناحية وجانب، يقوم على أكتاف من له في الدعوة وحبّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم رصيد، مهما قلّ.

ومنهاج الكتابة في المجلة يضعه مجموعة ممن اتفقوا على المبدأ، من أول أمرها. وضمان اتباع هذا المنهج مسؤولية توكل إلى من يمكنه القيام بها، علماً وخبرة، دون حساسية أو كبرٍ من أحد.

ثم الأهم، في مرحلة العمل، هو «أين موضع كلّ لبنة تخرج للوجود من هذا البناء؟ وما المكلوب لتكملة فائدتها وإكمال فعالية أثرها».

أمّا من الناحية الفنية، فهذا الأمر يحتاج إلى ترتيب وتخطيط ومتابعة على أعلى درجة من المهنيّة، خاصة خاصة بين الفروع المتشعبة للمجلة، وهو ما يطلقون عليه «interdepartmental coordination».

وهذا الذي كتبنا، وهو قليلٌ من كثير مطلوب، يحتاجُ إلى شرحٍ مفصّلٍ، بل إلى دستورٍ مدوّنٍ، يضع الخطوط الحمراء والخضراء على السواء، ليحدّ الحدود لهذا البناء المنشود.

(٦)

لن نسأم أن نردد ما قلنا بشأن ما يكتب بعض الكاتبين، تحليلا لموقفٍ حاضر، أو تأكيداً على حقائق ثابتة كالتوحيد وعناصره ومقتضياته، أو قصص من قصص تاريخنا المُلهم للشباب المتعطش لخبرٍ، ولو من الماضي السحيق، يعلّق عليه كرامته المهدرة، وأمله المرتقب. وما قلنا هو أنّ تلك الكتابات، على أهميتها، التي تخرج بشكل يوميّ تكاد تكون كلها مبتوتة الصلة بحبل الأمة الموصول بين حاضرها ومستقبلها. وإنما هي معالجة لحاضرٍ قائمٍ سواء على المسرح العربي الإسلامي أو على مستوى الفكر السلفيّ التوجيهيّ.

وكمثال نتعرف به على نوعية الكتابات الموجّهة التي يمكن أن تكون نموذجاً يفيد في الناحية السوسيوبوليتكس socio-politics (الاجتماعية السياسية)، هو ما ينشر الدكتور أكرم حجازي أو في التاريخ كما في بعض أبحاث الدكتور هاني السباعي أو الأستاذ محمد إلهامي على سبيل المثال لا الحصر ونحن عل يقين أن هناك عشرات ممن يقوم بمثل هذا العمل في جامعاتنا ومعاهدنا، دون أن يكون لأبحاثهم انتشار أو اهتمام.

أمّا ما يصدر عن عدد من مشايخ السلفية، فهو على غزارته وعمقه وسعة مادته، مادة تعليمية، تصلح لتعليم الأفراد، في حالتهم الفردية، وليست مادة توجيهية، تكون لبنة في توجيه مجتمع مركبٍ من أفرادٍ متمايزون. والفارق شاسع بين اللونين من البحث، لمن أدرك المقصد.

ولست، بصفة شخصية، في موضع من يفرض منهجاً أو يحدد مساراً لمثل هذه العلمل. فقد ذكرت أنّ هذا لن يقوم إلا بجهد جمعيّ collective effort، ممن يرى هذه الرؤية، ويعتبر تلك المؤسسات البحثية الصهيونية، التي نجحت في اختراق وتمزيق مجتمعاتنا مثالاً للعمل الجماعيّ الساعي لوضع سياسة متكاملة ورؤية واضحة للوصول إلى هدفٍ محدد معلوم، بصبر ومثابرة وأناة وتضحية.

والأمل اليوم، أن يكون هناك، على مسرح الفكر الإسلامي الحاضر، من يشاركني هذا الهمّ، مشاركة فاعلة، لا مشاركة وجدانية أو فكرية لا غير، فيكون هناك تواصل وتخاكب، عن الهدف والوسيلة والإمكانية.

وأملي في طلاب العلم ممن هم في المرحلة الوسيطة بين التلقي والعطاء، فهم القادرون على السعي والبناء، أكثر من أمثالي ممن أُفُل جيلهم وتبددت سحب غيثهم.

ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد

د طارق عبد الحليم

٢٩ أكتوبر ٢٠١٩ - ٣٠ صفر ١٤٤١

هل يمكن توحيد الجهد «الإسلامي» لإخراج الأمة من مأزقها التاريخيّ؟

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

مما شك فيه أن الأمة الإسلامية في مأزق كبير، مأزق تاريخيّ، من أضيق المآزق التي مرت بها في الأربعة عشر قرنا الماضية.

والسبب في ذلك الوضع الأسيف يرجع إلى أمور عدة، تواطأت كلها على وضع المسلمين في هذا الركن الضيق الحسير في واقع الحياة المعاصرة، لا حيلة ولهم ولا قوة، على ما لديهم من ثروات مالية وعقلية، مهزومون، ضعفاء، مستعمرون، مشوهون عقدياً ونفسياً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وحتى نصل لمرادنا من هذا المبحث، وهو الإجابة على سؤالنا هل يمكن توحيد الجهد «الإسلامي» لإخراج الأمة من مأزقها التاريخيّ؟، فإنه يجب أن ننظر في عدة أمور:

١. ما هي الطبيعة التركيبية العقدية الإجتماعية للمسلمين اليوم؟
٢. من هم أعداء اليوم، داخليا وخارجيا؟
٣. ما هم أصحاب الجهد الإسلاميّ الذي يمكن توحده لهذا الغرض، وما هي أغراضهم في العمل الإسلامي؟
٤. أسس توحيد الجهد، وإمكانية تطبيقه.
٥. الاستراتيجية الشرعية في العمل الإسلامي
٦. الخلاصة، والإجابة على السؤال.

والله المستعان

الطبيعة التركيبية العقدية والاجتماعية للمسلمين اليوم

من الطبيعي للباحث في أمر الجماعة الإسلامية اليوم، بمعناها العريض، أي الأمة، أن يلقى نظرة فاحصة على التركيبة العقدية والاجتماعية لهذه الأمة، مسلميها وأقلياتها، لما ينعكس من جزاء ذلك على أي تصرف لعنصرها الأساس، وهم المسلمون.

فالكتلة العظمى من الجمع المقيم في بلاد المسلمين، مسلم «تاريخياً» وباستصحاب الأصل. ثم هناك المجوس الرافضة وهم ليسوا بمسلمين على الإطلاق. ثم تجد أقليات نصرانية أكبرها في مصر ثم الشام والعراق، وأقلية يهودية في المغرب، والكيان السرطاني اليهودي في فلسطين، ثم بعض الأعراق والأديان المختلفة الصغيرة الحجم الدرزية واليزيدية.

ثم نرى في هذا التعدد، طبقات اجتماعية، تكاد تنحصر في طبقتين، الطبقة الثرية، وفيها الحكام ورجال الجيوش والأمن المخابرات والإعلام والقضاء، في كل بلد على السواء. والطبقة الفقيرة الكادحة، وهي الغالب الأعم من الجمع المسلم «تاريخياً» وباستصحاب الأصل. ولا ثالث للطبقتين.

وهذا، على ما يظهر، ليس فيه تعدد كبير يمكن أن يؤدي إلى مشكلة للمسلمين العاملين على عودة دار الإسلام في بلاد المسلمين، إلا الرافضة. فأن المصيبة الأكبر تكمن في أن الرافضة يتمركزون في الشرق العربي بشكل مخيف. إيران المركز، ثم نصف العراق وسوريا ولبنان، ثم عُمان، ونصف اليمن التي كادوا يسيطرون عليها ، والبحرين وبقية دول الخليج، والشمال الشرقي في جزيرة العرب. ، إلى جانب سلطة كبيرة في غزة. وهذا الانتشار المخيف كان من جراء التسيب من جهة حكام الخليج المرتدين، تهيبا من القوة المجوسية بعد ثورة الرافضي الهالك الخميني، مما أدى إلى أن أصبحوا يشكلون نصف الشرق العربي كله.

وهناك بلا شك ارتباط ما بين المنظومة الاجتماعية والانتشار العقديّ الرافضي، فإن الروافض قد اتخذوا من الفقر العربيّ الغالب وسيلة إلى التدسّس بينهم ونشر عقيدتهم، سواء على مستوى الأفراد، أو الحركات، كما في حماس غزة.

أمّا عن أثر الفقر والغنى في التوجه الإسلاميّ، فإن من المُفترض ألا يؤثر المستوى الإجتماعي على هذا الأمر، فقد رأينا على مدى التاريخ الإسلامي أغنياء يساوون الفقراء في الهمة، بل أكثر فاعلية ونشاطا. وما مثال الشيخ أسامة بن لادن والشيخ الظواهري ببعيد. لكن، يجب أن يكون في حسبان الحركة الإسلامية، أن النفوس اليوم ليست هي نفوس الأمس، وأن معايير اليوم ليست معايير الأمس. فقد استهدف الغزو الفكريّ الطبقة الغنية واخترقها بشكلٍ غير مسبوق، حتى تعطنت كلها أو كادت.

وقد أنتجت هذه التركيبة الإجتماعية شعوباً مشوهة عقديا وخلقيا وولاء وتوجها. فقد اخترقت الثقافة الصليبية البيوت المسلمة، وسحبت من تحت أرجلها بساط الإسلام، وظللتها ببساط الكفر والفسوق والعصيان، في كلّ بلد من بلاد المسلمين. ومن ثم، فقد كادت الحاضنة الشعبية أن تنضب إلا من رحم ربي، وهمْ كثير رغم الغلبة العددية المحضة لمن سقط في مزابل الثقافة الغربية.

هذا هو المَعين الذي سيقتات منه أصحاب الجهد الإسلاميّ الذي نسعى لتوحده.

أعداء الإسلام

من الأسهل في حقيقة الأمر، أن نتحدث عن من هم ليسوا بأعداء الحركة الإسلامية، من أن نتحدث عمن هم أعداؤها، إذ إن أعداءها هم الكثرة الغالبة على وجه الأرض.

فإن العدو الداخلي، وهو الأخطر فيما أحسب، هم الطبقة الحاكمة، التي خضّعت الجيوش وحولتها لعملاء محض، عقيدتهم هي حماية النظام أولا، بلا ثانٍ! ثم كونت حولها كافة الأجهزة التي تضمن لها البقاء، من شرطة وقضاء وإعلام ومخابرات. ثم جنّدت كافة موارد الدول لتقوية تلك الأجهزة وضمان ولائها. هؤلاء هم العدو الأول، الذي كفر برب العالمين، وآمن بنفسه، واستعبد الجميع ممن حوله، المشهد الفرعوني المتكرر عبر الزمان والمكان.

ومن وراء هذا العدو، يقف شيطان أكبر منه، يترصد بهذه الأمة، هو الغرب الصليبيّ الذي شنّ من قبل إحدى عشرة غزوة صليبية، ثم تلاها بالحملة الصليبية الفرنسة، فلإسقاط

الخلافة ثم احتلال بلاد المسلمين أكثر من ثلاثين عاما، اختار فيها مندوبيه من أعداء الأمة الداخليين وصنعهم على عينه وهيأهم، ثم غادر ليكون موجهاً خفياً، يحرك أحجار الشطرنج على رقعة أرضنا، بلا استثناء.

ثم لّما رأي العدو الخارجيّ بعض مظاهر قوة وبوادر انفلات بسيطة، ولو أنها كانت قومية في بعض الدول كعراق صدام، أو حركات تشتد وتقوى مثل طالبان والقاعدة وبعض الجماعات في مصر أساسا وفي غيرها، قرر أن يتحوّل احتلاله إلى احتلال عسكريّ مركّز، يشلّ كلّ تحرك ضده، ويجهض أي محاولة شعبية قد يكون لها قوة عسكرية بشكل ما. فكانت حرب الخليج الأولى، وكان استعمار المنطقة الشرقية بالجزيرة والكويت والبحرين وقطر والإمارات، حيث تحولت تلك الدويلات المصطنعة إلى محميّات غربية بكلّ ما هذه التوصيف من معنى، بموافقة، بل بدعوة ودعم النظم الخائنة الخليجية.

ثم تبجح العدو الصليبيّ في حرب الخليج الثانية، حيث اجتاح العراق ودمرها بالكامل، وأعان المجوس الروافض على احتلالها والتوسع البشع الذي أتبع ذلك في محيط الشرق العربيّ كلّه. ثمجاء ما أسموه بالربيع العربيّ، الذي حوله عدو الداخل والخارج، بالتعاون مع القوى الساقطة عقديا في الداخل، إلى عكس ما أريد منه، فأصبح أداة لمجازر رابعة والنهضة والفلوجة والشام كلها، حتى يومنا هذا. والله المستعان.

وتم سلب الأمة واغتصابها.

هذا هو العدو الذي نتحدث عن الجهد الإسلاميّ لإزالته ودحره.

أصحاب الجهد الإسلاميّ الذي يمكن توحده لهذا الغرض، وما هي توجهاتهم في العمل الإسلامي؟

هنا نأتي إلى بيت القصيد. وسنتحدث في هذا الفصل عن:

١. ما هو الهدف المنشود؟

٢. ما هي أسس تجميع العمل وتوحده؟

٣. أين هي الحاضنة، كيف نكتسبها؟

٤. من هم أصحاب الجهد الإسلاميّ الفعّال المقصود؟

٥. مع من يصلح التوحد والتجمع؟

٦. ما الحل؟

١ . ما هو الهدف المنشود؟

الواجب الأول في هذا المقام هو أنْ نحدد الهدف الذي ننشده، والذي نريد أن تلتف حوله الجهود الإسلامية العاملة الفعّالة، حتى لا تختلط علينا الأمور. والأهداف استراتيجية (دائمة مستقرة) وتكتيكية (مؤقتة مرحلية)

فالهدف الاستراتيجي، وهو في مفهومنا الذي نقدم به توجه أهل السنة والجماعة، بعد رضا الله سبحانه وطلب القبول، هو إقامة دولة مركزية تحكم بشرع الله وبالتصور الإسلامي، في كافة مناحي الحياة، اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وعلميا وعباديا. وحين نقول «دولة» نعنى ما استقر عليه التجمع البشري من معنى «الدولة»، التي لها حدودها، وهي متمكنة داخلها، قادرة على صد عدوها الصائل. وهي التي يمكن أن ينطبق عليها حد «الدار»، الذي عنيّ به الفقهاء وعنوه. فالقرية في محلة، ليست «دارا» وليست دولة، وصحراء ممتدة محاطة بالعدو من كل مكان ليست بدارٍ، إذ يجب أن يكون لها مخرجا ومسلكاً، كما نص أبو حنيفة، رحمه الله، ولكن قد تكون «دولة»، إن توفر فيها الاستقلال الذاتي وشروط التمكين[١].

٢ . ما هي أسس تجميع العمل وتوحده؟

يجب أن يكون مفهوما لمن يتصدى لمثل هذا البحث أنّ الأساس الذي تقوم عليه جهود تجميع العمل الإسلامي، ينقسم إلى قسمين، عام وخاص، أو شعبيّ وتنظيميّ. والخلط بينهما ينشأ عنه عملاً غير ذي فائدة يرجى منها تغيير. لكنّ السعي في كليهما أمرٌ ضروري لا غنى للساحة المسلمة عنه.

[١] راجع مقالاتنا عن التمكين http://tariq-abdelhaleem.net/new/ArticalList-138 بتوسع

والمقصود بالعمل الشعبيّ، هو إيجاد الحاضنة الشعبية التي تضمن استمرارية العمل وقوة ركائزه على الأرض. والعمل التنظيميّ هو الذي يضمن صحة توجه الحاضنة، وعدم تفلتها، وتركيز جهد الصفوة القادرة على أداء مهمات خاصة موكلة اليها.

هذا من ناحية مجال التجميع، أما الأسس العقدية، فمرة أخرى، يجب التفرقة الواضحة بين الأسس الواجب التقيد بها في الحاضنة الشعبية، والأسس التي يجب التزامها في العمل التنظيميّ، والخلط بينهما مصيبة على كلّ المستويات.

وجدير بالذكر أن البعض اليوم، حتى من أفاضل المشايخ، قد تضخمت لديه فكرة أن الجهاد هو جهاد أمة. لكن يجدر بنا اليوم أن ننتبه إلى أنّ فكرة «جمع الأمة» وجهاد الأمة، ليست وليدة أمس الأول، ولا شعلة من إضاءات شيخ من مشايخ الساعة، بل هي أصلاً فكرة الإمام حسن البنا رحمه الله ، منذ ٨٠ عاما، قبل أن ينحرف بها المنحرفون من الإخوان، ثم كان الشيخ العلامة عبد المجيد الشاذلي، منذ الثمانينيات، وقد صاحبته في ذلك، أول من أطلق على جماعته «إحياء الأمة» وكان خطه فيها هو العمل على بعث الأمة ككل واحد.

فقادة الجهاد الميداني، في جماعة القاعدة مثلا (وليس غيرها في الساحة اليوم حقا) هم أنفسهم من مشايخ الدعوة ومنظّريها، قبل أيّ أحدٍ من خارج تلك التنظيمات. والحديث عن هؤلاء القادة الأئمة ومنهجهم «الإقصائي» وغفلتهم عن «الذوبان في الأمة»، وسائر تلك النظرات التي لا حقيقة لها على الأرض، لا يكون «بأستاذية» متعالية، إذ هم أصلاً أصحاب التنظير ووضع الأسس والقواعد. ثم أن ننعي على بعض ممن هم في هذا التيار، بتكفير حماس مثلاً[١]، فإن ذلك ظلم للتيار كله، بل تدخلًا غير مبرر[٢]، وإنكاراً لدوره.

[١] ولا نعرف من كفّر حماس كطائفة، إلا أن يكون عصام البرقاوي، وكذلك الشيخ السباعي إنما تحدث عن هؤلاء قوانين مدنية علمانية وضعها بعض المنتسبين لحماس!

[٢] وقد رأينا بعض المشايخ ممن لهم قدر واحترام، وممن كان لهم تاريخ في نصرة فرقة معينة معروفة بالتكفير لفترة، ينكر ويوجه التيار الجهاديّ بأنه يكفّر حماس! لو قال هؤلاء المشايخ إنهم عرفوا وتبينوا أوعدّلوا وتعدّلوا، دون الإيحاء بأن قادة الجهاد وعلمائه كأنهم «كمسارية جهاد» لكان أفضل ...!!

وتعدد النظر جائز ومقبول في هذه الحالة بلا خلاف، بل أولى من تجاوز النظر في موضع حرورية العوادية والتسامح فيها على سبيل المثال! ولا يجب لأحدٍ أيا كان، أن يقف من أمثال الشيخ الظواهريّ وأبي عبيدة المصري وعطية الله الليبي وأبو يحي الليبي، هذا الموقف الذي يجعلهم قائمين على تيار أخطأ الطريق من أوله، وإن كان «أفضل من غيره». حتى أمير جماعة الجهاد السابق سيد إمام، الذي كان قبل انحرافه وخرابه، لا يعدله أحدٌ في علمه ممن في الساحة اليوم، والذي هو من أول وأكبر منظري هذا التيار، إحقاقا للحق، رغم انتكاسه، وإن لم «يدخل على التيار»، بل هو من مؤسسيه الأوائل، في جماعة الجهاد المصرية قبل ذهابه لأفغانستان. هؤلاء وعوا جهاد الأمة ومعناه قبل أن يعيه بعض من ينسبون للتنظير الجهادي اليوم. بل الصحيح أن يقال أنّ مناطات اليوم تغيرت، والأفضل كذا وكذا. كما أن لهذه الدعوة خطورتها وشروطها، كما سنبين إن شاء الله تعالى.

٣. ما هي الحاضنة، وكيف نكتسبها؟

والمقصود بالحاضنة الشعبية، في تقديري، «تلك الفئة المجتمعية المسلمة، التي تؤمن بالله رباً وبمحمد رسولاً ﷺ وبالإسلام ديناً، وبالقرآن كتاباً، ولا تتبنى أراءاً شاذة مثل أقوال الرافضة أو العلمانية، وترى ضرورة إصلاح المجتمع، بلا سلمية». تلك هي أساس الحاضنة التي نسعى اليها. وهذه الفئة، بهه المواصفات، ليست موجودة بالفعل، إلا ما نذر من أفراد منتشرون هنا هناك، لا يمكن تصنيفهم كحاضنة معتبرة كمّاً. والشعوب اليوم، بما هي عليه، لا تصلح أن تكون حاضنة للعمل الإسلاميّ، بل هي تصلح أن تكون مجالاً للعمل على إصلاح ما اعوجّ في فهمها «للإيمان» و»التوحيد» و «طاعة الله» و»فساد الحكام بما لا يمكن إصلاحه»، و»مفهوم الحياة الآخرة»، و»مفهوم العزة والاستعلاء والكرامة»، ثم «الوعي بالمؤامرات الداخلية والخارجية وربطها بواقع الناس عملياً».

ولابد هنا أن نعي حقيقتين على الأرض، أولهما: هي أن الاتصال «بالأمة»، لإنشاء الحاضنة، صعبٌ بل غاية في الصعوبة. فالعامل للإسلام اليوم محصور في واقع معين، محُاصر حصاراً شديداً، داخلياً وخارجياً. بل إن حرية الدعوة قد كادت أن تنتهي كلية في

أنحاء البلدان المسلمة، إلا ما كان خادماً للنظم المحاربة للإسلام، ومعيناً على هدم الإسلام نفسه، كما في المؤسسات الدينية بمصر وجزيرة العرب. وبدون الدعوة، لا اتصال ولا حاضنة. والثانية هي أن الحاضنة تتشبع يومياً، بل كل لحظة»بل مكر الليل والنهار«، بما يُضاد المكلوب أن تعيه لتصبح حاضنة حق، لا باطل، وذلك من خلال الإعلام العلماني الموجّه، والإفساد المستمر «فسحروا أعين الناس واسترهبوهم»، من خلال الدعاية للفساد، وشيطنة الحق.

فالأمر ليس سهلاً على الإطلاق. وعلى أولئك الذين يدعون تياراً معيناً، أو جماعات بذاتها أن تتصل بالأمة وأن تحول جهادها لجهاد أمة أن ينظروا قليلاً في القدر العمليّ الممكن تحقيقه، من خلف الشعارات والمفاهيم النظرية، إن كاوا يريدون للأمة خيراً.

فصل: العلاقة بين الأمة والجماعة:

هنا يجب أن يقف الباحث قليلاً لينظر في تلك المصطلحات التي صارت جزءاً من واقعنا، وأصبحت تتردد على ألسنة الشرائح المختلفة (جماعات، مشايخ، عوام، إعلام ...) بمعانٍ متعددة.

وما يهمنا هنا هو ما يخصّ تلك المصطلحات في الوعيّ الإسلاميّ، سواء عند التيارات الإسلامية أو مشايخ تلك التيارات.

فالأمة هي «تلك الجماعة الكبيرة، التي تنتمى للإسلام السنيّ، بما قد تحويه من تشوهات عقدية، قد يكون فيها، بل فيها واقعاً، ما هو مناف للتوحيد الذي نزل به محمدٌ ﷺ، بل البدع الكلية التي تخرج منها الفرق، طاهرة ومختفية، والفساد والمجون الذي يشيع في أرجائها، جنباً إلى جنبٍ مع صوت الآذان المرفوع، وصحون الإفطار الموضوع»!

الشعب: وهو «التجمع العرقيّ على أرض محدودة جغرافياَ، ينتمي أغلبه إلى الإسلام». والحق أن «الشعب» مصطلح قد لفظته بعض الكيانات الإسلامية، في أدبياتها

على الأقل، كردّ فعل للإنشقاق والتحلل المقابل في الوحدة الإسلامية وبعد انفصال الخلافة. وهو مصطلح ورد في القرآن الكريم «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» بنفس المعنى العرفيّ الذي ما زال إلى اليوم. وهو مصطلح غير مرفوض شرعا، إلا إن صاحبته حركة «شعوبية»[١] كما رأينا في العصر الأموي والعباسّي، التي تعني «القومية» بدرجة ما في لغة العصر. وقد زادت الحساسية في استعمال الكلمة مع جيل «الثمانينيات» العلميّ، أي الذي ظهر على الساحة في الثمانينيات، والذي تضخمت لديه بعض المفاهيم وانحسرت بعضها، ثم شابوا عليها إلى يومنا هذا. وقد وُجدت الشعوب على مرّ التاريخ، فعُرت مصر والمصريين، والشام والشاميين، والعراق العراقيين والمغرب الإسلامي والمغاربة، كما نُسب العلماء إلى مساقط رؤوسهم بلا تحسس، فابن تيمية الحراني، والسيوطي المصري وابن حزم الأندلسيّ، والحافظ العراقيّ وهكذا ..

والحاضنة هي، كما سبق أن عرّفناها هي «تلك الفئة المجتمعية المسلمة، التي تؤمن بالله رباً وبمحمد رسولاً ﷺ وبالإسلام ديناً، وبالقرآن كتاباً، ولا تتبنى أراءاً شاذة مثل أقوال الرافضة أو العلمانية، وترى ضرورة إصلاح المجتمع، بلا سلمية».

والجماعة هي «تلك القلة المختارة، التي دخلت طوعاً في تنظيم ما، له أهدافه، ومقاصده، وتصوراته، ووسائله، الجزئية والملية، بالنسبة للعمل الإسلاميّ، حسب تعريف العمل الإسلامي في قاموسها الخاص». والقلة هنا، هي قلّة نسبية إلى الحاضنة، ونادر بالنسبة للأمة، أيّا كانت تلك الجماعة.

تلك هي التعريفات التي يجب أن نتعامل على أساسها، حين نناقش قضية العمل الإسلاميّ وتوحيده جهوده.

أربع طبقات، تمثل أربعة متغيرات سواء في الفهم أو في التوجه أو في وسيلة التعامل

---

[١] والشعوبية قديما اختصت بالتفرقة بين العرب والعجم، وأنشأها الفرس، لكنها حملت بذور شعوبية اليوم التي اتسعت لتشمل كافة الأعراق والأجناس.

معها. ويخطأ خطئاً جسيما من لا يفرق بين الأربعة، في أي نقاش أو حديث عن الأمة ودورها، كما هو شائع في هذه الأيام على الخصوص.

فالأمة كيان متشعب متراكب، ينتمى إلى ثقافات وبيئات وعادات وتقاليد ولغات عديدة، وهي مركزة في الشرق الأوسط حتى المغرب غربا، وفي الغرب الأسيويّ والوسط حتى التركستان شرقا، بلا انقطاع إلا بلاد المجوس الإيرانية الفارسية، والكيان الصهيوني الحديث في فلسطين. فالحديث عن توحد العمل الإسلاميّ في الأمة، بهذا المعنى، أمرٌ خياليّ لا يصلح اساساً في عصرنا هذا بأي درجة من الدرجات، لحالة التشرذم والضعف والتفتيت التي تعيشها تلك الأمة لانعدام الدولة المحورية المركزية.

أمّا الشعب، فهو فيما أحسب، المجال الطبيعيّ للعمل على اكتساب الحاضنة. ولا يجب أن يفوتنا أن الشعوب فيها أقليات دينية وعرقية أخرى، تسبب إشكالات في طريق العمل الإسلاميّ، مثل الأقلية النصرانية في مصر، والأقليات النصيرية في الشام، والرفض في العراق، والأكراد، كعرق في العراق. وتتفاوت قوتهم من بلد لآخر حسب عوامل تاريخهم وعلاقتهم بالحكام. لكن، الحاضنة، يجب أن تنشأ في كلّ شعبٍ على حدة، ومن غير المتصور أن تنشأ حاضنة عامة، إلا من تلك الحاضنات الشعبية المختلفة، لما بين الشعوب حالياً، بوضعها الثقافي من آثار قومية ونعرات وطنية مقيتة، بل وعدم ثقة في كثير من الأحيان.

أما الجماعة، فهي الطبقة ذات الشأن الخاص في هذا الأمر كله. ومفهوم الجماعة، من الناحية الاجتماعية، هو قديم قدم بني آدم. فإننا إذا نظرنا إلى «**الجيش**» وجدنا أنه «جماعة معينة، منظمة، قام المجتمع بإنشائها وتمويلها، وعمل لها كحاضنة، لتقوم بمهمة دفع الصائل عن بلاده خاصة». فالجيش جماعة أولاً وأخيراً، لكنها في مجال أرحب، وأكثر قبولاً.

كما أنّ جماعات الحسبة في الإسلام قديم قدم الخلافة الإسلامية كلها. بل وجماعات الجهاد ذاتها ترجع في العصر الحديث إلى أيام فيصل الدويش رحمه الله (ت١٩٣١) وجماعة

«إخوان من أطاع الله»، التي غدر بها الغادر عبد العزيز بن سعود، وأوقف تقدمها للجهاد في العراق لصالح حليفته بريطانيا.

ثم تكونت أولى الجماعات في مصر، وهي الجمعية الشرعيةة على يد العلامة محمود خطاب السبكي رحمه الله، وبعدها مباشرة جماعة الإخوان المسلمين في مصر على يد الإمام حسن البنا رحمه الله. وكانت الجمعية الشرعية ذات طابع علميّ شرعيّ، لا سياسي، بينما كانت جماعة الإخوان جماعة سياسية، تُعني بكافة مناحي الحياة، كما وصفها مؤسسها. وهي، فيما نعرف الجماعة الوحيدة التي، بسبب الظروف التي نشأت فيها، كانت شديدة الارتباط بالشعب، والحاضنة الشعبية. كما أنها تمددت فروعها لبلاد أخر خارج مصر، وعلى رأسها الشام بقيادة العلامة مصطفي السباعي رحمه الله. وكانت الإخوان في تلك المرحلة تتمتع بذراع عسكريّ قويّ، أرهب الديكتاتور عبد الناصر، ودفعه لمحاولة القضاء عليها، والذي نجح فيها إلى حدٍ كبير، من حيث انتقل بها إلى طورها الثاني[١]، وهو طور تنحية فكرة الجهاد جانباً، مع الاحتفاظ بشعاره،، الذوبان في الأمة، والانفتاح عليها، بما في ذلك دخول المعتركات السياسية العلمانية التي سادت بلاد المسلمين بعد الحرب العالمية الثانية.

ثم كان التغيير السياسيّ الأكبر، عقب اغتيال النقراشي باشا في مصر، ومن ثم اغتيال حسن البنا رحمه الله، ثم محنة الإخوان في الخمسينيات بعد غدر الهالك عبد الناصر بهم، ثم الانفصال الفكريّ بين سيد قطب رحمه الله وبين الإخوان في عهد الهضيبي، ثم بزوغ عصر «السرية» في العمل الإسلامي، نظراً، لطبيعة المواجهة الشرسة من الأنظمة المحلية والعملية، فكان من الطبيعي أن تحدث الفجوة بين الشعب، محل الحاضنة، وبين الجماعة. لكن لم يكن هذا، كما حاول البعض تصويره، نتيجة تقصير أو ذهول عن أهمية هذا البعد، أو إنه وليد إشعاعة فكرية محُدَثة!

---

[١] راجع بحثنا «الإخوان المسلمون في نصف قرن» http://tariq-abdelhaleem.net/new/Video-391، وبحثنا «بعدأن انقشع الغبار» http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-72579

أما وقد عرفنا معاني المصطلحات السائرة في مجال العمل الإسلامي اليوم، فإنه يمكن أنّ نحدد وسائل تنمية «الحاضنة» واكتسابها. وبقليل من النظر يمكن أن نجرّد ذلك المفهوم الضبابيّ الذي يتحث عنه البعض اليوم، عن «جهاد الأمة» منعود به إلى أصله البسيط، وهو توسيع دائرة الدعوة بكافة مجالاتها بين أبناء «الشعب» لإدخال أكبر عدد ممكن منه في «الحاضنة». لا أكثر ولا أقل، دون انبهار وذهول بكلمات لا تحمل معنى تطبيقيا حقيقيا.

وأول نتيجة لما قلنا هي أنه «لا يمكن الاستغناء عن دور «الجماعة» المنظمة، لصالح ما انتفخ حديثا عن جهاد الأمة، فكلاهما له دوره وحدوده وشروطه.

فالأمة، يسمح فيها بكل ما هو منتسب للإسلام، سنيّ تقيّ، أو فاسق، أو عربيدٌ أو برّ أو فاجر، كما هو في كل شعب من شعوب الأمة. لكنّ الحاضنة، تضيق نطاقاً عن ذلك، فتتميز بالخلو من الفسق الظاهر، وإن لم يتحتم عملها بالهدي الظاهر، وتقل فيها نزعات الفجر والظواهر الشركية كسبّ الدين والمداومة على ترك الصلاة مثلاً. كما أنّ الحاضنة لا تكون من اتجاع فقهي محدد، أو شعبة عقدية معينة، بل تشمل السنيّ والأشعريّ. أمّا المرجئ والمعتزل، فهما بطبيعة الحال ضد التوجه التغييري أصلاً، بل هما وجهان إصلاحيان، بل غالبهما من يرفض الجانب الجهاديّ من العمل الإسلامي، بل يحاربه ويمنعه. فلن يكون حاضنة لعمل إسلاميّ متكامل يوما، يمكن أن يُطلق عليه «جهاد أمة»، إلا في مخيلة بعض المثاليين في أبراجهم العاجية. هذا إلا إن تغيرت معالم تلك الفرق التي نراها اليوم، مثل متميعة الشام والإخوان، وتركوا مفهوم السلمية، والديمقراطية التي تؤدي إلى خضوعهم للعدو خضوعا مباشراً، بل وحربهم على العمل الإسلاميّ المثمر، والخادم للهدف الذي حددنا في النقطة الأولى.

ويمكن النظر إلى ذلك من خلال هيكلية معينة تُعني بتحديد المطلوب من قيادات الجماعة وأفرادها، كالتالي:

a. القيادة

i. خطاب الأمراء

١. تحسين الخلق، مراعاة الله سبحانه، موضوع المال والتعامل معه، السجون...

b. الأفراد

١. نفس موضوعات القيادة، لكن على مستور الفرد، علما بأن الفرد هو من يقوم بالتنفيذ، وأن الأمير مثال للفرد

c. أنواع الخطاب

١. محاضرات، منشورات، مكتوبات، صوتيات، دورات تدريب من متخصصين لا هواة

d. الأجهزة العاملة

١. أجهزة نشر الدعوة في كلّ من المجالات السابقة، وقد تكون كلها تحت مظلة هيئة واحدة بها متخصصون ، سواء إداريا، ماليا، دعويا لاختيار المادة التي يشرف عليها علماء.

٢. ما يخص الحاضنة واستثمارها

a. بشكل عام

i. منشورات دورية نصف شهرية، تصف الوضع القائم

ii. دورية ربع سنوية تلخيص الجهد في الربع المنتهي، وتشمل أي تغييرات هيكلية مسموح بها للعامة، أو توقعات للبرع القادم دون مساس بالأمن، مثل التعليم، المرور، السلع ....

iii. مجلة شهرية تعنى بتوضيح المفاهيم دون توغل علمي أو كثرة نقولات ..(هؤلاء ليسوا طلاب علم، بل عوام).

iv. صوتيات دورية يقوم بها خطيب متخصص بالخطابة، يتغير مكان تسجيله دائما للأمن)، بصيغة حماسية شرعية

v. دورات توعية عامة.

vi. منشورات تعقب أي حدث يقع لإيضاح سببه ونتيجته، والاعتذار عن أي خلل أو تجاوز، بصراحة وشفافية

vii. وضع لوائح محاسبة وأجهزة تتلقى الشكاوى، وتتعامل معها بجدية، دون خوف أو تردد، وتكون اللوائح معلنة على الناس

هذا ما يمكن أن يوسّع دائرة الحاضنة. وهذا العمل يحتاج إلى تنظيم، من ثمّ إلى جماعة تقوم به، في ظلّ الظروف الحالية، المحلية والعالمية.

ومن هنا يأتي دور الجماعة. وهو دور مركزيّ محوريّ اساسيّ لا يمكن الاستغناء عنه بتلك التوهمات النظرية التي ينزع اليها البعض.

نعم، يجب اعتبار الأمة عامة، والشعوب خاصة،عند الحديث عن تغيير أو استبدال أو حراك، فإن الأمة هي الأكبر والأوسع، والشعوب هي المنوطة بالتغيير، والمقصودة به على حدّ سواء. لكن، التفرقة التي وضعنا هي أساس نجاح أي تغيير أو استبدال أو حراك، بيقين. فلكلٍ مستو، الأمة والشعب والحاضنة والجماعة، يعمل منه ويُخرج ثماره فيه، وهم لا يجتمعون، إلا في نقاط محددة، هي حدّ كل منها ومجاله.

٤. مع من يصلح التوحد والتجمع؟ ومن هم أصحاب الجهد الإسلاميّ الفعّال المقصود؟

الجماعات الموجودة على الساحة، متعددة الأهداف والوظائف والتشكيلات. والحديث عن الجهد الإسلاميّ، كما بيّنا، يختص بالجماعة، لا بالأمة عامة، ولا بالشعب، بل ولا حتى بالحاضنة، التي هي عامل مساعدٌ وركيزة ترتكز عليها الجماعة، في توجيه أعمالها. مثلها كرأس الحربة، أو فوهة المدفع، فالحربة لا تندفع لتصيب عدوا في مقتلٍ إلا

بيد رامٍ ماهر، كما أن فوهة المدفع لا تنطلق عبوتها إلا بعد توجيه رامٍ دَرِبٍ محنك، يصيب وسط العدو فيغلبه على أمره.

والجماعات التي تهمنا في هذا البحث هي الجماعات الشمولية، التي تعمل في كلّ حقول الدعوة، أو جلّها، وتحاول أن تصل إلى الهدف المنشود الذي وصفنا في البند الأول.

وقد أجبنا في ثنايا ما ذكرنا، بشكلٍ جزئي، على هذا التساؤل. فإن الهدف المشترك، يحدد طبيعة من يصلح للعمل في سبيله. فإنه من الصعب مثلاً، أن تعمل على ضمّ جماعة مثل التبليغ والدعوة إلى تشكيل يسعى لإقامة حكومة مركزية، إذ هذا الهدف ليس في برنامج التبليغ والدعوة، بل قد يكون مناعهضا لهدفهم. كذلك الجمعية الشرعية في مصر، أو جماعة السنة المحمدية، وهي جماعات تهدف إلى التركيز على فرعٍ واحد من فروع الدعوة، دون النظر إلى الصورة العامة والإطار الكامل الذي يجب أن يعمل فيه الإسلام، ويؤتى ثماره.

وإخراج تلكم الجماعات من مجال بحثنا لا يعني أن تهمل أو أن يغضّ البصر عن جهدا، بل هي في حقيقة الأمر جزء من الحاضنة المطلوب تطويرها وتوسعة دائرتها. ولكن المشكلة في أن قيادات تلك الجماعات تنأى بنفسها عن أي تجمعٍ يسعى «لتغيير» الواقع من حيث إنه يصير هدفاً للعدو الداخلي والخارجيّ. لكنّ «الدعوة» و»الدعاية» لأهمية التكامل قد يفرض على تلك القيادات أن تتساهل في التواصل مع غيرها، خاصة وقت الحاجة للحاضنة.

وتصنيف الجماعات التي تعنينا هنا كالتالي:

١. الجماعات السنية التي تتبنى الجهاد كآخر الدواء، وهي التي يسمونها «جماعات الجهاد» أو «التيار الجهادي»، وأكبرها طالبان، والقاعدة، وهيئة تحرير الشام في سوريا وبعض جماعات في تركستان وباكستان والشيشان، وعدد من الدول السوفيتية المنفصلة.

٢. الجماعات التي تتبنى «الحل الديمقراطي» وأكبرها الإخوان المسلمون، وحركة أحرار الشام، وبعض تجمعات سورية مثل جيش الرياض والجيش الحر.

٣. الجماعات التي تتبنى حلولاً ضبابية مثل حزب التحرير، الذي يتبنى إقامة الخلافة، والشكل الديموقراطي على السواء!

٤. الدعاة المستقلون: ثم لا ننسى اتجاها هاماً، ممثلاً في دعاة فرادي، لهم جماهير عريضة، يحملون فكراً، غير واضح المعالم، كما سنفرده بالإيضاح بعد.

وتجميع الجهد بين تلك الجماعات، لتوسيع دائرة الحاضنة، وإشراك الشعب، وتوعية الأمة بالطريق، هو من أصعب الأمور وأشقها. بل أكاد أجزم باستحالته في بعض الحالات.

فكيف تجمع بين من يرى أن جهاد العدو الداخليّ، ودفع الصائل الخارجيّ لم ولم ينجح إلا بتبني الجهاد، وأنّ أية مفاوضات ومؤتمرات سياسية لا يمكن أن تكون لها ثمرة قبل التمكن النوعي على الأرض، دون مدّ اليد للداعم المعتدي نفسه، ظاهراً أو باطناً كان عدوان الداعم، مع من يرى أنه لا حلّ إلا بتبني شكلا ديموقراطياً، يرضى عنه العدو نفسه، بل يتشكل في رواقات وساحات فنادقه وأبنياته، وأنّ ذلك الخلفية العقدية التي تصدق فيها الجماعة مع نفسها، وتتخذها منهجا حقيقيا عمليا تطبيقياً؟

وسنن الله سبحانه تأبى أن يجتمع الضدان، في كوننا الحاضر. فكيف يمكن الجمع بين هذين التجمعين، وهما مختلفان ١٨٠°؟ رأينا، كمثال، في الشام، هذه الاستحالة حية شاهدة على مصداق ما نقول، بلا أوهام أو أمنيات أو تنظيرات لا محل لها من الإعراب! كتجريد الحديث عن «جهاد الأمة!!؟؟».

غرضان متناقضان، يحملهما قادة مخلفون في مشاربهما ومقاصدهما ووسائلهما. والهدف هنا هو المتناقض لا الوسيلة. فإن هدف التجمع الي يجعل الجهاد أحد مركباته العقدية، لا يرضى بدولة ديموقراطية مهما كان شكلها أو لونها أو صيغتها، إذ يعلم أن العلمانية منتهاها

ومثواها. والتجمع الثاني لن يقبل بجهاد حقيقيّ ضد عدو يراه بالفعل أكبر وأعظم من أية قوة مهما حملت من عقيدة، وبعد أن تم كسرُ أنفه بالمال خاصة، ليقبل بأنّ الحل الديموقراطي، مع ما يحمل من شرك في التشريع، هو الحل الأمثل، مع مبررات كثيرة، تصلح لخدمة توجهاته، لا لتوجهات غيره.

٥. ما الحل؟

ما الحلّ إذن؟ كيف نسعى لتوسيع دائرة الحاضنة، إذ نؤمن إيمانا مطلقا بأنه من غير حاضنة ملائمة ومناسبة، فالنصر لن يكون، كما رأينا في سيرة رسول الله ﷺ. وكيف يمكن التعامل مع جماعات التوجه الديموقراطيّ عامة؟

كما وصلنا في بحثنا، إلى

١. أن لا بديل لوجود جماعة منظمة تأخذ على عاتقها توجيه الحاضنة وتوسيع قاعدتها المتعاطفة المتفهمة. وأن تلك الدعوة النظرية التي انتفخت في هذه الأيام، تقلل من شأن الجماعات، لحساب الأمة، هي دعوة في رأس أصحابها لا تزيد. فالجماعة هي الوسيلة، كانت وستظل، وهي المركب الأساس للعمل، أي عمل، سواء للدنيا أو للآخرة، للدين أو الإنشاء والعمارة. وما الشركات والمؤسسات إلا جماعات عمل لها مهمة خاصة.

٢. أنّ العمل على توحيد الجهد، عملياً، لا على الورق، يكون على محاور:

a. شرح الأهداف والوسائل بطريق جامع صحيح، بأسلوب مبسط يلائم الجمهور اليه الحديث، دون الإخلال بما هو في حدود السرية المطلوبة، بل والمفروضة، في العمل الإسلامي.

b. العمل على استقطاب الفريق الأصح والأحق، لأتباع الآخر بطريق الدعوة، ودون سفك الدماء، بأن يعاملهم بانفصال عن قادتهم، فداء القيادة يكاد يكون لا دواء له، كالحماقة. وهؤلاء التابعون هم مادةُ حاضنةٍ على أقل

تقدير. وانظر ما فعل تنظيم الحرورية، حين نشر مذهبه البدعي في التكفير تحت غطاء شعارات وكلمات سنية واستعمال نفس تركيبات التوحيد السني، إلا أنه تجاوزها وراءه عند التطبيق، لكن هذا التكتيك، قد جعل العديد من السنيين، سواء من الدعاة الفرادي أو شرائح في جماعات عاملة، تتوقف عن حربهم، بل وتنشق عن جماعاتها السنية لتكون مكونا في ذلك الجسد السرطانيّ، مثل جند الأقصى.

c. تطوير منهج مفصّل حسب آليات منظمة، للوصول إلى الحاضنة، كما عرّفناها بوضوح، لا بالمعني التجريديّ العام الذي يسميه البعض «الأمة».

d. تبني المفاهيم الاصطلاحية التي تُعبّر عن حقائق ثابتة، كما فصّلنا في التمييز بين مستويات العمل الأربعة، ليكون الجهد مثمراً، لا ضائعا.

e. أن تنفتح الجماعة على من هم من خارجها للإستفادة من خبراتهم، سواء العملية أو الدعوية، وتجعلهم جزءاً من هيكلها «**غير التنظيميّ**». فمثلاً أرى أن لا نتيجة سديدة ترجى من العمل في سبيل ترسيخ الحاضنة إلا بأداء خدماتيّ عالٍ، يجعل الحاضنة تشعر بالفرق بين ما تقدمه الجماعة وما هو عليهم حالهم بدونها. وهذا لا يكون إلا بالاستعانة بمتخصصين، من وسط الحاضنة، أو مادتها الخام من أبناء الشعب، في علم الإدارة، وعلم الاتصالات، وتطوير المناهج التعليمية، وكافة التخصصات، على المستويين الأكاديمي والتطبيقي، وما أكثرهم في بلادنا وفي بلاد المهجر. وأن يكون المتخصص، على درجة عالية في تخصصه، وأن يكون مادة قابلة لمفهوم العمل في الحاضنة العامة.

f. استغلال الدعاة المستقلون: وهذه الطبقة من الدعاة، لها ميزات كثيرة، وإن كانت لها عيوب ظاهرة على السواء. فمن مزاياها اتساع رقعة المستمعين والمتابعين والقراء. وذلك من حيث أن ما يقولون قليل التكاليف (أي المعنوية)، وسهل

الفهم، فغالبهم، من المصريين مثلاً، يتحدث بالعامية، ويفيهم ظرف وخفة معروفة. وكذلك تجد الدعاة من الجزيرة، ولهم قاهدة استماع أكبر وأوسع انتشاراً، نظراً للنفسية العربية الحديثة التي أعطت صاحب الغترة والجلباب الخليجيّ رصيدا زائداً، فمنهم من يستحق ومنهم من لا يستحق. وكذلك الدعاة في المغرب وتونس، وإن قلتا عن دعاة الشرق العربي في هذا الوقت، بعد انهيار ما أسموه الربيع العربي.

g. وهؤلاء الدعاة بسطاء في دعوتهم، ليس لدى غالبهم علم شرعيّ مكين، إلا قدرة على الخطابة والحديث وفن الوصول إلى قلوب الناس. فهم من هذه الناحية أقدر على استجلاب الحاضنة. والعيب هنا هو أنهم غالبا ما تجدهم محليين في حديثهم، فالمصري يتحجث عن مصر، والمغربي يتحدث عن المغرب، والخليجي يتحدث عن الكلّ دون ذكر أي أحد! فلا تدرى ما يريد.

h. ثم ترى هؤلاء المستقلون، ومنهم من في المهجر، بأوروبا أو أمريكا، أو في بلد شرقيّ كتركيا أو قطر، ينأؤون بأنفسهم عن التيار الأول، الذي يحمل فكرة الجهاد كحلٍ مطروح، كلهم بلا استثناء، وعن الشخصيات التي تمثله أو عُرفت بتمثيله. ثم تراهم بعد ذلك يميلون إما لتيار الإخوان أو الحرورية، أو يميلون اليهما معا، وهو ما لم استوعبه حتى هذه اللحظة! ولا أعتقد هذا إلا لضعف معلوماتهم عن أحد التيارين، أو سلامة النية فيهما، أو ما شئت من سبب، إلا أن ذلك هو الواقع الغريب. فتجد أحدهم ينتمى للإخوان أو «لأهل الحديث» أو للسلفية (غير الجامية المدخلية أو البرهامية بالطبع، فهؤلاء عملاء صرف لا خير فيهم) فكرا وعقلا وروحاً، ثم يتعاطف مع دولة الحرورية على أنها تحمل حقاً! وتجد من هؤلاء مصريون وسودانيون ومغاربة وخليجيون وأرادنة.

i. لكن التقرب لهذه الفئة، واستغلال شعبيتها في الترويج لفكرة إسلامية تعين على تصحيح وضع ما، هو من المطلوب، بل المرغوب.

والله أسأل أن أكون قد قدمت جديدا، وتحدثت رشيداً، فمنه الفضل وعليه التكلان.

د طارق عبد الحليم

٥ مارس ٢٠١٧ - ٧ جماد ثاني ١٤٣٨



عن الجهاد والمقاومة ـ نظرة فقهية تطبيقية

في مسألة العمل خلف خطوط العدو

لا شك أن الأيام التي تمر بها الأمة الإسلامية في عصرنا هذا هي مصداق قول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم عن الفتنة العمياء، التي أصبح نهارها كليلها، سواد حالك وظلام دامس، زيغ عن المحجة ومداهنة بالحجة، تعطيل للشرائع وتمويه بالشعائر، اضطراب في المنهج، وخلط في المقصد، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

في ظلّ هذه الفتنة العمياء، أخذت جماعات من المسلمين في مواجهتها بطرق مختلفة متباينة، تعتمد أصالة على فكر قادتها واتجاهاتهم الأصيلة المرتبطة بفطرهم التي فطرهم الله عليها، فمنهم من رأى الاستكانة ومسايرة النظم الجائرة، وأصلّ الأصول ليدل بها على ما رآه صحيحاً، ومنهم من كان على الطرف الآخر من المنظومة، فرأي الخروج على النظم القائمة بالقوة، وتجنيد الشباب للقتال، قتال كلّ ما رآه قائماً في بلاد المسلمين من شرّ، وأصلّ الأصول ليدل بها على ما رآه صحيحاً، وبين هذين الطرفين، قامت جماعات عديدة تتروح كلها بين ما دعا إليه المستكينون، وما دعا إليه القتاليون، تأخذ كلّ منها بطرف أو بأطراف من أدلة هؤلاء وأولئك، وعوام المسلمين واقعون في حيرة من أمرهم، ضائعون بين نظم جاءت بالباطل، وأزهقت الحق، وبين جماعات تباين نهجها وتنازع أفرادها، فكان ضرّها أكثر من نفعها.

ومن أهم المسائل التي تعْرِضُ للمسلم في أيامنا هذه هي ما يتعلق بالجهاد، وشرعيته في بلاد المسلمين، أو خارجها، وشرعية العمليات التي يسميها البعض «انتحارية» والبعض الآخر «جهادية»، ويقتل فيها من المسلمين من يقتل، فيراه البعض الأول قتلا للنفس بغير حق، ويراه البعض الآخر مفسدة صغرى مترتبة على جلب مصلحة ضرورية. وقد قدم كل من الطرفين أدلة قصرت عن إقامة الحجة كاملة على دعواه.

وليس المقصود من هذا المقال أن يكون مناقشة فقهية كاملة تتناول كلا الوجهين من

الأدلة وتصل إلى ما هو أصح وأصلح، بل المقصود هو مناقشة مسألة الجهاد والعمليات والجهادية في أرض العدو، في وقتنا هذا، وواقعنا هذا، وما يراه الكاتب أصحّ دليلاً، وأصلح طريقة، تقوم على الأسس التالية:

١. فهم النصوص حسب ما بينته السنة المطهرة، وحسب ما فهمه الرعيل الأول من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وحسب ما تدلّ عليه مدلولات الألفاظ من ناحية، ومقررات المعاني من ناحية أخرى، بلا إخلالَ لأحدِهما بالآخر.

٢. ثم مقارنة ذلك بما قرره أئمة المسلمين من أهل السنة والجماعة فيما يماثل أو يقارب ما نحن فيه، مع مراعاة تغيّر المناطات، ومحلّ الاجتهادات.

٣. مراعاة ما تقرر في علم المقاصد الشرعية من قواعد عامة وخاصة، يتناسب فيها ما هو أصحّ مع ما هو أصلح، إذ إنهما واحد في مقصود الشارع.

٤. نهي النفس عن الهوى والغضّ عن المقررات المسبقة في العقل، وعن الميول الفردية المطبوعة في النفس ، والتجرد لله رغبة في الوصول إلى الحق.

٥. ثمّ سؤال الله سبحانه التوفيق والسداد.

من هذا المنطلق، فإننا نقرر النقاط التالية:

- أن لفظ الجهاد إن جاء مفرداً في القرآن دون قرين، فإنه يعني كلّ ما ورد في معاني الجهاد، كما قال تعالى: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا»، وإن جاء مقروناً بغيره مقيداً بصفة أو مضافاً فإنه يأخذ وصف الصفة أو معنى الإضافة، وعلى هذا فإن في قول الله تعالى: «وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم» كان الجهاد هنا مقيدا مرة بالقتال، ومرة بالمال.

١. أما في السنة، فإن لفظ الجهاد إن جاء مفرداً فلا يعنى إلا القتال، كما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الجهادُ ماضٍ إلى يوم القيامة»، فإن كافة المسلمين، علماؤهم وعوامهم، قد فهموا من هذا أن القتال في سبيل الله ماضٍ، ولم يفهموا منه أنّ الدعوة

بالحكمة والموعظة الحسنة ماضية، وأن كان هذا المعنى الأخير صحيح قد تقرر في مواضع أخرى وبنصوص أخرى، لكن الخلط بين مدلولات النصوص المفردة يضيّع المعنى ويبدل المراد من النصّ، ويقع تحت مدلول تحريف الكَلَمَ عن مواضعه. ومن هنا فإن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه عبد الله بن عمرو، حين جاءه الصحابيّ يسأله الجهاد قال: أحييٌ والداك، قال نعم، قال: ففيهما فجاهد» متفق عليه، فيه دلالة على أنّ الطلب الأصليّ للجهاد قد فهمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه طلب للقتال، ومن ثمّ تحول به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معنى مقيد للجهاد هو الجهاد في الوالدين لظرف إنّهما أحياء يحتاجونه. ولا يغرّنك ما يستشهد به البعض من الحديث الموضوع عن الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر، فهو لا أصل له كما ذكر بن تيمية في مجموع الفتاوى.

٢. إذا تقرر ذلك، قلنا إنَّ الجهاد، أو القتال بوجه عام، كما عرفه البشر قاطبة، ينقسم إلى نوعين، جهاد الدفع، وجهاد الطلب. والأول هو دفع الصائل أو المقاومة لحماية الدار والبيضة، وهذا النوع يتعين على أهل الدار التي يصول عليها المعتدى، من القادرين على القتال، وإن لم يقم بهم واجب ردّ العدوان، وجب على من هم من جيرتهم من المسلمين، الأقرب فالأقرب حتى يتم تحرير الأرض ودحر العدوان. ويدخل تحت هذا النوع من الجهاد حماية الثغور ضدّ الكافر المعتدى، لا ضدّ المسلم المسالم، وقد زعم بعض من يحرّف الكلم عن مواضعه أن حماية الثغور بإطلاق هو الجهاد المتعين دون تقييده بالكفار، فحوا الثغور، التي أسموها الحدود، من المسلمين! والثاني، الذي هو جهاد الطلب، أي قتال الكفار لنشر كلمة الله وإعلاء الحق بإزاحة القوى المعارضة له على مستوى المجتمع (أي الكلّ بتعبير الشاطبيّ) ، ثم بعد ذلك «لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغيّ» على مستوى الفرد (أي بالجزء).

٣. الجهاد، ككلّ واجب شرعيّ متعيّن، له شروط يجب أن تتوفر، وموانع تمنع من

وقوعه، فإن لم تتحقق الشروط أو إن تحققت الموانع، رُفع حكم الوجوب إلى ما يناسب ما تخلف من شرط أو تحقق من مانع، فيصير الجهاد مندوباً، أو مباحاً أو مكروهاً أو حراماً، بحسب الحال. أما عن جهاد الطلب، فليس الوقت بوقت الحديث عنه، إذ إن القاصي والداني، والعالم والجاهل، يعلم أن كلّ شروطه غير متحققة، وكلّ موانعه حاصلة، فليس هناك إمام يدعو له، ولا جيوش مسخرة له، إذ الجيوش مسخرة لحماية الحاكم وتثبيت عرشه، فالحديث عن هذا النوع من الجهاد عبث لا طائل تحته في وقتنا هذا. أما عن جهاد الدفع، أو دفع الصائل أو المقاومة، فيتحقق وجوبه شرعاً حين يتعرض جزء من البلاد الإسلامية إلى الغزو والاحتلال، هنالك يصبح الجهاد فرض عين على أهل المحلة المحتلة، وتفصيله كالآتي:

واجب متعين على ولاة الأمور في محلّ الاحتلال، فالشرط الأول والأهم فيه هو القدرة عليه من قِبَل الحاكم ، وعجز الحاكم عنه لا يُتصور إلا بأحد أمرين، أن يصل الغزو إلى الاحتلال، ويفقد الحاكم القدرة على إدارة المقاومة للمتعدى، أو أن يصبح الحاكم خائناً موالياً للمحتلّ، كما هو الحال في أفغانستان، والعراق، وفلسطين الضفة الغربية، فلا يكون هناك محلّ للحديث عن الجهاد، أو المقاومة إن شئت، في هذا المحل على مستوى الدولة، ويتعيّن حينها على ولاة الأمور ممن يتاخمون ذلك البلد:

أ) العمل على إزالة ذلك الحاكم العميل، ليمكن أن تتحقق القدرة على جهاد المعتدى من قِبَل أهل المحلّ على مستوى الجماعة.

ب) دعم الجهاد والمقاومة بالمال والجند والعتاد والإعلام للمقاومة على مستوى الفرد، أو الجماعات الجهادية المحدودة لدرء العدوان.

ج) فإن كان ولاة الأمور كلهم متخاذلين أو عملاء أو كفار، فلا حول ولا قوة

إلا بالله، ويصبح جهاد الدفع على مستوى الدولة غير متحقق لمانع عدم وجود الإمام والجند.

د) أما على مستوى الفرد، أو بالأصحّ الجماعة التي هي مجموعة من الأفراد محدودي العدد ممن تعاهد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو إقامة غير ذلك من الأحكام الشرعية التي عُطّلت في بلاد المسلمين، فلا يتحقق الوجوب إلا إذا: تعذر الجهاد على مستوى الدولة لسبب أو لآخر، أو كان الفرد، أو الجماعة، قادراً على الجهاد، فرغم أن الجهاد فرض كفاية على أهل المحلة كلهم، متعين على أفرادها عيناً حتى يتم المطلوب من دحر العدوان، إلا إنه لا يجب إلا على القادر منهم على الجهاد.

هـ) أن لا يتسبب العمل الجهاديّ في مفسدة اضرّ من وجود المحتلّ، كأن يؤدى إلى محو البيضة أو خراب عموم الديار، وهذا محلّ إجتهاد النظار، فكما قرر العز بن عبد السلام، إن كان الحمل على العدو سيؤدى إلى قتل النفس دون تحقق نكاية أكيدة بالعدو، حرم الحمل عليه، إذ إن ذلك يكون تحقيقاً لمفسدة دون وجود مصلحة راجحة (الإحكام في قواعد الأحكام).

و) من هنا يأتي خطأ من أفتى بحلّ الأعمال الإنتحارية/ الاستشهادية بإطلاق، والتي يقوم بها مسلم وهو على يقين من أنه سيقتل لا محالة، لسببين. ذلك إنه في كثير من الأحيان يُقتل دون نكاية أساساً ودون قتل أيّ من العدو، والثاني أنه في الغالب الأعم ما يُقتل المدنيّ المسلم في مثل هذه العمليات، وهو أمر لا يحلّ الإقدام عليه (قتل النفس المسلمة) إلا بإحدى الثلاث التي نصّ عليها الحديث، وهو ليس مما يجرى عليه مسألة التترس بحال إلا عند من أخذ الفقه عن نفسه، أومن هم أجهل منه. فرمي الترس مسألة لا تكون إلا إن تحقق للمسلمين أن دون ذلك خراب الديار وفناء البيضة، لا هدم فندق أو قتل شرطيّ! لذلك يجب

أن تؤخذ هذه العمليات بحذر شديد كلّ بحسب الحال، والميل إلى تقييدها أوفق. كذلك لا تحلّ إلا إن بذل المهاجم إمكانه في حفظ حياته ولو بأقل قدر من المحاولة.

ز) لا يجب أن يختلط هذا بما قد يقع من صدام بين المسلمين والكفار في ساحة القتال، فإن القتال والحمل على العدو واجب محتّم لا فرار منه لإحراز النصر، وهي الحالة التي وردت إلينا عمّا قامت به الصحابة في الغزوات المباركة، حين حمي الوطيس واحتدمت الحرب وتلاقت السيوف، وهي، كذلك، غير ما يراد في حالة العمليات «الاستشهادية» بصورتها الحالية، فيجب على فقهاء المقاومة أن يحققوا مناط الفتاوى حتى لا نخالف الشرع ونحن نقصد إلى إتباعه.

- إنّ مسألة ضرب المصالح والمنشآت وقتل الأفراد على أرض العدو، والتي يدّعى الغرب الصليبيّ أن غزوه لأرض المسلمين ليس إلا لمنع مثل هذه الأعمال «الإرهابية» في مصطلحه، فإن الحديث عن هذه المسألة له، بإعتبار ما تقدم في مقدمات هذا المقال، جوانب عدّة:

أ) أنه بشكل عامّ، فإن مهاجمة الخطوط الخلفية للعدو المقاتل أمر تتوافق عليه كلّ القوانين والدساتير، وتقوم به كلّ الدول التي حاربت في الماضي أو تحارب في الحاضر، سواء بحق أو بباطل.

ب) أنه يجب تمييز مدى ما يعتبر من «الخطوط الخلفية»، هل يقف على خطوط الإمداد والتموين والإحتياطي المقاتل في الساحة، أم يمكن حمله على الأفراد المدنيين في بلاد العدو بعيداً عن ساحة القتال وعن حدود بلاد المسلمين الواقعة تحت الغزو؟ وما نرى من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يرسل مقاتلا إلى مكة لقتل نفس أو تخريب زرع، رغم أن حربه صلى الله عليه وسلم كانت تتراوح بين الدفع والطلب. بل كانت سنته صلى الله عليه وسلم أنْ يهاجم

القوافل التي تتوجه إلى مكة، خارج حدودها، ولا يقتل من استسلم ممن يرعونها، إلا من كان قد أُهدر دمه قبلا. كذلك، فإن من سنته صلى الله عليه وسلم في القتال عامة، سواء في ساحة القتال أو في الخطوط الخلفية، عدم قتل النساء والولدان وأهل الأديرة، من غير المقاتلين منهم، وهذا ثابت بنصّ حديثه صلى الله عليه وسلم في الموطأ «نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان» أي في الحرب.

ج) ويجب هنا ملاحظة أنّ الله سبحانه قد شرط لإرهاب العدو إعداد أقصى القوة المستطاعة، لا أقلها وأضعفها، في قوله تعالى: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم»، ذلك تمشياً مع مراعاة دفع الضرر الغالب الذي يحصل غالبا من إرهاب العدو دون استحضار القوة المناسبة لذلك، حتى وإن تحققت مصلحة صغرى بجهاده بالقوة القليلة.

د) ولا يصحّ أن يقال أنه طالما أنّ العدو يستبيح بيضتنا، فإنه يباح لنا أن نستبيح بيضته وأن نفعل فعله، فهذا ليس من دين الإسلام في شيء، وليسأل نفسه من يقرر هذا القرار، أنه إن كان العدو يستبيح اغتصاب الأسيرات المسلمات، فهل يباح ذلك للمسلم أن يغتصب أسيرات الكفار؟ اللهم لا. وقد أباح البعض هذا، مثل ابن باز رحمه الله من المحدثين، لكنّا نأخذ بغير هذا القول، تمشياً مع المقاصد العامة للشريعة.

هـ) أما ما كان من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من حرق نخيل بني النضير، فقد كان ذلك في ساحة القتال، بعد أن غدروا بالعهد، وهو بصدد قطع شأفتهم ومحو وجودهم من الجزيرة بالكلية، تمهيداً لأمر عام بإخراج المشركين من أرض الجزيرة.

و) ثم إن صحّ للمقاتل أنْ يتسرب خلف خطوط العدو، التي نتفق على أنها

خطوط إمداده وتموينه، لقتل وتدمير ما يعدّ من عدة وعتاد وأنفس، فإن حمل القيام ذلك على المقيمين في بلاد العدو، ممن سُمح لهم بالإقامة لسبب أو لآخر، هو خطأ فاحش باهظ التكاليف! وذلك لأسباب:

١) أولها أنّ من دخل أرض الكفار وسَكَن بها فإنما كان ذلك بعهد وميثاق أن لا يقتل أنفسهم ولا يُخرّب ديارهم، عهد يلتزم به إلا فيما يعارض شرع الله سبحانه كما في إعلان ولائه للملك ولاءاً مطلقاً فوق ولائه لله. أما عن الحرب فالاشتراك فيها أو كونه طرفاً فيها ليس من مسائل الولاء في ذاته، إذ تتخلف عن أن تكون من مسائل الولاء في كثير من الأحوال لموانع، كأن يكون عاجزاً أو ضعيفاً أو غير ذلك من موانع عدم الاشتراك في الجهاد.

٢) ذلك، إن صحّ أن يستبيح المقيم من ذوى العهد في بلاد الغرب أن يقتل المدنيين، فلا عليه في السرقة أو النهب من ممتلكاتهم، وحينئذ يتحول المسلمون إلى مجموعة من اللصوص لا اكثر ولا أقل.

٣) ومنها أن يتحلل من أي عهد يقوم مقام المانع، في حال إقامته في ديار الكفر، إن وجد في نفسه الرغبة في الاشتراك في الحرب، بأن يغادر هذه الأرض إلى محلّ القتال ثم يكون من هناك ما يكون حسب ما تقتضي المصلحة، وهو ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الصحابيّ الجليل نعيم بن مسعود كما جاء في بن اسحاق في خبر غزوة الخندق«إن نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قنفد بن هلال بن خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة»، فلم يأمره صلى الله عليه وسلم بقتل أو تخريب، بل بالتخذيل والتمويه.

٤. إن ما كان من قول ليس تخذيلاً للحركة الجهادية، ولا تقليلا من أهميتها، ولكنها

ترشيدُ لحركتها وتقويمُ لاتجاهها حتى لا تصرف قوتها المحدودة في ما لا طائل تحته، بل فيما قد يكون مناقضاً للحكم الشرعيّ المقرر في هذه الظروف. وأمر النظر الشرعيّ ليس أمراً تقدر عليه العقول كلها، وإن كان منها من قرأ ودرس ونظر، فالاستدلال قرين الاجتهاد، والاستدلال يحتاج إلى عقل دَرُبَ على مسالكه ووعى شُعبه ودُرُبه، وكانت له من الفطرة والفطنة ما يهدي إلى صحيح القول والعمل.

٥. ثم نود، أخيراً أن نوجه عناية القارئ إلى كتب أربعة تعين على تثقيف العقل وصقل ملكة الاستدلال والنظر، وهي:

أ) الموافقات للشاطبي.

ب) الفروق للقرافي.

ج) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام

د) غياث الأمم في التياث الظلم للجوينيّ

وهذه الكتب الأربعة، هي أمهات في هذا الحقل من العلوم الإسلامية، مع وجود غيرها كثير من الدراسات والكتب الحديثة، التي تساعد على حسن الإدراك وصحة النظر ككتاب مقاصد الشريعة الإسلامية لإبن عاشور، ونظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي للريسونيّ ،وغيرهما.

والله من وراء القصد.



نتائج وخيمة للخلط في مفهوم جهاد الأمة!

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

نعلم، كما يعلم من قرأ تاريخ البشر، بألوانهم وألسنتهم المختلفة، أن ّ كلّ قول أومفهوم، أو فكرة، من أفكار البشر، إنما تشتمل إمّا على كثير من الحق، وبعض الباطل، أو كثير من الباطل وبعض الحق. والباطل المقصود، لا يجب أن يكون ضلالاً، بل قد يكون ضرراً، أو قُبحاً، أو خطأ، أوغير ذلك من درجات المغايرة لِصِرْفِ الحقّ.

ومن هذا المفهوم ما أخذ منحى متصاعد الوتيرة، لا اليوم، ولا أمس، بل منذ عدة عقودٍ، ترجع إلى بعد سقوط الخلافة، وظهور منهج الشيخ حسن البنا، رحمه الله، الذي كانت له ظروفه الخاصة، وبيئته الخاصة، وعوامله الخاصة، التي دعت الشيخ البنا لتبني عملاً إسلامياً له شكل واتجاه محُدّد، أوضحناه بالتفصيل من قبل[١].

فهذه الدعوة إذن، وهذا المفهوم، ليس جديداً، وليس من قال به اليومَ مجُدّدٌ، بل هي دعوة تابعة لمفهوم، عاش عقوداً كثيرة، تتناوشه العقول، وتتداوله الأقلام، بين مؤيد ومعارض، وبين موافق ومخالف، وبين محب ومبغض، وبين شارحٍ ومزوِّر.

والخطر، كل الخطر، في إطلاق مفاهيمٍ ذات دلالات كبرى، دون تحريرها، وبيان كافة جوانبها المختلفة، حتي لا تُستخدم لضرب الغرض الأصليّ منها.

فالأمة، قد يُقصد بها الحضارة، فيُقال أمة الروم، بثقافتها وتراثها. وقد يُقصد بها المجتمع، وهو تجمّعٌ انسانيّ عُمرانيّ في مكان جغرافيّ متقاربٍ، كما يُقال أمة الألمان أو الفرنس أو غير ذلك. كما قد يُقصد بها الانتماء لثقافة معينة لها تراثٌ ولغةٌ وتاريخ، اجتمعت فيه

---

[١] راجع مقالنا «الإخوان المسلمون في نصف قرن»، http://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/73013/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%AE%D9%88%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D9%84%D9%85%D9%88%D9%86-%D9%81%D9%8A-%D9%86%D8%B5%D9%81-%D9%82%D8%B1%D9%86

صفات المجتمع والحضارة، كأمة الإسلام[١].

والمعضلة اليوم هي أنّ «أمة الإسلام»، التي كانت تسيطر على الرقعة التي تعيش عليها، وتتمتع بثقافتها، وتتحدث لغتها، وتمارس شعائرها وشرائعها، تفككت بشكلٍ تام، إلى مجتمعات منفصلة، تتقارب في بعض أمورها، لكنها تتباعد في كثير منها كذلك، من جراء فعل الحكام الخارجين عن دين الإسلام. وقد نجم عن هذا التفتيت الثقافي واللغويّ، والانهيار الحضاريّ، أن اختلط الحابل بالنابل، وتحول التجمع المسلم إلى خليطٍ غير متجانسٍ من طبقتين، طبقة العوام، وأغلبها لا يرى ولا يسمع إلا ما يقال له عبر وسائل الإعلام الخدّاعة، وطبقة الأسياد الحاكمة، وهم الحكام والجيش والقضاة والسياسيون والبرلمانيون ومشايخ السلاطين وكبار التجار وأرباب الصحافة والإعلام. وذابت عناصر الأمة الأصلية وسط هذا الزخم الهائج من الزيف والنفاق والفسق والعلمنة.

وكان من الطبيعي أن يصير مفهوم «الأمة»، غير منطبقٍ على تلك المجتمعات عامة، إلا بافتعال ظاهر، وإغضاء عن حقيقة التحوّل الذي حدث على رقعتنا الإسلامية، التي عاشت عليها الأمة يوماً.

وقد يقول قائلٌ، لكن الأفكار الغريبة، والبدع والعقائد المختلفة، كانت، على مرّ تاريخ أمتنا، في رقعتنا هذه، حاضرة على الدوام، مختلطة بالناس، لم تصفو الأمة، وبل ولا أمة غيرها، من مثل هذا الخليط يوماً!؟

والجواب حاضرٌ ظاهر. فإنّ كون الأصل هو ما عليه الأمة من دينٍ ولغة وتراثٍ وحضارة وتاريخ، هو السائدُ العام، سواءً في تعليمها أو سياستها أو أحكامها أو مبادئها وقِيَمها ومفاهيمها التي تتناقلها جيلاً عن جيل، بينما ترى تلك الثغرات من الفكر البدعي

[١] راجع بحثنا عن «ضوابط في السياسة الشرعية» http://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/73264/%D8%B6%D9%88%D8%A7%D8%A8%D8%B7-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%B3%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%B1%D8%B9%D9%8A%D8%A9-%D8%AF%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D8%A9-%D9%85%D9%82%D8%A7%D8%B1%D9%86%D8%A9

أو الشعوبيّ (القوميّ بلغة العصر)، أو الزندقة (العلمنة بلغة العصر)، تعيش على هوامش الأمة، كما تعيش الطفيليات على فتات البشر من حولها، وبين أن يكون الأصل اليوم هو تلك النعرات القومية، والعلمانية الحاكمة ومفاهيم الليبرالية الساقطة ودعوات الكفر العلنية، وموبقات الفسق العام، ثم ترى ثغرات وحلقاتٌ من تلك الفئة التي ظلّت ظاهرة على دينها، محبة لتراثها، حريصة على مفاهيمها وقيمها. ولا أقصد بهذه الفئة، من هم على درجات من العلم والتقوى، لا، أبداً، بل حتى في طبقة العوام البسيطة، تجدهم متدسسين بين الخلق المتبدّل، لا يريدون أن يواكبوه في سقطته، لإيمان في قلوبهم، وإن لم يمكنهم أن يتخلوا عن مجتمعهم جملة. كما لا ننسى أنه مع وجود طبقات من الفسقة والزنادقة في أمة الإسلام أيام خلافتها، فإن أضعاف هؤلاء كان من أكابر العلماء والفقهاء والنوابغ، بأعداد تعرف قدرها بنظرة واحدة في كتب الطبقات! آلاف مؤلفة، في كلّ جيلٍ، يكتبون ويُفتون ويجاهدون، أضعاف أضعاف الزنادقة والمنحرفين. فأين نحن من ذاك!؟

تلك الفئة، المتناثرة اليوم كمّاً، المتجانسة كيفاً، تجدها منتشرة في أنحاء رقعتنا الإسلامية، على اتساعها. لكنها تحيا حياة غربة وإن لم تعرف أنها في غربة، بل يُقال لهم: هذا اختلاف في الرأي والنظر!

تلك الفئة هي «الأمة»، قلّت أم كثرت. ومن هذه الأمة من هم على علم ودينٍ وخُلق، لم يُبدلوا مفاهيمهم، ولا آراءهم ولا أقوالهم. فكان منهم الشهيد المقتول والمعتقل والهارب والمُختفي عن الأعين. لكن ليس منهم من يرفع رأساً بحقٍ إلا في حالات استثنائية معروفة معدودة.

فأن يأتي اليوم من يريد أن يُصور للسذّج من القوم، ولعامة الناس ممن لا يميّز بين حقٍ وباطل، أن الأمة لا تزال على عهدها كما كانت، وأنّ رجالها، على اختلاف مشاربهم، بين علماني وليبراليّ وديموقراطيّ سياسيّ ومنافق متآمر، وطباخ فتاوى، وطاغوت عسكريّ، يجب أن يتراصوا معاً للوقوف في وجه الهجمة الغربية! فإن هذا القائل إما خائنٌ عميلٌ بائع لدينه، أو جاهلٌ غرّيرٌ ساقط العقل منحرف الفطرة.

وهذا الذي قلنا، لا صلة له بقضية التكفير التي تستهوى هؤلاء المُغرضين من الجهلة

المروجين لأمثال تلك المفاهيم الغامضة، يشوشوا بها على من يُظهر عوار الواقع عياناً بياناً. فإننا على يقين أن كثيراً من فساق الأمة، وبين طبقات عوامها، لا يزال فيهم إسلاماً، ينجيهم عند الله، إن صحّ إسلامهم، وهو أمر بينهم وبين الله سبحانه. لكن هؤلاء ليسوا ممن يُخاطب من المنابر الفكرية أو على صفحات المجلات العلمية أو الشرعية. ومجال دعوة هؤلاء ليس من قبيل ما نحن فيه هنا، حتى وإن ظلّ هؤلاء من سَقْط هذه الأمة، وبقايا آثارها. إنما نحن هنا نتحدّث عن «الأمة» التي انكمشت فصار رجال طبقاتها معدودين على أصابع اليد، وكلهم بين مستخفٍ ومُعتقل.

أمتنا أمة حبيسة، معتقلة، مشرّدة في أنحاء أرضها، تحتاج لمن يرى واقعها على ما هو عليه، ليرسم لها الطريق، دون تزييف أو تجميلٍ، أو (مكياجٍ)، يدعوه «الأمل». الأمل هو في معرفة الحق، وعلاجه بما يستحق، وبمن يستحق، وعلى الوجه الذي يستحق.

وقلّ لي بالله عليك، كيف تجمع على هدفٍ واحدٍ، من يرى أن الطريق هو العمل مع الأنظمة الحاكمة، لاختراقها، زعموا بهبالتهم! وبين من يرى أنّ الطريق هو تنشئة جيلٍ على التوحيد الخالص، يعرف خطورة العمل مع تلك الأنظمة، والإذعان لتلك الشعارات، حتى يّمكن الله له يوماً. وتجد الصنف الأول من عناصر «الأمة»، زعموا! يرى الصنف الثاني من الغلاة والتكفيريين، بل ولا يتورع عن الإبلاغ عنهم لسلطات أمن الطواغيت! ثم تجد من يحلو له أن يصف كلّ تلك المتناقضات بأنها «الأمة»! التي يجب أن تضع أيديها في أيدي بعض، لتواجه الغرب الصائل!؟

فلنحرر المصطلح، ولنفهم جوانبه وطبقاته عامها وخاصّها، ولندع الإجمال والتعمية، ففيها الهلاك، كلّ الهلاك.

د طارق عبد الحليم

١٠ سبتمبر ٢٠١٩ – ١٢ المحرم ١٤٤١

تعليق على مذهب د عبد الله المسعري في الدعوة النجدية وفكرة التجديد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

لست بصدد الردّ على ما يذهب اليه د المسعريّ، المعارض السعودي المقيم في لندن، من أقوال، فقد تجاوزت تلك المرحلة، ولست بقادر اليوم على تفصيل الردود كما فعلت من قبل مع عديد من الكتاب والمفكرين. لكني سأتعرض بشرعة لنقطتين، أعتبرهما العمود الفقري فيما يقدّم للناس من أفكار. وهاتان الفكرتان هما

١. سوء فعل وطوية الدعوة النجدية وشيخها رحمه الله تعالى

٢. فكرة التجديد

والحق أن السيد المسعري ليس بدعا في مناقشة هذين الموضوعين. فإنه لا حصر لمن رصد كثيرا من كتبه لموضوع التجديد وفكرته ممن هم أكبر قدراً في الوسك العلميّ، مثل محمد عابد الجابري، الذي يختلف مع المسعري في نظرته للدعوة النجدية، وحسن الترابيّ والغنوشي، وأقل من هؤلاء تطرفا الريسوني وكثير من الأسماء الأقل أهمية وتأثيراً.

أما موضوع التنديد بالدعوة الوهابية، فقد كان، ولا يزال من الموضوعات الحامية، غالبا من أعداء الدعوة الإسلامية الصحيحة عامة، ومعظمهم من دعاة التجديد، ومن المستشرقين بشكل خاص.

١. الدعوة النجدية: فإني أرى أن كل من تعرض لتلك الدعوة التي أطلقها الإمام محمد ابن عبد الوهاب بالنقد والتجريح، قد خلط بين ثلاثة أمور

a. دعوة الشيخ للتوحيد الصاف

b. سعيْ بن سعود ومن معه للملك والإمارة

c. ما دوّن بن غنّام من تاريخ أسماه تاريخ الدعة النجدية، وهو في حقيقته تاريخ الغزوات السعودية.

والحق إنه من مبادئ الإنصاف أن يُحاسب المرء على ما دوّن، لا على ما فهمه عنه الناقلون والشارحون والمعلقون. وقد نُقل عن الإمام في عدم تكفيره العوام، أو الجهلة أو التكفير بالعموم ما هو محُكمٌ لا يدع مجالاً لمفسرٍ أو مؤول أو شارح. كما لا يصح عرض أي متشابه من كلامه أو تفير غيره لكلامه على هذا المحكم، ومنه الكثير مما ورد في الدرر السنية، مثل قوله «ولم يكفروا أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه، كنحو الزنا والسرقة وما أشبه ذلك من الكبائر» ١/ ٥٣٢، وقوله « القول أنا نُكفِّر بالعموم فذلك من بهتان الأعداء الذين يصدون عن هذا الدين، ونقول سبحانك هذا بهتان عظيم» الدرر ١/ ١٠٠، وقوله «نسبوا إلينا أنواع المفتريات، فكبرت الفتنة، وأجلبوا علينا بخيل الشيطان ورجله، فمنها إشاعة البهتان بما يستحي العاقل أن يحكيه فضلاً عن أن يغتر به، ومنها ما ذكرتم أني أكفر جميع الناس إلا من اتبعني، وأني أزعم أن أنكحتهم غير صحيحة، فيا عجباً كيف يدخل هذا عقل عاقل، وهل يقول هذا مسلم ؟ إني أبرأ إلى الله من هذا القول الذي ما يصدر إلا من مختل العقل فاقد الإدراك، فقاتل الله أهل الأغراض الباطلة» الدرر ١/ ١٨٠. وغير ذلك كثير مثل ما جاء في تودده لمن يدعو زيداً بقوله «فالله أفضل من زيد»، وعدم تكفيره البوصيرى، كما يفعل كثير من المحدثين، مما هو وارد في كلامه في مجموع مؤلفاته أو في الدرر وغيرها.

كذلك يجب التنبيه إلى أنّ ما دوّن ابن غنام، هو ما دوّن ابن غنام! نعم المعارك التي وقعت صحيحة، والقتال وقع، لكن التسميات التي أطلقها مثل «المسلمين» على جند بن سعود، مما يعني الكفار على غيرهم، ليس ملزما للشيخ بأي حال من الأحوال. وكونه تلميذا له لا يعني موافقته، لا على كل الأصول ولا على كل الفروع. وابن سعود كان طالبا للملك والسطوة، وقد أحسن استخدام دعوة الشيخ في تبرير غزواته وقتاله، لكن هذا لا دخل له بصاب الدعوة وصفائها

٢. التجديد: وهو دعوى عريضة ادعاها كثير من المحدثين، منهم عن سوء نية وعطن طوية كحسن حنفي ومحمد أركون وراشد الغنوشي، ومنهم عن سوء دين وخلل في يقين مثل عابد الجابري وحسن الترابي والعلايلي وحسين أحمد أمين (ابن أبيه!)، ومنهم من اتخذها عنوانا لافتاً دون التحقق بما يأتي تحتها!، وأظن المسعري من هذا الجمع الأخير، مع الإقرار بأن الرجل واسع الإطلاع بلا شك. فإنك إن قرأت كتابه في «التوحيد»، لم تجد «جديدا»، بل إعادة تصنيف وتقسيم، وشرح لمجملات ، وتفصيل لمسائل، مثل حكم الرجوع إلى المحاكم الوضعية في الغرب. وهي مسائل تطبيقية، ليست تجديدية. لكن جوهر ما عرض هو ما في كتب ابن تيمية ومحمد ابن عبد الوهاب!

ولا أدرى حقيقة التجديد الذي يدعو اليه المسعريّ، ولا طبيعته، ولا أظنه هو نفسه يدري! فالتجديد قد يكون كلياً، كما في دعوات حسن حنفي أو العلايلي، أو جزئي في باب معين، مثل أصول الفقه كما دعا الريسوني وغيره. لكن من الصعوبة أن تعرف عمّا، وفي أي مجال يريد المسعريّ أن يجدد الدين؟ فإنت، حين تقرأ مؤلفاته، تستشعر الصراع الدائى في نفسه بين الالتزام بالمدرسة السلفية الأصيلة، وبين المدرسة الإصلاحية الحديثة، وهو ما جعله لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. كما أنك تستشعر ما فعلت به كراهته - المُبررة - لآل سعود، إلا ما كان من انعكاس ذلك على حكمه على الدعوة النجدية بإجمال.

هذه عجالة دونتها عن د المسعريّ لبيان ما أرى فيما قدّم.

د طارق عبد الحليم

٢٠ يونية ٢٠١٧ - ٢٦ رمضان ١٤٣٨

أحداث أوروبا .. أسباب ونتائج

حول عولمة الجهاد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد

الجزء الأول

(١) تقدمة

الحديث عن مسألة الهجمات في أوروبا أمرٌ شائك عويص، يحتاج إلى تدبر وفكر يحيط بالمسألة الإسلامية ككل، أصلا وفروعاً، وبمسارات التخطيط الدولى، وبمؤامرات القوى العالمية. لكنه كذلك أمرٌ يجذب المحلل السياسيّ، خاصة المهتم بشؤون قومه، فلا يسعه السكوت فيها، مع شدة خطرها وتشابك أمرها.

يختلف أمر الصراعات الدولية حسب معايير كثيرة وعوامل مختلفة، يحسب لها المخططون حساباً دقيقاً، ويعملون بتوازنات حساسة، ويعتبرون متغيرات لا حصر لها في مواجهة مثل هذا الصراع.

فمثلا الفرق بين صراع محليّ قائم في مناطق محددة من العالم، مثلما حدث في فيتنام أو في العراق، والذي حقيقته غزو أمريكيّ أبعد ما يكون عن لفظ الصراع التقليدي، وبين صراع دوليّ مثل الحروب العالمية أو الحرب بين الكوريتين أو تركيا وروسيا القيصرية، وما شابه. كلّ من الصورتين تملي نظراً خاصاً على منهج التعامل العسكري وطرق المواجهة.

ومنها طبيعة الصراع، سواء كان صراعا دنيويا بحتا يُقصد به السيطرة والتحكم، أم له بعد حضاريّ يجب أن يدخل في الحسبان.

ثم ميزان القوى المتصارعة في العدد والعدة، ومناطق القوة والضعف في كلا الطرفين، بشكلٍ عمليّ يضع في الحسبان القوى الإيمانية موضعها، دون إخلال بالأسباب الدنيوية التي بنى الله عليها الدنيا.

ثم طبقات الصراع القائم، وزواياه ودرجاته تصعيداً وتهدئة، حسب الظروف المتاحة في كلّ محلة من محلات الصراع.

ثم حسابات المصالح والمفاسد المترتبة على كلّ عمل على حدة، من كلا الجانبين، فقد يتخذ العدو خطوة تُحسب عليه لا له، ويمكن استغلالها ضده دون ردة فعل مثلا.

وهذا غيض من فيض العوامل التي يجب اعتبارها في مثل تلك الصراعات. والأسئلة التي تنشأ عنها كثيرة متعددة، مثل:

١. ما هي طبيعة الصراع القائم في الشرق الأوسط؟
٢. ما هي طبيعة النظم المتصارعة؟
٣. من العدو الأصلي ومن الثانوي في تلك المواجهة؟
٤. ما هي حدود المواجهة؟ وما عوامل تصعيدها؟
٥. ما نوعية المواجهة العسكرية الواجبة في كلّ حالة على حدة؟
٦. ما مدى المصلحة في توسيع رقعة المواجهة؟
٧. ما القدرة المتاحة لتوسيع جبهة المواجهة؟

والإجابة عن مثل هذه الأسئلة أمر اجتهاد ونظر، لا يمكن أن يكون أمرها محسوما بالكلية، لكن هناك ما هو أقرب إلى الصواب فيها، وما هو أبعد، إذ ما يترتب علي تلك الإجابات من نتائج تحمل مصالح ومفاسد، تقترب بنا من الهدف، أو تبعدنا عنه. لكن الاجتهاد واجب على كلّ حال، للقادر عليه، فإن الرأي هنا لا يجب أن ينبع من هوى أو معلومات سطحية تراكمية من مصادر عامة، توهم المرء أنه قادر على التصدي لها. بل يجب أن يكون نظراً (لا رأياً) شرعياً يأخذ بقواعد الشرع الذي درُب عليها عقله من خلال دراسة شرعية واسعة وممارسة فقهية متمرسة.

فلا ندعي أن بحثنا ونظرنا هو القول الأخير الفاصل في هذا الأمر، لكننا نحسب أنه الأوقع والأقرب للصواب والأحق أن يصل للهدف المرجو إن شاء الله تعالى.

(٢) ما هي طبيعة الصراع القائم في الشرق الأوسط؟

الصراع في الشرق الأوسط ليس صراعاً محلياً في أصله، ولا حديثاً جديداً، كما هومعلوم لكلّ دارس أو طالب علم. فقد بدأت طلقاته الأولى مع ظهور الإسلام على الفرس والروم، ثم دارت حروب طاحنة بين الشرق والغرب، الشرق فاتحاً، استقر وعمّر، والغرب غازياً، خرّب ودمّر. وأصبح الإسلام نسيج المجتمع في البلاد المفتوحة، لا غازيا ولا مستعمراً. ثم جاءت الحروب الصليبة، أحدى عشر حربا متتالية .. ثم الحملة الفرنسية الصليبية، ثم الحملة الأمريكية الصليبية في هذا القرن.. كلها حملات عسكرية بحتة، أعقبت تخريباً ثقافيا وعقدياً واجتماعياً واقتصادياً دام قرنين من الزمان.

فالصراع إذن عالميّ في طبيعته وأصله[١]. لكنه يقع، أساساً في منطقة العالم الإسلاميّ، فليست هناك جنود أو عتاد على أرض الغرب، ولا طائرات تجوب سماءه. الغزو إذا غربيّ بحتٌ لا مراء في ذلك.

والصراع هنا، إن صح تعبير الصراع الذي يوحى بتوازن القوى المتصارعة، له طبائع متعددة، لا يمكن حصره في طبيعة واحدة. أولها أنه صراع حضاريّ في طبيعته، بين منهج إسلاميّ بنيت عليه حضارة سادت العالم قرونا متطاولة، ثم أصابها ما يصيب الحضارات من سنن التحول والسقوط، فلم يبق منها إلا «ثقافة عامة» Culture تسود بين أبنائها، ولغة تجمعهم، وبين حضارة حديثة مولّدة من حضارات سابقة عدة، منها الاسلامية والرومانية والاغريقية، متلبسة بمسوح نصرانيّ من بقايا دين عيسى عليه السلام، بعد تزييفه، ثم رفض الدين المزيف! ثم التعلق به شعورياً والتحرر منه حياتياً.

---

[١] أخطأ بعض الكاتبين الأكاديميين في تحليل طبيعة الصراع، مثال

http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2016/3/23/%D8%AA%D9%81%D8%AC%D9%8A%D8%B1%D8%A7%D8%AA-%D8%A8%D8%B1%D9%88%D9%83%D8%B3%D9%84-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AE%D8%B7%D8%A7%D8%A1-%D8%A7%D9%84%D8%AE%D9%85%D8%B3%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%A7%D8%AA%D9%84%D8%A9

* وقد تولّد من هذا البعد الحضاري صراع ثقافيّ فكريّ، بدأ الغزو منذ أواخر القرن الثامن عشر، أيام الحملة الفرنسية، ثم تابع امتداده في صورة «تحديث» للعالم الإسلاميّ، سواء بإرسال المستشرقين للشرق، أو استقبال المبعوثين للغرب. ثم زادت وتيرته واحتدت سطوته إبان عهد الاحتلال الانجليزي والفرنسي والأسباني لبلاد المسلمين من المحيط إلى الخليج، خاصة وقد شارك حكام المنطقة في تكثيفه وتعميقه كما سنرى.

* ثم هو بَعدُ صراع على الثروات التي منّ الله بها على هذه البقعة من الأرض، من نفطٍ ومعادن لا حصر لها، أصبحت مدد ضروريّ لتسيير الحضارة الغربية المادية الحديثة. وهذا البعد من أخطر تلك العوامل التي أدت لهذه الحرب الضروس، وذاك الاحتلال المتمثل في قواعد عسكرية أمريكية وانجليزية، وأخيراً قاعدة روسية في قلب المنطقة بساحل الشام. ثم على رأسها القاعدة الأمريكية الكبرى التي يمثلها الكيان الصهيونيّ الخبيث.

* ثم هو صراعٌ بين القوى العالمية على احتلال وتخضيع المنطقة سياسياً لأهميتها الجغرافية، كرابط بين الشرق والغرب، بين أوروبا وآسيا وأفريقيا. فليست هناك منطقة أخرى من العالم تقع على حدود ثلاث قارات إلا منطقة الشرق الأوسط، خاصة مصر والشام.

هذه إذن طبيعة الصراع. صراع ثقافيّ اقتصاديّ اجتماعيّ عسكريّ، يحاول فيها الغرب أنْ يُغيّر من ثقافة الشعوب المسلمة، عن طريق التعليم والمناهج والإعلام خاصة، ليتم له الأغراض التي تحدثنا عنها.

(٣) ما هي طبيعة النظم المتصارعة؟

الفارق كبير، جدّ كبير، بين النظام السائد في الغرب وبين النظام الذي بُني في فطرة أهل الإسلام .. وهو النظام الإسلاميّ وشريعته، وإن لم يعد نظاماً متبعاً في أيّ من تلك الدول التي انقسمت بعد سقوط الخلافة العثمانية، والحرب العالمية الأولى.

يقوم النظام الغربيّ على أسس مخالفة تمام المخالفة للنظام الإسلاميّ، خاصة في مصدر التشريع، لا في بعض تفاصيله، إذ قد يتفقا في بعض صور التقنين العامة في مجالات النظريات الأساسية التي تتناول الأحوال المدنية وطرق التصرفات، كما يظهر في دراسة مقارنة لنظريات الملكية أو الضمان، بخلاف القصاص والحدود الجنائية.

ومصدر التشريع في النظام الإسلاميّ هو الوحي المعصوم، في نصوصه المحفوظة، ثم الاجتهاد المبنيّ على القواعد الناشئة من تلك النصوص، مفردة أو مجتمعة، على ثلاثة مستوات، قواعد الأصول، والقواعد الفقهية والنظريات الفقهية.

والنظام الغربيّ يعتمد على منظومة متكاملة من النتاج البشريّ البحت، دون اعتماد الوحيّ، من حيث لا وحيّ بشرائع تتعلق بالمسيحية أصلاً، وقليل منها في الديانة اليهودية. فكأنما اعتمد الغرب على العقل البشري اجتهاداً دون نصوص، سواء في إثبات الأصول أو القواعد أو النظريات.

وبناء على ذلك الفرق، فإنّه رغم وجود بعض التشابهات بين الأحكام الفقهية والقانونية الوضعية، فإن الخلاف يظل قائماً في مصدرهما أولاً، ومقصدهما ثانياً.

أما عن البناء الحضاريّ الذي يقوم على تلك النظم، فمن الواضح إنه يختلف اختلافاً بيّنا بين النظامين، لما قررنا. فالمنظومة الإسلامية تقوم سياسياً على الشورى الممنوحة لأهل الحلّ والعقد على قدر العلم والكفاءة، واقتصادياً على نظرية الملكية الخاصة بضوابطها وموانعها ومحاذيرها كالربا، واجتماعياً على الوحدة الأسرية التي تنشأ من ارتباط شرعيّ بين رجل وامرأة أو أكثر، بضوابط محددة.

أمّا النظام الغربي فيقوم سياسياً على النظام الديموقراطي، الذي يكون فيه حق الاختيار والترشيح مشاعاً على أساس المواطنة، واقتصادياً على أساس الملكية المطلقة الحرة دون قيد، إلا فيما يحمى مال الفرد من التحايل والاغتصاب، واجتماعيا على أساس الفردية لا الأسرية، مع حق تكوين «الأسرة» من أفراد من جنس مماثل أو مخالف.

وقد ترتب على كلّ نظام، مرجعيات فكرية، عقدية واجتماعية، وطرق للمعاملات وعادات وتقاليد، تختلف أشد الاختلاف، وتتباين كل التباين بين النظامين. هذا الاختلاف والتباين قد دعمته عوامل كثيرة، على رأسها عامل الولاء والبراء لدي المسلمين، والجهل المتبادل بين طبيعة شعوب الشرق والغرب ووسائل حياتهم.

والمحلل للأوضاع السياسية في عالم اليوم عليه أن يكون دقيقاً في اعتبار الاوضاع الاجتماعية، لشدة العلاقة بينهما. ذلك أن العصر الحاضر قد ربط ربطا مباشراً بين منظمات العمل المدني التي تمثل عامة الشعوب، بالعمل السياسي. وهو أمر جعل الحكومات في الغرب تعمل حسابا لها من زاوية إنها تراقب تصرفاتها، وتفضحها، في كثير من الآحيان، بينما هي تعمل لصالحها بالكلية في الشرق المسلم.

وهذا يجرنا إلى وجوب اعتبار الفرق بين الحكومات عامة[١]، شرقية وغربية، وبين الشعوب عامة، شرقية وغربية. فالحكومات كلها بلا استثناء، تقوم على عداء لشعوبها بشكلٍ أو بآخر، وإن اختلفت في صور هذا العداء. كما تقوم على المصالح الشخصية لأعضائها، في مقابل أبناء الشعوب شرقية وغربية. فالجامع المشترك هو الخديعة والمكر وعلو المصلحة الشخصية والاستغلال. لكنّ الغرب، نظراً لطبيعة أفراده التي وصفها رسول الله صل الله عليه وسلم في حديث عمرو ابن العاص أدق وصفٍ، لا يصلح معهم القهر والعنف، فلجأت الحكومات إلى الحيلة والخديعة والكذب والإعلام الموجّه. بينما الشرق المسلم، لم يحتج حكامه لكثير من ذلك، فقد وظفوا الجهل والخديعة كما في الخليج، والعنف والقتل والاعتقالات في بقية بلدانه. وهذا النظر سيساعدنا في تحليل ما سيأتي من فصول إن شاء الله.



[١] راجع مقالنا «بين الحكومات والشعوب – نظرة شرعية واقعية»
http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-72834

الجزء الثاني

(٤) من العدو الأصلي ومن الثانوي في تلك المواجهة؟

يتبين مما قدمنا، أنّ الغرب الاستعماريّ كانت، ولا زالت له مصالح كثيرة في بلاد المسلمين، تجعله، من الوجهة الاسلامية والقومية، عدوا لدوداً. لكن ما يجب أن نجيب عنه هنا، هل الغرب، وأقصد حكوماته، هو العدو الوحيد، أو العدو الأول والأصيل؟

الحق أنّ هناك عدوٌ مماثل، إن لم يكن أشدّ خطورة من الغرب، للمسلمين، ألا وهو حكامه وحكوماته. فإن العدوان الغربيّ على بلاد المسلمين، سواء كان عسكرياً أو ثقافيا أو اقتصاديا أو اجتماعياً، أو مجتمعٌ من هذا كلّه، لم يكن ممكنا إلا بتدبير وتعاون وثيق من الداخل. لم يكن ممكنا إلا بوجود رؤوس تدير تلك البلاد، لعبت بها الخيانة والعمالة والغدر، وحب السلطة، وكراهة الدين، ما جعلها أداة طيّعة في أيدي المعتدي الأصيل، فشاركته في الأصالة، بل تفوقت عليه في هدم الإسلام وقتل دعاته وترويع أهله ونهب ثرواته ومعاداة أوليائه وموالاة أعدائه وحجب شريعته والطعن في علوه ورفعته. هؤلاء هم حكام المسلمين اليوم، ومنذ قرنين من الزمان، بداية بمحمد على باشا الكبير في مصر، وتبنيه للاستشراق الفرنسيّ، وآل سعود مع المحتل البريطانيّ، حتى السيسي كلب اليهود المدلل، مروراً بكلّ من عرف التاريخ الحديث من حكام بلا استثناء.

هذا قَدْرٌ لا محاجة فيه.

إذن، فالعدو الأصليّ، ليس بالضرورة هي الشعوب الغربية. بل تلك الشعوب هي محلّ الدعوة الإسلامية. وهل اعتبر عمرو بن العاص وقتيبة بن مسلم وموسى ابن نصير وأضرابهم الشعوب المفتوحة أعداء لهم؟ لا، بل كانوا يرونهم كفاراً لا يؤمنون بالله تجب دعوتهم إلى الله، بتهيئة القوة أو ما يمكن لتحقيق الغرض حسب الزمان.

وما نراه هو أنّ هذه الشعوب، كأفراد، تحتاج إلى جهد عظيمٍ، لا تقدر عليه إلا حكومة إسلامية مركزية، لتنشر الدعوة في تلك البلاد، وتزّيف ما تقوم به حكوماتهم من تشويش

وإضلال وإفساد لمعاني الاسلام وترويج مفاهيم مثل الارهاب والتخلف وقمع المرأة، لمنع الرؤية عن شعوبها، إلا ما كان من جهود فردية لسنا بصدد الحديث عنها.

فالعدو هنا هي الحكومات، التي تمتطي ظهور أبنائها، شرقاً وغرباً، وتجنّد الجنود، وترسل العتاد، وتميع القضايا، وتدير المؤامرات، لصالح تدمير الإسلام وأهله، وإبقائهم عبيداً للاقتصاد الغربيّ، الذي يصب في صالح حفنة من كبار أصحاب رؤوس الأموال، وإبقاء شعوبهم راضية خانعة قانعة في الغرب، أو مطحونة مقهورة ذليلة في الشرق.

والعدو، إما قريب وإما بعيد. والعدو الأقرب، واليد المنفذة هو الأولى بالاستئصال من العدو البعيد، حتى إن كان هو داعمها ومصدر قوتها. فالعاجل قبل الآجل، والأقرب قبل الأبعد، وقطع اليد يترك العقل المدبر بلا قدرة على التنفيذ. من هذا الباب، فقد كانت وجهة نظرنا، على الدوام، هي أن العدو الأولى بالمواجهة هو العدو الداخلي، أي الحكام والحكومات، والملوك والأمراء، وجيوشهم ونظم أمنهم ومخابراتهم. هؤلاء هم الصائل الحقيقي المباشر. هؤلاء هم من يسمح للعدو الخارجيّ بالتدخل وإعاثة الفساد في الأرض. يستخدمون أجواء بلادنا بإذنهم، وأرضها لقواعدهم بتصريحات منهم. والخليج كله شاهدٌ على ذلك، خاصة مستعمرة اليهود الكبرى، دويلة الإمارات الصهيو-عربية، بلد العهر والفجور، وحماية الفارّين من العدالة من قاتلي الشعوب وأعداء الدين.

(٥) ما هي حدود المواجهة؟ وما عوامل تصعيدها؟

تتخذ المواجهة بين الشرق والغرب، أو بين الإسلام، كقوة ذاتية حضارية قائمة، وبين الغرب كحضارة معاصرة قاهرة، الشرق الأوسط، وغرب الدولة الفارسية في أفغانستان السنية حلبة لها، باختيارها ألا،ونتيجة عدم وجود دولة مركزية تدافع عن الإسلام، وتسخير الجيوش العربية لقهر المسلمين داخليا. لذلك يرى المتتبع للتاريخ أن المواجهة قد تحولت من عسكرية في عهد نابوليون، إلى ثقافية حتى أواخر القرن التاسع عشر، ثم عسكرية حتى منتصف القرن العشرين، ثم ثقافية حتى نهاية القرن العشرين ثم عادت عسكرية مع بدايات القرن الحادي والعشرين.

وهذا التغير في أساليب المواجهة، قد قام على عوامل عدة، منها، قوة سيطرة الحكومات المحلية العميلة أو ضعفها، ومنها الاحتياج إلى وجود قوى عسكرية في المنطقة لحماية مصالح معينة، ضد الكتلة الشيوعية سابقا، أو لحماية مصادر النفط لاحقا. ولهذا نرى تسارع التدخل العسكريّ تحت مسمى الارهاب منذ أواخر القرن العشرين في حرب الخليج الأولى لضعف دول الخليج عن مواجهة صدام، ثم أوائل القرن الحاليّ بعد سقوط أفغانستان في يد طالبان ثم تسارع أشد في حرب الخليج الثانية، ثم بعد ظهور ما أسموه بالربيع العربي، والذي كشف ضعف الحكومات العميلة، مما أدى إلى التدخل العسكري الغربيّ.

لكن أرض الصراع لم تتغير، وهي أرض المسلمين. واليد المنفذة المانحة لسلطة التدخل هي دائما أولئك الحكام الخونة ملوكا وأمراء ورؤساء.

فالعدو الصائل الأصلي، حالياً وعملياً، هو هؤلاء الخونة ملوكا وأمراء ورؤساء، الذين يعملون أصالة ضد شعوبهم ونيابة عن الغرب.

(٥) ما نوعية المواجهة الواجبة في كلّ حالة على حدة؟

من هذا المنظور، فإنه من الأفضل، والأكثر عملية، أن يبدأ التغيير في منظومة العدو بالقضاء على المنفّذ، وقطع اليد المعينة على العدوان، كأولوية مطلقة. ولن يكون ذلك بتبني مفاوضات عقيمة تُملى شروطها على المتفاوضين قبل وصولهم لطاولة المفاوضات، أو تبني سياسات مثل «سلميتنا اقوى من الرصاص» أو «المشاركة لا المغالبة» وهذا اللون من ترهات الإخوان، ووليدتهم السرورية، الناشئة عن انحرافهم العقدي الأصيل، فإن القوة هي ما يستخدمه الصائل الداخلي، من حكومات العرب على وجه الدوام.

والقضاء على تلك الأنظمة العميلة يستلزم وعياً بالإسلام عند الشعوب، وبتغير شكل المواجهة وطبيعتها حسب ظروف كل دولة، وطبيعة الحاكم المسيطر.

فمن الدول ما لا يصلح فيها المواجهة المسلحة كمصر، لطبيعة شعبها، بل يلزم في المواجهة أسلوب الحشد الجماهيري المدعوم ببعض القوة المُعينة له. وهناك وسيلة المواجهة

المسلحة الكاملة، كما هو الحال في الشام وليبيا. وهناك ما قد يصلح فيه الطريقان معا كما نحسب الحال في تونس والجزائر إن وفق الله أبناءهما.

وقد انقسم المجاهدون إلى أنواع عدة في استراتيجيتهم نحو المواجهة، على النحو التالي:

فطالبان، آثرت حصر المواجهة داخلياً وانهاء الاحتلال بأنواعه، روسي وأمريكي، وهو أمر في غاية الحنكة والذكاء السياسي، فلن نقف طويلاً عندها.

والقاعدة خالفت في ذلك بعد انتهاء الاحتلال الروسي وبداية الغزو الأمريكي، فتبنت عمليات ضد الغرب في أنحاء مختلفة من العالم. ولكن الأمر الذي أراه، كمحلل سياسي، أنّ منهج القاعدة قد تغير. ذلك أن منهج عولمة الجهاد قد تغير بذاته في فكر قادتها.

فعولمة الجهاد لها منظوران: أولهما أن يقوم تنظيم معين بعمليات جهادية هجومية (لا أسميها عسكرية من حيث إن العملية العسكرية لها طبيعة مواجهة مختلفة). والمنظور الثاني هو أن يكون للتنظيم فروع في بلاد مختلفة، لها صفة المركزية، تقوم بدفع الصائل في بلادها، ولكن عملياتها محسوبة على التنظيم الأم. فهي ليست عولمة في حقيقة الأمر، لكنها دفع صائل محليّ يشبه العولمة، فيختلط الأمر على الباحث أو المحلل وينسبه إلى المنظور الأول، وما هو منه. وإذا نظرنا إلى عملية القاعدة مثلاً في باريس، نجدها تختلف عن عملياتها في اليمن ضد المدمرة الأمريكية يو إس كول عام ٢٠٠٠، وعملية القنصلية الأمريكية في كراتشي ٢٠٠٢، أو غيرهما، في أوائل العقد الماضي. فعملية باريس هي ردّ محدود الغرض على صحيفة بذاتها، لا دخل لها بعلاقات أمريكية، بل هي انتصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يمكن أن تُحسب على منهج الجهاد من المنظور الأول.

وما أحسبه، وهو ما دونته في مقال لي عن تغيير فكر القاعدة، هو أن القاعدة قد احتفظت بكلمة العولمة، ثم انتهجت المنظور الثاني لها، وهي أقرب ما يكون إلى المحلية في دفع صيال الحكومات، كما في تنظيم القاعدة في الجزيرة أو في المغرب العربي. فهي تنظيمات أقرب للمحلية من العالمية، سواء في مركزيتها، أو تكوينها أو أهدافها.

ما أظن هذا إلا من جراء ما رأي الشيخ المؤسس أسامة بن لادن من دور الحكومات العميلة في تحطيم آمال الشعوب، وأدرك، والشيخ الظواهري أنّه يجب أن يكون التركيز على تلك الحكومات أولاً، وادخال الحاضنة الشعبية في المعركة ثانياً.

ثم **تنظيم الدولة**، وهو تنظيم حروريّ خارج عن فكر أهل السنة أصلاً. وليس له استراتيجية محددة، فما أن تصبه هزيمة على الصعيد المحليّ، يخرج بعملية أو اثنتين في أوروبا لتقوية ودعم أنصاره وإبقاء هيبته. فليس لهذا التنظيم استراتيجية تتحرك بدافع إسلامي سنيّ أصلاً، إلا لمصلحة القائمين عليه من بعثيين أو منحرفين.



الجزء الثالث

عولمة الجهاد

ثم نعود لنتابع ونؤكد ونفصّل على النقطة الأخيرة التي طرحناها في الجمل السابقة عن معنى عولمة الجهاد، وتصوره، فهو، كما أحسب، لبّ هذا البحث وأساسه.

قلنا أنه يمكن أن ينظر المحلل الباحث إلى عولمة الجهاد من مناظير مختلفة، كلا مطبقة على أرض الواقع، بشكل أو بآخر.

المنظور الأول: هو أن يتبنى تنظيم ما، ضرب المصالح الغربية عامة، في كل بلاد الدنيا، شرقاً وغرباً، ما مكنته إمكاناته لذلك. ويكون هذا المقصد هو حجر الأساس في فكر وعمل التنظيم. وهو ما كان عليه فكر القاعدة حتى ما بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١. وقد ظهر هذا التوجه كرد فعل على غزو العراق الأول في التسعينيات، واستمر إلى ما بعد سقوط طالبان في أوائل ٢٠٠٢ عقب لغزو الأمريكي لأفغانستان. لكن من الظاهر أنّ هذا التوجه، قد تغير بعد عام ٢٠١١، حيث اقتنع الشيخ أسامة رحمه الله بألوية حرب العدو الداخلي، وكان بداية ذلك ما تم من بيعة أبي مصعب الزرقاويّ للقاعدة، حين أعلن تنظيم التوحيد والجهاد في العراق، التي كان من شروطها حرب النظام الرافضيّ ودفع الصائل الغربيّ داخل العراق، وكانت جلّ عملياته ضد النظام المحليّ. ثم تحول خطاب الشيخ أسامة رحمه الله إلى دعم الحركات الجماهيرية في البلاد العربية، حتى إنه دعى إلى إقامة مجلش شورى يعينهم على إنجاح هذه الحركات.

المنظور الثاني: وهو أن تقوم جماعات محلية، في البلدان المختلفة، قدر الإمكان، تعمل على مواجهة النظم بكل وسيلة ممكنة، والعمل على إسقاطها، إما بمساعدة القوى المحلية، أو بضربات نوعية تهدف لخلخلة النظام وأعوانه، ومنهم ما قد يكون من قوى غربية داعمة، عسكرية أو سياسية «استشارية». وهذا اللون من المواجهة هو عولمة بمعنى آخر، ليس فيه نقل الجهاد إلى أرض الغرب، بل بمعنى أن يكون للتنظيم فروع في كلّ

أرض مسلمة ما أمكن. ولا شك أن ما ورد في وثيقة «توجيهات عامة للعمل الجهادي» للشيخ د الظواهري، تلك الوثيقة بالغة الأهمية، في بنديها ٨ و ٩، عن وجوب التحذير من أية تفجيرات في المساجد أو التجمعات المسلمة، ومن الواضح أن قوى الغرب لا يمكن أن تكون متواجدة بالأصالة في هذه الأماكن، فالتحذير إذا موجه لمن يعمل ضد الأنظمة، وإلا لم يكن له فائدة تُذكر.

ولعل لقائل أن يقول إن هذا التحليل يناقض ما جاء صراحة في تلك الوثيقة، التي تنص في بندها الثالث على تجنب الصدام مع الأنظمة المحلية. فأقول وبالله الوفيق، نعم، لعل هذا هو الموقف الرسميّ للقاعدة، وهو الموقف التاريخي لها، لكنّ ما على الأرض قد يخالف هذا النصّ، بما رأيناه من تبني القاعدة لمنهج الثورات الجماهيرية الشعبية، واعتبار الحاضنات الشعبية كمصدر لوقودها وجنودها.

وما أراه هنا، هو أن القاعدة، قد تحولت، عملياً، من المنظور الأول في العولمة إلى المنظور الثاني تدريجياً منذ ٢٠٠٦، حين وافقت على انضمام الزرقاوي رحمه الله لها، وتمثيله لتنظيمها في العراق، وإلا فأين العمليات التي نفذتها في بلاد أوروبا أو أمريكا، بعد أحداث مدريد عام ٢٠٠٤ ونفق لندن في يوليو ٢٠٠٥؟ كلّ ما حدث بعد هذين الحدثين، كانت تصرفات فردية لا يمكن أن تُحسب على تنظيم ما.

المنظور الثالث: وهو المنظور العبثي التي يروج له تنظيم الدولة الحروري. وهو ليست عولمة حقيقية تهدف إلى التأثير على أمريكا للخروج من الغرب، أو على أوروبا لتغيير سياساتها. بل هي مجرد هجمات لسببين: أولهما، تحسين منظرها أمام أتباعها، والثاني لمنافسة القاعدة ليس إلا، مثل حادث محل المجوهرات في باريس عقب هجوم تشارلي أبيدو. وهو كما قلنا، ليس عولمة بحال، بل هو مصلحة شخصية لتنظيم يريد التنفّذ في الأرض.

(٦) ما مدى المصلحة في توسيع رقعة المواجهة؟

المقصد الرئيس في أي عمل إسلاميّ، فرديّ أو جماعيّ، شعائري أو شرائعيّ، هو جلب مصالح العباد، على أتم وجه، ودرأ المفاسد عنهم في الدنيا والآخرة. وحيثما وُجد

الحكم الشرعيّ الصحيح، وقعت المصلحة، وتخلفت المفسدة. وهذا هو الوجه الصحيح الموافق للكتاب والسنة، لا كما يروج البعض مما جاء عرضا في نقول بعض الأولين من أنه حيثما وُجدت المصلحة وقع الحكم الشرعيّ. والفارق بينهما دقيق وكبير. فالوصف الثاني يضع المصلحة أولاً، وهذا حقّ من جهة مقصد الشارع، بلا شك. ولكن الوصف الأول هو الأحق بالاتباع من جهة تصرّف المُكلّف. إذ يجب علي المكلفين تعيين الحكم الشرعي بأدلته الصحيحة، ومن ثم يمكن التعرف على المصلحة كتابع لا كمتبوع. فيجب الانتباه إلى ذلك، فكم وقع من عدم التفريق بينهما من مخالفات أدت إلى تأخير نصرٍ، أو تضييع حقٍ.

وهناك عدد من القواعد الشرعية والمفاهيم التي تقع تحتها الأحكام المتعلقة بهذا الشأن، شأن توسيع رقعة المواجهة، بعد أن وصلنا إلى نتيجة أن:

١. العدو الأول والأصيل هم الحكام العرب ونظمهم وجيوشهم.

٢. المواجهة تتم أصلاً على أرض المسلمين في عقر دارهم.

من تلك القواعد والمفاهيم أنّ:

- «التكليف منوط بالقدرة»، فالانسان لا يُكّلف بما لا يقدر عليه «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها»
- الطلب الشرعي درجات عديدة، إيجابا وندبا وإباحة. والإباحة أنواع منها التخيير متساو الطرفين ومنها العفو ورفع الجناح، وتتغير صفة الطلب بين الفرد والجماعة.
- دفع المضرة مقدم على جلب المصلحة، ودفع المضرة القريبة منها أولى من دفع البعيدة، والأعظم منها فالأقل.
- مفهوم العام منه ما هو عام بإطلاق، وعام مخصوص، وعام يدخله الخصوص. وكلّ من هذه الأنواع قد تختلف في خطاب الفرد عنها في خطاب الجماعة.

- قاعدة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» ليست على إطلاقها. فالعموم الوارد على النص المخصوص يمكن تخصيصه والاستثناء منه، وأقرب مناطاته هو سبب نزوله، فيلحق في النظر أولا بما شابهه[١].

فإذا نظرنا في آيات الجهاد، خاصة في سورة التوبة، سورة الجهاد، لوضح ما نقصد اليه في الفقرات التالية إن شاء الله.

---

[١] قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب تعني عامة أنه إذا جاء حكم في القرآن لسبب معين أو بصدد ششخص معين فهو لعامة المؤمنين، لا يقال هو صحيح في هذا الموضع لهذا الشخص. مثال قوله تعالى لأمهات المؤمنين «ولا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه حرج» فهذا عام لكل النساء لا يقال أن بقية نساء المسلمين يمكن أن يخضعن بالقول وأن يطمعن الرجال فيهن. وهذا يعطى القرآن العموم والش1ول لكل المكلفين..

لكن كلّ عموم فيه تخصيص أي إخراج لبعض صور منه من الهيئة العامة مثال حكم المطلقات العدة ثلاثة أشهر وشرا ... لكن مخصوص في حالة الحمل فعدتها وضع الجنين ولو بعد أسبوع واحد، لأن برءاة الرحم مضمنة. وكلّ عام في القرآن في مجال الفقه له مخصصات كما قال الشافي «ما من عام في القرآن إلا وخّصص».

وهناك ثلاثة انواع من العموم كما أوردها الشافعي في الرسالة: الأول العام الذي لا خاص فيه مثل «إن الله على كل شئ قدير، والعام الذي يدخله الخصوص، وهو كمثال المطلقات السابق ذكره، والعام المخصوص وهو الذي صورته العام ولكنه مخصوص بأصل وضعه رغم ان فيه عموم مثل «القرية الظالم أهلها» فمعلوم أن أهلها لم يكونوا كله ظالمون بل فيهم صالحون، لمنها جاءت بشكل عام وإن حملت التخصيص، كذلك «حتى إذا أتيا قرية استطعما أهلها» ومعلوم أنهما – موسى والخضر – لم يسألا كل فرد فيها ... ففيها خصوص مع التعميم. يمكن أن تقول عنه built it! :)

وما قصدته هنا في جملتي هو ذلك النوع الثالث لأنه يخفى على الكثير، من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه حين نطبق عموم اللفظ فإنه لا يمكن إخراج مناطه الصلى أو الواقعة الصلية التي نزل فيها من صور الحكم، يعنى يقال هذه الآية لا تختص بظلم .. أو لم يستطعما أحد، لأن ذلك هو السبب الأصليّ في عمومها المخصوص. وهناك من يتحدث عن آيات الجهاد، منها ما نزل من النوع العام الثالث، فيجعله إما من الأول، أو يستثني منه الشكل الأصلي، مثل موضوع قتل النساء والصبيان

الجزء الرابع

انتهينا في الجزء الثالث إلى أنّ «هناك عدد من القواعد الشرعية والمفاهيم التي تقع تحتها الأحكام المتعلقة بهذا الشأن، شأن توسيع رقعة المواجهة، بعد أن وصلنا إلى نتيجة أن:

٣. العدو الأول والأصيل هم الحكام العرب ونظمهم وجيوشهم.

٤. المواجهة تتم أصلاً على أرض المسلمين في عقر دارهم.

من تلك القواعد والمفاهيم أنّ:

- «التكليف منوط بالقدرة»، فالانسان لا يُكّلف بما لا يقدر عليه «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها»
- الطلب الشرعي درجات عديدة، إيجابا وندبا وإباحة. والإباحة أنواع منها التخيير متساو الطرفين ومنها العفو ورفع الجناح، وتتغير صفة الطلب بين الفرد والجماعة.
- دفع المضرة مقدم على جلب المصلحة، ودفع المضرة القريبة منها أولى من دفع البعيدة، والأعظم منها فالأقل.
- أن مفهوم العام منه ما هو عام بإطلاق، وعام مخصوص، وعام يدخله الخصوص. وكلّ من هذه الأنواع قد تختلف في خطاب الفرد عنها في خطاب الجماعة.
- أن قاعدة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» ليست على إطلاقها. فالعموم الوارد على النص المخصوص يمكن تخصيصه والاستثناء منه، وأقرب مناطاته هو سبب نزوله، فيلحق في النظر أولا بما شابهه[١].

---

[١] قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب تعني عامة أنه إذا جاء حكم في القرآن لسبب معين أو بصدد ششخص معين فهو لعامة المؤمنين، لا يقال هو صحيح في هذا الموضع لهذا الشخص. مثال قوله تعالى لأمهات المؤمنين «ولا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه حرج» فهذا عام لكل النساء لا يقال أن بقية نساء المسلمين يمكن أن يخضعن بالقول وأن يطمعن الرجال فيهن. وهذا يعطى القرآن العموم والشاول لكل المكلفين..

نظرة شرعية

يجب على الدارس للشريعة، والفقه بوجه خاص أن يحدد المجال الذي ينظر فيه، حتى لا تختلط عليه الأحكام. وفي مسألتنا هذه، نود أن نشير إلى أن هناك فرق عظيم بين الآيات القرآنية التي تتحدث عن الإسلام والكفر، ضوابطهما ومعانيهما وحدودهما من ربوبية وألوهية وصفات الله عز وجل، وأبواب الولاء والبراء، وبين آيات الجهاد التي تختص بقتال من تمّ توصيفهم بالكفر حسب الآيات الأولى، أحوال الجهاد وأنواعه وضوابطه ومناطاته. وقد ذهب كثير ممن ابتلينا بهم في عصرنا هذا، خاصة من الحرورية، إلى الخلط بينهما، فعمموا الخاص، وأطلقوا المقيد، وخلطوا المناطات، وهي من أهم صفات أهل البدع، ومُعرِفات الفِرَق. فإذا بهم يذهبون إلى أنّ «كلّ كافر يقاتل ويقتل، إن قُدر عليه، في أي مكان أو حالة، سواء في جهاد طلب أو دفع صائل». ثم لم يفرقوا بين آيات الجهاد التي نزلت في جهاد الطلب، كما سنرى، مثل التوبة وآيات القتال في البقرة، بعد الحديبية، والذي هو من باب جهاد الطلب،

لكن كلّ عموم فيه تخصيص أي إخراج لبعض صور منه من الهيئة العامة مثال حكم المطلقات العدة ثلاثة أشهر وشرا ... لكن مخصوص في حالة الحمل فعدتها وضع الجنين ولو بعد أسبوع واحد، لأن برءاة الرحم مضمنة. وكلّ عام في القرآن في مجال الفقه له مخصصات كما قال الشافي «ما من عام في القرآن إلا وخّصص».

وهناك ثلاثة انواع من العموم كما أوردها الشافعي في الرسالة: الأول العام الذي لا خاص فيه مثل «إن الله على كل شئ قدير، والعام الذي يدخله الخصوص، وهو كمثال المطلقات السابق ذكره، والعام المخصوص وهو الذي صورته العام ولكنه مخصوص بأصل وضعه رغم ان فيه عموم مثل «القرية الظالم أهلها» فمعلوم أن أهلها لم يكونوا كله ظالمون بل فيهم صالحون، لمنها جاءت بشكل عام وإن حملت التخصيص، كذلك «حتى إذا أتيا قرية استطعما أهلها» ومعلوم أنهما – موسى والخضر – لم يسألا كل فرد فيها ... ففيها خصوص مع التعميم. يمكن أن تقول عنه built it! :)
وما قصدته هنا في جملتي هو ذلك النوع الثالث لأنه يخفى على الكثير، من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه حين نطبق عموم اللفظ فإنه لا يمكن إخراج مناطه الصلى أو الواقعة الصلية التي نزل فيها من صور الحكم، يعنى يقال هذه الآية لا تختص بظلم .. أو لم يستطعما أحد، لأن ذلك هو السبب الأصليّ في عمومها المخصوص. وهناك من يتحدث عن آيات الجهاد، منها ما نزل من النوع العام الثالث، فيجعله إما من الأول، أو يستثني منه الشكل الأصلي، مثل موضوع قتل النساء والصبيان ...

وبين ما نزل في دفع الصائل وقتاله، الذي هو من باب دفع الظلم وردّ العدوان.

ففي الآيات المختصة بتحديد التوحيد ومعاني الاسلام والكفر، جاءت آيات كثيرة جداً، تصف الأعمال المكفرة، في أعلى مناطاتها[١]، وخاصة في سورة المائدة، التي نزلت بعد الحديبية، مثل «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون»[٢]، و«أفحكمَ الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكما لقوم يؤمنون»[٣]، و«ومن يتولهم منكم فإنه منهم»[٤] و «قد كان لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا بُرآء منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده»[٥]، و»يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم»[٦].

أما أحكام الجهاد، فقد تركزت في سورتي الأنفال والتوبة، وأسموهما القرينتين[٧].. وبعضها مما نزل قبلها بقليل في البقرة، ففيهم مسائل:

إذا نظرنا في آيات الجهاد، خاصة في سورة التوبة، أو الفاضحة كما أسماها ابن عباس، والتي تنزلت بعد فتح مكة، وكانت آخر سورة نزلت في القرآن[٨]، لوجدنا فيها مسائل عديدة تتعلق بموضوعنا هذا:

---

[١] آيات القرأن لا تأتي إلا بأعلى المناطات في صفات المؤمنين والكافرين والمنافقين، وتُبينّ السنة ما بين ذلك من المناطات. راجع الموافقات ج٣ كتاب الأدلة، المسألة السادسة ص ٠٤١، طبعة دار المعرفة ٥٧٩١

[٢] المائدة ٤٤، وقد بيّنا في عدة أبحاث موضع قول ابن عباس «كفر دون كفر» فارجع اليها، منها ما ورد في الطبري بتفسير أحمد ومحمود شاكر ج ٠١ ص ٥٤٢ وبعدها، طبعة دار ابن الجوزي

[٣] المائدة ٠٥

[٤] المائدة ١٥

[٥] الممتحنة ٤

[٦] الممتحنة ٣١، وفيها بيان أن موالاة الكافرين من أمور التوحيد التي لا تحل ولا في الضرورة.

[٧] انظر القرطبي ج ٨ ص٣، طبعة المكتبة العربية ٧٦٩١

[٨] انظر التحرير والتنوير ج ٠١، ص٥، طبعة مؤسسة التاريخ

١. آيات الجهاد العام وإعلان النفير، وردّ عهود المشركين، الذين لم يعاهدوا، أو استيفاء عهود من عاهد إلى أجلها دون تجديد، تم بعد استقرار دين الله بالتمام، وإتمام التمكين للإسلام في مكة والمدينة، وغالب قبائل الجزيرة من حولها «فسيحوا في الأرض أربعة أشهر وأعلموا أنكم غير معجزي الله»[١].

وهذا أمرٌ يجب النظر فيه بتمعن وتمحيص. فإن كافة تلك الآيات القادمة نزلت بعد التمكين، ومنها بعد فتح مكة، فتطبيقها على وضع المسلمين اليوم خلط في مناطاتها، لا يليق بعالم أبداً. كما أنها في جهاد الطلب، فأحكامها لا تتعلق بجهاد الدفع.

٢. قول الله تعالى «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» التوبة ٣٦ قال الطبري: «(وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)، فإنه يقول جل ثناؤه: وقاتلوا المشركين بالله، أيها المؤمنون، جميعاً غير مختلفين، مؤتلفين غير مفترقين، كما يقاتلكم المشركون جميعًا، مجتمعين غير متفرقين»[٢]. وقال القرطبيّ (أي محيطين بهم ومجتمعين)[٣].

وهذا المعنى غير متعارف عليه بين العامة وأنصاف المتعلمين، بل يعتقدون معناها أن قاتلوا كلّ المشركين، كما يقاتلونكم كلهم، فكافة تعود على المسلمين، لا على القتال، كما لو قيل وقاتلوا كافة المشركين». وهذا فرق دقيق حقيق بالاستيعاب. إذ قد أخذه من لا علم له وطار في الآفاق أنه يمكن ان نقاتل كافة المشركين في أي مكان.، في كل حال ووقت، وبأي وسيلة كانت.

٣. أمّا قول الله تعالى في البقرة «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا» ١٩٠ إلى قوله تعالى «وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم ألى التهلكة» ١٩٥، فقد نزلت

---

[١] التوبة ١

[٢] انظر الطبري ج ٤١ ص٢٤٢ طبعة دار ابن الجوزى

[٣] القرطبي ٨ ص ٦٣١

بعد الحديبية. فقد سبقها الحديث عن الحج وأحكامه «يسألونك عن الأهلة» ولحق بها الحديث عن الحج وأحكامه «وأتموا الحج والعمرة لله» ١٩٦.

٤. جاء في تلك الآيات الخمس من البقرة قوله تعالى «واقتلوهم حيث ثقفتموهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم»١٩١. جاء في القرطبيّ (رجلٌ ثقفٌ لَقْفٌ أي محكماً لما يتناوله من الأمور)[١].

فالمقصود هنا ليس ثقفتموهم أي وجدتموهم، كما يفهمه كثير من الناس، بل حيث يكون من الحكمة التي يدل عليها الُمقاتل الثقفُ، لا في أي مكان.، في كل حال ووقت، وبأي وسيلة كانت. فقد يكون من الحكمة قتالهم في بعض المواضع، وقد لا.

٥. قوله تعالى «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله»البقرة ١٩٣، جاء في القرطبي في تفسيرها (أمرٌ بالقتال لكل مشرك في كل موضع .. والحديث «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» .. فالآية والحديث على أن سبب القتال هو الكفر»[٢]. قلنا:

وكون السبب هو الكفر لا يعني أنّ كلّ كافر فرد في أيّ مكان يجب قتاله وقتله، فإن في هذه الآية إطلاق مُقيَّدٌ بالدعوة أولاً، وإلا فلا مجال للدعوة ابتداءً. كما أنه حكم للجماعة لا للفرد، إذ يجب على الجماعة المتمكنة أن تدعو ثم تقاتل حين القدرة.

٦. قوله تعالى «قاتلوا الذين يلونكم من الكفار» التوبة ١٢٣، فهي واضحة في أنّ الأول هو قتال الأقرب فالأقرب. قال القرطبيّ (فيه مسألة واحدة وهو أنه سبحانه عرفهم كيفية الجهاد وأن الابتداء بالأقرب فالأقرب من العدو)[٣]. قال الكبريّ (قاتلوا من وليكم من الكفار دون من بعُد عنكم)[٤].

---

[١] القرطبيّ ٢ ص ١٥٣، وورد نفس المعني في الطبري

[٢] القرطبي ٢ ص ٤٥٣.

[٣] القرطبي ج ٨ ص ٧٩٢

[٤] الطبريّ ج ٤١ ص ٤٧٥

وأما قوله تعالى «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلّ مرصد» التوبة ٩، ففيما أرى، أنها الآية الوحيدة في هذا السياق التي تدل على قتال الدفع، إلى جانب آيات دفع الظلم ورد العدوان. والأقرب في فهم «حيث وجدتموهم» أي في بلادكم، بدليل قوله تعالى بعدها «واحصروهم، قال القرطبيّ (يريد عن التصرف إلى بلادكم والدخول اليكم)[١]. ويقول الطبريّ (واحصروهم: يقول وامنعوهم التصرف في بلاد الإسلام ودخول مكة)[٢]. فالمعنى هنا هو أنه من رأيتم منه خطراً لغزوكم ودخول بلادكم فامنعوه، بكل وسيلة من الدخول. لكنّ هذه الوسائل، مرة أخرى، محكومة بما في سورة البقرة من نهي عن قتل الصبيان والنساء والرهبان والزَّمنى والشيوخ والأُجَراء[٣].

ثم إذا نظرنا في السنة النبوية، وجدنا أنّ جهاد الدفع حدث في أعلى صوره، في غزوة الخندق، التي وقعت عام خمسة من الهجرة الشريفة، ولم نر رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل مجموعات صغيرة «تنغمس» في المشركين المتآمرين على المسلمين، رغم علمه بما كان يدور بين قريش وغطفان وبني النضير بعد إجلائهم. فهذا جهاد دفع لا شكّ فيه. أمّا عن غزوة بني النضير في عام أربعة من الهجرة، التي سجلها القرآن في سورة الحشر، فقد كانت جهاد طلب، ولذلك حرّق رسول الله صلى الله عليه وسلم نخلهم لإضعافهم، وكانوا مجاورين له في أرض المدينة، ولم يُعرف أنه قتل أحد منهم.

مما تقدّم من نظر في الآيات القرآنية التي نزلت في خصوص الجهاد، وفي بعض أحداث السنة، نرى أنّها:

أولاً: نزلت بعد الحديبية والفتح، وهو وقت التمكين التام لرسول الله صلى الله عليه وسلم في جزيرة العرب بعامة، وفي مكة والمدينة بخاصة، دون وجود ما يهددهما من خارج.

---

[١] القرطبي ج ٨ ص ٣٧

[٢] الطبري ج ٤١ ص٤٣١

[٣] القرطبيّ ج٢ ص١٥٣

ثانياً: أنّ هذه الآيات تخص جهاد الطلب، وهو الفتح (الغزو لنشر الدعوة)، لا جهاد الدفع الذي يقع دون تمكين، وبأي وسيلة كانت لحصر المشركين عن التصرف في أرض المسلمين والاستيلاء عليها، مع مراعاة مقيدات الأمر بالقتال، كما ذكرنا مما تقدم في البقرة.

ثالثاً: أنّ هناك فرق بين جهاديّ الطلب والدفع، وهو حدود ما يمكن في كليهما، من حيث القدرة على الخروج للطلب والقدرة على دفع الصائل التي يتاح فيها كل وسيلة مقدور عليها في أرض الإسلام. وضرورة وجود التمكين في أحدهما دون الآخر.

رابعاً: التأكيد هو على أنه يجب إزالة العدو الأصليّ الذي عرّفناه فيما سبق بأنه حكام بلاد المسلمين وملوكها وأمرائها، بعد معرفة حكمهم الشرعيّ بالردة والكفر، فهم أولى وأقرب، طلباً ودفعاً، عند أيّ عاقل.

فإذا عرفنا الحكم الشرعيّ في هذا المحل، أمكننا أن ننظر إلى المصالح فيه والمفاسد، من حيث تتبع الحكم الشرعي بعد تحديده، لا العكس كما بيّنا.

والمصالح اليوم في اتباع الحكم الشرعيّ في التركيز على الأنظمة، دون عمل التفجيرات في بلاد الغرب الصليبية، متعددة، منها:

أولاً: عدم تشتيت الجهد وإضاعة المصادر في مثل تلك العمليات التي لم، ولن تأت بهدم تلك الأنظمة، إلا عند محدودي الخبرة بطبيعة تلك الدول وقدرتها وسياسات حكوماتها.

ثانياً: لمّا شحت المصلحة في مثل تلك الأفعال، فإنه يمكن القول أنّ عدم القيام بمثلها يجعل الحكومات الصليبية تلهث وراء مبرر أمام شعوبها لضرب المسلمين وغزوهم. ويقول قائل، هم لا يعدمون سبباً، قلنا، نعم، لكننا نجعله أسهل عليهم وأشد تأثيراً على قاعدتهم الانتخابية التي يخشونها أكثر مما يخشون إلههم! فمثلاً غزا بوش الصغير العراق بزعم أسلحة الدمار الشامل، التي ليس لها أصل، لكن قاعدته الانتخابية رفضت هذا الغزو، وسرعان ما

أعلنوا ذلك، وما كان قبولهم الأصلي إلا تأثراً بموضوع ١١ سبتمبر. بينما وقفت كل الشعوب الغربية مع حكوماتها الصليبية في ضرب «المجاهدين» باسم مقاومة تنظيم الدولة الحروري، رغم علم الحكومات أن المستهدف أولاً هم السنة، إلى أن ينتهي دور مغفلي الخوارج، فيعودوا عليهم بالدمار، كما هو حادث هذه الأيام. أمّا الشعوب، فهي لا تعرف فرقاً بين نصرة ودولة، ولا بين سنة وحرورية. فكانت أفعال الحرورية من قطع الرؤوس مشجعاً وضامنا للغزو الصليبي، ودعم بشار والسيسي.

ثالثاً: أنّ هذه الضربات لن تأتي بتدمير دولة من تلك الدول، ولو قتلت ألفاً دفعة واحدة. فما الغرض منها إذن؟ هو على أحسن تقدير، ردّ العدوان بعدوان، وشفاء صدور المؤمنين، الذين يرون أبناءهم وأهاليهم يقتلون في كل لحظة. لكننا نرى أنّ هذا الشفاء وإن كان مشروعاً إلا أنّ الجهاد لم يُشرع للإنتقام، بل لتحقيق غايات محددة، هي حماية أرض المسلمين أولاً، وفتح أرض غيرهم لنشر الدعوة ثانياً، حال التمكن.

رابعاً: أنّ مصلحة كسب الشعوب الغربية، أو جزء منها، ووقوفها ضد حكوماتها في عدوانها، أكبر فائدة من مقتل عشراتٍ أو مئاتٍ من الأهالي المدنيين، في حانات أو فنادق أو مطارات، رجالا ونساء وأطفالاً.

خامساً: تأتي إيران المجوس، وهي ما يلينا من أرض العدو، لم لا تكون الضربات والتفجيرات على أرضها؟ فهي الأقرب مما يلي المسلمين، وهم العدو الخارجيّ الأكبر خطرا وحجماً اليوم، من روسيا والغرب معا. كما أنها أصبحت حاكمة في بلاد المسلمين، في لبنان والشام والعراق، فمكافحتهم وحصرهم بأي وسيلة هو من باب دفع الصائل أصلاً.

الخلاصة:

ونخلص هنا إلى أنّ تلك الأحداث التي تقع في أوروبا أو أمريكا، ليست على النهج القرآنيّ للمتأمل الدقيق، الذي يجمع أطراف الأدلة، ولا يعتسف ولا يتحرى نتائج محددة، بل ينظر إلى الدليل كرائد متبوعٍ، ثم ينظر في مصلحة الأخذ به.

ومن هنا كذلك ننصح كلّ الجماعات، التي تتبني مثل هذه الأحداث، أن تفكر في عواقبها، وأن تدرس مآلاتها، وأن تتأكد من حكمها الشرعيّ. وما قدمناه في هذا البحث، قد يكون معينا وموجها في هذا الإطار.

د طارق عبد الحليم

١ أبريل ٢٠١٦ - ٢٢ جمادي ثاني ١٤٣٧



الطريق إلى فهم أقرب لحل المشكلة الإسلامية

(١)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

السؤال الأكبر الذي يراود كل مسلم، لا يزال فيه بقية إخلاص لدينه وولاء لربه، وقليل ما هم!، هو: كيف نعود للإسلام؟ كيف نعيد الإسلام إلى حياتنا؟ كيف نعيد إليه مجده ومكانته، من حيث هو حامل الحق الأصيل الأوحد في حياة البشر، وفي تاريخ الكون كله؟

والإجابة، على صعوبتها المفرطة، وتفرق شعبها وتعدد طرقها، لا تزال هي المطلوب الأول لهؤلاء النفر من المخلصين الباقين على عهدهم لربهم.

مفتاح الأمر هنا هو "تعدد طرق المعالجة". نعم، فإن من اعتقد أنّ اتجاها واحداً بذاته هو الذي سيتيح حلاً لمشكلتنا التاريخية، فقد أبعد النجعة، بل ربما ضلّ الطريق.

الجهاد، وحده، بالطرق التي مارسنا خلال الخمسين عاماً السابقة، لا أظنه يوصل، وحده، إلى النتيجة المرجوة من هدم أنظمة الطغاة، المستترين خلف جيوش مرتدة قوية ذات عدد وعدة. فالمجا.هدون، لهم إمكانات محدودة، عددا وعدة. وهم المطاردون، لا المرتدون. هذا بجانب ألوان الخيانة وتبديل الولاء من عدد كبير انتمى لهذا التيار ابتداءً، ثم شقّ عليه الطريق، أو ضاقت عليه السبل، أو هكذا توهم، ضعفا في إيمان وتخاذلاً في فداء، فكان أن انتشرت الوشاية، واتخذا العدو طابوراً خامساً داخل صفوف الحركات الجهادية، إلا ما شاء الله، ونادر ما هم. والشام أوضح دليل على ذلك، فهي أكبر ساحة، بلا منازع، عُرفت فيها الخيانة واستشرى الغدر وتبديل الولاء والعمل لصالح الأعداء، كما بيّنا في مقالات عدة سابقة.

ثم الدعوة إل إقامة التوحيد ونبذ الكفر والخروج على الطواغيت، بالكلمة واللسان، كما يفعل عدد من العلماء الربانيين، سواءً بكتب وأبحاث ومقالات مسطورة، أو تسجيلات صوتية منشورة، يبينون فيها الحق من الباطل، سلام البيان، كسلاح السنان، قويّ مؤثر،

بل كان هو الأول في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم "وجاهدهم به جهاداً كبيرا"، حين كان في مرحلة الضعف وعدم التمكين. لكنه، كما علمتنا السيرة النبوية، ليس بكاف وحده على التغيير، فالكلمات والسطور، لا تزيل طغاة وتهدم عروشاً، مهما كانت قوتها، ولذلك تحول الأمر الإلهي إلى الحل الأول بمجرد التمكن من إقامته بشكل صحيح نافع.

ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو يتعلق، خاصة في زمننا هذا، بتوجيهات محددة تتعلق بفروعٍ حياتية، يرى المسلم الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر إنها مما لا يصح السكوت عليه، بله الركون إليه، كما يحدث اليوم في كافة أنحاء الرقعة الإسلامية، لضعف النفوس، ولقلة الإيمان، ولشدة الجهل، ولقوة الطاغوت، ولهيمنة سحرة الإعلام. ولكن هذا الواجب الحتم، يعتبر جهداً فردياً، وتأثيره محدود بمحل ممارسته، أو الدائرة الضيقة حول من يمارسه.

ثم الدعوة السلبية، وأعني بها عدم بيان الخطأ والمنكر مباشرة، بل إظهار محاسن الإسلام، والحديث عن إيجابياته، وإيضاح تفوقه وعلو شأنه في توجيه حياة الفرد والمجتمع. وهذا الحلّ، وإن كان جزءاً من الصورة الأكبر لإمكانية التغيير، إلا إنه لا يمكن أن يقوم به تغيير وحده، فإن إظهار معايب الواقع، وعوراته، وكشف فضائحه وثغراته، هو الأسبق في هذا المضمار، وبغير هذا، فإن الغالب الأعم من البشر، لن يلتفتوا إلى ما دعوة إلى واقع فاضلٍ إلا إن شعروا بخطرٍ الواقع الذي هم فيه، فالنفس تفزع من الإحساس بالخطر، وتندفع نحو تجنب المفسدة أكثر كثيرا من طلبها للمصلحة.

ثم إنه يجب أن يكون معلوماً أنّ الإنسان لا يعمل على تغيير وضعه إلا إن شعر بالحاجة إلى ذلك، فهو إلى حب الاستقرار والبعد عن التغيير أميل، كما أنه عادة ما يدور بخلده أنه، نعم، هذا الإسلام، أو اتباع هذا النظام فيه محاسن مثيرة، لكن ما نحن عليه له محاسنه كذلك، فما الداعي إلى حلحلة الأمور، والدخول في معارك وسجالات، لا ندري مآلاتها!؟

ثم الدعوة الصامتة، وأعنى بها، أولئك الذين يحاولون نشر الإسلام بالمثال الحسن والقدوة المُتبعة، آملين أن الناس سيرون حسن تصرفاتهم ونبل أخلاقهم وترفعهم عن الدنايا، وإعانتهم للغير وحفظهم للود، وإلى كلّ ذلك من محاسن الأخلاق، فيميلون إلى الإسلام، ويدخلون فيه! وهذا بلا شك، رغم أهميته واتصاف المسلم بصفاته سواء كان من الدعاة أم لا، هو أبعد طريق إلى تحقيق تغيير في أي مجتمع. وهؤلاء الذين يعيشون وهم التغيير عن هذا الطريق، هم حالمون، بل عابثون في بعض الأحيان. فإن صلح هذا مع أفراد هنا وهناك، فلن يصلح على مستوى مجموعة أكبر بله مجتمع بأسره، فالأمثلة الحسنة، ظاهراً، موجودة في طوائف عدة كذلك، العاميّ لا قدرة له على التفرقة بحال.

هذه هي الأشكال التي يمارسها أكثر المسلمين من المهتمين بدينهم، الحريصين عليه، بشكلٍ أو بآخر. وكلّ منهم ينافح عن طريقته، على إنها المثلى، بما يتناسب مع فهمه الخاص للدين، وقدرته النفسية، ومدى إقدامه وأحجامه، ودرجة يقينه وإيمانه.

ولا أنكر أن كلّ هذه الطرق، هي جزء من الدعوة إلى الدين، وكلها لازم، على درجة ما، ليفوق الإسلام غيره، ويحوز على السبق والتمكين في مضمار الحضارة اليوم. لكن المسألة هي في ترتيب الأولويات، وإعطاء كلّ حلّ وتوجه حجمه، ومن ثم، مصادره وإمكاناته حسب ذاك الحجم وتأثيره في إحداث التغيير.

فعلام تتوقف اختياراتنا؟!

يتبع إن شاء الله تعالى

د طارق عبد الحليم

٨ سبتمبر ٢٠٢٠- ٢٠ المحرم ١٤٤٢

(٢)

من أهم الأمور التي يراعيها الناظر في إصلاح شؤون الناس، اجتماعيا أو خلقيا أو جسدياً، هو مناسبة الدواء للداء، كمّا وكيفاً. فمن الأدوية ما يزيد المريض هماً وتعباً، ومنها ما لا يؤثر فيه مطلقاً. وهذا أمر لا حاجة للاستطراد فيه فهو ثابتٌ عقلاً وعادة. ورهم الله شوقي حيث يقول

داويت متئداً وداووا طفرة ** وأخف من بعض الدواء الداءُ

ثم إنه يجب أن يكون في وعي الطبيب أو المربي أو الداعية أنّ الأمراض، خاصة الاجتماعية منها، مركبة متشابكة الأطراف، تمس كثيراً من مستقرات العادة وممهدات الفطرة، على مستوى الفرد والجماعة. فالخراب حين ينشر سمومه، لا ينشرها في عضو دون عضو، أو جانب دون جانب، بل تجده مسّ الكثير من الجوانب العقلية والخلقية، بل وتغلغل إلى البناء المنطقي البسيط للناس، فجعلهم عرضة لأخيب الحيل، وأتفه المؤثرات، يُصدقون ما لا يُصدّق، ويَتَّبعون من لا يُتبّع، إلا من الحمقى والمغفلين. ومن ثم، فإن ذلك الناظر المُعتني بحال الفرد أو المجتمع، عليه أن يدرك أن "تعدد الحلول والوصفات" هو أمر طبيعيّ مطلوبٌ، فلا يقف عند حلّ ما، مبنيّ على تصورٍ ما، ويتوهم أنه هو الحلّ، وهو الدواء، الذي لا غيره يصلح معه. وهذا، كذلك، أمر مشاهد في عالم العلاج الطبيّ، لا يعارض فيه عاقل.

كذلك من تلك الأمور الهامة، أن يكون الطبيب أو المربي أو الداعية على علمٍ تام بحال ما يتصدى إليه، جملة وتفصيلاً. فكم من مُعالج وصف دواء لغير المرض، أو تصرف بأقوال وأفعال لا صلة لها بحلّ القضية المطروحة.

وهذا يستتبع معرفة حال المريض معرفة دقيقة. هل يصلح معه دواءً يتعاطاه، أو يحتاج إلى جراحة تزيل ورما أو خبثاً، أو زرع أعضاء جديدة كلية، واستبدال الموجود الذي بات لا يصلح بالمرة لأداء مهمته.

وهذه الأمور، عند التأمل، تتصل ببعضها البعض، وتكمل بعضها البعض. فإن مناسبة الحل للمشكلة يستلزم معرفة تفاصيلها وحجمها وطبيعتها، ويصف من الحلول والأدوية ما يحتاجه الوضع ليغطي كافة جوانب الضعف والحاجة.

والنظر في تجربة المسلمين الفريدة، في عصرنا الحديث، والناظر في المحاولات العديدة، والحلول الشتى التي جربها المخلصون، سواء بحقٍ أو بباطلٍ، يرى أنّ أكبرها هو العمل بشكل "الجماعات" التي تتخذ الصفة "الإسلامية"، لتحقيق حلٍ أو أكثر مما سبق ذكرهم في أول المقال.

وهذا النظر سيقودنا، دون الدخول في تفاصيل كثيرة ذكرناها، وذكرها غيرنا من قبل، إلى التأكيد على الخلل الكبير في النظرية والتطبيق، التي قامت عليهما تلك الجماعات، على حدٍ سواء.

فإذا طبقنا هذه المبادئ الهامة على وضعنا الإسلامي، المريض أشدّ المرض، المكلومُ أشد الكَلْمِ، خرجنا ببعض أفكار قد تكون ذات أثر ومصداقية، في طريق البحث عن الهوية واستعادة السيطرة الذاتية.

وأحد الأخطاء الشائعة، التي أودت بكفاءة كلّ تلك الجماعات، وتركتها نهب الخسران والانهيار، هو أنّ القائمين عليها ظنوا، توهماً، أنّ طريقتهم هي المثلى، وأنها الطريق الأوحد إلى الحلّ الشامل! وهذا من شدة ضعف النظر والفقه في مسائل التقدم البشريّ والإصلاح العمراني. وحركة الإخوان دليل على ذلك، غير ما فيها من زلات أخرى عقدية وحركية.

ثم خطأ آخرٌ اصيل، وهو تبني حلٍ يقوم على جزئية شرعية واحدة، مقتطعة من سياقها التاريخي والفقهيّ.

فمسائل الاجتماع وأحوال البشر، في التصور الإسلاميّ، تقوم على أساس من اعتبار القرآن العظيم، والسنة المطهّرة، الذين استمر تلقيهما على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، واشتملا على آلاف من التوجيهات في كافة مناحي الحياة الإنسانية.

فلا يصح أن تُستقطع جزئية منها، حديثٌ أو آية، أو حدث في السيرة النبوية، ليكون منهجاً عاماً شاملاً. وحزب التحرير أو جماعة التبليغ مثال على ذلك.

وخطأ ثالث، وهو إهمال دور الفرد لصالح الجماعة، أو دور الجماعة لصالح الفرد. فالأفراد لهم خصوصيات قد تؤدي لقفزات نوعية في سبيل الحلّ الإسلامي المنشود، وسيد قطب رحمه الله مثال على ذلك. والجماعات لها فضلٌ في لمّ الشمل للعمل في اتجاه معينٍ مما يزيد من فرص التقدم فيه، وطالبان شاهدٌ على ذلك.

وخطأ رابع، وهو فقدان الرؤية والبعد عن الهدف، والذوبان في الكيان الجماعيّ، بعد فترة من الزمن، وهي فطرة بشرية تنشأ في أيّ تجمعٍ إنسانيّ. لكنها، في وضعنا هذا، فطرة معكوسة، تصيب القادة عادة، ثم أفراد التجمع ذاته، كأنها فيروس منتشر! والأمثلة على هذا في كافة ما يُسمى بالجماعات الإسلامية.

ثم الخطأ الأكبر في كلّ تلك الحلول المُطبَّقة، هو عدم الالتزام بالكتاب والسنة، ومنهج أهل السنة والجماعة، سواء في الفكر أو الحركة، النظرية أو التطبيق. فالالتزام بفهم السلف الصالح، وترك البدع والمستحدثات، هو أكبر تحدٍ للمسلمين، خاصة العاملين في مجال الدعوة. إذ إن انحرافهم بالدعوة درجة واحدة، يؤدي إلى انحراف من يتبعونهم عشرات الدرجات، فهي طبيعة الباطل في شقاقه مع الحق وانشقاقه عن الحق.

وهذه الأخطاء قد أدت إلى التنابذ والشقاق، والتعادي والتلاسن، وتقليل حجم المشاركة التي يقوم بها كلٌّ في مجاله، فبدلاً من أن نضيف قيمة المجهودات، الفردية والجماعية لنقترب بها من الحدّ المطلوب، صرنا نطرح من قيمة كلّ منها ما يهدمه الكيان الآخر، فإذا بنا نُسقِط أنفسنا بأيدينا!

فدعونا ننظر في أمرنا الواقع، نظرة فاحصة متأنية تحليلية، لنتعرف على المرض، وحجمه وطبيعته، مع استحضار طبيعة التغيير في المجتمعات الإنسانية عامة، ومجتمعاتنا خاصة، حتى نصل إلى نوع العلاج، وجرعته. فيكون سيرنا في هذا الطريق متئداً، متصفاً بالعلم، ومبنيا على التجربة.

وليصبر علينا القارئ العزيز، فإن هذا الأمر، يعلم الله، أجلّ أمر يتعرض له باحث في زمننا هذا، وهو ما شغل الفكر سنواتَ عدة، خاصةً العقود الأخيرة منذ بداية القرن الجديد، فكان الناتج ضروبا من التصورات، كلها تحمل شتاتا كثيرة مما ذكرنا. لكننا نأمل أن نتمكن من حياكتها معا، لتكون لباسا يقيناً غَوْلَ الحر وقَرْصَ البرد.

يتبع إن شاء الله تعالى

د طارق عبد الحليم

٩ سبتمبر ٢٠٢٠– ٢١ المحرم ١٤٤٢

(٣)

الوضع الحالي للمجتمعات الإسلامية:

كما ذكرنا آنفا، إن تشخيص الداء تشخيصا دقيقاً، هو علة تحديد الدواء الناجع المؤثر. فليس كلّ دواء بدواء!

وأمر المسلمين اليوم أمرٌ عسيرٌ شديد العسر، حسير شديد الحسرة، متشابك كلّ التشابك.

فالمسلمون، أولاً، محتلون داخلياً، بحكامهم التاركين دينهم، المرتدين عن إسلامهم ، والمدعومين بجيوش بُنيت لتقهر شعوبها، بكل وحشية وتجبر. ومن اعتبرهم خلاف ذلك كان كمن شخّص مريض السرطان، على أنه مريض المصران! فالألم واحد، ولكن شتان ما بين العلاجين.

والمسلمون محتلون ثقافيا وعقليا وحضاريا، إذ دخلوا جحر الضَبّ خلف اليهود والنصارى ، وساروا على سيرهم حذو القذة بالقذة، لا في العلم والتقدم، فهذا مجال غير مسموح لهم بدخول مضماره بله التفوق فيه! بل في المساخر والمعايب والمفاسد والملاهي، في اللباس والسماع والعهر والتعري، يعني في كلّ أفعال الجاهلية، بل أشدّ من جاهلية قريش نُكرا.

والمسلمون محتلون عسكريا في أكثر رقعهم على الأرض إما بشكل مباشرٍ كأفغانستان وسوريا والعراق وليبيا والصومال، أو في شكل قواعد عسكرية كالجزيرة ودول الخليج بلا استثناء.

والمسلمون محتلون، مغصوبة ثرواتهم في كل أنحاء بلادهم، إما بشكلٍ مباشر كما في الشام وليبيا، أو بالوكالة كما في مصر والخليج.

والمسلمون ساقطون عقدياً، إذ لم يبق من حقيقة الإسلام وفقه التوحيد عند الغالب الأعم، إلا النطق بالشهادتين، ومعرفة بعض الشعائر الكبرى، والقيام ببعضها، بعض الأوقات، من بعض الأفراد. وشاعت البدع والخرافات، والأفكار العلمانية، ودعاوى الغرب كالحرية للمرأة في التعامل مع جسدها، وحرية الفرد في اختيار نوعه، ذكر أو أنثى! (**sexual orientation**)! بل أُسست مواقع كبرى، مدعومة ببليونيرات يهود، وشبكات أخبار عالمية، باسم مواقع إسلامية، يتبناها أفراد علمانيون كفرة "مسلمون"، كموقع الملحدة التي انتُخبت عضواً في الكونجرس الأمريكي **Rashida Tlaib** رشيدة تليب، لعنة الله عليها، أو مؤسسات مثل موقع "يقين، المموّل يهوديا، والذي ينشر الغث في السمين، ويشيع أفكار العلمانية بين المسلمين في أنحاء العالم الناطق بالإنجليزية، باسم الإسلام ... والعلم!

والمجتمع المسلم، مدمّر في كافة نواحي الحياة، فلا دولة تحمى أفراده، ولا جيشاً يدافع عنهم، ونظاما اقتصادية أو سياسية تتيح لهم الارتقاء والتقدم. وتكاد تكون تركيا هي الدولة الوحيدة التي تسعى للتحرر من هذا الوضع، بنجاح بسيط، إذ هي لا تزال تحت السيطرة الغربية، بشكل غالبٍ، كما إنها دولة تتبنى العلمانية الأتاتوركية عقيدة، وترفض الشرائع الإسلامية البتة. يليها في هذا ماليزيا، كما نحسب، بشكلٍ محدود.

إذن نحن نواجه الفرد المسلم المُدمَّرٌ عقليا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعلميا وعقدياً، إلا من عصم الله ونادرٌ ما هم. ونواجه المجتمع المسلم، الذي هو غير موجودٍ، حقيقة واقعة، على الأرض، إن اعتبرنا صفات المجتمع التي تجعله مجتمعاً انساني حضاري.

مع هذا الوضع، ومع هذا الحجم الهائل من الخراب، في كلّ جهة وجّهت إليها نظرك في رقعتنا الإسلامية، يجب أن نتعامل. لهذا الوضع يجب أن نضع الحلول التي تزيل تلك البلايا المتراكمة المتراكبة المتراصّة، منذ قرون، منذ قرنين من الزمن، في أقل تقدير لها!

حان الوقت أن ننظر في أنواع الدواء الذي يعالج به مثل تلك الأمراض الفتّاكة، أي، بشكل أصح، طبيعة التغيير في المجتمعات الإنسانية.

يتبع إن شاء الله تعالى

د طارق عبد الحليم

١٠ سبتمبر ٢٠٢٠– ٢٢ المحرم ١٤٤٢

(٤)

طبيعة التغيّر في المجتمعات [١]

لعل الصفة الأساسية التي صبغت الحياة البشرية منذ بدايتها هي صفة "التغيّر". فالسكون ليس من طبيعة الأشياء، كما زعم أرسطو سابقا في فلسفته، بل الحركة، التي قدّمها ديموقراطس لاحقاً، التي تعني "التغيير".

فالمجتمعات البشرية تتغير في طبيعتها وتركيبها، مع الزمن، وحسب ما تتعرض له من عوامل بيئية طبيعية أو عوامل تدخّلٍ بشري وسيط.

وهذا التغيّر يتم في شكلين، إما الاستبدال أو الإصلاح. فالاستبدال هو كالجراحة للمريض، ينضوي على الإزالة التامة لموضع الداء وسببه.

---

[١] مما ينفع ذكره هنا هو إن العبد الفقير قد دوّن في العقود الثلاثة الأخيرة، عددا كبيرا من الأبحاث والمقالات، يربو على خمسمائة صفحة، عن حال الأمة، ومفهوم الدولة والأمة والجماعة، ومعنى البيعة ومحلها في وقتنا المعاصر، ومكامن الفشل الذي صار، وسبل الإصلاح التي أراها من الممكن المحتمل بإذن الله. من ذلك مثلا كتاب "**التمكين**"، الذي اشتمل على عدة أبحاث مطوّلات ومقالات، مثل "**قيام دولة الإسلام بين الواقع والأوهام**" في حول تسعين صفحة، و"**إقامة الدولة وبناء الأمة – الحقيقة العارية**" وهو ينقسم إلى قسمين، قسم قيام الدولة وقسم بناء الأمة، ثم بحث "**مفاهيم في طريق التمكين**" الذي اشتمل على ست مقالات تتناول جوانب متعددة من هذا الشأن، ثم بحث مطوّل، أو كتاب متوسط الحجم إن شئت، بعنوان "**خطوات في سبيل منهجية جديدة لإعداد شباب التمكين**"، في أكثر من مائة صفحة، اشتمل على فصول ثلاثة في تحليل الشخصية الإسلامية، ثم فصل رابعٌ في "**بناء الشخصية الإسلامية**" وفصل خامس في "**بناء العقلية الإسلامية**". ثم بحث طويل بعنوان "**ماذا علمتنا الجماعات الإسلامية ... في قرن كامل**"، وبحثٌ آخر بعنوان "**المشكلة الإسلامية ... تأصيلاً وتطبيقا**" وكذلك بحث "**هل يمكن توحيد (الجهد الإسلامي) لإخراج الأمة من مأزقها التاريخيّ؟**"، وبحثٌ عن أمر في غاية الأهمية، يقع في قلب واقعنا المعاصر "**عن الجهاد والمقاومة – نظرة فقهية تطبيقية**" وهو مُؤصلٌ فقهيا وأصولياً ... وغير ذلك مما يتعلق بالحركة الإسلامية المعاصرة. وسيجد القارئ العزيز كلّ هذه الأبحاث مجموعة في المجلد السابع، الجاري إعداده حالياً، من مجموعة الأعمال الكاملة بعون الله تعالى.

والإصلاح هو كتعاطي الحبوب والمسكنات، التي تخفف الألم موضعياً أو تزيله.

والمنطق البشري يحتّم هنا أنه إن كان يستحيل التخلص الداء إلا بإزالة العضو، فلا مناص من الجراحة، ثم معالجة ما يبقى بالوسائل الأخرى الأخف.

ولا أدري لماذا لا يفهم هؤلاء "الإصلاحيون" هذا المنطق البسيط؟!

أنظمة الطواغيت، لنْ، نعم، لنْ تتبدل إلا بجراحة عميقة تزيلها من أصولها، كما يفعل جراحة السرطان، أو الخراجات المزمنة، بإزالة موضع المرض، ودائرة واسعة مما حوله، من حيث يكون تأثيره فيها قائما بدرجات متفاوتة.

هذا يعني "التغيير"، لا الإصلاح.

التغيير التام للنظام الطاغوتيّ، في رقعتنا المكلومة المُستباحة، وأعوانه، وجيشه وأمنه وإعلامه، ورؤوس فتنته، بالتمام، إزالة لا تُبقي ولا تَذر. ووسيلته الوحيدة هي "الجهاد".

ثم يكون مجال "التغيير" بالإصلاح هو في أخلاقيات الناس وعقائدهم وعاداتهم، واستجابتهم للشرائع المفروضة، من خلال التعليم والدعوة والإرشاد والمثال والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هذا من ناحية المبدأ ... لكن التطبيق أمرٌ آخر، يجب أن يُعتبر فيه الحال الواقع، وحدود الاستطاعة، وتوازن القوى الموافقة والمعادية. وهنا موطن النظر.

فارقٌ بين النظرية والعملية، بين التمني والواقع، بين الواجب والممكن. هذا الفارق، في التصور الإسلاميّ، وإن اعتبرناه وعملنا بحسبه، إلا إنه فارق مؤقت ... لا يجب أن يكون مستديما، إلا إلى حين.

وقد علمتنا السنة الشريفة هذا الأمر، من خلال التوجيهات القرآنية، التي فُرّقت بين تصرفات المسلمين في مكة وبين تصرفاتهم في المدينة.

ولا يحسبن ساذجٌ، أو مجادلٌ متعالم، إنّ ضرب هذا الأنموذج يعني أننا نقول بكفر الناس عامة، كما كان الحال أيام مكة! بل وجه الشبه هنا محدود بمقارنة حال الضعف عند المسلمين، وحال السيطرة التامة للكفر السائد في كافة مجالات الحياة. وحقيقة أن هناك بلايين البشر ممن يقرّون بأن لا إله إلا الله، هي فارق شاسع بين حال الأمس وحال اليوم، إلا إنه من السذاجة أن نتعامى عن أنّ هذه الكلمة الطيبة، أصبحت لا تعني الكثير، بل ولا القليل عند الكثير! فرفض المنطق العقلي/ الشرعي، القائل بوجوب الجراحة المتغلغلة كوسيلة للتغير، في حينه، واستبدالها بوسائل الإصلاح والترميم وسد الثغرات ورتق الفتوق، على سبيل الدوام، هو من السذاجة والهبل المُسقط لأهلية التكليف في ناحية اعتبار النظر في أمور المجتمع عامة. وقد لجأ "الإصلاحيون" إلى ذاك المنطق الأعوج، حين انهزمت نفوسهم قبل هزيمة أبدانهم، واستسلموا بأيدولوجيات أعدائهم قبل أن يُسلموا لهم مقاليد أمورهم. فصارت وسائل الديمقراطية والحلول السلمية والمرقعات والمبررات والمؤتمرات والمعاهدات، وسائل الإصلاح الموهوم المأمول!

لكن هل يعني هذا أن يقوم عدد من المسلمين الربانيين، الواعين بحقائق الأوضاع على الأرض، بإعلان حرب عامة، يسعّرونها ضد قوى هي ألف مرة اقوى وأكثر عدداً وعدة من عددهم وعدتهم!؟ أم ماذا؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه إن شاء الله (ارجع لهامش المقال كذلك).

يتبع إن شاء الله تعالى

د طارق عبد الحليم

١٢ سبتمبر ٢٠٢٠- ٢٤ المحرم ١٤٤٢

(٥)

ذكرنا آنفا، أنّ الحلّين الموجودين، للتغيير في المجتمعات، كما هو في الحياة بعامة، إمّا التبديل والاستئصال أو الإصلاح والترميم. كما ذكرنا أن السنة النبوية والتنزيل الإلهي، قد أرانا أيهما اسبق في مناط المجتمع المكيّ، وحال المسلمين آنذاك.

وعلى العموم، فإن التكليف مناطه القدرة. فلا تكليف بلا قدرة. وهذه القاعدة هي التي تحدد، في المجتمعات البشرية عامة، وفي الحالة الإسلامية خاصة، من يأتي أولاً، بعد أن يتحدد نوع الحلّ، استئصالاً أو إصلاحاً.

فإن نظرنا إلى مجتمعاتنا "المسلمة" اليوم، وجدنا، كما سبق، أنها صارت في غالبيتها العظمى، مسلمة "بالاستصحاب"، أي باعتبار قاعدة "دوام الحال على ما هو عليه". لكن الشواهد الواقعية كلها تشير إلى أنّ الإسلام اليوم ليس هو ما نزل على محمدٍ صلى الله عليه وسلم، إلا عند من عصم الله، وقليل ما هم. وهذا أمر مُتوقع جاء يه الحديث. فقد روى مسلم في صحيحه، جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال "بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء". وفي لفظ "قيل: يا رسول الله! من الغرباء؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس، وفي اللفظ الآخر "يصلحون ما أفسد الناس من سنتي"، وفي لفظ آخر "هم النزاع من القبائل، وفي لفظ آخر "هم أناس صالحون قليل في أناس سوء كثير.". وهي كلها ألفاظ تشرح، بأدق المعاني، ما فيه القلة المسلمة حقاً، لا استصحاباً، اليوم من غربة، واضطهاد، ونزوع عن الأوطان، وفقدِ للأهل والخلان، والله المستعان.

العبرة، هنا بمن يمكن أن يقوم بالتغيير والاستئصال، وهم في حالنا هذا، كمستشفى فيها مرضى السرطان، المتمكن من الأجساد، وليس فيها جراحاً يُعتمد عليه في هذا اللون من الجراحة، إلا ما بين صيدلانيّ أو ممُرض!

وهنا وجه المماثلة بين مناطنا اليوم، وبين مناط المجتمع المكيّ، رغم الفارق الأعظم في وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كانت السنن لم تكن تزال تجري كما رتبها الله سبحانه، القدرة مناط التكليف. فلم يسمح لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن معه بقتال، قبل القدرة عليه، في المدينة.

هذا مع التحفظ على بعض الفروق التي سنذكرها في ثنايا حديثنا إن شاء الله تعالى.

إذن، فإن القدرة هنا محدودة بحدود الواقع الذي لا ينكره مُنكرٌ، إلا أعمى أو مخُاتل.

التبديل اليوم، أو الاستئصال، غير مقدور عليه، كما سهدنا في خلال القرن الماضي كلّه، لا لنقصٍ في عدد المنتمين للإسلام، بقدر ما هو نقص في فهم المنتمين له، العاملين له، لحقائقه وطرقه ووسائله. الجهل بالإسلام، وطبيعة رسالته، والغرض منها، ومن ثم التخبط طرق الدعوة لها وتحقيق سيطرته على الأرض التي جعلها الله موطن خلافة البشر، على رأسهم المؤمنين (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ). [النور٥٥]. وهذه آية جامعة فيها من التوجيهات القرآنية ما يقيم أمة ويبني دولة، من ذلك:

١. وعد الله للمؤمنين بالاستخلاف، والله سبحانه لا يُخلف وعده (وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [الروم٦].

٢. أن الوعد للمؤمنين الحاملين لصفات الإيمان والعمل الصالح، معا، لا لمجرد الانتساب للإسلام بالاستصحاب!

٣. أن ذلك ليس على الله بعزيز، إذ قد مكّن لغيرهم من المؤمنين من قبل، آل يعقوب مثلاً.

٤. أن هذا الاستخلاف معناه تمكين الدين، كلّه، لا بعضاً منه، فإقامة الشعائر دون الشرائع ليست استخلافاً، بل "الدين" الذي هو نظام الحياة في كافة جوانبها "ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ" يوسف ٤٠.

٥. نسبة الدين لهم "دِينَهُمُ"، ومفاده أنه أصبح جزءاً من كيانهم البشريّ لا يتجزأ، لا يأخذون بعضه ولا يتركون بعض، بل هم من دونه ليسوا بشراً سوياً.

٦. أنّ هذا الدين هو ما ارتضاه لهم ديناً، ليس منه ما هو دخيلٌ أو مصنوع أو محُرّف أو مؤول، أو محُدثٍ أو أمريكيّ! لا ديموقراطيّ ولا شيوعيّ أو ليبراليّ. إنه هو الدين الذي نزل على سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم، كما هو.

٧. أنّ حالة الاستضعاف التي يمرّون بها، والتي تنعهم من تمكين دينهم باستئصال الكفر، ستزول حين يتحقق شرط الله ويتم وعده، فيصبحون في أمان بعد خوف، وقوة بعد ضعف.

٨. أن المؤمنين في هذه الحالة لا ينحرفون عن عبادة الله وحده، دون شريك، لا في الملك ولا في الخلق ولا في الأمر، لا يتخذون معه شريكة ولا ولداً سبحانه، وأمره هو الأمر الواجب، ونهيه هو النهي المُحرم، لا يحلون ما حرّم ولا يحرمون ما أحلّ، بألسنة كهانهم وأحبارهم ومستشاريهم وممثلي برلماناتهم. فهو المُطاع وحده، لا طاعة لغيره فيما قرر وأمر ونهى.

٩. أنّ من كفر بعد ذلك البيان، بأن بدّل أو استبدل أو حرّف أو غيّر، أو تأوّل أو اتخذ مع الله مُطاعاً آخر، فإن ذاك هو الفاسق اللعين، الكافر المبين، مهما ادعى غير ذلك، سواء تسمى بأسماء المسلمين أو تحدّث بلغتهم.

يتبع إن شاء الله تعالى

د طارق عبد الحليم

١٤ سبتمبر ٢٠٢٠- ٢٦ المحرم ١٤٤٢

(٦)

معنى الإصلاح في الحالة الواقعة

من تلك الآيات الحكيمة، البليغة بياناً ومعانٍ، ندرك أنّ الطريق واضح، لا طريق سواه، وهو العمل على إقامة خلافة الله في الأرض.

لكن لله سنن جارية، في الطبيعة وفي الحياة البيولوجية والاجتماعية على السواء. وهذه السنن لا يمكن، لا يمكن تعدّيها باي حال من الأحوال، إلا حين يريد الله أن يخرمها بمعجزة، هو وحجه سبحانه من يحدد نوعها وموعدها ودرجتها وأثرها. لكن يبقى الأصل، هو الجريان مع السنن، لا ضدها ولا عكسها، واستغلال الفرص المتاحة، في أفضل صورها نحو الهدف المنشود، وهو إقامة دين الله في الأرض، واستحقاق الخلافة فيها.

وقد رأينا أنّ القدرة على التغيير اللحظي القائم على القوة، غير متاحٍ حالياً، إلا إن نظرنا إلى مناطق معينة في رقعتنا الإسلامية، حيث فُرض القتال على أهلها فرضاً، كالشام واليمن وليبيا وأفغانستان. تلك رقع إسلامية محتلة، تُضرب كلّ يوم، ويقتل أهلها ويشرّد أبناؤها، فلا محيص من رد الصائل المعتدي، ولو كانت القدرة في أقل إمكاناتها. فدفع الصائل واجبٌ عينيّ على أهل المحلة، فإن لم يقدروا، وجب على جيرانهم، الأقرب فالأقرب. وهذا أمر بشريّ طبعيّ، مارسته كافة أمم الأرض التي تعرضت لهجوم خارجي، منذ أيام الإغريق واليونان حتى الحرب العالمية الثانية.

الغرض، حتى لا يتوه عنا، هو أن يصل المسلمون إلى توفير دولة مركزية، تحافظ على حقوقهم، وتدافع عنهم: كشعبٍ واحدٍ لا شعوب مختلفة، كما كان الأمر أيام الخلافة.

فإن الدول القطرية قد فشلت فشلاً ذريعاًن إذ تحكم فيها المستعمر عن طريق عملائه، فأصبح حكامها هم أعداءها، وجيوشها هم جلاديها، وقوات أمنها هم سجانيها.

وهذا الواقع يملي علينا فهماً مخالفاً لمفهوم الإصلاح الذي ساد في العقود السابقة.

فإن ذاك المفهوم قد بُنِيَ على تصورٍ معين للحالة الإسلامية، وللمجتمعات المسلمة في رقعتنا هذه. وهو أن الناس مدركون لمتطلبات دينهم وتوحيدهم، وأن المجتمع "إسلاميّ" في طبيعته، لتركيبته المسلمة أصلاً واستصحابا منذ عصور الخلافة كلها عبر قرون طويلة. فالمطلوب هو تصحيح بعض التصرفات، وربما قليل من التصورات، وتعود المياه إلى مجاريها! على هذا جرت كافة "الجماعات الإسلامية" التي دخلت في خضم الإصلاح منذ ما يقرب من قرنٍ من الزمن.

لقد كان الفصل التام، في المفهوم وفي المصطلح، بين الإصلاح والتغيير، هو السبب الرئيس في الفشل الذريع الذي مُنيت به الحركات الإسلامية كلها ، ووصلت إلى طريق مسدود، ظهرها إلى حائط مائل، ووجهها إلى قوى شريرة هائلة، لا تقبل وسطاً ولا تفاهماً.

لكن، كما رأينا، وكما يعرف كلّ عاقل منصف واعٍ، أنّ هذا ليس هو الحال اليوم، بالمرة، كليّة! بل هو كما وصفناه من قبل، فلا داعٍ للإعادة هنا.

فعملية الإصلاح التي كانت هي المنشودة في العقود السابقة، لم تعد تجدي في يومنا هذا، في بلادنا هذه، وفي واقنا الحاليّ. بل يتخذ الإصلاح معنى مغايراً لما ساد من قبل.

وهذه العملية اليوم "الإصلاح" تعني: الإعداد والترتيب من ناحية، وتقويم ما يصلح للتقويم في دوائر خاصة، لخدمة المرحلة التالية من التغيير والاستئصال. وهذا المعني يختلف عن معنى الإصلاح التقليدي شكلاً وموضوعاً.

وسنوضح هذه الجملة فيما يأتي إن شاء الله.

الفرد والجماعة ... والواسطة بينهما

مما سبق، يتضح أن حلّ المشكلة الإسلامية يكمن في عملية ثنائية، أولها مقدمات التغيير (الإصلاح)، ثم التغيير. هنالك، يتوجه، ويتوجب النظر إلى العناصر الفاعلة في عملية التغيير أو الإصلاح.

والعناصر هي الفرد أولاً، فهو الخلية الأولى، ثم الدائرة المحيطة بالفرد، وهي الأكثر قرباً والتصاقاً به، ثم الجماعة العاملة في مجال مرسومٍ محدد لها حسب خطة التغيير.

ولكلّ عنصرٍ من تلك العناصر شخصية وواجبات وكفاءات مطلوبة، ليقوم بدوره المحدد في تلك المنظومة التغييرية.

يتبع إن شاء الله تعالى

د طارق عبد الحليم

١٥ سبتمبر ٢٠٢٠– ٢٧ المحرم ١٤٤٢

(٧)

قلنا إن الفرد هو المسؤول الأول عن التغيير، وهو المكلّف به، وهو المحاسب عليه، إذ يقع على عاتقه فعله، سواء مجُتَمِعا أو فرداً "وكلكم آتيه يوم القيامة فردى"، لا جماعات ولا بيعات!

إنما الجماعة هي وسيلة، تصل بالفرد إلى موضعٍ معين، بل هو، في حقيقة الأمر، يصل بها إلى موضع معيّنٍ، يمكن الانطلاق منه للتغيير، في أي مجالٍ كان. ومن هنا، وجب توجيه الاهتمام، كلّ الاهتمام بالفرد العامل، ووضعه في الاعتبار قبل الجماعة وفوقها، لا تحتها وخادمٍ لها. وهذا الوضع الأخير هو ما سبب فشل الجماعات الإسلامية كلّها في تحقيق أي من أهدافها.

من هو الفرد المعنيّ بالإصلاح والتغيير؟

والفرد الذي نتحدث عنه هنا، يمكن اعتباره في طبقتين: طبقة العامل الواعي الهادف، وطبقة رجل الشارع العاميّ.

أما الطبقة الأولى من الأفراد، فهم المنتمين إلى من أشار إليهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه مسلم عن ثوبان رضي الله عنه "قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ".

والمتأمل في هذا الحديث يجد معانٍ عديدة تعين في فهم موضوعنا الذي نحن بصدده، إذ هو في القلب من عملية التغيير ومقدماتها. من تلك المعاني:

١ . أن كثرة الأمة لن تصير إلى الظهور على الحق، بل ستجهله، وتنحرف عنه، والمرء عدو ما يجهل!

٢. أن قلة من الأمة، أو بالأحرى من أفراد الأمة، سيظلون عارفين للحق، مقيمين عليه، لا تلفتهم عنه لوافت الدنيا أو مشاغبات أهلها وتضييقهم عليهم. والحق هنا هو التوحيد وحق الله على العبيد.

٣. أنهم أفراد، في حقيقتهم، طائفة باعتبار حالهم، لا حال اجتماعهم. وهؤلاء الأفراد، المنتمين لهذه الطائفة عقدياً وإسلاميا، قد يكونوا متناثرين في أنحاء الأرض، لا في موطن واحد، وهو الصحيح حسب ما نراه في الواقع. ومن ثمّ فلا يصح اتخاذ هذا الحديث دليلاً على صحة توجه جماعة ما، ووسمها بأنها هذه الطائفة، إلا باعتبار ما عليه أفرادها، لا على مجرد أنهم طائفة عاملة على نشر الإسلام، ومن ثم من هم خارجها ليسوا من تلك الطائفة.

٤. أن أفراد هذه الطائفة عندهم من العلم والعزيمة ما يجعلهم مرشحون لقيادة عملية التغيير، بالبدء في مقدماتها.

٥. أن هناك معايير يوزن بها الفرد ليتحقق انتماؤه لهذه الطائفة، فإنه "لو يعطى الناس بدعواهم، لادعى ناس دماء رجال وأموالهم" كما في الصحيحين. فلا يصح سماع دعوى أي فرد بأنه، هو نفسه أو من يرشحه، من المنتمين إلى هذه الطائفة، حتى يُعرض قوله وفعله على الحق.

٦. أن الدنيا لن تخلو يوما من أمثال هؤلاء الأفراد حتى يأتي أمر الله. في رواية أنه الساعة. لكن يمكن أن نفهمه على أنه الموت، أي سيظل هؤلاء على عهدهم مع الله حتى يموتوا علي هذا الأمر. وهذا التفسير، لا يخالف ما جاء في كتب التفسير، بل هو من قبيل اختلاف التنوع، فنهاية الدنيا بالنسبة للفرد تأتي مع موته، فلا تعارض هنا.

أفراد هذه الطائفة هنا، إذن، هم المعنيون ببدء عملية التغيير، وإقامة مقدماتها.

وهذا العمل يكون، بتوسيع قاعدة هذه الطائفة، ومساحة قبولها بين طائفة العامة ورجل الشارع، واختيار الأصلح فالأصلح، للمشاركة في عملية المقدمات، سواءً بطريق فرديّ أو غير ذلك.

وهنا يأتي دور الطائفة الثانية، أي العامة ورجل الشارع. فهم الوعاء الذي يأخذ منه أفراد الطائفة المنصورة الظاهرة على الحقّ مادتهم التي تغذي حركتهم وتبني بناءهم.

كتبت من قبل "بذرة الأمة الاسلامية التي يجب رعايتها وحفظها والتعرف عليها، تجدها مبعثرة في شكل تجمعات بشرية في كافة دول العالم اليوم، تزيد وتنقص في عددها حسب حجم الدولة وتاريخها، فإن كانت دولة في رقعتنا الإسلامية، كانت بطبيعة الحال أكبر عدداً مما هي عليه في أمريكا أو انجلترا على سبيل المثال. وتلك التجمعات اليوم لا تجمعها أو تمثلها دولة، بل هي لاجئة حتى في موطنها الأصليّ. تقابل منهم من تقابل في وسائل الاتصال أو المواصلات أو العمل أو دائرة الأصدقاء والأقارب، لكنك تجدهم يهمسون بآرائهم في موضوعنا، بناء الأمة وإقامة الدولة، فالغالبية التي من حولهم لا ينتمون لطائفتهم، بل هم من أعدائهم ومع أعدائهم، قلبا وقالباً. فترى جاليات مسلمة تبلغ عددها مليونا أو اثنين في بعض البلاد، وعشرات الآلاف في دول أخرى. لكن تلك هي مادتنا في البناء، نعمل بها ومعها، ولا نعمل مع مشوهي عقيدة، مخربي فكر، مضطربي عقل، لأي سبب من الأسباب. فإن أولياءهم يعملون كادحين أن يسحبونهم لأسفل مما هم فيه، وأن يقطعوا يد كل من يحاول أن يرفعهم لأعلى، ذلك إن كانوا هم ذاتهم يريدون ذلك!" [١]

وهنا يأتي دور التحقق والفهم في الاختيار والتفنيد حتى لا يقع الشقاق والخلاف، في عملية البدء وبناء المقدمات.

يتبع إن شاء الله تعالى

د طارق عبد الحليم

١٦ سبتمبر ٢٠٢٠- ٢٨ المحرم ١٤٤٢

---

[١] راجع مقالنا "إقامة الدولة وبناء الأمة - الحقيقة العارية" https://taraq-abdelhaleem.net/73226/ar/post

(٨)

الطريق إلى بدء عملية التغيير، أي مقدماتها الإصلاحية، هو "الحشد". حشد القوي وتوجيهها للهدف المنشود.

- لكن كيف يتم حشد القوى، والناس في غفلة لاهون، وعن دينهم معرضون!؟

أول الطريق الدعوة. نشر العلم بالتوحيد، الذي ضاعت معالمه، واندثرت معانيه، واستبدلت مبادئه وأصوله، حتى أصبح من يتكلم به "أصوليا"، "إرهابيا"، "متخلفا"، "عدوا للتقدم"، "معاد للسامية"، "عدواً للمرأة"، "عدواً لحقوق الإنسان"، وكلّ المعايب التي يمكن تخيّلها في بني آدم!

يجب تطوير برنامج موحد لشرح التوحيد، بعدد من اللغات، من نسخة واحدة، يجمع على شرحها عدد من الطلبة، في دوائر خاصة، تتسع حسب الظروف المواتية، وتعمل في خفاء نسبيّ، لا تتعدى التعليم، وشرح جوانب التوحيد، بكل دقائقه، دون بتر أو حذفٍ أو تحريف.

هذه الدوائر، تتسع بأن يكون كلّ فردٍ فيها مركز دائرة جديدة، مع حسن اختيار المشاركين وفرزهم أمنياً، فلا يلتحق أحد إلا بتزكية مشهود لها بالأمانة والفطنة معا.

وهذه الدوائر، لا تعني إمارة أو ولاية، ولا تتطلبها، بل هي دوائر علمية لا غير. تنقل المعنى المراد بالإسلام، لتحافظ على بقائه، وعدم ضياعه، فإن وعد الله بحفظه، لن يتم إلا من خلال تلك الفئة المباركة التي لا تكلّ ولا تمل.

أما معاني الإمارة، فيجب الاستغناء عنها في هذه المرحلة بشكلٍ تامٍ، فلا أمير ولا غفير! بل دارسون متعلمون لا أكثر ولا أقل.

والأهم هنا هو وضع المنهج، واختيار المعلمين، ثم الصبر على طول الطريق، وعدم استعجال الثمرة قبل أوانها. كذلك الاستفادة بالخبرات القديمة، التي أثبتت جدارة، لا الخبرات القديمة الفاشلة، فهي زاد للطريق، ومعالم على جوانبه.

كذلك، يجب الحذر من الشخصيات المترددة بين مذاهب الفكر المختلفة، وتراها فيمن يتردد على دوائر علمية تختلف فيها مناهج الفكر، فترى الأخ في جلسة إخوانية، ثم في جلسة سلفية، ثم في جلسة سنية، وهو لا يعلم فرقاً بينها، ولا يميز خبيثا من طيب.

وقد يقول قائل: أليس الأفضل هو رفض هذه التسميات ابتداءً والتعامل مع المسلمين كمسلمين، لا كإخوان أو سلفيين!؟ فالجواب: نعم، هذا هو المأمول، إن قدر هؤلاء أن يتنازلوا عن تركةٍ حَمَلُوها أو حُمِّلُوها سنين عددا، حتى أصبحت جزءاً من كيانهم. وهؤلاء، في دوائر التعليم الموجه الذي نقصده، عورات ودمامل قيح، تضر ولا تنفع، تنشر الشكوك والأفكار الخاطئة، عمدا أو غير عمدٍ، سيان.

فهناك إذن قواعد وقوانين تحكم دوائر العلم، وتحكم اتساعها وتحكم أنواع منتسبيها، لتبقى على قلب رجلٍ واحدٍ، وهو ما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه سلم.

هذه القواعد والقوانين هي ما تخلى عنه أهل المرحلة السابقة، بشكل يكاد يكون تاماً، فاهتموا بالشكل دون الموضوع، وبالعرَض دون الجوهر، وبظاهر العلم دون حقيقته. قدّموا صاحب اللسان العليم، دون العلم القويم، وصاحب فتاوى الإباحة المريحة على صاحب فتاوى الحق الصريحة. ونحن هنا نتحدث عن حال "الإسلاميين" من رجالات العمل في الحركة الإسلامية البائدة. ولهذا كان انهيارها وتشتتها وزوالها.

فإن تم لنا هذا، وهو طريق شاقٌ جداً، طويل جداً، له تكاليفه وضحاياه على طوله ومشقته، يومها يمكن البدء في التفكير في الخطوة التالية. لكن دعونا لا نعجل، فإنه يجب هنا الحديث عن دور الفرد، ودور الجماعة، وكيف يعمل كلاهما في اتجاه واحد.

يتبع إن شاء الله تعالى

د طارق عبد الحليم

١٨ سبتمبر ٢٠٢٠- ٣٠ المحرم ١٤٤٢

(٩)

أهمية عمل الفرد والجماعة

نعود للإشارة هنا إلى أنّ هذه المرحلة، تعتمد على الجهد الفرديّ أساسا وتأسيسا، وإن جرت إلى مرحلة متقدمة نسبيا بعمل تلك الدوائر الصغيرة المتناثرة، دون روابط عضوية، إلا الاشتراك في المنهج، والتناصح، إن أمكن.

وقبل التقدم خطوات تالية نود أن نقرر بعض النقاط الأساسية، التي تسبب عدم الالتفات إليها إلى بعض ما نحن فيه من فشلٍ اليوم.

الأصل أنه يجب اتباع كلّ طريقٍ ومنهجٍ يقدم شيئاً، ويخطو خطوة في سبيل تحقيق الهدف، طالما إنه في إطار منهج أهل السنة والجماعة. والمعنى أنه لا يجوز ترك حلٍّ من تلك الحلول التي عرضنا، بدعوى أنه ليس من السنة، إلا إن جاءت البيّنة، أو ليس هذا أوانه. بل يجب الأخذ بها جميعا، لكن في إطار موحّد معلوم الهدف، يأخذ بعضها بتلابيب بعض. فمن يدعو لتعديل جزئيات ما في مجتمع ما، يجب أن يجعل ذلك التصور جزءاً من التصور العام الأصليّ الأصيل، يربطه به في كل حين.

ثم انظر إلى منهج الأنبياء في دعوة الجهال من الناس. تقدم الأنبياء إلى الناس بالتوحيد، وتقوى الله وطاعته، فشرحوا هذه المعاني وأسسوها، وعلموها، مراراً وتكراراً. ثم بينوا أن الخلل القائم في مجتمعاتهم مرتبد بالخلل في جهة طاعتهم، أي في عبادتهم لغير الله. فكان أن جرتهم شهواتهم وغرائزهم إلى المنكر من الفعل، كقوم لوط أو قوم عاد أو قوم ثمود، أو قريش والعرب في زمانهم. فكان أن أعاد الأنبياء القضية إلى أصلها، وربطوها بمصدرها.

لم يدع صالح عليه السلام قومه إلى اتخاذ المعابد والبيوت الفارهة المنحوتة في الجبال، بل إلى ترك الشرك وتقوى الله " إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ" الشعراء ١٤٢ & " إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ " الأعراف ٧٣.

لم يدع هود عليه السلام قومه إلى إصلاح مجتمعهم والتخفف من رفاهياتهم، بل دعاهم إلى ترك عبادة الأوثان والشرك، وعبادة الله وحده "وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ" الأعراف ٦٥.

كذلك كانت دعوة نوح عليه السلام " قَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ" الأعراف ٥٩، كذلك شعيب عليه السلام، لم يدعُ مدين لحفظ الكيل والميزان أولاً، بل إلى عبادة الله وحده " إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ " الأعراف ٨٥.

كافة الأنبياء، دعوة واحدة، تبدأ بفرد مُرسلٍ، ثم يجتمع حوله القليل من المؤمنين، ثم إما أن تؤمن القرى، كما في حالة يونس عليه السلام "إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ" يونس ٩٨.

هكذا تكون الخطوة الأولى. دعوة فردية، إلى التوحيد أولاً، يقوم بها القادرون عليها من الظاهرين على الحق، دون الدخول في تفاصيل جدلية عن هذا وذاك، إلا ما كان ضرورياً لصحة إقامة عبادة، أو عقدٍ مالي أو اجتماعيّ، حسب الحاجة.

حول ذاك الفرد، تجتمع دائرة، تتعلم دينها، لنفسها، ولأهلها، ثم لمن حولها. ومنهم من يخطو الخطوة التالية، بأن تكون له دائرته الخاصة، بعد التمكن من الدين والقدرة على الدعوة، دون أن يقطع صلته بدائرته الأولى. وهكذا متواليات دائرية، تتسع فتزيد من عدد المخلصين الواعين، وتقلّص من عدد الجاهلين المعاندين.

ولا بأس ساعتها إن اتحدت جهود بعض تلك الدوائر لأداء مهمة ما، مثل عمل محاضرة عامة لشيخٍ من شيوخ الحق، أو رحلة سياحة لله، أو معسكرٍ رياضيّ، ومثل ذلك مما لا يلفت نظراً، أو يثير ريبة، من حيث لا شيء من ورائه على الحقيقة.

وهنا يجب أن نبينّ أن دعوة الفرد ذاك، أو أولئك الأفراد، يجب أن تكون دعوة إلى التوحيد، كلّ التوحيد، وعبادة الله وطاعته، تمام طاعته، دون بتر شيء من هذه المفاهيم البتة، تحت أي سبب من الأسباب. وكما أن هذه الدعوة، وتلك الدوائر تقوم على الاختيار والانتقاء، لا القبول العشوائي.

كذلك، فإنه في المراحل المتقدمة من العلم، يجب أن يكون العلم الشرعيّ شاملا لكل أحكام الله، دون ترك أي باب من الأبواب بدعوى خطورته أو عدم جدواه! بل يجب أن يكون العلم تاماً، كما في أبواب الردة، وأحكام الجزية والقتال. لكن الأمر يكون مرتبطاً بإيضاح مناطات تلك الأحكام، ملاءمتها للزمان والمكان والكيفية (المناط). وإيضاح مناطات تلك الأحكام، بشكلٍ جليّ وبدليله الشرعيّ، كفيلٌ، لأصحاب العقول، بمعرفة الواجبات الآنية، ومعرفة ما هو من الواجبات المؤجلة، التي لا تتكلفها النفوس في مرحلة من المراحل.

أما ما كان يحدث في مناهج بعض الجماعات، مثل الإخوان وغيرها، من إهمال تام، بل واستنكار عام، لتعليم تلك الأبواب الهامة من الشريعة، فهو بترٌ للشريعة وإيمان ببعضها وكفر ببعضها الآخر. فالمسلم يجب أن يكون مهيئاً لكافة المواقف، بالعلم الصحيح، خاصة من هم من طبقة الظاهرين على الحق، ومن ذلك التحقق بمواقف الإقدام ومواقف الإحجام. فصحة المفاهيم هي الدرع الواق من تبديل الدين، والغزو الداخليّن كما حدث من أخطاء شنيعة في العقود السابقة.

يتبع إن شاء الله تعالى

د طارق عبد الحليم

٢١ سبتمبر ٢٠٢٠– ٣ صفر ١٤٤٢

(١٠)

العمل الجماعي

يجب أولاً أن نصحح النظر في مفهوم "الجماعة" والعمل الجماعي، الذي انحرفت به الأهواء والفِكَر في العقود السالفة.

سألني أخ حبيب " وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ : بِالْجَمَاعَةِ ، وَالسَّمْعِ ، وَالطَّاعَةِ ، وَالْهِجْرَةِ ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ".

فماهي الجماعة هنا في هذا الحديث؟ هل هي المفهوم الاعتقادي أم السياسي أم الاثنين!

قلت: "وهل هناك فرق؟ الاعتقادي والسياسي واحد في الإسلام. والمقصود هنا التزام الجماعة، ولكن التزام محذوفة للزومها ... كما في الأحاديث الأخرى. وهذا الالتزام يعني العيش في ضوئها، بكل معاني العيش. من ضمنها قبول مبادئها وطرق حكمها وقوانينها الشرعية، وهو معنى السمع والطاعة. ولا تعني هنا "جماعة إسلامية" كتلك الجماعات المُحدثة في القرن الماضي، فهذا تجمع لغرض ما، يُفترض إنه إسلامي (رغم عدم حدوث ذلك في أحيان كثيرة كما رأينا). والالتزام بمثل هذه "الجماعات" أمرٌ محُدثُ لا علاقة له بهذا الحديث. إنما الالتزام "بعملٍ جماعي" أمر محبوب ضمن مفهوم "واعتصموا بحبل الله جميعا"، أو "وتعاونوا على البر والتقوى" والسمع والطاعة داخل هذا الإطار إنما هو من قبيل حفظ العهد والكلمة، لكن لا معنى لبيعة تستلزم سمعاً وطاعة مطلقة، أو التزام مؤبد ... هذه بدعة محُدثة، وقد شرحت ذلك في مقالات عدة ...".

في هذا النطاق، يجب أن يكون مفهوم العمل الجماعيّ. وهو اتفاق على تأدية واجبٍ شرعيٍ محدد، أو عدة واجبات متصلة بعضها ببعض، تستلزم جهداً جماعياً.

وهذا العمل، كأي عمل يجري في جنيا الناس، يحتاج لإدارة لديها المعرفة والخبرة والكفاءة، على رأسها مدير (أو أمير بالتعبير الشرعيّ)، إليه تنتهي صياغة القرارات الإدارية الخاصة بذلك التجمع. أما القرارات الشرعية، فهي مستمدة من الكتاب والسنة، عن طريق من لديه العلم الكافي من طبقة الظاهرين على الحق، سواء كانوا ضمن مجموعة العمل تلك أم لا. فلا تمييز ولا تخصيص ولا فتاوى مفصّلة على مقياس الجماعة أو توجهات قياداتها.

والمرحلة هذه، قد تتأخر نتيجة الظروف الأمنية التي تجتاح بلادنا العربية. فيجب أن تقتصر على الجهد العلمي الدعويّ في نطاق الدوائر الصغيرة، إلى حين.

ومما يجدر بيانه هنا أن عودة الإسلام إلى مسرح الحياة الحضارية، لن يكون مشرقه في الغرب، أبداً! هذا قلب للسنن، ومغالطة للتاريخ، وأحلام يقظة صادرة من شبهة أن الغرب اليوم يسمح بحرية الكلام والنشر والحركة السلمية، دون الفعل، مقارنة بشرقٍ باغٍ ظالمٍ مكبلٍ للأيدي والأفواه، ليس فيه هامش حرية على الإطلاق. هذا الوضع، قد يوحي لبعض العقول الساذجة أن الإسلام يمكنه الازدهار بل والسيطرة في الغرب، أسرع منه في الشرق. وقد يعضد هؤلاء نظريتهم بمعدلات نمو عدد المسلمين في الغرب، وإمكانية حدوث تغلّبٍ ديمغرافي! وهذه أوهام حالمة، من عقول غلبتها الهزيمة في الشرق. والسبب في ذلك هو أولاً وقبل كلّ شيء: اللغة. فالإسلام لا ينتشر إلا باللغة العربية أولاً. حاملو الإسلام الأوائل، كما سيكون في الأواخر، يجب أن يكونوا ممن يتحدث العربية، فهي شرطٌ في تحقق العلم الصحيح، كما أجمع علماء المسلمين على مرّ العصور. والعُجْمَة عائقٌ كؤود أمام انتشار بين العوام، إلا من تعلّم بعض العربية، خاصة إن كنا نتحدّث عن تغيير واسع النطاق.

هذا من جهة، أمّا الجهة الأخرى، فإنه يجب أن يكون معلوما مفهوماً لدى أصحاب العقول، أن أهل هذه النواحي من الغرب، لن، وأؤكد لن، يسمحوا إلا بقدر معيّن من ذاك الهامش. فهم يحرسون عقائدهم، ليس العقائد المسيحية بقدر الأيديولوجية العلمانية التي بنوا عليها حضارتهم في القرون الخمسة الماضية.

فلا يعقل عاقل أن يتركوا عدداً من المسلمين الظاهرين على الحق أن يصلوا إلى تحقيق تغيير حقيقي في تركيبة مجتمعهم. بل الحقيقة إنهم هم من يقود حملات عسكرية وفكرية شرسة في بلادنا لتغيير عقائدنا وأيديولوجياتنا، بل ونجحوا في ذلك إلى حدٍ كبير.

قصارى ما سنرى في الغرب هو أشباه مسلمين من الدعاة المُشَوِّهين للإسلام، الخارجين عن شريعته ومنهاجه، من أمثال عمر سليمان وحمزة يوسف وياسر قاضي وأولئك البهلوانات العميلة التي تنشر الإلحاد تحت عباءة الإسلام.

أما الجهد الإسلاميّ في الغرب، فيكفيه الحرص على تلك الحِلق والدوائر العلمية، إلى جانب مراكز مخلصة، تعين على تقديم خدمات اجتماعية للجالية، على أن تصلح نيات وأفعال القائمين عليها، ولا تكون ممن يسعى لكسب دنيوي مادي أو سيطرة مجموعة معينة أو هيمنة عائليّة لخدمة الإخوة والأبناء، كما هو الحال في غالب تلك المراكز، بشكلٍ أو بآخر.

يتبع إن شاء الله تعالى

د طارق عبد الحليم

٢٢ سبتمبر ٢٠٢٠– ٤ صفر ١٤٤٢

(١١)

العمل السياسي

رأينا أنه نتيجة الفشل الذريع الذي مُنيت به الحركات الإسلامية، في غالبها الأعم، ظهر التساؤل عن جدوى العمل الإسلاميّ ككل، وهل هناك شكلٌ آخر لا يتضمن الصدام مع النظم، حتى تكون هناك فرصة لإحراز تقدمٍ نوعيّ ما؟!

ولعل بعض هذه التساؤلات تؤدي إلى فكرة أن اللين المحدود مع النظم، أو الممارسة السياسية "المدروسة" يمكن أن تكون الحل الأفضل، حتى نوقف بحار الدماء المسلمة التي تسيل نتيجة تصادمٍ غير متكافئ بالمرة.

وهذه التساؤلات طبيعية ومبررة، إلا أنها مخطئة في تصور المقاصد والوسائل جميعا.

فالمقصد الأول والأصيل في شريعة الإسلام هو حيازة رضوان الله ورضاه، والبعد عن غضبه وسخطه. وأول ذلك ترك الشرك والتزام التوحيد. وكلّ أمرٍ أو نهيٍّ في الشريعة هو خادمٌ لهذا الأصل الأصيل. ومن البداهة أن هذا الأصل لا يتحقق إلا باتباع ما أمَر والانتهاء عمّا نهى عنه وزَجَر. وهذا الاتباع يكون في نصوص كتابه أو سنة نبيه أو ما تقرر من وسائل وأدلة لاستنباط الأحكام المقررة في كل أمر من أمور الحياة.

وقد علمنا أنّ من أول واجبات التوحيد هو البعد عن عبادة الطواغيت، بكافة أنواعها، حجراً أو شجراً أو بشراً. وكذلك البعد عن كلّ ما يؤدي إلى مثل هذا الشرك، من أفعال وتصرفات، مهما كان القصد منها، ومهما تصورنا نفعها لنا.

وقد علمنا، بما لا يدع مجالاً لشكٍ، أن الوسائل السياسية التي يحتكم إليها العالم اليوم، هي محض شركٍ بالله، ورفع لكلماته من حياة البشر، وإحلال أحكام العقول على أحكام الوحي.

وذلك من خلال أيديولوجيات مختلفة التسميات، متحدة الغايات، كالشيوعية والديموقراطية. فالمشاركة فيها، سواء كنا في حالة قوة أو ضعف، غير مقبول إسلاميا، بل هو مشاركة في وسيلة شركيه، بدعوى إقامة التوحيد. ولعمري، ما أرذل وأسخف وأجهل من مثل هذه الدعوى الساقطة، نظرياً وواقعياً.

هلا يدلنا من يرى مثل هذا الحلّ للمشكلة الإسلامية المزمنة، ما حققته الديموقراطيات العربية من تقدم في سبيل الحكم بالشرع؟ في الكويت؟ في تونس النهضة؟ في مصر الإخوان؟ في ملكيات بلاد الحرمين المغتصبة أو المغرب أو الأردن؟ في الخليج الصهيونيّ؟ في الديكتاتوريات العربية؟ في ترميا العثمانية العلمانية الديموقراطية؟ هل منعت أيّ من هذه الممارسات على اختلافها انتشار الإلحاد ورواج الفساد وسقوط البلاد وكفر العباد؟ هل قبلت أيّ من هذه الأنظمة ولو نطفة من أحكام الله سبحانه، في مقابل تنازل الإسلاميين عن مقاصدهم كلها، بما فيها رضا الله ورضوانه؟

الجواب، لا، وألف لا. الأمر ليس معلقاً بأيدي الباحثين عن عودة الدين. الأمر بيد الله أولاً، ثم بأيدي أعدائه الذين لن يسمحوا بأن تُتَخذ وسائلهم التي اخترعوها لضمان بقاء سيادة الكفر، وسيلة إلى ظهور الإسلام، بأي حالٍ من الأحوال.

الطرق السياسية المعاصرة خداعٌ لله وللذات وللدعوة وللمسلمين، ونصحٌ غيرُ أمين للأمة على كافة المستويات.

العمل الجهادي

إذن فهل العمل "الجهادي" على شكله الحاليّ هو الحلّ؟

لا شك أن القوة هي مفتاح النجاح، وهي آخر الدواء، وهي التي تملك الكلمة الأخيرة الحاسمة، كما رأينا على مرّ التاريخ، في امبراطوريات الانجليز والرومان والإغريق والفرس والمسلمين، ثم في حال أمريكا اليوم، التي تُرهب العالم كلّه بأسلحتها وقوتها العسكرية.

هذا ما لا يصحّ فيه جدال. فأن نتصور نصراً للمسلمين دون قتال، بل بمبادئ "سلمية" وديموقراطية" لهو تغفيل وشذوذ ومحض جُبْنٍ في العرض وتخلٍ عن المبدأ وتخنّث في الشخصية.

لكن هذا العمل، كما قررنا سابقاً له شروطه وموانعه. ومن ثم له وقته ووسائله. وكما ذكرنا، لسنا في زمنٍ يسمح لنا بالحديث في هذا اللون من الحلول، لغياب القدرة والوسيلة والأداة، وندرة الهمم والكفاءات. فلنترك هذا التفصيل لأهله حين يحين حينه، إلا أن يبقى حيّا في العقول والقلوب، كتصرف إنسانيّ، يمارسه كافة البشر، لحفظ نوعها من الزوال، بقاء حضارتها وعدم ذوبانها في غيرها بفقد أرضها أولاً ثم هويتها.

وهذا بطبيعة الحال، ليس له علاقة بمحاربة الباغ المعتدي الغازي لأراضي المسلمين. فهؤلاء يجب مقاومتهم بكل ما يملك أهل المحلة من قوة، وعدم الاستسلام بأي شكلٍ من الأشكال، ومعرفة أنّ أي تصالح، والعدو قابع على أراضي المسلمين هو خيانة لله وللدعوة وللأمة. العدوان غير مأمور به في الإسلام إلا على من اعتدى وظلم، وقال تعالى "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ"الحج ٤٠، وقال تعالى "فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ" البقرة ١٩٣. فالإذن في قتال من اعتدى وظلم، ثم الانتهاء عمن انتهى وارتدع، إلا من استمر في ظلمه.

وهذا ما يريد أعداء الأمة أن يوهموا الناس بأنه "إرهاب"! وأن من قاتل العدو الغاصب للأرض، الذي أتي بسلاحه وعتاده آلاف الأميال لاحتلال أراضي الغير، فهو إرهابيّ! فأن يرضخ بعض من ادعى إنه من أهل الدعوة أن هذا صحيح، فهو لعمر الله خائن بائع لدينه وعرضه.

أما عن حمل القتال عبر البلاد إلى أراض المعتدين، بالأشكال التي رأيناها في العقود الأخيرة، بضرب أسواقٍ أو قتل عدة أفراد في باص أو نادٍ، فهي، في نهاية الأمر، كما رأينا، ليس لها أي جدوى عملية في تقوية الإسلام أو نصر المسلمين،

وقد عرضت وجهة نظري في هذا الأمر من ناحية فقهية تطبيقية فارجع لمقالي فيه[١]. إنما السبيل هو في قتال المحتلين على أرض أوطاننا، سواء من أبناء جلدتنا الكافرين بدينهم أو من غيرهم.

فلننظر في حالنا اليوم نظرة أخرى.

يتبع إن شاء الله تعالى

د طارق عبد الحليم

٢٦ سبتمبر ٢٠٢٠– ٨ صفر ١٤٤٢

[١] عن الجهاد والمقاومة -نظرة فقهية تطبيقية https://tariq-abdelhaleem.net/ar/post

(١٢)

تنقسم الوسيلة المتاحة هنا إلى ثلاثة مراحل، حسب ما أرى

أولاً: مرحلة التلقي والتعلم: وهي التي تُؤسس فيها عناصر طبقة الظاهرين على الحق وتُبنى فيها لبنات القيادات الفاهمة الواعية، في دوائر منفصلة كما ذكرنا. وعامل الوقت هنا لا يجب أخذه بالاعتبار، فهو شَرَكٌ يؤدي إلى القيام بتحركات قبل نضوج الثمار.

ثانيا: مرحلة الدعوة العامة خارج الدوائر الصغيرة، لكن بحذر وانتقائية لتكوين حاضنة ولو صغيرة تعين على التصدي وتمد بالعون في المرحلة التالية. وهذا المرحلة وسابقتها يجب أن تتما من وراء الكواليس، في سرية تامة، دون إثارة أي مشاكل مع السلطة الديكتاتورية القائمة في رقعتنا.

ثالثاً: مرحلة الإعداد للمواجهة، ولا تبدأ قبل نضوج شخصيات المرحلة الثانية، وفيها ترسم الخطط وتُعد الخطوات لعمل "الحشد الشامل". فالعمليات المحدودة عسكرياً لن تُجدي نفعا أبدا. لكن الوسيلة هي "الحشد" الدائم المستمر، الذي له قياداته الواعية، لا كحشد ٢٥ يناير، أو ٢٠ سبتمبر. تلك كلها، حتى إن نجحت مرحليا، فلن تؤدي إلا إلى حكم علماني مدني على أحسن الأحوال، أو إلى تغيير الحكم العسكري ببديل عسكريّ آخر.

وحين أتحدث عن الحشد، أقصد الحشد الجماهيري العام، حتى لو كانت نسبة الواعين فيه قليلة، لكن، كقيادة من الظاهرين على الحق، لا كقيادات المتميعين أو المترددين، أو المتشككين أو ضعاف النفوس أو أصحاب الورع البارد، يمكنهم التوجيه والتنظيم والأخذ بيد الحزم والقوة في مواجهة قوات الطاغوت، التي لنتقدر على استمرار الضغط عدة أيام.

لكن المسألة، كما رأينا في مصيبة الإخوان، هو ما بعد تغير الميزان وانقلاب الأوضاع.

وقد رأينا رأي العين، في مثالين واضحين في هذا العقد الثاني من القرن الحالي، مصر وتونس، كيف يصير حال التغيير إن تم بلا قيادة واعية أو تقدير.

ففي مصر، قادها "الإخوان المسالمون"، محبي الديموقراطية والسلمية، فاحتفظوا بهياكل الدولة المقدسة، كما لا يزال بعض الغافلين يدعونها، كالجيش والشرطة والأمن، واعتمدوا عليها! أي والله. فكان أن أطاحت بهم بعد عام بالتمام!

كما رأينا في تونس كيف أنّ جماعة علمانية التوجه والعقيدة، بثيابٍ إسلامية، جماعة النهضة، قلبت ميزان الثورة لتسلمها لحكومات علمانية متعاقبة منذ السبسي إلى قيس سعيد، الذي يحول التوسط بين الاتجاهات العلمانية والإسلامية، في موضوعات محددة مثل الموقف من إسرائيل مثلا، لا في القضايا المصيرية الإسلامية كالحكم بالشرع، حين اكتفت حركة النهضة العلمانية بالتمسك بالشكل الديموقراطي الغربي العلماني. فالأمر هناك صراع بين أنظمة سياسية رئاسية وبرلمانية، لا علاقة له بإسلام على الإطلاق.

هذه الآليات السياسية كلها، لا تصلح منطلقاً لأي تغيّر يستهدف تحكيم الإسلام ولو بعد ألف عام. هذا ما لا يستوعبه الباحثون عن مخرج من المأزق الحاليّ، الذي ينظر إلى فشل الوسائل التي استخدمتها الجماعات في القرن الماضي، منذ الثلاثينات من ذاك القرن المنصرم. هذه الطرق السياسية، مهما ادعى داعيها من ذكاء وحنكة، هي جزء من منظومة علمانية كبرى، تلعب دورها المعارض، ولا تخرج عنه بحال.

هذا هو الواقع الذي تقدمه التجربة العملية، يراه الأعمى والبصير! ونحن هنا لم نتحدث عن قول الشرع في اتخاذ هذه الوسيلة غير المشروعة اصلاً.

الحل فيما نراه يكمن في تلك الخطوات، التي تتابع وتتداخل وتتشابك، ولا يمكن لأحدٍ أن يضع لها جدولاً زمنياً، إذ الأحداث الاجتماعية لا تخضع لجداول البشر، إلا بشكلٍ محددٍ، تحت ظروفٍ محددة.

١. مرحلة تطوير الطاقات الحالية من طبقة الظاهرين على الحق، أتباع أهل السنّة والجماعة، والاهتمام اساساً، وأولاً، برفع كفاءة هذه الطبقة، كمّاً وكيفاً. وهذا واجب طبقة أصحاب العلم اليوم من تلك الطبقة، بالاهتمام بطلبة العلم، وتدريبهم وتعليمهم، سواء في العلوم الشرعية أو وسائل الدعوة.

٢. مرحلة نشر مفهوم التوحيد، على مستوى العاميّ، كاملاً غير منقوص، بكلّ أبعاده، بشكلٍ واسع ومبسّطٍ ومن خلال دوائر صغيرة، حريصة أمنياً، بواسطة طلبة العلم المؤهلين لذلك.

٣. مقاومة العبث الذي يجري في الساحة الإسلامية اليوم، من انتشار ظاهرة "الرويبضة" في كلّ بقعة من بقاع الأرض التي يسكنها المسلمون، شرقاً وغرباً. ويتم هذا بفضح هؤلاء الرويبضة، والمبدّلون لدين الله باسم التقدم والتحرر والتجديد وجلب المنافع للمسلمين، متغاضين عن حقيقة الوصول إلى المنافع الموهومة للديموقراطية الغربية، تكون من خلال وسيلة غير مشروعة، وهي تأييد ممارسة كفرية، مبنية على أن قرار الشعب، أو ممثليه، هو القانون، وافق أو عارض الشريعة. مجرد الرضا بهذا المفهوم عمل كفريّ في ذاته، حتى لو توهم الفاعل أنه جالب للمنافع. والوسيلة لها حكم الهدف في شرعنا.

٤. مرحلة الحشد العام. وهي لاحقة لتلك المراحل السابقة وتختلف باختلاف الزمان والمكان وحال البلد المعنية. وواضح أن شعوب مثل الخليج لن يكون لها دورٌ في إزاحة حكامها الصهاينة، من حيث أن رغد العيش أعمى أعينهم، إلا من رحم ربي، والدعاية وينت لهم سوء عملهم فرأوه حسناً، فالأمل شبه مفقود في الخليج والجزيرة. لكن الأمل في مصر والعراق وسوريا واليمن والمغرب وتونس والأردن والجزائر. فالشعوب هناك تعرف طعن المعاناة والفقر والخوف.

٥. أما عن مرحلة الجها..د المسلح، فهذه تقتصر على مواضع الضرورة، مثل دفع الصائل الرافضيّ في العراق أو النصيريّ الروسي في سوريا، أو الأمريكي في أفغانستان، أو العدو الداخلي الصائل مثل السيسي. أما غير ذلك من الأماكن، فلابد من اتباع المراحل السابقة، ولو أخذ الأمر قرناًمن الزمن "فذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ" الغاشية، "وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ" الأنعام ١٠٧. وهو معنى متواتر في القرآن.

الأهم، هو الالتزام بمنهج موحدٍ، في النظر والاستدلال، وعدم التفرق في معاني التوحيد، ومقتضياته ومستلزماته، كما نرى اليوم المثير من "أصحاب القلوب الرقيقة والأفعال الصالحة" لا يكادون يفقهوم في دين الله حديثا.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

د طارق عبد الحليم

٣٠ سبتمبر ٢٠٢٠ - ١٢ صفر ١٤٤٢





نظرات في أمر الشام ...

٢٠٢٠



عودة إلى أمر الشام .. والهيئة!

(1)

إلى فصائل الشام المتناحرة .. إلام الخُلْفُ بينكمُ؟!

الحمد لله والصلاة والسلام على من بُعث بالحق والهدي والنور، يحكم بهديه الناس فيما اختلفوا فيه.

نعم .. صدق شوقي ..كلمات كأنها كُتبت لكم، أيها المتقاتلون المتناحرون

إلامَ الخُلفُ بينكمُ إلاما
وهذه الضجة الكبرى علاما!

وفيم يكيد بعضكم لبعضٍ
وتبدون العداوة والخصاما

ما هذا الاقتتال الحادث بين «مسلمين» في تلك البقعة الصغيرة الباقية من أرض الشام، لا تزال لم تقع تحت يد العدو الروسي النصيري الرافضيّ؟

ما الذي تبغون بهذا القتال؟ ما الذي تتوقعون نتيجته؟

من المنتصر ومن المهزوم؟

هل نسيتم هويتكم الأصلية، أنكم تؤمنون بكتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتتقيدون بحكمه فيما شجّر بينكم؟

أين أنتم من آية ربكم «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا» النساء ٦٥؟

هل نسيتم ما منّ الله عليكم به، إذ جعلكم إخواناً، وألّف بين قلوبكم، حيث

تدافعون عدواً واحداً، وشراً مستطيراً «وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا» آل عمران ١٠٣.

ألمْ تعوْا ما في بقية الآية من تحذير شديد مُبطّن، إن أنتم وقفتم على شفا حفرة من نار، بالتشاق والتصارع والخلاف والاقتتال، فيرفع الله عنكم منّته، ولا ينقذكم من الهلاك بعد ذلك أحد «وكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ»!

شَبَبْتُم بينكم في القُطرِ نارا
على محُتَلِه كانت سلاما

ألم تروا ما أدى إليه شقاقكم وانفصالكم عن بقية إخوانكم، وتحزبكم شيعاً، ومفارقتكم جماعتكم الأولى، بمصالح موهومة معدومة، ألم تروا ما وصلتم إليه الآن من حال يشيب لهولها الولدان؟ محصورين في بقعة بين عدوٍّ صائلٍ صليبي بلشفي نصيري رافضي، لن يهدأ حتى يستأصلكم، وصديقٍ يؤازركم ما دامت مصلحته معكم، ويودّ لكم ولأهليكم حكماً على غرار ما يراه الأفضل، من غير حكم الله على وجه القطع واليقين، وإن ترك لكم شعائركم تأدونها ولحاكم تطيلونها؟

والله تجمّدت الكلمات، وجفت الحلوق، ودارت في أحداقها العيون، اضطراباً واستياءاً وعجبا لأبناء أمة واحدة، يدّعون أنهم يجاهدون في سبيل الله عدواً واحداً، في رقعة هي محرقة نار بالفعل، ليسوا على شفاها، بل واقعون فيها، فلا يهتز لهم ضمير ولا ويعمل فيهم منطقٌ ولا عقل! فيوقفوا هذا القتال، ويعودوا إلى حكم الله، فهو والله بيّن واضح، ومن ادعى غير ذلك فقد نسب النقص للشريعة الغراء.

العدو لا يفتأ يقتل في أفضل رجالاتكم، وأخلصهم وأصدقهم، ولا يترك إلا عميلاً أو منافقا أو مترخّصاً، لا يضره من بقائه شئ، إذ يشغله بتجارة أو سلطة.

اتقوا الله، وانتبهوا، وارتدعوا، فإن الهزيمة متربصة بكم، هزيمة أنفسكم، لا هزيمة

أعدائكم لكم. فلا تلقوا اللوم على الأعداء إن فنيتم، فأنتم من جلبتموها على أنفسكم. عدوكم يمكن بنصر الله، أن تنتصروا عليه، لكن ماذا عن عداوتكم لأنفسكم؟ عداوتكم بعضكم لبعض؟ هجركم لحكم الله بينكم؟ قتلكم بعضكم بعضاً، والصراع يحتاجُ إلى كل نفس مسلمة قادرة راغبة!

ألم يكفكم مقتل أكابركم، كالشيخ أبي خالد السوري، والشيخ أبي فراس السوري، والشيخ أبي الخير المصري والشيخ أبي فراج المصري، وأبي خديجة وأبي جليبيب، وغيرهم كتائب من الشهداء الذين تصيدهم العدو لا لشئ، إلا لأنهم من ذوي الخبرة والعقل والعزم، أصحاب قضية حق، لم يتنازلوا عنها. وإلى اليوم لا يزال العدو يتصيد الخيار، ويترك المتميعين والفجار!

ندعوكم، باسم الله خالقكم والمُنعم عليكم بنعمة الإسلام دينا، تتآخون فيه، وتنافحون عنه، أن تضعوا سلاحكم جانباً، ولا توجهوه لمسلمٍ أبداً، وأن تسعوا لإدراك حكم الله فيما تشاققتم فيه، فإن الإعراض عن هذا هو حالقة دينكم وفناء بقيتكم.

راعوا ربكم في حق أهلكم، ومصالحهم التي تدمرونها بتصرفاتكم التي اختلفتم فيها على الكتاب وخالفتم الكتاب، واتفقتم على مخالفة الكتاب، كما يقول ابن القيم. فانظروا ما أنتم فاعلون ..

د طارق عبد الحليم

٢٤ يونيو ٢٠٢٠ – ٣ ذو القعدة ١٤٤١



(2)

قد بعثتموها والله ذميمة ...! يا فصائل الشام

وصلتنا أخبار اشتعال القتال بين الإخوة في إدلب، رغم كلّ الشفاعات التي توجّه بها عدد من الشيوخ لوقف هذا الاشتباك، بل ووقوع شهداء من طرفي الشقاق، الهيئة وغرفة «اثبتوا»، ولا حول ولا قوة إلا بالله، واعتقال الهيئة للأخ التلي والأوزبكي

ما هذا يا سادة؟

سأحمِّلُ اليوم على من يحمل المسؤولية الأكبر في تلك البقعة الصغيرة المحاصرة، التي تتصارعون فيها وحولها، وأقصد الهيئة، فهي الكيان الأكبر، بفضل الدعم التركي، والتنازلات التي قدمتها للأتراك بدعوى المصلحة.

ما أمر الهيئة؟ ألم يرجع الجولاني لبعض عقله، ولم يعتبر بنتيجة ما حدث واقعاً على الأرض، عقابا له على مخالفته للشرع، ونكثه لبيعته؟ أيظن أن خسارته لكل شئ، وانكماشه ليصبح شرطيا مع الأتراك هو محض الصدفة؟ لا والله بل هو عقاب من عقاب الله سبحانه، أن نكس الثورة كلها، وابتلاها بما تدمه منه العيون وتدمي به القلوب.

أهي السلطة، وإثبات الوجود ودليل السيطرة في تلك المنطقة المنكوبة، هو ما أثار الجولانيّ، فجعله يفتعل الأحداث ليضرب غرفة «اثبتوا»، ويثبت للأتراك قدرته على التحكم في المنطقة؟ وإلا فما هو الدافع إذن؟ بيّنوا لنا إن كنا لا ندري!

ألا يكفي أن التحالف والروس لا يستهدفون إلا قادتهم ورؤوسهم، وكل من خالف الجولاني، وآخرهم استشهاد بدءاً بالشيخ الحبيب أبي فراس منذ أربعة أعوام، إلى الأخ القسام أول أمس؟

ألم يكف ما حدث من فقد لسوريا كلها، إلا قطعة من محافظة إدلب، تملي فيه الحكومة التركية، أحكامها وتفرض شروطها، ومنها سوتشي التي رفضها عامة مجاهدي الشام،

إلا الجولاني وأتباعه؟ أأصبحت سوتشي وأستانا اليوم مرجعا للمجاهدين؟ فعلام اسم المجاهدين إذن؟ وماذا وعن ماذا يجاهدون؟

الحرب ليست لعبة يلعب بها قائدٌ ابتلى الله به جمع من البشر، كما لعب بها عبد الناصر فكانت نكبة اليمن، ثم نكبة ٦٧، ثم توالت النكبات بعدها. الحرب، بين الإخوة في الله خاصة، إن كانوا ممن تخشع قلوبهم لذكر الله، مصيبة بالمعنى الحرفي للمصيبة:

أنسيتم قول ربكم جل وعلا: «وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ» الأنفال ٤٦

قد والله فشلتم وذهبت ريحكم!

وصدق زهير:

متى تبعثوها تبعثوها ذميمــة
وتضرَ إذا ضَرَيْتُموها فَتَضْرَمِ

فتعرككم عرك الرحى بثفالها
وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئـــم

فتُنتجُ لكم غلمان أشأَم كُلهــم
كأحمرِ عادٍ ثم تُرضِع فتُفطِـمِ

هذا الذي يجري لا يرضي الله ورسوله، ولا يرضي مسلماً عاقلاً، يعرف عن دينه نذرا يسيراً.

ونحن نعلم أنه لن يردع الظالم العاتي كلمات من أي طرفٍ، حتى من الشيخ الذي نصرهم مراتٍ في غير حق، لن يكون لكلامه وزن، إذ هم أتباعه ومحبيه عند التوافق، لا عند التخالف، وهو عين تعريف الهوى!

لكن، لعل في كلمات العاقلين ما يدفع الجند أنفسهم إلى مساءلة رؤوسهم عما يفعلون. نعم، نعلم أن علاقة تركيا بالجولاني، وتحكمه في مصارف المال، هي ما تجعل غالب من

معه، فيما أراه، يستمرون في الانتماء لكيانه، وإلا انقطع الرزق وانكشف الظهر والبطن ، ولاحت قضبان السجن!

مرة أخرى، اتقوا الله في أنفسكم وأهليكم يا جند الهيئة .. فقيادتكم تتحرك تحركات سياسية دنيوية بحتة، لا محل فيها لشرع، وإن استأجرت أمثال فرغلي والصبي الغزي لتأصيل الظلم والعدوان.

اللهم سدد خطى المخلصين الصادقين وارفع هذه الغمة عن المجاهدين، وألف بين قلوبهم، وارزقهم تحمل الخلاف في وجهات النظر، دون عدوان، وإلا .....

د طارق عبد الحليم

٢٥ يونية ٢٠٢٠ – ٤ ذو العقدة ١٤٤١



(3)

بيان الهيئة ... استمرار فرض النفوذ والتلاعب!

بيان هيئة تحرير الشام (!) الأخير، يثبت بشكلٍ قاطعٍ إنها لا تريد للدماء حقناً ولا للعمل الجهادي استمراراً، ولا لطلقة تجاه العدو أن تُطلق إلا بإذن مسبق من تركيا والتحالف.

قلت:

لا تأمنن لذئبٍ بات متشحاً ** بثوب ضأنٍ فأنت الخاسر الفاني

من الذي نصّب تلك المجموعة الفاشلة، التي ثبت بالفعل، والخسائر في الأرواح والأرض، في كافة أنحاء سوريا، والتنازل المُهين، والتلاعب المبين لصالح مخططات التحالف، أتساءل: من الذي جعل هؤلاء أوصياء على كلّ صاحب حقٍ في جهاد، ممن أثبتوا جدارة، وعدم استسلام لمخططات الغرب الصليبي والشرف البلشفي الرافضي؟

من الذي أعطاهم حقّ قتالهم وإيقاف عملهم، وإلزامهم بتشكيل عسكري بانت خيانة القائمين عليه، واستعدادهم، بما لفقوه - أو لُفِقَ لهم من مشايخ سوء وأشبار علم - من أدلة زعموها شرعية؟

أسيطروا على أرضٍ لا نعرفها في سوريا؟ أحرروا أرضاً اغتُصبت من معظم محافظات سوريا، منذ يوم ظهرت خيانتهم في «فك الارتباط» - زعموا - وحتى يومنا هذا؟

ثم، أمنعهم أحد من التوكل على تركيا، توكلاً تاماً، والخضوع لها خضوعاً مطلقا، والتآمر بشأن مستقل الشمال السوري الذي لن يكون اهم فيه نصيب، يوم ترفع تركيا أعلام الجيش الوطني أو فيلق الشام هناك، وترمي بهؤلاء كلهم في مزابل السجون، وتحيل قادتهم لتقاعد واسع الثراء، ثمناً لما قدّموا من خدمات؟

بماذا يفترق هؤلاء عن جماعة الحرورية، الذين زعموا أن غيرهم ليس مسلماً، ومن ثم يجب قتاله وإزاحته، قبل قتال الروافض والنصيرية والبلاشفة؟

والله لو تأملت في صنائع الجولانيّ، لوجتها تحاذي صنائع البغدادي، حذو القذة بالقذة، فلو دخلت الحرورية جحر ضبّ لدخله الجولاني ورائهم، سواء من اعتقال المخالفين، وقتال المجاهدين، والهوس المسيطر عليه في التفرد بالسلطة، ثم، الأهم، في خسارة كلّ مكتسبات جماعته، مع بقاء أفرادها أتباعاً له، يخيّل بهم على العالم أنه الآمر الناهي!

هذا البيان، عارٌ وتضليلٌ وإظهار نوايا الشرّ، وتصميم على ذبح نصف القوى المقاتلة الحقة المخلصة في الشمال السوري، ليبقى النصف الآخر مسيطراً، طالما يخضع للجولاني، الخليفة الجديد، بلا خلافة!

ألا يعلم هؤلاء، الذين من المفترض أنهم يفكرون استراتيجياً، أن رعبهم من غضب تركيا، أو تهديدها لتركهم في مواجهة القوة الغاشمة الفاشية، أو الانسحاب من الشمال، رعبٌ لا مبرر له، فعي أمور مستحيلة الحدوث ابتداءً. إذ الوجود التركيّ مرتبط بموضوع الأكراد، لا بسلامة السُنة، يا أصحاب العقول «المهلبية». إن بقاء تركيا، لحين ينتهي اتفاقها مع الروس والروافض، ويخضعون النصيرية لأمر واقع في الشمال، لن يزعجه هجوما سنياً على العدو. بل هم يضعون السنّة تحت أرجلهم، انتظاراً للحلّ مع النصيرية وبشار، ليس إلا، وساعة يتم الحل، سيتركونكم للجحيم ..

هي إذن فرصة السّنة، أن تعمل بحرية، على تحقيق مكاسب من النظام الفاشي النصيري الرافضي، وأن تكيل لهم الضربات، ولا تخشى أن تتنازل تركيا عن الحماية الضئيلة المحدودة، التي تسير في تحقيق سوتشي وأستانا، على أية حال، خطوة خطوة.. ولكنكم قومٌ تجهلون!

كنا نأمل منذ يومين أنْ يتخذ العقل طريقا لجماجم هؤلاء، من قادة الهيئة المنحرفة، لكن البيان، كان فيه أوضح بيان لطريق هؤلاء، ألا وهو طريق الخضوع والتذلل باسم المصلحة.

وسنرى في الأيام القادة، اللهم سلّم، كما هو ظاهر للعيان، دماء المسلمين تُراق، بأيد مسلمة، تدّعي الجهاد، كنفس دعوى الحرورية من قبل، وأيديها ملطخة بدماء مجاهدين، جريرتهم أنهم رفضوا الدخول تحت مظلة تلاعب الجولاني، وسيطرته تحت مظلة «فتحه المبين»!

د طارق عبد الحليم

٢٧ يونيو ٢٠٢٠ - ٦ ذو العقدة ١٤٤١٠



(4)

إلى جند الهيئة ...

ولا زال الشيطان يعبث بعقولهم ...!

كم توجّه إلى هؤلاء الذين يسيطرون على مفاصل الجهاد في الشمال السوري، من شيخٍ صادقٍ صاحب علمٍ ودراية وخبرة، لا كمن هم على رأس ذاك الفصيل المعتدي، وعلى رأسهم الشيخ أبو محمد المقدسي والشيخ د هاني السباعي والشيخ عبد الرزاق المهديّ، وهم من أعلى الناس درجة في العلم والإخلاص، ولا نزكي على الله أحداً، كم توجه إليهم هؤلاء بأن عودوا لرشدكم، ولا تتبعوا سفهاءكم وأشقياءكم، فإن من قادة تلك الفصائل من هو مثل أحيمر ثمود، أشقى القوم، إذ جلب الدمار على عشيرته كلها، بحمقه وخبثه وجهله!

فماذا كانت النتيجة؟ لم يستمع أحدٌ لنداء العقل والضمير والإسلام. بل لجوا في عتوٌ، وازدادوا في طغيان،، واعتقلوا بعدُ شريفاً آخر، الأخ توقير شريف، الذي هاجر من بلده لا لسبب، إلا ليعين على إزالة الطاغوت بشار، لا لجمع مالٍ أو تجارة، أو تحصيل سلطة أو قيادة، بعد اعتقال الإخوة الآخرين، التليّ والآوزبكيّ. وغيرهم مما قد لا نعلم عنهم شيئاً.

أليس هناك ضمير لا يزال حياً، أو قلب لا يزال نابضاً، أو عقل لا يزال واعياً، بين جنود ذاك الفصيل المتمرّد على قواعد الشرع، أصولاً وفروعاً، نصوصاً ومصالحاً؟

إن لم تؤثر فيكم كلمات كبار مشايخ الساحة، المقدسي والسباعي، فإن كلماتي ستذهب أدراج الرياح، لا شك في ذلك. لكن، والله يعزّ على المرء أن يرى شباباً تبتلعه الرمال النجسة المتحركة، يغوص في الخطأ والخطل، والظلم والتعدي، وقد عُرضت عليه أدلة الحق، وبانت معالم الصدق، في غير طريق قادته وأمرائه...

الكلّ يعرف اليوم أن أمراء الهيئة يعيشون حياة ترفٍ لا يعيشها أحد من جنودها. الكلّ

يعرف علاقة الجولانيّ، بتركيا، وتأمينه لاتفاقاتها مع الروس، وضمان سوتشي وأستانا. لم تعد هذه الأمور تخفى على أحد إلا الحمقى ..

ماذا نقول لكم؟ ماذا تريدون من بيان؟ أنتم اليوم أشبه بجند السيسي، وجند فرعون، وجند بشار، سواءً رضيتم أم أبيتم، كرهتم أم أحببتم. ويا للحسرة والأسى عليكم يا جند الهيئة!

إن انحراف قادتكم ليس وليد الليلة أو أمس القريب، أو الشر والسنة الماضية. بل هو قائم منذ أن قرر قائد الفتح الأكبر، وحامل لواء النصر إلى تل أبيب، على حسب رواية أحد المشايخ وذنبه، أن يتخذ طريقه وحده، ليكتب لنفسه اسما ويسطر تاريخاً، وهو ابن الثلاثين، لا خبرة ولا علم ولا تجربة ولا سابقة ولا صحبة جهاد، إلا مع رفيقه، ومثله الأعلى البغداديّ، الذي ما خرج عليه إلا ليحظى بالسيطرة ويحقق ما كان يحلم به من شأن ...

ولم يعلم المسكين قسوة التاريخ، الذي لا يحابي ولا يجامل، بل سيذكره، فاشلاً، خاسراً، متراجعاً، راضياً بالدنيّة، محارباً لأقوياء أشداء، لا يقبلون بعلمانية توجههم، تحت أيّ ذريعة، غبيّ عن أن يُدرك أنّ الساحة، بوضعها الحاليّ، في خضم هذا الصراع الدوليّ، يمكن أن تكون في صالح قومه ودينه، إن انحاز للحق، وصدّق بكلمات الله، فالأتراك كما ذكرنا، لن يتخلوا عن الشمال السوريّ، بل هم يخوفونه بترهات لن يُقدموا عليها، لصالحهم لا لصالح السوريين. لكنها العنجهية وحب السيطرة، الذي غلب على نفسه، وعلى أمرائه، ثم تسرب إلى قلوب بعض جنده، الذين هم اليد الآثمة في اعتقال من يعتقل.

استيقظوا، رحمكم الله، فكم كتبنا من كلمات تحذيرٍ، قبل سقوط حمص وحلب ودرعا وغيرها ..

أفيقوا، وارعووا، وساندوا إخوانكم، فإن قادتكم قد ضلوا الطريق، ولا سبيل إلى دعوتهم لحق، بعد أن غلب على قلوبهم ران الترك.

د طارق عبد الحليم

١ يولية ٢٠٢٠ – ١١ ذو العقدة ١٤٤١

(5)

الاتفاقات الثلاثية ... ومصير الهيئة

لا تخفى الاتفاقات التي تجري بين الدول الثلاث المتنفذة في الشأن السوريّ، وصاحبة القرارات في المصير السوريّ، أعنى روسيا وإيران وتركيا، بغض النظر عن الجحيش الذليل بشار النصيري، بطبيعة الحال!

وآخر تلك القرارات ما خرجوا به من توصيات تتلص في مبادئ عامة، لا نرى فيها جديداً، وإن رأينا فيها ما يقشعر له بدن المسلم السنيّ، الذي ضحى بمليون من الشهداء والجرحى، واثني عشر مليون مهاجر نازح مشتت، في بقاع الأرض، وفي خيام الفيافي.

ومن أهم النقاط التي زكزت عليها الدول الثلاث ما أسموه «وحدة الأراضي السورية وسيادتها»! ولا أدرى لهذا معنى إلا أن الشمال السوري سيدخل، بشكلٍ ما، يوماً ما، تحت حكومة واحدة عاصمتها دمشق، بلا مواربة ولا جدل. وهذا لن يكون تحت مظة إسلامية بشكلٍ قاكعٍ مؤكد، بل حكومة علمانية بديلة لنظام بشار تحت مظلة صورية من الأمم المتحدة. وإشراف حقيقي من الدول الثلاث. وبالطبع إدلب وما حولها داخل هذا الإطار ولا شك!

فما قول الهيئة في هذا الأمر؟

ثم، قرار روسي–تركي، بإنشاء معسكرات تدريب لما يُسمى الجيش الوطنيّ «الخائن» في مناطق بإدلب، منها ما هو مفترض أنه تحت سيطرة الهيئة، لتوحيد فصائل عدة كفيلق الشام وصقور الشام وغيرها. ولا ندري أهيئة الشام ضمنها أم لا؟ فإن هؤلاء يتكتمون على فضائحهم كتكتم الساقطة على زلاتها .. ومما لا أشك فيه أن الجولاني لا يمانع من الاندماج، لكن بشرط أن يلعب دوراً هاماً في منصبٍ رفيع، يرعى مصلحته الشخصية، مهما كانت الراية التي سيندمج تحتها. ولا أظن أن تركيا ستسمح بذلك، بل ستنهيه بالكامل، إن لم تصفّيه

جسدياً في وقتٍ لاحق، حين تستقر الأمور وتضمن مصالحها مع الكرد. والمسكين المغفل لا يزال يحقق لهم مآربهم بتدجين البقية الباقية من المجاهدين، وسحب أسلحتهم!! غفلة وعوار وحولٌ فكريّ، وران على القلب، من تعوّد الخيانة.

ثم، إن تركيا وروسيا يعملان الآن على تأكيد حرية التجارة على الطريق الدولي، وإحياء الداخل السوري المغتصب! فيا لهول الدور التركيّ، ومحافظتهم على الشعب السوري وثورته، التي أنهاها البغدادي والجولاني، على مراحل!

هذه كلها علامات نهائية على طريق الهزيمة الثورية، واستسلام المقاومة الجهادية الإسلامية، بشكلٍ تامٍ.

فإلى أين يا هيئة ...!؟ إلى مزبلة التاريخ، بعد أن دمرتم ما منّ الله عليكم به من فضل ونصر، باتباعكم صاحب العجل التركيّ ...!

ولا حول ولا قوة إلا بالله

د طارق عبد الحليم

٢ يولية ٢٠٢٠ – ١٢ ذو القعدة ١٤٤١



(6)

جيل الجولاني .. وسفاهة سفهائه!

سبحان الله العظيم ...

من أبغض الأمور إلى نفسي أن أُضيّع وقتاً فيما لا يفيد، أو على من لا يُفيد ولا يَستفيد، فليس هذا مما يليق بنا سنا ولا مقاماً. ولكنه بلاء قد حضر، وشرّ قد استقر.

المفترض في الذين يتصدون للجهاد، ويزعمون أنهم يريدون وجه الله، أن يكونوا من الصادقين، الطاهري اليد واللسان، الباحثين عن الحق دون خوف من الخلق، أو طلب الأجر.

لكن، كما ورد في الحديث، وكما وقع في التاريخ، منذ عصر النبوة إلى يومنا هذا، تتدهور الأجيال خُلُقاً، وتنتكس فطرة، وتنجس لساناً، وتقل علماً، حتى وصلت اليوم إلى جيل الخوارج الحرورية، ومقدَمهم البغداديّ الهالك، ثم وارثه، وحامل راية السفه والتسلط والغباء السياسيّ والتلوّن الأيديولوجي، الجولاني الوليد، وجنده من «الأمنيين» أو «الشرعيين»، الذين نصّبهم متحدثين باسم الشرع، وعاملين على الاعتقال والظلم والردع، بلا ورع ولا تحقق من دينهم أو اعتبار قيمتهم العلمية! أقزام من وراء أشبار!

سبحان الله العظيم ...

قد والله تمثّل خُلُق القائد الزعيم الفاتح! في نجاسة المُنَصَّبين «النصابين»، خلفاء على جمعة، وتلاميذ رسلان والبرهامي، وأحفاد حسن الهلالي، وسلالة أحمد حسون، من سفاهة وتفاهة وجهالة وصَغَار وتخلف عقليّ وحداثة سنّ، لا يتقوون بعلمٍ، فيشهد الله ليس لديهم من العلم ما يملأ قرطاساً، ودونك ما أنتجوا، أَقْدِمْ يا صاحبي للنظر فيما يقدّمونه، مع الحرص على لبس كمامة عقلية، فإنك واجدٌ فيه من الخَبّث ما هو أشد فتكاً

بالخُلُق والحق، من الفيروسات الفتاكة، إذ يستخرجون حديثهم من مراحيض الفكر ومجاري الكَلَمْ.

انظر إلى كلام سطره ولدٌ خبيث، غرّ صغيرٌ، جاهل لئيم، باردٌ زنيم، لا قيمة له وربّ الكعبة، قمامة من قمامات العوام، اختارهم القائد الفاتح على عينه، كما فعل من قبله البغدادي مع الأساورتي وأمثاله. أظن اسمه أبو محمد التونسي، وانظر كيف يسمون أنفسهم بكنية ونسبة، كأنه أبو عيسى الترمذي مثلاً! تجد السفيه الرقيع يستهزأ بشيخٍ جليل وقور، في عقده السابع، في عمر والد هذا الرقيع، ثابت القدم في جهاده، ثريّ في نتاجه، منذ أربعين عاماً لا يزال يخدم دعوة الإسلام، ويلاقي في سبيل الله، السجن، في مصر وفي انجلترا، ومحاكمات لا تنتهي، وقرارات من مجلس الأمن تمنعه من أن يحمل خمسة جنيهات لا غير! يعيش دون أوراق ولا جنسية ولا جواز سفر، ممنوع من الانتقال والسفر بشكل تام، منذ عام ١٩٩٤، قبل أن يولد الرقيع المعتدي!

انظر ما يقول الرقيع، بادئاً بذاءاته بنكتة باردة «كلمة على القاعد!»، لا، ظريف يا صاحْ! ألا ما أسخفك وأبرد دمك! لا حياء ولا كرامة ... كأن ما يحدث في إدلب موضع تندرٍ ومزاح. لا حسّ ولا ضمير!

ثم يقول الرقيع «أليس الكاتب ممن يرى الجهاد في الشام فرض عين على كل قادر؟ فكيف يمنّ علينا إذًا بترك البريطاني لبلده وما سماه بترف العيش؟»

والكاتب، الذي جَبُن الرقيع أن يكتب اسمه، هو الشيخ د السباعي، المؤرخ المُفسّر الفقيه، بما تشهد له به أعماله المدوّنة والمسموعة، خاصة في القضاء الذي هو تخصصه وموضوع شهادة الدكتوراة، التي لا يحلم الرقيع بإزالة التراب عن الرفّ الذي يحملها! فمن هذا المَهين، الذي لولا أنه شَرَدَ من بلاده، لعدم تمكنه من لقمة عيش، ليكون «قباضاي» أو «مفتٍ هالك» عند الجولانيّ، ما سمع باسمه جاره بالجنب!

والبريطانيّ، أخ مسلم واقعٍ في أسر واعتقال، دون محاكمة، بواسطة مجموعة عُرفت منذ سنين بطغيانها وتجبّر «أمنييها» كما يفعل رجال أمن دولة حكومات الطواغيت

السيسي وأمثاله، على حجم متناه في الصغر والحقارة بالطبع! فهل هناك ما يمنع من أن يطلب الشيخ فكّ أسره، وإجراء الخطوات القضائية الشرعية المُتبعة، دون أن يكون الخصم حكماً؟ ما الغريب في هذا؟ ولماذا يفزع الرقيع، ليهاجم سيده العالم دون سبب، إلا إرضاء سيد ماله ووليّ نعمته، الذي يموّله ليعيش بما لم يحلم به في وطنه، لو بقي فيه. وعلى أقل تقدير، فإن بريطانيا دولةٌ يمكن لمن أراد البقاء فيها أن يجد مراغما وسعة، لكن الثابت أن هذا الرقيع نزح من فقرٍ ليضع ما جعل الله في جمجمته من مادة غريبة، تحت إمرة من يدفع!

ثم، أيها الرقيع، أيّا كان اسمك! متى زعم الشيخ أنّ الجهاد، كما وضعت خوفاً، فرض عين على كلّ مسلمٍ في كافة أنحاء الأرض؟ أمجنون أنت، أم مجرد عيّ رقيع؟ الفاهم للشرع يعلم أنه فرض عين على كلّ قادرٍ من أهل بلده، السوريين، ولو كان كذلك فلم لمْ تتحدث عن إخوانك القابعين في بريطانيا، ينصرون الجولاني، نصرة هامان لفرعون، وهم قادرون شباب أصحاء الجسد والبنية؟ على الأقل، فعل البريطانيّ ما يقدر عليه، وهاجر من بلدٍ يسعى أمثالك للهجرة إليها كما تسعى الحية لجحرها في يوم قائظ، طلبا لعيش لا أكثر.

ثم يقول الرقيع « ألهذا الحد استمرأ الكاتب الجلوس في بريطانيا حتى أصبح يمنّ علينا بهجرة أبي حسام إلى الشام ويجعلها مانعا من موانع اعتقاله؟

– أليست إقامته وغيره هناك هي خلاف الأصل للضرورة .. كضرورة دخول الخلاء –أعزكم الله– كما عبّر عنها أحد المشايخ؟»

لا والله، لا حياء ولا عقل ولا دين ولا خُلُق ولا إنصاف ولا علم، هي حياة كحياة الأنعام، بل هي أضل! ألا يدري الرقيع حال الشيخ السباعي الذي يعرفه القاصي والداني، من حبسه داخل بريطانيا بتواطئ مصر مع مجلس الأمن والأمم المتحدة، ووضعه على قائمة «الإرهابيين» التي فزع منها سيدك وقائدك الجولاني، فنكث بيعته هرباً من أن يوضع عليها، فخيّبه الله، ووضعوه عليها رغم أنف أنفه!؟ ألا يعلم أنه ممنوع من أن يضع في يده ثمن تذكرة أتوبيس بله طائرة، يا خيبة أمل والديك!؟

ثم انظر إلى المثل الذي ضربه الرقيع، جاء به من بيئته المجرورية، حيث أَلِف رائحة الخلاء، ومجالسة المُخْتَلين في وقت خلائهم، كما يظهر، ولا أظن قائل هذا المثل سيئ الرائحة، كان يقصد أمثال د السباعي، من الذين هربوا من الطاغوت والسجن والقتل!

ويواصل الرقيع « أأصبحت الكتابة لمجرد الكتابة .. وأصبح عرض إخوانك مستباحا لمجرد خلافهم مع أبناء بلدك المقيمين هناك في شرقي آسيا:

نفسُ تّفّس الحرورية، حين لوحوا بقومية بغيضة، يشهد كلّ قول وخطبة للشيخ بأنه يكرّهها للمسلمين، وهل أمير «جماعة شرق آسيا»، يا جبان، الشهيد الأول كان من أبناء بلدة الشيخ؟ وهل عبد الله عزام من أبناء بلدة الشيخ، وهل الملا عمر وأبو فراس السوري وأبو خالد السوري، الذين استُهدفوا، بخيانة من نعلم، لخلافهم مع من نعرف، من بلدة الشيخ. بل مجرد تافة محقّرٌ صغير عيّ سفيه حلم وحديث سنّ، بل أقل من ذلك طبقاتٍ وطبقات. هي قلة أصل أحسبها، فانظر إلى سلالة هذا الرقيع، وانظر إلى سلالة المخلصين الصادقين، فإن العرق دسّاس.

ثم انظر إلى السوقية، التي هي منشأ هذا الرقيع ومرعى شبابه الضائع في قوله «صحصح يا عمّ؟» ما هذا؟ دلّونا يا أهل العلم، ما هذا؟ ما هذا يا جولاني؟ أهؤلاء أذرعة القائد الفاتح الشرعية، على أي دين يشرّع هذا الرقيع؟ أم هم من نفس عينته، إذ لم يُعرف له شهادة علم ولا تخرّج، ولا دراسة، بل هو نبتٌ خرج من سجنٍ يتحكّم فيه الأمريكيون، ملازما للبغدادي، وذيلاً له، فتمسْكَن حتى تَمَكّن، وبكي تحت قدميّ الحكيم لينسب نفسه له أولاً، حتى وجد فرصته، فلدغ لدغته ... هذا الحربش من ذاك الثعبانّ (الحربش وليد الأفعى)

وعلى منوال هذا الرقيع، تنسج بقية عصابة الجولاني، ممن ذُكرت لي أسماؤهم، منهم حيدرة القاسم! وآخر لا أذكر اسمه، بحمد الله تعالى ...

هذا ليس ديناً، ولا جهاداً، ولا إخلاصاً، ولا حقاً ... هذا على منوال «حرّقوه وانصروا آلهتكم» ... على أحسن تقدير.

فصيلٌ، هؤلاء أفراده، وأولئك قادته، لن يُكتب له فلاح، كما رأينا، فهم في سقوط مستمر، لكنّ عمى بصائرهم، وملمس دولاراتهم، ران على قلوبهم، إلى حين تلفظهم تركيا، ولعله يكون قريبا ...

والبيّنة على من ادعى يا رقيع ... آت بسجلٍ كسجل الشيخ د السباعي، أو نصفه أو عشره، نعتذر لك عما فرط منا، وهيهات، فأنتم غبش في عين الحركة الإسلامية، ستطردكم بعد أن تتطهر تلك الساحة التي جمعت نجاسات الأرض، بل لم نر مثلها في جهاد إسلامي تابعنا أحداثه منذ خمسن عاماً.

د طارق عبد الحليم

٢ يولية ٢٠٢٠ – ١٣ ذو القعدة ١٤٤١



(7)

أفيدونا ... على أي دينٍ هؤلاء!؟

مسرحية الجولانيّ

لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم!

بهذا يُفتتح القول في أمر هذه العصبة العجيبة التي انتكست وارتكست، وضيّعت وفرّطت.

ماذا تفعل الهيئة في إدلب؟ ما الذي آل إليه أمرها، وتبدّل إليه وضعها؟

هل كانت مسرحية الجولاني، متعددة الفصول والغايات، بدأت بفصلها الأول، فإذا هو تابعٌ مخُلصٌ للبغداديّ، رغم علمه بما عليه البغدادي الهالك.

ثم كان فصلها الثاني، خروجه عن بيعة البغداديّ ليستقل بسوريا، وكانت جبهة النصرة، وأعلن أن بيعته، حتى من قبل، كانت للحكيم، وأنه مُلتزمٌ بها مربوط بولائها.

ثم كان فصلها الثالث وهو نقض بيعته للحكيم، التي غزلها بنفسه حين احتاجها! نهاز فرص؟ ممكن ... ما الحُجة؟ انضمام الفصائل، بالطبع تحت إمرة مخُرج المسرحية الجولاني، ولهذا رأينا فشل المحاولة، وانهيارها، لآن الرجل لم يحصل على ما أراد من سلطة .. وانسدل ستار الفصل الثالث على نكث بيعة، وحرب على الفصائل، الي كانت حجتها، واستمهوا يا أولى الألباب أنها ضد من خان ووافق على استانا وسوتشي وتعانل مع الارك ... أي والله ... والتاريخ قائمٌ ومدوّن!!

ثم إذا بالأمور تنقلب فجأة ويرتفع الستار عن الفصل الرابع، وهو تحوّل الهيئة، على يد الجولاني، وأحباره من أشباره، إلى تبعية الترك، والموافقة تدريجيا على السماح لهم بدخوا إدلب، على أنه دخول مؤقتٌ لإنشاء نقاط مراقبة في صالح السوريين، ثم إذا بها تتحول،

بفعل كأنه فعل عفريت من الجن، إلى الاستسلام التام للخطط التركية، ولعب دور الشرطيّ لحسابهم، وإلزام الكلّ بالكفّ عن أيّ فعل هجوميّ، ضد الحُتل، ومجرد محاولة الدفاع لا غير، وعمد فتح جبهات، إذ هي شروط الترك لصالح الترك وخططهم المشتركة مع الروس، حماة النصيري الكلب بشار! وإذا بهم يستغلون ولاءهم الجديد للترك، الذين يلعبون بهم كالدمى، ولا يفقه هؤلاء الصغار أنهم أدوات مرحلية حتى ينهي دورهم، إذ الترك يعلنها دون مواربة «وحدة الأراضي السورية»! فماذا يا حمير حواريّ الجولاني تعني هذه الكلمة لكم؟ أفيدونا!

الترك قالوها وعملوا عليها، تسليم المنطقة للجيش الوطني العميل العلماني المأجور، لا الهيئة، التي سينتهي أمرها بضمان الاتفاق السياسي، والاتفاق على صورة الحكومة العلمانية الجديدة، سواء بوجود بشار أو بغيره، هذا لا يهم المسلمين الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل وطنٍ مسلمٍ يتحكم فيه المسلمون بمصائرهم!

فماذا هي الخطة التي تعتمدها يا مخرج المسرحية، وما هي معالم الفصل الخامس؟ أقسم لكم أن الرجل لا خطة له اليوم، إلا إنه كالفأر «المنوق» في ركن، لا يستطيع منه هروباً ولا عنه تحوّلاً، إذ ترفضه تركيا كوليّ لها، رغم ما قدّم ولا يزال لقدم لها، من علامات ولاء وتسليم. لن تقبل تركيا ولا التحالف ولا الروس، ولا الحكومة الجديدة برعاية الأمم المتحدة المُخرج الجولانيّ، الذي صفّى الساحة من أعدائهم، أولاً، فقُتل كل من ناوأه في أفعاله على يد التحالف، دون أن تمسه وأشباره من الحواريين، أمنيين وشرعيين، أعزكم الله، أي أذى !! ترى ما الأمر!؟

وتصل الدرجة من الخيانة والولاء للكفار والبراء من المسلمين أن يشترط المجرم الجولاني أن لا يعزي أحدٌ في مقتل مسلم استُشهد خارج الشام على أيدي التحالف!!

يا إله الناس وربهم! ما هذا في ميزان الإسلام؟! ألهذا الحدّ أخذتم الدنية في دينكم، وارتعبتم من مجرد التعزية في مسلم، حتى تخفوا معالم الدين، ولا أقول دينكم، فوالله لم نعد نعلم عنكم وعمن يؤيدكم ويدفع عنكم أي ملة أصبحتم عليها!

أفيدونا ما المدافعين بحرقة عن هذه العصابة، في أيّ دين هذا الشرط مقبول!؟ أليست لكم كرامة ولا ضمير ولا خلق عربيّ ولا أعجمي، ولا ولاء ولا براء ولا اعتبار لإخوة في دين، فتحرموا التعزية في شهيد قتل على يد الصليبيين؟ وهل الشهيد خارج الشام أقل منه عمن استشهد خارجها؟ ما هذا يا قوم، أذلكم الله أكثر مما أنتم أذلة مهانين مرعوبين؟

أنتم مصنفون بالفعل يا كلاب الشام، إن كنتم لا تعرفون، مثل تصنيف كلاب أهل النار العوّادية، وولاؤكم لن يجديكم نفعاً يوم يأتي يوم الحساب مع الترك والروس، لكنكم، كمن عبد العجل، قومٌ تجهلون.

أفيدونا يا المدافعين عن هذه العصابة، أي حجة لكم؟ أين خطة عندكم؟ أي دور يلعبه من تسيرون وراءه إلى سقر؟ ما هي ملتكم!؟

ثم يقول أحد أشقاكم، «لم نعد نأخذ أوامراً من الأبراج العاجية في خارج الساحة»، لا، بطل مغوار حقاً! بل لا تستنع إلى الناصح من الخارج، فقد تحررت من قيد الإخوة والعلم، لكنك تستمع كالكل يستمع لسيده، إلى أسيادك في أنقرة وواشنكن، من خلال بوقهم المُخرج الجولاني، لكنكم شُشبٌ مسنّدة.

هيا سيروا، وقاتلوا عصبة من المسلمين، وافنوهم، أو اجبروهم على قبول المهانة والذلة والصغار والتدني والجبن والعمالة والخيانة والرقاعة الفكرية والسفه، كما قبلتموه وارتضيتموه، وظننتم أنكم مُصلحون ...

د طارق عبد الحليم

٧ يوليو ٢٠٢٠ – ١٦ ذو القعدة ١٤٤١

(8)

طامة خائن الشام الجولاني الأخيرة ..

ظاهرُ صنديد وقلبُ رعديد!

قال تعالى «وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ» الحشر ٢

هذا ما قال تعالى عن الكفار الذين تحصنوا بغير الله، وظنوا أنّ حصونهم مانعتهم من قضاء الله عليهم، فباتوا في رعبٍ شديد، حتى جاءهم الحقّ، ولقوا ما يوعدون.

وحكاية الله للمؤمنين عن أولئك الكافرين، وحالهم النفسيّ، مثل وعبرة، فمن المنافقين من تعلم حالهم مثل هذا من تصرفاتهم وأفعالهم.

الجولاني، عدو الجهاد والمجاهدين، خائن الشام والمسلمين، جزاه الله بما يستحق، قد قذف الله في قلبه الرعب من قوى الشر المتحالفة، حتى منع أبسط أنواع إظهار الولاء للمؤمنين، خاصة للشهداء الساقطين في سبيل الله، وهو واجب العزاء ..! أي والله، منع الغزاء في أيّ شهيد يسقط بضربة من التحالف الصهيوصليبي، خارج الشام!! فقسّم أنواع الشهداء إلى قسمين، شهيد داخل الشام وشهيد خارج الشام!! حكم تشريعيّ جديد!

قذف الله في قلب الخائن الرعب، وظنّ أن اتفاقاته مع المتحالفين مانعة من أمر الله، بسحق الساقطين، ممن هذا حالهم، سواء كافرين أو منتسبين لإسلام، فهي سنن تجرى، وأقدار تسرى.

ثم إذا بالخائن، عميل المتحالفين، يخالف ما زعم، فلم نسمع كلمة عزاء واحدة في حقّ الشهيد بإذن الله، القسّام، رجل الشام، وصاحب الإباء والعزيمة والشدة على الباطل! هذا، رغم أنه قُتل في الشام، أي «شهيد شامي» حسب تقسيم الرعديد! لكنه كان يخافه ويهابه،

فقُتل القسّام لحسابه! ولولا هذا ما أقدم على اعتقال ابو مالك التليّ، أو فعل ما يفعل الآن من مطاردة الحراس، واعتقال أو قتل رؤوسهم، لأنهم لو جمّعوا واجتمعوا وقاتلوا المحتل الروسي والصفوي والنصيري، لكشفوا نفاق المُجرم وعمالته، وسحبوا البسط من تحت أقدامه وأقدام قروده من الصبية سفهاء الأحلام حدثاء الأسنان، ممن كان يلبس الحفاضات عند بداية الثورة!!

ولا شكّ أن الخائن العميل وأذنابه قد تلقوا خالص التهاني من القوى المتحالفة، على موقفهم المشرّف (!) في الإعراض عن مجرد تعزية فيمن قتلوا، وهو من المسلمين المجاهدين، يزن ألف جولانيّ وجولانيّ. ولا شكّ أن المغفل قد صدّق الوعود الجديدة من الترك، أنهم سيتركوا له فسحة في إدلب! ولكن، واسمع كلماتي هذه، فسيعرفها أذنابكم يوما نراه قريبا وتراه بعيدا، سيقتلونك ساعة لا يكون لك مهمة تخدمها، ومذلة تقدمها. ساعتها سيكون عمرك معدود بالساعات لا الأيام، فارقب قولي هذا ...

واللهم أصبهم بما يستحقون، وامنع أذاهم عن المؤمنين، وأرح الساحة من خيانتهم أجمعين، كما أرحتها من الحروريين، إنك على كلّ شئ قدير

د طارق عبد الحليم

٨ يوليو ٢٠٢٠ – ١٧ ذو القعدة ١٤٤١



(9)

المنـهج ... وما أدراك ما المنـهج!

أسال تلك العصابة الشريدة الفكر والضمير، التي تنشر حديثا مفاده أنهم ذبحوا «عجل المنهج»! ما المقصود من ذبح عجل المنهج؟ ما هو ذلك المنهج الذي يقصدونه؟ أهذا المنهج هو عجل وشرك بالله، كعجل موسى عليه السلام؟ أكهنة المنهج، كما يسمونهم، كفارٌ كفر أصحاب العجل والسامريّ؟

على كلّ حال، أوضّح «المنهج» الذي أظن أني، العبد الضعيف، أحد كهنته، على حدّ تعبير العصابة الشريدة، فأنا أعرف به من كثيرٍ من الخلق.

المنهج، مقصود به «منهج التوحيد» أي الالتزام بطريقة الموحدين في استنباط الأحكام في الوقائع المختلفة، بحيث لا تخدش تلك الفتاوى مقام التوحيد وأصوله. وهذا المنهج يراعي قاعدة توحيد العبادة الأولى وهي أن الحكم لله وحده، وأن الولاء لله وحده، وأن النسك والشعائر لله وحده. وكلّ ما يعارض هذا الأصل، حالاً أو مآلا، فهو شركٌ بالله، إلا بشروط مبيّنة في قسم عوارض الأهلية، من جهلٍ أو خطأ أو نسيان أو تأويل، قبل البيان الرساليّ. وهي قواعد مبسوطة في كتب العقائد والأصول، لا ندخل في تفاصيلها هنا، لكنها تُنشأ للمسلمين «منهجاً» للنظر والاستدلال، ومن ثم للإستنباط والإفتاء، تبعا لتلك القواعد والأصول، لا تبعاً للهوى المُضل والرأي المُخلّ، كما يفعل أهل البدع بلا استثناء. وهو ما دوّنا فيه بحثاً مطوّلا بعنوان «منهج النظر والاستدلال عند أهل السنة والجماعة»[١].

وقد حاد عن هذا المنهج الكثير من الخلق، ومنهم تكونت فرق الأمة الثلاثة والسبعين. ومن أفراد الناس، وإن مانوا لا يقارنوا بهذه الحفنة الجاهلة، من خرج بمذاهب، مثلما فعل

---

[١] https://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/73265

الطوفيّ الحنبلي، على قدر ما كتب من أعمال مفيدة، في قوله بتقديم المصلحة على الشرع، وردّ عليه كافة علماء السنة والجماعة.

المسألة هنا أن الحركة الجهادية في الشام، تعرضت لقرصنة مجموعة من سفهاء الأحلام، غالبهم حدثاء أسنان، لا يفهم هذه الأمور، ولا يعي عنها شيئا. مجموعة من «المغامرين» من صبيان الشام، فتحت لهم الإنترنت مساحة ليكون لهم كلمة بين الناس، دون أيّ علمٍ بالمرة، أقصد على الإطلاق! أو من «المشايخ» الهاربين الفارين من بلادهم، حيث وجدوا المأوى والطعام، طالما أطاعوا فيما يدونون من كلام، وفتاوى وأحكام، تتفق وهوى القيادة من الصغار والطغام. فأن نطلب من أمثال تلك الحفنة من الصبية أن تعي ما نقول، هو خروج عن حدّ المنطق والمعقول.

لكنّ هذه الحفنة البلهاء المشؤومة، لا تعي شيئاً من شرعٍ أوعقل، أُشهد الله على ذلك، وهو شهيد. لا طوفيّ ولا غيره. هؤلاء سود العقول، كأن صفحة عقلهم غُمست في حبرٍ أسود، فلم تعد تصلح ليُنقش فيها علم من أيّ لون. هو سلطان البدعة على عقول الجهال، لا غير.

ولعلنا، مع معرفتنا بعدم جدوى سؤال المهبول، أن نسأل هؤلاء أيّ منهجٍ ذبحوا؟ أهذا المنهجٍ هو ما يرونه عجلاً يُذبح؟ أيَعدّون التسليم للديموقراطية، والولاء العبثي لدول علمانية تحت ستار المصلحة، هو المنهج الصحيح؟ أيرون أن «من يده في الماء الساخن ليس كمن يده في الماء البارد» دليل شرعي يعتمدونه في استدلالاتهم؟ أيعتبرون تسليم رقابهم ومصائرهم وأرضهم لدولة علمانية، تُصرّح بأنها ستسحق أي «إرهاب» وأن سوريا وحدة واحدة!؟ ثم يقتلون ويعتقلون، حسب أوامر أسيادهم العلمانيين، من أراد أن يتخذ مسلكاً آخر، لا ترضى عنه أمريكا وتركيا!؟ أهذا هو المنهج الذي تتبعونه، أو لا منهج لكم ولجولانيكم العميل المأجور على الإطلاق!؟ والله لا نعلم أنبكي أم نضحك من حال تلك الساحة التعسة المنكودة برؤوسها، قطعهم الله!

أليس هذا ما حاربوا عليه أحرار الشام والجبهة الإسلامية من قبل!؟ أم إن هذا كان قبل مولد هؤلاء الصبية الغزي والبزي والزبادني والزبيديّ، وعصابة الرّضّع تلك التي أحاط العميل الجولاني نفسه بها!؟

إن هؤلاء قد وجدوا مخرجاً من منهج أهل السنة والجماعة، تماماً كما فعلت صبية الحرورية العوادية، بمحاولة نسف من يمثلون هذا المنهج النيّر المستقيم، عقودا متطاولة. بل إنهم تعدوهم بخطوة وهي إعلان إنهم «ذبحوا المنهج» أي إنهم متلونون، متفلتون، بلا منهج ولا جهة ولا اتجاه! هكذا...! فصاروا يتحدثون بما يريدون، تماما كما فعل أنصار العلمانية والليبرالية والحداثية وما شئت من هذا الإفك، الذين تسمعهم يرددون مثل حديث صبية الشام «لا منهج، نحن متحررون»! الله أكبر، أخزاكم الله يوم تلقونه.

ونحن في انتظار ما يخرجه «ذُبَّاح منهج السنة» لإيضاح منهاج الضلال وأصوله وتفريعاته! بعد أن ذبح الصبية التائهون المشردون فكريا وشرعيا، منهج السنة والجماعة.

د طارق عبد الحليم

٩ يوليو ٢٠٢٠ – ١٨ ذو القعدة ١٤٤١



(10)

يا شيخ أبا قتادة ...

أقولها بسعة صدر ... ألم نحذرك !!؟

الأخ الشيخ أبو قتادة، أعانه الله على ما هو فيه ...

ألم نحذرك من دعم الصبية وعبثهم؟ ألم نقل لك: أنت مخطأ في استشرافاتك كلها، لا بعضها؟ ألم نقل لك أن هذا الجولانيّ ماكر خسيس، فقلت أنت بل هو فاتح عظيم، سيدخل القدس في تسع سنين!!؟؟ والله كانت تلك هي المُضحكة المُبكية.

فماذا نرى اليوم؟

يهاجمك صبيانه المشردون التائهون الغافلون، فلا يحرك ساكنا، ولا يردعهم، تماما كما فعل أستاذه من قبل البغدادي، حين كان أذنابه يتطاولون على أهل العلم، فيقول أولياؤه، لا يمثلوننا! هل نسيت هذا يا مولانا الشيخ؟

كيف يتسنى لشيخ مجرّب عارف قارئ، صاحب علم مثلك، أن يقع في شرك هؤلاء، كلّ هذه المدّة، حتى يقع المحظور، ويصبح هدفاً لتلك الأشلاء الإخوانية، المسماة هيئة تحريق الشام، ظلما وعدواناً؟ نعم ممكن أن يقع بعض أذنابك في شرك هؤلاء، فكثير منهم لا سابقة ولا لاحقة، لكنك أعلم من ذلك يا شيخ!

ألم يكن هؤلاء يهاجمون الدغيم وشريفة وعلوش، ثم أصبحوا هم اليوم أنفسهم، صورة كئيبة لأولئك المتاعيس المنسيين؟

قد أخرجنا أول تحذير منهم في ١٨ أكتوبر ٢٠١٧، أي منذ حوالي ثلاث سنوت تحت عنوان «ماذا وراء الأكمة ...»[١]. ثلاث سنوات يا شيخ أبو قتادة، وأنت لا ترى ما حولك

---

[١] الأعمال الكاملة المجلد الثالث ص ٣٨٤

رؤية صحيحة ...

أتعتقد أن فصيلاً فيه أبو مارية والزبيدي والغزي وهذه الأشكال المُحطّمة يمكن أن يتم على يديه فتح؟ والله لو مكّن الله لهؤلاء فتح علبة سردين لكان لهم مفخرة ...

ثم تفكّر، يا شيخ، لو أن القيادة لديها إرادة أن توقف هذا العبث، وتعتبر أنك الوحيد الذي نصر هؤلاء وقال فيهم تلك الكلمات الضخام العراض! رغم استمرائهم في التميّع المردي، لأوقفوه، فإن أحدهم لا يتكلم إلا بإذن، ولو إذنٍ سكوتيّ. المشكلة إنهم لا يرضون منك سكوتا أو توسطاً، إما معنا طول الطريق، تطبل لكل عمل وقرار وسفك دماء، أو أنت عدونا وسنطلق عليك كلابنا تنهش في سمعتك! هذا حالهم، مخنثة الخوارج هم. وسامحني، إن قلت لك: لن يتمكن تلامذتك الصغار، من حديثي العهد بالعلم والالتزام عامة، من ردّ عدوانهم، فهمُ كثرُ، كما قال أبو فراس الحمدانيّ! كما أنهم لا ضمير ولا دين ولا عقل ولا علم.

لكن نصحناك من قبل، فتابعت استشرافاتك ... هداك الله

د طارق عبد الحليم

١٠ يوليو ٢٠٢٠ – ١٩ ذو القعدة ١٤٤١



(11)

سبحان الله .. أنخاطب جمعٍ من جِرَاءٍ كذوبة ..!

الله أكبر !

ماذا خرج من رحم تلك الثورة الشامية التي فقدت نصف مليون شهيداً أولاً، ثم خسرت نفسها وتدحرجت لقاع حضيضٍ، تعف النفس اليوم عن وصفه بساحة جهاد؟

أين تعلم هؤلاء الصبية الذين حادوا بها عن طريقها، وألقوها في مزبلة الساحات، ذاك الكمّ من الكذب؟!

من هؤلاء الذين هم، في أحسن حالاتهم، عالة على تاريخ المرحلة، متسولون في درب المعرفة، متسورون على أسوار العلم، لم يرشفوا من بحره قطرة، إلا كما رشف مغفلٌ قطرة من ماء المحيط المالح، مزّقت أمعاءه فلم يعد قابلاً للاستيعاب بعدها!؟

أصبحت الساعة على خبر عجيب من كلب من كلاب هيئة النجاسة والفساد، في قناة اسمها «الإفريقي» على ما أحسب، أرسله لي أبن حبيب، يتحدث عن الشيخ د السباعي، أنه سرق بحث الدكتوراه في مسألة القتل العمد!!

سبحان الله، أفقد كاتب هذا الخبل دينه تماماً، بالمرة، حتى لم يبق فيه ثمالةٍ من فضلٍ من شرف؟

هل أتى لنا، وللقارئ الذي يقرأ فلا يعي ما يقرأ، بأصل البحث المسروق منه، لنعرف ما حقيقة ذلك البهتان؟

قال صلى الله عليه وسلم «لو يُعطي الناس بدعواهم لادّعى قوم دماء أقوام وأموالهم، لكن البيّنة على من ادّعى» فأين البينة يا كلب الهيئة النابح تحت شجرة الشيخ الوارفة المثمرة لأكثر من ثلاثين عاماً، من كتب وخطب، قبل أن تُلقى حفّأظتك، إن كان لك أهلٌ وضعوها لك أصلاً ؟

شغبتم من قبل على قمم الجهاد الذين صرفوا قدر عمر آبائكم مضحين بأنفسهم وأهليهم في قتال العدو الحق، ولم يستسلموا لمبادرات الديموقراطية العلمانية خوفاً ورهباً مثل فعل جرو الشام الجولاني، خوفاً ورهبا.

إلى متى سيظل هذا الماخور الفكريّ المفتوح على مجاري الأقوال والادعاءات، يتأسون فيه بزعيمهم المخادع الكاذب الأثيم، إلى متى سيظل ينتج ذاك القيح، يلوّث به تاريخ هذه المرحلة في تاريخنا المعاصر، كما لم يلوثها جمعٌ من قبل؟

والله فاق هؤلاء الكلاب، كلاب البغدادي، لعنهم الله كلٌّ معا، فقد صارح رائحة إدلب تزكم الأنوف من كمّ الكذب والنفاق والخداع والجهل وقلة الشرف والكرامة والحياء، حتى صح فيها قول الله تعالى «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصّة» الجولاني، الظالم الأول في إدلب، الحقير العميل، وأذنابه، هم سبب ما حدث لأهل إدلب من عقاب الله تعالى، وخذلان ثورتهم، بعد أن سيطر أنجس أهل الأرض من رافضة ونصيرية وفاشية شيوعية على بقية بلادهم قاطبة، وبقوا هم يحتمون وراء دولة علمانية، ستسلمهم في القريب، بعد ضمان مصالحها في مبادرة الأمم المُتسخة.

اعووا ولا ترعووا يا جِراء (جمع جرو أي صغير الكلب!) الجولانيّ فيومكم الذي توعدون قريب ... وانتظروا إنّا منتظرون .. وما نهاية البغداديّ منكم ببعيد!

د طارق عبد الحليم

١٠ يوليو ٢٠٢٠ – ١٧ ذو العقدة ١٤٤١

(12)

فضيحة كلاب هيئة تخريب الشام بشأن الأخ بلال عبد الكريم

هي هي .. طرق السيسي وابن زايد وابن سلمان .. وكافة طواغيت العرب وكفارها منذ مائة عام ... ملفات قذرة يهددون بها من يعارضهم ..

الفارق هنا أن كلاب الهيئة - وهي صاحبة المصلحة الوحيدة في نشر صور سيئة للأخ بلال - نشروا صورة مخلّة بالشرف، رغم إنه جالس في بيته، وله حقّ الخصوصية، ليسكتوا صوته، رغم أنه معتدلٌ في معارضته. لكن الطاغوت الشيطاني الجولانيّ، لا يحتمل أي معارضة لما يفعل من منكرات.

هذا عمل فاضح لكلاب تلك الهيئة الساقطة ومنتميها من أجراء (صغار الكلاب) وخاصة أبو مارية، مع الأسف، الذي هدد من قبل بالفعل. ولو نظر في الأمر قاضٍ حديث التخرج لما خرج إلا باتهام من له مصلحة فيما حدث .. وإن كان الاتهام المباشر يتوقف على دليل ماديّ .. لكنها قرائن تتضافر .. والله أعلم

طلب أخي الشيخ هاني من هيئة العار والشنار، أن يعدلوا ... وآسف، فقد حسن ظنّ أخي الشيخ بهؤلاء الكلاب ... فإنهم قد سقطوا بالفعل في حمأة الكبائر والبدع، وهم على شفا جرفٍ هار يقتربون من مفارقة دينهم، في الخطوة التالية ... إلا من رحم ربي منهم. لا تجدي نصيحتهم يا أخي الحبيب، فقد كُتب عليهم الشقاء ... وهو سبحانه لا رادّ لقضائه ...

د طارق عبد الحليم

١٠ يوليو ٢٠٢٠ – ١٧ ذو العقدة ١٤٤١

(13)

وإن أنت أكرمت اللئيم ...!

سبحان الله العظيم ...

حين تتوجه بحديث ناصح، لرجل عاقلٍ مُتَّزن الشخصية، غير مُنْتَفخ الأوداج ، مُتَنَفِّخ الصدر، كالديك الرومي! دون كلمة تجريح أو بذاءة، بل عتابٍ ونقدٍ، وإن اشتد، من حيث يتناسب مع قدر غفلته وتغفيله، وقلة فراسته وضعف تحليله، حقائق تشهد عليها مواقفه وأحواله، واستشرافاته وأقواله، رأيته، يتقيأ ألفاظاً بذيئة وكلام «قذر» لا يتمشى مع من تربى في حضن أسرة ذات خُلُق بالمرة، بل تدلُ على أصل ساقط وتربية منهارة خلقياً، وكم من الخلق من يعجبك قوله وهو خرِبٌ في الداخل إما لقلة أصل، وهو غالب، أو لسفاهة حلم، أو لتكبر نفس، وكلها أدواء نراها.

ثم نرى هذا الرجل، يلمّح ولا يصرح، جُبناً وَوَهَناً، لا لسبب عدم حصيلته من الألفاظ البذيئة، فهو مَقْلَبٌ لها، بل لضعف حجته، بل لعدمها. فتراه في هرطقته وهلوسته، يتحدث عن العمر الفان، وكأنه لا يزال يرضع «البزازة»! وإن كان لا يزال بعيداً عن الحكمة والوعي بما حوله بُعد الأرض عن السماء السابعة! وقد كان هكذا منذ وعى .. كما عرفه أقرانه.

وأنا رجل صريحٌ، أتحدث مباشرة إلى من أراه في سفاهة وخطأ، كلّ حسب درجة سفاهته، ولكن عزّ عليّ أن أردد اسم ساقطٍ من الخَلْقْ، وضع نفسه بنفسه في شرك صبية رعاع، وصار مضحكة للكثير، خاصة وهي المرة الثانية التي يرمي فيها بقوس خائبة، تصيب الراعي لا الصيد! حيث دمّر قبلها ساحة أخرى يعرفها من يعرفه، من غفلة وعمى قلب.

ويشهد الله، ما تحدثت عن أحدٍ إلا ليرجع عن كِبره ويعترف بخطئه، لا لسببٍ آخر، فإنَّ تدارك الخطأ خير وأفضل من التمادي فيه، ولكن هذا الغرّ المُتَنَفِّخ لا يرعوى! هكذا خلقه الله، حتى يكون هدفا سائغا للتنكيل والإهانة، بحقٍ لا بباطل.

وإلا، فإين ردّ هذا الطاووس النافش ريشه، على ما وجهناه له من تنبيه على أخطاء وبلاء وقع منه، حين وصف حقراء وضعاء بأنهم فاتحون منتصرون!؟ أين ردّ مغفل الساحة الأكبر، بعد أن أهانه من نصرهم وحمل لواءهم ضد من هم أعلم منهم ومنه بلا شك؟! أين قوله حين انتقد الحكيم يوم قال «لا أحلّ أحداً من بيعته» بعد ظهور مكر وكذب العميل الجولانيّ، فجرّأ الصبية على سبّ الحكيم الذي قال عنه من قبل «لو سلك الناس واديا، وسلك الحكيم وادياً لسلكت مع الحكيم!»!؟ يشهد عليه مشايخ أحياء فيما قال! أكان هذا نفاق أم غفلة؟! وأظنها غفلة، فالرجل متخبطٌ في أحكامه على الدوام.

كلام عامٌ ... عن السفهاء، وما يجب أن ينشغل به الناس ... وآيات في غير موضعها ... وزوراً عجيباً ...

سبحان الله ... كم يتبع العوام من أسماء مضروبة، لا خُلُق ولا فهم ولا وعي، بل تحمّس مراهقٍ، ذهب ينفخ في قرب مقطوعة فإذا بها تخرّ خَبَثَها على رأسه كما حذرنا من قبل. لكن ... ظنّ بنفسه ما ليس فيه، وهذا أشدّ الأدواء في خُلُق الناس .. وما يجرّ إلا إلى خلق اللؤم ..وصدق القائل

إن أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ومن إكرام المرء تنبيهه على غفلته وغباء استشرافاته التي ظهر للأعمى خطلها .. لكن ... نتركه هنا، مهانا .. من صبية الشام..

د طارق عبد الحليم
١١ يولية ٢٠٢٠ – ٢٠ ذو القعدة ١٤٤١

(14)

يا شيخ الاستشراف ...

أين ردك يا شيخ الاستشراف والتنبؤ البارد الخائب على نشر صورة عارية لرجل مسلم؟ ثم أين كلامك عن اعتقال الأوزبكي والتلي؟ أين حديثك عن منع التعزية في مسلم استشهد خارج الشام؟ أين جهاد الأمة يا خائبها؟ تحابي هيئة الخيبة، وهم عينوا الزبداني، لإهانتك رسمياً دون تدخل من قادتهم، فبلعت الإهانة وتحدثت عن شيخ «فانٍ» وكأنك خالد مخُلد؟ ما هذا الجبن والخساسة التي وقعت فيها؟ أهي لكثرة ملازمتك للساقطين وعداءك للأكرمين؟

ألا خيبك الله أكثر مما خِبت ...

د طارق عبد الحليم

١١ يولية ٢٠٢٠ – ٢٠ ذو القعدة ١٤٤١



(15)

جرو آخر من أجْراء الجولاني ..

يزيف التاريخ - اسمه الشماليّ الحر ..قوص!

طبعا لم يقدر الهراري أن يتصدى للردّ على مواقفه «الحالية»، التي فيها الحق أبين من الشمس الساطعة ... فحرّك جرو صبيّ من مأجوريهم يتحدث نيابة عنه ... شمالي حر.. قوص

هذا الكلام الذي نشره عني، كان قبل أبريل ٢٠١٤، حين كانت الأمور لا تزال مشتبهة، بل وكان الجولاني نفسه مبايعا للبغدادي، بل الهراري نفسه كان عمودا من أعمدة جماعة الحرورية ... ثم خرج حديث العدناني الهالك فكتبنا ، والشيخ السباعي بيان البراءة .. وهذا قبل تواصل الهراري معنا وأحداث الشرقية يا حمار الهراريّ .. بل كان الهراري يسب ويلعن في الجولاني وقتها، بعد انتهاء أمر الدولة بالنسبة لنا، وبل وأخرجنا أدلة شرعية وأصولية لم يتمكن أحد من ثآليل الجولاني أن يكتب منها سطوراً ...

كاذب، هو والهراري الذي دفعه لكتابة هذا التزوير ...

هؤلاء لن يتم على أيديهم شئ من خير ... بل فقط نشر صور عارية، وقتل المجاهدين وتوجيه التحالف لضربهم، واعتقالهم، والاحتفاظ بصور نساء الحرورية تماما كمخابرات بشار والسيسي، ثم لا يستحي أن يذكر هذا .. وحدّث ولا حرج ...

هؤلاء خرّبوا ساحة الشام التي باركتها دماء مئات الألوف، فإذا بهؤلاء الخرفان يخرجون من باطن الأرض يشغلوا الناس بهذه الهراء الهراري، الجولاني، أعداء الأمس وأحباب اليوم ..

بل أنتم الذين أدخلتم ةالبغدادي للشام، وأنتم شؤم تلك الساحة، ومن ضحاياكم يا

أجْراء العميل أبو خديجة وأبو جليبيب وأبو فراس والقسام وأبو الفرج وأبو الخير وكثير من أفاضل الخلق .. استحللتم دماءهم كما استحلت الحرورية استحلال دم المسلمين، فما الفرق بينكم وبين الحرورية يا صغار كلاب البغدادي العميل .. لا والله ليكونن حسابكم عند الله عسير ...

الهراري (العراقي .. رغم أن سوريا للسوريين هي شعار الجولاني .. فهل حصلت على الجنسية يا هراري؟) كان عمودا من أعمدة البغدادي، ثم هو الآن من أعمدة الجولاني، من حرورية إلى علمانية متسيبة تركية إخوانية استسلامية تجارية ... سبحان الله .. ألا تستحون...

كل ما نقول: أطلقوا سراح المظلومين، ولا تدلوا التحالف على المجاهدين، ولا تنشروا صور فاضحة خاصة .. كلها أمور من كرم الأخلاق والعدل، فإذا أنتم، وشيخكم السابق، الذي تبولتم على رأسه، تهاجمون أسيادكم، كلما دافعنا عن مظلوم، كما حدث من قبل أيام اعتقال العريدي ... وغيره ..

قمامة في مزابل، وكذب وتزوير لحقائق ... فلا تكذب يا هراري ... استح من نفسك ...

د طارق عبد الحليم

١١ يولية ٢٠٢٠ – ٢٠ ذو القعدة ١٤٤١



(16)

من أنقذ هيئة الخيبة من ويلات جماعة الدولة ...

نذكركم، يا أجْراء الجولاني، من هراري وشمالي وزبادي زبداني وإدريسي وعتريسي، وهذه المخلوقات المتدنية عن مستوى الإنسانية، من الذين تصدوا لتلك الجماعة، بالأدلة والبراهين والأصول، في أبحاث بالعشرات، وخطب وبيانات، مجموعة في مجلدات، لولا فضل الله ثم عمل عدد بسيط من الشيوخ المستقلين لذهب كافة الشباب تحت جناح البغدادي، الذي تخفّى تحت جناح الحكيم .. حتى شيخكم الذي بلتم على رأسه، كان في السجن في هذه الأيام من عام ٢٠١٤.

لا علم ولا ضمير ولا حياء ولا خبرة ولا سابقة ولا فهم ... ديدان متسلقة، تسير إلى حتفها ... وإن غدا لناظره قريب ..

د طارق عبد الحليم

١١ يولية ٢٠٢٠ – ٢٠ ذو القعدة ١٤٤١



(17)

الليث والدودة .. في كليلة ودمنة الشامية!

عن أمر الشام 2020

(١)

خرجت دودة من دود الأرض يوماً فإذا بليثٍ مهيب قائم فوق حفرتها، غير آبه لتلك الجراثيم الصغيرة. انتفضت الدودة، ومدت جسدها وشدّت عوده، لتصل إلى ما يقارب البوصتين، فتخيف الليث، لعله لا يلتهمها.

نظر الليث أسفل إليها، متثائباً، فصرخت إياك إياك، فأنت لا تعلم ما هو مخبوءٌ عندي، وعدد من هم ورائي وفي جحري! لم يفسّر الليث كلماتها، لصغر حجمها وضعف شأنها، فراح يلاعبها بإهالة بعض التراب عليها.

ظنت الدودة المسكينة أن الليث سيهاجمها، فنادت بعض رفاقها من الدود، ففزعوا لنصرتها. وبعد أن غطى التراب أجسامهم جميعا، واستلقي بعضها على ظهره وقفاً ميتاً، بدأت رائحتهم الكريهة تفوح في الهواء، فانزعج الليث من ذلك.

قالت الدودة، أراك انزعجت ممن حشدت لحربك، وإظهار ضعفك! لعلك نسيت من أنا، وهؤلاء!؟

نظر الليث بعيون واسعة متعجّبة، من تكبّر تلك المخلوقات الصغيرة النتنة، ولم يعرف ماذا يفعل، فقد تعوّد على مجابهة الأسود والنمور، أو حتى، إن حتم الأمر، الضباع الشرسة المقيتة، فيسحقها سحقاً. لكن تلك الديدان! لو تعرّض لها، لكان عارٌ في صفحة تاريخه وتاريخ بني جنسه.

فما كان من الليث إلا أن أهال كومة كبيرة من التراب على جحر الدود كلّه، ثم زأر مرة، فإذا بالدود يتطاير من تحت التراب، سائحا مهرولا مغموصا في حمأة الأرض، لا

حيلة له ولا سبيلا!

(٢)

أتمنى أن يكون حديثي هذا، الأخير في هذه السلسلة من «نظرات في أمر الشام ٢٠٢٠»، من حيث أن الأمر، أمر الشام أعني، لم يعد في حاجة إلى مزيد إيضاحٍ وبيان. فالوقت هنا هو الحاسم في الوصول للنهاية التي رضي بها وارتضاها لشعبه، الخائن الجولاني. والثورة الحقّة قد انتهت منذ حول ثلاثة أعوام، من ساعة دخول الأتراك إلى إدلب، وقد تابعت ذلك السقوط، خطوة خطوة، كما يلي، اختصاراً.

ساءلت مظهر الويس والهراري، حين بدأ الضباب يلفّ تصرفاتهما، ويعوجّ بهما الفكر والمنهج، إن كان لهما منهج، في مقال بعنوان «سؤال إلى أبي ماريا القحطاني ود مظهر الويس»[١]، بتاريخ ٢٦ أكتوبر ٢٠١٦! أوي والله، منذ ذلك الزمن البعيد، وانهرافهما بدأ في الظهور.

ثم تابعت في فضح «المميعة» وكانوا وقتها ممثلين في الأحرار وجيش علّوش، قبل أن تلحق بهما الهيئة! ومن ورائهما التافهان شريفة وهاروش! فكتب مقال «من المسؤول عن حال الشام» [٢] بتاريخ ١٩ يناير ٢٠١٧، ثم «الحقّ واحد لم يتعدد يا مميعة الشام»[٣] بتاريخ ٢٠ يناير٢٠١٧، وتوالت مقالاتي بعدها بشكلٍ شبه يوميّ، هجوماً على المميعة.

ثم كتبت بتاريخ ٣٠ سبتمبر ٢٠١٦، بحثا طويلا بعنوان «حكم الاستعانة بالتحالف أو الأتراك - الردّ على ماهر علّوش» [٤]، والذي كان عدوا للهيئة، لأنه يبرر التحالف مع الأتراك! فإذا الجولاني اليوم هو إمام التحالف مع التحالف!

ثم كتبت مقالين للقحطاني (أبو مارية) بعنوان «قرصة أذن يا قحطانيّ» و بعدها «قرصة

---

[١] مجموعة الأعمال الكاملة ج ٣ ص ٣١٣

[٢] السابق ص ٧٤٣

[٣] السابق ص ٠٥٣

[٤] مجموعة الأعمال الكاملة، المجلد الثالث: ص ١٢١ – ٢٤١

في الأذن الأخرى يا قحطاني» [١] بتاريخ ١٩ مايو ٢٠١٧ ، حين نصر الطرطوسي الساقط، والذي كان يسبّ الجولاني والهيئة سبّاً مقذعاً! وها هو الآن، ذلك القحطانيّ، يتابع الجولاني متابعة الفصيل لأمه! ويسبّ أصحاب «المنهج» كما سنبيّن.

ثم، بدأت الهيئة السقوط. وكتبت أول تساؤلاتي وتحذيري بعنوان «فكر الهيئة ودعايتها .. تساؤلات محب» [٢]. وكتبت تعليقا على صغير الهيئة الطفل الغزيّ بعنوان «تعليق على ما نشر الزبير الغزي في شأن منتقدي الهيئة من الغلاة المتنطعين» [٣]، ثم على فرغلي، ذَنَبْ الجولاني «عذرا يا شيخ فرغلي .. فما هكذا تورد الإبل» [٤]... بتاريخ ٢ يونية ٢٠١٧.

ثم واليت بعدها تكثيف حملة تحذير تلك الهيئة المشؤومة من مغبّة تصرفاتها. لكنهم وجدوا من يقف إلى صفهم من اسم في الساحة لامعٍ (!) يبرّر وينظّر، ويرغي ويزبد بأنه «جهاد أمة، وأنه «هذه كتيبة الفتح المبين والنصر المكين على الصهاينة الملعونين!» ومثل هذا الهراء الذي لا معنى له، مصحوباً ببعض كتابات عديمة الجدوى عديمة القدر، بارعة السفاهة، فكتبت مقالا بعنوان «من المسؤول عن تغيير اتجاه جبهة فتح الشام إلى هيئة جهاد الأمة!؟» [٥]بتاريخ ٢ يونية ٢٠١٧. كما علقت على أحد مقالات شيخ الاستشراف في مقال «تعليق على مقال الشيخ أبي قتادة الأخير بشأن السلفية الجهادية» [٦]، بتاريخ ٦ فبراير ٢٠١٩، وأمور حاول فيها التمثّل بشيخ مصر رفاعي سرور رحمه الله، لكن أين الثرى من الثريا ..

اتكأ الجولاني على هذا الشيخ التائه عن الواقع، المغرور في نفسه، المتكبر بطبعه، وراح يحارب كلّ من أراد جهاداً، ومكّن للترك، ورضي بأستانا وحماها، وطبّق معاهدات التحالف، بلا حياءٍ، بعد أن كان هو وجوقة الدود من حوله، ينكرون على الأحرار وجيش

[١] السابق ص ٥٢٤ – ٦٢٤

[٢] السابق ص ٠٤٤

[٣] السابق ١٤٤

[٤] السابق ص ٢٤٤

[٥] السابق ٥٤٤

[٦] السابق ص ٥٢٧

علوش وغيرهم أن ينضووا تحت لواء العلمانية الكافرة ... لكنه النفاق، وبريق المال والسلطة ...

كلّ ما كتبنا في الردّ على الأحرار والعلالشة وغيرهم من المميعة، هو اليوم ردّ على هيئة تخضيع الشام، حرفاً بحرف. انقلب الحال، وصار مجاهدو الأمس مميعة اليوم! فضللوا الشباب، ولميكن لديهم القوة الأيديولوجية ليبرروا فعلهم شرعا، إلا بغطاء «المصلحة» الذي لا يلجأ إليه في هذا الموضع إلا جاهل عربيد عنيد.

ضاع جهاد الشام، وذهب دم كلّ أولئك الشهداء سدى إلا عند ربهم، فهم أحياءٌ يرزقون.

ابتليت الشام بشيطانين، بعضهما من بعض، البغداديّ الهالك، ومن بعده الجولاني العميل، الذي لا أشك أن التحالف وتركيا ستلحقانه بأخيه حين ينتهي من مهمته.

ولا أظن أن هناك ما يُضاف لهذا .. فأدَع الدود، ومن هم وراء الدود، إلى حين ...

د طارق عبد الحليم

١٣ يونية ٢٠٢٠ - ٢٢ ذو العقدة ١٤٤١



(18)

إطلاق سراح أبو حسام البريطاني

الحمد لله ... ولا شكر لكم!

أطلقت هيئة خراب الشام سراح البريطاني أبو حسام. فالحمد لله، ولا شكر لهم ...

فيم اعتقل أبو حسام!؟ وفيم أُطلق سراح أبو حسام!؟

أين المحكمة التي أمرت باعتقاله بناء على مخالفة شرعية!؟ وأين المحكمة التي أمرت بإطلاق سراحه بناء على حكمٍ شرعيٍّ!؟

إنما هو الهوى في الحالين ... هو الطاغوت الجولاني، الذي يحكّم ياسقه الجديد في أبناء إدلب، لمجرد وجود من يستمع له من شبيبة لا علمٍ ولا خبرة، بل ثقة عمياء، لا أساس لها من شرع ولا عقل، فدوره في إنهاء الثورة دور عميلٍ مجرم ... كما أوضحت في مقالي السابق.

ولعل هيئة العار قد سلبت من الرجل مال الإغاثة التي يجمعها لمساعدة السوريين ... فإن هؤلاء القادة لا دين لهم ولا ضمير ولا ذمة ...

د طارق عبد الحليم

١٥ يولية ٢٠٢٠ – ٢٤ ذو العقدة ١٤٤١



(19)

إلى أصحاب العقول .. من له حقّ الحديث والإفتاء؟

ليس فيكم أحدٌ يا منتسبي الهيئة!

أعرف أن «أصحاب الشأن في هيئة الخراب الشامية لنييلقوا لما نقول بالاً، لا لعدم اعتبار الكلام وأهميته، بل لعدم إدراكهم معناه وما يدلّ عليه، ولضعف إرادتهم على إصلاح ذات أنفسهم، وتحقيق ما هم عليه من ضعف الشأن في الشرع والعلم بالشريعة.

وإني تكبدت نقل هذه المسائل الرائعات من كلام الإمام الشاطبيّ، في الموافقات، والذي شرحته في ١٢٥ شريطا حتى يومنا، وكدنا نصل إلى نهايته بحمد الله تعالى، أقول نقلت هذه الجمل، لعل في منتسبي تلك الهيئة من يعقل، فيفهم، فيُقدّر فينزع نفسه منها. فإن القائمين عليها، لا يكادون يفقهون قولاً، بل يقودون الشبيبة إلى أسوأ مصيرٍ في الدنيا والآخرة.

أولاً: انظر إلى قول الشاطبي في واجب الرجل العاميّ

«إن المقلد إذا عرضت له مسألة دينية فلا يسعه في الدين إلا السؤال عنها على الجملة لأن الله لم يتعبد الخلق بالجهل وإنما تعبدهم على مقتضى قوله سبحانه {واتقوا الله ويعلمكم الله} ..... والأدلة على هذا المعنى كثيرة وهي قضية لا نزاع فيها فلا فائدة في التطويل فيها» [١]

ثانيا: ثم اقرأ تنبيه الشاطبيّ على من يجب على العاميّ سؤاله، والأخذ عنه:

« المسألة الثانية وذلك أن السائل لا يصح له أن يسأل من لا يعتبر في الشريعة جوابه لأنه إسناد أمر إلى غير أهله والإجماع على عدم صحة مثل هذا بل لا يمكن في الواقع لأن السائل يقول لمن ليس بأهل لما سئل عنه أخبرني عما لا تدري وأنا أسند أمري لك فيما نحن بالجهل

---

[١] الموافقات، كتاب الاجتهاد، ج٤ ص ١٦٢

به على سواء ومثل هذا لا يدخل في زمرة العقلاء إذ لو قال له دلني في هذه المفازة على الطريق إلى الموضع الفلاني وقد علم أنهما في الجهل بالطريق سواء لعد من زمرة المجانين فالطريق الشرعي أولى لأنه هلاك أخروي وذلك هلاك دنيوي خاصة» (٢) [١]

فانظر، وتأمل وافهم!، يا رعاك الله، كيف أن سؤال غير ذوي الأهلية جنون! يخرج بصاحبة من زمرة العقلاء! أي والله ...

ثالثاً: ثم انظر ما يقول الإمام الشاطبيّ، حين يتحدث عن ترجيح العامي لأحد الأقوال، بترجيحه لقائلها، فيذكر عدة نقاط»

«الأول أن الترجيح بين الأمرين إنما يقع في الحقيقة بعد الاشتراك في الوصف الذى تفاوتا فيه وإلا فهو إبطال لأحدهما وإهمال لجانبه رأسا ومثله هذا لا يسمى ترجيحا وإذا كان كذلك فالخروج في بعض المذاهب على بعض إلى القدح في أصل الوصف بالنسبة إلى أحد المتصفين خروج عن نمط إلى نمط آخر مخالف له وهذا ليس من شأن العلماء وإنما الذى يليق بذلك الطعن والقدح في حصول ذلك الوصف لمن تعاطاه وليس من أهله والأئمة المذكورون برآء من ذلك النمط لا يليق بهم

والثاني أن الطعن في مساق الترجيح يبين العناد من أهل المذهب المطعون عليه ويزيد في دواعي التمادي والإصرار على ما هم عليه لأن الذى غض من جانبه مع اعتقاده خلاف ذلك حقيق بأن يتعصب لما هو عليه ويظهر محاسنه فلا يكون للترجيح المسوق هذا المساق فائدة زائدة على الإغراء بالتزام وإن كان مرجوحا.

والثالث أن هذا الترجيح مغر بانتصاب المخالف للترجيح بالمثل أيضا فبينا نحن نتتبع المحاسن صرنا نتتبع القبائح فإن النفوس مجبولة على الانتصار لأنفسها ومذاهبها وسائر ما يتعلق بها فمن غض من جانب صاحبه غض صاحبه من جانبه فكأن المرجح لمذهبه على هذا الوجه غاض من جانب مذهبه فإنه تسبب في ذلك كما في الحديث إن

---

[١] السابق ص ٢٦٢

من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه قالوا وهل يسب الرجل والديه قال يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه فهذا من ذلك وقد منع الله أشياء من الجائزات لإفضائها إلى الممنوع كقوله { لا تقولوا راعنا } وقوله { ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله } الآية وأشباه ذلك .

والرابع أن هذا العمل مورث للتدابر والتقاطع بين أرباب المذاهب وربما نشأ الصغير منهم على ذلك حتى يرسخ في قلوب أهل المذاهب بغض من خالفهم فيتفرقوا شيعا وقد نهى الله تعالى عن ذلك وقال { ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا } الآية وقال { إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء } وقد مر تقرير هذا المعنى قبل فكل ما أدى إلى هذا ممنوع» (٣) [١]

ودعني أشرح لكم معنى هذه الجمل، لأهميتها، ولأن «شرعييكم» لا يكادون يفكون الخط، بله فهم هذه الكلمات!

يقول الشاطبي، في الأول، يجب أن يكون أصحاب القولين الذين يريد العاميّ أن يعتبرهما متساويين في الوصف بالعلم، وإلا فإن الترجيح لا يصح.

قلت: وليس هناك إلا طريق واحدٌ لإثبات صفة العلم، وهو الذي سار عليه السلف منذ القرون الثلاثة الفضلى، وإلى يومنا هذا، وهو ما أنتجه المُدّعي من أعمال، سواء من الكتب أو الأبحاث العلمية، وهو الطريق المنطقي المعقول. فإنه لا يكفي أن يقول غرٌّ صغير، وشبرٌ حقير، وشرلتان خرنقٌ مُبير «إننا هدمنا صنم المنهج» ليصبح له شأن بحق! بل هو باطل من باطلٍ في باطل.

ثم يبين الشاطبي أن الخروج عن هذا الي وصفه (أي وجوب الاشتراك في وصف العلم) لا يكون إلا بأن يتوجه أحد الطرفين (بعد أن يثبت أنهما، كلاهما، مستحق للوصف) إلى الآخر بالطعن والتجريح.

[١] السابق ٣٦٢

ثم يقول الشاطبيّ في الثاني: أن أولئك الطاعنين لن يزيدوا إلا من عناد صاحب المذهب الآخر، وبقائه على قوله (تذكّر: هو يقصد أن كلا الطرفين صاحب علمٍ ثابت بالطريق المُثبت للعلم لا بدعوى الأشبار والأغرار!)، فلا مصلحة فيه.

ثم يقول في الثالث: أن مثل هذا الطريق سيؤدي إلى الانصراف عما في الأقوال من معانٍ وما تشتمل عليه من حكمة وتوجيه، إلى الإساءة والانتقاص من أصحاب القول الآخر، فنصير إلى تتبع المساوؤ بدلاً من اصطياد المحاسن! وهو ضد قصد الشارع.

ثم يبيّن في الرابع: أنّ هذا الطريق ليس ترجيحاً لآن المقصود هو الوصول لحق يجتمع عليه الناس، بل هو فتح لطريق التقاطع والتدابر والخلاف، ثم الهزيمة وذهاب الريح.

أقول: هذا ما يجب أن يكون معلوماً، بل لا يسع مسلماً جهله، حين يستمع لأقوال من يدّعون لأنفسهم علناً، ومن ثم، قيادة وحكماً، ومن ثم تسلطاً وتجبراً.

نسأل الأشبار والأغرار، والخرانيق والشرلتانات، ودود الأرض المعشش في جنبات هيئتكم: أين أنتم من وصف «العالم»!؟ سألناكم مرات ومرات: أخرجوا لنا أعمالكم، التي تنتسبون بها للعلم، حتى يحكم عليكم الناس بهذا الوصف، ويكون ترجيحهم على أساس بيّن، فعجزتم عن إخراج سطرين، إلا كما أخرج البنعلي في وصف العدناني تلك السيرة الذاتية التي كانت مضحكة الخلق! لو نسيتم!

أين أنتم من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو يُعطى الناس بدعواهم، لادّعى أناس دماء أقوام وأموالهم، ولكن البيّنة على من ادّعى» فأين بينتكم، يا بادي ويا زبداني وغزي وبزي وشماليّ وغربيّ ... وتلك الأشبار كلها، أينما وُجدت!!

سأنشر، كارهاً يعلم الله، ما أفاض الله عليّ من نعمة أخرجت بها أعمالاً هي من أفضاله وله الحمد، حتى لا أطالب بما لا أُقدم .. وانتظر أشباركم، وأحبار هيئتكم، الذين يقودونكم، إلى مهالك لا تدرون عنها، بجهل وانعدام ضمير وقلة دين.

د طارق عبد الحليم

١٥ يولية ٢٠٢٠ – ٢٤ ذو العقدة ١٤٤١

(20)

سهام طائشة .. من أيدٍ مرتعشة!

عجبت لأولئك الصغار سنا أو قدراً أو كليهما، يتحدثون حديثاً، لا يزيد عن فُساءات خبيثة الرائحة، تزيلها الريح، وكأنها همس مجنون في أذن مهبول ...

العجب لا يأتي ممن يكتب، فقد علمناهم أصفاراً صغاراً، وأشبارا ومشايخ أشبار.. لكن كيف بالله يبررون نصرتهم لذلك الكيان الهار المُسمى بالهيئة، بعدما تبيّن لكل ذي عقل انحراف بوصلتهم واعوجاج طريقتهم وانبطاح منهجهم!؟ كيف؟! لا تجد جواباً واحداً، إلا تلك الريح العفنة الرائحة، التي أحسب أن أحدهم يلزمه الوضوء بعد كتابتها .. ويسميها مغفلون «حكم!!!»

بيّنوا ما ترون، ودعوا المناقشة العلمية تأخذ مجراها، بدلاً من تصويب سهامكم الخائبة إلى من يريد الإصلاح في الأرض .. ونصر شعبٍ ضحى وضحى ثم ضحى، فلم يجد إلا الهيئة في آخر الأمر، تُسلمه للترك والغرب!

د طارق عبد الحليم

١٨ يولية ٢٠٢٠ – ٢٦ ذو القعدة ١٤٤١



(21)

مناصحة للعاملين في إدلب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

تتردد في الساحة الإدلبية اليوم، والتي يتحكم في مفاصلها الوجود التركيّ، مدعوما أصالة بهيئة تحرير الشام (!)، وبفصائل من الجيش الوطني، أقول، تتردد أسئلة كثيرة، يمكن جمع أطرافها في عدد محدود، أرى لزاماً على من لديه القدرة على إجابتها أن يُقدِم على ذلك، فإن الصمت في موضع الكلام خيانة للأمانة.

وقد أجبت على عدد من هذه التساؤلات من قبل، في مواضع متفرقة، لكن أريد هنا أن أجمها، لتكون واضحة صريحة ثابتة، على ما أراه من شرع الله سبحانه، بتوفيق منه تعالى.

وهذه التساؤلات، والإجابة عليها، يمكن تلخيصها فيما يلي:

- ما حكم الشرع في ماتفعله الهيئة اليوم من ظلم وتضييق وملاحقة للأخوة؟

قد بينت من قبل، أنّ ما تقوم به الهيئة اليوم، بقيادة الجولاني، وعدد من أذنابه، مثل أبي مارية وعدد من صغار العلم وأشباره وأصفاره، وبيد من يسمونهم «أمنيون»، هو طاغوتية متجبرة لا تمت لحكم إسلاميّ بصلة. بل هي تشبه، تطابقاً، ما تفعله حكام العرب الطواغيت مع مخالفيهم، من سجن وقهر وتهديد في الرزق بل والقتل في بعض الأحيان. لا فرق في هذا بين فعل الجولاني ومسؤوليته، وفعل السيسي وابن زايد وابن سلمان، صهاينة العرب، إلا في حجم الفعل، لا نوعيته، من حيث أن الجولاني أمره صغير تافه لا قيمة له على وجه الحقيقة، إلا في ذاك الركن من الشام.

- ما حكم الشرع في من رفض التحاكم للشرع و رفض مبادرات العلماء و سفك الدم

الحرام؟

لا شك أنّ الأصل هو الخضوع لحكم الشرع، وقبول التحاكم المُنصف، بين القوي والضعيف، أو الحاكم والمحكوم، هو ما يمليه علينا ديننا الحنيف، وهو ما عرفناه في تاريخ الخلفاء الراشدين من الصحابة، وبعدهم من الخلفاء المتمسكين بالسنة. قال تعالى «فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا»النساء ٥٩. وهذا التنازع هو ما يكون بين حاكم ومحكوم، لا بين محكوم ومحوم لا غير، وذلك أولاً لعموم اللفظ «تنازعتم»، ثم للسياق في قوله تعالى قبلها «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ» فأمر أولاً بطاعة الله ورسوله استقلالاً، ثم بطاعة وليّ الأمر، تبعاً لطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالمفهوم هنا هو أن التنازع بين الفرد المحكوم وأخيه، أو بين الفرد المحكوم وولي الأمر، إذا اختل شرط طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، من حيث أنه رفع طاعة وليّ الأمر عند التنازع، وأرجعها لله ورسوله لا غير، فظهر أنها تس=شمل التنازع مع ولي الأمر كذلك. فطاعة وليّ الأمر ليست مطلقة، كما يجعلها المداخلة لعنة الله عليهم ومن لحق بهم من غلاة المرجئة، بل مقيدة. وهي نصّ في الأمر بالردّ إلى الله ورسوله الله صلى الله عليه وسلم. والردّ إلى الله ورسوله لا يكون إلا من خلال تحكيم رجال عدول ثقة، لا ينتمون لفئة من الأطراف المتنازعة بحالٍ، ولا يعرف عنهم ميل ولا التواء.

واختيار الحكمين، يجب أن تتوفر فيه إرادة الوصول إلى الحق المشروع، بأدلته، لا بهوى الحاكم أو غيره، وإلا فهو قضاء السيسي، وإفتاء السيسي وعسكر السيسي، دون فرق.

• ما حكم إدخال الأتراك و من بعدهم الروس للطرق وتأمين الأمنيين والعسكريين لحماية دورياتهم؟

وهذا التساؤل يحتاج إلى تفصيلٍ واسع، لتشابك أجزائه وتعقيدها.

فإن الواجب أولاً النظر إلى المصالح التركية، دوليا وإقليميا. ثم ثانيا: تقرير مسألة حكم

دخول الأتراك: هل دخل الأتراك إدلب دخول عدوٍ صائل؟ ثم ثالثا: هل استمر حكم دخولهم وصفته؟ ثم رابعا: ما حكم إعانتهم للروس الصائلين، وانعكاس ذلك على حكم دخولهم وصفته؟

فأولا: عن المصالح التركية، دوليا وإقليميا، فإن تركيا لها مصالح حيوية مستقرة متشابكة مع الغرب الصهيوصليبي/ الأمريكي، بصفتها عضوا في الناتو. في تخدم المصلحة الغربية، بشكل عامٍ كليّ، وإن ظهر التناقض في بعض الفرعيات التي ينخدع بها المسلمون، كموضوع أيا صوفيا مثلاً. ويظهر هذا في موافقة تركيا على قرار إدراج الهيئة في قائمة الإرهاب، والذي، استطاعت الهيئة، بتعاونها غير المشرّف أخيراً على تجاوزه (واقعيا لا رسمياً، حتى يبقى معلقاً على رقابهم) لدرجة أن بعض مسؤولي أمريكا مدح الهيئة على مجهودها في مطاردة «الإرهابيين» وطبعا لا يقصد هنا داعشاً! بل أخوة الجه.اد ممن خالفهم، وخالف الأتراك الرأي!

كذلك فإن لتركيا مصالح حيوية مع روسيا، إذ تحرص على عدم إحياء التاريخ الجهاديّ بين العثمانيين والروس، خاصة مع المواجهة في القرم، وإن ظهر غير ذلك في مسلسلات تلفازية وعلى وسائل إعلامية، فإن ذلك من سحر سحرة الإعلام، لا أكثر!

كلّ هذا يجب أنْ يؤخذ في الاعتبار، مع حقيقة أن تركيا، كحكومة، وكثير من شعبها، تؤمن بمبدأ العلمانية، وفصل الدين عن السياسة، وتعلنه وتشجعه في كلّ مناسبة، وترفض غيره. فهي توافق المبدأ الغربيّ والروسيّ في هذا الأمر.

ثم ثانياً: نقول ابتداءً أنه لا شك أن من الجائز إبرام اتفاقات تفاوضية مع العدو في ظروفٍ معينة، وإن خضعت كلها لمظلة الشرع، الذي يحمى الإسلام، لا مجرد المصلحة القصيرة المدى. وهذا يكون عبر التفاوض المصحوب بالقتال وفتح الجبهات، لا الاستسلام والخضوع، ليكون هناك أوراق ضغط في يد المُفاوض.

ودخول الأتراك أصالة لم يكن دخول عدوٍ صائل، أي لم يدخلوا عن طريق قتال

السوريين، بل دخلوا بحجة حماية إدلب من قصف النظام والروس عن طريق إقامة نقاط مراقبة، يصعب على النظام قصفها أو ما حولها. فدخولهم أصلاً يمكن أن يكون له صفة مشروعة، حتى مع فرضية أنهم جيش علمانيّ يخدم حكومة علمانية، ويحمل أجندة سياسية علمانية. هذا مع شريطة أنّ التحكم في مستقبل الأرض وأوضاعها بيد المسلمين المحاربين، لا بيد القوات الخفيفة الرمزية في نقاط المراقبة، كما هو في حكم الشرع.

لكن تطور الأمر، والوضع على الأرض يخالف هذا الفرض النظريّ، الذي يروج له قادة الهيئة ومفتيها، فلم يعد الوجود العسكري خفيفاً مساعداً، بل ثقيلاً مُتحكماً. كما ظهر أنّ هذا الدخول لم يأت بثمرته، فقُصفت إدلب، وشُرّد الكثير من أهلها، واكتظت المخيمات خارجها بأهلها، وظهر أن دخولهم لم يكن إلا تنفيذاً لبنود أستانا، التي نافق الجولاني أولا برفضها وقتال من وافق عليها!

ثم إن الأتراك أعلنوا صراحة إنّهم محاربون لمن يريد إقامة الإسلام في الأرض المحررة، وأنّ هؤلاء غلاة إرهابيون يجب القضاء عليهم، تمشياً مع مبدئهم العلماني الصريح. فنقضوا بذلك الشرط الشرعيّ لذي ذكرنا أولاً في ضرورة أن يكون التعاون معهم مبني على سيطرة المسلمين ولصالح الإسلام، لا العكس! وفي هذا إجابة على النقطة الثالثة، وهي أن الأتراك اليوم، بمعاونتهم للروس في حماية الطرق لحساب النظام، صاروا صائلين هم أنفسهم، مما غيّر صفة دخولهم الأصلية.

أمّا عن النقطة الرابعة: فمناط عملية إعانة الأتراك للروس بعدها وتمكينهم من حماية طرق التجارة لحساب النظام، فهذا ليس من مناطات التفاوض المشروع حسب حالة الساحة اليوم. بل فيه شبهة ولاءٍ للكفر، يجب أن يُحتاط منها ويُحذّر فاعلوها.

ومعلوم أن الإجابة ستكون: لكننا لا شئ دون الأتراك، فهم من يحمينا من النظام، ومن الروس، ويمدنا بالسلاح والغذاء، ويأوي العائلات النازحة! فنقول: أولا، يأتي هنا اليقين بأن النصر من الله سبحانه لا من الأتراك، ثم، أين حمى الأتراك أهل إدلب من

القصف الروسي أو قصف النظام؟ بل هم تركوا القصف يقع واقعياً، مع بعض تهديدات إعلامية كلامية للنظام، حتى يتم الضغط على المجاه.دين فيستسلموا. خطة واضحة بسيطة. أن: إن خالفتم توجهاتنا وضربتم مصالحنا مع روسيا، فهذا ما ستواجهونه. وهي خطة تسير على درب أستانا.

من هذا الإيضاح يمكن القول الآن، بأن الوجود التركيّ أصبح وسيلة إلى هدفٍ غير مشروع، وهو إقامة حكومة علمانية،ستُدار غالباً بقوات الجيش الوطني،كما يسمونه، بعد تنحية الجولاني وعصابته، حين ينتهي دورهم في تتبع المخالفين، إذ الأتراك لا يزالوا يحملون نفس ورقة «التصنيف» في أيديهم، لم ينكروها رسمياً، لاستعمالها وقت الحاجة، وهو قريب ليس ببعيد!

• ما حكم الدخول في غرفة الفتح المبين التي يشرف عليها الأتراك؟

بعد استعراض ما قلنا، وظهور نية الأتراك، وتبدّل صفة دخولهم إلى إدلب، التي هي اليوم صيالٌ ناعمٌ، يشبه دخول القوات الأمريكية لجزيرة العرب إبان حرب الخليج الأولى، فإن الاشتراك في تلك الغرفة حرام شرعاً، لا يجوز لمسلمٍ أن يقاتل حسب خططها، من حيث معلومٌ هدفها النهائي للمصير الإدلبي. وهي اليوم تشبه غرف الموك وغصن الزيتون وما شابهها من العمليات التركية التوجّه.

• ما حكم قتال المجاهدين وفرط كياناتهم، وتخييرهم اما الدخول فيها قهرا – أي غرفة الاتراك – أو تفكيك الجمع ثم الملاحقة الأمنية، وفي أقل الأحوال، الاجبار على ملازمة البيت؟

وهذا التساؤل واضح الإجابة، لا يسع مسلماً الجهل به، فإن مطاردة المسلمين المخالفين، وسجنهم وفرط عقدهم، لصالح الاتفاقات التركية التي بيّنا غرضها، حرامٌ شرعاً، وفيه شبهة ولاء للكفر، يجب أن يُحذّر منها ويقام علي فاعلها الحجة. وتلك الملاحقلت الأمنية هي أعمال طاغوتية لا قانون لها إلا حكم الشيطان، لا حكم الرحمن، تماما كأحكام وتصرفات الثلاثي

العربي الصهيوني اللعين.

• ما حكم الإشراف التركي على معسكرات الهيئة و تخريج دورات لفصائل الجيش الوطني مثل الجبهة الوطنية في معسكرات الهيئة؟

باعتبار ما ذكرنا من الغرض التركيّ ومآل النصير الإدلبي، كما هو مقرر في أستانا، فإن هذه المعسكرات لا يحل الاشتراك فيها، إذ هي قوة ضاربة للتوجه الإسلاميّ بشكلٍ أساسيّ، والمجاه.دون ليسوا في حاجة لغيرهم للتدريب. ومن هنا كانت الحسرة على الضربات الموجهة لقدامي المحاربين من أهل السنة، الذين يحملون الخبرة والممارسة، والتي لا شكّ أنها لم تلق معارضة، على أقل تقدير، من قادة الهيئة المتعاونين مع الغرب من خلال التعاون التركيّ.

• ما حكم التودد للغرب من خلال الإعلام وتصوير قتال الأخوة و ملاحقتهم كأنهم غلاة و خوارج وعصابات خطف واحتطاب؟

كذلك فإن الإجابة واضحة، ففيه شبهة ولاء مكفّر، خاصة في المناط الذي شرحنا، وفي ظل النوايا المعلنة، وتصوير عمليات القبض على الإخوة وملاحقتهم، لحساب الأتراك والغرب، فهي نفاق بحت يضم الفاعلين إلى معسكر الهيئات الكفرية مثل التي يسمونها الهيئة الدستورية السورية التي يرأسها المرتد أنس العبدة وعصابته النفعية.

• هل أصبح اليوم الانحياز إلى ساحة ثانية جائز، وهل أصبح اليوم الخروج من الشام مخافة ظلم الهيئة و تشريد الأخوة إلى أماكن يأمن فيها الأخوة جائز؟؟

لا شك أن المُطارد الضعيف، غير صاحب الحيلة، غير مكلف بما لا يستطيع القيام به. وقد ذكرت من قبل أنه يجوز الحرف لقتال أو التحيز لساحة مختلفة، وإن كان هذا سيؤدي إلى خلو إدلب من كل معارضة، ويصبح مصيرها مقررا على وجه الحتم. فالإجابة هنا لابد

أن يعتبرها المقيمون هناك، حسب أوضاعهم.

وهنا يجب أن يحذر الفقيه المُفتي، في فتواه، من حيث أنّ الأخذ بالعزائم ليس في مقدور كلّ مُكلّف [١]. فإن الأصل هو الحمل على التوسط، وعلى ما هو في داخل إمكانية المكلّف العاميّ لا الخاص. وقد زلّ كثيرٌ من المُحْدّثين في هذا الموضع حيث تشددوا في غير موضع التشدد، كما زل، وذلّ، أكثر منهم من حمل على الترخّص في الدين وتتبع رخص المذاهب، وكلاهما مخطئ، غير مصيب للحكم الشرعي.

والله المستعان

د طارق عبد الحليم
٤ أغسطس ٢٠٢٠ – ٥ ذو الحجة ١٤٤١



[١] راجع في ذلك ما دوّنه الشاطبي في الموافقات، الجزء الرابع كتاب الاجتهاد، خاصة الطرف الأول المسألة الرابعة عشرة، وغيرها من المواضع.

(22) عن الهيئة والشيخ المقدسيّ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد

أسبق البعض ممن سيقول، بل سيقول البعض، كيف تخطّ خطّاً في تأييد الشيخ المقدسيّ، وأنت من قال فيه، ثم قال، ثم قال؟! أهذا تلوّن أم نفاق؟! فأقدم رديّ أولاً.

قلت:

دعوني يا أهل الملامة إنني ** قد كنت دوما للحق تبّاعا

نعم، قامت بيني وبين الشيخ المقدسيّ مناحرة شديدة، ما أردت إثارتها وقتها إلا لبيان حقٍ رأيته ولا زلت، وإظهار خطئ بيّن لديه، ولا زلت، في موضوع تصنيف الخوارج، لما رأيته وقتها من أهمية هذا الأمر في معركة كانت قائمة، تراق فيها دماء المسلمين، وتُقيّد أيديهم بفكرة أنهم بغاة مسلمون، فيترددوا في قتالهم.

ثم انتهى الأمر بانتهاء واقعه ... وقضى الله على بؤرة السوء كلها، والحمد لله ربّ العالمين.

وصَفَتْ نفسي، التي ما عكّرها، وأخرجها عن أمثل ما فيها حيناً، إلا أمرا شرعيّا محدداً، استخدمت فيه كافة الأسلحة المتاحة، لرده عن المسلمين. ويشهد الله لم يعد في قلبي للشيخ إلا الاحترام والتقدير لما بّذَلَ، كما أقدّر دور كل من بذل صادقاً في سبيل الله يوماً، منذ أن بدأت مسيرتي قرابة نصف قرنٍ مضى.

وأعود إلى سبب هذه الكلمات، وهي الهجوم على الشيخ المقدسيّ بسبب جلدِه للهيئة الظالمة الفاسقة، الخارجة عن حدود الله. وما يرميه به الشاب مظهر لويس، الذي أمّلنا فيه يوما، حين كان يخاطبنا بالتوقير والاحترام، ويطلب تقديماً لكتابه عن الخوارج، لمّا علم لمن السبق في تمهيد هذه المسألة وطرح معضلاتها وإظهار حقيقتها.

أمّا عن تصرفات الهيئة، فقد كنت قد أبديت تشككي، ثم استيائي ثم هجومي الشديد

عليها، منذ سبتمبر ٢٠١٧. وهذا مدوّنٌ في كتاب "أحداث الشام"[١] . فهو ليس بأمر وليد الساعة، ولا الأحداث الأخيرة المروّعة، التي بيّنت طبيعة ذلك التنظيم الإجراميّ المتسيّب عقدياً، المنحرف حركياً. ولا داعي لذكر تفاصيلها، إذ كررتها مرات تلو مرات، وشهد بها واقعها الأليم الحسير مراتٍ تلو مرات.

لكن ما جدّ هو ذلك الاتهام الذي لا دليل عليه البتة للشيخ المقدسيّ بعمالته للمخابرات الأردنية! هذا جديد، وحقير وساقط في آن واحد ... وهذا ما يجب دفعه من حيث يسبب سابقة في الرمي بالكفر العينيّ، تضاهي ما فعله الخوارج مع خصومهم.

إن قال أحدّ بالشك، بل باليقين، بأنّ هناك تنسيق على أعلى مستوٍ بين الهيئة وقياداتها وبين الأتراك ومخابراتهم، فهذا أمرٌ عليه دلالة الواقع على أرض إدلب خاصة! وكيف يُنكر هذا والأمور تسير وفقاً لخارطة معينة تجعل القرار التركيّ هو الأسبق والأحق بالاتباع من أي قرارٍ آخر، سواء مصدره الشريعة أو العقل المستنير؟! القرارات التي تُنفّذ، والدوريات التي تُنسّق، والبيوتات والإخوة الذين يعتقلون ويُسلّمون، أليسوا بدليل كافٍ على التواطئ؟! هذه أفعال، لا أقوال وشبهات ...

وليس يصح في الأذهان شيء ** إذا احتاج النهار إلى دليل

لكن، في المقابل، يقال إن سكوت الشيخ المقدسي عن إنكار ما حوله من كفريات النظام الأردنيّ، دليلٌ، أو قرينة، أو شبهة على تواصله وتنسيقه وموالاته لهم، فهذا إجرام سافر، غير مُقنّع، وجهل بمعني الدليل والقرينة في الشرع والعقل.

فالخطر الواقع على داعية ما، يتغيّر بالنسبة إلى الأفراد حسب أماكن تواجدهم، وحسب وضعهم في ذلك المكان. ويكون لذات الأمر الواحد حكمان، أحدهما يوجِبُ والآخر يَحْظُر، أو يَكْرَه.

كذلك بعدٌ آخر، وهو المماثلة بين ما هو واجب ومستطاع بالنسبة لجماعة مسلحة، على ما

[١] "أحداث الشام" الأعمال الكاملة مجلد ٣

هو واجبٌ أو مستطاع بالنسبة لفرد أعزل.

وقد انحرفت رويبضات الهيئة في تقدير كلا الأمرين معا.

لا يمكن للشيخ المقدسيّ، الفرد الأعزل، الذي لا تحميه جماعة ولا يحمل سلاحاً اصلاً، ولا هو مُطالبٌ شرعاً بنقد النظام الأردنيّ ومخابراته، وهو وعائلته يعيشون تحت قبضة ذاك النظام المجرم السفاح. فإن في ذلك مفسدة حالّة واقعة حاضرة يقينية. ولو أن الشيخ المقدسيّ نصر ذاك النظام بكلمة تأييد، لقلنا، تجاوز حدّ المتاح له لدرء المفسدة، وتعدى إلى جلب مصلحة. لكن الرجل صمت. ولا يُنسب لصامتٍ قول كما في القاعدة الشرعية. وصمتُه هذا سلبيّ، محمول على وضعه الأمني الشخصي، الذي هو مقدّم على مصلحة الجماعة، إن تعارضتا، كما هو في الأصول "راجع الموافقات". فلو أنّ إماما سُئل أن يعلّم الناس، ومنعه ذلك العمل من تحصيل قوت عياله، وعجوت الجماعة عن إمداده بالعيش، لامتنع عن ذلك شرعاً بلا خلاف، من بابين، درأ المفسدة مُقدّم على جلب المصلحة، ثم المصلحة الخاصة الحاضرة اليقينية مقدّمة على المصلحة العامة المفترضة الآجلة، إن تعارضتا.

ولا استشهد بطريقة الرد السلبيّ المضاد، أي "لو صحّ هذا لكان الكثير من الدعاة عملاء"! فهذا آخر وأضعف أدوات الاستدلال، وإن صحّ.

لكن ماذا عن الهيئة؟ جماعة مُسلّحة، ولديها أرض، وتحت أيديها جندٌ، فتركت كلّ هذا، واعتقلت من أراد استمرار المسيرة، وسلبت الكلّ سلاحهم إلا خرفانها التائهين، ثم طبّقت اتفاقات سوتشي بالحرف، وهو فعلٌ إيجابيّ على الأرض، وتوابعه زوابع علمانية، سيأتي دورها قريباً. فهنا يُقال: أنتم أصحاب شوكة، ولا شك ... هكذا تدّعون، وإلا قولوا لنا على الملأ لسنا بأصحاب شوكة! ثم هناك المئات والآلاف يمكنهم الانضمام إليكم لو اخترتم طريق استمرار العمل ضد النظام النصيريَ. ثم، هل منع تطبيقكم لسوتشي وغيرها، الذي رفضتموه من قبل نفاقاً، من ضرب الروس لإدلب، وحصارها حتى لقوات تركية؟ أهذا أفضل طريق خرجتم به من خلال تدبركم للأمر بأدباركم لا بعقولكم؟

لقد وعد الله الصابرين والمجاهدين والمقيمين لعهودهم النصر، وهو نصرٌ للجماعة، لا

يُخاطب به الفرد، إلا في ظروفٍ معينة، إذ يحتاج ساعتها إلى قرائن تشهد بأن على الفرد هناك ما على الجماعة، إن وعيتم.

ثم، لا أدرى ما موقع الشيخ المهديّ من ذلك كلّه؟ لماذا الهجوم على الشيخ المقدسيّ، خاصة في نقطة واضحة صريحة، وهي المطالبة بالعدل وعدم ظلم الأفراد المنتمين لأهل السنة من الاتجاهات المخالفة، وعدم الفحش في الخصومة كما فعلوا مع الأخ بلال عبد الكريم بنشر صور خاصة، لو فعلوها على عهد عمر رضي الله عنه، لفقأ أعين من التقطها.

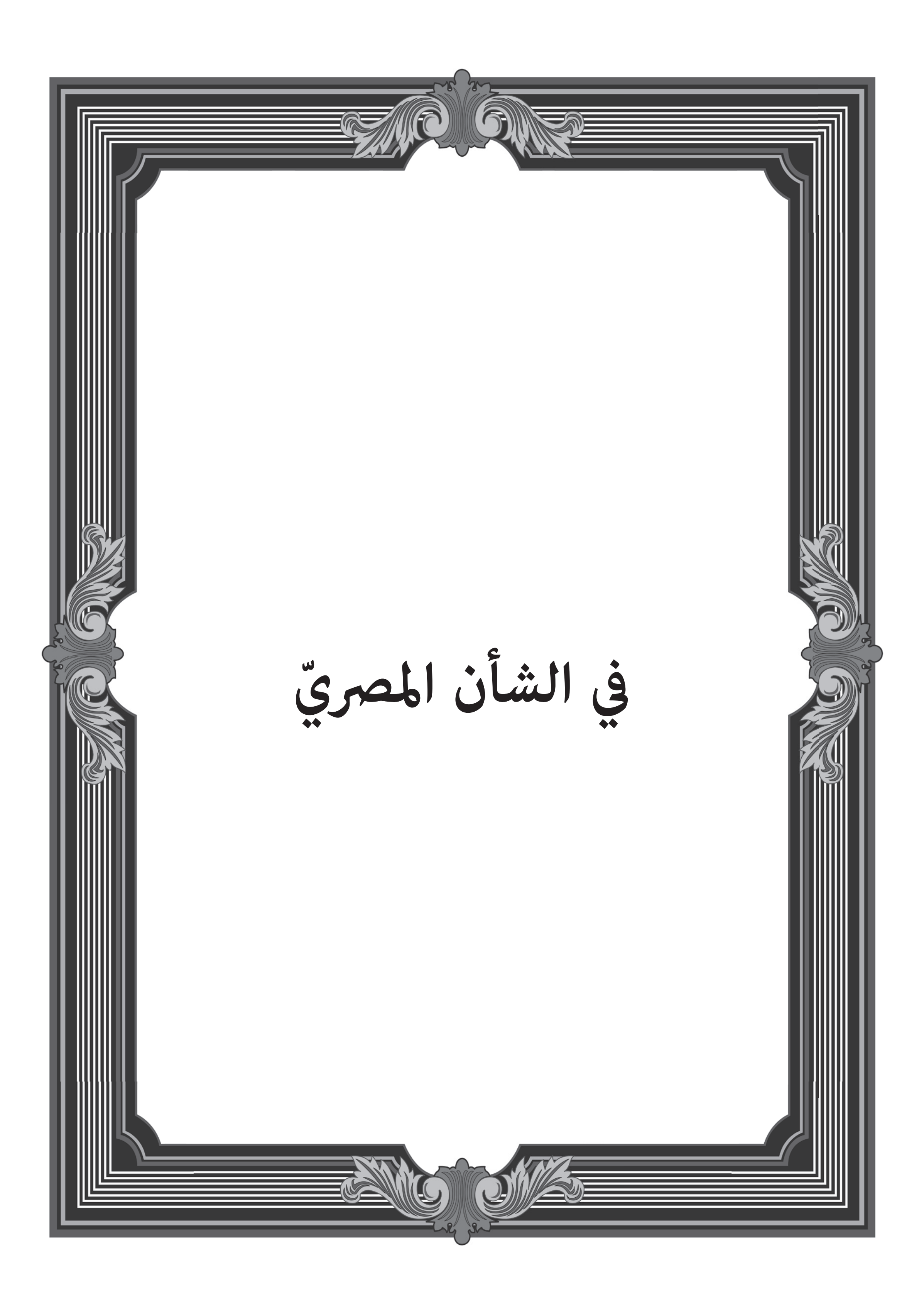
وأنا ممن يحب الشيخ المهدي، وأراه من "طيبي القلب ومحبي الدين" لكن الحقّ أحبُ إليّ، فقد قصّر وقت أن كانت الحاجة قائمة لبيان عهر النظام النصيريّ، ولا يقارن هذا بوضع المقدسي اليوم، من حيث إنه لا ثورة ولا سلاح ولا جماعات في الأردن أصلاً. ثم متابعة الهيئة والإشادة بأفعالها أمرٌ شائهُ يا شيخ عبد الرزاق، والصمت أولى بك، لو خفت بطشهم، ولا تُلام على ذلك. لكن الهجوم على أصحاب الحق، ودعاة التوحيد واستمرار المسيرة أمر لا تبرير له على الإطلاق.

وأخيراً، رغم كلّ ما أخذت يوماً على الشيخ المقدسيّ، لم أجرؤ أن أرميه بعمالة، فهذه خساسة نفس لا يحجزها عن الفجور شيء. والله غالبٌ على أمره.

د طارق عبد الحليم

١٦ أكتوبر ٢٠٢٠ - ٢٩ صفر ١٤٤٢





في الشأن المصريّ



الإخوان المسلمون .. ومقبرة العملية السياسية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد

(١)

يصعب على المرء - مسلماً كان أو علمانيّاً – أن يتتبع المنطق السياسيّ الذي تنطلق منه جماعة الإخوان أو الخلفية الدينية التي تستند عليها في إعتماد قراراتها السياسية التي تتعلق بمشاركتها في الحياة السياسية المصرية، إذ لا تصدر عن الجماعة اية تفسيرات أو مبررات لما تتخذ من قرارات. كما أنه ليس للجماعة مرجعية شرعية معروفة تكون مسؤولة عن تلك القرارات من الناحية الشرعية ومطابقتها لثوابت الإسلام، أو متغيراته على حدّ سواء. فكل ما نسمع إذن هو أن «الجماعة قد قررت..»، هكذا.

ولأن الحال هو ما وصفنا، فإنه لابد للناظر المهتم أن يحاول تفسير تلك القرارات في ضوء المنطق والشرع، محاولاً أن يصل إلى ما قد يكون قريباً مما أدى إلى إصدار هذه القرارات، ومن ثم، تحديد صوابها من خطئها. ولولا أن للجماعة وزنٌ في الشارع المصريّ، ولولا أن فيها إخلاص لله، بغض النظر عن خطإ مردود هذا الإخلاص أو صوابه، لَمَا تعنّينا صَرْف لحظات في هذا النظر والإستقصاء، فالإخلاص لا يغنى عن الحق والصواب في دين الله.

(٢)

فمن الناحية السياسية، لا يستشف الناظر أساساً يمكن أن تَرتّكن عليه الجماعة في قرارِ خوض الإنتخابات المصرية الهزلية القادمة، والتي يَعرِف كلّ من بلغ الفِطام أنها تمثلية مَسرحية لم يعد مخرجوها من سدنة النظام المُتَحَّكِم يعتنون حتى بدقّة تلفيقها! فالتاريخ القريب يكشف فشلاً تاريخياً لهذه الحركة الإخوانية في الوصول لأي هدف أو تحقيق أي مطلب لها بممارستها هذه الألاعيب السياسية الباردة منذ إشتراكها في هذا

النَصْب المهرجانيّ الحكوميّ للنظام المُتَحَّكِم. ليس هناك قرار أُصدر ولا أُوقف لصالح الشعب. لم يصدر قرار بوقف حصار غزة، ولم يرتدع قبط مصر خوفاً من سطوة النواب الإخوانيون، ولم تنقص حِصص العمولات ولا الرشاوى ولا قرارات العلاج الزائفة على نفقة الدولة، ولم يحاكم مسؤولاً ولم يقال وزيراً، ولم تتبدّل حُكومة، ولم يُلغ قانون طوارئ، ولم تقلّ سطوة أجهزة أمن النظام المُتَحَّكِم، ولم يقال وزير أوقاف هو معرّة للأوقاف بكل مقياس، ولم يرتدع شيخ أزهر من أولئك الشيوخ المصنوعين على أعين النظام المُتَحَّكِم! لم يحدث شيئ ولو ثُمالة أثر من تغيير لصلاح الأمة كان لنواب الإخوان يدٌ فيه - أو لم يكن - بوجودهم في هذا الصرح المسرحيّ، عدا بعض الصراخ والإعتراضات وتقديم الإستجوابات والمساءلات التي لا تكاد تبلغ مكتب رئيس المجلس حتى يُغَيّبها صندوق القمامة جواره.

ثم، يَعلم كلّ من بلغ الفِطام، أن النظام المُتَحَّكِم قد استقر على عدد الفائزين من كلّ حزب من أحزاب الفُكاهة السياسية، ولا أدرى أهي صفقة مع النظام المُتَحَّكِم ليتركوا للإخوان بِضْع مقاعد مثلاَ، لتتم للنظام صورة التهريج كاملة، وتدع الإخوان في الصورة السياسية، يتبسّمون للكاميرا!؟ أم هى طريقة «البخت ويا عالم»؟ وهل يكون مقصود الجماعة أن تظل على مسرح الأحداث، حتى إذا قدر الله تغيير الأوضاع - وهو ما ليس في حساباتهم الحالية مؤكداً - فلا يكونون في الظل، ويمكن أن ينسب اليهم بعض الفضل، وفيه ما فيه من براجماتية لا تنتسب للإسلام في شيئ؟ الله أعلم!

ثم قد تكون حسابات المصالح إرتأت لهم أنّ تَرك الساحة للنظام المُتَحَّكِم خطأ تكتيكيّ، وأنّ المشاركة لابد منها حسب قانون المغالبة والتصارع، وربما قانون البقاء للأصلح، وهم الأصلح بلا شك. وهي حسابات، رغم أن فيها ما فيها من الناحية الشرعية كما سنبيّن، يظهر أن فيها مصلحة ولا شكّ، لكن المفسدة التي فيها تربو على تلك المصلحة عقلا وشرعاً، فأن تُسبغ الحركة على هذا التهريج صبغة الشرعية مفسدة ولا شك، وأن تشارك برجالها في موكب التهريج وحلف اليمين وغير ذلك، مفسدة ولا شك، وأن تترك الإنطباع بأن هناك

أمل في هذا النظام المُتَحَكِم لتغيير أو إصلاح، هى جريمة عظمى ومفسدة كبرى تقف عقبة في طريق الحلول المجدية بما تضلل به من إيهامٍ بالشرعية القائمة وإمكان التغيير من خلالها. فالمفاسد المتراكمة من مثل هذا المنطق لا تدع قولا لقائل بصلاحه.

والعجب أنّ كثيراً من أبناء الجماعة يُدركون هذا، بل طالبوا بعدم الإشتراك في هذه المهزلة، بل وقد شاعّ أنّ القيادة الجديدة للإخوان ترى عدم جدوى هذا العمل السياسي التهريجيّ إبآن توليها، وهو ما استبشرنا به وآملنا أن توجه قواها إلى العمل المدنيّ[١]، فما هو معنى هذا القرار؟ الله أعلم.

ثمّ، إن كان هذا القرار يراد به إتقاء ضَربات النظام المُتَحَكِم، أو كسب رضاه لإتاحة الفرصة أمام الفوز ببضع المقاعد، ولابد أن يكون أحد هذه الخيارات، إذ لا معنى لهذا الصمت المعيب المهين الذي اتخذته الجماعة إزاء قضية النساء المهاجرات إلى الله، إلا التراجع عن المواجهة. وليس هناك إلا أحد هذه الخيارات عقلاً، فهذه والله إذن هي شرّ البلية، ولكن أيّهما هو؟ الله أعلم.

وقد ظهر من قبل الخطأ السياسيّ، والعقدي، الذي ارتكبته الجماعة بمباركة الثورة الفارسية الصفوية في إيران، والتقرب منها، ولم يكن هناك حاجة لمعرفة خبايا الروافض الصفويون تجاه السنة إلا عند من لم يثق بمذهب السنة والجماعة وأقوال علمائها، أو عند من جهل هذا الموقف، ولا ثالث لهما، ولكن أيهما كانت الجماعة حين إختارت هذا التأييد غير المبروك؟ الله اعلم.

(٣)

ومن الناحية الشرعية، ليس من الواضح، بل ليس من الممكن، أن يرى الناظر أيّة قاعدة شرعية يمكن أن تبرر لهذا القرار. فمن الناحية العقدية، ليس من التوحيد ان يشارك مُسلم في مجالس تقوم على قوانين وضعية علمانية، وتنكر التحاكم إلى شرع الله، وتجرّم الدعوة إلى هذا التحاكم، وتسجن أو تقتل الداعين اليه! وبينما كانت هذه الدعوى في منتصف القرن الماضى غريبة على المسامع التي عاشت على الفكر الإرجائي المدعوم من النظام سنين عدداً، إلا إنه

اليوم، وبعد أن نضح النظام بما فيه وأعلن العلمانية، أو بتعبير كبيرهم «الدولة المدنية»، يَقصِدُ بها العلمانية اللادينية، فلم يعد هناك شكٌّ في عقيدة هذا النظام المُتَحَّكِم وموقفه من الإسلام، ولم يعد يستخفى بلادينيته، وإنما هو من الهَبَلُ السياسيّ والغَفلة العقائدية أن نرى غير هذا الرأي. ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقف هذا الموقف أبداً، بل إستمر على التمسك بلا إله إلا الله، حاكماً ومشرعاً، و بلا إله إلا الله رباً خالقاً ورازقاً. ولم يجلس يوماً إلى الملأ من قريش يُساوم على ما يقنّنون بها يرونه حقاً، وقد قال تعالى: «وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ « الإسراء. كما قال تعالى :»وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ»القلم ٩، فالمداهنة والركون إلى هؤلاء ركون إلى الكفر والظلم والفسق، كما جاء في سورة المائدة. وقد سبق أن فصّلنا القول في هذا فليرجع اليه من شاء في كتابنا «حقيقة الإيمان، وفي عدد من مقالاتنا.

ثم إن كان المقصود هو الإرتكان على قاعدة المَصالح والمَفاسد، فإنه يجب أن:

١ . يثبت أن فيها مصلحة أعلى مما فيها من مفسدة، وقد ثبت عقلا كما بيّنا أعلاه عكس هذه الفرضية، وأنّ ضرّها أكبر من نفعها. فهي إذن من قبيل المصلحة المتوهمة التي يقررها العقل مسبقاً ثم يراد لأدلة الشرع أن تُدلل عليها.

٢ . لا تصادم نصّاً، وهذه المشاركة تصادم نصوص الشريعة وثوابتها وقواعدها الكلية ومُحكماتها، بل تصادم مفهوم التوحيد ومدلول لا إله إلا الله التي تعمل الجماعة تحته. ولم يقل بتقديم المصلحة على النصّ من كافة علماء الأصول إلا الطوفيّ، وقد اخطأ في ذلك خطأ بيّنا، كما بينه العلماء في مواضعه، وأبسط ذلك أنّ هذا يعنى أن الشرع قد قرر خلاف المصلحة وفيه ما فيه. وليرجع من شاء إلى كتابنا «مفتاح الدخول إلى علم الأصول»[٢] ص٨١ وما بعدها او إلى أي كتاب في أصول الفقه، باب المصالح ليعرف أن هذا الإرتكان ليس من الفقه الصحيح. وقد ظهر فساده على مرّ عقود حاولت فيها الجماعة هذا الطريق في مصر وغيرها من البلاد العربية، فلم تفلح. ومن المعلوم المسلّم به أنّ العمل إن رَبَتْ مفسدته على مصلحته لم يكن فيه خير، بل كان فساده أظهر، قال تعالى:«إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ» يونس ٨١. صحيح

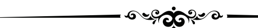
أنّ الآية في النصّ القرآنيّ تتحدث عن الفساد الأكبر المُتمثِل في شرك فرعون وعمل سَحرته، إلا أنها تنسحب على كلّ فساد في عمومها وشمولها، وإن لم يصاحبه شِرْك كما هو معلوم في أصول التفسير.

(٤)

القرار إذن غير مقبول، عقلاً وشرعاً، وهو لا يصبّ إلا في صالح النظام المُتَحَّكِم، ومن ثمّ ضد مصلحة الإسلام والمسلمين، والأمر ليس أمر مكتب إرشاد، إذ أين يكون الإرشاد في إتخاذ قرارات من هذا النوع المُفسد وأين مبرراته العقلية والشرعية؟ ولا يصلح الإحتجاج بالسرّية في مستندات هذه القرارات، فإن كلّ من له أثارة من علمٍ بالشرع أو إدراك بالعقل يمكن أن يُفنّد دوافع القرار كما فنّدنا ويصل إلى كافة إحتمالاته، ولا شكّ أن النظام المُتَحَّكِم لم ير إلا أنّ هذا القرار له لا عليه، ففرح واستبشْر، وما عليه ألا يفرح ويستبشِر، ومجلسه الأراجوزىّ سيضمّ في صفوفه ممثلى كلّ الفئات، أليست هذه هي الديموقراطية التي يؤمن بها من آمن من المعارضة الإسلامية وغير الإسلامية؟ أليس للنظام المُتَحَّكِم كل العذر في الإستمرار في المهزلة السياسية تحت قبة مجلس الأمة الذي تتمثل فيه كل أطياف الشعب؟

افيقوا يا أبناء الإخوان، فوالله إن لم يتبيّن لكم الحق من الباطل بعد تجارب الفشل على مرّ سبعة عقود، فلا فائدة من تجمّعكم، لا في دنيا ولا في آخرة.

٣ ذي القعدة ١٤٣١، ١١ أكتوبر ٢٠١٠



تتمة مقال الإخوان المسلمون .. ومقبرة العملية السياسية

جاء في فتوى أصدرها الدكتور عبد الرحمن البر، عضو مكتب الإرشاد بشأن قرار خوض الإنتخابات بعض تبريرات شرعية لهذا القرار منها أن:

١. «مقاطعة الانتخابات ترشيحًا أو اقتراعًا، في هذه الظروف التي نعيشها، ما لم تكن له أسباب مصلحية معتبرة، من شأنه أن يُعطِّل جميع القواعد الفقهية التي تتعلق برفع الحرج عن الأمة»

٢. «المقاطعة «هي سكوت عن الحق، وهي قبول بالمنكر، وهي قعود عن الإقدام على تغييره»، وأن «المشاركة في الانتخابات وما يتعلق بها من تصويت وعقد تحالفات مع القوى والفصائل الأخرى تتلخص في وجوب المشاركة تماشيًا مع قاعدة «الأخذ بأخف الضررين وأهون الشرين»».

٣. «المسلم إذا تخلف عن المشاركة في هذا الأمر فقد قصر في القيام بواجبه الشرعي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»

٤. «عدم الدخول في المجالس النيابية وعدم المشاركة فيها، وعدم القيام بهذا الأمر مع القدرة والاستطاعة؛ أشبه بالهروب من المسئولية والتولي يوم الزحف»، في إشارة تشبيه إلى الهروب من العدو في المعركة، وهي من الكبائر في الإسلام التي تستوجب الحكم بالقتل»

وأجزم أنّ مفردات هذه الفتوى لا تتمشى مع الواقع من ناحية، ولا مع الأحكام الشرعية من جهة أخرى، بل هي مجرد عمومات ينقصها الدليل في كل جزئية منها.

١. لا أرى ما المقصود بتعطيل القواعد الفقهية التي تتعلق برفع الحرج عن الأمة؟ ما الحرج الذي ترفعه المشاركة في الإنتخابات؟ اللهم إلا إن أخذنا بالرأي القائل إنها واجبة على أفراد الأمة، فتكون المقاطعة فيها حرج! ولكن هذا خلف، فكونها واجبة أو ليست واجبة هو محل النزاع، ومعلوم أنه لا يصح الإستشهاد بموضع النزاع. أو أن يقال إن المشاركة ستؤدى إلى تعطيل تلك المصالح التي تتوالى على الأمة من وجود نواب الإخوان

في المجلس البهلوانيّ! وفي هذا ما فيه من مناقضة الواقع والتعامى عن الحقيقة التي يعرفها كلّ من بلغ الفطام، من أنه ليس لهؤلاء النواب دور قليل أو كثير في توجيه سياسة النظام المُتَحَكِّم، كما بيّنا.

٢. ثم عن «السكوت عن الحق، وهي قبول بالمنكر» فمن الذي قال أن النطق بالحق لا يكون إلا من على كرسي المجلس البهلوانيّ؟ وهل يعنى هذا أن كلّ من ليس في المجلس ساكتٌ عن الحقّ قاعدٌ عن تغيير المنكر؟ والواقع ينطق بالحقّ أنه لا أملَ في تغيير منكرٍ من خلال هذا المجلس الذي يملى قراراته النظام المُتَحَكِّم إبتداءاً وإنتهاءاً، وما مثلهم في هذا إلا كما قال الشاعر:

كناطحِ صَخرةٍ يوماً ليُوهنُها ** فلم يُضِرْها وأوهنَ قرنه الوَعلُ

٣. ومثل هذا مثل دعوى التقصير عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – إن كان مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إبتداءاً هو الحكم الشرعي الصحيح في مناط الدولة العلمانية – فكلّ ما يمكن أن يقال أمراً بمعروفٍ أو نهياً عن منكر يمكن أن يقال من على أي منبر حرٍّ شريف خلاف منبر المجلس البهلوانيّ، بل سيكون له أثر أكبر في توجيه الناس واكتساب ثقتهم ودعمهم، وكيف يزعم عاقل انّ الجلوس إلى جانب الطغاة، تحت مظلتهم، مقيداً بقوانينهم، يتساوى مع أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر من خارج منظومتهم العلمانية اللادينية نأياً عن الإلتزام بما يمليه المنصب من مشاركة في الباطل وغمط الحق.

٤. أما عن ذلك التشبيه الغريب بالتولى يوم الزحف، فلا أدرى معنى قوله «أشبه بالتولى..» فما المقصود «بأشبه»؟ أهذا قياس شرعيّ أم مجرد تشابه عام لا دخل للشرع فيه؟ فإن كان قياساً، فأين العلة الجامعة فيه؟ وتجريم التولى يوم الزحف ليست له علة منصوصة، بل هي، إن أردنا، علة مستنبطة بوصف مناسب ملائم على أفضل تقدير، أو وصف مناسب مرسل، وهو إسقاط الولاء للإسلام والخيانة التي تؤدى إلى الإضرار بالمسلمين وقطع شأفتهم. فأين هذا الوصف الملائم في عدم الترشح للإنتخابات؟ بل العكس، إن المشاركة

في هذه الإنتخابات إسقاط الولاء للإسلام وخيانة للمسلمين بتصوير العدو العلمانيّ وكأنه صاحب شرعية وأن النظام المُتَحَكِّم بمؤسساته يمكن أن يكون فيه خير، وهو باطلٌ فوق باطلٍ فوق باطل.

ليس في هذه الفتوى جديد، بل ينقصها التحقيق العلميّ الشرعيّ في كلّ جزئياتها.

الهوامش

١. http://www.tariqabdelhaleem.com/details.php?id=396

٢. http://www.tariqabdelhaleem.com/pdf/10Usool_Book_A.pdf

لمزيد الإطلاع

http://www.tariqabdelhaleem.com/details.php?id=137

http://www.tariqabdelhaleem.com/details.php?id=121

http://www.tariqabdelhaleem.com/details.php?id=125



السياسة المصريـة في الصحافة العالميـة

عَرَضَت شاشة سى إن إن CNN الأمريكية يوم الأحد الماضي برنامجا إخباريا خاصّاً أعده جوناثان مان، عن السياسة المصرية وعملية الإنتخابات الرئاسية والبرلمانية، وما يعترى الشارع المصري هذه الأيام من أحداث نشأت عما يسميه المراسل «العملية الديموقراطية» التي لم تشهدها مصر منذ عقود، وقد دار حديث مع العديد من الشخصيات العامة سواء الرسميّة أو غير الرسميّة عن التوقعات التي تصاحب هذه العملية.

فقد قال جورج اسحاق الذي ينتمي إلى حركة كفاية :»ما هذ الديموقراطية؟ ما معناها؟! إنني لا أؤمن بأن هذه العملية ديموقراطية على الإطلاق». ثم تحدثت رباب المهدي، المدرسة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ومعها الأستاذة ليلي سويف، الأستاذة بجامعة القاهرة، فذكرتا أن قوات الأمن قد اعتدت عليهما وعلى زملائهما من النساء خاصة،. وقد عرض صورا مخزية لمن أسماهم «بلطجية النظام الداعين لمبارك» وهم يضربون الناس ويعتدون عليهم، بعون البوليس، كما ذكرت كيف تم الإعتداء الجنسي عليها، وأن الذين فعلوا ذلك كانوا يقولون لها «إن هذا عقاب من يتصدى لمبارك!»، وبكت رباب بعد أن انتهك عرضها بالكلية!. ويعلق جوناثان مان، مستهزءا: «أن ذلك حدث بينما كانت زوجة بوش، في نفس اليوم، في زيارة للقاهرة، تقرظ جهد سوزان مبارك على دورها في دعم الديموقراطية ودور المرأة في المجتمع!»

د. جون إسبوستو، الأستاذ في مركز التقارب الإسلامي المسيحي بجامعة جورج تاون، والمعروف بتفهمه للواقع العربي الإسلامي، قال أنه رغم مكانة مصر الريادية على المستوى الإجتماعي والإقتصادي والعلمي في الشرق الأوسط، إلا أنها ليست على مستوى الريادة في مسألة الديموقراطية. كما علّق على ما ذكرته رباب أن ذلك تكتيك الحكومة في ان ترهب النساء أولا، وأن ترسل رسالة واضحة للرجال أن هذا ما ستناله نساؤكم حال تحديكم للحكومة، ويتساءل جوناثان مان: «ولكن هل هذا في صالح الحكومة أم ضدها؟» ويجيب د. إسبوستو: «في ضد مصلحتها على المدى الطويل ولا شك». كذلك

فإن ما حدث حدا بغادة شهبندر أن تعرب عن استيائها لما حدث لهولاء النساء بلا سبب، وهو ما دعاها إلى تنظيم حركة «شايفنكم». بينما يعلّق «نظيف!» على هذا بقوله أن هذه حوادث فردية قليلة لا غير!. وعرض التقرير عملية الإعتداءات على النساء في إبان هذه المظاهرات بالقاهرة.

وقد ذكر المراسل أن مبارك قد ظلّ يحكم بقبضة حديدية ديكتاتورية عقود من الزمن بمساندة الولايات المتحدة، وعونها المالي وبدعم القوة العسكرية المصرية. وقالت د. عايدة سيف الدولة، المعالجة النفسية في مركز النديم لمعالجة ضحايا التعذيب: «إن الناس في يأس وغضب، ولا يرون مخرجا لهذا المأزق».

وجاء دور رئيس الوزراء أحمد «نظيف!»، ليعبّر عن الرأي الرسمي للحكومة في أنها تسعى إلى الريادة في حركة الديموقراطية في العالم العربي كما كان لها الريادة في عملية السلام مع إسرائيل!، وقد ذكر بعدها بالحرف الواحد : «أن الدستور المصري واضح في هذا الشأن، إنه لا يسمح بقيام اي أحزاب على أساس ديني سواء كان هذا الدين هو الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو أي دين آخر!» والرجل، خريج جامعة ماجيل بمونتريال، كندا، وربيب الغرب، يحمل إسم رسول الله صلى الله عليه وسلم!!.

ثم كان اللقاء مع ممثلي الإخوان الذي يعتبرهم الغرب ممثلي الحركة الإسلامية والتي قال عنها جوناثان «إنها العدو الحقيقي الذي تخشاه الحكومة». ويظهر في هذا الجزء من التقرير خلط الغربيين - عمدا أو جهلا - بالفارق بين ما يسمونه الإرهاب وبين الحركة الإسلامية التي تدافع عن الوجود الإسلامي في مصر بما يتاح لها من الوسائل، ويربط بين فكر «سيد قطب» رحمه الله وبين ما يسميه الإرهاب، ويذكر أن المؤمنين بهذا الفكر يرون أن تطبيق الإسلام هو الحلّ الوحيد لهذه الأمة وأملها في أن تقف في وجه الغزو الغربي. ولكن الدكتور إسبوستو يوضح أن قادة الإخوان أنفسهم لا ينكرون العنف فحسب ولكنهم يبعدون أنفسهم عن فكر سيد قطب بكل وسيلة

ثم تحدث المراسل إلى نبيلة حامد، التي إعتقل زوجها منذ إثني عشر عاما، دون أي تهمة

أو محاكمة، إلا أنه أصبح متبعا للإسلام أكثر من قبل، هذه كانت هي تهمته!.

كما عبر الدكتور محمد مرسي المنتمي لحركة الإخوان عن أن المصريين يريدون دولة إسلامية تحكم بشرع الله، وقال متعجّبا أنه «إن كنا هنا أغلبية إسلامية تريد أن تحكم بالإسلام، فما هو الخطأ في هذا، فنحن نريد تطبيق الإسلام هنا في بلادنا وليس في بلادكم؟!». وقال مهدي عاكف مرشد الإخوان أن كلمات الله لا يمكن تغييرها، فإن منع الله الخمر أو زواج الشذوذ فلا مجال لتحليله، ولكن الديموقراطية في الغرب تسمح لأهلها أن يفعلوا ذلك، فليفعلوه هناك في بلادهم، ولكننا هنا لسنا كذلك».

ويستمر التقرير الإخباري على هذه الوتيرة ويخلص بعدها إلى أن مصر على شفا تغيير قد يؤدى إلى تغيير حقيقي، إلا أنه، كما عبّر د. إسبوستو:»على الرغم من أن الحكومة قد فتحت الباب للتغيير مواربة، إلا أن الإحتمال قائم ابدا أن تغلقه مرة أخرى».



الإخوان - خطوة أراها في طريق الحق

تهنئة من القلب للإخوان على ما قررته الجماعة مؤخراً من نبذ العمل السياسي العام والرجوع إلى الدعوة ورحابها الواسع وطرقها الواضحة الهادفة، بديلا عن سراديب السياسة وحاراتها الضيقة العفنة المؤججة بالفساد والعطن، وإن جاءت هذه الخطوة من الإخوان متأخرة ما يقرب من ثلاثين عاماً ضاعت دون أدنى نتيجة، مع أحلام الإصلاحيين من الداخل، فهي بلا شك لا تزال خطوة في طريق الحق الذي لا يحده زمن ولا يوقف مساره تأخير.

ولا أشك أن هناك من لا يشاطرني هذا الرأي، ولكن أقول لهؤلاء المخالفين، ألم نر بالفعل نتيجة خداع النفس بالأمانيّ أنّ الإصلاح سيأتي من الداخل، وأنّ الكتلة البرلمانية الإخوانية سيكون لها تأثير في تسيير الأمور للتي هي أحسن؟ ماذا رأينا من تقدمٍ بعد ثلاثين عاماً من هذه التجربة الإخوانية البرلمانية؟ ألم يكن في تجربة الكويت أو الجزائر موعظة للآخرين؟ ألم ينصح الناصحون في العقود الثلاثة السابقة، أن أفيقوا رحمكم الله، فالديموقراطية التي يعيشها الإنسان العربيّ ديموقراطية زائفة بكل معايير الزيف والضلال؟ أرضيتم كلّ هذه الفترة من الزمان أن تكونوا عوناً على إظهار الباطل وكأنه يريد الحق ويتعامل معه ويترك له الحرية للعمل والإختيار؟

السياسة، كما تمارسها النظم القائمة، لا تصلح أن يكون للمسلمين ضلع فيها، لا عقيدة ولا عملاً، بل الأولى أن تُترك لأصحابها الذين يعرفون الملاحة في سراديبها وحاراتها الضيقة العفنة المؤججة بالفساد والعطن، والذين يقبلون العلمانية طريقاً وعقيدة ومنهجاً في السرّ والعلن. لكن المسلمين لهم طريق الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة هؤلاء السياسيين بالتي هي أحسن. طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الدعوة لإحياء هذه الأمة إحياءاً صحيحاً كاملاً وفق تصور أهل السنة والجماعة وعلى نهج صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يكون ما يكون حين يريد الله تعالى له أن يكون، لا إستعجال بالخير قبل أوانه ولا خداع للنفس بأحلام تحقيقها في أيدى الغير.

الإسلام يبنى ويؤسّس على أرضية سليمة صحيحة خصبة، ولا يقبل أنصاف الحلول

والمناورات وخلط الأوراق، ومن ثمّ يجب توجيه الطاقات العاملة على تقديمه للناس بمبادئه الأولى دون أن يخدم السياسة أو أن يتودد للعلمانية.

العمل السياسيّ العام اليوم لا يمثل أي من طبقات هذا الشعب حقيقة، بل يمثل من روّضتهم السياسة لخدمة أصحاب المصالح الحقيقية من أسياد النظام وعملائه. فما للإسلاميين وهذا الخط الخطير من العمل؟ الشارع المصريّ أولى بالإنتباه والعمل والتوجيه، فهناك الكثير ممن يتشوق إلى معرفة الإسلام عقيدة وعملاً، والإخوان قادرون، إن خلصت النية وصحّ الطريق ووضحت الرؤيا واستوت العقيدة، على أن يخدموا في هذا المجال أفضل وأقوم من السياسة ولا شك.



حين تفقد أمـة رأسها!

تعتمد الأمم الناهضة في بنيان عمرانها على الجهد المشترك والمنسق بين قطاعيها الحكومي الرسمي والشعبي العامل لتحقيق أفضل النتائج في المجالات المختلفة من ناحية ولضمان الحدّ من الخسارة التي تلحق بالمجتمع من جرّاء التعدى والسرقة والنصب وما إلى ذلك من أمور مضرّة بالعمران وتقدمه. وهذا التنسيق والترابط لا يتم إلا بإشراف الحكومة عليه وتحقيق التوازن بين المؤسسات الوطنية العامة والخاصة، وذلك بسنّ القوانين التي تحكم هذه العلاقة بين هذه المؤسسات، فلا تجور أحدها على الأخرى بل تعمل كلها في صالح الشعب، وما ذلك إلا بجهد التنسيق الذي تقوم به رأس هذه الأمة ومؤسستها السياسية.

والأمم في هذا أشبه بجسد الإنسان، فالجسد فيه الكثير من الأعضاء والأجهزة التي تعمل جزئيا بتنسيق داخلي ذاتي ناشئ من طبيعة تركيبها، وتعمل بتناسق مع بقية الأعضاء والأجهزة لضمان صحة الإنسان الجسدية والعقلية. ودعونا نتصور أن إنسانا فقد رأسه أي عقله المدبر، وإن ظلّت خلاياه وأعضاؤه سليمة عاملة، وأقل ما يحدث في هذه الحالة أن تتحرك هذه الأعضاء بعشوائية أقرب إلى الجنون، ثم يتبعها بعد فترة الأجهزة الداخلية التي وإن كانت أطول أمدا في القدرة على القيام بوظائفها دون جاجة إلى الرأس المدبر، فإنها ولاشك ستفقد ترابطها وتتوقف وظائفها ويتدهور الجدسد الإنساني ليمرض أولا ثم يشتد مرضه وهو في كل هذا مجنون أو أشبه بالمجنون، تتحرك أعضاؤه بلا تنسيق بل كلّ عضو يعمل مفردا ويسعى للقيام بوظائفه دون إعتبار لغيره من الأعضاء.

أليس هذا أشبه بحال أمتنا، بعد أن فقدت رأسها! فالحكومة التي يجب أن تلعب دور المنسق أصبحت لا عمل لها في مجال التنسيق أو الإصلاح أو سنّ القوانين العادلة، بل أصبح همّ أعضائها أن يحقق كلّ منهم الكسب السريع العريض لنفسه، ولهذا تسنّ القوانين ويسحل الناس وتضرب أبشارهم وتسلب حرياتهم، أصبح همّ الرأس أن تبقي على منصبها ولو مات الناس ولو خربت الدنيا، فيعلو من يكذب وينافق، ويسجن ويشرد

من يقول الحق ويسعى للصالح! وترى عمل الرأس منحصرا كلية في إبرام الصفقات المشبوهة في مجالات الزراعة والصناعة والتسليح والطاقة، وغير ذلك من المجالات التي تحيا بها الأمة، ولو أدى ذلك إلى هلاك الحرث والنسل وضياع ثروة الأمة المادية والعقية، إذ أن تراث الأمة ودينها أصبح سلعة تباع في السوق الدولي يباع لإرضاء الأسياد ممن لهم القدرة على جزّ هذا الرأس المجنون واستبداله بمن هو أخبث طريقة وأشرّ طوية، إن وجد مثل هذا الرأس الأخبث!

وحين يرى الجسد العمل من أبناء الأمة أن رأسه قد جنّ بنفسه وأصبح لا فائدة منه في تنسيق أو تدبير، سعى كلّ من ابنائه لصالح نفسه دون رعاية للصالح العام أو إعتبار لمصلحة الأمة ككل. وينشأ من هذا جيل أناني بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى. وتظهر على أجهزته علامات المرض والإعتلال، ثم تلاقى الأمة حتفها وتصبح ذكرى في ذاكرة التاريخ.

كلّ هذا لأن الرأس قد جُنّ، جُنّ بحب ذاته ومصلحته، لا يراعي غيرها ولا يعمل إلا لأجلها،سيطرت الأهواء على هذا الجهاز الحاكم فباع ضميره وخان أمانته وخاصم ربّه وألقى دينه وراء ظهره!

والله لا أدرى أي إنسان وأي ضمير يمكن أن يسقط هذا السقوط، ويسمح لنفسه أن يطلق الجسد، جسد الأمة، مجنونا بلا ضابط ولا مدبر، لدنيا يصيبها، وما هو بمخلد فيها!



الهوية المصرية وقانون التغيير

الهوية المصرية تمثل الثابت المطلق في معادلة التغيير الحاضر، إذ إنّها الضامن الأوحد لتلاقي القوى المختلفة العاملة في المجتمع المصرى على هدف واحد ومنطلق واحد. وهذه الهوية، مهما إدعى المدّعون، وتصارخ المرجفون، هي هوية إسلامية شكلا وموضوعا، على ما يشوبها من شوائب تراكمت خلال عقود التخلف وممارسات الجاهلية، وهي إسلامية العقيدة، إسلامية الحضارة، إسلامية الطبع والثقافة والعادة، حتى الأقلية النصرانية تعيش هذه الطباع والعادات والأعراف الإسلامية سواء شاءت أم لم تشأ، يعرف ذلك من عاشر القوم في بلاد الغرب ورأى نفور نصارى مصر من تقاليد الغرب وعاداتهم وممارساتهم الشاذة المنحطة.

وهذه الهوية الإسلامية تتمثل في غالب أبناء مصر سواء من إلتزم بالإسلام كقضية حياة ومصير أو من طحنه الفقر وحطت عليه ظلمات الجهل فما عاد يميّز بين ما هو من حدود الإسلام وضروراته وما هو من قبيل الذنب والتعدى. ومن ثم فإن كل أبناء مصر يجتمعون على مفهوم واحد هو الخضوع لله سبحانه وإلتزام أمره وإن ضعفت النفس حينا أو أحيانا، ولا يقبل أحد من أبناء مصر أن يهان الدين أو أن توضع أوامر الله سبحانه على رفوف النسيان والإهمال. هذه المشاعر المتوحدة هي القاعدة التي يجب أن تبنى عليها قواعد المستقبل فلا قوة في غيرها مهما إدعى المرجفون.

وقوى العلمانية و"التحرر" و"التقدم" و"الليبرالية" وغير ذلك من أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، إنما هي قوى تحرك ضئيلا من قوى الشعب لا يحسب النظام لها حسابا. فمن أراد أن يستثمر قوى الشعب الحقيقية فليلجأ إلى الكامن المستقر من هويته الثابته وليخاطب فيها الإسلام عقيدة وحضارة وثقافة وعادات وطباع لا زالت تقطن هذه الأرض وتعيش في قلوب وعقول ساكنيها قرون متطاولة.

والتغيير له قوانين ثابتة راسخة رسوخ القوانين الطبيعية وأشدّ، فلابد من إحترام هذه القوانين ومراعاة ضوابطها ومبادئها وعلى رأسها أن من أراد البقاء حافظ على هويته الحقيقية وعاش بها حاكما ومحكوما، ومن أراد الإنقراض والزوال تمحك في ظلّ ثقافات لا ينتمى

إليها ولا يجمعه بها إلا ما يجمع العدو الغالب بضحيته المغلوبة.

فعلى جماهير شعبنا المصرى، وأقصد كل طوائفه، أن يخلصوا لهويتهم التي ارتفعوا بها من حضيض الجاهلية إلى رفعة الحضارة والعلم والتقدم والغلبة أن يلهثوا وراء معان مصطنعة وأسماء ملمّعة زائفة البريق كوعود «الديموقراطية الأمريكية» تلك الديموقراطية التي هي مضحكة العقلاء، والتي يعرف من يعايش الغرب في حاضره أنها لا تعنى أكثر من قيمة الحبر الذي تسطر به على الأوراق، والتي أبدلنا الله خيرا منها قواعد الشورى ونظم ولاية الأمر وسياسة الحكم الشرعية كما عرّفها علماؤنا، فإن فيها هويتنا الحضارية وعليها يبنى نظامنا الحياتي وبها تضمن الأغلبية رفعتها وكرامتها وتضمن الأقليات حقوقها التي شرعها الله لها كاملة غير منقوصة.

وعلى هذا الفهم وبهذا العهد وإلى هذا الغرض فليسع الساعون، ونحن نكون اسبق الناس إلى إتباع حكامنا إن استيقظ منهم الغافل وسار على درب الصواب وعرف أنّ بقاءه مرهون بإحترام هوية شعبه لا بمحقها وسحقها ومسخها بما هو مستورد مرذول.



الحرية المخصخصة!

كذب من إدعى أن لا حرية في مصر، كذب وجهل معنى الحرية وحدودها، فإن مصر تتمتع بحرية واسعة لا تعرفها بلد آخر على سطح الأرض، إلا أنها، يا سادة، حرية من نوع خاص، حرية يتمتع بها أعضاء حزب النظام وأذناب النظام و"براطيش" النظام، حرية لا تعرف حدودا ولا قيودا، إذ أنهم أحرار في أن يلفقوا ما يريدون من التهم، ويعتقلوا من يريدون من العوام، ويسرقون وينهبون ويتلاعبون بمصائر الناس بل ويتعدون على شرفهم وعرض بناتهم، ويمنعونهم من الحياة الكريمة اللائقة التي لا يستحقها إلا من يتمتع بهذه الحرية من طبقة «المخصوصين».

وهذا أمر طبيعي يا سادة، إذ قد غاب عن عقول المصريين الذين يهرفون بأن لا حرية في مصر، أن الحرية سلعة غالية نادرة، فهل رأيتم بلدا في العالم يتمتع أهله بكل غال وثمين! عجبت لكم يا سادة، إن سلعة الحرية هي من نصيب من يستحقونها من أتباع النظام وأذناب النظام وبراطيش النظام، لأنهم هم الذين دقوا الطبول اعوام وأعوام لآلهة النظام ولا يزالون، وهم من ثمّ يدافعون عن حقهم في الحرية، فمالكم تطالبون بما لا تستحقون! أقرعتم طبول الوفاء والفداء للآلهة القابعة على صدور الشعب عقود وعقود لا تريم؟ أأصدرتم فتاوى تبررون بها الخدع والتحايل كما فعل أذناب من الأذناب؟ أأصدرتم أوامر بإعتقال أو تشريد أو إغلاق صحف أو احزاب أو قتل أبرياء في التحقيق.. أو غير ذلك مما يؤهلكم لهذه الحرية المخصوصة؟ عجبت لكم يا سادة؟

الحرية يا سادة، في بلادنا، ليست كالماء والهواء، أو كما هي في أرجاء أخرى من العالم، أو كما كانت على عهد أفاضل البشر، صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين ذكّروا عمر (وما أدراك ما عمر) بأنهم له بالمرصاد إن تجافى عن الحق، هذا اللون من الحرية يا سادة ليس من حق الإنسان المصرى الذي وصفه سادة مصر بالجهل والتخلف، وكيف نفعل بالحرية ونحن العبيد لا نعرف حدودها ومعناها؟ كيف يتمتع بها من لم يمارسها سنينا طوالا؟ ولماذا تكون من نصيب الإنسان العادي، أن يتحدث بما يشاء ويعبر عن رأيه بلا خوف ويكشف

التزييف والخيانة قبل أن تستفحل، ويكون الصغير عونا للكبير والكبير درعا وحماية للصغير؟ ماذا نريد من هذا اللون من الحرية، عجبت لكم يا سادة!

دعونا نلهج بالحرية المخصوصة ونبارك من باركها وندعو الله أن نفهم عن أصحابها ما هم فاعليه في هذه البلد وابناء البلد الذين لا حق لهم في حرية خاصة ولا عامة.



رياح التغيير وعواصف الواقع

قد يكون من الثوابت المسلمة في ايامنا هذه أنّ رياح التغيير قد هبّت منذرة بخلخلة تلك القواعد الهشة التى يقوم عليها بنيان الفساد والطغيان القائم على أرض مصر الغالية منذ عقود متطاولة، والتي جعل من أرض مصر منبتا للتخلف والفقر والجاهلية بكل ما تحمل من معنى، وجعلت من أبناء مصر أناسا لا يرون إلا لقمة العيش غرضا ولا غير السعي وراء ما يقيم الأود هدفا، وهم في هذا معذورون غير ملومين إلا بقدر تسامحهم مع هذا النظام الذي عصف بحياتهم وقيمهم وثرواتهم ومقدرات أبنائهم.

والتغيير أمر لا يجب أن نخشاه، رغم ما يحمل من عناصر المفاجأة واضطرابات الترقب والتوجس لما هو آت، إنما نريد حسن الإستعداد لهذا التغيير والتخطيط لما يأتي به حتى لا يستبدل طاغية بطاغية وفساد بفساد أشرّ وجاهلية متدسّرة فيها بقية من حياء بجاهلية سافرة لا حياء لها.

وحتى تكون هناك خطة لهذا التغيير، يجب أن تدرس عناصر الواقع والأطراف المشاركة فيه داخليا وخارجيا، نتلمس بهذا المخطط ملامح التغيير المرتقب، ونتعرف على ما عساه يبرز على الساحة المقلقلة المتنازع عليها، فإننا لا نسعى ولا نريد مجرد التغيير، أو «مطلق التغيير» ولكننا نسعى إلى «التغيير المطلق» الذي تعود فيه الأمور إلى نصابها، تعود القيم التي سادت في حياة الناس قرونا إلى الحياة، وتعود الكرامة إلى أبناء الشعب بطوائفه وأطيافه، ويعود الحاكم محكوما بمن أثبته حاكما من ولاة أمر الأمة، ويعود المحكومون أوصياء على الحاكم إن أصاب شكروه وإن أخطأ قوّموه.

ومن أهم العناصر التي يجب أن يعتبرها المشارك في هذه العملية من الهدم والبناء هو الهوية المصرية الأصيلة ثم التركيبة الإجتماعية، وأطر القيم والمبادئ، ثم الأشكال السياسية التي تتمشى مع هذه العناصر كلها وتجعلها تعمل في صالح المجموع داخل نظام القيم ومن خلال تحقيق الهوية والمحافظة عليها.

هذه العناصر هي ما نحسبه أهم ما يتدارس المهتمون بأمر هذه الأمة وما هي مقبلة عليه حتى لا تمر رياح التغيير فإذا بالبنيان الفاسد المخلخل باق على قواعده، لم يتغير فيه إلا سكانه وشاغليه!

ثم لا ننسى أن هذه الرياح تهبّ ليس على أرض الكنانة فحسب، بل تهب على أرض المسلمين في كل أنحاء البسيطة، فنحن جزء من كلّ والواجب أن نتعرف على ما يحدث في بقية أنحاء العالم الإسلامي من تآمر النظم الحاكمة الخارجة عن الشرعية الإسلامية مع النظام الصهيوني الصليبي الحاكم في أمريكا والذي لم يسيطر على تلك البلاد إلا في غفلة من أهلها كما نحسب. وسنعود إلى هذه القضية مرة أخرى فيما يأتي إن شاء الله تعالين كما سنبحث في تلك العناصر متلمّسين أفضل الخطط لإستثمار تلك الرياح القادمة.

ثم نؤكد ما ألمحنا إليه من أنه مهما كانت هذه الرياح تحمل من المخاطر والقلاقل فهي أنفاس رقيقة حانية إلى جانب تلك العواصف التي عودّنا هذا النظام على أن نعيش في ظلّ هدّها وهديدها عقود متطاولة.



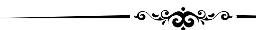
تجاوزات النظام أم نظام التجاوزات

قاعدة مقررة في أصول الفقه تقضى أن «للجمع قوة أكبر من مجموع أفراده» أي إن إجتماع أحداث كثيرة لها دلالة أكبر كثيرا من وقوعها متفرقة أو من وقوع حدث فذٍ منفرد كبير. وحيث قررنا ذلك فدعونا نتأمل تلك «التجاوزات» التي وقعت من النظام - واستغفر الله من قولة «النظام» إذ هو أقرب إلى اللا نظام منه إلى النظام - أقول إذا نظرنا في هذه «التجاوزات المتتالية نجدها تشكل برنامجا يبنى على قواعد الظلم والتنكيل و»استغفال الأمة» عوامها وخواصها والإستهتار بمبادئها وشرعها. ونظرة إلى هذه التجاوزات يثبت أنها ليست محض تجاوز منفرد.

التجاوز في حق الأمة بشأن إعتداءات الأقلية على حقّ المرأتين المسلمتين اللتين أجبرتا على الرجوع عن دينهما بعد اعتناقه. ثم التجاوز عن ضرب المعارضة والتعدى الجنسي على نساء في مسيرة سلمية، ثم التجاوز في قضايا يوسف والي وأمثاله من المخربين والحرص على حمايته، ثم التجاوز عن حق القانون ومقرارات المحاكم بشأن الكثير من المعتقلين بلا جريرة ولا سبب، أو من قضى مدته في الحبس وهو لا يزال محبوسا دون جريرة، ثم التجاوز عن قرارات المحاكم بشأن إيقاف صحف أو أحزاب دون وجه حق، ثم التجاوز في إعتقال الآلاف من أبناء الشعب ممن ينتمى إلى جماعة إسلامية ولو أنها جماعة تعلن البراءة من المواجهة وتنتهج منهج المصالحة مع الحكومة لا لجريرة إلا أنها تنتمى للإسلام وترفع شعاره، والتجاوز في قضايا ضرب الموقوفين أمام النيابة في التحقيق حتى الموت، والتجاوز في انتهاز حاجة الناس المضنية وشراء أصواتهم مقابل حبة «فياجرا» أو «ساندوتش كباب»! ثم التجاوز عن حق الأمة المسلمة في أن يعبّر نظامها الحاكم حتى ولو بكلمات قليلة عن استيائه للإهانة التي تعرض لها كتاب الله من أؤلئك القردة والخنازير وعبد الطاغوت من جنود دولة الصهاينة الكبرى في أمريكا الشمالية، والتجاوز في وصف شعب مصر أنه شعب «خسيس لا يستحق إلا ما يجرى عليه»! ....

ولو ذهبنا نستطرد في التجاوزات التي حدثت في الآونة القليلة الماضية لشغلنا من هذه

المجلة أعدادا واعداد ولكن فيما تقدم ما يكفى لإثبات ما ذهبنا إليه من ان هذا الأمر مخطط له ومدروس لا يحدث بعشوائية، ثم إنه يثبت عظم الجرم الذي يرتكب في حق شعبنا المصرى فالحكام بشر يخطئون ويصيبون، وليس مطلوب منهم الكمال، ولكن ان يكون الخطأ هو الأصل والتجنى والتعدى والتجاوز هو القاعدة - دون استثناءات! - فهو ما لا يرضى به أحد ممن يعرف حق الله وحق خلق الله اذين خلقهم الله أحرارا دون استعباد.



ظاهرة الإستئناس السياسي في حياتنا الصحفية

قال لي صاحبي وهو يحاورني في دور الصحافي وحدوده: إن دور الصحافي المستقل الحرّ في أيامنا هذه هو محاولة صياغة رأي عام يضغط لصالح الحرية ومطاردة الفساد ومستقبل أفضل للأجيال القادمة والسبيل إلى ذلك هو نقل الأخبار بأمانة ودون تمييز، إلا إن هناك حسابات تفرضها الظروف يجب أن تراعي، مما يمنع أن يكون هناك توجّه عقدي أو سياسيّ محدد للصحافيّ قد يخلّ التلوّن به بسلامة العمل و سلامة القائمين عليه.

قلت لصاحبي: كلام طيب ومعقول في ظاهره، إلا إنه يعكس ظاهرة في العمل الصحافي نمت في بلادنا منذ عقود عدة يمكن أن نطلق عليها ظاهرة «الإستئناس السياسي»! بمعنى أن هناك حسابات عديدة تتدخل في عمل الصحافي فتجعله يستأنس فلا يفترق عن الصحافي المأجور إلا في «دخله الشهري»، منها ذلك العقد غير الرسمي بين الجهات «المعنيّة» وبين الصحافيون والكتاب الأحرار يحدد لهم خطوطا حمراء لا يتجاوزونها كالمساس بشخصيات معينة أو تحليل موضوعات محددة أو التعليق على أخبار بعينها، وطالما أن الكاتب أو الصحافي يعمل داخل هذه الدائرة فلا بأس عليه وعلى عمله الصحافي! ذلك هو القيد الأول.

ثم هناك حسابات أخرى تتعلق بالعامة وما يتقبلون من آراء وما يوافق مزاجهم من تصورات تكوّنت من واقع صحافة سيئة موجّهة أو جهل عام بحقيقة ما يجرى على أرض الواقع، فإن الصحافي إن عرض أخباراً تعارض ما استقر في عقول العامة بالباطل تعرّض لفسادِ عمله وازورارِ الناس عن كتابته أو صحيفته، وذلك هو القيد الثاني.

والحقّ، قلت لصاحبي، إنّ محصلة ذلك هو أن يتقيد الصحفيّ الحرّ بتلك القيود المفروضة ويسير وفق هذه الحسابات المدققة فيعرض أنصاف الحقائق، ثم لا يشفعها بما يبيّن طبيعتها من تحليل يضعها موضعها من التصور العام الحقيقي للواقع، بل يترك قارئها ذو العين البصيرة ليقوم بهذا الدور بنفسه دون تدخل من الصحافي حتى لا يخلّ هذا الأخير بتلك الحسابات المفروضة. ولكن الأمر الخطير هنا أن المرء يتعوّد ذكر شطر الحقيقة حتى تصبح بالنسبة له هي كامل الحقيقة فينحرف عن الحقّ إن عاجلا أو آجلا، والصحافي أو

الكاتب كذلك، رجل يفترض أنّ له توجّه محدد سواء في العقيدة أو السياسة، وأن يتعود هذا الرجل أن ينحرف بقلمه عن بيان ما تعني تلك الأنباء التي تصنعها الأحداث فالأولى به أن يكسر قلمه، وأن يلزم داره وأن يطبق شفتاه كما عبّر شيخنا العلامة محمود شاكر من قبل، فإن المرء إما أن يقول خيرا أو ليصمت كما قال رسول الله صلة الله عليه وسلم. ثم إن مراعاة توجّهات العامة أمر لا يجب أن يدخل في حساب الكاتب أو الصحافي إلا فيما استقرت عليه الأعراف التي لا تخالف شرعا. أما عن تلك الآراء التي تنشأ بين الناس وتمثل خللا وانحرافا عن التصور السديد للواقع فهذا أمر لا يوافقه صحافي شريف وهو الدور الذي يجب أن تلعبه الصحافة الأمينة لتصحيح فكر العامة وتصوراتهم عن واقعهم ومن ثمّ مستقبل أجيالهم، إذ إن مهمة الكاتب أن يوجّه الجمهور لا أن يوجهه الجمهور، كما عبّر أحد الأصحاب.

ثم كيف يخلع الصحافي توجهه العقدي أو ميوله السياسية حين يكتب في صحيفة من الصحف، ثم يتدثر بهذه العقيدة وهذا التوجه حين يكتب في موضع آخر! أهكذا تملي الصحافة «الحرّة» على ممارسيها أن يبدوا ما في أنفسهم تارة ويخفوه تارات! وهل يساوى علو الذكر أو سعة الإنتشار أن يخلع المسلم رداء عقيدته مراعاة للحسابات، وكيف يفترق الصحافي الحرّ إذن عن عملاء السلطة إلا في أن العملاء فُطروا على ذلك وأنّ الشرفاء استؤنسوا لاحقاً! لا أعتقد أنّ هذا من خلق المسلم جملة واحدة، ومن هنا ذمّ السياسة من علمائنا من ذمّها.

قلت لصاحبي، نعم، لا أشك في أن هناك حسابات يجب مراعاتها، فنحن لا نعيش في عالم المثالية ولكن التحدي الذي يواجه الكاتب والصحافي المستقل الحر هو تحدي تلك الحسابات المفروضة والمغامرة وراء تلك الحدود المرسومة وأن يذكر دائما أن الحسابات التي لا يمكن مغالطتها هي حسابات أخرى من وراء هذه الحياة.

أزمة القيادة بين الشرع والوضع في واقعنا الإسلامي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وبعد.

إذا نظر الباحث في حال الأمة الإسلامية اليوم، وجد كثيرا غالباً مما يجب تبديله، وبعضا مما يجب إصلاحه، ولم يكد يرى ما يمكن أن يترك على حاله. فالأمة اليوم كجسد آدمي أصابه السرطان في كافة أعضائه، وتسرب إلى خلايا عقله، فأصبح الجسد عاجزاً، مرتين!

وأقصد بالعقل المتسرطن هنا، من هُمْ، أو من يدّعون، أو يحاولون أن يكونوا مسؤولين عن قيادة الأمة، في بقعة من بقاعها. ولعل الأبرز اليوم ما يحدث في مصر، وما يجرى في الشام ... على تباعد ما بين الحالين، لكن المشكلة قائمة موضوعيا في كلتا الدولتين .. فكلنا في الهمّ شرقُ!

ولن نتطرق هنا إلى وضع الشام، قيادة شعباً ومجاهدين، فإن شعبهم أخرج عدداً ممن رفعوا السيف في وجه الطاغية، وإن لم يكن كافيا بالنسبة لتعدادهم، لكنهم قدموا ولا يزالوا يقدمون، شهداء على أرضهم. أما عن مشكلة قيادتهم، فإن فيها مشتركات مع الحالة المصرية، لكنها في مجملها تختلف عنها لطبيعة مرحلة الصراع الدائر في الشام، واللاصراع الدائر في مصر!

إذا نظرنا إلى الحالة المصرية، شعباً وقيادة معارضة، إن صحّ أن هناك معارضة حقيقية، وجدنا أن الشعب لا يزال في غالبه بعيد عن تصور المشكلة وعمقها وتجذرها في الدولة المصرية، حيث يتحكم ما لا يزيد عن مليونين من حثالة الخلق، علما وخُلقا وضميراً، في مصير أكثر من تسعين مليوناً، منهم خمسين مليونا من النساء والأطفال، وعشرين مليونا من كبار السن، وعشريم مليونا من الشباب والرجال عديمي النفع، مسلوبي الإرادة، إمّا بفعل الخوف الطبعي، أو استسلاما للهزيمة، أو متابعة ما أحدثته طائفة المخذولين من شعارات زائفة، على رأسها السلمية.

أمّا القيادة، وهي موضوعنا الرئيس هنا، فننظر في أشكالها وأنواعها القائمة على أرض

الواقع، ليمكن أن نعرف أفضلها طريقة وأقومها وسيلة.

وحتى يتسنى لنا الحديث عن القيادات، يجب أولاً أن ننظر فيمن **يقودون**، **وماذا يقودون**. أمّا فيمن **يقودون**، فقد أومأنا إلى الشعب في مصر بشكل مختصر. أمّا **ما يقودون**، فهي بالطبع الدولة المصرية التي نرجو قيامها، بقيادة من يقود، والتي تقوم على أيديولوجية معينة، تؤمن بها تلك القيادة، إيمانا لا يتزعزع.

شكل الدولة بين الإسلام والديموقراطية:

ولعل **قائلا** أن يقول: قرنت الإسلام بالديموقراطية، وهو ليس قرينها، بل المسيحية أو اليهودية، كدين قرين لدين. أما الديموقراطية فقرينتها الشيوعية مثلا. فنقول إن نظرنا إلى الديموقراطية يتلخص في أنها دين! دين متكامل، له جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والفلسفية. هي دين الغرب الحديث، منذ القرن الخامس عشر، بل هي، في حقيقة الأمر هي دين الغرب منذ الحضارة اليونانية ثم الإغريقية فالرومانية، فالوسيطة فالحديثة، على اختلاف تجاوزات في تطبيقها في أكثر تلك العهود، بين الديكتاتورية والثيولوجية الدينية **المسيية**؟؟. وقد تطورت الديموقراطية، وأجنحتها في سائر الأنشطة الحياتية، لتصل إلى الأشكال الحاكمة في بلدان الغرب عموماً.

بين الشورى والديموقراطية:

الديموقراطية، كما هو معروف، كلمة وُلّدت من معنى حكم الشعب للشعب. أضف إلى ذلك أحد أهم أبعادها، وهو المساواة في قيمة الصوت vote بين الأفراد، عن انتخاب ممثليهم. ومعني هذا أنّ الشعب، بكافة أفراده، له حق تقرير كافة قوانينه، ما ترضاه الغالبية الدستورية، هو الحق والصواب والقانون المتّبع. ثم إن هذه الأغلبية الدستورية تأتي من التشكيل البرلماني **بأعضائه** «المنتخبين» من عامة الشعب، بكل طوائفه، بلا تمييز. وبالطبع، يروّج أنصار الديموقراطية أنها تسوي بين الرجل والمرأة، وبين الأبيض والأسود، وبين الغني والفقير، والشريف والحقير، لكننا نضيف هنا إلى أنها كذلك تسوي بين ، شريف ووضيع، تقي وعاهر، مسلم ومسيحي وبوذي، طاهر وسارق، والأهم من ذلك كله، بين

عالم وجاهل. الكلّ له حق واحد متساو أمام القانون، في اختيار من يمثله لسنّ القوانين في كافة مناحي الحياة.

ويحلو لكثير من «مفكرينا الإسلاميين»، وكثير من «دعاتنا»، أن يسوي بين الديموقراطية والشورى في الإسلام، على أساس ما ذكرنا من مساواة في تلك الطوائف. كما إنهم يسوون بينهما على أساس أن لا علو لأحدٍ على أحد، ويستشهدون بحادثة هنا وواقعة هناك من سيرة رسول الله **صلى الله عليه وسلم** ، أو تاريخ عمر رضى الله عنه مثلا، أو عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. وهو بالطبع، اعتسافٌ للروايات، واستخدامها بشكل جاهل متأوِل، ووضعها في غير مواضعها، لتصل إلى النتيجة المطلوبة، وهي التناغم مع الغرب.

الديموقراطية هي نقيض الشورى، على خط مستقيم، وفيما يلي بيان ذلك.

فالشورى هي عبارة عن اجتماع فئة من المجتمع، هي خلاصته العليا، علماً وخلقا، في هيئة عُرفت في تاريخنا بأهل الحلّ والعقد. وصفاتهم معروفة مدونة، تقضى بأن يكونوا علماء شرع وأتقياء خلق وأطهار يد وضمير. وهذه الثلة من النخبة الاجتماعية، يكون اختيارها **مبنيّا** على مبدأ التزكية. والتزكية تقوم على الوضع العلمي والسيرة الأجاديمية الشرعية، بترشيح من الهيئات المختلفة المعنية بالشؤون الشرعية، لا من الشركات والجيوش والداخلية والمالية. ولا محل لتفاصيل الآليات في ذلك، لكن هذه النخبة، هي التي تختار فيما بينها من يقود الدولة، وتستعين بهيئات مساعدة مساعدة، في كل منحى من مناحي الحياة، في ضربين من ضروب الاستعانة، الاستشارية، والتنفيذية، ولا يصح الخلط بينهما لدفع الشُبَه. فأهل الحلّ والعقد مستشارون للرئيس (أو الخليفة إن شئت)، والهيئات المختلفة استشاريون لأهل الحل والعقد. والهيئة التنفيذية تقع تحت سلطان الرئاسة (أو الخلافة) بتمامها. فالسلطات هنا، في تصور نظام الشورى يختلف عن السلطات الثلاثة التي هي معروفة في النظام الديموقراطيّ. والقضاء يقع تحت سلطة أهل الحلّ والعقد، ولا يخضع للهيئة **التنفيذية** بالمرة.

فإن وصلنا إلى هذا التصور، فإننا نجد أن الفرق بين الديموقراطية والشورى فرق بائن شاسع، تصوراً ووسيلة، عقيدة وآليات.

١. ليس في الديموقراطية مرجعية ثابتة، ولا قيم محددة، إلا ما تحدده الأغلبية البرلمانية، بينما الشورى تقوم على مرجعية الكتاب والسنة، وما يثبت من الأدلة الشرعية، وما يدل عليه الاجتهاد الصحيح، من غير تجاوز للنص الصريح.

٢. الديموقراطية تقوم على أن قرار الشعب هو القرار، أيّاً **من** تعارضه من غيره من المراجع، والشورى تنص على أن الحاكمية لله سبحانه لا لغيره، «يحكم ما يريد»، «ألا له الخلق والأمر».

٣. الديموقراطية تقوم على حق التصويت المتساوى بين كافة الأفراد، بلا تفرقة على أي أساس كان، والشورى تقوم على قيام هيئة بالتزكية، يرشحها العلماء وأصحاب الوجاهة والصدارة العلمية الشرعية في البلاد.

فمساواة الشورى بالديموقراطية خطأ فادح، وفقد للحسّ الفقهي.

طبقات القيادات في الواقع الإسلاميّ:

وقد أفرزت الساحة المصرية، خلال تطورات أحداثها في نصف القرن الماضي، نوعيات من القيادات، منها ما له أيديولوجية تحركه في إتجاه ما، ومنها من كانت له أيويوجية ثم **انحرف** عنها إلى العبيثة، ومنها ما يتحرك عفو الساعة، دون هدف أو استراتيجية لهدف، إلى غير ذلك من نماذج سنعرض بعضها في هذا المقال.

وحين نتحدث عن «القيادات في الواقع الإسلاميّ» لا نعني»القيادات الإسلامية، بل نقصد من يعمل في الساحة، التي عمرها الإسلام وسيطر عليها قرونا، قبل انهيار الخلافة واختفاء الإسلام من سدة الحكم، بكافة أنواعها وأطيافها في نصف القرن الماضي. وهم من لا يحمل منصباً رسميا من الحكومات، فيُستثنى أمثال على جمعة والطيب وبقية شلة الكفر المُظَاهر للسيسي. وقد تكون تلك القيادات التي نعني، أفراداً لا ينتمى لهم جمهور من العوام، لعدم **ولوجوهم** السياسة أصلاً، ومن ثم بعدهم عن كاميرا التلفاز التي تصنع الشخصية من عدم.

نرى أن تلك القيادات، حسب اعتقاداتها وتصوراتها، وما دعمته أفعالها وتصرفاتها، يمكن أن يختصر في التالي:

١. قيادات وشخصيات تنتمى لجماعات اعتقدت عقائد الإرجاء، ونفت أنّ الحكم بالشرع ركن من أركان التوحيد، فانتهجت منهج الإصلاح والتقرب من الحكومات والغرب، ورضت بالديموقراطية، وسمتها زورا بالشورى، وحاولت الاندماج في العمليات السياسية، حتى لفظتها ماكينة الظلم العالمي في كلّ بلد تواجدت فيه، كمصر وتونس. وعلى رأس هؤلاء قيادات الإخوان، وحزب النهضة التونسي القريب منهم. وهؤلاء يغلب على أوساطهم الجهل بالشرع، وإن كانوا غالبا من أصحاب الشهادات العلمية والمراكز الإجتماعية، كالمحاماة والطب والهندسة، غير ذلك. ومن تلك الأسماء عصام العريان، الكتاتني وسائر «قيادات الإخوان» التي غيبت بعضهم سجون الظلم، وهرب بعضهم إلى قطر فتركيا.

٢. قيادات وشخصيات في جماعات كان لها تاريخ مشرّف في العمل الإسلاميّ، مع قصور في بعض جوانب التصرف، انحرفت بعد أن واجهت السجن طويلاً، فخرجت وقد تبنت الديموقراطية العلمانية صراحة، ونفت عن نفسها الصفة الإسلامية أساساً، وارتضت اسم «المعارضة السياسية»، مثل قيادات الجماعة الإسلامية المنتكسة كطارق وعبود الزمر و**عاصم** عبد الماجد، ومن قبلهم ناجح **إبراهيم** الذي أصبح عيناً للنظام. وهؤلاء انقلب علمهم الشرعيّ نحساً إذ توجه لتعضيد وإباحة المحرم والكفر الحاكم.

٣. قيادات وشخصيات تنتمى لجماعات نطقت بالتوحيد قولا، وخالفته في كل فعل من أفعالها بعد ذلك، مثل المداخلة والسلفية البرهامية، التي، على عكس المداخلة، حاولت ولوج العملية السياسية، موالاة للحاكم المشرك ومظاهرة له، فكان أن لفظتها السياسة الكافرة، إما بالإبعاد أو بشراء الذمة. وهؤلاء منهم من تعلم قشورا في الحديث، وتصدر الناس بهذا القدر.

٤. قيادات وشخصيات آمنت بالاسلام إسما، دون معرفة تفاصيله، ولا الرغبة في معرفته، فتمسكت باسمه، ثم عملت ضده في كل تصرفاتها السياسية والاجتماعية، وهؤلاء جهلة بالشرع جهلا تاماً، وإن حازوا بعض مراكز اجتماعية في المحاماة والطب وغير ذلك. وأمثال أولئك المنتمون للأحزاب الرسمية المسجلة، كأيمن نور وعبد المنعم أبوالفتوح (رغم خلفيته الإخوانية التي لفظها!) وطبقتهما.

٥. قيادات وشخصيات لم تؤمن بالإسلام أساساً، وإن حملت أسماء مسلمة، بل كفرت به، واستبدلت به العلمانية والليبرالية والحرية المزعومة. وهؤلاء لا معرفة لهم بشرع على الإطلاق. وهؤلاء هم كل من نراه في استضافة البرامج الخبيثة ضيفاً على قنوات الحكومة المصرية الرسمية

٦. قيادات وشخصيات فرعية مساعدة، عملت في الظل السياسي، قبل وبعد حكم د مرسي، ثم تجنبت الاعتقال بالخروج من مصر، ومنها من هم خارجها من قبل الانقلاب، ثم انضموا إلى «المعارضة» فدخلوا تحت ظل العمل السياسي. وهؤلاء يحملون **مراكز** اجتماعية وفَرَّها لهم العمل السياسي، وأصحاب شهادات علمية في مجالات مختلفة، وإن كان علمهم بالشرع منعدماً، إلا مما صار اليوم من لقطات في التاريخ ورواية لبضع الأحاديث واستشهاداً ببضع آيات، مما أوهم العامة، وأنفسهم قبل العامة، بأنهم من أصحاب العلم الشرعي. وهؤلاء غالب نشاطهم اليوم على النت، سواء انتموا إلى جماعات مثل الإخوان أو كانوا من المستقلين من براعم قيادية.

٧. شخصيات علمية لم تشارك في عمل سياسيّ، لسبب أو لآخر، ولم **تنتم** لحزب أو جماعة، ولم تحرز منصباً في حكومة أو غيرها، وإن كانت تحمل شهادات علمية. وهؤلاء المستقلون، مثل الشيخ المهندس عبد المجيد الشاذلي رحمه الله وإخوانه كافة، والشيخ رفاعي سرور رحمه الله، والشيخ **المحامي د** هاني السباعي حامل دكتوراه الشريعة، وغيرهم، على ندرة أفراد هذا الجيل، ثم من الجيل الحالي، أمثال أبو البخاري وعمر رفاعي وسرور، وهم من طلبة العلم الجادين.

ويجب الإشارة هنا، مرة أخرى، إلى إننا نرى هذه القيادات والشخصيات من المنظار العملي، لا من حيث تصنيفها قيادياً، من أعلى إلى أسفل أو العكس. بل نظرنا إلى نوعية القيادة من منظار محدد، هو علمها بالشرع والوضع، ومن ثم سوف نتخذه مقياساً للكفاءة والصلاحية للمرحلة المقبلة. ومعلوم أنّ هناك نظريات عديدة في تصنيف القادة[١]، لا يحتمل المقام التعرض لها، لكن هذا التصنيف خارج الدائرة الأكاديمية كما ذكرنا.

دور القيادة في الواقع الإسلاميّ

ولا شك، كما هو العرف السائد في كافة الأوساط السياسية، تاريخياً وحالياً، أن من فشل في إدارة ما، يجب أن يُنحّى إن لم يُحاكم، ومن ثم، فإننا نرى تنحية أية قيادة إخوانية، على المستويين الأول والثاني، وأن ينزع منها حق الاشتراك في أيّ حلّ قادم، أو حتى المشاركة في أيّ حديث حوله، من حيث أن ذلك إعانة على تكرار الأخطاء، وكما جاء في السنة الشريفة «لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين».

وحتى نحدّد من الصالح ومن الأصلح، يجب أولا أن نحدد الهدف الذي نسعي للوصول اليه. فهو الطريق لاختيار الأنسب [٢]«**horses for courses**».

والهدف هو أن ننشأ دولة «مسلمة» تقوم على مبدأ الشورى واختيار أهل الحلّ والعقد. وهذه الدولة لا تعتمد مرجعا إلا الكتاب والسنة ومصادر التشريع الإسلامي المعتمدة في شرعنا. ومن ثم، فإن أية قيادة صالحة لتحقيق هذا الغرض، يجب أن يكون ممن يؤمن بهذا الهدف إيماناً قوياً خالصاً لا يتزعزع. وهذا لا يتحقق إلا بمن له علمٌ بالتشريع بعمق كاف أن يُكسبه التحقيق والتدقيق.

---

[١] كاتب هذه السطور حاصل على الماجستير والدكتوراة في موضوع «القيادة» Leadership من جامعة برمنجهام، وله أوراق بحث أكاديمية منشورة بالعربية والانجليزية.

[٢] وهو عنوان أحد الأبحاث المنشورة للكاتب.

ومن هنا نبدأ ..

أمّا عن النوعية الأولى من القيادات، وهم جماعة الإخوان بمستوياتها، فلا شك في عدم إمكانية أن يكون لهم دور في أي حلٍّ من حيث هم جزء من المشكلة لا الحلّ، كما وصفنا. كما أنّ المرجعية العقدية لدي تلك القيادات لا تفهم الإسلام على مذهب أهل السنة والجماعة، بل على فهم الإرجاء الحديث[١].

أمّا عن النوعية الثانية، فهم أسوأ من قيادات الإخوان، إذ لم يعد لهم توجه إسلاميّ أصلاً بعد أن تولوا الاتجاه الديموقراطي الغربي، قلبا وقالباً، وزَرع الله في قلوبهم الرعب من كلمة «إسلام».

وأمّا النوعية الثالثة، والتي جلّها من السلفية البرهامية وحزب الزور، فهؤلاء قد والوا الطاغوت، ودخلوا تحت شرعه راضين مهللين ومزمرين له، فكيف يعقل عاقل أن يكون لهم دور في أيّ تغيير قادم. بل إن من أول أعمال الحكومة القاجمة هي محاكمة هؤلاء وإقامة الحدود عليهم بما يستحقون.

كذلك النوعية الرابعة والخامسة، فإنهما يعملان على التوغل الغربيّ في الشؤون الإسلامية، ويعتمدون مناهج الغرب دون تحشٍ منها ولا خجل.

والنوعية السادسة، وهي التي قد يبدو أنّ فيها رجاء ما **للانضمام** إلى ركب الحركة السياسية القيادية، في مستواها الثاني أو الثالث، أي على المستوى التنفيذي البحت، بعد دورات شرعية تتيح، لمن أراد منهم ذلك ولمن عرف موضعه في العلم الشرعيّ حقا، بدلا من تزكية النفس المريضة على غير أساس.

لكننا نرى أنّ النوعية السابعة، خاصة الشباب منها، هي التي يجب أن تأخذ دور الريادة، **بشرط** أن يكون من ورائها في كل خطوة من الطريق شيوخ تلك النوعية ذاتها. فإن الخبرة في التعامل مع الأحداث لا يجزئ عنها علم نظريّ بحال من الأحوال، ومن ثم فإن شباب

---

[١] وقد بينت هذا في كتابي «حقيقة الإيمان» وبحث «الإخوان المسلمون في نصف قرن» وغير ذلك..

هذه الطبقة يجب أن يتخذوا من مشايخها مناراً حتى يكتسبوا مهارات تنطلق بهم دون تعثر. كما أنّ هذه الطبقة، يجب ألا تكون من مكونات أهل الحلّ والعقد، حتى يبلغ أحدهم سن الأربعين، وأن يزكيه من مشايخ الطبقة من العلماء ليجلس في كرسي أهل الحلّ والعقد.

والحق أن موضوع القيادة لا ينحصر في إلعمل السياسي بالمعنى المتداول فقط، بل إنه على من هم في تلك المناصب، الاستشارية أو التشريعية أو التنفيدية، أن يكونوا معلمين وتربويين قبل أن يكونوا سياسيين. **إذ توجيه** الجماهير للحق، والاتقاءبحسهم الشرعي والأخلاقي، وتقوية التزامهم بدستورهم الإلهي وجنسيتهم الإسلامية، هو من أهم واجبات القيادة المسلمة في تلك الدولة التي نسعى لقيامها.

ومن أمثلة ذلك، على سبيل المثال، أن لا يكون من هؤلاء الموقرين من يرى أنّ «الفنّ» صناعة **إسلامية**، وكيف يؤتمن من يكرّم فناني مصر وفناناتها على الدعارة التي يبثونها ليل نهار، كما فعل إخوان مصر، برضا وتأييد «علمائهم». ثم إذا ضممت لها إباحة المغاني والمعازف، التي يقول بها كبيرهم، خرج لك جيل لا يبعد كثيراً عن تصرفات العلمانية وأخلاقياتهم! ثم ماذا يكون حال جندٍ أو جيش لم يتربى على عقيدة الجهاد والمغالبة، بل على سماع الموسيقى والأغاني الساقطة، مثلهم مثل النصارى! من هنا تأتي أهمية عقيدة القيادة، فهم مثلٌ للأمة ورواد تربية أجيالها، قبل أن يكونوا ساستها وحكامها.

د طارق عبد الحليم

١٩ ذو الحجة ١٤٣٨ - ٢٠ أكتوبر ٢٠١٦







القسم الثاني

في التاريخ



الدولة الأمـــوية

معاوية رضى الله عنه (٤١-٦٠):

١. استشهاد علي رضي الله عنه عام ٤٠

٢. بكاء معاوية على عليّ وقوله: إنما أبكي لما فقد الناس من حلمه وعلمه وفضله وسوابقه وخيره.

٣. مبايعة اهل العراق للحسن، وخروجه في جيش كثيف رغما عنه لقتال معاوية.

٤. شك الحسن في إخلاص أهل العراق. إشاعة مقتل قيس بن سعد بن عبادة القائد، وشيوع الفوضى وطعن الحسن.

٥. إلحاح أهل الكوفة عليه في الخروج.

٦. رؤية معاوية للجيش واشفاقه على المسلمين

٧. أرسل معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة إلى الحسن

٨. موافقة الحسن على الصلح

٩. حديث البخاري والترمذي الصحيح في قول رسول الله ﷺ :«إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين».

١٠. تسليم الأمر لمعاوية ودخوله الكوفة في عام ٤١ «عام الجماعة»

١١. تولية المغيرة بن شعبة الكوفة وعمرو بن العاص مصر (حتى وفاته رضى الله عنه عام ٤٣ على الأغلب).

١٢. فضائل عمرو ص ٢٦ ج٨ بن كثير

١٣. الحركات التي واجهها معاوية:

a. **الخوارج**: الذين رفضوا مبدأ الصلح بين الحسن ومعاوية:

i. حركة فروة بن نوفل في الكوفة

ii. حركة المستورد بن علقمة في الكوفة

iii. قضاء المغيرة بن شعبة عليهما

iv. حركة حيّان بن ظبيان عام ٥٨ ثم قتلهم جميعا في ولاية عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان للكوفة، وهو بن أم الحكم أخت معاوية.

b. **الروافض**: شدّ عليهم معاوية لعلمه بنواياهم، وذهابهم للحسن لحثه على الخروج، ورفض الحسن لذلك.

i. **المغيرة بن شعبة** كان حليما سموحا لا يلجأ للعنف إلا على قدر الحاجة فلما مات رحمه الله، عيّن معاوية زياد بن أبيه عام ٥٠.

ii. هو **زياد بن أبيه**: وسمي ابن أبيه لاختلافهم في اسم أبيه؛ فقيل هو عبيد الثقفي؛ وقيل هو أبو سفيان. أمه سمية؛ كانت جارية للحارث ابن كلدة الثقفي في الطائف وتبناه عبيد الثقفي مولى الحارث بن كلدة أبو المغيرة. يقال إن أبا سفيان اعترف قبيل موته؛ بحضرة بعض الشهود؛ بأنه اجتمع بأمه فحملت منه؛ وقد وهب الله زياد براعة فائقة وبطولة نادرة مما حدا بأبي سفيان أن يعترف بأنه أبوه؛ لكن نسب زياد لم يثبت إلا في عهد معاوية سنة ٤٤هـ حيث اعترف معاوية بأنه أخوه لينتفع بمواهبه؛ ومنذ ذلك الحين أصبح يطلق عليه زياد بن أبي سفيان؛ ولكن اسم (زياد بن أبيه) كان هو الغالب. وقد أنكر الحسن البصري وغيره من الفقهاء هذا الاستلحاق لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الولد للفراش وللعاهر الحجر) ولقوله صلى الله عليه وسلم: من ادعى أبا في الإسلام غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام. أدرك زياد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره وأسلم في عهد أبي بكر. كان كاتبا بليغا؛ كتب للمغيرة بن شعبة ثم لأبي موسى الأشعري أيام ولايته على البصرة كتب لعبد الله بن عباس وناب عنه بالبصرة أيام

كان واليا عليها في خلافة علي بن أبي طالب كان زياد من مشاهير الخطباء، وكان داهية وقد حاول معاوية أن يستميله إليه في حياة علي بن أبي طالب فلم يستطع، فلما قتل علي خشي زياد على نفسه فاعتصم بفارس ولم يبايع، ورأى معاوية أن يتغلب عليه بالحكمة فأرسل إليه المغيرة بن شعبة وما زال به حتى بايع بعد أن أرسل إليه معاوية كتاب أمان، فقدم إليه واستلحقه. ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان، فجمع له بذلك العراقين، أي عراق العرب وعراق العجم، وكان أول من جمع له العراقان، فأرسخ حكم بني أمية في البلاد التي وليها وألزم الناس طاعتهم، وكان أفتك من الحجاج. هو أول من اتخذ العسس والحرس في الإسلام وأول من سارت الرجال بين يديه تحمل الحراب كما كانت تفعل الأعاجم. طلب إلى معاوية أن يضم إليه الحجاز فضج أهل الحجاز وفزعوا، وأسرع إليه الموت فمات من ورم أصاب يده. ردّ الخليفة المهدي نسبه فيما بعد.

iii. **مقتل حجر بن عديّ الكندي**، عام ٥١، وكان من رؤساء الكوفة، وهو ليس بصحابي ولكنه من التابعين وأصحاب عليّ. وكان يقوم للمغيرة فيشوّش عليه ويطلب منه تأدية الحقوق وكان المغيرة يحلُم به. ثم جاء زياد ففعل معه حجر مثلما فعل مع المغيرة فتعاون عليه زياد حتى جاء به في القيود وأرسله إلى معاوية. فأمر معاوية باستشهاد الشهود أنه يغري بالثورة على الأمير وأنه صاحب شغب فشهد عدد من فضلاء أبناء الصحابة عليه فأمر بقتله، وقيل أنه طلب الوضوء والصلاة فتوضأ وصلى خفيفا فقيل له في ذلك فقال: خفت أن يقال أنني أجزع من الموت. وقد عاتبت أم المؤمنين عائشة معاوية في حجر فقالت له: أين ذهب حلمك يا معاوية مع حجر! قال: ذهب عني حين غاب عني من قومي أمثالك يا أمّاه. وقال: إن لي يوما طويلا مع حجر أمام رب العالمين. وقد غسّلوه ودفنوه في قيوده كما طلب. فقال الحسين: والله لقد حجّهم.

١٤. عمال معاوية

a. في مصر: عمرو بن العاص ثم عبد الله بن عمرو ثم عتبة بن أبي سفيان

b. في المدينة: مروان بن الحكم وسعيد بن العاص

c. في العراق: المغيرة بن شعبة في الكوفة وزياد بن أبيه في البصرة ثم زياد على الكوفة والبصرة معا.

١٥. بيعة يزيد:

a. نهاية الخلافة الراشدة وبداية الملك

b. خشية الصراع مرة أخرى بين بني هاشم وبني أمية جعله يفكر في إبقاء الخلافة في بني أمية. ثم أراد أن يوليّ من يمكّن للشام وهم أهل العصبية للخليفة أن يوالوه، وهو لم يفعل ما أجمع المسلمون على خلافه بل ما لم يفعله الراشدون.

c. إيعاز المغيرة بن شعبة له بتولية يزيد (المغيرة أشار على عمر من قبل بتعيين عبد الله بن عمر)

d. عدم رغبة معاوية لفعل ذلك في حياة الحسن. وفاة الحسن رضي الله عنه عام ٤٩

e. اعتماد معاوية على القبائل اليمنية (كلاب ومنها أم يزيد و الأذد)

f. طلب معاوية استشارة الناس في أن يولّي خلفا له، فرضوا بذلك كما فعل أبي بكر

g. عندما سمّى يزيد رضخت الشام والعراق، ولكن المدينة لم تقبل بذلك إذ هي أرض الصحابة، فقام ضده عبد الرحمن بن أبي بكر، عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، عبد الله بن الزبير، عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس والحسين بن عليّ رضي الله عنهم أجمعين.

h. قالوا إن كان الحكم وراثيا فإن أيهم أحق بها من يزيد وإن كان للأفضل فيزيد آخر من يستحقها.

i. قدوم معاوية للمدينة بنفسه للحديث مع المعارضة القوية وفشله في اقناعهم (ذكروا قصة أن معاوية قدم للمدينة في ألف فارس ليرعب الصحابة ويأخذ البيعة بالقوة وهو خلاف طبع معاوية، وأنه أخذ البيعة له وهؤلاء تحت السيف في المسجد، وهذا مخالف لما في وصيته من أنهم لم يبايعوا).

j. تحضيره لإعلان البيعة ثم إعلانها عام ٥٦ وتخلف أهل المدينة عنها.

k. ذهاب معاوية مرة أخرى للمدينة وكسبه البيعة ليزيد ولكن أبناء الصحابة تركوا المدينة إلى مكة.

l. توجهه إلى مكة وكسبه للمعارضة إلا عبد الله بن الزبير والحسين بن عليّ.

m. توجيهه ليزيد لقتال البيزنطيين حتى يعده للمسؤولية.

١٦. الفتوحات الخارجية:

a. كانت سياسة معاوية تثبيت الفتوحات أكثر من توسيعها

b. الجبهة الشرقية:

i. المهلب بن أبي صفرة: واصل الفتوح إلى لاهور

ii. زياد وابنه عبيد الله: وصلوا إلى كابل وبعدها

iii. سعيد بن عثمان بن عفان: تولى خراسان، وحارب أهل السند والترك وكش وانتصر عليهم وفتح بخارى وسمرقند وترمذ.

c. الجبهة الغربية:

i. بعد معركة ذات الصوارى أيام عثمان خسرت الدولة البيزنطية مواقعها في

مصر والشام وفي مياه البحر الأبيض

ii. سياسة معاوية:

١- حماية الحدود والإستيلاء على القسطنطينية.

٢- الصوائف والشواتي (دوريات منتظمة للهجوم على العدو)

٣- أنشأ أول أسطول بحري إسلامي قوي لحماية الشواطئ العربية ومهاجمة العدو في البحر وحماية التجارة.

٤- حاصر القسطنطينية بقيادة فضالة بن عبيد الله الأنصاري عام ٤٩. وعزز الحصار بإرسال جيش بقيادة يزيد.

٥- حاصر المسلمون القسطنطينية لعدة شهور ثم رجعوا ولكن كانت رسالة قوية إلى البيزنطيين لصدهم عن محاولة الهجوم على المسلمين.

٦- فتح رودس عام ٥٢ بعد صقلية وقبرص فأحكم الحصار البحري حول البيزنطيين.

٧- الحصار الثاني للقسطنطينية: دام سبع سنات ولم يحقق نتائج حاسمة.

d. جبهة شمال أفريقيا: مرت بعدة مراحل:

i. الأولى

١- عمرو بن العاص بعد فتح مصر في عهد عمر

٢- سعد بن عبد الله بن أبي السرح في عهد عثمان

٣- معاوية بن خديج في عهد معاوية ووصوله إلى قرطاجنة

ii. الثانية:

١- تعيين عقبة بن نافع الفاتح العظيم للغرب الأفريقي.

٢- أنشأ القيروان في عام ٥٠ في تونس لتكون قاعدة للفتوحات ومنعا لأهل المغرب من الإرتداد.

٣- كان شديدا على البربر مما جعل مهمة الفتوح أصعب والتوتر أشدّ.

٤- عزل معاوية عقبة

iii. الثالثة:

١- تعيين أبو المهاجر دينار الأنصاري بدلا من عقبة

٢- هجومه على البيزنطيين ومنعه تأليبهم للبربر على المسلمين

٣- فتحه للمغرب واستقرار الإسلام بها

٤- دارت الحرب بين قائد البربر وبين أبو المهاجر وانتصر المسلمون وأسلم كسيلة قائد البربر وقومه.

iv. الرابعة:

١- أعاد يزيد بن معاوية عقبة بن نافع لحكم أفريقيا وعزل أبو المهاجر.

١٧. **السياسة الإدارية:**

a. أنشأ ديوان الخاتم لحفظ أسرار الخليفة وتقارير الولاة.

b. أنشأ ديوان البريد لتسهيل نقل الرسائل الحكومية.

١٨. **وفاة معاوية** رضي الله عنه: عام ٦٠ هـ

يـزيـد بن معاوية بن أبي سفيان (٦٠-٦٤):

١. تربية معاوية له، وإرساله في الغزو، ووصيته له بالحرص من الحسين ومن بن الزبير

خاصة والرأفة بالحسين إن قدر عليه والشدة على بن الزبير.

٢. رؤية معاوية لإبنه شاعرا ذكيا مجاهدا، وقد ولد بالشام وتمرّس يأهلها فهو لائق بحفظ عصبيتها، ولكنه عرف عنه الإستهتار والكسل، وكأي أبٍّ، فقد اعتقد أنه سيترك ذلك حين يجد الجدّ وهي خدعة تنطلي على أي ابٍ محب لإبنه يرى أنه أعده لمهمته.

وعين الرضى عن كل عيب كليلةُ

ولكن عين السخط تبدي المساوءا

٣. مواجهة يزيد لثلاث كوارث في عصره:

a. خروج الحسين وكربلاء

b. خروج أهل المدينة ووقعة الحرّة

c. خروج عبد الله بن الزبير في مكة

٤. خروج الحسين وبن الزبير إلى مكة عند وفاة معاوية.

كارثة كربلاء

٥. ورود رسائل عديدة من الكوفة للحسين أنهم يريدون أن يبايعوه ويقاتلوا معهم

٦. إرساله مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى الكوفة للتحقق من الأمر. دخول مسلم على سليمان بن الصرد الخزاعيّ.

٧. نصح كافة الصحابة له بعدم الخروج على يزيد إما لأنه لن يصل إلى نتيجة لعدم الثقة بأهل العراق كابن عباس أو لأن الخروج على طاعة الإمام غير شرعية كأبي سعيد الخدري وعمرة بنت عبد الرحمن فإنهما قد رويا له أحاديث الخروج على الإمام المبايع وأنه لا حجة له في الخروج ولكن الحسين كان يرى أن هؤلاء القوم من بني أمية لم يأخذوا بيعة شرعية وأنهم من الفاسدين وأنهم «تركوا طاعة الرحمن

وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله وأنا أحق من خرج» الطبري.

٨. توجه مسلم بن عقيل للكوفة وبايعه ١٢٠٠٠ مقاتل فظن أن الأمر مستتب للحسين فأرسل له رسالة يحثه على الخروج.

٩. تغاضى النعمان بن بشير والى يزيد على الكوفة عن هذه الحركة ولم يستمع لأمر يزيد بتشتيت أمرهم فعزله يزيد وولى عبيد الله بن زياد وهو من هو في القسوة والشدة. وهو بن جارية من المجوس وضيع النسب.

١٠. اختباء مسلم في منزل هانئ بن عروة من أشراف الكوفة. هانئ يتأخر عن تهنئة عبيد الله على الإمارة.

١١. إرسال عبيد الله لهانئ للحضور اليه ورفض هانئ تسليم مسلم بن عقيل.

١٢. خروج مسلم وجمعه لأربعة آلاف مقاتل وتوجه إلى دار الولاية يحذر عبيد الله من قتل هانئ، ولكن رجال القبائل الذين كانوا مع عبيد الله في بيته، خذّلوا الرجال فانفضوا من حول مسلم فلم يأت الليل إلا وهو وحيد شريد فذهب إلى منزل لتأويه صاحبته، ولكن ابنها وشى بها فأرسل عبيد الله من يأتي به فحاربهم حربا شديدة ثم أعطوه الأمان فحملوه إلى عبيد الله، ثم دارت بينهما محادثة محزنة تدل على خساسة بن زياد وخبثه ونبل مسلم وإيمانه ثم طلب مسلم أن يوصي قبل قتله فأوصى بسداد دين عليه في مكة وأن يرسلوا للحسين أن لا يخرج. ثم أمر به فقطع رأسه رضى الله عنه وقتل هانئ بن عروة.

١٣. قتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وموافقة يزيد على ذلك، وتعليماته لعبيد الله بعدم قتال الحسين إلا إن بدأه بالقتال.

١٤. خروج الحسين عام ٦٠ قبل مقتل مسلم (يوم عرفة) بيوم واحد متوجها للكوفة رغم نصح بن عباس له بعدم الخروج وعدم تصديقه لرسول مسلم بن عقيل. أما

بن الزبير فقد استحسن فكرة الخروج ربما لأنه كان يتشوق للقضاء على يزيد وإعادة الخلافة راشدة.

١٥. تلقى الحسين رسالة أخرى من أحد قادة عبيد الله إلا أنه لم يستمع لها كذلك.

١٦. بعد فترة اقتنع الحسين بعدم جدوى الخروج فأراد العودة إلا أن إخوة مسلم أرادوا أخذ ثأره فطاوعهم.

١٧. لقي الحسين الفرزدق فسلم عليه وقال: على ما تركت الناس؟ قال: قلوبهم معك وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء. وكان الفرزدق محبا لآل البيت وله قصيدة مشهورة في مده أهل البيت قالها ردّا على بن عبد الملك.

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحلّ والحرمُ

هذا بن خيـر النـاس كلهـم
هذا التقيّ النقيّ الطاهر العلمُ

هذا بن فاطمة إن كنت جاهلـه
بجَـدّه أنبياءُ الله قد ختمـوا

وليس قـولك من هذا بضائـره
العرب تعرف من أنكرت والعجمُ

١٨. قال الحسين: لإن قتلني أهل الكوفة ليسلطن الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قرم الأمة.

١٩. لقي الحسين مقدمة جيش عبيد الله وعلى رأسها الحرّ بن يزيد التميمي. وقد نصح له الحرّ أن يعود وكان يصلى وراءه الفرائض، وقال له أن الأوامر أن ألزمك حتى

تدخل على عبيد الله. قال الحسين: دزن ذلك الموت، قال الحر: اتق الله في نفسك فإنك إن قاتلت قتلت، قال الحسين، أفبالموت تخوفني ثم أنشد:

سأمضى وما بالموت عار على إمرئ

إذا ما نوى حقا وجاهد مسلمـــا

وآســـى الرجال الصالحين بنفســه

وفارق خوفا أن يعيش ويرغما

٢٠. ارسال عبيد الله بن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص إلى لقاء الحسين، ومنع جنودهم الماء عن جيش الحسين.

٢١. عرض الحسين على عمر ثلاث خلال:

a. أن يتركه ليعود إلى مكة

b. أن يأخذه إلى يذيد يكلمه

c. أن يبعثه إلى ثغر يقاتل الكفار

٢٢. موافقة عمر على ذلك ولكن شمر ذي الجوشن أبى إلا أن يطيعوا ويعطوا البيعة ليزيد وأرسل إلى عبيد الله أن عمر والحسين يلتقيان فيتحدثا طوال الليل.

٢٣. بدأ البغاة بالقتال وكانت أحداث دامية لا محل لها انتهت بقتل الحسين وجميع من معه إلا ولده الأصغرعلى زين العابدين وفاطمة بنت الحسين.وزينب أخت الحسين وبعض نساء القتلى.

٢٤. قتل رضى الله عنه يوم الجمعة يوم عاشوراء عام ٦١. وماتت في هذه السنة أم المؤمنين أم سلمة.

كارثة الحـرّة

٢٥. معاملة يزيد الحسنة لأهل المدينة وتعيينه عثمان بن محمد بن أبي سفيان واليا عليها

وكان رجلا لينا.

٢٦.استقبال يزيد وفدا من أهل المدينة وإحسانه اليهم منهم عبد الله بن حنظلة الغسيل

٢٧.خلع أهل المدينة ليزيد وتولية عمالهم على المدينة ومكة وامتناع عبد الله بن عمر وعلى بن الحسين عن ذلك ونصحهم الناس بعدم الخروج. ولجوء بن الزبير إلى مكة.

٢٨.حصر بني أمية في بيت مروان بن الحكم.

٢٩.ارسال يزيد مسلم بن عقبة على رأس الجيش ليدعوا الناس إلى العودة للبيعة ويمهلهم ٣ أيام وإلا قاتلهم واستباح المدينة ٣ أيام. ثم أن يتوجه إلى مكة للقاء بن الزبير.

٣٠.استباحة المدينة ٣ ايام وجرى فيها من الشرور ما جرى فلا حول ولا قوة إلا بالله. وقتل في المدينة عدد من الصحابة منهم عبد الله بن حنظلة وعمرو بن سنان.

٣١.توجه مسلم بن عقبة لمكة لقتال بن الزبير.عام ٦٤. وهلم مسلم بن عقبة ثم تولى الحصين بن نمير مكانه

٣٢.اشتعال النار في أستار الكعبة قيل لضربها بالمنجنيق وقيل لأن الناس كانوا يوقدون النار في الحرم للتدفئة.

٣٣.استمر القتال شهرين إلى أن جاءت الأنباء بموت يزيد.

٣٤.عرض الحثين على بن الزبير أن يبايعه على أن يأتي معه إلى الشام حيث أن الأمويين مشتتون ولكن بن الزبير رفض ترك مكة، وهو رأئ ليس بسديد.

٣٥.يزيد: بن معاوية وأمه ميسون من بني كلب. عاش حوالي ٣٨ عاما. روى عنه حديث من يرد الله به خيرا..وقد كان فيه علم وحلم وصاحب شعر إلا أنه كان يترك الصلوات بعض الأوقات ويرتكب بعض المحرمات فكان فاسقا ولكن لم تصح الأحاديث التي رويت في لعنه وأمره إلى الله.

٣٦. يجب أن يفرّق بين حكم يزيد وحكم الحكومات العلمانية إذ أن حكم يزيد وبني أمية والعباسيون عامة كان الشرع المحكم فيه هو الإسلام وإن ظلموا وجاروا وحكّموا الهوى في عدد من القضايا ولكن الحكومات العلمانية اليوم تتخذ الأحكام الوضعية دستورها الحاكم لا الشريعة وهو الفارق بين الإسلام والكفر.

معاوية بن يـزيـد بن معاوية (٦٤):

١. كان عمره ١٨ عاما في غالب الروايات وكان مريضا وضعيفا صحيا، وكان يكنى بأبي ليلى.

٢. لم يكن له شأن يلحظ في ولايته القصيرة (حوالي ٣ أشهر)، وكان جميل الصورة ديّناً. وقد قال للناس: أنه يمكن أن يوليّ عليهم من بعده، أو أن يترك لجنة من ستة أشخاص كما فعل عمر ولكنه لا يرى من يستحق الأمر فتركه مفتوحا للناس، ثم مات، رحمة الله عليه.

٣. حين وصل الأمر لمروان قال:

إني أرى فتنة تغلو مراجلها
والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

٤. كان أخواه عبد الرحمن وخالد بن يزيد بن معاوية ممن تنافسا على الولاية من بعده.

حالة الحكم بعد معاوية الثاني

١. ترك معاوية الثاني الحكم في حالة يرثى لها، إذ ليس هناك مرشح واضح للولاية، وبني أمية ليس بينهم من يجمع عليه الناس خاصة وبن الزبير قد أخذ البيعة لنفسه في الحجاز بعد رفضه عرض الحرّ بالذهاب إلى دمشق.

٢. إختلاط ولاية عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم.

عبد الله بن الزبير بن العوام

٣. طرد بن الزبير بني أمية من المدينة فتوجهوا إلى الشام وفيهم مروان بن الحكم.

٤. أرسل أهل البصرة اليه ليبايعوه بعد حروب بينهم مدة ستة أشهر.

٥. بايعه عبد الله بن جعفر وعبد الله بن علي بن أبي طالب.

٦. لم يبايعه بن عباس ولا بن عمر ولا محمد بن الحنفية.

٧. بايعه أهل الكوفة وولى عليهم عبد الرحمن بن يزيد الأنصارى

٨. بايعه أهل مصر وعيّن عليهم عبد الرحمن بن جحدر

٩. بايعه أهل اليمن وخراسان.

١٠. كان في جيشه من الخوارج نافع بن الأزرق وعبد الله بن إباض ثم تركوه لّما علموا ما يقول في عثمان وحسن سيرته وصلاحه.

١١. كان والي دمشق في هذا الوقت الضحاك بن قيس الفهريّ (من القيسية، وهو بن أخي أبو عبيدة بن الجرّاح) وكان من صغار الصحابة (أخو فاطمة بنت قيس) وقد عزم على بيعة بن الزبير.

١٢. بايع النعمان بن بشير لإبن الزبير في حمص وزفر بن عبد الله في قنسرين ونائل بن قيس في فلسطين وكاد مروان بن الحكم أن يبايع لإبن الزبير إلا أن عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير أثنياه.

١٣. في عام ٦٤ هدم بن الزبير الكعبة وأقامها من جديد على ما أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ما في حديث الصحيحين عن عائشة: لولا أن قومك حديثو عهد بكفر،...»، ثم بناها على هيئتها وأدخل فيها الحجر وجعل لها بابان وكساها.

١٤. كانت حركة الخوارج الأزارقة قد اشتدت مرة أخرى وكادوا أن يستولوا على

البصرة، فأرسل بن الزبير المهلب بن أبي صفرة اليهم فقاتلهم قتالا عنيفا وقتل بن الأزرق وانتصر المهلب بعد أن كاد ينهزم، وولى الخوارج بعدها قطري بن الفجاءة الشهير. وعيّن بن الزبير مصعبا على البصرة، وأرسل المهلب إلى خراسان.

مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية (٦٥)

١٥. بايع حسان بن مالك (من اليمانية) لبني أمية في الأردن في شخص خالد بن يزيد بن معاوية.

١٦. اجتمع بنو أمية وحلفاؤهم في **الجابية** حيث ظهرت الخلافات والولاءات ولكن استطاع مروان بن الحكم أن يكتسب البيعة لكبره وصحبته (ولد بعد عامين من الهجرة ومن المؤرخين من يعده صحابيا) وتعهد مروان أن تكون الخلافة من بعده لعمرو بن سعيد بن العاص.

١٧. كان على مروان بن الحكم أن يحارب القيسية حتى تجتمع له البيعة، وقد تقاتلا في **مرج راهط** حيث قتل الضحاك رضى الله عنه ثم بعدها النعمان بن بشير رضى الله عنه. وقد روى أحمد عن الضحاك حديث: إن بين يدي الساعة فتنا كقطع الليل المظلم...». أما النعمان بن بشير فقد حنّكه رسول الله ﷺ وقال أنه يعيش حميدا ويموت شهيداً، وقد ولي الكوفة لمعاوية ونيابة حمص له، وهو الذي لان لمسلم بن عقيل في الكوفة وأعاد أهل البيت إلى المدينة مكرمّين بأمر يزيد.

١٨. بعد معركة مرج راهط، استتب الأمر لمروان في الشام ثم اتجه إلى مصر فتغلب على عامل بن الزبير هناك حيث أن غالب المصريين كان هواهم أموياً وهم عثمانية.

١٩. أعد مروان جيشين: جيش بقيادة عبيد الله لمقاتلة زفر بن الحارث الزبيري ، وآخر بقيادة حبيش بن دلجة لقتال بن الزبير إلا أن جيش الزبير بالمدينة تغلب عليه. وتوجه جيش عبيد الله للموصل في العراق لمقاتلة الزبيرين، فقاتل عبيد الله في عين الوردة التوابين أولا ثم أنه انتهى لقتال المختار بعد تغير الخريطة السياسية

للمنطقة كما سنرى.

٢٠. مات مروان بن الحكم في هذا الوقت بعد حكم دام حوالي ٩ أشهر. وقبل موته أخذ البيعة من القبائل اليمنية من الكلبيين أن يبايعوا ابنه عبد الملك من بعده بدلا من خالد بن يزيد لعدم مقدرته على مواجهة بن الزبير.

٢١. ومروان ولد في عهد النبي ﷺ وله حديث في بيعة العقبة وروى لعمر وعثمان وكتب لهما، وروى عنه أكابر ابناء الصحابة كعبد الله بن الزبير والحسين بن علي وكان من مشايخ قريش وفضلائها، وقد بكى بعد معركة مرج راهط أن وصل به الحال أن يقاتل في مثل عمره على ولاية. وقد حلف أنه ما كتب خطابا أيام عثمان كما حلف عثمان. وكان علي بن أبي طالب يوم الجمل يسأل عن سلامته دوما فسأل في ذلك فقال: إنه يعطفني له رحم ماسّة، وهو سيد من شباب قريش.

حركة التوّابين: بقيادة سليمان بن الصرد، عام ٦٥ وهم لم يدعو لإمام ولكن للتوبة من خذلان الحسين رضى الله عنه وقد جمعوا الناس في البصرة والكوفة وكاتبوا المدائن فاستجاب لهم واليها سعد بن حذيفة بن اليمان، وأراد والي الكوفة من قبل بن الزبير، عبد الله بن يزيد الأنصاري، أن يساعدهم ولكنهم أبوا ذلك. ثم التقوا في موعد محدد بالنخيلة وكانوا ٤٠٠٠ للخروج إلى ملاقاة جيش الأمويين وقتل عبيد الله لأنهم قالوا أنه هو قاتل الحسين. ومروا في طريقهم بكربلاء وبكوا وقضوا اليوم هناك ثم توجهوا إلى قرقيسياء فأراد زفر بن الحارث والى الزبير أن يمدهم بعون عسكري ولكنهم رفضوا، ثم لاقوا جيش الأمويين في **عين الوردة** فقتلوا جميعا إلا فلول هربت إلى الكوفة.

حركة المختار بن عبيد الله الثقفي الكذاب: وأول ظهوره كان حين استقبل مسلم بن عقيل في منزله. ثم لمّا قتل مسلم، سجنه والي الكوفة حتى مقتل الحسين رضى الله عنه ثم خرج إلى مكة وأظهر الرغبة في التعاون مع ابن الزبير ثم اختلف مع ابن الزبير الذي لم يثق فيه، فخرج إلى الكوفة بعد موت معاوية الثاني بن يزيد وأعلن أنه وليّ محمد بن الحنفية والداعي له، دون إذن محمد له بذلك. وأبتدع القول بالبداء (أي أن الله يغير رأيه حين يشاء!) وذلك

ليتمكن من تبديل أقواله، وهو أول من استعمل كلمة «المهدي» في قاموس التشيع، وأظهر أنه يأتيه وحي من السماء، وأصبح القائد الأول للشيعة في الكوفة.

عبد الملك بن مروان بن الحكم (٦٥-٨٦)

١. تولى عبد الملك بعد وفاة أبيه مروان الخلافة عن بني أمية وواجه المشكلات التي كانت مشتعلة في العالم الإسلامي من خلافة بن الزبير وحركة المختار الكذاب.

٢. كان عبد الملك من الفقهاء العلماء العباد في المدينة وممن عرف بملازمة العلماء دوما.

٣. انقسمت الدولة الإسلامية في هذا العهد إلى ثلاث أقسام: الشام ومصر مع عبد الملك، والكوفة مع المختار والحجاز والبصرة مع بن الزبير.

٤. حاول المختار الإستيلاء على البصرة ففشل أمام صلابة قائدها مصعب بن الزبير.

٥. اقترب جيش الأمويين من الموصل للقاء المختار. خرج ابراهيم بن الأشتر النخعي لملاقاة عبيد الله وانتصر هليه وقتل بن زياد قبحه الله عام ٦٧ وقتل معه الحصين بن نمير وهما اللذان أشارا على مروان بعدم بيعة بن الزبير.

٦. استفحل أمر المختار خاصة بعد أن تكهن بالنصر على الأمويين فصدقه كثير من الناس! وكذبه عامر الشعبيّ.

٧. سار مصعب بن الزبير لملاقاة المختار في الكوفة وقتل المختار لعنة الله عليه.

٨. وخضعت الكوفة والبصرة وما وراء النهرين لابن الزبير. وقدم عليه ابراهيم بن الأشتر وأخذ أمانه ورضى عنه. وصارت المواجهة بينه وبين عبد الملك حتمية وشيكة.

٩. وفاة عبد الله بن عباس رضي الله عنه عام ٦٨ وكان أعلم الناس وأفقههم وذو حلم عظيم وذكاء وثاب لا يختلف عليه اثنان.

١٠. قتل عبد الملك عمرو بن سعيد بن العاص عام ٦٩، وكان صحابياً روى عن عائشة

وبن عباس وعليّ ، أديبا. وفي هذه السنة مات أبو الأسود الدؤلي صاحب عليّ بن أبي طالب رحمة الله عليه.

١١. توجه عبد الملك بنفسه إلى حرب مصعب في الكوفة وانتصاره عليه بعد أن استمال كثير من قواد مصعب إلى صفه، وعدم تحرك مصعب للتعامل مع هذا الوضع. ومقتل مصعب رضى الله عنه عام ٧١. وكان صحابيا روى عن أبيه وأبي سعيد الخدري، وكان جوادا كريما معطاءا، وكانت تحته سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وكانتا من أجمل الناس وأخوه عروة بن الزبير عالم المدينة.

١٢. تسيير عبد الملك جيش يقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي، طاغية آخر على غرار زياد وابنه قبحهم الله حميعاً، إلى مكة لحصار بن الزبير.

١٣. حاصر الحجاج الطاغية مكة أياما وخرج بن عمر مع الحجاج، ثم رمى جيش الحجاج مكة بالمنجنيق وخرج له قوم كثير من أتباع بن الزبير ليؤمنهم ففعل ومنهم ابني عبد الله، حمزة وخبيب. حتى إذا لم يبق معه إلا القليل، ذهب لإمه، أسماء ذات النطاقين أخت عائشة وبنت الصديق، رضى الله عليهم أجمعين، فتكلم معها كلاما يدمى القلب، فشجعته على المثابرة والقتال في خطبة بليغة[١] إذ أنه على الحق وهم على الباطل وأنه إنما طلب بهذا الآخرة لا الدنيا، فخرج أمير المؤمنين رضى الله عنه فقاتل حتى قتل، ومثّل به الحجاج لعنة الله عليه.

١٤. بهذا صفت الخلافة لعبد الملك بن مروان عام ٧٢ بعد حوالي تسع سنوات من خلافة بن الزبير رضي الله عنه.

١٥. من الأمور الهامة أن الدولة الأموية لم تسوى في العطاء بين أهل العراق وبين أهل الشام ولا بين العرب والموالي مما أثار حفيظة الطبقة الدنيا من أهل العراق.

١٦. حركات الخوارج:

---

[١] البداية والنهاية ج٨ ص٠٣٣

a. **الأزارقة**: رأينا كيف حاول نافع بن الأزرق أن يستولي على البصرة ثم فشله وقضاء المهلب بن أبي صفرة عليه.

b. **الصفرية**: كانوا يهددون البصرة بشكل عام، ثم قاتلهم الحجاج عام ٧٧ وقضى على زعيمهم شبيب بن يزيد.

c. **النجدات**: باليمامة: بزعامة نجدة بن عامر النجديّ: وقد قضى عليهم عبد الملك.

١٧. **حركة عبد الرحمن بن الأشعث**: زعيم كندة ومن أشراف الكوفة. وقد ندبه الحجاج عام ٧٩ لمحاربة رتبيل ملك كابل فخرج في جيش كبير لملاقاة رتبيل واستطاع أن يدفعه خارج كابل إلا أنه اضطر لوقف القتال حتى يريح الجنود ويأتيه المدد. ولكن الحجاج لم يقنع بذلك وأرسل اليه ان يلاحق رتبيل، وقد كان بين الحجاج وبينه حزازات، فاعتبرها بن الأشعث اهانة له، واعتبرها جنوده طريقة لإبعادهم عن العراق، فخلعوا الحجاج، وبايعوا بن الأشعث، الذي عقد معاهدة مع رتبيل أن يعفيه من الجزية إن انتصر على الحجاج، وأن يحميه إن انهزم. ثم سار بن الأشعث لملاقاة الحجاج، وهزمه أولا واستولى على البصرة ثم أرجعها الحجاج، ثم استولى على الكوفة ثم تواجها في دير الجماجم حيث وقت حرب ضروس هزم فيها بن الأشعث وفرّ إلى رتبيل الذى سلّمه بعد إلى الحجاج فلما علم بن الأشعث بذلك قتل نفسه! بعد ثورة دامت أربع سنوات (٨١-٨٥).

١٨. **سياسة عبد الملك الخارجية:**

a. **الجبهة الشرقية**: لم يكن هناك جهد حقيقيّ حتى تولى الحجاج وبعث المهلب أولا ثم مسلم بن قتيبة الباهلى عام ٨٦.

b. **الجبهة البيزنطية**: عقد عبد الملك صلحا مع البيزنطيين خلال فترة حروبه الداخلية لتوطين خلافته. ثم نقض جستنيان الثاني العهد فاجتاح بلاد الشام عام ٧٠هـ. ثم ما زالت الهجمات تتبادل بين البيزنطيين وعبد الملك منذ ٧٣

حتى ٨٥ وذلك بعد أن ضرب عبد الملك العملة الإسلامية بدلا من البيزنطية. وأخيرا تفوق المسلمون على البيزنطيين بقيادة عبد الملك شخصيا، وعادوا للإستيلاء على أرمينية وآسيا الصغرى.

c. **شمال أفريقيا**: مرت فتوحات هذه المنطقة بمرحلتيها الخامسة والسادسة. ففي المرحلة الخامسة، قادها زهير بن قيس الذي انتصر على كسيلة الذي ارتد بعد دخوله في عهد المسلمين في عهد معاوية. وقد قتل كسيلة ولكن زهير بن قيس قتل كذلك. ثم في المرحلة السادسة، تقلى حسان بن النعمان القيادة فحقق انتصارات كثيرة. إلا أنّ أمرأة يهودية تدعى الكاهنة وحدت البربر والبيزنطيين تحت ولايتها وهزمت المسلمين عدة مرات فقبع حسّان ينتظر المدد من عبد الملك. وأخيراً جاءه المدد وكان البربر والبيزنطيين أرهقوا من حكم الكاهنة ففارقوها والتحقوا بالمسلمين، حتى هزمها حسّان وقتلها لعنة الله عليها. وقد حاول البيزنطيون أن يستعيدوا قرطاجنة من أيدي حسان إلا أنهم فشلوا في ذلك وهدمها حسان وبنى قريبا منها «تونس».

١٩. **سياسة عبد الملك الإدارية**: اشتملت إدارته على خمسة دواوين: البريد، الخاتم، الجند، الخراج والرسائل.

a. **تعريب الإدارة**: عرّب عبد الملك الدواوين وجعل اللغة العربية التي هي لغة القرآن لغة التعامل في الدولة وهو ما سهّل دخول الناس في الإسلام وصبغ الدولة الأموية بصبغة عربية محضة.

b. **تعريب النقد**: أصدر عبد الملك نقدا إسلاميا لتوحيد التعامل في أرجاء الدولة عام ٧٤، كما غيّر طريقة عمل القراكيس الكتابية التي كانت تحمل التثليث إلى أن تحمل سورة التوحيد. وهذا ما قوي الدولة الأموية وحرر اقتصادها.

٢٠. **وفاة عبد الملك وتولي ابنه الوليد**: كان المفروض أن يتولى عبد العزيز بن مروان أخو

عبد الملك بعد أخيه حسب توصية مروان، إلا أنه مات قبل عبد الملك، فأخذ عبد الملك البيعة لإبنه الوليد بن عبد الملك. ثم توفي عام ٨٦.

الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦):

١. ولي الوليد الحكم وكان تقيا ورعا قرّاءا للقرآن

٢. كان مهتما بالعمارة فوسّع المسجد النبوي حين كان عامله على المدينة ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن عبد الملك. وأقام المسجد الأموي في دمشق وأنفق فيه الأموال الطائلة.

٣. **سياسته الداخلية:**

١. **المشرق بين ٨٥ و ٩٥:**

i. في ما وراء النهر

١. كانت هناك ممالك عديدة غير مستقرة شرقا من خراسان وكان عدم الإستقرار يهدد الأمن الإسلامي، مما أدى إلى غزر هذه الأماكن.

٢. أرسل الخليفة التعليمات للحجاج أن يعمل على فتح هذه الأماكن فعين قتيبة بن مسلم، أحد الفاتحين العظام. ففتح طخارستان ثم عاد وقاتل من خرج منهم وأعاد الإستقرار هناك.

٣. فتح قتيبة بخارى بعد ٣ سنوات من الحرب. ثم فتح سمرقند وأدى ذلك إلى نقل صناعة الورق إلى الدولة الإسلامية ثم منها إلى اوروبا في العصور الوسطى.

٤. فتح بعدها الشاش وفرغانة ثم جاءه نعي الحجاج مما أضعف من معنوياته.

٥. مات الحجاج عام ٩٥، زقد روى عنه أنس بن مالك عن عبد الملك عن مروان عن عثمان بن عفان. وكان فصيحا بليغا قارئا للقرآن وكان سريع الولوغ في الدماء، ومن الأعلام الذين قتلهم سعيد بن جبير من أعلام التابعين بعد أن

خلعه مع بن الأشعث.

٦. مباحثات مسلم مع الصين وعدم غزوها.

ii. السند:

١. تولى فتحها محمد بن القاسم، وكان في العشرين من عمره. ووصل إلى الهند وقاتل فيها.

٢. واصل محمد الفتوحات إلى أن أتم فتح كافة إقليم السند وتجهز لغزو كنوج ولكن جاءه نعي الحجاج ثم الوليد فتوقفت الفتوحات.

٢. الجبهة البيزنطية:

i. كانت سياسة الوليد كسياسة أبيه، لإضعاف الدولة البيزنطية، فأرسل الجيوش بقيادة مسلمة بن عبد الملك، أخيه، والعباس بن الوليد ابنه، للتغلغل في الدولة البيزنطية، خاصة وأن البيزنطيين عانوا من الإنقسام الداخلي، ثم مات الوليد وجاء سليمان، وكذلك أختير ثيودوسيوس ملكا على البيزنطيين.

٢. شمال أفريقيا:

i. بعد جهود حسان بن النعمان، تم تعيين موسى بن نصير، مقاتل بطبعه، ومعه أربعة من أولاده.

ii. دعم موسى بن نصير الوجود الإسلامي في المغرب وواصل فتح كافة المدن في الجنوب والغرب. ثم بدأ غزو الأندلس.

٤. فتح الأندلس:

i. حالة الأندلس السياسية:

١. كانت تحت الحكم البيزنطي عدة قرونن ثم سيطر عليها الوندال الألمان، ثم قبائل القوط في القرن السادس الميلادي.

٢. كان هناك صراع على السلطة بين أخيلا بن الملك وبين لذريق أحد قواد الجيش

للإستيلاء على السلطة.

ii. حالة الأندلس الإجتماعية:

١. كانت الحالة سيئة للغاية حيث كان هناك العديد من الطبقات:

a. رجال الدين: أصحاب ثروات لا يلتزمون بقيمهم

b. الطبقة الوسطى: صغار الملاك مثقلون بالضرائب

c. طبقة الشعب الدنيا: كأنهم عبيد لأصحاب الأرض

d. اليهود: مكروهون لإستغلالهم الناس بالربا واختلاف العقيدة، فعانوا الإضطهاد الشديد فقرروا الإستعانة بالمسلمين.

iii. حالة الأندلس الدينية:

١. كان اقسس على المذهب الكاثوليكي يضطهدون كل من عداهم من الإعتقادات.

iv. الفتح الإسلامي:

١. تحالف يوليان حاكم سبتة مع أخيلا لإستعادة الحكم وقد وجدوا في المسلمين حليفا قوياً.

٢. أرسل طارق بن زياد عامل موسى بن نصير على طنجة يسأله التصريح بالتقدم للأندلس، وموافقة موسى بن نصير على ذلك بعد استشارة الخليفة الوليد.

٣. تقدم طارق بقوة قوامها سبعة آلاف فأحرز انتصارا كبيرا ثم لحقه موسى بن نصير بقوة قدرها ١٨ ألف، وأطبقوا على البلاد بشكل الكماشة وفتحوا معظمها والتقوا في طليطلة عاصمة القوط واستقبل طارق موسى حين دخوله لها.

٤. تحكى الروايات خلافا بين طارق بن زياد وموسى بن نصير ولكن هو من قبيل اختلاف وجهات النظر.

٥. توقف الزحف بأمر الخليفة وعاد موسى بن نصير إلى دمشق.

٤ . وفاة الوليد وتعيين سليمان:

١ . أراد الوليد أن يخلع سليمان أخاه ويعينابنه عبد العزيز ولكن لم يجبه أحد إلى ذلك، واشار عيه الحجاج ومسلم بن قتيبة أن يجعل سليمان يخلع نفسه، ولكنه مات قبل ان يتم له ذلك.

سـليمان بن عبد الملك (٩٦–٩٩):

١ . كان أفضل أولاد عبد الملك، وكان تقيا ورعا فصيحا نشأ بالبادية وأحب الغزو. روى حديث الإفك عن ابيه عن جده عن عائشة. وقد كان واليا على فلسطين لأخيه الوليد. وأخذ عمر بن عبد العزيز بن عمه له البيعة في دمشق.

٢ . السياسة الداخلية:

a. كان سليمان متدينا ورغب في أن يوطد دعائم دكمه بأن يغيّر من أسلوب الحكم السابق الذي اعتمد على أمثال الحجاج، فعزل كثيرا من العمال مثل قتيبة بن مسلم، وموسى بن نصير ومحمد بن القاسم، وعين بدلا منهم ولاة آخرون بدعم من عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة.

b. أطلق سراح آلاف من معارضي الحكم الأموي كما زاد العطاء مما جعل المسلمون يثنون على حكمه.

c. انتهى الحال بالفاتحين العظام في أيام الحجاج والوليد إلى أن توفوا بشكل محزن، فقد قتل محمد بم القاسم على يد عامل الخراج في العراق، وقتل قتيبة بن مسلم بعد أن خلع الخليفة لظنه أنه سيعزله، فقتله أتباعه. أما موسى بن نصير فقد حوسب على بعض مخالفات ارتكبها ثم عفي عنه وحج مع الخليفة ومات في الطريق.

d. بدأت في عهده الدعوة العباسية على يد محمد بن عبد الله بن العباس.

٣. **السياسة الخارجية:**

a. **الجبهة الشرقية:**

i. لم يتم أي فتح جديد في هذه الجبهة حيث استغل الخليفة بقمع الثورات بعد أن توقف الزحف لما حدث للفاتحين الأوائل.

b. **الجبهة البيزنطية:**

i. اهتم الخليفة بفتح القسطنطينية، فأرسل بعثة بقيادة عمر بن هبيرة الفزاري، ثم الحقها بجيش كبير بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك وهو من ألمع القواد العسكريين.

ii. بنى جيشا بحريا كبيرا قوامه ١٨٠٠ سفينة.

iii. تحرك الجيش عام ٩٨ لغزو القسطنطينية. حاصر عمورية واتفقعلى خطة مع واليها على أن يصبح الملك على البيزنطيين بعد فتحها.

iv. تمكن ليو من أن يصبح الإمبراطور فتنكر لإتفاقه مع المسلمين وقاوم الجيش الذي حاصر القسطنطينية من البر والبحر.

v. قاوم البيزنطيون مقاومة عنيفة واستطاعوا أن يحرقوا عددا كبيرا من السفن، ثم جاء شتاء قارس.

vi. رفع المسلمون بقيادة مسلمة الحصار عن القسطنطينية عام ٩٩ وعاد إلى دمشق، ودمر البيزنطيون غالب السفن المسلمة إلا عشراً.

٤. **وفاة سليمان وأخذ البيعة لعمر بن عبد العزيز:**

a. مات داود بن سليمان قبل وفاة أبيه، وكان على رأس جيش يغزو القسطنطينية، فعهد سليمان بالأمر لعمر بن عبد العزيز بن عمه على أن تؤول الخلافة بعدها إلى أخيه هشام بن عبد الملك. وتوفي سليمان وهو مرابط في سبيل الله في قنسرين.

عــمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١):

١ . **قبل ولاية العهد**: هو بن عبد العزيز بم مروان، وأمه هي أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب فهو حفيد عمر بن الخطاب. كان عمر بن عبد العزيز قبل توليه العهد شاباً منعّماً للغاية، تشترى له الحلة بألف دينار، إذ هو سليل ملوك، وقد كان متديّنا ورعا حتى في شبابه، وقد طلب من والده عبد العزيز الذي كان واليا على مصر لأخيه الوليد، أن يرسله إلى المدينة يتفقعه على علمائها وفقهائها من التابعين. رافق التابعي الجليل رجاء بن حيوة، وهو الذي كان يقول فيه مكحول، إمام أهل الشام بلا منازع: سيدنا وشيخنا، كما عاصر كبارا مثل عطاء بن أبي رباح التابعيّ الجليل. وقد أخذ العلم عن الكثير من تابعيّ المدينة. وقد زوّجه عمه عبد الملك ابنته فاطمة وولاه على مدينة بالشام. وفاطمة هي الوحيدة التي قيل في نسبها:

بنت الخليفة والخليفة جدّها

أخت الخليفة والخليفة زوجها

ثم ولاّه الوليد بن عمّه إمارة المدينة. بدلا من هشام بن إسماعيل المخزوميّ الذي كان سيئ السيرة في أهلها، فأحسن لهم عمر وأقام العدل ورد المظالم مما جعل المدينة موئلا للمظلومين الفارّين من ظلم الحجاج. وهذا ما جعل الحجاج يشكو للوليد فعزل الوليد عمر، فلم يتول أي عمل من بعدها للوليد حتى تولى سليمان بن عبد الملك بن عمّه، فقربه منه واعتمد عليه ورجاء بن حيوة، لدينهما ودينه. لذلك عزل الكثير من عمال الحجاج بناء على توصيتهما. ثم حين مات سليمان، أخذ رجاء خطاب التوصية وجمع بني أمية وأخذ بيعتهم لمن سميّ في الخطاب، فبايعوا ثم أعلن عن بيعة عمر بن عبد العزيز.

٢. **عمر الخليفة**: روى أبي داود في سننه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»، قال أحمد هو عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى. كانت تولية عمر الخلافة نقطة تحول في تاريخ عمر وفي تاريخ الأمويين وفي التاريخ الإسلاميّ كله. تحول عمر من حياة الرفاهية إلى حياة الزهادة

والخشونة، حتى أنه طلب من زوجته فاطمة أن تبيع حليها وتتصدق بثمنها في سبيل الله. ومن كلماته: لو أن المرء لايأمر بالمعروف ولا ينهيعن المنكر حتييحكم أمر نفسه، لتواكل الناس الخير، ولذهب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة». وكان يكثر من قول :اللهم سلّم سلّم» ويكثر البكاء. وقرأ رجل يوما عنده «وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين» بكى بكاء شديدا ثم قام فدخل بيته وتفرق الناس. والخلاصة أنه كان في غاية الخشية والورع.

كانت سياسته العامة تتمشى مع رؤيته للدنيا ودور المرء فيها ودور الحاكم فيها. فعمل على إصلاح ما اعوج أيام خلفاء بني أمية قبله:

١. **السياسة الخارجية**: أمر بانسحاب عمه مسلمة بن عبد الملك من حصار القسطنطينية، ليصرف الجهد في الحفاظ على المكتسبات الإسلامية، وأن يدعو غير المسلمين بالطرق السلمية.

٢. **السياسة الداخلية**:

a. ترك لعن علي على المنابر واستبدل ذلك بقول: إن الله يأمر بالعدل والإحسان...﴾ وبهذا أعاد الصلاح والتقارب بين المسلمين.

b. انفتح على الخوارج فأرسل إلى شوذب الخارجيّ ليناظره، واقنع عدد من الخوارج بالعودة لحظيرة الجماعة، ومن تبقى اقتنعوا بعدم الخروج المسلح على الخلافة.

c. عمل على نشر الدعوة بين غير المسلمين، بل وتألف بعضم بالمال، وكتب إلى الإمبراطور ليو البيزنطي يدعوه للإسلام ولكنه مات قبل أن يأتيه الرد.

d. كان من العالمين بفائدة الإدارة الرشيدة، فغير الكثير من الوسائل الإدارية التي سادت أيام الخلفاء من قبله، مما يساعد على توفير الوقت والمال وسرعة التصرف وكان من وسائله في ذلك تعيين الأكفاء من الولاة والعمال والقضاة

على قدر كفاءتهم لا ولائهم للخليفة أو الوالي.وكان مع ذلك يتابع أعمالهم وأمرهم بأن يأخذوا الناس بالسنة لا بالتهمة والشبهة كما فعل الحجاج وعبيد الله واباه زياد من قبل، وهو ما دفعه إلى تبديل العمال والولاة الذين تخرجوا في مدرسة هئلاء الطغاة في الإدارة. وعيّن على المدينة محمد بن عمرو بن حزم.

e. من أهم الأمور التي قام بها عمر هو أنه ألغى ما كانت عليه السياسة من قبل أن يستمر في دفع الجزية المسلمون الجدد الذين كانوا من أهل الجزية قبل إسلامخهم. وقد كانت هذه السياسة تتبع لتكثير موارد الدولة المالية رغم مخالفتها للإسلام. وهو ما ساعد على نشر الإسلام وقبول الناس له قبولا حسناً، كما أنه لم يستعمل كلمة الموالي «غير العرب» بل استعمل كلمة المسلمون عامة ليرفع عن هؤلاء ما يمكن أن يعيرون به، وأن يجعل الإسلام هو اساس المئاخاة. ولمّا شعر الولاة بنقص موارد الدولة نتيجة هذه السياسة، كتب لهم: إن الله قد بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعيا وليس جابيا».

f. أمر ببناء خانات على مسارات الطرق (بيوت استراحة) ليأوي اليها المسافرون ليأكلوا ويستريحوا ويعتنى بدوابهم، ويطعم منهم من ليس معه مال، ويحمل من ليس عنده دابة بلا مقابل (like the AAA and rest houses but for free).

g. بدء دعوة بنى العباس: وقد كان بنو هاشم انقسموا إلى فسمين، قسم من أبناء علي وأبنائه وهم العلويون، وقسم من أبناء عبد الله بن العباس وهم العباسيون وقد ظلوا طوال هذه الفترة في المدينة وهم أقارب كلهم يقال لهم أهل البيت إذ أن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم. وفي هذا العصر كانت قيادة الشيعة[١] قد آلت إلى أي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية المعروف بالمهدي[٢] الذي

[١] وهم الشيعة الكيسانية الذين خرجوا في عهد المختار الكذاب ودعوا لمحمد بن الحنفية ورئيسهم بعد المختار عمرو بن كيسان.

[٢] ويذكر المئرخون قصة لقاء سليمان بن عبد الملك بأبي هاشم ثم دس السم له وهي غير صحيحة بل التقى بهشام بن عبد الملك أخو الخليفة.

مات عام ٩٨ ولم يكن له عقب فآلت قيادة أهل البيت إلى أكبرهم سناً وهو عليّ بن عبد الله بن عباس ومن بعده إلى ابنه محمد بن عليّ. وفي العام ١٠٠، أرسل محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس رسلا إلى رجالا في خراسان يدعوهم لأهل بيت العباس فاستجاب عدد منهم وسرّه ذلك فاختار سبعين نقيبا تفرقوا في القبائل يدعون له بعد أن بانت دلائل الضعف على الدولة الأموية خاصة بعد وفاة عمر رضى الله عنه.

h. ومات في هذا العام مجاهد بن جبير المكي المخزومي علم أعلام المفسرين، وهو الذي امسك عبد الله بن عمر بركابه وقال: أود لو أن ابني سالما وغلامي نافعا يحفظون حفظك.

وفاة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه عام ١٠١هـ: توفي عمر وهو في التاسعةوالثلاثين من عمره، قيل مات مسموما وقيل مات بمرض السل. وقد كانت فترة حكمه راشدة قدم فيها الدليل على أن الحاكم يمكن أن يكون راشدا إن إراد وكان ذو توجه اسلامي صحيح. وقد كان له ١٢ ولدا فقيل له دع لهم شيئا يتقوون به على الدنيا: قال أتركهم لقضاء الله تعالى، فإن من كان منهم تقيا كفاه الله ومن كان منهم غير ذلك فلا أعينه على فسقه». وقد كان وجهه مبيضا حين الغسل خلاف وجوه الخلفاء من قبله. فرضى الله عنه وأرضاه.

يزيد (الثاني) ابن عبد الملك (١٠١-١٠٥):

١. بويع له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز كما كانت وصية سليمان بن عبد الملك، وكان عمره ٣٤ سنة، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية. وكان ضعيفا ينصرف إلى العبث واللهو وقدساير خط القيسيين كماأقر سياسة عمر في أول الأمر.

٢. **حركة يزيد بن المهلب بن أبي صفرة:** أبوه المهلب بن أبي صفرة اليمني حارب على الجبهة الشرقيى أيام معاوية رضي الله عنه، كما حارب مع عبد الله بن الزبير الخوارج الأزارقة وانتصر عليهم، وحاربهم في أيام عبد الملك بن مروان ثم توجه إلى الشرق. كانت هناك حزازات بين الحجاج وبين يزيد بن المهلب أدت إلى عزل

يزيد عن ولاية خراسان. ثم أعيد إلى حكم العراق والشرق في عهد سليمان بن عبد الملك. وفي عهد عمر بن عبد العزيز تم عزله لتناقض سياسة بني المهلب التي تقوم على الأرستقراطية العربية مع نهج عمر بن عبد العزيز. وقد فر يزيد من سجنه في أواخر عهد عمر، واستولى على البصرة وبدأ في اثارة القلاقل، كما رفض أن يخرج إلى خراسان كما نصحه أخوه حبيب بن المهاب. ثم استفحل أمره وساد الكوفة وفارس والأهواز وكاد أن يسيطر على كل العراق ورفع شعار الجهاد ضد أهل الشام (اصحاب الحجاج). ولم يتمكن يزيد بن المهلب من السيطرة على خراسان لعدم مناصرة قبيلته الأزد له لرضائهم عن سياسة وعمر واعتقادهم أن يزيد بن عبد الملك سيسير فيهم بسيرته. أرسل الخليفة مسلمة بن عبد الملك فواجه يزيد بن المهلب في مكان يقال له العقر بجنود لا قبل له بها وقتله ثم تحرك معاوية بن يزيد بن المهلب لمّا سمع بمقتل أبيه فقتل عددا من أسراه فيهم عدي بن أرطأة رحمه الله، فجمع بقية أهل المهلب وفيهم المضل بن المهلب عمه وخرج بهم إلى كرمان ثم تقاتلوا مع جيش أرسله مسلمة وقتلوا وقضى على الحركة. وتولى مسلمة العراق وخراسان لأخيه يزيد.

٣. **السياسة الخارجية**: وقد سار يزيد على نهج عمر في درء الأعداء والتوقف عن امتداد الفتح، وقد كانت هناك بعض الوقعات بين المسلمين والترك الديلم والبيزنطيين.

٤. وتوفي في عهده عام ١٠٤ عامر بن شراحيل الشعبي الذي وقف ضد المختار في الكوفة وكذبه،وكان إمام أهل الكوفة بلا منازع وعلم من أعلام أهل السنة.

٥. **وفاة يزيد بن عبد الملك**: ولي يزيد أخاه هشام بن عبد الملك على أن يتولى ابنه الوليد بن يزيد بعده حيث أن عمره كان وقتها ١٥ عاما. وتوفي يزيد عن عمر ٣٨ عاما، وكان ضخم الجثة أبيض طويل القامة.

هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥):

١. كان عمر هشام ٣٤ عاما حين تولى الخلافة وعمر فيها زهاء عشرين عاما. وكان حازما عاقلا حكيما عالما بفنون الإدارة فأصلح من أمور الدولة كثيرا وأوقف تدهورها إلى حين. وكان أمينا على أموال الله يجمعها بحقها وينفقها بحقها.

٢. بدء تبديل الولاة الذين لم يرض عن أحوالهم فعزل عن العراق وخراسان عمر بن هبيرة الفزاري وعين مكانه خالد بن عبد الله القسريّ. كما غير والي المدينة ومكة والطائف عبد الواحد بن عبد الله النضري ووضع مكانه بن خاله إبراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومي.

٣. **أحوال الدولة في عهد هشام:**

a. **العلويون**: ساد الكوفة هدوء متحفز نتيجة لسياسة عبد الملك والحجاج العنيفة والتي لم تقض عليهم تماما. وقد انضم أنصار المختار إلى العلويين حتى زمن هشام وتزعم زيد بن على بن الحسين بن علي[١] الشيعة في هذا الوقت، وحاول هشاماً ن يقبض عليه بتهمة أكل وديعة ولكنه برء منها وعاد إلى الكوفة ليدعو لنفسه. وقد كان أخوه محمد بن علي بن الحسين بن علي أبو جعفر المعروف بالباقر تابعي جليل غزير العلم وكان أحد أعلام الأمة روى عن عدد من الصحابة وروى عنه كثير من تابعي التابعين منهم ابنه جعفر الصادق، وهي السلالة التي خرجت منها الشيعة الإثني عشرية. وكان ثقة كثير الحديث ومات عام ١١٥ في عهد هشام. أما زيد بن علي فهو رأس الشيعة الزيدية، وكان عالما فقيها ورعا. وقد أراد أن يخرج إلى المدينة ليعيش فيها إلا أن أهل الكوفة - كعادتهم - خرجوا وراءه في أربعين ألفا وأقنعوه أن يعود معهم وأنهم يخرجون معه. فعاد واجتمعوا حوله، إلا أن والي العراق يوسف بن عمر أمر الحكم بن أبي الصلت عامله على الكوفة أن

[١] راجع ج٩ص٩٢٣ البداية والنهاية

يجمع الناس عشية خروج زيد وأن يهددهم ويتوعدهم إن خرجوا وحبس بعضهم، وتكررت مأساة الحسين مع حفيده زيد. وخذلته الكوفة واضطر أن يواجه قوات الوالي في ٢٨٠ من اصحابه قم قتل رحمة الله عليه. وكان أن كوّن اتباعه فرقة الزيدية التي اتخذت اتجاها فقهيا أكثر منها عسكريا.

b. **الجبهة الشرقية**: واجه هشام المصاعب على هذه الجبهة نتيجة تخاذل الكثير من الولاة عن القتال بعد أن استمرت حركة توقف الجهاد لعدة سنوات في عهد سليمان وعمر والوليد. وقد أدت سياسة رفع الخراج عمن أسلم حديثا إلى تقليل الخراج، فحاول الوالي أن يضع الخراج عليهم مرة أخرى ولكن هذا جعل الموالي ينضمون إلى الأتراك وطردوا المسلمين من أماكن كثيرة منها بخارى. ثم استطاع هشام أن يستعيد بخارى ولكن كان لابد من إحداث تغييرات كثيرة في نظم الإدارة في المشرق. وقد أخرج عدد من القبائل العربية التي رفضت القتال من مرو مما جعلهم يتمردون بقيادة **الحارث بن سريح**[١]. ثم ضم هشام خراسان إلى العراق تحت قيادة خالد بن عبد الله القسري وولى عليها أخيه أسد. وقد انتصر أسد على الأتراك وعلى الحارث ثم مات فتولى بعده نصر بن يسار شيخ مضر، فوطد الوضع وجعل الخراج عن المسلمين وحمله غير المسلمين وجعل خراسان في رخاء وأمن واستقرار. ولكن سنرى - بعد وفاة هشام - أنه من المستحيل التوفيق بين العصبيتين العربيتين وأن متاعبه ستبدأ بعد وفاة هشام.

c. **جبهة أرمينيا وأذربيجان**: كانت هناك معارك كثيرة جعلت المسلمون يحجمون قوة الترك هناك.

d. **الجبهة البيزنطية**: حارب المسلمون على الجبهة البيزنطية في آسيا الصغرى وأقام هشام حصون عديدة لصد هجمات البيزنطيين. وتلاقى المسلمون

[١] والذي خرج معه الجعد بن درهم وقتله خالد القسري بعد

والبيزنطيون في معركة شرسة بقيادة ليو الثالث وانتصر البيزنطيون نصرا كبيرا وكان هذا الصراع هو آخر لقاء بين البيزنطيون والمسلمين في عهد الدولة الأموية.

e. **شمال إفريقيا**: عاشت جبهة شمال إفريقيا عهدا من الأضطرابات بين عامي ١٢٢ -١٢٤ بسبب اشتطاط الأمويين في جباية المال، وكانت ثورات عارمة انتهت بالقضاء عليها واستتباب الأمر للأمويين.

f. **الأندلس**: تتابعت محاولات التوسع الإسلامي في اسبانيا وما وراءها:

١. **السمح بن مالك الخولاني**: وقد توغل فيما وراء مقاطعة سبتمانيا إلا أنه اصطدم بحاكم أوكتانيا وقتل في المعركة. واستطاع عبد الرحمن الغافقي أن ينسب بشكل مشرف عام ١٠٠.

٢. **عنبسة بن سحيم**: عاد إلى مهاجمة سبتمانيا وتوغل في أوروبا حتى وصل إلى ١٠٠ ميل عن باريس، ولكنه هزم بجيش الفرنجة واستشهد عنبسة عام ١٠٧.

٣. **عبد الرحمن الغافقي**: وهو من أشهر القواد الحربيين في جبهة الأندلس. وقد هاجم الدوق حاكم أوكنانيا الذي أوقف محاولة السمح من قبل. وبالفعل انتصر عليه ولجأ إلى الفرنجة. وبعد عدة مناوشات بين شارل حاكم الفرنجة الداهية والغافقي، التقي الجيشان في معركة شرسة هي معركة بلاط الشهداء وانتصر فيها شارل مارتل واستشهد الغلفقي ؤحمة الله عليه وعلى شهداء المسلمين جميعا. وبهذا توقف الزحف الإسلامي في أوروبا إلى يومنا هذا.

٤. وفاة هشام بن عبد الملك: حاول هشام أن يولي ابنه مسلمة بدلا من الوليد بن يزيد ولكنه فشل في ذلك. توفي هشام عام ١٢٥ وتولى بعده الوليد بن يزيد.

الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الوليد الثاني) (١٢٥– ١٢٦):

١. وهو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وسليل الخلفاء. وتصف لنا كتب السير أنه عاش عيشة لاهية ويقال أن عمه هشام قد سّهل له ذلك كي يجعله ينسى المطالبة بالخلافة ويستطيع أن يعين ابنه مسلمة. والملاحظ أن المؤرخين الذين يرددون أغراض هشام، لا يمكن أن يوفقوا بين الشخصية العادلة الأمينة التي يرددونها عنه وبين مثل هذه الشخصية الشريرة التآمرة التي لا تبالي بأن تيسر سبل اللهو والمجون للوليد ليستأثر ابنه بالخلافة! وهذا التوفيق هو ما يعوز الكثير من مؤرّخوا الإسلام. ومما يدل على هذا أن الوليد قد انتهج سياسة عادلة وكان رحيما بالمسلمين. إلا أنه لابد وأنه كان بصفة شخصية ممن ينزع إلى اللهو خاصة وليس في حياته ما يصرف فيه جهده، وليس لدى هشام ما يدعوه لردعه. ولا شك أن هشاما قد حاول أن يأخذ البيعة لإبنه مسلمة، لكنه لم يفلح وهو مما يدل على أن الوليد لم يكن من السوء الذي يجعل من حوله يبيعونه لهشام.

٢. وكان الوليد قيسيّ الهوى، فعزل خالد بن عبد الله القسري وسلمه إلى يوسف بن عمر الثقفي الذي حاكمه وقتله وكان هذا مما الّب عليه العصبية اليمنية القوية.

٣. **حركة يحي بن زيد بن علي بن الحسين:** خرج ضد الوليد في خراسان ولكن والي خراسان نصر بن سيّار سيّر جيشا وقتله في الأنبار عام ١٢٥.

٤. **ثورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك:** هو بن عم الخليفة، وقد قاد العصبية اليمنية ضد الخليفة وسار إلى دمشق وانتصر عليه وقتله. وكانت هذه بداية انحلال بني أمية وأتي عبر عنها العباس بن الوليد بن عبد الملك بقوله: يا بني مروان، إني لأظن أن الله قد أذن في هلاككم».

يزيد بن الوليد بن عبد الملك (يزيد الثالث) (١٢٦ – ١٢٧):

١. تولى يزيد بن الوليد الحكم ويده مخضبة بدماء بن عمه، فلم تصفو له الخلافة، فخرج عليه العديد من بني أمية.

a. **سليمان بن هشام بن عبد الملك**: وكان قد سجن في عهد الوليد الثاني ولم يقد ثورة مسلحة ولكنه كان يلعن الخليفة في دمشق.

b. **يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية** (حفيد يزيد بن معاوية): وقد قاد ثورة في حمص إلا أن يزيد تغلب عليه وسجنه.

c. **يزيد بن سليمان بن عبد الملك**: خرج في أهل فلسطين ولكن انتصر عيه يزيد

d. **محمد بن عبد الملك**: خرج في الأردن ولكن انتصر عيه يزيد.

٢. اتبع يزيد سياسة تغيير الورة فعزل يوسف بن عمر عن العراق وولاها منصور بن جمهور، كما حاول عزل نصر بن سيّار عن خراسان ولكنه امتنع عليه، ولم يستطع الخليفة تبديله واستقل عن الدولة المركزية إلى حين.

٣. **مروان بن محمد بن مروان بن الحكم**: وقد كان واليا على الجزيرة واذؤبيجان وأرمينيا واشتد أمره حتى قرر عزل الخليفة. ولكن مات يزيد فجأة عام ١٢٧.

٤. حين مات يزيد الثالث، قام أخوه إبراهيم بن الوليد، ولكن لم تتم له بيعة في خضم هذا الواقع الممزق أشلاءاً. ورفضه مروان بن محمد وأعلن تأييده لإبني الوليد الثاني الحكم وعثمان الذي . وكانت عصبية إبراهيم يمنية وعصبية مروان قيسية.

٥. زحف مروان إلى دمشق واستولى فيالطريق على العديد من المدن، فهرب إبراهيم من دمشق،

مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (مروان الثاني – الجعدي) (١٢٧– ١٣٢):

١. كان مروان بن محمد من الخلفاء الأقوياء ذوي الهمة إلا أن الظروف التي كانت وصلت إليها دولة بني أمية لم يسمح له بأن يصلح أة أن يمنع من انهيار الدولة.

٢. كان معلم مروان ومرشده الجعد بن درهم[١] (معلم الجهم بن صفوان مؤسس الجهمية).

٣. نقل عاصمته إلى حرّان معقل القيسية عصبيته وهو ما جعله يخسر الشام كلها وما هو معروف من أن الشام هي درع الأمويين وحامية دولتهم.

٤. **حمص**: خرج أهل حمص عليه بقيادة ثابت بن نعيم الذي كانت بينه وبين مروان حزازات، ولكن مروان انتصرعلى الحمصيين. ولكن ثابت توجه إلى فلسطين.

٥. **الغوطة**: وهي ناحية بدمشق، خرج فيها يزيد بن خالد بن عبد الله القسري ولكن مروان استطاع أن ينهي الحركة وأن يقتل يزيداً.

٦. **فلسطين**: وجه مروان جيش لملاقاة ثابت بن نعيم واستطاع ان ينتصر عليه وأن يقتله.

٧. **الخوارج**: وكانوا قد استولوا على الكوفة والموصل ولكن مروان الثاني استطاع أن ينتصر عليهم وان يستعيد العراق والحجاز واليمن.

٨. **الحركات العلوية:**

عبد الله بن معاوية بن جعفر بن ابي طالب (حفيد جعفر بن أبي طالب أخو علي):
خرج عام ١٢٧ لقتال أهل الشام في الحيرة، ولكن كعادة الشيعة فروا من المعركة واستطاع أن ينسحب إلى فارس حيث أعاد تجميع قواته التي لم تكن متجانسة، لا

---

[١] يقوم مذهبه على الجبر ونفي الصفات وفناء النار والجنة وخلق القرآن وقد أرسله هشام بن عبد الملك إلى خالد القسري فضحى به يوم العيد، وقد أخذ عنه مروان الثاني والجهم بن صفوان (الذي قتله نصر بن سيار بعد خروجه مع الحارث بن سريح)

يجمعها إلى العداء لمروان الثاني. وهزمته قوات مروان الثاني ففر إلى سجستان ولكن أبي مسلم الخراساني (داعية العباسيين) قتله.

٩. **عبد الله بن عمر بن عبد العزيز**: وكان واليا على العراق. واشتدت شوكته واعتمد على العصبية اليمنية التي ساءها اعتماد الخليفة على القيسيين، فأرسل مروان الثاني جيشا لقتاله، ولكن خروج الخوارج الذين احتلوا الكوفة والموصل اضطره أن يرسل الجيوش لإيقاف زحفهم.

١٠. **سليمان بن هشام بن عبد الملك**: حاول سليمان أن يوقف زحف مروان في نهاية عصر يزيد بن الوليد، إلا أنه لم يفلح، ثم عفا عنه مروان لإظهار وحدة الصف الأموي، ولكن بعد توجه مروان لملاقاة الخوارج في العراق، خرج عليه سليمان مرة أخرى وخلع بيعته واجتمع له جند غفير فحاربهم مروان وانتصر عليهم وفر سليمان إلى العراق والتحق بحركة الضحّاك الخارجيّ. وقد كان الضحاك قد صالح بن عمر على أن يتركه في الكوفة وأن يتوجه لقتال مروان فإن فاز تبعه بن عمر. فخرج الضحاك ولاقى جند مروان وقتل ليلا دون أن يعلم أهل معسكره عام١٢٨.

أسباب سقوط الدولة الأموية:

١. الصراعات داخل البيت الأموي:

a. المنافسة السفيانية والمروانية.

b. خروج عمرو بن سعيد بن العاص على عبد الملك بن مروان.

c. خروج الوليد بن يزيد بن عبد الملك على يزيد بن الوليد بن عبد الملك.

d. قتل الخليفة يزيد، وخروج سليمان بن هشام بن عبد الملك، ويزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية، ويزيد بن سليمان بن عبد الملك على الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

e. خروج محمد بن عبد الملك بن مروان على يزيد بن الوليد بن عبد الملك.

f. خروج مروان بن محمد بن مروان بن الحكم على يزيد بن الوليد.

g. خروج عبد الله بن عمر بن عبد العزيز على مروان بن محمد

h. خروج سليمان بن هشام بن عبد الملك على مروان بن محمد.

٢. **توارث السلطة.**

٣. **التوصية لأكثر من خليفة.**

٤. **العصبية العربية ضد الموالي** وأثرها السياسي والإقتصادي والإجتماعي.

٥. **العصبية القبلية** (اليمانية ضد القيسية)

٦. **الخلافات المذهبية بين:**

a. الأمويين من أهل السنة

b. العباسيين والعلويين من الشيعة

c. الخوارج الذين لا ينتمون لأي منهما.

الدعوة العباسية:

غروب شمس الأمويين وقيام دولة الخلافة العباسية:

a. سميت الدولة العباسية بهذا الاسم، نسبة إلى العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم، فمؤسس الدولة العباسية وخليفتها الأول هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب عم رسول الله، وقد اشتهر أبو العباس بأبى العباس السفاح لأنه قال في خطبة تنصيبيه «أنا الثائر المبيد وأنا السفاح» وتعني في العربية المعطاء الفصيح.

b. **ظهور دعاة العباسيين:**

اعتمدت الدعوة العباسية على السرية التامة في بداياتها نتيجة ما حدث من مآسي أهل البيت. وقد طوروا هيكل للدعوة أصبح من أشهر الطرق التي استخدمت فيما بعد لنظر الدعوات الأخرى[١].

عندما ضعفت الدولة الأموية، تطلع الناس إلى رجل يعود بالأمة إلى الجادة والطريق الصحيح، يرفع عنهم الظلم، ويقيم فيهم العدل، ويرهب بهم الأعداء، فحسبوا أن أصلح الناس لهذا الأمر، رجل يكون من بنى هاشم، فكتبوا[٢] فى هذا الشأن إلى «أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب» أحد العلماء الثقات، وكان مقيمًا بالشام قريبًا من مركز الخلافة الأموية.. وما لبث أمر تلك المكاتبة أن وصل الخليفة الأموى «سليمان بن عبد الملك»، فخشى أبو هاشم على نفسه -وكانت قد تقدمت به السِّنّ- بطش الخليفة، فانتقل إلى «الحميمة» من أرض الشام؛ حيث يقيم عمه «عليّ السَّجَّاد بن عبد الله بن عباس»، وهناك حضرته منيته ولم يكن له عقب، فأوصى إلى «محمد بن على بن عبد الله بن عباس» بما كان من أمر الناس معه، ودفع إليه الكتب التى كتبوها إليه، وقال له: أنت صاحب هذا الأمر، وهو فى ولدك. ثم مات، وكان ذلك فى خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ/ ٧١٨م. وهذا أول انتقال الدعوة من العلويين إلى العباسيين[٣].

وأخذ محمد العباسى فى تنفيذ ما أوصاه به أبو هاشم، فاتصل بالناس، واختار من بينهم دعاة يخرجون وينتشرون فى ربوع الدولة الأموية، يشهرون بها وينتقدون عيوبها، ويدعون إلى ضرورة أن يتولى أمر الخلافة رجل من آل البيت قادر

[١] النقباء، النظراء، الدعاة، دعاة الدعاة، العمال.

[٢] والذي كتب هو عبد الله بن كيسان، أحد قواد المختار الكذاب وهو الذي تولى مبايعة أبناء بن الحنفية بعد المختار.

[٣] وينكر هذه القصةالعديد من المؤرخين ويجعلونها مختلقة لتبرير استيلاء العباسيين على السلطة، وهو ما يؤكدونه بأن أبي هاشم قد استدعاه هشام بن عبد الملك لا سليمان.

على أن يملأ الأرض عدلا، ووجدت تلك الدعوة صدى عند الناس ورواجًا. ويموت محمد بن على بن عبد الله بن عباس سنة ١٢٤هـ/ ٧٤٢م، بعدما أوصى ابنه إبراهيم الملقب بالإمام بمواصلة المسيرة.

c. **إبراهيم الإمام**:

وتأخذ الدعوة العباسية عند إبراهيم الإمام صورة أخرى غير التى كانت عليها قبل ذلك، فهى لم تكن منظمة، أما الآن فقد صار لها نظام، وقادة معلومون، من أمثال أبى سلمة الخلال[١] على الكوفة، وأبى مسلم الخراسانى على خراسان. كما اتخذت الحميمة مركزا لها.

وما تكاد سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٧م، تقبل حتى يصدر أمر الإمام العباسى «إبراهيم بن محمد» أن يكون «أبو مسلم الخراسانى» رئيسًا للدعاة جميعًا فى خراسان وما حولها وهو خراساني الأصل بعد أن اعتذر غيره، وكلَّفه أن يجهر بالدعوة للعباسيين علنًا، وأن يعمل على جعل خراسان قاعدة للانطلاق بقواته ضد البيت الأموى.

d. **انتقال الخلافة إلى العباسيين**:

صدر الأمر إلى أبى مسلم بالجهر بالدعوة للعباسيين فى عهد آخر خلفاء بنى أمية «مروان بن محمد»، ولم يلبث أبو مسلم أن دخل «مرو « عاصمة خراسان، وكاد أن يستولى عليها إلا أنه لم يتمكن من ذلك هذه المرة، وهنا أسرع الوالى على خراسان من قبل بنى أمية، وهو «**نصر بن سيار**» يستغيث بمروان بن محمد ويطلب منه مددًا، وينبه رجال الدولة إلى الخطر المحدق فيقول:

أرى خَلَلَ الرَّمادِ وَمِيضَ نـارٍ

[١] ولكن هوى أبي سلمة الخلال كان مع العلويين فلمّا ظهر أبو العباس السفاح أمر أبو مسلم بقتل الخلاّل لخيانته.

ويُوشكُ أن يَكُونَ لَهَا ضِـرَامُ

فإن النـــارَ بالعودين تُذْكـــى

وإن الحربَ مبدؤها كـــلامُ

فقلت من التعجب ليتَ شِعـرى

أأيقاظ أميــة أم نيـــــام؟

ولم يهتم بنو أمية بهذا الأمر بسبب انشغالهم بصراعات أنصارهم القدماء بالشام، وانشقاق زعماء الأمويين على أنفسهم، ولم يمدُّوا واليهم على خراسان بشىء، فأدرك أبو مسلم الخراسانى أن الوالى الأموى لن يصبر طويلا، وأن «مرو» ستفتح يومًا ما قريبًا، فأخذ يجمع العرب من حوله، ثم انقضَّ بهم على «مرو» ففتحت له، وهرب واليها «نصر بن سيار» وكان ذلك سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٨م.

وواصل أبو مسلم فتوحاته، فدانت له «بلخ» و«سمرقند» و«طخارستان» و«الطبسين» وغيرها، وتمكن من بسط سيطرته ونفوذه على خراسان جميعًا، وراح يتطلع إلى غيرها، وكان كلما فتح مكانًا أخذ البيعة من أهله على كتاب الله-عز وجل-وسنة نبيه «وللرضا من آل محمد»، أى يبايعون إمامًا مرضيًا عنه من آل البيت من غير أن يعِّيَنهُ لهم. وسمى نفسه «امير آل محمد» وكان نفوذه لا يبارى في المشرق وكان مثالا لمن جاء بعده من الدول التي اعتمدت على الموروث المجوسي مثل البرامكة وآل طاهر والبويهيين. ولذلك إختار الإمام إبراهيم قحطبة بن شبيب، شخصية عربية لتقود الثورة في العراق العربي. وانتصر قحطبة على نصر بن سيار إلا أنه انهزم أمام يزيد بن هبيرة الأموي، ثم انتصر عليه أبي سلمة الخلال وذخل الكوفة.

والواقع أن بنى أمية لم يجدوا الوقت للإنصراف للقضاء على حركة بني العباس

لأنشغالهم بحربهم الداخلية، لا يعلمون من أمر القيادة الرئيسية لهذه الدعوة العباسية شيئًا، ولما وقع فى يد الخليفة (مروان بن محمد) كتاب من «الإمام إبراهيم العباسى» يحمل تعليماته إلى الدعاة، ويكشف عن خطتهم وتنظيمهم، كان منشغلا بتوطيد سلطانه المتزعزع وقمع الثائرين ضده، واكتفى الخليفة «مروان بن محمد» بأن أرسل إلى القائم بالأمر فى دمشق للقبض على الإمام «إبراهيم بن محمد» «بالحميمة» وإيداعه فى السجن، وتم القبض عليه وأودع السجن، فظل به حبيسًا إلى أن مات (ويقال أنه قتل) فى خلافة مروان بن محمد سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م. ولما علم «إبراهيم» بالمصير الذى ينتظره، وعلم أن أنصاره ومؤيديه قد واصلوا انتصاراتهم، وأن الكوفة قد دانت لهم وصارت فى قبضتهم أوصى لأخيه «**أبى العباس**» بالإمامة طالبًا منه أن يرحل إلى الكوفة ومعه أهل بيته؛ لينزل على داعى العباسيين بها وهو «أبو سلمة الخلال» فهناك يكون فى مأمن من رقابة الأمويين وسلطانهم.

e. انتقال مركز الدعوة العباسية إلى العراق:

وقد حارب أبو مسلم الخراساني نصر بن سيّار وطرده من خراسان واستطاع قحطبة بن شبيب أن يسيطر للعباسيين على العراق بعد أن هزم قوات نصر المتراجعة ولم تفلح الإمدادات التي أرسلها مروان لنصر، وحدث أن وافته المنية عام ١٣١ فمات نصر بن سيّار محسورا في جو الهزيمة. وسار إلى الكوفة أبو العباس.

f. المبايعة لأبي العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ١٣٢:

وهناك فى الكوفة -بعد قليل من وصول آل العباس إليها- تمت مبايعة أبى العباس خليفة للمسلمين، وتوجه «أبو العباس» إلى مسجد الكوفة عقب مبايعته بالخلافة فى الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، وألقى على الملأ خطبة كانت بمثابة الإعلان الرسمى عن قيام الدولة العباسية، ومما

جاء فى تلك الخطبة:

«الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه، وكرمه وشرفه وعظَّمه، واختاره لنا، زعم الشامية أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا، شاهت وجوههم، بِمَ ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، ودحض الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدًا، ورفع بنا الخسيسة، وتمم النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل التعاطف والبر والمواساة فى دنياهم، وإخوانًا على سرر متقابلين فى آخرتهم، فتح الله ذلك -مِنَّةً وبهجة -لمحمد (، فلما قبضه الله إليه، وقام بالأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، حَوَوْا مواريث الأمم، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها، وخرجوا خماصًا منها، ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزُّوها وتداولوها، فجاروا فيها واستأثروا بها، وظلموا أهلها، وقد أملى الله لهم حينًا حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وتدارك بنا أمتنا، وَوَلِيَ نصرنا والقيام بأمرنا، لَيمُنَّ بنا على الذين استضعفوا فى الأرض، فختم بنا كما افتتح بنا، وإنى لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وماتوفيقنا أهل البيت إلا بالله، فاستعدوا أيها الناس، فأنا السَّفَّاح المبيح والثائر المنيح (يقصد بالسفاح أنه كريم جواد) «.

ومن هذه المقولة التصقت به صفة السفاح، فقيل أبو العباس السفاح، مع أنه ما قصد ذلك المعنى الذى شاع على الألسنة.

g. **اللقاء بين مروان بن محمد وجيش أبي العباس السفاح العباسي:**

يالها من لحظات حاسمة فى تاريخ الأمم والشعوب، إن شمس الأمويين الغاربة تؤذن بالزوال، بينما شمس العباسيين فى صعود، وهذه هى الدنيا، فيوم لنا ويوم علينا، والأيام دُوَل.

وكان اللقاء الحاسم بين الأمويين والعباسيين على أحد فروع دجلة بالقرب من الموصل وهو «نهر الزَّاب الأعلى».

فجيش العباسيين يقوده عم الخليفة، وهو «عبد الله بن على»، بينما يقود جيش الأمويين الخليفة نفسه «مروان بن محمد».

كان ذلك يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، ولم يجد «مروان» أمام جحافل العباسيين إلا أن يفر إلى «دمشق» مهزومًا أمام مطاردة «عبد الله بن على».

لقد راح يُطارده، فاستولى على «دمشق»، واستولى على مدن الشام واحدة بعد الأخرى، وكان استسلام دمشق العاصمة معناه سقوط دولة بنى أمية، وانتهاء عهدها كعاصمة للدولة الإسلامية، لكن مروان قد فرّ إلى مصر وتوجه إلى صعيدها، وقرب الفيوم، عند قرية «أبوصير» ثم وشى به غلامه وأُلقِىَ القبضُ عليه، وقُتِلَ بعدما ظل هاربًا ثمانية أشهر، يفر من مكان إلى مكان بعد أن قاتل المهاجمين. ومضى عهد، وأقبل عهد جديد، وسيظل عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م فاصلا بين عهدين، وتاريخًا لا يُنسى.

بدأت الدولة الجديدة سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، وقد بلغ عدد خلفائها نحو سبعة وثلاثين خليفة، تعاقبوا على التوالى حكم هذه الدولة التى طال عمرها، واختلفت عصورها، وامتدت حتى سنة ٦٥٦هـ/ ١١٠٠م ؛ حيث سقطت على أيدى التتار، بعد أن عاشت خمسة قرون وربع قرن ؛ اختلفت فيها العصور قوة وضعفًا!



الدولـة العباسيــة

عبد الله أبو العباس السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (١٣٢-١٣٦):

١. بايع الناس لأبي العباس عام ١٣٢، وكان بذلك أول خلفاء العباسيين.وكان كريما معطاءا حافظا لكلمته وقورا.

٢. بدأ عهده بالقضاء على البقية من مقاومة الأمويين، فعين عمه سليمان على البصرة، وعمه اسماعيل على الأهواز، وعمه داوود على الكوفة وعمه عبد الله على جيش لقتال مروان الثاني، وأخيه أبو جعفر المنصور لقتال يزيد بن هبيرة.

٣. لم يتمكن أبو جعفر من هزيمة يزيد بن هبيرة فأعطاه الأمان، ثم لما وصل الأمان إلى أبي العباس، نصحه ابا مسلم بأن يقتله فقتله وهي من غدرات المنصور.

٤. قتل ابو العباس أبا سلمة الخلال الذي أراد أن يحوّل الخلافة إلى الطالبيين، بأن أرسل إلى أبو مسلم أن يقتله.

٥. **الأوضاع الخارجية:**

a. **الجبهة الصينية:**

i. استطاع العباسيون أن يردوا الصينيين عن بلاد ما وراء النهر وأن يؤمنوا خطوط تجارتهم إلى الهند.

b. **الجبهة البيزنطية:** كان نقل العاصمة من دمشق بعيدا عن الحدود البيزنطية عاملا في اضعلف المقاومة الإسلامية على الحدود الشامية، مما دفع البيزنطيين إلى التجرأ على المدن الإسلامية في الشام ووصلوا حتى الفرات وخربوا المدن والقلاع التي اجتازوها. وقد تكون رد فعل عباسي ازداد تدريجيا فعادت حركة الصوائف والشواتي، وأرسل أبو العباس حملات استردت ما استولى عليه البيزنطيون. ثم أعد جيشا كبيرا بقيادة عمه عبد الله بن علي لغزو آسيا الصغرى إلا أنه مات قبل إنفاذ الجيش.

٦. **الوزارة:**

a. كان نظام الوزارة نظاما قديما في فارس فأخذ به العباسيون بناءا على ما قرره دعاتهم من الخرسانيين. وقد كانت نوعين:

i. **وزارة تنفيذ:** وهي التي سادت في عصر قوة الخلفاء، والوزير في هذه الوزارة هو الذي يصل بين الخليفة والشعب. ومن أمثل هؤلاء: ابي مسلم الخرساني، وأبي سلمة الخلال، ثم خالد بن برمك الذي رفض أن يسمى وريرا خسية أن يلحق بابي سلمة الخلال.

ii. **وزارة تفويض:** وفيها يتنازل الخليفة للوزير عن سلطاته في التشريع، فيكون الوزير مفوضا لإتخاذ القرارات دون الرجوع إلى الخليفة، وهو ما ساد في عصر ضعف الخلفاء مثل آل برمك الذين استفحل أمرهم في عهد الرشيد فقضى عليهم.

٧. **وفاة أبو العباس:** مات بالجدري وعهد إلى أخيه المنصور عام ١٣٦.

عبد الله أبو جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله (١٣٢-١٥٨):

١. وقد ولد في الحميمة موطن أبيه محمد بن علي، وقد كانت أمه سلامة عربية الصل، وقد حظي بالعلم وكان أديبا فصيحا عالما. وقد عرف بالشدة والحزم وعدم التردد والإهتمام بالرعية والثبات عند الشدائد. وحكم فترة طويلة ٢٦ عاما توطدت فيها دولة بني العباس فكان هو مؤسسها الحقيقي.

٢. واجه المنصور **ثلاث** مشكلات محورية:

a. خروج عمه عبد الله بن علي في أهل الشام.

i. كان مما أزعج عبد الله بن علي ميل أبو العباس والمنصور للفرس، فاستخدم الجيش العربي الذي أعده للقاء البيزنطين لقتال ابن أخيه. وبايعه الجند على الخلافة.

ii. أرسل اليه أبو مسلم الخرساني لقتاله فقاتله في نصيبين وهزمه ففر إلى أخيه سليمان بن علي بالبصرة، ثم قبض عليه المنصور وحبسه ثم قتله عام ١٤٧.

b. أبو مسلم الخرساني:

i. تعاون الفرس مع العباسيين لما تعرضوا له من ظلم ايام الأمويين، ولإعادة القوة والعظمو لفارس كما كانت وقد نشأت حركة قوية تسمى بالشعوبية وهي معادية للعرب ومنها الشاعر بشار بن برد.

ii. حين راي الخرسانيون أن الدولة الجديدة لم تحقق ما أرادوه وأنها لا تزال تعتمد على العرب من أهل بيت الخليفة، بدأ التذمر. وقد حدثت بعض أمور عكرت صفو العلاقة بين أبي جعفر وأبي مسلم منها:

١. إمارة الحج عام ١٣٦ والتي ولاّها ابا العباس لأبي جعفر بدلا من أبي مسلم.

٢. قلل من هيبة المنصور وصار يقوي من مركزه أمام الناس

٣. لم يعطيه البيعة مباشرة بعد وفاة السفاح.

iii. كانت من التهم الموجهة اليه:

١. أنه خطب عمة المنصور وهو غير مقبول ان تتزوج العباسية غير العباسي.

٢. أنه إدعى النسب العباسي فزعم أنه إبن سليط بن عبد الله بن عباس.

٣. قتله سليمان بن كثير نقيب النقباء وغيره من زعماء القبائل.

٤. قراره بمخالفة الخليفة والسير إلى خراسان بدلا من مصر والشام.

iv. قرر المنصور التخلص منه، فأراد أن يفصله عن جنده ومركز سلطته فولاه مصر والشام ولكن أبا مسلم لم ينخدع لذلك، ورفضه، ثم دعاه المنصور لزيارته في المدائن ولكن ابا مسلم فطن للوقيعة ورفض الذهاب، إلا أن المنصور أرسل اليه يهدده ويوعده واستطاع رسول المنصور أن يقنع أبا مسلم بالذهاب لملاقاة الخليفة. ولما دخل عليه جرت بينهما مجاورة سياسية كانت أقرب إلى المحاكمة منها إلى المحاورة ثم خرج عليه الجند وقتلوه عام ١٣٧.

٧. الحركات الخارجية نتيجة مقتل أبي مسلم: ظهرت عدة حركات مجوسية قلبا وقالبا تدعو إلى الإنتفاض على العباسيين بل على المسلمين عامة مثل حركة سنباذ الذي أراد أن يهدم الكعبة. ولكن المنصور قضى عليه بعد شهرين فقط من الحركة عام ١٣٧. ثم تبعتها حركات أخرى مثل الراوندية وأستاذسيس، ولكن المنصور قضى عليها جميعا.

b. خروج الطالبيين:

i. خروج محمد بن عبد الله بن الحسن بن عليّ النفس الزكية في المدينة:

١. كان والده عبد الله بن الحسن قد جمع الطالبيين والعباسيين قبل سقوط الدولة الأموية، في الأنبار واتفقوا على أن يولوا النفس الزكية، فلما استلبها أبو العباس ثم المنصور لم يرض عن ذلك وقرر الخروج، بعد أن أمضى وقتا مختفيا للإعداد، وقد أخطأ في تقدير الظروف المحيطة، وقد أفتى الإمام مالك بالمدينة بأن لا بيعة لمكره، مما أعطاه غطاءاً شرعياً. ولكن المنصور حاوره في رسائل عديدة ثم قرر مواجهته وأرسل جيشا هزمه وقتله في رمضان.

ii. خروج إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن عليّ (أخو النفس الزكية)[١]:

---

[١] الإثنا عشر إماماً الذين يتخذهم الشيعة الإمامية أئمة لهم :

_ علي بن أبي طالب –رضي الله عنه – الذي يلقبونه بالمرتضى رابع الخلفاء الراشدين ، وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ٧١ رمضان سنة ٠٤ هـ.

_ الحسن بن علي رضي الله عنهما ، ويلقبونه بالمجتبى(٣–٠٥ هـ(

_ الحسين بن علي رضي الله عنهما ويلقبونه بالشهيد (٤– ١٦ هـ(.

_ علي زين العابدين بن الحسين (٨٣ _ ٥٩هـ) ويلقبونه بالسجاد .

_ محمد الباقر بن علي زين العابدين (٧٥ _ ٤١١هـ) ويلقبونه بالباقر .

_ جعفر الصادق بن محمد الباقر (٣٨ _ ٨٤١ هـ) ويلقبونه بالصادق .

_ موسى الكاظم بن جعفر الصادق (٨٢١ _ ٣٨١ هـ) ويلقبونه بالكاظم .

_ علي الرضا بن موسى الكاظم (٨٤١ _ ٣٠٢ هـ) ويلقبونه بالرضي .

١. كان النفس الزكية قد أرسل أخيه إبراهيم إلى البصرة للخروج في نفس اليوم إلا أنه كان مريضا فلم يخرج هذا اليوم. وقد كان قد التف حوله الكثير ممن لم يرضون عن العباسيين ومنهم الزيدية والمعتزلة والفقراء. واستطاع أن يسيطر على الأهواز والمدائن، إلا أن المنصور سيطر بنفسه على الكوفة لأهميتها.

٢. تلاقي الجيش الطالبي والعباسي عام ١٤٥، بقيادة عيسى بن موسى بن عم الخليفة وكاد أن ينهزم لولا أن إبراهيم أصيب بسهم قتله فتشتت الجيش وانتصر العباسيون.

٣. **المغرب العربي**: ضعفت قبضة العباسيين في المغرب العربي نتيجة بعد مركز الخلافة عنه مما أدى إلى خروج حركتين للخوارج، كانتا تناسبان الإتجاه البربري في المغربن وهما الحركة الإباضية والتي أنشات دولة في مدينة تاهرت التي أسسها مؤسس الدولة، وعمّرت مائة وثلاثين عاما، وأخرى هي إمارة سجلماسة الصفرية والتي عمّرت مائة وأربعين سنة. وقد حاول المنصور استعادة المغرب فاستطاع أن يستعيد القيروان إلا أنه لم يتجاوز أبعد من ذلك إلى داخل المغرب.

٤. **الدولة الأموية في الأندلس**: عاشت الأندلس جوا من الإضطراب في إبان الصراع العباسي الأموي متمثلا في الصراع اقيسي اليمني، مما جعلها مستعدة لتقبل أي تغيير للأصلح. وأثناء مطاردة العباسيين للأمويين بعد عام ١٣٢ هـ استطاع أحد الأمراء الأمويين وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، الذي عُرف باسم عبد الرحمن الداخل وباسم صقر قريش. وعندما بدأ الدعوة لقيام الدولة الأموية في الأندلس اصطدم بحاكم المغرب عبد الرحمن بن حبيب

ـ محمد الجواد بن علي الرضا (٥٩١ ـ ٠٢٢ هـ) ويلقبونه بالتقي .

ـ علي الهادي بن محمد الجواد (٢١٢ ـ ٤٥٢ هـ) ويلقبونه بالنقي .

ـ الحسن العسكري بن علي الهادي (٢٣٢ ـ ٠٦٢ هـ) ويلقبونه بالزكي

ـ محمد المهدي بن الحسن العسكري (٦٥٢ ـ ....) ويلقبونه بالحجة القائم المنتظر .

وكذلك بيوسف بن عبد الرحمن الفهري. التقى الجيشان في ١٣٨هـ وانتصر الداخل بعد أن عاونته العصبية اليمنية التي أرادت أن تنتقم لنفسها من القيسية الموالية للعباسيينن واستولى على قرطبة وأعلن قيام الدولة الأموية في الأندلس والتي استمرت في حكمها أكثر من ثلاثمائة عام. وقد كان المنصور يعبّر عن إعجابه بالداخل بعد أن فشل في القضاء عليه، وهو الذي أسماه صقر قريش.

٥. **الأوضاع الخارجية: البيزنطيون**: عمل المنصور على مهادنة البيزنطيين وإعادة بناء الثغور والحصون التي تهدمت، وستطاع أن يقوى الثغور الشامية والعراقية وأن ينشأ لها نظاما خاصا للإدارة والمال وأقام بها الآلاف من المرابطين المقاتلين، فأوقف الهجوم البيزنطي.

٦. **بناء بغداد**: من أهم منجزات المنصور هي بناء عاصمة الخلافة ودرتها بغداد (مدينة السلام). وقد كان المنصور يحكم من عدة مدن حتى تم بناؤها عند التقاء نهر الصراة[١] بنهر دجلة. وكان بناؤها من الأهمية للعباسيين بمكان إذ إنها ليست عاصمة الأمويين التقليدية دمشق، كما أنها ليست مركز الطالبيين في الكوفة، وهي مدخل للشرق الفارسي. وقد بنيت بغداد بشكل رائع يخدم الغرض الدفاعي وأحيطت بالماء من كل ناحية لجعلها كالجزيرة. وقد بنى بها قصره المعروف باسم قصر الخلد وأجرى اليه قناتين.وقيل أنها تكلفت ١٨ مليون ديناراً. وظلت بغداد عاصمة الدنيا وحليتها وموطن علمائها وفنها ومعبر تجارتها لقرون عديدة فسبحان مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء. ثم بنى بعدها مدينة الرصافة[٢] القريبة منها لإبنه المهدي.

[١] وهو الذي ذكره المتنبي في قوله:
أفما وجدتم في الصراة ملوحـــة
مما أرقرق في الفرات دموعي

[٢] وهي التي ذكرها الحلّي في قوله:
عيون المهى بين الرصافة والجسر
قتلننا من حيث ندرى ولا تدرى

٧. **شخصية المنصور**: وشخصية المنصور لا خلاف في قوتها وأنه رجل يثبت عند الشدائد، له ذكاء ودهاء شديد كما كان يصرف وقته في النظر في شؤون الرعية وتفقدأحوالهم والحكم بينهم. ولكن أُخذ عليه غدرات ثلاثك غدرته بأبي مسلم وغدرته بأبي هبيرة بعد أن أعطاه الأمان وغدرته بعمه عبد الله بن علي. ولكنه مع ذلك كما يقول البعض أن الغدر لم يكن له طبعاً إذ أنه أعطى أروى بنت منصور الحميرية عهدا حين تزوجها أن لا يتزوج غيرها، ثم أمضى عشر سنوات حتى ماتت يستجلب الفقهاء ليجد مخرجا من هذا العهد ولم يمكنه ذلك، فهذا رجل لم يكن الغدر طبعه. وكان فصيحا بليغا إذا خطب، وكان فيه حرص على المال.

٨. **وفاة المنصور**: بعد حكم دام ٢٦ عاماً وفي عام ١٥٨، أحرم للحج ولكن المرض داهمه في الطريق، فمات وأخذ كاتبه الربيع البيعة لولده المهدي ومن بعده بن عمه عيسى بن موسى الذي كان من المفروض أن يتولى الخلافة بعد السفاح، وتمت البيعة للمهدي في الحجاز وسائر الدولة بعد أن تعرض عيسى بن موسى للترغيب والترهيب من قبل المنصور حتى يتولى ابنه المهدي، فتنازل عيسى خوفا. وكان ولد المنصور ثمان وبنت واحدة.

محمد المهدي بن عبد الله (المنصور) بن محمد بن علي بن عبد الله (١٥٨-١٦٩):

أمه أروى بنت منصور الحميرية. ولد بالحميمة عام ١٢٦. أخذ المنصور له البيعة عام ١٤٧ بعد أن هذبه وعلّمه فنون الحكم والحرب. تزوج من بنت عمه ريطة بنت أبو العباس السفاح. وكان كريما ذكيا يراعي أحوال الرعية وينفي المظالم شديدا على أهل الإلحاد. بويع له بعد وفاة والده على يد الربيع بن يونس الحاجب.

تميز عهده بالإصلاح إذ اتخذ سياسة اللين بعد سنوات العنف التي سادت عهد من قبله. وكان اعتناؤه بالعدل غاية في الحسن، إذ اتخذ بيتا له نافذة مغطاة بقضبان الحديد

ليلقي الناس بمعاريض المظالم فيها فلا تضيع ولا تتأخر. وجلس بنفسه للقضاء فيها. وكان محبا للسنة وإن كان يعيش عيشة مترفة، فقد أعاد المنابر على ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أنه كان يعادي من يقع في الشيخين. وكان لا يشرب النبيذ وإن كان سمّاره يشربونه في حضرته وهو مباح في مذهب أبي حنيفة! كذلك كان يحب الأدب والشعر، ويحب العطاء للناس. وقد كان قد حبس موسى بن جعفر العلوي فكان في صلاته يوما فقرأ «فهل عسيتم إن توليتم...» فلما قضى الصلاة أمر بموسى فأحضروه، فسأله إني قد قرأت هذه الآية فأخاف أن أكون قد قطعت رحمك فهل تعطيني ميثاقا أنك لا تخرج عليّ فقال موسى نعم فأطلقه. كما وسّع في الحرم المكي والمسجد النبوي. كما أطلق السجناء السياسيين من زمن المنصور.

١. **الوضع الداخلي – الوزارة:**

a. **أبو عبد الله معاوية بن يسار**: اتخذت الوزارة في عهد المهدي وضعا هاما، إذ أن المنصور كان قد عيّن المهدي وزيرا له يعتمد عليه في كل شؤون الدولة ليدربه على الحكم، وكان له مستشارا وكاتبا (كانت وظيفة الكاتب ذات خطورة في ذاك الزمن) هو معاوية بن يسار أعلم الناس وأكثرهم بلاغة وفهما في عهده فكان المنصور يشير على ابنه بالإستماع اليه والإعتماد عليه، فلما تولى المهدي عينه وزيرا واعتمد عليه في الإدارة لدرجة كبيرة، وكان معاوية كفؤا لهذا وأهل له وكان عفيفا أمينا لا يرتكب ما يشين، وقد اتبع سننا مرضية في الخراج وألف أول كتاب في الخراج وقواعده قبل أن يصنف أبو يوسف صاحب أبو حنيفة كتابه «الخراج». ثم حدث أن أوقع الربيع الحاجب بمعاوية عند المهدي لأنه لم يعبأ به في أحد المقابلات، فأبلغ المهدي أن أحد أبناء معاوية زنديق لا يقرأ القرآن، فقتله المهدي، ثم استوحش معاوية من المهدي بعدها ومات عام ١٧٠ بعد أن خلعه المهدي عام ١٦١.

b. **يعقوب بن داود**: كان أبوه داود بن طهمان مولى للأمويين وكان كاتبا لنصر بن سيّار في خراسان، فلما ذهب ملك الأمويين، خرج يعقوب مع النفس الزكية وإبراهيم أخيه، ثم حبسه المنصور وأطلقه المهدي، ثم أراد أن يجد من يجمع عليه أمر الزيدية، فأوصى به أحد الهاشميين الذين أمضوا زمنا في الحبس معه للخليفة، فولاه الوزارة لمّا رأي من أهليته وعلمه. وبلغ داود منزلة عليا جعلت الوشاة به يوقعون بينه وبين الخليفة على أنه شيعي حتى قال بشار بن برد:

بني أمية هبــوا طال نومكـم
إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا
خليفة الله بين الناي والعود

وكتب المهدي للناس أنه اتخذه أخاً في الله، ولكن وشى السعاة عند الخليفة أن يعقوب كان يساعد صديقه العلوي الهاشمي ليستولي على الخلافة وأن نفوذ يعقوب غاية في القوة ويمكنه أن يجعل الناس يثورون ضد المهدي بجرة قلم، وكان أن أمر المهدي يعقوبا بأن يقتل ثائرا علويا، فمن عليه يعقوب بعد أن أبلغ المهدي بأنه قتله، فعرف المهدي واسنوحش من يعقوب ثم عزله عام ١٦٦.

c. **الفيض بن ابي صالح**: وكان من أهل بيت نصارى أسلموا وتولاهم العباسيون فكانوا أهل فضل وعلم وأدب، وكان الفيض جوادا سخيا عزيز النفس كبير الهمة، استوزر للمهدي حتى وفاته، ولم يستخدمه أحد بعد ذلك ومات هام ١٧٣ في عهد الرشيد.

d. انشأ المهدي ديواناً جديدا يكون لصاحبه الرقابة على كل الدواوين «ديوان الأزمّة». وعيّن كذلك صاحبا لكل ديوان من قبل الحكومة.

٢. **الحركات المعادية للعباسيين:**

a. **الزنادقة:** الزندقة كلمة كانت خاصة بأتباع المجوس والزرادشتية والمانوية، ثم عمّت الملحدين وطوائف من الخلعاء والمجّان من المغنين والشعراء، كما شملت الشعوبيين.

b. حارب المهدي الزندقة وأفكارها التي تناهض الإسلام وتدعو للثنوية (عبادة النور والظلمة) وقد انتعشت هذه الدعوة في عهد العباسييى لعدة عوامل منها الحرية الفكرية التي سادت الدولة الإسلامية، وكذلك ما رآه الفرس من أن مخططهم للعودة إلى السيطرة على الدولة الإسلامية عن طريق مساندة العباسيين لم تجدي نفعا، فلجؤوا إلى طريق نشر الإلحاد للقضاء على الإسلام. وكان المهدي من أشد الناس عليهم حتى أنه أنشأ ديوانا خاصا بأهل الإلحاد وعيّن له مديرا خاصا سمّاه «صاحب الزنادقة».

c. **حركة المقنّع الخرساني ١٥٩-١٦١:** خرج المقنّع في مرو بخراسان واعتمدت على إدعاء ألوهيته وعلى القول بالتناسخ والحلول، واتبعه الكثير من الناس ولكن المهدي أرسل اليه سعيد الخرشي فحاربه ولما علم أنه سيهزم حرق نفسه، وقيل شرب السم هو وكلّ أهله.

d. **العلاقة مع الأمويين في الأندلس:** شجع المهدي الحركات المناهضة لعبد الرحمن صقر قريش ومن أخطرها حركة سليمان بن يقظان الذي اتفق مع عبد الرحمن بن حبيب الفهري والي المغرب وحسين بن يحي الأنصاري والي سرقسطة. والخطورة تكمن في أن سليمان هذا أرسل يستعين بشارلمان للقضاء على عبد الرحمن، ولم يدرى أن استعانته بالكفار هي من الرزايا التي لا تغتفر. ولكن عبد الرحمن استطاع أن يقضي على جيوش عبد الرحمن بن حبيب الفهري، ثم أعلن بعدها حسين بن يحي الأنصاري خروجه من المؤامرة لأنه أدرك بشاعة الخيانة للمسلمين بالولاء للكفتر، وأغلق ابواب سرقسطة في وجه قوات شارلمان، ثم

قامت ثورة السكسون في ألمانيا ضد شارلمان، فاضطر للعودة وفشلت الحملة ضد صقر قريش.

e. **العلاقة مع البيزنطيين**: تولى ليو الرابع العهد في نفسالعام الذي تولى فيه المهدي، واستمرت الأمور في سلام بينهما لفترة حتى أنهما تبادلا إطلاق الأسرى، ولكن ليو بدأ الحملة مرة أخرى على أرض المسلمين، عام ١٥٩، فرد المهدي بحملة كبيرة بقيادة عمه العباس بن محمد وصلت إلى أنقرة. ثم أتبعها بحملة بقيادة ثمامة بن الوليد رد عليها ليو بحملة غزت مرعش، فأرسل المهدي جيشا كبيرا بقيادة الحسن بن قحطبة وتغلغل في أراضي البيزنطيين فأثبت وجودا اسلاميا قويا، ثم وجّه المهدي ابنه هارون (الرشيد) قاصدا القسطنطينية، ثم مات ليو وتولت زوجته ايرين الحكم كوصية على ابنه قسطنطين، مما أضعف الإمبراطورية، فتصالحت مع هارون على تؤدي اليه جزية وأن تسهل أمور التجارة وأن يستمر الصلح ٣ أعوام.

٣. **وفاة المهدي**: توفي المهدي عام ١٦٩ بسبب حادث صيد وقيل أنه تناول السم بطريق الخطأ، وقد كان قبل موته قد خلع عيسى بن موسى! وولى ابنه الهادي ومن بعده ابنه هارون الرشيد.

موسى الهادي بن محمد (المهدي) بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله (١٦٩ – ١٧٠):

١. وأمه أم ولد تدعى الخيزران. وكان قوي الجسم أديبا سخيا ولكنه نشأ مترفا وحمل على أخيه الرشيد وأمه الخيزران لأنها نصحت أباه أن يولي الرشيد بدلا منه لرفقه بها أكثر من الهادي ولشدة ذكائه، وكان محباَ للغناء فقرّب اليه ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق المغنيان العراقيان. وكانت فيه حدّة وشراسة طبع. وكان شديد الغيرة على نسائه كما ينبغي في السنّة كما عرف عن سليمان بن عبد الملك، وكانت أمّه الخيزران تعودت من زمن أبيه أن يكلّمها الناس في حاجاتهم وأن تقضيها لهم فكان يقصجها القواد والصحاب الحوائج، فلمّا ولي الهادي، منعها من ذلك وكلمها كلاما شديدا

أن «لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربن عنقه ولآخذن ماله فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؟! اما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك؟! إياك ثم إياك فتحت بابك على مسلم أو ذميّ، فانصرفت لا تعقل ما تطأ ولم تنطق عنده بعدها بحلوة أو مرة».

٢. كان كأبيه شديدا على الزنادقة لا يتوانى عن قتلهم ومنهم رجل يدعى يزدان بن باذان وكان قد شبّه الحجاج ببقر يدوس على البيدر، فقال فيه العلاء بن الحداد الشاعر:

أيا أمين الله في خلقـــهووارث الكعبة والمنبـــر

ماذا ترى في رجل كافر
يشبـه الكعبة بالبيـــدر

ويجعل الناس إذا ما سعوا
حمرا تدوس البر والدوسر

فأمر به الهادي فقتل.

٣. **العلاقة مع الطالبيين**: انتهت الهدنة التي كانت بين الطالبيين وبين العباسيين بوفاة المهدي، فقام عليهم الهادي وقطع صلاتهم وتجسس عليهم

a. **خروج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي**: وكان ممن تطلع إلى الخلافة واعتبر العباسيين ممن غصبوها من الطالبيين. فخرج في المدينة واستولى عليها ثم خرج إلى مكة ليستولى عليها غير أن المكيين لم يستجيبوا له. وأرسل الهادي جيشا قضى عليه في مكان يدعى فخ وسموه :قتيل فخ». وهرب من الطالبيين يحيي وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن (ابناء عم الحسين بن علي) وأسس إدريس دولة الأدارسة في المغرب واتجه

يحيي إلى المشرق.

٤. **وفاة الهادي**: أراد الهادي أن يخلع أخاه الرشيد وأن يولى ابنه جعفرا، ولكنه لم يتمكن من ذلك وساعد الرشيد في هذا يحيى بن خالد البرمكي (ستأتي سيرة البرامكة في عهد الرشيد) وكان ملازما للرشيد فاستدعاه الهادي فقال له أريد أن أخلع الرشيد، فقال يا أمير المؤمنين لا تفعل ولكن إجعلها لجعفر بعد الرشيد حتى لا يقول الناس أنك تلاعبت بالمواثيق، فرضى عن ذلك ثم مرض ومات في ٣ أيام وبايع الناس الرشيد.

هارون (الرشيد) بن محمد (المهدي) بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله (١٧٠-١٩٣):

وتعتبر فترة حكمه نادرة في التاريخ الإسلامي، واختلطت الحقائق فيه بالأساطير والقصص، وذاع صيته في الآفاق وتقرب اليه الغربيون وكان ذو شخصية متناقضة هي السمة العامة للشخصية القوية الوثابة الذكية فقد عرفت عنه الشدة والقسوة في الإنتقام وحدة المزاج، وعرف عنه التأثر الشديد وسرعة البكاء والرحمة والعطف، وهذا ليس غريبا في عالم النفس، فإن النفس تحتاج إلى موازنة لعواطفها ومزاجها، فإن كان فيها إفراط في أمر من الأمور يعتريها في وقت من الأوقات، احتاجت أن تعالجه بضده في وقت آخر، فترى العنيف رحيما يذوب رحمة، وترى القاسي شفيقا يبكى لأقل الأمور وهذه هي سنّة الله في خلقه، وهكذا كان الرشيد. وأمه الخيزران. وكان معاصروه:

شارلمان في فرنسا، وإدريس بن عبد الله بن الحسن في المغرب ومن بعده ابنه إدريس، وعبد الرحمن الداخل في الأندلس وقسطنطين السادي (وأمه ايرين) في بيزنطة.

١. **الطالبيون**: أراد الرشيد أن يستمر في الهدنة التي كانت بين العباسيين والطالبيين في عهد أبيه المهدي لفترة ولكن الطالبيين لم ينسوا ما استقر في عقيدتهم من أحقيتهم بالخلافة.

a. **يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن**: في المشرق عام ١٧٦: وهو من الناجين من وقعة فخ أيام الهادي، وقد أراد الخروج على الرشيد فسيّر له جيشا في خمسين ألفا بقيادة الفضل بن يحيي بن خالد البرمكي، فاستمال يحيى بن عبد الله ورضي بالصلح وعاد يحيى مع الرشيد الذي أكرمه غاية الإكرام إلى حين ثم أمر جعفر فسجنه ثم أطلقه جعفر دون أمر الرشيد فكان من أسباب نكبة البرامكة.

b. **إدريس بن عبد الله بن الحسن بن احسن**: وتوجه إلى المغرب، واستطاع أن ينشأ دولة بمعاونة البربر، واشتدت قوته، وأراد غزو شمال أفريقيا فأرسل الرشيد رجلا إسمه سليمان بن جرير، فتصنع له ثم سمّه فمات عام ١٧٧، وخلفه بعده ابنه إدريس من أحد جواريه واستمرت دولة الأدارسة رغم الرشيد.

c. **موسى (الكاظم) بن جعفر (الصادق) بن محمد (الباقر) بن علي (زين العابدين) بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رضى الله عنهم أجمعين)**: سادس أئمة الشيعة: عرف الرشيد أن الناس يلتفون حوله فقبض عليه وسجنه حتى مات عام ١٨٣.

٢. **الخوارج**: خرج من الخوارج **الوليد بن طريف الشاري** وكان بطلا مغوارا شجاعاً، فاستولى على نصيبين فأرسل اليه الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني فحاوره وتلاقى الجيشان وخرج الوليد يرتجز:

أنا الوليد بن طريف الشاري

قسورة لا يصطلى بناري

جوركم أخرجني من داري

وبرز له يزيد بن مزيد، فتناجزا طول النهار ثم حانت فرصة ليزيد فضربه فأوقعه عن حصانه ثم تكالبوا عليه فقتلوه. وفيه تقول أخته الفارعة:

ألا يا لقومـــي للنوائب والردى
ودهر ملحّ بالكـــرام عنيفِ

ولليث كل الليث إذ يحملونـــه
إلى حفـــرة ملحودة وسقيفِ

ألا قاتل الله الحشا حيث أضمرت
فتى كان للمعروف غير عيوفِ

فإن يك أوداه يزيد بن مزيـــدٍ
فرب زحـوف لفها بزحـوفِ

٣. **المشرق**: ولّى الرشيد علي بن عيسى بن هامان أمر خراستن، ضد مشورة يحيى بن خالد وزيره، فاستبد بلناس وسلب أموالهم ووجه الهدايا الكثيرة إلى الرشيد فرضى عنه مع أن يحيى أبلغه بأن هذه الهدايا لابد وأن تكون أتت من مظالم، ثم خرج على عليّ هذا رافع بن الليث بن نصر بن سيّار (القائد الأموي) واستفحل أمره، فأرسل علي بن عيسى ابنه عيسى لقتاله فقتله رافع، ثم ظهر أن علي كان له مال كثير مخبّأ لم يطلع عليه الرشيد فعلم أنه خائن، فأرسل اليه جيش كبير بقيادة هرثمة بن أعين الشهير على أنه لمساعدته لقتال رافع إلا أنه خلعه وولى هرثمة وأمره أن يعيد الأموال المغصوبة إلى أهلها. واستفحل أمر رافع هذا حتى توجه الرشيد نفسه إلى خراسان لقتاله عام ١٩٣ ولكنه مات في طوس، وبقي رافع يهدد الدولة العباسية إلى أيام المأمون ثم أطاعه دون قتال.

٤. **البرامـكة**: وهي قصة خطيرة تبين مدى تغيّر أهواء الحكام وتبدل ولاءاتهم لمن يخدمهم حسب ما يبدو لهم من أوضاع جديدة. فاسرة البرامكة خدمت العباسيين زمنا طويلا، ورأسها هو و**خالد البرمكي** الذي كان يعمل مع أبو مسلم الخرساني، ثم تولى أمر العراق دون أن يكون وزيرا أيام أبو العباس السفاح بعد مقتل أبو سلمة الخلال وتركه المنصور كذلك في منصبه وولاه الموصل حتى

مات عام ١٦٣ في خلافة المهدي، وكان ابنه **يحيى بن خالد** ممن تربى في ظل العباسيين وكان من أكثر الناس أدبا وعلما وإخلاصا للرشيد وولاه المنصور من قبل أذربيجان عام ١٥٨ وهو الذي أشار على الهادي أن يترك بيعة الرشيد في موضعها وأشار على الرشيد ألا يتنازل لجعفر بن الهادي بعد أن أوشك على ذلك. وقد قام مع أم الرشيد الخيزران بشؤون البيعة له بعد وفاة الهادي وعادت للخيزران قوتها وكانت تستشير يحيى فيكل الأمور كذلك الرشيد الذي ضم له خاتم الخلافة فأصبح يسمى «صاحب الرياستين». وكان ليحيى أربعة أولاد هم من درر الدنيا وعيونها:

a. **الفضل بن يحيى**: وهو من عمر الرشيد، وقد أرسله الرشيد لقتال يحيى بن عبد الله بن الحسين، فاستطاع أن يستميله دون قتال وعرف له ذلك الرشيد، فأكرمه إكراما عظيما وجعله معلما ووصيا على ابنه الأمين وولاه خراسان ومدحه الشعراء كما يمدحون الخليفة ومن أشهرهم مروان بن أبي حفصة الشاعر وفيه يقول:

إن الجواد بن يحيى الفضل لا ورقٍ
يبقى على جود كفيه ولا ذهـــــبُ

كم غاية في الندى والبأس أحرزها
للطالبين مداها دونها تعـــــــبُ

ولا الرضا والرضا لله غايتـــــه
إلى سوى الحق يدعوه ولا الغضبُ

قد فاض عرفك حتى ما يعادلـــه
غيثٌ مغيثٌ ولا بحـــــر له حدبُ

b. **جعفر بن يحيى**: وكان قمة أبناء برمك، وكانت له منزلة عظيمة عند الرشيد تحكيها كتب السير إذ كان لا يجلس لسمر أو حديث إلا ومعه جعفر وأخته العباسة بنت المهدي حتى شاع أنه زوجها له سرا حتى يمكن أن يدخل عليها في حضرة الرشيد بلا مانع، وهو أمر أنكره العارفون بالسير وإن كان في كتب الأدب. وكان جوادا فصيحا بليغا سخيا أكثر مما يحتمله الوصف. وقد ولاه الرشيد مصر عام ١٧٦. ثم ولاه الشام بعد أن خرجت عليه فاستطاع إخضاعها ثم استشفع الرشيد في أهلها أن لا ينتقم منهم. وقد جعله معلما لإبنه المأمون وتنضح كتب الأدب مثل الأغاني وعيون الأخبار والأمالي بأخبار جعفر والعباسة والرشيد ولياليهم وقصصهم.

c. **موسى بن يحيى**: وكان قائدا محنكا وشجاعا استطاع أن يخمد ثورة الشاميين مع أخيه جعفر

d. **محمد بن يحيى**: وكان بعيد الهمة مقداما إلا أنه لم يكن مشهورا كإخوته

e. **نكبة البرامكة**: وطبيعة الملك الإستبداد كما وصفه بن خلدون، والمَلك لا يقبل الشركة ولا يحتمل القرين مهما كان له عليه من فضل فهو يخشى قوة من ساعده أن تنقلب عليه في يوم من الأيام، وقليل من الوزراء والمساعدين من وعى هذا الدرس فقلّص نفوذه طواعية ولم يوغر صدر الملك عليه، مثل معاوية بن يسار مع المهدي، إلا أنه لم ينج من بلاء في قتل المهدي لإبنه على الزندقة كما قيل له. وقد كانت العلاقة بين الرشيد وبين عائلة يحيى بن خالد من القوة بمكان عظيم، فالخيزران أم الرشيد أرضعت الفضل بن يحيى، كما كان يحيى بن خالد قائما بأمر الرشيد فكان الرشيد يدعوه أبي، ولكن الفضل كان متشبها بأبيه في فضله فلم يكن يشرب النبيذ مع الرشيد، وقال: لو أعلم أن الماء ينقص من مروءتي ما شربته. وكان جعفر أقربهم ودا ومنادمة للرشيد. وكان أبوه يحيى ينهاه عن مجالسة الرشيد إلى هذه الدرجة فهو يعلم طبع الملوك، ولكن دون جدوى.

وقد احتار الناس في السبب الذي أوقع البرامكة في النكبة المشؤومة، فظنوا أنها وليدة حادثة بعينها، إلا أنها وليدة أمور تراكمت، فقيل هي بسبب حادثة يحيى بن عبد الله بن الحسن الذي أمر الرشيد بحبسه بعد أن استطاع الفضل أن يثنيه عن القتال، ثم أخرجه جعفر دون إذن الرشيد الذي أعلمه بذلك الفضل بن الربيع بن يونس. والربيع بن يونس كان حاجبا للمنصور كما سبق وكذلك للمهدي وهو والذي دبر موضوع ابن يعقوب بن داود وجعل المهدي يقتله وسبب خلعه من الوزارة، وابنه الفضل بن الربيع من موالي العباسيين وكان ممن تطلع إلى القوة والسيطرة إلا أن الخيزران لم تمكنه إلى أن ماتت عام ١٨٠، فعينه الرشيد حاملا للخاتم وكان يحقد على آل برمك لمكانتهم. وقد وقر في نفس الرشيد أن البرامكة يقفون في صفّ العلويين ويفضلونهم عليه من هذه الواقعة. وقال البعض أنه مجرد الملل يصيب الملوك من طول العشرة فيريدون التغيير. وبدأت معاملة الرشيد تتغير ويلقي كلاما لا يرضاه يحيى بن خالد ويجعله يستأذن عليه بعد أن كان يدخل عليه بلا استئذان، فعلم يحيى أن امرهم تغيّر. وقد كانت كذلك زبيدة زوج الرشيد تكره جعفر لأنه كان يحسن له أمر المأمون دون ولدها الأمين، فخافت إن مات الرشيد أن يوقع جعفر بين الأخوين. وفي عام ١٨٦، بعد أن حج الرشيد، أمر فقتل جعفر وحبس يحيى بن خالد وابنيه الفضل وموسى، وأطلق محمد. وعن هذه الأخبار يحكى الأغاني عن المفضّل الضبيّ الشاعر حين أتاه رسول المهدي فامتقع وجهه وتطهر ولبس ثوبين للموت، فلما دخل عليه سأله عن عدة أبيات شعرية ثم سأله عن حاجة له وأمر له بثلاثين ألف درهم لقضاء دينه[١]. وقال العتابي حين سأله البعض: لم لا تتقرب من السلطان بأدبك؟ لأني رأيته يعطي عشرة آلاف في غير شيء، ويرمي من السور في غير شيء، فلا أدرى أي الرجلين أكون»! وقد عيّن الرشيد الفضل بن الربيع بن يونس وزيرا بعد البرامكة حتى مات الرشيد.

---

[١] الأغاني وضحى الإسلام ص٣١٠ج١

٦. **الحالة الإجتماعية والعلمية**: كان هذا حال السياسة، وإلا فيجب ألا ننسى أن الأدب والفقه والتجارة كانتا في أعلى حال وأغنى مآل. فقد اشتهر في هذا الزمان مالك بن أنس الذي توفي في عصر الرشيد ١٧٩، ثم الشافعي الذي توفي في عهد المأمون عام ٢٠٤ ، كما اشتهر في هذاه العصور ما لا يحصى من الشعراء الأفذاذ وأهل الحديث والزهاد ممن ابتدأت بهم حركة الصوفية، كما أتاح المناخ الفكريّ الحرّ ظهور العديد من رؤوس البدعة التي لم تصل إلى حد الكفر مثل واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد المعتزليين، والجاحظ الذي ولد في عهد المهدي ومات في عهد المهتدي ١٥٩-٢٥٥، كذلك عبد الله بن المقفع الأديب الفذّ الذي قتله المنصور على تهمة الذندقة التي لم تثبت عليه، وهو صاحب كتاب كليلة ودمنة والأدب الصغير والكبير وغيرها، وغيرهم ما لا يعد ولا يحصى من العلماء والأدباء. أما عن الحالة الإجتماعية، فقد كانت بغداد ملتقى الفقه والعلم والدين، ومحط الفجور والغناء والفحش على السواء كأي مدنية من المدنيات العظيمة. وكان في الناس من هو زاهد متعبد ومنعهم من هو مسيئ متعربد.

٧. **العلاقات الخارجية:**

a. **الدولة البيزنطية**: اتسمت العلاقة بين الرشيد والدولة البيزنطية بعدم الإستقرار فقد نقض نقفور امبراطور البيزنطيين عهد ايرين وصلحها، بعد أن **هزمهم الرشيد في عهد أبيه المهدي،** وكان «نقفور» قد نقض العهد الذى أعطته الملكة «إرينى»، التى كانت تحكم الروم قبله، وأرسل إلى هارون الرشيد رسالة يهدده فيها: «من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب: أما بعد؛ فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرَّخ (طائر خرافى يعرف بالقوة)، وأقامت نفسها مقام البَيْدق (يعنى مقام الضعيف)، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أضعافه إليها، لكن ذلك لضعف النساء

وحمقهن، فإذا قرأتَ كتابى هذا، فاردد ما حصل لك من أموالها، وافتدِ نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك».

فلما قرأ الرشيد الرسالة غضب غضبًا شديدًا حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه، فدعا بدواة وكتب إلى نقفور ملك الروم ردًا على رسالته يقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام».

وقاد بنفسه جيوشًا جرارة، ولقّنه درسًا لا يُنسى، فعاد إلى أداء الجزية صاغرًا، بعد أن خضع أمام قوة المسلمين وعزة نفوسهم.

وجاء فى فتوح البلدان للبلاذرى: «وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هارون فى الغزو، ونفاذ بصيرته فى الجهاد أمرًا عظيمًا، وأقام من الصناعة (الأسطول) مالم يقم قبله، وقسم الأموال فى الثغور والسواحل، وهزم الروم وقمعهم».

وسمى الرشيد «جبار بنى العباس»؛ لأنه أخرج ابنه القاسم للغزو سنة ١٨١هـ، فهزم الروم هزيمة منكرة، أدخلت الرعب فى قلوبهم، فصالحه الروم على أن يرحل عنهم فى مقابل أن يعيدوا إليه كل من أسروهم من المسلمين قبل ذلك، وكان هذا أول فداء فى الإسلام بين المسلمين والروم.

وأرسل «على بن عيسى بن ماهان» لغزو بلاد الترك، ففعل بهم مثلما فعل القاسم بن الرشيد بالروم، وسبى عشرة آلاف، وأسر ملكيْن منهم. ثم غزا الرشيد نفسه الروم وافتتح هرقلية، وأخذ الجزية من ملك الروم.

b. **دولة الفرنجة (شارلمان)**: أما علاقة الرشيد بالفرنجة وملكها شارلمان فقد قيل الكثير عن البعثات التى تبادلاها وأنه كانت بينهما علاقة طيبة وأن ذلك لما كان لهما من مصلحة مشتركة في الوقوف ضد الأمويين في الأندلس كما تقاربت الدولة الأموية مع البيزنطيين لذات السببب، ولكن لم يثبت من هذا الكثير

وثبت أنه الرشيد أهدى شارلمان فيلا هدية، وأنه كانت هناك علاقة بين ملك الفرنجة وبين بطريرق النصارى في بيت المقدس وأن الرشيد أمّن شارلمان على حجاج النصارى إلى بيت المقدس، وامتاز عهد الرشيد بمستوى رفيع من التسامح الديني، فقد أهدى البطريرق «شارلمان» وهو إمبراطور المسيحيين في ذلك الوقت مفاتيح «كنيسة القيامة»، كما سمح له ببناء مستشفى فيها، ومكتبة جمعت كثيرًا من الدراسات المسيحية، وقد كان هذا التسامح سمة كل العصور الإسلامية قاطبة.

٧. **شخصية الرشيد**: وقد كان الرشيد من الشخصيات التاريخية التي لا يجود الزمان بمثلها كثيرا، فقد كان متدينا يلتزم بالتكاليف الشرعية، ثر الصلاة يوميا، كما كان يحج عاما ويغزو في سبيل الله عاماً، فحجّ ٩ أعوام وكان يرسل ٣٠٠ رجل على نفقته في العام الذي ينشغل عنه بالغزو مع فقهائه وأسرهم، وقد قاد غزوات عديدة بنفسه على الدولة البيزنطية وكان يقتحم الصعاب ويقف في المواقف الخطرة قبل جنوده. وكان ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المراء فى الدين، ويسرع الرجوع إلى رحاب الحق إذا ذكر. حدث أنه حبس أبا العتاهية الشاعر، ووكَّل به رجلا يكون قريبًا منه لينظر ما يقول ويصنع، فكتب أبو العتاهية على الحائط:

أما والله إن الظلم لؤم
وما زال المسيء هو الظلومُ

إلى ديان يوم الدين نمضى
وعند الله تجتمع الخصوم

فجاء الرجل فأخبر هارون الرشيد، فبكى الرشيد، وأطلق أبا العتاهية واعتذر إليه واسترضاه. وحج ذات مرة، فرآه الناس وقد تعلق بأستار الكعبة يقول: «يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمير الصامتين، صلّ على محمد وعلى آل محمد،

واغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا؛ يا من لا تضره الذنوب، ولا تخفى عليه العيوب، ولا تنقصه مغفرة الخطايا، صلّ على محمد وعلى آل محمد، وخِره لى فى جميع أمورى. يامن خشعت له الأصوات بأنواع اللغات، يسألونه الحاجات، إن من حاجتى إليك أن تغفر لى ذنوبى إذا توفيتنى، وصُيِّرت فى لحدى، وتفرق عنى أهلى وولوا؛ اللهم لك الحمد حمدًا يفضل كل حمد، كفضلك على جميع الخلق؛ اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون له رضا، وصلّ عليه صلاة تكون له ذخرًا، واجزه عنا الجزاء الأوفى. اللهم أحينا سعداء، وتوفنا شهداء، واجعلنا سعداء مرزوقين، ولا تجعلنا أشقياء مرجومين».

٨. **ولاية العهد**: وقد أخذ البيعة لإبنه الأمين عام ١٧٥ وهو أصغر من أخيه المأمون وذلك بتأثير من أم الأمين زبيدة بنت جعفر بن المنصور ابنة عم الرشيد، ثم بايع للمأمون بن مراجل (أم ولد) عام ١٨٣ بتأثير من جعفر بن يحيى البرمكي ومن بعدهما القاسم المؤتمن بتأثير من عبد الملك بن صالح مربيه عام ١٨٦. وقد ولّى الرشيد المأمون خراسان وكافة أعمال المشرق، وولى المؤتمن الجزيرة والثغور وكان الأمين في الخامسة من عمره حين ولاّه أبوه العهد. وقد خشي الرشيد من الصراع بين ابنيه فأخذ البيعة وعلّقها في الكعبة حين حجّ عام ١٨٦. ولكن ذلك لم يمنع ما حدث بينهما بعد.

٩. **وفاة الرشيد**: خرج الرشيد إلى قتال رافع بن الليث، ولكن المنية وافته في طوس عام ١٩٣

محمد (الأمين) بن هارون (الرشيد) هارون بن محمد (المهدي) (١٩٣–١٩٨):

١. **الأمين**: تمت البيعة له بعد وفاة الرشيد، وأمه زبيدة ابنة عم الرشيد، وهو عربي أصيل. وقد استمر في الخلافة ٥ سنوات كانت كلها حرب بينه وبين أخيه المأمون حتى قتل وعمره لا يتعدى ٢٨ عاما!

٢. **الأزمة**: تأزمت الأمور بين الأخوين بمجرد تولى الأمين الخلافة. ومن الضرورى أن نشير إلى أنه كانت هناك أسباب عديدة أدّت إلى هذا العداء القاتل بينهما، نذكرها فيما يلي:

a. **ولاية العهد**: وقد ارتكب الرشيد أخطاءاً عدة في هذا الأمر، أولها أنه اتبعَ رأياً فاسداً يقول بأحقية من أمّه عربية على غيره، واستمع لوسوسة زبيدة في هذا الشأن، فولى الأمين وهو أصغر من أخيه المأمون، ولمّا أراد أن يصلح ما فعل أعطى المأمون السيطرة على ولايات كثيرة وقوية ممّا قوّاه ومنعه بين من هم أحرياء أن يمنعوه من أهل رحمه من فارس إذ أن أمه فارسية. ولم ينفعه ما كتب من أمان وعهد وعلّقه على الكعبة وأشهد عليه الناس، ثم عيّن أخا ثالثا لهما فوسّع رقعة الخلاف. ثم أمر آخر وقع فيه الرشيد وهو عدم كشفه لأمر الفضل بن الربيع، الذي أغراه بنكب البرامكة مع فضلهم وإخلاصهم ثم تعيينه بدلا منهم، والفضل هذا هو من أفسد الأمر من بعد بين الأخوين، ثم أمر اشترك فيه كل خليفة بل كل صاحب ملك وهو انشغالهم بتعيين أبنائهم من بعدهم، فلم يعتبر منهم أحد بما في ذلك من خطر على الأبناء للمنافسة بينهم من ناحية وبين أبناء العائلة الواحدة من جانب آخر، ولكن قليلٌ من اتعظ بغيره.

b. **العصبية العربية والفارسية**: وأثرها واضح في الصراع الناشئ بين الأخوين، إذ تحيّزت للأمين عصبية عربية تمثلت في **الفضل بن الربيع** بن يونس رغم أنه أصلا من موالى كيسان وكان جده مولى لعثمان، وكان الفضل وزيرا وناصحا للأمين، ووقف بجانب المأمون الخرسانيون وعلى رأسهم أبو العباس **الفضل بن سهل** السرخسي، نسبة إلى مدينة (سرخس) بخراسان. وهو وزير المأمون وصاحب تدبيره. اتصل به في حياته وأسلم على يديه سنة ١٩٠ هـ وكان مجوسيا، وكان حازما، من الأكفاء. وقد كان يحلم بإعادة القوة إلى

خراسان وأن تنتقل العاصمة إلى مرو، حيث كان المنصور يتخذها عاصمة لبعض الوقت قبل إنشاء بغداد.

c. **أثرالحاشية السيئة:** وتمثلت في النصيحة السيئة للفضل بن الربيع هو وعلي بن عيسى بن ماهان للأمين أن يخلع أخاه المأمون ومن قبله أخيه المؤتمن.

٣. **النزاع بين الأخوين:**

a. **الفترة الأولى السلمية:** وكانت تتمثل في مكاتبات بينهما بدأت بمحاولة كلّ منهما أن يظهر الود والأمان لأخيه، إلا أن الأمين كان قد عزم على الغدر منذ اللحظة الأولى، بل إنه قد صرّح بهذه النية للفضل بن الربيع بعد أن حلف اليمين في مكة في حضرة أبيه الرشيد! وما أن تمت البيعة له حتى بدأ في محاولة سلب أخيه المأمون من سلطته فأمر من كان مع المأمون في طوس حين وفاة أبيه من القواد بالتوجه إلى بغداد بعدتهم وعتادهم، ففعل الكثير منهم مما أحزن المأمون ولكن الفضل بن سهل أقنعه بأن الأمر لم يخرج من يدهم بعد، وأنه سيفعل كل ما يمكن ليضمن له ولاية العهد. ثم استمرت المكاتبات بين الأخوين، وأرسل المأمون العديد من الهدايا العظيمة لأخيه دلالة على ولائه له، ولكن الأمين كان مدفوعا بفكرة التخلص من أخويه، فنزع ولاية العهد من أخيه القاسم المؤتمن وأخذ ما في يديه من ولايات وأموال. فلما علم ذلك المأمون عرف أن هذا الأمر لابد وأن ينتهى إلى نهاية غير سعيدة، ثم وسوس الفضل بن الربيع للأمين أن يرسل وفدا إلى المأمون يدعوه إلى خلع نفسه وأن يتنازل عن ولاية العهد لموسى بن الأمين، إلا أن الأمين رفض وأبى ذلك، ولمّا بلغ ذلك الأمين غضب، وأشار عليه الفضل أن يخلع أخاه علانية ثم بعث الفضل إلى مكة فأحضر كتاب الرشيد ومزقه، وكان ذلك من الأخطاء الجسيمة إذ أن والى مكة وكبارها كانوا ممن شهدوا عليه، فنزعوا يدهم من طاعة الأمين. وقبل أن يعلن الأمين خلع أخيه أرسل اليه أن يتنازل له عن بعض ولايات الشرق

ليديرها هو ويعين عليها بعض عماله، فأشار بعض حاشية المأمون عليه بالموافقة إلا أن الفضل بن سهل رفض وأقنعه بعدم الموافقة فرد الوفد، ثم حاول الأمين مرة أخرى أن يفرض سيطرته على كور خراسان فأرسل إلى عامل المأمون على إحدى المدن أن يرسل له بعض الطرف ففعل، فعزله المأمون، ثم أمر الأمين أن لا يدعو الخطباء للمأمون وأن يدعو لإبنه موسى، وأعلن خلعه، فخلعه المأمون ومسح إسمه من الكتب، وبدأ كل فريق يستعد للحرب التي أصبحت لا مفر منها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

b. **الفترة الثانية العسكرية**: جهز الأمين جيشا بقيادة علي بن عيسى بن ماهان لقتال المأمون، وكانت تلك غلطة أخرى من غلطاته، إذ أن الخرسانيون يكرهون عيسى منذ أن كان واليا عليهم أيام الرشيد، وأخرج المأمون جيشا بقيادة طاهر بن عيسى الخزاعي، وتلاقى الجيشان قرب مدينة الري وتقاتلا قتالا شديدا وانهزم جيش علي بن عيسى ثم قتل، وبلغ ذلك الأمين، فجهز جيشا آخر وأمّر عليه عبد الرحمن بن جيلة الأنباري وتلاقى الجيشان وانهزم جيش عبد الرحمن، ثم حاول الأمين أن يثير نخوة العرب فأرسل إلى أحمد بن مزيد بن يزيد (الذي قتل الوليد بن طريف الشاري الخارجي) فجهز له جيشا وأمره بالخروج فخرج وعسكر في حلوان، ولكن طاهر استطاع أن يبث جواسيس توقع بين جند أحمد حتى تقاتلوا فيما بينهم وانهزموا دون قتال طاهر، وكان المأمون قد أرسل جيشا بقيادة هرثمة بن أعين (قائد الرشيد) لمساعدة طاهر وحصار بغداد، وقد حاول الأمين كذلك أن يجمّع جيشا من العرب في الجزيرة إلا أنه لم يفلح، وحوصرت بغداد عام ١٩٦ واشتد الحصار على أهلها وخربت المدينة وانتشرت الجريمة إذ أن الأمين استعان بالمساجين لتكوين جيش فعاثوا فسادا، وكتب كثير من الشعراء في وصف المعاناة التي عاناها أهل بغداد ومنهم عمرو بن عبد الملك الوراق:

من ذا أصابك يا بغداد بالعيـــن
ألم تكونـــي زماناً قـرة العيـــنِ

ألم يكن فيك قوم كان مسكنهـــم
كـــم قربهمُ زينـــا من الزيـــنِ

صاح الغراب بها بالبين فافترقت
ماذا لقيت بهم من لوعة البيـــنِ

أستودع الله قومـــاً ما ذكرتهـــم
إلا تحدر مـــاء العين من عيني

كانوا ففرقهم دهـــــر وصدّعهم
والدهر يصدع ما بين الفريقيـــنِ

ولمّا فقد الأمين ماله وتعذر الحال في بغداد نصحه الناس أن يطلب الأمان لنفسه وأن يسلم، فرضي أن يسلم نفسه إلى هرثمة إذ أنه علم أن طاهر لا يرحم، ولكن طاهر أرسل مجموعة من الخرسانية قبعوا له عند خروجه في مركب هرثمة وقتلوه.

٤. **خلق الأمين**: لا شك أن الأمين كان يضمر الغدر بأخيه وأنه لم يحفظ عهد أبيه، ثم أنه لم يلقي بالا للحكم، فبينما المأمون يجالس العلماء والفقهاء ويجدير أمور ولاياته، كان الأمين يجلس للشراب والغناء ويبذر المال بلا حساب، فكانت نهايته ما كانت، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

عبد الله (المأمون) بن هارون (الرشيد) هارون بن محمد (المهدي) (١٩٨–٢١٨):

١. **المأمون**: هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد وأمه مراجل الفارسية (أم ولد) ن ولي العهد عام ١٨٣ ثم بويع بالخلافة عام ١٩٨ بعد مقتل أخيه الأمين. وكان محبا للعلم والعلماء، ولكن يجب التنويه بخلفيته التي تربى فيها لمعرفة الأسباب التي أدت إلى ما دار في زمانه. فقد كان الرشيد قد وضع المأمون في حجر جعفر

البرمكي يربيه ويرعاه، فلما مات تولاه الفضل بن سهل ولازمه ووجهه. وقد كان كلا من جعفر والفضل من المتشيعين، وأصحاب الهوى العلوي، ويجب أن ندرك أن الهوى العلوي هنا ليس محبة في سنة ولا تقربا إلى الله فإن غالب الرافضة ممن تعصب للبيت العلوي ولكن لأن ذلك كان مدخلا لهم لإعادة القوة إلى فارس حيث أن العقيدة الفارسية وجدت طريقها إلى العقيدة الإسلامية من خلال النظرة إلى أولاد علي ورفعهم إلى مرتبة الآلهة فتبنوا الدعوة العلوية، وزينوا لأبناء عليّ الخروج وكان أتباعهم ممن اختلط أمرهم، فأكثرهم من ذووا الأهواء الرافضية ومنهم من أخلص للدعوة. كذلك فلا يخفى أنهم اتخذوا الشعار الأخضر وهو شعار الفرس بدلا من الأبيض الذي كان لباس عليّ وأبنائه. كان هذا هو الجو الذي أحاط بالمأمون فكان هواه علويا رغم أنه عباسيّ أصيل. وكان لذلك أكبر الأثر على مجريات الأحداث.

٢. **الحاشية**: سبق أن ذكرنا أن الفضل بن سهل كان الناصح الأمين للمأمون، وأنه هيأ له سبل النجاح لتولى الخلافة، إلا أن ذلك كان لغرض الوصول إلى مطامعه، وكان أن أراد المأمون أن يجازى الفضل فولاه كل أمره وأصبح هو لا قوة له ولا أثر، وسماه «ذو الرياستين» أي رياسة السيف والقلم، ولكن الفضل نصح المأمون أن يظل بخراسان وأن لا يعود لبغداد، وذلك تمهيداً لنقل الخلافة إلى مرو كما دبّر كما كانت أهواؤه الفارسية لا تخفى إذ كان قد جعل لنفسه كرسي ذو جناحان يجلس عليه ويحمله عليه الرجال وهي عادة كسروية. وقد كتم عن المأمون كل مجريات الأحداث في بغداد وفي أنحاء الدولة ليصرفها بمعرفته. وكان أول ما فعل أن أبعد القائدين العظيمين هرثمة بن أعين وطاهر بن الحسين.

٣. **الحركات المعادية للعباسيين:**

a. **حركة أبي السرايا**: وهي حركة علوية دعت إلى محمد بن إبراهيم بن إسماعيل من ولد الحسن بن علي، خرج في بالكوفة، وقد انتهز مؤسسها أبو السرايا

السري بن منصور الشيباني الصراع الدائر بين الأمين والمأمون وغلب على البصرة والحجاز واليمن ولكن كانت حركته تتسم بإراقة الدم والعنف وقد أرسل الفضل بن سهل جيشا بقيادة زهير بن المسيب فغلبه أبو السرايا الذي كان قائدا في جيش هرثمة من بل ثم تركه لمّا تأخرت رواتبه. ثم أرسل الفضل جيشا آخر بقيادة عبدوس بن محمد المروزي ولكن أبو السرايا هزمه كذلك، ولمّا علم الفضل بذلك لم يكن له بد من أن يدعو هرثمة بن أعين مرة أخرى ويطلب منه مواجهة أبو السرايا خاصة وأن شرّه استفحل وضاق أهل مكة والمدينة بأفعاله، ومن معه ممن ينتسب للطالبيين حتى أنه خلع كسوة الكعبة وكساها بكسوة جديدة عليها شعارات معادية للعباسيين وكان قد قتل محمد بن إبراهيم وعين مكانه ولد من أولاد علي هو محمد بن محمد بن زيد العلوي. وأخيرا التقى هرثمة بجيش أبو السرايا فهزمه وقتل أبو السرايا بفضل الله سبحانه ثم قوة هرثمة وخبرته. ولكن الفضل لم يكن مخلصا في دعوة هرثمة للساحة مرة أخرى فكان لا يزال يوغر صدر المأمون عليه ويوهمه أنه يريد أن يخرج عليه وأن ينصر عليه غيره من بيت العباس، وصمم هرثمة أن يرجع إلى خراسان ليقابل المأمون بنفسه ليخبره بما يدور في مملكته ولكن المأمون كان قد انخدع بأقوال الفضل فما أن دخل هرثمة خراسان قبض عليه المأمون وقتله دون وجه حق.

b. **محمد بن جعفر الصادق**: لمّا فقد الناس في الحجاز الأمل في المأمون أرغموا محمد بن جعفر الصادق على أن يولى نفسه وبايعوه بالخلافة في وقت أبو السرايا، إلا أنه لم يكن له من الأمر شيئ. ثم طلب الأمان من بعد حين انتهزم أبو السرايا وخلع نفسه في مكة أمام الناس.

c. **الأوضاع في بغداد**: كانت الأوضاع في بغداد تزداد سوءا بعد مقتل الأمين، وأمر الفضل كل من هرثمة وطاهر بالعودة إلى خراسان، إذ أنه كان لابد من وجود

قائد قوي يمسك بزمام الأمور فيها، فشاعت الفوضى واضطربت الأوضاع وعاش أهل بغداد أياما سوداء حتى خرج فيها رجلان أسس كلّ منهما حركة إسلامية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما: خالد الدريوش وسهل بن سلامة الأنصاري، فكون كل منهما فرقة من الرجال لحماية الناس وكف الرعاع، إلا أن الفرق بينهما أن خالداً كان يقصد معاونة السلطات في تحقيق الأمن، ولكن سهلاً كان يقصد إلى الأمر بالمعروف بعامة حتى على السلطان.

d. **بيعة عليّ الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق**: وهي ليست معادية للمأمون إذ هو الذي تولاها، فقد عرفنا هوى المأمون العلوي مما بلغ به أن يبايع علي الرضا من بعده، وقد كان قد نذر أن يعيد الأمر للعلويين إن ظفر بأخيه الأمين، فلما انتصر لم يكن أمامه إلا ذلك، ولبس الخضار وكتب البيعة لعليّ مما أثار حنق العباسيين وأهل بغداد عامة، كما أن علي الرضا لم يكن راغبا في هذا الأمر، فنصح للمأمون وبيّن له تآمر الفضل والأوضاع في بغداد وسائر المملكة نتيجة سياسة الفضل، وسأله أن يتحقق من هذا من قواده الآخرين، فأخبروه بصحة هذه الأنباء، وبأن هرثمة لم يرد إلا إصلاحا، بعد أن أمّنهم من بطش الفضل، فكان أن دبر المأمون قتل الفضل في حمامه على يد عدد من خدمه ويحكى أنه قتل الخدم بعد ذلك حتى يثبت أنه لم يوعز لهم بذلك، وعزى الحسن بن سهل أخي الفضل وعينه مكانه، ثم خرج متوجها إلى بغداد.

e. **حركة نصر بن شيث**: وهو قائد عربي خرج على الأمين لميله إلى الفرس، وقوي أمره واضطر المأمون إلى أن يندب لحربه طاهر بن الحسين بعد أن استرضاه وولاه وابنه خراسان والرقة ومصر وما ورائها، فحاربه طاهر وضيّق عليه الخناق، حتى اضطر إلى الإستسلام ولم يوافق على متابعة العلويين في دعواهم لهواه العلوي ثم تركه الخليفة.

f. **حركة الزط**: الزط هم جماعة من الموالى الذين رزحوا تحت وطأة الحكم الأموي أولا ثم الحكم العباسي ثانية وقد وجدوا الفرصة سانحة للثورة في إبان صراع الأخوين، ثم اشتدت شوكتهم وكانوا من الحزق بمكان فكانوا يختفون في الجبال والبراري حين مواجهة الجيوش، ولم يستطع المأمون أن يقضى عليهم حتى أيام المعتصم أخيه.

g. **مصر**: قامت في مصر اضطرابات بَدَتْ من عام ٢٠٦، حيث أجّج السري بن الحكم العداوة بين القيسية واليمنية، وساد مصر الإضطراب، فأرسل المأمون أخاه المعتصم ليتصدى للثورة في الصعيد، ونجح في إخمادها ولكن لم يقض عليها تماما فتجددت الإضطرابات مما جعل المأمون يتوجه بنفسه لمصر ويضع حدا للإضطرابات ويسبى العديد من النصارى ويعزل صاحب الخراج الذي تسبب في هذه الثورة.

h. **بابك الخرّمي**: البابكية حركة دينية الطبيعة سياسية المظهر، قصدت إلى هدم العقيدة الإسلامية لصالح عقيدة الفرس والمانوية القديمة، آمن أتباعها بالتناسخ، وبحل الحرمات وإباحة التمتع وأن الرسل كلهم يحملون روحا واحدة يتبادلونها! وأن الوحي لم ينقطع وأن كل من آمن بإله فهو ناج من أهل الجنة. وقد ظهر بابك عام ٢٠١، وقد اتبعه الكثير من الفرس وانتشرت دعوته في بلاد فارس ولم تنجح حملات المأمون في القضاء عليها، حتى وفاته.

٤. **الحياة الفكرية والعلمية في أيام المأمون**: كانت فترة حكم المأمون أخصب الفترات التي مرت بالعصر العباسي إذ أنه كان يشجع العلماء وينفق على طلبة العلم ويجالسهم في كل وقت، كما أنه شجّع حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية فترجمت أمهات الكتب اليونانية والرومانية وكانت الدولة تشترى الكتب

وتدفع فيها الغالي من الثمن. وقد أثرت الثقافات المختلفة في الإتجاهات الفكرية الإسلامية ومنشأ البدع فتأثرت الصوفية بالثقافات الهندية و بالأفلاطونية الجديدة ورائدها أفلوطين[١]، كما كما تأثر الإعتزال بالفكر الإغريقي ومنشأ علم الكلام من المنطق اليوناني. وكان رواد حركة الترجمة حنين بن اسحاق وابنه اسحاق وثابت بن قرّة، كما كانت هناك عائلات تتبنى العلم كبني شاكر (محمد وأحمد والحسن) وبني المنجم الذين ولعوا بالفيزياء والفلك، كما ظهر الخوارزميّ الرياضي وانتقلت الأعداد الهندية إلى العرب، وأبو سليمان المنطقي السجستاني، وأجرى المأمون التجارب لإثبات كروية الأرض ومدى هذه الكروية، وقد برز في هذا العصر ومثّله ثلاثة من أقوى مفكرى الإسلام وهم الجاحظ المعتزلي، صاحب الحيوان والبيان والتبيين وأخبار الحمقى والمغفلين والبخلاء وغيرها مما يدل على موسوعية فكره رغم اعتزاليته، وهو القائل بمبدأ الصرفة، وثانيهما: ابن قتيبة زعيم أهل السنة في عصره صاحب عيون الأخبار ومختلف الحديث وغيرهما، ثم أبو حنيفة الدينورى الأديب العالم المؤرخ. وهذا الإتجاه العلمي لدى المأمون مع خلفيته الفارسية العلوية، جعلته ينحى منحى الإعتزال ويضرب العالم الإسلامي بما أصابه بشلل سنيّ تصدى له بن حنبل رحمة الله عليه. ويجب أن نبين هنا أن العلاقة بين الإعتزال والمذهب الشيعي علاقة قديمة ترجع في نظر عدد من المؤرخين إلى بداية الإعتزال الذي نشأ حول الحديث عن مرتكب المعصية ومكانته وهو سؤال كانت الطالبية والرافضة يديرونه ويقصدون به موقف معاوية من عليّ رضى الله عنهما، وقد كان موقف الرافضة واضح وهو تكفير الفئة الباغية، بل وتكفير كل الصحابة تواطئهم على عدم تولية عليّ، إلا أن المعتزلة وقفت موقفا بين ذلك وبين أهل السنة الذين يجلّون

[١] أفلوطين فيلسوف يوناني عاش بمصر ثم عاد إلى روما، وفلسفته تتركز في مفهوم الفيض والإشراق الإلهي على الوجود وأن الوجود هو الخير وأن الموجودات تتدرج في مراحل من العليا إلى السفلى وهى فكرة وحدة الوجود.

الصحابة وهو أن مرتكب الكبيرة فاسق وهو في «منزلة بين المنزلتين» لا هو كافر كما قالت الشيعة والخوارج، على تنافر ما بينهما، ولا هو مسلم عاص كما قالت أهل السنة. كذلك تواطأت أقوال المعتزلة مع الشيعة في رأيهم في الخلافة وأنها حق لأهل البيت، كما تواطأت أقوالهم في موقفهم من النص والعقل فتوافقا على أن العقل مقدم على الشرع (عجبا للرافضة وهم أهل كل ما هو ليس بمعقول في دينهم!!) وإنما قالت الشيعة بذلك ليمكنهم ردّ الأخبار الصحيحة التي لا توافق موقفهم من الصحابة، كما قالت به المعتزلة ليجارى أهواءهم في ردّ النصوص التي تثبت مشيئة الله سبحانه وقضاؤه وقدره، وخلقه لفعل العباد كما قال تعالى :« والله خلقكم وما تعملون» مع تسليم أهل السنة بحرية الإنسان في الإختيار حرية لا تصادم مشيئة الله ولا تعلو عليها بل تتحق من خلالها وبها، وليس هذا موضع التفصيل في هذا الأمر. اتتفقت إذن الشيعة والمعتزلة على أسس ومبادئ عامة، ثم التقتا معا سياسياً في عصر المأمون الذي مال للإعتزال كمذهب ديني، من خلال فتنة خلق القرآن، والتي تولى كبرها قاضيه أحمد بن أبي دؤواد. وقد أقنع بن أبي دؤاد المأمون أن ينشر هذا المذهب بالسيف وأن يمتحن العلماء في القول بخلق القرآن وهو ما دعا اليه من قبل الجعد بن درهم ثم الجهم بن صفوان ومن بعدهما المعتزلة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد. وامتحن المأمون الفقهاء في أرجاء الدولة فمنهم من خشي العاقبة ومنهم من ثبت ومات دون السنة، وعلى رأسهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ناصر السنة فإنه قد ثبت للفتنة وحبسه المأمون وضربه وظل محبوسا مضروبا في خلافة المعتصم ثم الواثق حتى جاء المتوكل فأمر بإخراجه وأكرمه وأعاد للسنة مكانتها، ويا للعجب من هؤلاء الذين يتغنى بفضلهم أشباه العلماء اليوم على أنهم أنصار الحرية الإنسانية وهم الذين روعوا الناس وامتحنوهم في عقائدهم وأنكروا عليهم حرية الإرادة التي أرادوا أن يجبروهم على أن يؤمنوا باستقلاليتها حتى عن مشيئة الله وقدرته! ولكن البدجعة هي البدعة، لا عقل لها!

وقد امتحن مع أحمد محمد بن نوح فكانا هما الذين ثبتا في هذه المحنة إلا أن محمد مات بعدها، كذلك امتحن البويطي صاحب الشافعي الأشهر وأحضر من مصر وضرب في عهد الواثق ومات في السجن ٢٣١. وقد ضجّ من هذ المسألة الواثق وأصبحت مهزلة يتندر بها المضحكون في مجالس الخليفة مثل ما ورد عن عبادة المضحك حين دخل على الواثق فقال له: أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين، قال: فيمن؟ قال: في القرآن فقد مات، قال الواثق: ويحك، أيموت القرآن؟ قال عبادة: يا أمير المؤمنين، كل مخلوق يموت، بالله عليك بما نقرأ الان في صلاتنا وفي التراويح، فضحك الواثق وقال: ويحك أمسك. كذلك فإن رجلا شيخا جيئ به ليمتحن فقال له ابن أبي دؤاد: ما تقول في خلق القرآن؟ قال: أسألك أنت، هل هذه المسألة مما علم رسول الله وصحابته معه؟ قال بن أبي دؤاد: نعم، قال الشيخ: أسألك الله، هل تكلموا فيها أم تركوها؟ قال بن أبي دؤاد: بل تركوها، قال الشيخ: أفلا يسعك ما وسعهم؟ فسكت بن ابي دؤاد ولم يحر جواباً، وصار الواثق يكرر: ألا يسعك ما وسعهم، وأطلق سراح الرجل.

٥. **عودة المأمون إلى بغداد:** في طريق عودة المأمون إلى بغداد، قتل الفضل بن سهل، ثم مات عليّ الرضا فجأة عام ٢٠٣، ودفنه المأمون وصلى عليه، واتهمته الرافضة أنه سمّه. وقد حاول المأمون أن يظل مخلصا للعلويين ولابسا للخضار إلا أن أهل بغداد وعلمائها وبني هاشم أبوا عليه ذلك فخلعه ولبس السواد شعار العباسيين مرة أخرى.

   a. **زواجه بوران بنت الحسن بن سهل:** وهو زواج لم ير التاريخ مثله إذ أنفق الحسن على هذا الزواج ٥٠ مليونا درهم، وتحكى العجائب عن هذا الحفل.

٦. **البيزنطيون:** قاد المأمون وابنه العباس عدة حملات على الدولة البيزنطية وفتحوا عدة مدن إلا أن الحالة العامة كانت إلى الخمود على هذه الجبهة لإنشغال المأمون وميخائيل الثاني كليهما بالمشاكل الداخلية.

٧. **خلق المأمون**: كان المأمون مثالا في الحلم والعفو، وكان يحب العفو ويلتذ به حتى أنه عفا عن الفضل بن الربيع الذي تسبب في كل هذه المآسي بينه وبين أخيه وسجد لله شكرا أنه سبحانه ألهمه العفو عنه، وكان ميالا إلى الإقناع في الجدل كما كان لا ينخدع بالرياء ولا يحبه، وكان شاعرا يفهم الشعر ويقدّره، ويبتدر الشعراء بين يديه بقوافي الأبيات، حكي أن عمارة بن عقيل حكى عن عبد الله بن أبي السبط أنه قال فيه شعرا لم يتحرك له المأمون جاء فيه

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا
بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فقال له عمارة والله إنك جعلته من عجائز المحاريب! هلا قلت فيه ما قال جرير في عبد العزيز بن الوليد

فلا هو في الدنيا مضّيع نصيبه
ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

٨. **وفاة المأمون**: بايع المأمون أخاه المعتصم قبل وفاته وهو أصغر منه بتسعة أعوام، ولم يبايع لإبنه العباس أو لإثنين من بعده! وتوفي وهو في الغزو ببلاد البيزنطيين ودفن في طرسوس عام ٢١٨.

محمد (المعتصم) بن هارون (الرشيد) بن محمد (المهدي) (٢١٨-٢٢٧):

١. **المعتصم أبو إسحاق**: ويلقب بالمثمن octaginist وأمه تركية، كان لا يحسن الكتابة ولكنه كان شجاعا مقداماً، مولعا بالعمارة والزراعة. كان مستبدا عادلا عطوفا قويا شجاعا لا يخشى الأعداء.

٢. وزراء المعتصم:

a. **الفضل بن مروان بن ماسرخس**: وهو نصراني أسلم وكان كاتبا للمعتصم قبل الخلافة ثم أحسن الأمر عقب وفاة المأمون بأخذ البيعة في بغداد للمعتصم

وتنظيم الأمور له، إلا أنه كان مستهترا بالمعتصم ولا يطيعه في كثير من الأمر، حتى أن مضحك المعتصم قال له يوما: إنك لا تفلح! قال: لم؟ قال: إن أمرك لا يتجاوز أذنك بل الخليفة الفضل بن مروان. قال وما الذي لا يطيعني فيه؟ قال: أمرت لي بعطاء منذ شهرين ولم يصلني، فأسرها لمعتصم وكان في نفسه الكثير من الفضل، فعيّن على الفضل حراسا وحاسبه وأهله على مالهم، ثم حبسه حتى مات.

b. **أحمد بن عمار الخرساني**: وكان عاميا لا يعرف كثيرا من الكتابة، فاحتاج المعتصم لمن يعينه إذ هو ونفسه ضعيف العلم فقال: خليفة أمي ووزير عامي! ثم خلعه وعيّن الزيات.

c. **محمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيات**: وهو من أشهر الوزراء والكتاب في كافة العصور، وقد عينه المنصور بعد أن سأل أحمد بن عمار عن معنى الكلأ فلم يعرف فقال الزيات: الكلأ هو والعشب، فإن كان رطبا فهو الخلأ وإن يبس فهو الحشيش ثم استرسل في تقسيم أنواع النباتات فأعجب به المعتصم واستوزره. وكان الزيات من الشعراء وكان أجود من يمتب وله أسلوب خاص به اصطنعه وعرف عنه، ومن جميل شعره ما قاله في ابن له ماتت أمه وهو بن ثمان:

وبات وحيدا في الفراش تجيبه
بلابل قلب دائم الخفقـــــانِ

فهبني أطلت الصبر عنها لأنني
جليد فمن للصبر بابن ثمـــانِ

ضعيف القوى لا يعرف الصبر جسـمه ولا يأتسي بالناس في الحدثانِ

وقد مدحه الكثير من الشعراء

d. **أحمد بن أبي دؤاد**: ولم يكن وزيرا ولكنه كان أقوى من الوزراء لدى المعتصم وقد أوصى المأمون اخيه المعتصم بأن يحسن اليه وأن يقربه ويستشيره، وكان أحمد عربيا قويا شجاعا حليما عالما لا يشينه إلا ما وقع فيه من الإعتزال وفتنة القرآن، وجل من له الكمال. وكان يعين المعتصم على حدته، وكان المعتصم يطيعه طاعة تامة ولا يرد له أمر مهما كان، وحكى أن الأفشين، قائد المعتصمن كان فيه كراهة للشاعر المعروف أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، فدبر له مكيدة وأراد قتله فسمع بها أحمد فخرج مسرعا إلى محل الأفشين ولم يتوجه إلى المعتصم أولا إذ خشي أن يفوت الوقت فقال للإفشين/ جئتك من المعتصم وهو يريد أن تبعث له ابي دلف قبل أن تمسه بسوء وأشهد من حضر أنه أدى الرسالة وابي دلف حي يرزق، ثم خرج لتوه إلى المعتصم فأخبره بما فعل فأجازه وعنّف الأفشين على فعلته.

٣. **قواد جيوش المعتصم:**

a. **الأفشين حيدر بن كاوس**: وهو تركي شركسي، أبلى بلاء حسنا في عهد المأمون في حرب بابك عام ٢٢٠، بعد أن أظهر ولاء وشجاعة في خدمة المعتصم، وقد حارب بابك وهزمه واستعمل خططا ماهرة بينت تمرسه بالحرب حتى هزمه عام ٢٢٣ وأرسله إلى الخليفة في مدينته الجديدة سامراء، فقطع رأسه. ثم أن الأفشين هذا كان لا يزال زنديقا على دينه القديم وقد حاول أن يستغل العداوة بين أحد ملوك الشرق **مازيار** وبين عائلة طاهر بن الحسين ليوقع بينهم فيوليه المعتصم خراسان بدلا منهم ولكن المعتصم علم بمكيدته وأنه شجع مازيار على الثورة فأرسل جيوشا للقضاء على مازيار وقتله ثم قبض على الأفشين وحبس حتى مات عام ٢٢٦.

b. **إيتاخ**: اشتراه المعتصم من مولاه ورقاه لما علم شجاعته وكان أحد قواد الفرق الثلاثة التي هاجمت عمورية، وكان بيده الجيش والبريد والحجابة ودار الخلافة، وقتل في أول عهد المتوكل ٢٣٥.

c. **أشناس**: تركي اشتراه المعتصم ورقّاه وكان على رأس الجيش في عمورية وزوجه ابنة الإفشين وظل كذلك ايام الواثق حتى مات ٢٣٠.

٤. **خطأ المعتصم في جلب الأتراك**: ويتحمل المعصم ما حلّ بالدولة من اضطراب نتيجة الإعتماد على الأتراك وتسييرهم أمور الدولة وهي دولة عربية أصيلة وكان ما كان من أمر سوء العلاقة بين العباسيين والخرسابيين وكذلك عدم ثقة المعتصم بالعرب مما أدى إلى محاولات إغتياله على يد العباس بن المأمون، فأبعد العرب والفرس وأوقع الدولة في يد الترك الأغراب عن الدولة. وقد أدى هذا الأمر إلى ظهور الدول الإنفصالية عن الدولة والتي ظهرت في عهد المعتصم ثم تكرست عقب مقتل المتوكل.

a. **أبي حرب المبرقع** الذي ثار على الدولة لأن جنديا تركيا أراد أن ينزل في بيته في غيبته فمنعته إمرأة أبي حرب فضربها بالسوط ولما عاد أبو حرب، قتل الجندي ولبس برقعا وخرج فاجتمع معه ناس فأرسل اليه المعتصم جيشا فأسره.

٢. **الأحوال الداخلية:**

a. **الطالبيون**: مات في عهده محمد الجواد بن علي الرضا، وكان زوجا لإبنة أخيه المأمون، أم الفضل، فحملت إلى بيت عمها وأكرمها، وتولى الإمامة أبو والحسن علي الهادي بن محمد الجواد وكان عمره سبع سنوات. وخرج في أيام المعتصم من الزيدية محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين. فأرسل اليه عبد الله بن طاهر والى خراسان فهزمه وحبسه المعتصمحتى عام ٢١٩ فهرب ولم يظهر بعدها.

b. **بناء سامراء**: لم يكن قد انقضى على بناء بغداد قرن واحد حتى عرضت للمعتصم فكرة بناء عاصمة جديدة، بعدما ضاقت بغداد بجنده الأتراك الذين أكثر من استخدامهم في الجيش، ولم تسلم العاصمة من مضايقاتهم،

حتى أكثر الناس الشكوى من سلوكهم. واختار المعتصم لعاصمته الجديدة مكانا يبعد ١٣٠ كم رأسا من شمال بغداد، شرقي نهر دجلة، وشرع في تخطيط عاصمته سنة (٢٢١هـ= ٨٣٦م) وبعث إليها بالمهندسين والبنّاءين وأهل المهن من الحدادين والنجارين وغيرهم، وحمل إليها الأخشاب والرخام وكل ما يحتاج إليه البناء. وعُني الخليفة بتخطيط المدينة وتقسيمها باعتبارها مركزا حضاريا ومعسكرا لجيشه، ففصل الجيش ودواوين الدولة عن السكان، واهتم بفصل فرق الجيش بعضها عن بعض، وامتدت المدينة على ضفة دجلة الغربية نحو ١٩ كم، وكان تخطيط المدينة رائعا، يتجلى في شق عدة شوارع متوازية على طول النهر، يتصل بعضها ببعض عن طريق دروب عدة، وكان أهم شوارع المدينة بعد شارع «الخليج» الذي على دجلة «الشارع الأعظم»، وكان يمتد في عهد المعتصم ١٩ كم من الجنوب إلى الشمال بعرض مائة متر تقريبا. وعُنِي المعتصم بزراعة القسم الغربي من دجلة تجاه المدينة، وشجع قادته على المساهمة في الزراعة، وحرص أن تكون عاصمته الجديدة مجمعا للصناعات المعروفة في عهده، واهتم ببناء الأسواق، وجعل كل تجارة منفردة مثلما هو الحال في أسواق بغداد، وجعل شارع الخليج الذي على دجلة رصيفًا ومرسى لسفن التجارة. وكانت المدينة الجديدة جميلة بقصورها الضخمة ومبانيها الرائعة وشوارعها المتسعة، ومسجدها الجامع وغيره من المساجد، فدعيت بـ»سُرّ مَن رأى«، وزاد إقبال الناس على السكنى بها. وتكشف الآثار الباقية من سامراء عن مدى التقدم العمراني والحضاري الذي كانت عليه الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري.

c. **وامعتصماه.. فتح عمورية:** استغل الروم انشغال الخليفة المعتصم في القضاء على فتنة بابك الخرمي، وجهزوا جيشا ضخما قاده ملك الروم، بلغ أكثر من مائة ألف جندي، هاجم شمال الشام والجزيرة، ودخل مدينة «زِبَطْرة» التي تقع على الثغور، وكانت تخرج منها الغزوات ضد الروم، وقتل الجيش الرومي من

بداخل حصون المدينة من الرجال، وانتقل إلى «ملطية» المجاورة فأغار عليها، وعلى كثير من الحصون، ومثّل بمن صار في يده من المسلمين، وسَمَلَ أعينهم، وقطع آذانهم وأنوفهم، وسبى من المسلمات فيما قيل أكثر من ألف امرأة. وصلت هذه الأنباء المروعة إلى أسماع الخليفة، وحكى الهاربون الفظائع التي ارتكبها الروم مع السكان العزل؛ فتحرك على الفور، وأمر بعمامة الغزاة فاعتم بها ونادى لساعته بالنفير والاستعداد للحرب. ويذكر بعض الرواة أن امرأة ممن وقعت في أسر الروم قالت: وامعتصماه، فنُقل إليه ذلك الحديث، وفي يده قَدَح يريد أن يشرب ما فيه، فوضعه، ونادى بالاستعداد للحرب. وخرج المعتصم على رأس جيش كبير، وجهّزه بما لم يعدّه أحد من قبله من السلاح والمؤن وآلات الحرب والحصار، حتى وصل إلى منطقة الثغور، ودمّرت جيوشه مدينة أنقرة ثم اتجهت إلى عمورية في (جمادى الأولى ٢٢٣هـ= أبريل ٨٣٨م) وضربت حصارا على المدينة المنيعة دام نصف عام تقريبا، ذاقت خلاله الأهوال حتى استسلمت المدينة، ودخلها المسلمون في (١٧ من رمضان سنة ٢٢٣هـ= ١٣ من أغسطس ٨٣٨م) بعد أن قُتل من أهلها ثلاثون ألفا، وغنم المسلمون غنائم عظيمة، وأمر الخليفة المعتصم بهدم أسوار المدينة المنيعة وأبوابها وكان لهذا الانتصار الكبير صداه في بلاد المسلمين، وخصّه كبار الشعراء بقصائد المدح، ويأتي في مقدمة ذلك، بائية أبي تمام الخالدة منها:

السيف أصدق أنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعبِ

بيض الصفائح لا سود الصحائف في
متونهن جلاء الشك والريبِ

والعلم في شهب الأرماح لامعة
بين الخميسين لا في السبعة الشهبِ

أين الرواية بل أين النجوم وما
صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذب؟

عجائباً زعموا الأيام مجلفةً
عنهن في صفر الأصفار أو رجبِ

وخوّفوا الناس من دهياء مظلمةٍ
إذا بدا الكوكبُ الغربي ذو الذنبِ

وصيّروا الأبرج العليا مرتبةً
ما كان منقلباً أو غير منقلبِ

يقضون بالأمر عنها وهي غافلةُ
ما دار في فلكٍ منها وفي قطب

لو بينت قط أمراً قبل موقعهِ
لم تخف ماحل بالأوثان والصلبِ

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به
نظم من الشعر أو نثر من الخطبِ

فتح تفتح أبواب السماء له
وتبرز الأرض في أثوابها القشبِ

يايوم وقعة عمورية انصرفت
عنك المنى حفلاً معولة الحلبِ

أبقيت جد بني الإسلام في صعد
والمشركين ودار الشرك في صببِ

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها
تنال إلاّ على جسرٍ من التعبِ
أبقيت بين الأصفر المصفرِّ كاسمِهُمُ
صفر الوجوه وجلت أوجه العربِ

كذلك فقد فتح المعتصم أنقرة بعد أن هزم ثيوفل امبراطور الروم عام ٢٢٣هـ.

٦. **وفاة المعتصم**: مات المعتصم مريضا عام ٢٢٧، وولى ابنه هارون الواثق من بعده وقد رثاه بن الزيات بقوله

قد قلت إذ غيبوك واصطفقت
عليك أيد بالتراب والطين
إذهب فنعم الحفيظ كنت علـــــى الدنيا ونعم الظهير للدين
لا جبر الله أمة فقـــدت
مثلك إلا بمثـــل هارون

هارون (الواثق) بن محمد (المعتصم) بن هارون (الرشيد) (٢٢٧-٢٣٢):

١. **الواثـق**: أمه رومية أم ولد إسمها قراطيس، وقد كان كثير الأكل والشرب صاحب معروف يعطف على أهله يحب الجلوس للعلماء ويهوى الحديث مع العلماء والفقهاء، استمر على ما كان عليه أبوه وعّمه من إعتزال بل كانت أكثر حدة من ايام ابيه لأن المعتصم لم يكن رجل علم وكلام، وأما الواثق فكان كعمه المأمون حتى أنه لقب بالمأمون الصغير، فزادت أزمة خلق القرآن حدّة في عهده.

٢. **وزراء الواثق**: لم يستوزر غير محمد بن عبد الملك بن الزيات رغم أنه كان حلف أيام ابيه أن ينكبه كنكبة البرامكة، إلا أنه وجد أنه افضل من يسوس الدولة فابقاه وكفّر عن يمينه.

٣. **الحركات الداخلية**: قامت في عهده حركات للأعراب قريب من المدينة من بني سليم، ثم من فزارة وبني مرة وبني نمير. فأرسل جيشا من مماليكه بقيادة بغا الأكبر فهزمهم وأمّن الحجيج وطرق التجارة، ثم هرب الخارجين من فزارة وبني مرة، وفي عام ٢٣٢ قاتل بني نمير وكادوا أن ينتصروا على بغا ولكن حدث أمر مباغت أن عادت فرسان كان بغا قد أرسلها للإغارة فظنت بنو نمير أنه كمين وأنه أوقع بهم فانهزموا وأخذهم بغا أسرى (حوالي ٢٣٠٠) رجل إلى البصرة. وقد كان حكّام الولايات ذووا سلطة تكاد تكون مستقلة فكان عبد الله بن طاهر حاكما لخراسان وطبرستان وكرمان، وكان اشناس حاكما على الجزيرة والشام ومصر والغرب، وكان إيتاخ حاكما على السند ودجلة.

٤. **وفاة الواثق**: كان حكم الواثق أقل من ست سنوات، وقد مرض بالإستسقاء ثم توفي، ولم يعيّن أحدا، وبموته انتهى العهد العباسي الأول، أيام كان الخلفاء لهم سيطرة وقوة ووقت كانوا يقودون الجيوش ويفتكون بالأعداء داخليا وخارجيا.

العصر العباســـي الثانـــي

عهد سيطرة الأتراك

تحليل الوضع السياسي:

كان عهد الواثق هو مفرق الطريق بين الخلافة العباسية التي تتمتع بالإستقلال والقوة وبين الخلافة الإسمية التي لا دور لها إلا الدعاء باسمها في الخطب ورسم الخليفة على النقود. وكان هذا نتيجة اعتماد الواثق على العنصر التركي بعد أن أسس ذلك المعتصم أباه لأن أمه تركية وللخطر الذي استشعره من العنصرين العربي متمثلا في حركات العلويين والعنصر الفارسي الموالي للعلويين والذي كان أبوه وعمه وجده قد تخلصا منها من قبل بنكبة البرامكة وعائلة سهل. وقد أدى هذا إلى أن سيطر القادة الأتراك على الولايات التي تحت حكمهم، ثم إنهم أرادوا البقاء في العاصمة (سامراء في هذا الوقت) ليظلوا على علم بمجريات الأمور والتخطيط لأمور الدولة، فعينوا نوابا لهم مما أدى إلى أمور منها أن هؤلاء النواب قد بالغوا في جباية الأموال حتى يرضوا رؤسائهم من الأتراك، ثم بدأت النزعات الإنفصالية تظهر في ولاياتهم لأول بادرة ممن يظهر القوة والقدرة على الإنفصال، فأدى هذا إلى ظهور الدولة الطاهرية والصفرية والسامانية في الشرق والدولة الطولونية والإخشيدية ثم الفاطمية في مصر، هذا مع استقلال دولة الأغالبة والأدارسة في المغرب والدولة الأموية في الأندلس. وقد حرصت هذه الدول على أن تظل مرتبطة اسميا بالخلافة العباسية لأنه لم تكن لها مقومات تجعلها تدعى الخلافة لنفسها دون العباسيين كما أن ذلك يقوى أمرها أمام العامة.

جعفر (المتوكل) بن محمد (المعتصم) بن هارون (الرشيد) (٢٣٢-٢٤٧):

١. وهو أخو الواثق، وأمه أم ولد من خوارزم اسمها شجاع. وقد عينته القوى التركية بدلا من محمد بن الواثق الذى أراد أن يستخلفه الزيات وأحمد بن ابي دؤاد.

٢. وزراء المتوكل:

a. **محمد بن عبد الملك الزيات**: وقد كرهه المتوكل لما كان يبديه من عدم مبالاة به أيام أخيه الواثق، كما أنه أراد أن يعين محمد بن الواثق، فتركه عاما ثم قبض عليه ونكبه فأخذ كل أمواله وعقاراته وسجنه وعذبه حتى مات عام ٢٣٣.

b. **أحمد بن خالد أبا الوزير**: ولم يلبث إلا قليلا ثم حبسه وصادر أمواله.

c. **محمد بن الفضل الجرجرائي**: وكان من أهل الفضل والعلم وظل وزيرا حتى عام ٢٣٦ ثم صرفه المتوكل لأنه ملّ الشيوخ وأراد أن يستوزر شبابا!

d. **عبيد الله بن يحي بن خاقان**: وظل وزيره حتى مات المتوكل. وقد كان الكتّاب على الخراج في غاية من الفساد حتى أن أخو الخليفة كان يرشيهم ليصرفوا له رزقه فما بالك بالفرد العادي من الناس، مما أدى إلى تكثّر هؤلاء من الأموال إلى أن يشى أحدهم بالآخر عند الخليفة فيقبض عليه ويستولى على ماله.

e. **أحمد بن ابي دؤاد**: وقد كان عطوفا على المتوكل في عهد أخيه، فحفظ له المتوكل ذلك أول الأمر وعينه قاضي القضاة، ولكن هذا لم يدم، إذ أنه مرض ولم يقدر على العمل فقام ابنه ابو الوليد بعمله ولكنه لم يكن نزيها كوالده فغضب المتوكل، وسجنه وأبوه وأخذ مالهم وأخذ منهم رقعة بتسليم ١٦ مليون درهم، ثم باعوا كل ما يملكون ومات أبو الوليد في الحبس وبعده ابوه أحمد بعشرين يوما.

٣. **العلويون**: قيل أن المتوكل كان ناصبيا يدين بكراهة عليّ رضى الله عنه، وأنه أمر بهدم قبر الحسين وزرعه إلا أن ذلك يمكن إرجاعه غلى محبته للسنة ورغبته في القضاء على التشيع ومظاهر تأليه عليّ وبنوه، كما أنه قد كان قد أنهى مشكلة خلق القرآن وأعزّ أحمد بن حنبل وكرمه والظاهر أنه كان يخشى العلويين وخروجهم. وحكى أنه قد سمع أن ولي العلويين في ايامه عليّ الهادي بن محمد

الجواد بن عليّ الرضا بن موسى الكاظم، وهو والإمام العاشر، أن له أموال كثيرة وأتباع، فأمر به فقيّد وسيق له ولكنهم لم يجدوا عنده شيئا ثم قال له المتوكل: أنشدني شعرا فقال:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهـم
غلب الرجال فما أغنتهم القلـــل

واسنزلوا بعد غز عن معاقلهـــم
فأودعوا حفرا يا بئسما نزلـــوا

ناداهم صارخ من بعد ما قبـروا
اين الأسرة والتيجان والحلـــل

أين الوجوه التي كانت منعمـــة
من دونها تضرب الأستار والكلل

فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم
تلك الوجوه عليها الدود يقتتـــل

قد طالما أكلوا دهرا وما شربـوا
فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكلوا

وطالما عمّروا دورا لتحصنهـــم
ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا

وطالما كنزوا الأموال وادخـروا
فخلفوها على الأعداء وارتحلـوا

وأصبحت منازلهم قفرا معطلـــة
وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

فبكى المتوكل ووصله وتركه.

٤. **الجيش وسيطرة الأتراك**: وقد أدرك المتوكل ما آل اليه أمر الخلافة فأراد أن يعيد الأمر ليد الخليفة. فبدأ في التفكير في الخلاص من سيطرة الأتراك فبدأ بإيتاخ الذي كان يسمى السلطان، وكان قد علم أنه لا يمكن أن يقضى عليه في سامراء بين قواته، فأوعز إلى إيتاخ من زين له الخروج للحج، ووافق المتوكل وخرج إيتاخ حتى وصل بغداد فقالوا له أن المتوكل يريده أن يدخل بغداد وأن يعطى العطايا والصلات، فدخل بغداد ثم حيل بينه وبين غلمانه، واعتقل في بيت بها ومعه ولداه وكاتبه، وظل في هذا الحبس حتى مات عام ٢٣٥.

٥. **الدولة اليعفرية**: وهي باليمن وبدأت في أواخر عهد المتوكل، وكان جدهم نائب لعامل المعتصم في اليمن ولما مات قام ابنه يعفر فتولى أمره واستقل بالدولة واستمرت دولتهم من ٢٤٧ حتى ٣٨٧.

٦. **العلاقات الخارجية**: ظلت الحروب بين المسلمين والبيزنطيين دائرة في عهد المتوكل، فكان فيها ستة حروب يأسر بعضهم بعضا ثم يفتدون أسرى المسلمين بالعلوج البيزنطيين.

٨. **ولاية العهد**: لمّا حدث ما حدث من فتك المتوكل بإيتاخ، استشعر الأتراك الخطر فبدؤا يرصدون له. وقد كان أوصى لإبنه محمد المنتصر ثم محمد المعتز ثم ابراهيم المؤيد من بعده. وقسم البلاد بينهمن فأعطى المنتصر مصر وما وراءها من أعمال شمال إفريقيا، وأعطى المعتز خراسان وما وراءها من بلاد المشرق، وأعطى المؤيد دمشق والأردن وفلسطين، وكتب بينهم كتابا مثل كتاب الرشيد!

٨. **مقتل المتوكل**: انقسمت الحاشية إلى قسمين، نديمه الفتح بن خاقان ووزيره عبيد الله بن خاقان وكان هواهم مع المعتز فأوعزوا لأبيه أن يقدمه على أخيه الأكبر المنتصر، ولكن القواد الأتراك وقفوا مع المنتصر وأفهموه أن والده سينزع عنه الخلافة خاصة وأنه مرض يوما فأمر المعتز بالصلاة بدلا منه، مما أوغر عليه صدر المنتصر، فقام بغا

الأصغر بالتوجه إلى قصر الخلافة ومع عشرة جنود وفتك بالمتوكل ومعه الفتح بن خاقان، وقد قال في ذلك علي بن الجهم الشاعر:

عبيد أمير المؤمنين قتلنـــه
وأعظـــم آفات الملوك عبيدها

بني هاشم صبرا لكل مصيبة
سيبلى على وجه الزمان جديدها

وقال البحتري يعرّض بغدر المنتصر بأبيه:

أكان ولي العهـــد أضمر غـــدره

فمـــــن عجب أن ولِيَ العهد غادره

فلا ملك الباقي تراث الذي مضــــى

ولا حملت ذاك الدعـــاء منابـــره

محمد المنتصر بن جعفر (المتوكل) بن محمد (المعتصم) بن هارون (الرشيد) (٢٤٧-٢٤٨):

١. أمه رومية اسمها حبشية. وكان عمره ٢٥ عاما حين ولي الخلافة، ولم يدم ملكه إلا ستة اشهر هي التي غنمها بالمعاونة على مقتل أبيه!

٢. استوزر **أحمد بن الخصيب** وكان مغفلا شريرا لا حياء له،وكان قد ندم على نفي عبيد الله بن خاقان.

٣. أشار الأتراك عليه أن ينزع الولاية من المعتز والمؤيد ففعل خوفا منهم، رغم كراهته للترك وكان يسميهم «قتلة الخلفاء».

٤. عاش حياته القصيرة بعد توليه الخلافة في ألم ممض كان يوقظه من نومه ويرى أباه في المنام يبشره بالنار. وكان الناس يقرنونه بشيرويه بن كسرى قاتل أبيه الذي لم يدم

ملكه إلا ستة أشهر، فكان ذلك مما أدى إلى أن ضعف جسمه جدا ومرض ومات في مرضه عام ٢٤٨.

أحمد المستعين بن محمد بن محمد (المعتصم) بن هارون (الرشيد) (٢٤٨-٢٥٢):

١. إبن عمّ المنتصر، أمه صقلية اسمها مخارق. عينه الأتراك بعد أن رفضوا أن يعينوا أي من ولد المتوكل حتى لا يأخذ بثأر والدهم. ولم يخالفهم إلا بغا الأكبر إذ قال: «نجيئ بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه، وغن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضا فقتلنا أنفسنا» وهو ما حدث من بعد أن انشق الأتراك بعضهم على بعض.

٢. لم يكن له أي شيئ من النفوذ حتى قل الشاعر:

خليفة في قفص
بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له
كما تقول الببغا

٣. **العلويون:**

a. **يحيي بن عمر بن يحيى بن الحسين**: خرج بالكوفة واجتمع معه عدد من الناس فأرسل المستعين جيشاً من قبل محمد بن عبد الله بن طاهر من خراسان فهزمه وقتل يحيى حين سقط من مركبه.

b. **الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل**: وقد استطاع أن يستقل بطبرستان بعد أن عجز محمد بن طاهر عن هزيمته وساعده الديلم ودخلوا في طاعته وكان منهم بني بويه من بعد، وكذلك فشل وصيف قائد المستعين من هزيمته، وأقام الدولة الزيدية التي استمرت مائة عام حتى عام ٣٥٥.

c. **بداية ثورة الزنج**: وقد بدأت عام ٢٤٩ ثورة في البصرة يتزعمها رجل يدعي أنه من نسل زيد بن الحسين كما سنبين بعد.

٤. **الجيش**: انقسم الأتراك على أنفسهم فاتفق بغا ووصيف على قتل باغر التركي وقد كان أراد أن يقتل المستعين، فعرف ذلك المستعين فقبض عليهم فصاروا يتذللون له حتى عفى عنهم ولكنه رفض أن يذهب معهم إلى سامراء فغضبوا واتفقوا على خلعه وتأمير المعتز وبالفعل بايعوه في سامراء ووقف أهل بغداد من العباسيين ومواليهم بجانب المستعين، وجهز المعتز جيشا لحرب المستعين بقيادة أخيه الموفق طلحة أبي أحمد بن المتوكل واستمرت الحرب على أسوار بغداد وحولها عاما كاملا ٢٥١، ثم بدا لمحمد بن عبد الله بن طاهر أن يأخذ جانب السلم فكاتب المعتز، وظنت العامة أنه خلع المستعين، ولكن المستعين ذكر لهم أن محمدا لا يزال في طاعته، إلا أن عبيد الله بن خاقان، حذر المستعين وكرّه اليه بن طاهر فلم يكن منه إلا أن يستسلم للمعتز ويشترط شروطا لحياته، وذهب إلى البصرة، إلا أن الأتراك خشوا من تركه حيا فقتلوه بمشاركة المعتز وكان من قتله هو **أحمد بن طولون** مؤسس الدولة الطولونية بعد، ومما قال الشاعر في ذلك»

خلع الخليفة أحمد بن محمد
وسيقتل التالي له أو يخلع

ويزول ملك بني أبيه فلا يرى
أحد بملك منهم يستمتع

أيها بني العباس إن سبيلكم
في قتل أعبدكم طريق مهيع

رقعتم دنياكم فتمزقت
بكم الحياة تمزقا لا يرقع

محمد المعتز بن جعفر (المتوكل) بن محمد (المعتصم) بن هارون (الرشيد) (٢٥٢-٢٥٥):

١. وهو محمد بن المتوكل أمه أم ولد اسمها قبيحة. ولم تتم له الولاية بعد أخيه المنتصر

لأنه خلعه هو وأخيه المؤيد وولى المستعين، وحكم ثلاث سنوات.

٢. **وزراء المعتز**: لم يكن لهم شأن لإنحطاط قدر الخلافة نفسها، وتحكم القادة العسكريين الأتراك.

٣. **جعفر بن محمود الإسكافي**: لم يكن بشيئ واختلف الأتراك بسببه فعزله المعتز.

a. **عيسى بن فرخنشاه**: وعزل بنفس سبب سالفه

b. **أحمد بن إسرائيل الأنباري**: وكان كاتبا حاذقاً، واستمر وزيرا حتى عام ٢٥٥ ثم اتهمه صالح بن وضيف من قواد الأتراك على أنه لا يعطيهم أعطياتهم، فأخذه وقيده ولم ينفع استشفاع الخليفة ولا أمه فيه، ثم عيّن الإسكافي مرة أخرى رغم أنف المعتز.

c. **العلويون**: مات في عهده علي الرضا وتولى بعده الحسن العسكري (لسكنه في مدينة عسكر). وقامت للزيدية دولة في المشرق على يد الحسن بن زيد كما ذكرنا.

٤. **الأتراك والجيش: اضطر المعتز إلى أن يعيد بغا ووصيف اللذين ساعدا عليه المستعين** ورد اليهما أموالهما، ثم قامت المغاربة فضربوا الأتراك واشتدوا عليهم حتى أصلح بينهما جعفر بن عبد الواحد، ثم استطاع الأتراك أن يقتلوا قادة المغاربة وعادت لهم السيادة. ثم إن الأتراك طلبوا أرزاقهم واتهموا بغا ووصيف بمنعها عنهم وقتلوا وصيفاً. وحضّ بغا المعتز على الذهاب إلى بغداد ليكون بين أنصار العباسيين حيث كانت بغداد بمأمن من هذه الفتن لأسباب منها أن الأتراك غلف القلوب لم يكونوا بها وأن محمد بن طاهر كان حاكما قويا، ثم إن المعتز تآمر مع صالح بن وصيف. وكما غدر المعتز بالمستعين، غدر بأخويه إبراهيم المؤيد فسجنه وقتله، وسجن أبي أحمد الموفق بن المتوكل الذي قاد الجيش وحاصر المستعين لصالح المعتز!

٥. **نهاية المعتز**: وكالعادة السائدة في تلك الأيام، طالب صالح بن وصيف والأتراك

معه المعتز أن يدفع لهم أموالا، ولم يكن عند المعتز مالا يعطيه فطلب من أمه أن تعطيه من ثروتها الطائلة فأبت، فدخلوا عليه وجرّوه من رجله وضربوه بالدبابيس وأوقفوه في الحرّ ثم جاؤوا بقاضي القضاة فخلع المعتز نفسه ثم منعوا عنه الطعام والشراب حتى مات، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وقال الشاعر:

عين لا تبخلي بسفح الدموع
واندبي خير فاجع مفجـوع

خانه الناصح الشفيق ونالتـــــــه
أكف الردى بحتف ســريع

بكر الترك ناقمين عليــــه
خلعتــه أفديه من مخـلوع

قتلوه ظلمـــا وجورا فألفــو
ه كريم الأخلاق غير جزوع

محمد المهتدي بن هارون (الواثق) بن محمد (المعتصم) بن هارون (الرشيد) (٢٥٥-٢٥٦):

١. هو محمد المهتدي بن الواثق، وأمه أم ولد رومية اسمها فرب (وهو ابن عم المعتز). وقد حاول أن يصلح بين الأتراك والمعتز إلا أنه لم يقدر على ذلك فقبل الخلافة.

٢. وزراء المهتدي:

a. **جعفر بن محمود الإسكافي**: وقد أقره فترة ثم عزله.

b. **سليمان بن وهب بن سعيد**: وهو من عائلة كانت دائما في صنعة الكتابة منذ عهد البرامكة، ثم كانوا كتابا للمأمون ثم للمعتصم، ولعائلة سهل من بعد ذلك، وكان سليمان كاتب الدنيا وعاقلها ومدحه الشعراء كالبحترى فقال فيه:

كأن آراؤه والحـــزم يتبعهـــا
تريه كل خفيّ وهو وإعلان
ما غاب عن عينه فالقلب يكلؤه
وإن تنم عينه فالقلب يقظان

وكان العمال والوزراء يزينون للخليفة الإستيلاء على الأموال وأخذ أموال من العمال مقابل تعيينهم تحت اسم الإرتفاق وهي رشوة واضحة.

٣. **خلع المهتدي**: وكان موسى بن بغا في حرب مع الحسن بن زيد العلوي، وكان يكره صالح بن وصيف لما فعله من خلع المعتز ثم رجع إلى سامراء وأخذ عهد الخليفة ألا يناصر صالح ثم قتل صالحا بعد أحداث جسيمة. ثم كان ما كان من المعهود، إذ طلبت الجنود الرواتب فلم يقدر المهتدي عليها، وكانت الجنود هي التي ثارت بالمطالبة وسنحت فرصة الخلافة في الخلاص من الرؤوس ولكن المهتدي لم يفعل ذلك، فاجتمعت ضده الأتراك وحاربهم مع المغاربة إلا أنه هُزم وخلعوه ثم قتلوه عام ٢٥٦.

أحمد المعتمد بن جعفر (المتوكل) بن محمد (المعتصم) بن هارون (الرشيد) (٢٥٦–٢٧٩):

١. وهو أخو المعتز بن المتوكل، وأمه كوفية اسمها أم ولد فتيان. وقد حكم ٢٣ عاما حتى مات عام ٢٧٩. وقد تمت مبايعته وطالبت جنود الأتراك أن يعين الخليفة إخوته على الجيوش ليضمنوا عطاياهم فعين أخاه أبا أحمد الموفق طلحة على الجيش ليمنع خلافات الأتراك فيما بينهم، وكان قائدا عظيما وقد أفاد الخلافة أكثر مما أفادها الخلفاء رغم أنه لم يتولها بنفسه، وكان هو مصرف الأمور حتى أن الخليفة أراد ٣٠٠ دينار فلم يجدها! وكان هو الذي يولي الوزراء ويعزلهم لأن في يده قوة الجيش.

٢. وزراء المعتمد:

a. **عبيد الله بن يحي بن خاقان**: وكان من فضلاء الناس وقد مات عام ٢٦٣ حين وقع عن دابته.

b. **الحسن بن مخلد**: وكان كاتبا للموفق كذلك فاجتمعت له الوظيقتان. وكان من أفضل من كتب العربية، وكان أمينا ضابطاً، ولم يلبث أن اختلف مع موسى بن بغا فهرب إلى بغداد.

c. **سليمان بن وهب**: وكان وزيرا للمهتدى كما اسلفنا. ثم كان أن غضب عليه المعتمد فهرب ولكن الموفق أعاده للوزارة، ثم غضب عليه الموفقّ! فعزله عام ٢٦٥ وحبسه حتى مات عام ٢٧٢.

d. **أبي صقر اسماعيل بن بلبل**: وهو عربي، وكان نسبه عربي مغمور وينتسب لشيبان، فمدحه ابن الرومي بقصيدة نونية فيها:

قالوا أبا الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمري ولكن منه شيبان

كم من أب علا بابـــن له شرفـــا
كما علت برسول الله عدنان

فاعتقد أن هذا ذمّ وحاول أن يفهمه بن الرومي عبثا ما في التجديد في هذا الشعر فلم يقبل، وكان كريما متجملا، ولكن بن الرومي هجاه فأقذع مثل قوله:

مهلا أبا الصقر فكم طائـر
خرّ صريعا بعد تحليـق

زوجت نعمى لم تكن كفؤها
فصانها الله منك بتطليق

ثم خلع أبي صفر كسابقيه وصودرت أمواله

e. **صاعد بن مخلد**: وكان من كبار الوزراء وكتب للموفق ثم قبض عليه وعلى أبنائه عام ٢٧٢.

٣. **العلويون**: مات الحسن العسكري، الإمام ١١ للشيعة عام ٢٦٠ هـ ودفن بسامراء، ولم يكن له أبن فاختلفت الشيعة من بعده وادعوا له ابنا هو محمد بن العسكري، وأنه دخل سردابا في سامراء وأنه سيخرج لتولى الولاية ونشر العدل**!** وهم ينتظرونه كل عام عند هذا السرداب**!!** فسبحان من سلب هؤلاء عقولهم. وقد انقسمت الشيعة بعد فمنهم من قال أن الإمامة سبعة حتى جعفر الصادق وساقوها في ابنه عبد الله الأفطح، وهو لم يعش إلا ٧٠ يوما بعد أبيه، ومنهم من قال إنها في ابنه محمد ومنهم من ساقها في ابنه اسماعيل وهم الإسماعيلية.وهم يتفقون مع الإثنى عشرية على الإئمة الستة الأولى. وقد اضطروا بالقول بالإمام المستور لعدم قيام أحد من ولد اسماعيل بالدعوة**!** وتبعوا مذهب **الديصانية**، وهو مذهب سابق للإسلام يقول بالإلهين الظلمة والنور كالمانية، وقيل أن الكثير من قيادات الدولة العباسية كانوا من أتباع الديصانية، مثل عائلة البرامكة إلا محمد بن يحيى، وأبناء سهل وغيرهم، يمكن أن يكون هذا الكلام أشيع من جانب أعداء العباسيين للإساءة إلى الدولة وعمالها أو من جانب الدولة العباسية للإساءة إلى من وقف ضدها من هؤلاء والله أعلم. وكان من تداعيات هذا الأمر ظهور قوتين كان لهما أخطر الأثر في التاريخ الإسلامي، أولهما منظمة: هي **الدولة الفاطمية** التي كان داعيها عبد الله بن ميمون القداح، وكان هو وابوه من الديصانية، وثانيهما غير منظمة وهي دعوة **القرامطة** لعنة الله عليهم وكان أول ظهورهم في الكوفة كما سنبين بعد.

٤. **ثورة الزنج**: وهي ثورة تولاها رجل غير معروف النسب زعم أنه محمد بن علي من أبناء زيد بن علي بن الحسين، ودعا الناس الى طاعته واتبعه ناس كثيرون في عام

٢٤٩ ايام المستعين، وذهب إلى بغداد ليدعو لنفسه سرا ثم عاد إلى البصرة حيث خطرت له فكرة أن يستعين بالزنوج الذين يعملون في السباخ حول مستنقعات البصرة، فبدأ في الدعوة بينهم عام ٢٥٥ أيام المعتز، وكانوا يعانون الأمرّين من الأتراك وحالتهم الإجتماعية تجعلهم ينضمون لأى خارج على الخلافة. ثم دخل الأبلة فأحرقها عام ٢٥٦، ودخل البصرة عام ٢٥٨ وأصابها ببلاء عظيم، ثم أخيرا تصدى له الموفق وحاربه أعواماً عديدة إلى أن انتصر عليه عام ٢٧٠.

٥. **المشرق وأحواله**: ظهرت ثلاثة دول متعاقبة:

a. **آل طاهر**: كان آل طاهر أمراء الشرق منذ عهد المأمون، وكانوا يوالون العباسيين ويتمتعون بحكم شبه ذاتي. وكان أميرهم في عهد المعتمد هو **محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر**. وكانوا يسيطرون على بلاد خراسان وما وراء النهر. واستمروا على ذلك حتى قضى عليهم الصفّاريون.

b. **الدولة الصفّارية**: ورئيسها **يعقوب بن الليث الصفّار** (كان يعمل في تصفير النحاس) ثم جمع الناس من حوله في سجستان هو وأخوه **عمرو**، بمساعدة رجل يدعى صالح بن النضر الكناني وهو مشهور بحربه للخوارج. وحارب علي بن الحسين في شيراز عام ٢٥٥، في عهد المعتز وانتصر عليه وأراد أن يجعله الخليفة على أعمال خراسان بدلا من آل طاهر. ثم في عهد المعتمد، دخل خراسان واستسلم له آل طاهر عام ٢٥٩ بعد أن عجزت الخلافة عن مساعدتهم، وسجن محمد بن طاهر وآل بيته. وأرسل للموفق الذي هو القائم بالخلافة حقيقة أن يثبته على ما استولى عليه من ملم آل طاهر إلا أن الموفق رفض. ثم واجه يعقوب الحسن بن زيد صاحب الدولة الزيدية وتغلب عليه في طبرستان، ولجأ الموفق للحيلة فأقره على ما أراد من أعمال إلا أن يعقوب رفض وطلب أن يدخل سامراء بجيشه ليقابل الخليفة، فعلم الموفق أنها الحرب، فجمع جيشه ونقل الخليفة إلى بغداد وقاد الخليفة الحرب

بنفسه وتواجه الجيشان وانهزم كثير من عسكر يعقوب لمّا رأؤوا أنهم يحاربون الخليفة نفسه. وأطلق الخليفة محمد بن طاهر من أسره، وولاه أعمال المشرق وأمر بلعن يعقوب على المنابر. وعاد يعقوب إلى فارس فضبطها ثم مات عام ٢٦٥ وتولى أخاه عمرو مكانه وكان أدهي منه فصانع الخليفة وأظهر ولاءه له. فأقره الخليفة على ما بيده ثم غضب عليه مرة أخرى عام ٢٧٢ لمّا استشعر طموحاته مثل أخيه، فأمر بلعنه مرة أخرى ثم استرضاه عمرو بالأموال فرضى عنه وظل ذلك الأمر إلى أن حدثت الحرب بينه وبين السامانيين الذين قضوا على الصفّاريين من بعد.

c. **الدولة السامانية – السامانيون**: وهي أسرة فارسية عريقة تنتسب إلى أسد بن سامان، الذى كان يتولى الأعمال لآل طاهر في خراسان وما يليها وكان أولاده أحمد، ونوح والياس ويحيى وكان أحمد عفيفا غنيّ النفس، وكان ابنه نصر واسماعيل بينهما مشاحنات أدت إلى أن انتصر اسماعيل فأكرم أخاه وتولى الأعمال، وكان اسماعيل هو الذي انتصر على عمرو بن الليث الصفاري. ودامت دولتهم حتى آخر ملوكهم عبد الملك بن نوح عام ٣٨٩ حين نشب الخلاف بين ابناء البيت الساماني وتغلب عليهم بنو بويه مؤسسوا الدولة البويهية. وكان نصر بن أحمد الثاني (٣٠١-٣٣١) ميّالا لدعوة الإسماعيلية إلا أن ابنه نوح بن نصر الأول (٣٣١-٣٤٣) قضى عليهم.

٦. **شمال أفريقيا: الدولة الطولونية**: ومؤسسها هو أحمد بن طولون، وكان ابوه مولى للمأمون، أهداه نوح بن أسد الساماني اليه عام ٢٠٠، وولد له أحمد عام ٢٢٠، ثم كان هو الذي تولى قتل المستعين للمعتز. وقد ولاه القائد التركي بايباك مصر عام ٢٥٤ لما كان له من شجاعة وحسن إدارة، وكان حافظا للقرآن حسن السيرة. وكان يدعى له في مصر بعد الخليفة منذ أيام المهدي. ثم أراد الموفق أخو المعتمد أن يعزله عام ٢٦٢ وأرسل جيشا يحاربه ولكن الجيش لم يحارب لنقص الأموال،

وفي عام ٣٦٣ أمّره المعتمد على طرسوس ليحميها من البيزنطيين، فدخلت الشام والثغور في مملكته ووصلت إلى الفرات، وأصبح ملك العباسيين لا يتجاوز العراق والجزيرة.وتوفي أحمد بن طولون عام ٢٧٠ وخلفه ابنه خمارويه واستطاع أن يثبت ملكه واعتراف الدولة العباسية بولايته ووطد علاقته بالعباسيين حتى أنه زوّج ابنته «قطر الندى» بنت خمارويه للخليفة المعتضد. واستمرت مملكة الطواونيون حتى شيبان بن أحمد بن طولون عام ٢٩٢ حين غزا المكتفي مصر وأنهى عهد الطولونيين، ولم تعمر إلا ٣٨ عاماً.

٧. **ولاية العهد**: لّما كان الموفق هو القائم بالخلافة حقيقة، فقد عيّن ابن الخليفة المعتمد واسمه المفوض ومن بعده ابنه المعتضد أبو العباس، ومات الموفق عام ٢٧٨، فخلع أبو العباس المفوض لضعفه وقدم نفسه عليه في حياة المعتمد. ومات المعتمد عام ٢٧٨ إثر أكلة أكلها ولم يكن بشيئ في حياته بل مجرد استمتاع بالغناء والرقص والشراب.

أحمد المعتضد بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) بن محمد (المعتصم) بن هارون (الرشيد) (٢٧٩-٢٨٩):

١. أمه أم ولد إسمها ضرار. وقد حكم تسع سنوات وكان مساعدا لأبيه في حروبه، فكان كفئا قويا، وكان زوجا لقطر الندى بنت خمارويه من الطولونيين في مصر.

٢. **وزراء المعتضد:**

a. **عبيد الله بن سليمان بن وهب**: وقد ظلّ وزيرا له حتى مات فاستوزر ابنه **القاسم بن عبيد الله** ومات وهوو وزيرا له. وقد كانت خزانة الدولة مفلسة إذ أن اسماعيل بن بلبل قد استخرج خراج عامين في عام أيام المعتمد فلم يكن في الدولة أي قدر من المال، فنصح له من حوله أن يطلق سراح بعض ذوي النفوذ، كابني الفرات وأن يأخذ عليهم مكتوبا بأن يؤدوا اليه مبلغا يوميا ومبلغا شهريا! ففعل.

٣. **الإضطرابات مع العرب والخوارج**: وقد كانت الخوارج ومعهم جمع من العرب قد ساءت العلاقة بينهم وبين العباسيين إذ أن هؤلاء أسقطوهم من العطايا والأرزاق، وقد كان بنو شيبان هم الأكثر ثورة، وقد حاربهم المعتضد عدة مرات. وكان أن خرج عليه رجل خارجي يدعى هارون الشاري (كلمة الشاري تعني الذي باع نفسه لله، قال تعالي: ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله، أي يبيع نفسه)، ولما قويت شوكته أرسل المعتضد جيشا بقيادة **الحسين بن حمدان**، فانتصر عليهم وخلع عليه الخليفة أرزاقا، وكان هذا بداية طلوع نجم **الدولة الحمدانية**، وهو جدهم.

٤. **القرامطة**: سبق أن ذكرنا ما كان من القرامطة، وأنهم ظهروا في الكوفة واعتنقوا الديصانية، وظهر أمرهم في البحرين، وقد هاجموا البصرة عام ٢٨٧ وأرسل المعتضد جيشا فحاربهم وأشاع فيهم القتل، ثم أرسل إلى الكوفة جيشا فأسر قائد لهم إسمه أبو الفوارس وقتله. ثم كان أنهم لما أحسوا بالتضييق عليهم في الكوفة خرج داعيهم زكرويه فدعا لإبنه المعروف بالشيخ على أنه من نسل اسماعيل بن جعفر الصادق! ودعوا للبيعة بني وبرة من بني كلب فأجابه بعضهم وزعموا أن لهم مائة ألف تابع وداعية وسمي أتباع الشيخ هذا الفاطميون من القرامطة. وقد كانت لهم وقعات في البحرين والعراق، ثم توجهوا إلى الشام فحاربوا خمارويه وهزموا جيشه، وكان دعاة الفاطميين ينشطون في مصر واليمن في هذه الأيام فكانت هذه الدعوة منتشرة في كافة الأنحاء في سرية من ناحية الفاطميين من أتباع ميمون القداح وفي حرب ومجابهة من أتباع القرامطة.

٥. **المشرق**: دارت صراعات كثيرة بين الصفّاريون يقيادة عمرو بن الليث وبين السامانيين بقيادة اسماعيل بن أحمد انتصر فيها اسماعيل وانتهت بسجن عمرو ثم قتله في أول عهد المكتفي وانتهت دولتهم عام ٢٩٠. ثم دارت معارك بين السامانيين والزيديين وانهزم الزيديين وانتهت دولتهم على يد أحمد بن اسماعيل

الساماني.

٦. **مصر والشام**: وكانت علاقة المصاهرة بين خمارويه والمعتضد بزواج الأخير من قطر الندى ابنة الأول. وقد كان جهازها خياليا بل بنى لها أبوها قصرا في كل مرحلة من مراحل السفر بين مصر وبغداد وجهزه بكل ما يلزم ومن جهازها ألف هون ذهب وسرير مكون من أربع قطع من ذهب وقوائم ذهب معلق في كل قائمة مشبك ذهب به جوهرة لا تقدر بثمن! فسبحان الله العظيم. ثم كان أن قتل خمارويه، ولم يكن ابنه في قوته فقتله الجنود وعينوا هارون أخيه بدلا منه، وطلبوا من المعتضد تعيين والي من قبله على الشام والثغور ففعل، وبذلك قوي نفوذه هناك لضعف الطولونيين وانتهت دولتهم عام ٢٩٢.

٧. **إصلاحات المعتضد**: ولا شك أن المعتضد أعاد للخلافة بعض قوتها رغم أنه كان دموي عنيف، وذلك لشجاعته. ومن أهم ما فعل هو استعماله للتقويم المعتضدي في الشهور العربية، وهو عبارة عن نظام يوفق بين السنة القمرية والشمسية لما يحتاج اليه في جمع الخراج وذلك بإسقاط سنة خراجية كل ٣٢ سنة ليتفق التقويمين. وقد هجر المعتضد سامراء إلى بغداد فخربت بعد جمال وروعة وفي ذلك يقول بن المعتز (وهو بن الخليفة المعتز وكان شاعرا مجيدا):

قد أقفرت سامـــرا
وما لشيئ دوام
فالنقض يحمل منها
كأنّها آجـــم
ماتت كما مات فيل
تسل من العظام

٨. وفاة المعتضد: توفي المعتضد عام ٢٨٩ وخلفه ابنه المكتفي.

علي المكتفي بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) بن محمد (المعتصم) بن هارون (الرشيد) (٢٨٩–٢٩٥):

١. وأمه نركية إسمها جيجك. وقد تدهورت الأحوال في عهده نظرا للغدر الذي وقع من الوزراء بل وتعدى إلى بعض القضاة الذين مكنوا مثل هذا الغدر ونقض العهود.

٢. **القرامطة**: وقد ساعد هذا الجو المليئ بالغدر على سعة انتشار دعوة القرامطة، وسار داعيهم يحي بن ذكرويه المعروف بالشيخ عام ٢٨٩ إلى العراق والشام وخرّب القرى والمدن في طريقه واجتمع على قتاله هارون بن خمارويه وقتل يحيى هذا وتولى بعده أخاه الحسين بن ذكرويه وسمى بذى الشامة وانتصر على المصريين ودعى له على المنابر في حمص وبلاد الشام ٢٨٩–٢٩١ وشاع القتل في المسلمين في تلك النواحي. ثم أرسل المكتفي طليعة جيشه بقيادة أبا الأغر في عشرة آلاف فارس ولكن القرمطي غلب عليهم وقتل منهم عددا كبيرا ودخل الباقي حلب ولم يتمكن القرمطي من دخولها عليهم. وسار المكتفي إلى الرقة بجانب حلب وأرسل الجيش بقيادة محمد بن سليمان وانتصر على ذي الشامة وحاول ذاك الهرب ولكن قبض عليه وأعدم مع الأسرى من جيشه. ولكن رأس الفتنة ذكرويه كان لا يزال حيّا، فبعث من يدعو له مرة أخرى وجنّد الجنود وهاجم الكوفة عام ٢٩٣ وقتل خلق كثير ثم سار إلى القادسية ثم أغاروا على حجاج العراق وخراسان عام ٢٩٤ فقتلوهم وأخذوا أموالهم فسار اليهم المكتفي في جيش عظيم وقاتلهم وأسر ذكرويه ومات بعد خمسة أيام من الواقعة. وهكذا أوشكت هذه الدعوة الخبيثة على الزوال بعد قتل رأسها وأولاده، ولكن بقي الجنابي بالبحرين، وهو الذي تولى الدعوة لهم أول ظهورهم، ولم يكن له شأن في عهد المكتفي، ولكن ظهرت خبائثه في عهد المقتدر كما سنرى.

٣. **المشرق**: استقرت بلاد المشرق في يد اسماعيل بن أحمد الساماني وكان حازما عاقلا، ورضى عنه المكتفي حتى توفي عام ٢٩٥ فتولى إبنه أحمد بن إسماعيل وثبته الخليفة على ما بيده وهو الذي قضى على الدولة الزيدية.

٤. **المغرب**: وقد انتهى أمر دولة الطولونيين كما ذكرنا في عهد المكتفي عام ٢٩٢ وآخر أمرائها شيبان بن أحمد بن طولون، وكذلك انتهى عهد دولة الأغالبة في المغرب على يد داعية الفاطميين أبي عبد الله الشيعي.

a. **دولة الأدارسة ١٧٢-٣٦٤:** هي التي أسّسها إدريس بن عبد الله بن الحسن الذي فرّ في عهد الهادي عقب موقعة «فخ» وأسّس دولة الأدارسة الشيعية (التي ساندهاالبربر وهم من السنة) والتي إستمرت مناوئة للعباسيين حتى أنهتها الدولة الفاطمية.

b. **دولة الأغالبة: ١٨٤-٢٩٦**: هارون الرشيد، أراد أن ينغص على الأدارسة فولى على المغرب **إبراهيم بن الأغلب** على أن يكون تابعا للعباسيين ويرسل لهم الخراج وكانت عاصمتها القيروان (تونس)، وامتدت في عهد حفيده زيادة الله إلى صقلية التي فتحت على يد الإمام أسد بن الفرات، واستمرت دولة الأغالبة كذلك حتى قضى عليها الفاطميون عام ٢٩٦ حين فتحوا القيروان.

c. **الدولة الطولونية**: وكانت في آخر عهدها بالقوة بعد إغتيال خمارويه وتصارع أفرادها وسيطرة الجند عليها فغزاها المكتفي عام ٢٩٢ وأنهى حكمهم.

٥. **الروم**: بدأت العلاقات حسنة ثم تدهورت وغزا المسلمون الروم مرتين بقيادة رستم بن برد واستردوا أسرى من أيديهم

٦. **وفاة المكتفي**: توفي المكتفي عام ٢٩٥ وتولى أخوه المقتدر بن المعتضد. ولم يكن المكتفي قد عيّن أحدا لولاية العهد، فساير مرة وزرائه ومنهم داود بن الجراح وعلي بن الحسن بن الفرات، فاستشار عليّا فيمن يولي، فقال: عبد الله بن المعتز وهو رجل

ذو خلق وعقل وادب، ولكن بن الفرات أشار عليه بعد إلحاح أن يعيّن جعفر المقتدر بن المعتضد رغم صغر سنه (١٣ عاما).

جعفر المقتدر بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) بن محمد (المعتصم) بن هارون (الرشيد) (٢٩٥–٣٢٠):

١. أمه أم ولد إسمها شغب. وقد حكم ٢٤ عاما حتى قتل، وكان معاصرا لعبد الرحمن الناصر في الأندلس وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين في تلك الدولة،كما يعاصره عبيد الله المهدي في مصر أول خلفاء الفاطميين الديصانيين، كما كان معاصره في الشرق أحمد بن إسماعيل الساماني.

٢. قامت حركة تزعمها عليّ بن الجراح وعدد من القادة فخلعت المقتدر وعينت بن المعتز وقد رضي بذلك على أن لا يكون هناك سفك دماء. ثم حدث أن وقفت أنصار المقتدر معه للدفاع عن الخلافة وهزموا أنصار بن المعتز وصار هرج وفوضى في بغداد وقبض على بن المعتز وقتله. ونظرا لصغر سنه واستهتاره لم يكن للخلافة أية هيبة وسيطرت أمه ومربيته على الأمور.

٣. **وزراء المقتدر:**

١. **عليّ بن الفرات:** وقد نظم الشرطة والأمن وقبض على من وقف مع بن المعتز واستمر على ذلك ثلاث سنوات ثم طلب منه الخليفة مالا فلم يعطه له فأوقع به وقبض عليه وصادر ماله ودياره.

٢. **محمد بن عبيد الله بن خاقان:** وقد حاول إرضاء الخليفة بإعطائه المال من بيت مال العامة حتى خربت الأمور واستدانت الدولة وهو و ما أدى إلى أن يقوم الخليفة بتغييره بعد أكثر من عام واحد.

٣. **علي بن عيسى:** وكان رجلا عفيفاعاقلا يريد الإصلاح، ولكنه راي الديون الطائلة التي تثقل كاهل الديوان وأن بن الخاقان قد وقّع عليها كلها كديون

لأصحابها ومنهم من هم من خواص الخليفة فأراد أن يصارح الخليفة وأن يسقط من هذه الديون ما وقّع عليه أصحاب الخاقان ولم يوقعها بنفسه، فقالوا له: اسأل الخاقان نفسه عن التوقيعات التي بيده فابقيها وما بيد حاشيته فأسقطها، ففعل فقال بن خاقان إنها كلها من توقيعه، حرصا على علاقاته مع الحاشية، فحفظوا له الجميل واضطر علي بن عيسى أن يعمل على السداد، ثم كتب إلى أم الخليفة يستأذنها في ترك الوزارة، ولكن لم يزالوا به حتى قبض عليه وأودع السجن فلا حول ولا قوة إلا بالله.

٤. **علي بن الفرات**: وخرج بن الفرات من السجن وأعطى الخليفة والحاشية ما أرادوا ثم إن حكومة النساء لم تتركه بل أشاعوا أنه ولى ابنه الأعمال والدواوين وغير ذلك فقبض عليه مرة أخرى بعد عام واحد.

٥. **حامد بن العباس**: وكان جاهلا ليس بشيئ فأحضر علي بن عيسى من السجن وجعله نائبا له فصارت الأمور بيديه، ثم إنه أحضر بن الفرات من السجن ليسأله عن اشياء فجرت محادثة أساء فيها بن الفرات اليه وأظهر معايبه. وقد قامت ثورة للعامة نتيجة أن حامد وقواده كانوا يخزنون الغلة فحارب الخليفة العامة وأوقف الفتنة ثم أمر ببيع الغلة التي خزنها حامد وقواده. ثم إن علي بن عبسى كان قد شدد على الناس فضجروا منه وأوقعوا به فقبض عليه الخليفة وفرّ حامد ثم قتلته الحاشية بعد، وأطلق سراح بن الفرات وتولى الوزارة للمرة الثالثة.

٦. **علي بن الفرات**: وتولى الوزارة مرة ثالثة إلا أن حرب القرامطة أوقعت العامة في مصائب كثيرة تحمل بن الفرات تبعاتها فقبض عليه مرة اخرى ثم قتل هو وابنه المحسن شر قتلة.

٧. **عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن خاقان**: ولم يكن حظه خير من غيره، فقد أوقعت به العامة وصودرت أمواله وابنه عبد الوهاب

٨. **أبو العباس الخصيبي**: وكان سكّيرا لا يبالي بشي وأهمل الدواوين فعزله المقتدر وأعاد علي بن عيسى.

٩. **علي بن عيسى**: وقد أجرى الكثير من الإصلاحات إلا أن الأوضاع لم تتغير من سيطرة الحاشية والنساء فاغروا به الخليفة فقبض عليه عام ٣١٦ وسجن.

١٠. **أبو علي بن مقلة**: وكان كاتبا بارعا كما كان مرتشيا قديرا! وكانت بينه وبين مؤنس المظفر القائد مودة فكان يعاونه إلى أن غضب المقتدر على مؤنس فعزل أبو علي.

١١. **سليمان بن الحسن**: ولم تدم وزارته طويلا إذ أن الخليفة جعل معه علي بن عيسى ليشرف على الدواوين، ثم ضاقت به الحال وقبض عليه بعد أربعة عشر شهرا.

١٢. **أبو القاسم الكلوذاني**: ولم يعزل عن ضعف ولكن لغباء المقتدر وقلة عقله إذ دخلت عليه حيلة أن هناك كتاب قديم تصف الحسين بن القاسم وأنه سيستوزر للإمام ١٨ من بني العباس فعزل أبو القاسم وولى الحسين!

١٣. **الحسين بن القاسم**: ولم يكن على علم بأعمال الوزارة فازدادت الأحوال اضطرابا فعزله المقتدر بعد سبعة شهور.

١٤. **الفضل بن حجر**: وهو آخرهم، وبقي فيالوزارة حتى مات المقتدر.

٤. **القرامطة**: ذكرنا أن أمر القرامطة آل إلى هزيمتهم في الشام والعراق ومقتل أبي الشامة بن ذكرويه ثم مقتل ذكرويه أيام المكتفي عام ٢٩٣. ولكن الجنابي زعيمهم والقائم بأمرهم عاث في البحرين الفساد ثم قتل عام ٣٠١، وتولى ابنه سليمان الجنابي. فقوي واشتدت غزواته للبصرة وقتله الحجاج، وأخذ القوافل المتوجهة إلى بغداد عام ٣١١، فقاتلهم والى الكوفة جعفر بن ورقاء الشيباني،

إلا أنه هزم واستولى القرمطي على الكوفة ودخلها ثم خرج منها وعاد لدخولها عام ٣١٥، وهزموا جيش الخليفة بقيادة يوسف بن أبي الساج، وعاثوا الفساد بعدها في الجزيرة والعراق، حتى توجهوا إلى مكة عام ٣١٧ هـ فلم يرع حرمتها واستباحها وقتل الحجيج وألقاهم في زمزم وخلع كسوة الكعبة ووزعها بين اصحابهن وأخذ الحجر الأسود معه إلى البحرين وكانت المقتلة عظيمة حتى أن المهدي عبيد الله العلوي رأس الفاطميين أرسل اليه يعاتبه ويلعنه ويقول أنه وصم دولتهم الشيعية بالكفر والعار إلى الأبد وهو صحيح، فلما وصله هذا الكتاب أعاد إلى مكة بعض الأموال إلى أصحابها ولكنه لم يعد الحجر الأسود. وبقي أمر القرامطة ظاهرا إلى حين.

٥. **إنقسام الدولة أيام المقتدر**: وقد كانت الدول المستقلة ظاهرة في أنحاء الدولة العباسية لضعفها:

١. **الدولة السامانية**: في المشرق وقد تحدثنا عنها من قبل ونشاتها في عهد المعتمد.

٢. **الدولة الحمدانية**: ٣١٩ -٣٩٩: في الموصل وهم من تغلب، وكان بدأ ظهوررؤوسها أيام **المعتضد** كما ذكرنا من قبل وجدهم **الحسين بن حمدان**، ومنهم من اشتهر بالشجاعة **كسيف الدولة الحمداني** وهو صاحب **المتنبي** وفيه قال قصيدته المشهورة، وقد توطدت في عهد المتقي. وكان مركزها الموصل وهواها مع العرب إذ انهم من عرب تغلب، وقد انتصروا للخليفة ضد الأتراك فعزز الأخوين سيف الدولة وناصر الدولة، ولكن الأتراك طردوهم من بغداد فعادوا إلى الموصل. واستطاع سيف الدولة أن يتغلب على الإخشيديين في حلب وأن ينقل ملكه هناك وكان مجلسه مجلس علم يحضره المتنبي والأصفهاني وابن نباتة والفارابي وغيرهم، وكان ابن عمه الشاعر المشهور أبو فراس الحمداني[١]، القائل:

[١] وكان أميرا عالما أديبا جهبذا فارسا وقد أسره الروم وافتداه سيف الدولة، وكان عاشقا لأخت سيف الدولة

أقول وقد ناحت بقربي حمامـــة
أيا جارتا هل تشعرين بحالــي

معاذ الهوى ما ذقت طارقة النـوى
ولا خطرت منك الهموم ببـــال

أيا جارتا ما أنصـف الدهر بيننـا
تعالي أشاطـرك الهموم تعالـي

أيضحك مأسور وتبكي طليقـــة
ويسكت محزون ويهتف سالى

كذلك:

أراك عصي الدمع شيمتك الـصبر
أما للهوى نهي عليك ولا أمـر

نعم أنا مشتاق وعندي لوعـــة
ولكن مثلي لا يذاع له ســـر

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى
وأذللت دمعا من خلائقه الكبـر

تكاد تضيئ النار بين جوانحـــي
إذا هي أذكتها الصبابة والفكـر

معللتي بالوصل والموت دونـــه
إذا مت ظمآنا فلا نزل القـــطر

تسائلني من أنت وهي عليمـــة
وهل لشجى مثلي على حاله نكر

فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى
قتيلك، قالت: أيهم فهم كثـــــر!

فقلت لهــا لو شئت لم تتعنتـــي
ولم تسألي عني وعندك بي خبر

فقالت: لقد أزرى بك الدهر بعدنا
فقلت: معاذ الله بل أنت لا الدهــر

وما كان للإحـــزان لولاك مسلكٌ
إلى القلب ولكن الهوى للبلى جسر

وقلبت أمرى لا أرالي راحـــــة
إذا لبين أنساني ألحّ بي الهجـــر

فلا تنكريني يا ابنة العم إنـــــه
ليعرف من أنكته البدو والحضر

ولا تنكريني إنني غير منكـــــر
إذا زلزلت الأقدام واستنزل النصر

وإني لجـــــرّار لكل كتيبـــة
معــــوّدة أن لا يخل بها النصر

ثم إنه غزا الروم في أعوام ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٩ وانتصر عليهم نصرا ساحقا فكتب المتنبي قصيدته الشهيرة[١] في مدح سيف الدولة. وقد استطاع أن يرد كيد البيزنطيين كذلك استطاع

---

[١] عَلَى قَدْرِ أَهلِ العَزمِ تَأتِي العَزائِمُ   وتَـأتِي عَلَى قَدْرِ الكِرامِ المَكـارِمُ
وتَعظُمُ في عَينِ الصّغِيرِ صِغارُها   وتَصغُر في عَينِ العَظِيمِ العَظائِمُ
يُكلّفُ سَيفُ الدَولَةِ الجَيشَ هَمّهُ   وقد عَجَزَتْ عنهُ الجُيوشُ الخَضارِمُ

ويَطلب عِندَ الناسِ ما عِندَ نَفسهِ وذلِكَ ما لا تَدَّعِيهِ الضَراغِمُ
يُفدّي أَتمُّ الطَّيرِ عُمرًا سِلاحَه نُسورُ الفَلا أَحداثُها والقَشاعِمُ
وَما ضَرَّها خَلْقٌ بِغَيرِ مخَالِبِ وقد خُلِقَتْ أَسيافُهُ والقَوائِمُ
هَلِ الحَدَثُ الحَمراءُ تَعرِفُ لَونَها وتَعلَمُ أَي الساقِيَينِ الغَمائِمُ
سَقَتها الغَمامُ الغُرُّ قَبلَ نُزولهِ فَلما دَنا منها سقتها الجَماجِمُ
بَناها فأَعلَى والقَنا يَقرَعُ القَنا ومَوجُ المَنايا حَولَها مُتَلاطِمُ
وَكانَ بِها مِثلُ الجُنونِ فأَصبَحَت ومِن جُثَثِ القتَلَى عَلَيها تَمائِمُ
طَرِيدةُ دَهرٍ ساقَها فرددْتَها على الدِينِ بالخَطِّيِّ والدَهرُ راغِمُ
تُفِيتُ الليالِي كُلَّ شيءٍ أَخذتَهُ وهُنَّ لِما يَأخُذنَ مِنكَ غَوارِمُ
إذا كانَ ما تَنوِيهِ فِعلاً مُضارِعًا مَضَى قَبلَ أن تُلقَى عَلَيهِ الجَوازمُ
وَكيفَ تُرَجِّي الرُومُ والروسُ هَدمَها وَذا الطَعنُ آسَاسٌ لها ودَعائِمُ
وقد حاكَمُوها والمَنايا حَواكِمٌ فما ماتَ مَظلُومٌ ولا عاشَ ظالِمُ
أَتَوكَ يَجُرُّونَ الحَدِيدَ كأنّما سَرَوْا بِجِيادٍ ما لَهُنَّ قَوائِمُ
إِذا بَرَقُوا لَم تُعرَفِ البِيضُ مِنهُمُ ثِيابُهُمُ من مِثلِها والعَمائِمُ
خَمِيسٌ بِشَرقِ الأرضِ والغَربِ زَحفُهُ وفي أذُنِ الجَوزاءِ منهُ زمازمُ
تَجَمّع فيهِ كُل لِسنٍ وأُمَّةٍ فما يُفهِمُ الحُدَّاثُ إلا التَراجِمُ
فلِلّهِ وَقتٌ ذوَّبَ الغِشَّ نارُهُ فلم يَبقَ إلا صارمٌ أو ضُبارِمُ
تَقَطع ما لا يَقطَعُ الدِرعَ والقَنا وفَرَّ منَ الفُرسانِ مَن لا يُصادِمُ
وَقَفتَ وَما في المَوتِ شَكٌّ لِواقِفٍ كأَنكَ في جَفنِ الرَّدَى وَهْوَ نائِمُ
تَمُرُّ بِكَ الأَبطالُ كَلْمَى هَزِيمةً ووَجهُكَ وَضّاحٌ وثَغْرُكَ باسِمُ
تجاوَزتَ مِقدارَ الشَجاعةِ والنُهَى إلى قولِ قَومٍ أَنتَ بالغَيبِ عالِمُ
ضَمَمتَ جَناحَيهم على القَلبِ ضَمّةً تَمُوتُ الخَوافِي تحتَها والقَوادِمُ
بِضَربٍ أَتَى الهاماتِ والنَصرُ غائبٌ وَصارَ إلى اللبَّاتِ والنَصرُ قادِمُ
حَقَرتَ الرُدَينيَّاتِ حَتَّى طَرَحتَها وحَتى كأنَّ السيف لِلرُمحِ شاتِمُ
ومَن طَلَبَ الفَتحَ الجَليلَ فإنَّما مَفاتيحُهُ البِيض الخِفافُ الصَوارِمُ
نَثَرتَهُمُ فَوقَ الأُحَيدِبِ كُلِّهِ كَما نُثِرت فَوقَ العَرُوسِ الدَراهِمُ
تَدُوسُ بِكَ الخيلُ الوُكورَ على الذُّرَى وقد كَثُرَت حَولَ الوُكورِ المَطاعِمُ

أن يخرجهم من حلب. وهاجم البيزنطيون الشام عام ٣٥١ وخرج منها سيف الدولة، ، ثم هاجم نقفور ملك الروم عام ٣٥٣ وعام ٣٥٤ و ٣٥٨ ولم يمنعه أحد حيث أن سيف الدولة مات عام ٣٥٦ ، وقتل البيزنطيون الآلاف وسبوا الأطفال والبنات والنساء وتولى سعد الدولة ٣٥٦ ولكن لم يكن في قوة أبيه فضعفت الدولة ، وانتهت على أيدي الفاطميين بعد اعتراف عامل حلب بسيطرة الفاطميين عليها عام ٣٨٨.

٣. **القرامطة:** في البحرين وما كان من بشاعاتهم كما أسلفنا.

٤. **الدولة الفاطمية:** في مصر وشمال إفريقيا وقد بدأت كما أسلفنا بدعوة عبد الله بن ميمون القداح، ثم المهدي عبيد الله المهديّ وداعيته عبد الله الشيعيّ الذي كوّن جيشا كبيرا ثم دعا عبيد الله أن يحضر إلى المغرب التي استولى عليها من

تَظُنَّ فِراخُ الفُتخِ أَنكَ زرتَها ... بِأُمّاتِها وَهْيَ العِتاقُ الصَّلادِمُ
إِذا زَلِقَت مَشَيتَها بِبُطُونِها ... كَما تَتَمشّى في الصَعيد الأَراقمُ
أَفِي كُلِّ يومٍ ذا الدُّمستُق مُقدِمٌ ... قَفاهُ على الإِقدامِ لِلوَجهِ لائِمُ
أَيُنكِر ريحَ اللّيث حتّى يَذُوقَه ... وقد عَرفَتْ رِيحَ الليُوث البهائِمُ
وقد فَجَعَتهُ بِابنِهِ وابنِ صهرِهِ ... وبالصِهرِ حَملاتُ الأَميرِ الغَواشِمُ
مَضَى يَشكُرُ الأَصحابَ في فَوتِهِ الظُبى ... لِما شغلتها هامُهُم والمَعاصِمُ
ويفهَمُ صَوتَ المَشرفيَّةِ فيهِمِ ... على أَنَّ أَصواتَ السُيُوفِ أَعاجِمُ
يُسَرُّ بما أَعطاكَ لا عَن جَهالةٍ ... ولكِنَّ مَغنوماً نجا مِنكَ غانِمُ
وَلستَ مليكًا هازِمًا لِنَظِيره ... ولكِنكَ التَّوحِيدُ لِلشِرْكِ هازمُ
تشَرَّفُ عَدنانٌ بِهِ لا رَبيعةٌ ... وتَفتخِرُ الدُّنيا بِهِ لا العَواصِمُ
لَكَ الحَمدُ فى الدُرِّ الَّذي لِيَ لَفظُهُ ... فإِنَّكَ مُعطيه وإِنِّيَ ناظِمُ
وإِنّى لَتَعدو بي عَطاياكَ في الوَغى ... فَلا أَنا مَذمُومٌ ولا أَنتَ نادِمُ
على كُلِّ طَيّارٍ إِليها بِرجلِهِ ... إِذا وَقَعَتْ في مِسمَعَيهِ الغَماغِمُ
أَلا أَيُّها السَّيفُ الَّذي لَيسَ مُغمَداً ... وَلا فيهِ مُرتابٌ ولا مِنهُ عاصِمُ
هَنِيئا لِضَربِ الهامِ والمَجدِ والعُلَى ... وَراجِيكَ والإِسلامِ أَنكَ سالِمُ
ولِم لا يَقِي الرَّحمنُ حَدّيكِ ما وَقَى ... وتَفلِيقُهُ هامَ العِدَى بِكَ دائِمُ

دولة الأغالبة، ثم إن أمير سلجماسة قبض على عبيد الله وسجنه وهو في طريقه للقيروان ولكن عبد الله الشيعي أخذ جيشا كبيرا من أتباعه البربر وحرره واستولى على سلجماسة واعلنت الدولة الفاطمية في القيروان، ثم جاء من نسل عبيد الله المعز لدين الله الفاطمي الذي أرسل قائده جوهر الصقلي ففتح مصر ٣٥٩، ثم نقل الخلافة إلى القاهرة التي بناها المعز. واستمرت دولة الفاطميين الشيعية الإسماعيلية الديصانية حتى قضى عليها القائد السني العظيم صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٧ وظهرت الدولة الأيوبية.

٦. **قتل المقتدر**: وقد وقعت جفوة بين المقتدر وبين قائد جيشه مؤنس المظفر فاستولى على الموصل أيام ناصر الدولة الحمداني وسار إلى بغداد وأشار عليه البعض بالخروج للقتال ولكن عددا من البربر والمغاربة أوقعوا به فقتلوه وتركوه ملقى عار حتى ستره أحد الناس ودفنه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

محمد القاهر بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) بن محمد (المعتصم) بن هارون (الرشيد) (٣٢٠-٣٢٢):

١. أمه أم ولد اسمها قتول وهو أخو المكتفي وبايعه مؤنس على مضض لعلمه بخبثه وشره. وقد بدأ ولايته بالظلم فأحضر أم المكتفي ليأخذ مالها وكانت قد جزعت كثيرا لقتل ابنها وامتنعت عن الأكل فعلقها وضربها وأقرت على متاعها دونمالها وقالت لو وكان عندي مال لما تركت ابني يقتل. ثم هرب بقية أهل المقتدر خوفا من القتل.

٢. كانت ولاية القاهرعامين قضاها في قتل من والاه ومن وقف ضده فقرب محمد بن ياقوت وهو ما لم يرض مؤنس فبدأ القواد يتآمرون للقضاء عليه ولكنه خدعهم وقبض عليهم وقتلهم جميعا. وعلم الناس انه دموي فندم من ساعده من قبل. وبقي ضده وزيره أبا علي بن بقلة الذي كان يدبر لقتله حتى تمكن من الهجوم على بيته فقبض عليه وسملت عيونه وانتهى أمره وكان محبا للغناء والمغنيات، فلا

حول ولا قوة إلا بالله.

أحمد الراضى بن جعفر المقتدر بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) بن محمد (المعتصم) بن هارون (الرشيد) (٣٢٢-٣٢٩):

١. أمه أم ولد اسمها ظلوم. وهو أخو المعتضد وعم القاهر والمكتفي. وكانت أيامه حوالي سبعة سنوات، كلها صراع بين الأمراء الذين يريدون الإستيلاء على السلطة.

٢. الوزراء: كان الصراع أولا بين الوزير **أبا علي بن مقلة** ومحمد بن ياقوت الحاجب، وكانت الغلبة لإبن مقلة إلى حين ثم وشى به ياقوت فسجن هو وأخوه المظفر، ثم أراد الخليفة أن يولي علي بن عيسى فرفض ونصح بأخيه **عبد الرحمن بن عيسى**، ولكنه لم يتمكن من شيئ فسجن، ثم استوزر **أبا جعفر الكرخي**، ومن بعده **سليمان بن الحسن**، ولم يفعلا شيئا.

٣. كانت البصرة تحت ولاية محمد بن رائق والأهواز تحت البريدي بعد أن تغلب بني بويه[١] على فارس. فلم يكن هناك موارد للدولة، فعينّ الراضى بن رائق أميرا للأمراء عسى أن يمكنه تحسين الأحوال، واستوزر بن رائق **جعفر بن الفرات**. ثم أراد بن رائق أن يتقرب من البريدي فأرسل اليه يستوزره وضم اليه البصرة، ولكن ذلك زاد من قوة البريدي وأخذ البصرة عنوة، فحاربه بن رائق وغرقت سفن البريدي وهرب إلى الأهواز ثم استعان بعماد الدولة بن بويه الذي استولى على الأهواز وتراجع البريدي إلى البصرة. ثم وقع خلاف بين ناصر الدولة الحمداني وبين الراضي فسار الأخير لحربه ثم اتفقا على الصلح وأن يرسل ناصر الدولة ٥٠٠٠٠٠ درهم إلى الخليفة، وعاد الخليفة ومعه قائده بن بجكم للقاء بن رائق في بغداد بعد أن سمعا أنه استولى عليها ثم صالحاه على أن يحكم بعض

[١] ومؤسسها علي بن بويه وكان زعيما من الديلم واستولى على الأهواز ثم فارس وأقام دولة البويهيين الشيعة عام ٢٢٣ ثم استولى على بغداد ٤٣٣، واستمرت الدولة البويهية حتى عام ٧٤٤ حين قضى عليها السلاجقة بدخولهم بغداد.

ديار العراق.

٤. **الحنابلة**: كان للحنابلة وطأة شديدة في بغداد فقد شكلوا هيئات للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنعوا الرجال أن يسيروا في الطرقات إلا مع نساء ممن هم حرم لهم، وهدموا القباب والأضرحة واعتدوا على المغنيات وكروا يلات المعازف واشتدت وطأتهم وكان رئيسهم الإمام البربهاري. وقد حذرهم الخليفة من تهييج العامة.

٥. **القرامطة**: وكان لا يزال القرامطة في عهده على قوتهم وقائدهم أبو طاهر كان لا يزال متمسكا بالحجر الأسود في البحرين. ثم قتلوا الحجيج كعادتهم عام ٣٢٣.

٦. **الدولة الإخشيدية**: وقد ظهرت الدولة الإخشيدية في مصر عقب انهيار الطولونيون بها وعودتها إلى الخلافة العباسية أيام المعتضد ثم ضعف قبضتهم عليها ايام المقتدر، فكان أن **محمد بن طغج الإخشيد** استولى على الحكم وكانت بين بن رائق وبين الإخشيد معارك انتهت بأن ترك الإخشيديون الشام لإبن رائق حتى قتل عام ٣٣٠ على يد ناصر الدولة الحمداني وضمّ الإخشيد الشام. وكان منشأ الدولة الإخشيدية عام **٣٢٧** واستمرت في بنيه حتى أبو الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد، إلا أن الحاكم الفعلي بعد الإخشيد كان كافور الوصي على ابني الإخشيد الحدثين، وقد كان قائدا شجاعا ومدحه المتنبي إلا أن كافورا لم يعطيه ما أراد فذمه ذمّا قبيحا فقال:

لا تشترى العبد إلا والعصا معه
إن العبيد لأنجاس مناكيد

من علّم الأسود المخصي تكرمة
آباؤه الصيد أم أجداده السود

ووصل حكم الإخشيديين إلى الجزيرة وبلاد النوبة والشام وحدود آسيا الصغرى، ويجاور دولة الحمدانيين وكانت بينهم حروب أدت إلى انشغال سيف الدولة بالحرب الداخلية عن صدّ هجوم البيزنطيين، ثم استقرت الحال بين الحمدانيين والإخشيديين فتفرغ سيف الدولة لصدهم. وانتهت الدولة على أيام أبو الفوارس الذي كان عمره ١١ عاما بإستيلاء الفاطميين عليها عام ٣٥٧.

٧. **وفاة الراضى**: مات الراضي عام ٣٢٩، ولم يولي أحدا وكان أديبا له ديوان شعر.

إبراهيم المتقى بن جعفر (المقتدر) بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) بن محمد (المعتصم) بن هارون (الرشيد) (٣٢٩-٣٣٣):

١. أمه أم ولد إسمها خلوب. وكانت ولايته أربعة سنوات استولى فيها قائد ديلمي على إمرة الأمراء التي استحدثها الراضى اسمه كورتكين ولكنه لم يلبث إلا أن ظهر ضعفه فأرسل المتقي إلى بن رائق بالشام فحضر لبغداد وهزم كورتكين. ثم إن البريدي عرف ضعف الخليفة وبن رائق لما وقع من حرب بين الديلم والأتراك، فقرر السير إلى بغداد فاستنجد الخليفة بناصر الدولة وأخيه سيف الدولة الحمدانيين من الموصل فحضرا لنصرته، وولى ناصر الدولة إمرة الأمراء. وانتصر سيف الدولة على البريدي بعد معارك وتبعه إلى واسط إلا أن ناصر الدولة لم يسعفه بمال، فجاء بنو بويه وأخرجوا سيف الدولة من واسط فرجع إلى بغداد ثم عاد مع ناصر الدولة ومعهما الخليفة إلى الموصل وترك إمرة الأمراء. ثم ظهر قائد تركي اسمه توزون، واستولى على بغداد وحارب الحمدانيين وهزمهم وأخرجهم من الموصل فتوجهوا إلى نصيبين ومعهم الخليفة، فأرسل توزون إلى الخليفة يطلب منه الرجوع وأمنه وقال له أقبل الأرض بين يديك، فوافق الخليفة، فلما عاد إلى بغداد، ركع أمامه توزون وقبّل الأرض بين يديه وقال: هاأنذا وفيت بوعدي ثم أمر به فقتل ولا حول ولا قوة إلا بالله.

العصر العباسي الثالث: عصر البويهيين (334-447)

عبد الله المستكفي بن علي (المكتفي) بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) (٣٣٣-٣٣٤):

١. وهو عصر إستيلاء بني بويه على الحكم وسيطرتهم على الخلافة سيطرة تامة، وهو الممهد للعصر العباسي الثالث المعروف بعصر البويهيين. لم تستمر خلافة المستكفي إلا عاما واحدا.

٢. **الدولة البويهية:**

a. **الديلم**: هي بلاد تقع على جنوب غرب بحر الخزر، وكان سكّانها من عرق أرفع من الفرس. وقد فتحها المسلمون فيما فتحوا من بلاد فارس وظلّ أهلها على وثنيتهم، ثم كان بينهم وبين بني طاهر مضايقات فلم يرضوا على عمالهم، فأرادوا أن يدينوا لأحد ممن له دين، فجاء اليهم الحسن بن زيد أيام المستعين وسيطر على طبرستان كما تقدم[١]، ثم بعد أن توفي الحسن عام ٢٧١ وتولى أخيه ولم يكن قويا وخرجت طبرستان من أيديهم بعد انتصار أحمد الساماني علي الزيدية، فدخل اليهم **الحسن بن علي الأطروش**، فدعاهم إلى الإسلام وأراد أن يهاجم طبرستان إلا أنهم كانوا يحبون واليها الساماني عبد الله بن محمد بن نوح، فلم يوافقوه ثم تبدل الوالي بعد وفاة بن نوح، فأساء السيرة فخرجوا مع الأطروش واستولوا على طبرستان، وتوفي الأطروش عام ٣٠٤ وولي من بعده ابناه ثم ماتوا بعد معارك مع السامانية وظهر قائد ديلمي هو أسفار وعظمت جيوشه وأراد أن يحارب الخليفة في بغداد فأرسل الخليفة المقتدر أيامها جيشا بقيادة والي خراسان واسمه السعيد فصالح السعيد أسفار على ما بيديه. ثم خرج على أسفار أحد قواده وهو **مردويج** وكان كريما شجاعا

---

[١] راجع ص ٤٤

فتبعته الديلم وعظمت جيوشه جدا، وأثبته المقتدر على أصبهان والأهواز ووصل حتى حلوان على حدود العراق. ثم قدم على مردويخ قادة من الديلم منهم علي وأحمد والحسن أولاد بويه، فخلع عليهم وأرسلهم ليكونوا عماله على الكرج وغيرها إلا أنه أرسل إلى اخيه وشكمير أن لا ينفذهم غلى أعمالهم لخشيته منهم، ولكن خطابه وصل إلى **عليّ بن بويه** عن طريق أحد خاصته فأسرع إلى محل ولايته وأحسن إلى الناس وأصلح الأمور فقويت شوكته وحاول مردويخ أن ينال منه شرا بالحيلة وبالحرب فلم يقدر واتسع ملكه واستولى على شيراز واصطخر وجرجان، وراسل الخليفة الراضى ووزيره بن بقلة فصالحوه على ألف ألف درهم سنويا وأقروه على ملكه. وأراد مردويج أن يحارب بن بويه ولكنهما اصطلحا على أن يدعو بن بويه لمردويج في الخطب. ثم إن الأتراك اغتالوا مردويج عام ٣٢٢ لأنه فضل الديلم عليهم، فانقسمت جيوشه فذهبت فرقة إلى بن بويه وفرقة إلى وشكمير أخيه وفرقة إلى الترك المتمردين بقيادة بجكم التركي. وأصبحت القوى في المشرق ثلاث: بني بويه في فارس، ووشكمير في الري، والسامانية في خراسان وما وراء النهر. وقد نجا الحسن بن بويه من سجن مردويخ بعد قتله ولحق بأخيه عليّ. ثم استطاع عليّ أن يهزم بجكم ويستولي على الأهواز ثم استولى على واسط وسار أخيه أحمد بن بويه إلى بغداد وبها الخليفة المكتفي فقابله وتعاهدا وتبايعا على الخلافة والسلطنة، ولقب المكتفي **عليّ بن بويه عماد الدولة** وهو على فارس **والحسن ركن الدولة** وهو على الري **وأحمد معز الدولة** على العراق. وخرجت سلطة الخلافة حقيقة من يد الخليفة في هذا الوقت لحساب بني بويه، وهو بداية العصر العباسي الثالث، وقد فكّر بني بويه في إزالة العباسيين بالمرة من الخلافة وإعطائها لعلوي ولكن خواصهم نصحوهم بأن يتركوا هؤلاء لأن الناس لا يبالون إن قتلوهم لأنهم يرونهم على الباطل، أما إذا نصبت علويا إذا أمر الناس قتلوا بني بويه أنفسهم لأنهم يرونهم على الحق.

٣. **خلع المستكفي**: خلع أحمد معز الدولة المستكفي لأنه اتهمه بأنه يريد خلعه بعد أربعين يوما فقط من تنصيبه سلطاناً

الفضل المطيع بن جعفر (المقتدر) بن علي (المكتفي) بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) (٣٣٤-٣٦٣):

١. وقد بقي خليفة ٢٩ عاما ولكن السلطة الحقيقية والسلطان الفعلي كان لمعز الدولة أحمد بن بويه.

٢. سلاطين بني بويه:

a. **معز الدولة أحمد بن بويه**: وكان عهده خراب على العراق، إذ أنه:

i. بدأ **سياسة الإقطاع** فأقطع جنوده الأراضي فقل عزم الفلاحين على العمل واستبد الجنود بالمال.

ii. **العنصرية**: حيث أنه فضل الترك على الديلم، رغم أنه من الديلم، إلا أنهم أرادوا أن يثوروا عليه عام ٣٣٥، فكانت حرب انتصر فيها بقوة الترك فرفعهم على الديلم وازدادوا تخريبا

iii. **الفتنة الدينية**: ذلك أن بغداد كانت موئل السنة والجماعة، فجاء بني بويه فأرادوا نشر الرفض وعلق معز الدولة شتم معاوية والصحابة وأم المؤمنين في المساجد، وأمر بإغلاق الدكاكين في ١٠ محرم والخروج بالسواد وأن يضرب الناس أنفسهم ندما على موت الحسين، فكان أول من ابتدع هذا الصنيع، كذلك أعلن الإحتفال بعيد غدير خم في ١٢ ذي الحجة.

ثم أن ناصر الدولة الحمداني هاجم بغداد وكاد أن يستولي عليها إلا أن معز الدولة خدعه وهزمه واضطر ناصر الدولة أن يصالحه على مال يؤديه، ثم في عام ٣٣٧ سار معز الدولة إلى الموصل للسيطرة عليها فخرج منها ناصر الدولة إلى نصيبين. وكاد معز الدولة أن يقضي عليه إلا أنه تلقى من أخيه ركن الدولة

مكتوبا أن السامانيين هاجموا جرجان والري واستنجد به، فصالح معز الدولة ناصر الدولة على أن يدعو لأبناء بويه في البلاد التي تحت يده. ثم إن ناصر الدولة لم يوف بما ضمن، فهاجمه معز الدولة عام ٣٤٧ وطرده من الموصل ثم من نصيبين فسارع إلى أخيه سيف الدولة في حلب يستنجد به، فكاتب سيف الدولة المعز وضمن له البلاد بنفسه.

iv. **البريدي في البصرة**: وقد أراد أن يستقل بها عدة مرات، ثم سار معز الدولة إليها وملكها بعد أن طرد منها القرامطة، وانتصرت عليهم البصرة بفضل الوزير المهلبي.

v. **عمران بن شاهين**: وقد قام في أرض تسمى البطائح بين واسط والبصرة. وقد جمع عمران هذا اليه لصوصا وقطعوا الطريق إلى البصرة، ولمّا اشتدت قوته لأرسل اليه معز الدولة جيشا فكاد أن يهزمه لولا أنه اضطر إلى استدعائه إلى شيراز لضبطها بعد وفاة أخيه الأكبر عماد الدولة، ثم أرسل اليه جيش آخر ولكنه انهزم فاضطر إلى مصالحته ثم قويت شوكته واستمرت سيطرته على البطائح لحين وفاته من ٣٢٩ إلى ٣٦٩ ثم خلفه من بعده من عائلته حتى عام ٣٨٤ حين استولى السلاجقة على البطائح.

b. **وفاة معز الدولة**: توفي معز الدولة عام ٣٥٦ بعد أن أعطى إمرة الأمراء إلى ابنه بختيار ولكنه كان صغيرا ضعيفا فأخذها منه ابن عمه عضد الدولة بن ركن الدولة في عام ٣٦٧.

c. **عز الدولة بختيار**: وكانت الحال في عهده أسوأ من عهد أبيه لأنه كان مستهترا يحب اللهو والنساء والغناء، وخاصم كتّاب أبيه مع فضلهما وكذلك أوحش منه سبكتكين القائد التركي الكبير وقامت عليه العامة لشدة تشيعه ووقوفه ضد أهل السنّة.. ودام في الإمارة ١١ عاما منها سبع في خلافة المطيع وأربعة في خلافة الطائع.

عبد الكريم الطائع بن الفضل (المطيع) بن جعفر (المقتدر) بن علي (المكتفي) بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) (٣٦٣-٣٨١):

١. تولى الطائع الخلافة عام ٣٦٣ واستمر فيها ١٧ سنة. وكان بختيار لا يزال على إمارة الأمراء وكان أمره إلى زوال. ثم جاء عضد الدولة فأزاح بن عمّه وتولى الإمارة عام ٣٦٧ بعد أن أثبت بختار عجزه، وأكرم عضد الدولة - ابن ركن الدولة الذي توفي عام ٣٦٦ - إحتراما للخليفة وأمر بتجديد قصره وحماية إقطاعه.

٢. دولة بني بويه:

a. **عضد الدولة البويهي**: وقد استولى على العراق بعد خلع بختيار وقبض على الوزير محمد بن بقية وقتله وعلقه مصلوبا وفيه يقول الشاعر أبو الحسين الأنباري:

علو في الحياة وفي الممات
لحق أنت إحدى المعجزات

١. كان حازما عاقلا جوادا ثاقب الرأي يعطى في موضع العطاء ويمنع في وقت المنع ولا يقبل الرشاوى أو الوساطة، مع حبه للعب وغلوه في مدحه نفسه حتى قال عن نفسه:

عضد الدولة بن ركنها
ملك الأملاك غلاّب القدر

٢. استولى عضد الدولة على بغداد ثم على الموصل وأزال عنها ملك الحمدانيين. وسيطر على العراق بأسرها والجزيرة وفارس والأهواز وأقر سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني على حلب وفتح ديار ربيعة وبكر ومضر. إلا أنه فرض ضرائب شديدة على الأعمال وقسا في جمع المال في أخريات عمره. وتوفي عام ٣٧٢ فخلفه ابنه صمصام الدولة.

b. **صمصام الدولة البويهي**: وولي عام ٣٧٣ وكان في عهده اضطراب من قِبَل الأكراد الذين استولى زعيمهم شجاع بن دوستك على ديار بكر بعد موت عضد الدولة وقوي أمره حتى فكر في غزو بغداد فجهز له صمصام الدولة جيشا عظيما وهزمه ثم انتهى الأمر بمصالحته على بعض ديار بكر. وفي هذ الأثناء كانت القطيعة مع شرف الدولة أمير فارس الذي جهز جيشا ليغزو بغداد وبالفعل استولى على الأهواز من أخيه تاج الدولة ثم سار إلى بغداد وقبض على صمصام الدولة وأزاحه وتولى إمرة الأمراء عام ٣٧٦.

c. **شرف الدولة البويهي**: كانت في عهده الذي دام أكثر قليلا من سنتين اضطرابات بين الترك والديلم استطاع تهدئتها وتوفي عام ٣٧٩. وكان أمينا لا يحب الوساطات.

d. **بهاء الدولة البويهي**: وقد تولى الإمارة عام ٣٧٩، ثم في عام ٣٨١ احتاج إلى المال فسار إلى دار الخليفة مظهرا أنه يريد أن يجدد البيعة له، ولما دنا منه ليقبله على عاداتهم جذبه من ردائه وأنزله عن سريره والطائع يردد لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم أتى بالقاضي فخلعه وبويع بالخلافة للقادر أحمد بن اسحاق بن عم الطائع عام ٣٨١ واستمر فيها ٤١ سنة!. وفي الطائع يقول الشريف الرضي:

من بعد ما كان رب الملك مبتسما
إلى أدنوه في النجوى ويدنيني

أمسيت أرحم من قدبتّ أغبطه
لقد تقارب بين العز والهون

ومنظر كان بالسراء يضحكني
يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني

هيهات أغتر بالسلطان ثانية
قد ضلّ ولاّج أبواب السلاطين

أحمد القادر بن اسحاق بن جعفر (المقتدر) بن علي (المكتفي) بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) (٣٨١-٤٢٢):

١. وأمه أم ولد اسمها دمنة، وهو ثالث خليفة عباسي لم يكن أباه خليفة. وفي عهده ظهرت دول عربية كثيرة كما استمرت عدة دول من السابق ذكرها منها:

a. **الدولة النجاحية** في اليمن عام ٤١٢ على أنقاض الدولى الزيادية.

b. **دولة الأكراد** في ديار بكر على يد الحسين بن مروان عام ٣٨٠، زوج ابنة سيف الدولة «ست الناس» ومات عام ٣٨٧، ثم تولى بعده أخيه أبو منصور بن مروان حتى ٤٠٢ ثم أحمد بن مروان الذي حسنت سيرته جدا وأمنت الثغور في عهده حتى عام ٤٥٣، ثم من بعده ابنه نظام الدولة نصر بن أحمد حتى انتهت سيطرتهم عام ٤٨٩ على يد السلاجقة.

c. **الدولة العقيلية**: محمد بن المسيب العقيلي ٢٨٦، بالموصل واستمرت حتى عام ٤٨٩ حتى انتهت عام ٤٨٩ يد السلاجقة.

d. **الحمدانيين**: في حلب سعد الدولة بن سيف الدولة ثم عهد عام ٣٨٢ ابنه أبو الفضائل الذي كان صغيراً، وتولى لؤلؤ تربيته وسيطر على الحكم الفعلي. وكان الحمدانيون يخطبون باسم الحاكم بأمر الله في مصر على ما اتفقوا عليه. ولم يكن لهم وجود حقيقي بعد ذلك حتى قضي عليهم عام ٣٨٨.

e. **دولة بني مرداس**: ورأسها صالح بن مرداس الذي اتفق مع حسان أمير طيئ وسنان بن عليان على أن يتولى سنان دمشق، وأن يتولى حسان الرملة إلى مصر، و يتولى صالح حلب. وقد أنشأ دولة بني مرداس التي استمرت من ٤١٤ حتى أرسل الظاهر بن الحاكم الفاطمي عام ٤٢٠ جيشا حارب صالح وقتله وهرب ابنه نصر وملك حلب حتى عام ٤٧٢ حين وقعت الحرب بين المرداسيين والعقيليين وانتهت دولتهم.

f. **الدولة السامانية في المشرق**: وكانت هذه الدولة قد قضت على الصفّاريين من قبل، إلا أنهم تعرضوا للكثير من الضغط من قبل البويهيين وغيرهم من أصحاب السيطرة في المشرق. وقد ظلوا في ملكهم حتى نوح بن منصور الذي مات عام ٣٨٧ وخلفه ابنه منصور بن نوح وتحالف مع قائد جنده ولكنه خانه وخلعه وعيّن بدلا منه أخيه الصغير عبد الملك بن منصور الذي هو آخر ملوك السامانيين الذين قضت عليهم قوة السبكتيكيين عام ٣٨٩. وعمّرت الدولة السامانية ١٢٨ عاما، وكان من أهم إنجازاتها الصناعات المتعددة كما دافعوا عن الثغور ضد الوثنيين إلا أنهم بحكم أنهم من الفرس عملوا على إحياء اللغة الفارسية والثقافة الفارسية، رغم أنهم لم يخرجوا يوما عن إطار الدولة العباسية وطاعة الخلفاء.

g. **الدولة السبكتكينية**: وهي التي ورثت دولة السامانيين، ورأسها سبكتكين، الذي ولاه نوح بن منصور خراسان عام ٣٨٤، ةطلب منه المساعدة ضد قواده الذين ثاروا عليه واستعانوا بفخر الدولة بن بويه، وتحارب الجيشان وانهزم قواد نوح، وسيطر هو وسبكتكين على خراسان وعيّن ابنه محمود على بخارى. وكان سبكتكين عادلا حسن السيرة ومات عام ٣٨٧، وسيطر بعده ابنه محمود بن سبكتكين على الملك وسيطر على خراسان وغزنة وكان عهده عهد رخاء وأمن، وفتح الكثير من بلاد الهند، ثم مات محمود عام ٤٢١ وعهد إلى ابنه محمد إلا أن مسعود، أخيه الأكبر لم يرض بذلك واستولى على الحكم وتوفي القادر ومسعود بن سبكتكين هو صاحب خراسان وغالب المشرق، ولم تنته الدولة إلا عام ٥٨٢ على يد الدولة الغورية.

٢. **الدولة البويهية - تكملة:**

a. **بهاء الدولة البويهي**: وهو الذي ولى القادر وكان عصره مضطربا ومات عام ٤٠٣.

b. **أبو شجاع سلطان الدولة**: وهو ابن بهاء الدولة، ولم يكن عهده خيرا من عهد أبيه فخلعه أخوه

c. **أبو علي شرف الدولة**: وقد كان أفضل من أخيه وأبيه واصطلح مه أبو شجاع أن يتولى هو العراق وأن يقوم أبو شجاع على فارس وكرمان. وتوفي عام ٤١٦

d. **أبو طاهر جلال الدولة بن بهاء الدولة**: وقد تنازع هو وابن أخيه ابو كاليجار السلطة حتى وفاة القادر.

٣. **وفاة القادر**: كان القادر خيّرا حسن السيرة آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر وقد صنف كتابا في عقيدة أهل السنة، وقد استعاد بغض قوة الخلافة لضعف البويهيين وحربهم فيما بينهم. ومات عام ٤٢٢.



العصر العباسي الرابع: عصر السلاجقـة (447-656)

أبو جعفر عبد الله القائم[١] بن أحمد (القادر) بن اسحاق بن جعفر (المقتدر) بن علي (المكتفي) بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) (٤٣٢-٤٦٧):

١. وقد ظل القائم في الخلافة ٤٤ عاما. وكان السلطان في أول عهده لجلال الدين البويهي.

٢. **نهاية الدولة البويهية:**

a. **جلال الدولة البويهي**: وقد ظل في السلطنة حتى مات عام ٤٣٥ وكانت كل حياته منازعات مع بن أخيه كاليجار، ولم يكن له من الأمر شيئ كذلك.

b. **محي الدولة كاليجار**: وقد استقرت له الأمور بعد وفاة عمه، وكان عهده مضطربا كذلك حتى مات عام ٤٤٠.

c. **أبو ونصر خسرو فيروز الملك الرحيم**: وقد أبى الخليفة أن يلقبه بالملك الرحيم أولا لأنها من صفات الله ثم خضع لذلك. واستمر في الملك حتى عام ٤٤٧ حين سقطت الدولة تحت سيطرة السلاجقة بقيادة طغرلبك.

d. **تقييم عام للدولة البويهية**: ولم تكن للدولة البويهية أية إنجازات رغم اتساع رقعتها وطول مدتها لما شابها من بدعة التشيع وما حاولوا أن يفرضوه على العامة من أهل السنة في بغداد. كماأنهم حاربوا بعضهم بعضا وهو من أهم أسباب نهاية الملك وزواله.

٣. **السلاجقة**: وهم من التركستان السنيّون، وينتسبون إلى **سلجوق بن تقاق**. وقد كان سلجوق نجيبا وقربه ملك الترك الوثني ولكنه خشي منه فحاول قتله فهاجر

---

[١] رقم ٢٦

بأهله واعتنق الإسلام، وساعد أحد ملوك السامانية ضد الترك، وكان له أولاد ثلاثة هم أرسلان وميكائيل وموسى. ومنهم كان **محمد طغرلبك**. وبعد حروب ومعارك استمرت سنوات عديدة، دارت مع السبكتكيين وغيرهم، انتصر طغرلبك عام ٤٢٩ و٤٣١ على مسعود بن سبكتكين، وملك نيسابور وجرجان وطبرستان وخوارزم، ووصل إلى حدود العراق، ولم يكن كاليجار البويهي به قوة لصده، فدخل بغداد عام ٤٤٨ بعد أن خطب له الخطباء وقبض على الملك الرحيم آخر ملوك البويهيين. وكانت هناك عدة بيوت من السلاجقة ينتمون إلى بطون مختلفة هي:

a. **السلاجقة العظام**: واستمرت من ٤٢٩ إلى ٥٢٢ وانتهت دولتهم على يد شاهات خوارزم.

b. **سلاجقة كرمان**: من ٤٣٢ إلى ٥٨٣ وانتهت دولتهم على يد الغز التركمان.

c. **سلاجقة العراق وكردستان**: من ٥١١ إلى ٥٩٠ على يد شاهات خوارزم.

d. **سلاجقة سوريا**: من بيت ألب أرسلان، من ٤٨٧ إلى ٥١١ وانتهت على يد الدولة النورية.

e. **سلاجقة الروم**: من ٤٧٠ إلى ٧٠٠ وهم أطولهم مدة وانتهت على يد الأتراك العثمانيين والمغول.

i. **محمد بن طغرلبك**: وقد حسنت العلاقة بين السلطان وبين الخليفة حتى أن الخليفة تزوج من أهل بيت طغرلبك، وذلك يرجع إلى سنيّة السلاجقة وتدينهم بإحترام الخلفاء خلافا للشيعة البويهيين. ثم إن طغرلبك أراد أن يناسب الخليفة فأرسل يخطب ابنته ليكون له بذلك ما لم يكن لأحد من السلاطين من قبله، وهو النسب الشريف، وكبر هذا على الخليفة إذ لا سابقة لهذا في بيت الخلافة. ثم قبل وبالغ طغرلبك في الإحترام والتبجيل

للخليفة وابنته، حتى أنه ظل يدخل عليها وهي على سريرها لا تنكشف فيسلم ويخدم ثم ينصرف. وقد خرج عليه أخيه إبراهيم عام ٤٧٠ فحاربه وترك بغداد، مما أدى إلى أن استولى عليها من يدعى البساسيري الشيعي من اتباع بني بويه، وحكمها عاما كاملا واستنجد بالفاطميين لنصرته على السلاجقة، ولكنهم لم يكونوا يثقون به بشكل كامل فتركوه لمواجهة السلطان بمفرده فقتل عام ٤٥١ وكان الخليفة القائم أيامها قد خرج في ذمة رئيس العرب قريش بن بدران العقيلي بالموصل، وأرسل السلطان الإمام بن فورك المعروف من الأشاعرة لحماية السلطان وإحضاره مرة أخرى إلى بغداد، وعاد القائم إلى بغداد عام ٤٥٥، وهو العام الذي توفي فيه طغرلبك. وفي هذه السنين عاش الجويني وغيره من أعلام الإئمة وقد كتب غياث الأمم بأمر القائم.

ii. **عضد الدولة ألب أرسلان (بن ميكائيل)**: وكان عادلا تحسنت الأحوال في أيامه، وكان محاربا مقداماً حارب الروم في أرمينية وهزمهم هزيمة منكرة عام ٤٦٤ في معركة ملاذكرد. وقد استوزر نظام الملك وكان عظيما نال البلاد علي يديه الخير العميم، وبنى العديد من المدارس العلمية الدينية ومنها النظامية التي كان بها الجويني ثم الغزالي. ثم ساءت العلاقة بينه وبين الخليفة القادر حين عيّن ابنه ملكشاه دون إذن الخليفة حتى أن الخليفة فكر في خلعه إلا أنه مات عام ٤٦٥، ومات من بعده القادر عام ٤٦٧. وتولى **ملكشاه** بن ألب أرسلان السلطنة في نهاية عهد القائم وبداية عهد المقتدي (حفيد القائم، إذ أنه لم يكن له ولد حيّ وقتها).

أبو القاسم عبد الله المقتدي[١] بن أبي العباس محمد بن عبد الله (القائم) بن أحمد (القادر) بن اسحاق بن جعفر (المقتدر) بن علي (المكتفي) بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) (٤٦٧-٤٨٧):

١. كانت خلافة المقتدي ١٩ عاما. وهو من خيرة بني العباس، وكان قوي النفس متدينا منع المغنيات من دخول بغداد ومنع اللهو واجتماع الرجال والنساء.

٢. **السلاجقة:**

a. ملكشاه بن ألب أرسلان: وكان عادلا منصفا شجاعا مقداما، وقد بلغ قسطنطينية في فتوحاته. وكان من أفضل أعماله استوزاره الوزير نظام الملك، وكان من العلماء الأجواد وكان يسمع الحديث ويدرسه، وبنى العديد من المدارس وأجرى على أهلها الأعطيات. وقد كان طغرلبك قد أمر بلعن الرافضة في بلاده، وأضاف إليهم وزيره عميد الدولة لعن الأشاعرة! فأوقف نظام الملك ذلك وأعاد الجويني إلى بلاده بعد أن هجرها خوفا من السلطان. وكان ينظر فيالمصالح ويرتب الأوقاف، فكان غرة في جبين السلاجقة. وكان نظام الملك صاحبا للغزالي وقرينا له، وكان شافعيا أشعريا. وقد مات نظام الملك مقتولا بيد أحد الملاحين عام ٤٨٥، ومن الغرائب أن ملكشاه مات بعده ب٣٣ يوما! وقد اتسع ملك ملكشاه اتساعا عظيما حتى خطب له من أقاصي الصين إلى أقاصى الشام. وكان له أربعة أولاد فطلبت أمهم من الخليفة المقتدي تولية محمود، وكانت مشيئة الله أسرع اليه من توقيع القرار إذ مات المقتدي فجأء وهو يقرأ التوصية لمحمود! عام ٤٨٨، ومن ساعتها وقع السلاجقة يما وقع فيه أسلافهم من صراع دموي داخلي أديإلى إنهاء دولتهم.

---

[١] رقم ٢٧

أبوالعباس أحمد المستظهر[١] بن محمد (المقتدي) بن عبد الله (القائم) بن أحمد (القادر) بن اسحاق بن جعفر (المقتدر) بن علي (المكتفي) بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) (٤٨٧-٥١٢):

١. ودامت خلافته حولا من ٢٤ عاماً. وقد ولي في عهده اثنان من السلاجقة كما سيأتي.

٢. **السلاجقة:**

a. **بركياروق بن ملكشاه:** وقد استوزر الحسين بن نظام الملك ولم يكن كفئا، وتفرغ للهو واللعب والفساد، ثم استوزر عبد الله بن نظام الملك وكان كفؤا كأبيه، وكان من نتيجة استهتار بركياروق أن طمع عمه تتش بن ألب أرسلان في السلطنة فتحاربا خمسة سنوات من ٤٩٢ إلى ٤٩٧. ثم استقر الأمر بينهما على الصلح إلا أن بركياروق لم يلبث أن مات عام ٤٩٧.

b. **محمد بن ملكشاه:** ومع شجاعته وعدله إلا أنه لم يحالفه التوفيق في اختيار عماله، واستمر في السلطنة ٢٧ عاما حتى توفي عام ٥١١، قبل وفاة المستظهر بعام واحد. وتولى من بعده **محمود بن محمد بن ملكشاه.**

٣. **الباطنية الحشاشون:** ظهرت حركاة خطيرة للباطنية بمناصرة الفاطميين وكان على رأس دعاتها «**الحسن بن الصباح**» وقد عرفت دعوتهم بالسرية الشديدة والتكتم التام، وعرفوا في التاريخ باسم الحشاشون، لتناولهم المخدر المعروف بالحشيش، واستولى الحسن على مناطق في شمال إيران وأغار على الدولة السلجوقية واستعمل أسلوب إغتيال رؤوساء السنة ومن هنا جاءت الكلمة الإنجليزية «assasains» حيث نقلها الصليبيون إلى أوروبا على أنها اسم هذه الطائفة، وتعنى المغتالين. واستولى على قلعة ألموت. وقد قضى هولاكو من بعد على فرعهم في فارس واستعاد القلعة المشهورة، وقضى الظاهر بيبرس علي فرعهم في الشام من بعد.

---

[١] رقم ٢٨

٤. **الحروب الصليبية**: أمر آخر بدأ في هذا العهد، وهو ما عرفه التاريخ باسم الحروب الصليبية، حين أجج البابا أوربانس الثاني مشاعر المسيحيين وما دعا اليه بطرس الراهب قد حشد أولئك لحرب المسلمين من الغرب، وهو ما بدأت تباشيره عام ٤٦٢ حين حارب ملك الروم الشام وقتل أهلها قتلا فظيعا، ثم كان من قوة ألب أرسلان أن ردهم مدحورين، ثم عاد الجيوش عام ٤٩١ فدخلت القدس، على ما يأتي بعد إن شاء الله في قصة الحروب الصليبية.

٥. **الأتابكـة**: كذلك فقد ساعدت الحروب التي قامت بين أفراد البيت السلجوقي أن بدأت ظاهرة أدت إلى تكون ما عرف بدول الأتابكة. وكلمة أت بك معناها مربي الأمير، وأصلهم موالي مت الترك قد جلبهم سلاطين السلاجقة لتربية أولادهم، ثم ترقوا بفضل جهدهم لمناصب رفيعة، وقد استأثر هؤلاء الأمراء بها تحت أيديهم ولم يتمكن السلاجقة من الوقوف بوجههم فسلموا لهم السلطة في أماكن عديدة من البلاد. ومنهم أتابكة الموصل وهم بيت زنكي المشهور بالشجاعة والحرب، وانتهت دولتهم أيام اسماعيل بن لؤلؤ على يد المغول عام ٦٦٠. ثم كانت هناك أتابكة دمشق، وسوريا (وهم فرع آل زنكي برئاسة نور الدين محمود الذى استقل عن أخيه بعد موت أبيهما عماد الدين في الموصل) والجزيرة وأذربيجان وأربل، وقد قضى المغول عليهم جميعا.

٦. **الشاهات**: كذلك قامت مجموعة أخرى من نواب السلاطين بالإستئثار باقوة في أماكن أخرى ولقبوا بالشاهات (جمع شاه) واشتهر منهم شاهات خوارزم وأولهم محمد بن أنوشكين وعلى يديهم انتهت دولة السلاجقة في خراسان، وكان ابنه محمد عادلا فاضلا كريما واستمرت دولتهم حتى أزالها المغول عام ٦٢٨. وشاهات أرمينيا. وكان الشاهات والأتابكة هم ورثة السلاجقة.

٧. **الدولة الغورية**: وأصلهم من الغور بين هراة وغزنة وهي بلاد صحراوية موحشة،

وقد قامت على أطلال الدولة السبكتكينية وكلاهما من ملوك الهند العظام ومكانها في أفغانستان. وأسسها قطب الدين محمد بن الحسين عام ٥٤٣، ثم قامت الحرب بين البيت الغوري وأصحاب غزنة من البيت السبكتكيني وانتصر ملوك غزنة السبكتكينيون، إلا أنه الغوريون عادوا فاتصروا عليهم وقضوا عليهم عام ٥٨٢ على يد غياث الدين الذي أطلق عليه لقب أمير المؤمنين. ومن أشهر ملوكهم شهاب الدين الغوري المتوفي عام ٦٨٦ . وقد كان لهم دور عظيم في حرب الصليبيين الثانية في عهد المقتفي.

أبو منصور الفضل المسترشد[١] بن أحمد (المستظهر) بن محمد (المقتدي) بن عبد الله (القائم) بن أحمد (القادر) بن اسحاق بن جعفر (المقتدر) بن علي (المكتفي) بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) (٥١٢-٥٢٩):

١. وقد دامت خلافته ١٧ عاما. ولكنه قتل على أيدي الباطنية لعنة الله عليهم.

٢. **السلاجقة:**

a. **محمود بن محمد بن ملكشاه:** وقد ولي بعد أبيه، ولكنه دخل في حرب ضد عمه سنجر بن ملكشاه الذي النتصر عليه ثم أعاده إلى الولاية. ثم خرج عيه أخوه مسعود بن محمد عام ٥١٤، ولكنه هزمه ثم أكرمه. وقد هزم السلطان محمود الباطنية وأرجع قلعة ألموت من يد الحسن بن الصباح عام ٥٢٤. ثم توفي عام ٥٢٥، وكان عفيفا حليما شجاعا.

b. **داوود بن محمود بن محمد:** وقد ولي بعد أبيه محمود إلا أن عمه مسعود قام ضده وهزمه وخطب له في بغداد.

c. **مسعود بن ملكشاه:** لما ولي مسعود لم يعجب ذلك شنجر أخيه فحاربه وأزاله

[١] رقم ٢٩

عن السلطنة وعاتبه ثم أقام مكانه طغرل إبن أخيه، ولكن مسعود عاد مرة أخرى وحارب طغرل وانتصر عليه وعادت السلطنة له في بغداد. ثم إن الخليفة المسترشد أراد أن يعيد للخلافة هيبتها فتجهز لقتال مسعود، ولكنه انهزم لقلة العصبية في جيشه، ثم اتفق مع مسعود على الصلح، إلا أن الباطنية إغتالوه عام ٥٢٩.

أبو جعفر المنصور الراشد[١] بن الفضل (المسترشد) بن أحمد (المستظهر) بن محمد (المقتدي) بن عبد الله (القائم) بن أحمد (القادر) بن اسحاق بن جعفر (المقتدر) بن علي (المكتفي) بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) (٥٢٩-٥٣٠):

١. ولي بعد المسترشد ودامت خلافته عدة شهور فقط. ذلك أنه أراد أن يثأر لأبيه فجمع حوله العديد من الجند والقواد إلا أنهم تفرقوا من حوله بما فيهم «عماد الدين زنكي» صاحب الموصل الشهير المتوفي عام ٥٤١، وكان من الأتابكة التي انتشرت دولهم من حول بغداد في هذا الزمان.

٢. **السلاجقة:**

a. **مسعود بن ملكشاه:** حين علم مسعود بنوايا الراشد، عاد إلى بغداد وخرج منها الخليفة مع عماد الدين، وخلعه مسعود وولي بعده المقتفي.

أبو عبد الله الحسين المقتفي[٢] بن أحمد (المستظهر) بن محمد (المقتدي) بن عبد الله (القائم) بن أحمد (القادر) بن اسحاق بن جعفر (المقتدر) بن علي (المكتفي) بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) (٥٣٠-٥٥٥):

١. وقد كانت خلافته ٢٦ عاما، وصاهره السلطان مسعود، وقد طرد السلاجقة من بغداد بعد وفاة السلطان مسعود.

[١] رقم ٣٠

[٢] رقم ٣١

٢. **السلاجقة:**

a. **مسعود بن ملكشاه:** وقد عاش مسعود في عصر المقتفي ١٦ عاما حتى مات عام ٥٤٧، وكان جوادا عفيفا متبسطا. وبموته انتهى الدور الرئيسي لدولة السلاجقة، وورثتها دول الأتابكة. وولي بعده ابن أخيه ملكشاه بن محمود، إلا أن أخاه محمد بن محمود أراد أن يسلبه ملكه، وكان مقيما بأصفهان وبالفعل سيطر محمد على أصفهان واستولى ملكشاه على همذان. ووانفرد الخليفة للمرة الأولى ببغداد منذ أيام المعتضد. وتوفي السلطان محمد عام ٥٥٤ واختلف القواد من بعده حتى ولوا **أرسلان بن طغرل**.

٣. **الحروب الصليبية الثانية:** وقد قامت في عهد المقتفي حين رأى الروم أن محمود نور الدين من الأتابكة في الشام وما أصابهم به من خسائر، فسار ملك المانيا وملك فرنسا إلى دمشق وبيت المقدس ووقف في وجههم أتابكة الموصل ونور الدين زنكي فردهم عن دمشق خائبين عام ٥٤٧ بعد أن حاصروها عام ٥٤٣. واستولى نور الدين على دمشق.

٤. **وفاة المقتفي:** وقد توفي المقتفي عام ٥٥٥.

أبو المظفر يوسف المستنجد[١] بن (المقتفي) بن أحمد (المستظهر) بن محمد (المقتدي) بن عبد الله (القائم) بن أحمد (القادر) بن اسحاق بن جعفر (المقتدر) بن علي (المكتفي) بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) (٥٥٥-٥٦٦):

١. كانت خلافته ١١ عاما. وكان منفردا بالحكم في العراق، وكان الأمر للسلاجقة في عهده في خراسان لأرسلان بن طفرل. وكان ديّنا شجاعا أزال حكم الإقطاعيات وأعادها إلى الخراج.

٢. وفاة المستنجد: وقد ولي بعده ابنه المستضيئ.

---

[١] رقم ٣٢

أبو محمد الحسن المستضيء[١] بن (المستنجد) بن (المقتفي) بن أحمد (المستظهر) بن محمد (المقتدي) بن عبد الله (القائم) بن أحمد (القادر) بن اسحاق بن جعفر (المقتدر) بن علي (المكتفي) بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) (٥٦٦–٥٧٥):

١. أمه أم ولد أرمينية اسمها غضة. وكانت خلافته ٩ سنوات. وكان عادلاً حسن السيرة فعاش محمودا سعيدا ومات سعيدا.

٢. مات في عهده السلطان العظيم «**نور الدين زنكي**» قاهر الصليبيين وصاحب الملك العادل الكبيرفي سوريا وحلب. وهو الذى عيّن **أيوب** والد صلاح الدين حاكما على دمشق ثم أرسل جيشا لقتال الفاطميين في مصر بقيادة عز الدين شيركوه ومعه **صلاح الدين الأيوبي** ثم عيّن صلاح الدين على وزارة مصر وكانت هذه هي بداية نجم الدولة الأيوبية.

أبو العباس أحمد الناصر[٢] بن الحسن (المستضيء) بن (المستنجد) بن (المقتفي) بن أحمد (المستظهر) بن محمد (المقتدي) بن عبد الله (القائم) بن أحمد (القادر) بن اسحاق بن جعفر (المقتدر) بن علي (المكتفي) بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) (٥٧٥–٦٢٢):

١. أمه أم ولد تركية اسمها زمرد. ودامت خلافته ٤٧ عاما وهي أطول مدة في خلفاء بني العباس قبل المستنصر الذي ولي ٦٠ عاما وعبد الرحمن الناصر الأموي بالأندلس وولي ٥٠ عاما. وكانت الخلافة أيامها في أوج تفردها بالسلطة في العراق. وحدثت في نهاية أيامه النكبة الكبرى التي أصابت العالم الإسلامي وهي غزو المغول لأطراف العالم الإسلامي توطئة لغزو بغداد وانهيار الخلافة العباسية.

---

[١] رقم ٣٣

[٢] رقم ٣٤

٢. قامت الخلافات بين الناصر وبين أحد شاهات خوارزم هو علاء الدين خوازمشاه، وحارب الخليفة الناصر الذي طمع فيالسيطرة على بلاد الري وما وراء النهر ولكنه هزم، وأراد ابنه قطب الدين خوارزمشاه عام ٥٩٦ أن يخطب باسمه في بغداد ولكن الخليفة أبى ذلك. وقد قال بعض المؤرخين أن الناصر هو الذي كاتب جنكيز خان ليستنصر به على خوارزمشاه، وكان مراده أن يشغل خوارزمشاه بحرب جنكيز خان ولكن قدر الله كان نافذا.

٣. **المغول**: وهم من سكان منغوليا شمال الصين، وكان قائدهم تموجين محاربا عظيما جمع حوله قبائل المغول وحارب الترك. ووضع لهم قانون يحكمون به هو «اليساق» وفيه شرائع عدة استشفها من قوانين ما جاوره من حضارات، وفيها قتل الزاني سواء محصن أو غير محصن وقتل من بال على الماء أو الرماد ومن خسر في تجارة أعطيها ثلاث مرات، وأن من ذبح كذبح المسلمين قتل! وقد ظهر المغول على مسرح الأحداث وولد **جنكيز خان** عام ٥٤٩.

٤. وقد كانت هناك معاهدة بين خوارزمشاه وجنكيز خان للتجارة في عام ٦١٢، ولكن أحد ولاة خوارزمشاه طمه عام ٦١٥ في مال بعض التجار المغول فأرسل إلى خوارزمشاه أن هؤلاء جواسيس فقتلهم وأخذ مالهم، ، وقد حاول جنكيز خان أن يتلافى الحرب، فأرسل إلى خوارزمشاه أن يرسل إليه هذا الوالى ليعاقبه، فأبى خوارزمشاه وقتل رسول جنكيزخان فكانت هذه هي القاصمة، فسار جنكيز خان في جحافل عظيمة واستولى على بخارى عام ٦١٦ وخربها[١] بعد أن كانت من جنان الأرض، فأصبحت كأن لم تغن بالأمس، وامتد ملك جنكيز خان من الصين إلى حدود العراق وإلى روسيا، وقسّم هذه الممالك الشاسعة بين أولاده الأربعة، ثم مات عام ٦٢٤ بعد عامين من وفاة الناصر.

---

[١] بن الأثير ج١٠ ص٣٩٩ وبعدها

أبو نصر محمد الظاهر[١] بن أحمد (الناصر) بن الحسن (المستضيئ) بن (المستنجد) بن (المقتفي) بن أحمد (المستظهر) بن محمد (المقتدي) بن عبد الله (القائم) بن أحمد (القادر) بن اسحاق بن جعفر (المقتدر) بن علي (المكتفي) بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) (٦٢٢-٦٢٣):

١. كانت خلافته أقل من عام واحد. وكان آية في العدل والإحسان والتقوى، وقد جدد عهد العمرين. ولكن قدره لم يمهله إلا عاما واحدا استقرت فيه البلاد على أحسن حال وزال الفساد والباطل.

٢. ولي من بعده ابنه المستنصر.

أبو جعفر المستنصر[٢] بن محمد (الظاهر) بن أحمد (الناصر) بن الحسن (المستضيئ) بن (المستنجد) بن (المقتفي) بن أحمد (المستظهر) بن محمد (المقتدي) بن عبد الله (القائم) بن أحمد (القادر) بن اسحاق بن جعفر (المقتدر) بن علي (المكتفي) بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) (٦٢٣-٦٤٠):

١. وقد دامت خلافته ١٧ عاما، وكان كأبيه عدلا جوادا صاحب دين وتقوى ينفق في سبيل الله ويستوى عنده الفقر والغنى. وقد كانت حال المسلمين أيامها أشبه ما تكون حالنا اليوم فكرهوا الجهاد وثبطهم الله وانشغلوا باللهو واللعب، يقول ابن الأثير في أحداث عام ٦٢٨ في باب ذكر «ملك التتر براغة» مانصّه: وفي هذه السنة حصر الترك مراغة من أذربيجان، فامتنع أهلها، ثم أذعن أهلها بالتسليم على أمان طلبوه، فبذلوا لهم الأمان، وتسلموا البلد، وقتلوا فيه إلا أنهم لم يكثروا القتل، وجعلوا في البلد شحنة، وعظم حينئذ شأن التتر، واشتد خوف الناس منهم بأذربيجان، فالله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد، ولا في نصرة الدين بل كلّ منهم مقبل على

[١] رقم ٣٥

[٢] رقم ٣٦

لهوه ولعبه وظلم رعيته، وهذا أخوف عندي من العدو، وقد قال تعالى: «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة»[١]{ ، إلا أن هؤلاء الحكام كانوا لا يزالون مقيدين بالشريعة على الجملة، وأما ما نحن فيه فمروق كامل وخروج تام مقنن على أحكامها.

٢. **المغول**: وقد مات جنكيز خان لعنة الله عليه عام ٦٢٦، في عهد المستنصر، وقد كان آخر ملوك السلاجقة جلال الدين مكبرتي هو الملك على أقطار الأرض، وكان قد قضى على كل من فيه رمق من رياسة، فانتزع منه التتر ملكه ولم يكن هناك من بعده من يذود عن حياض الإسلام، وقتل جلال الدين وحيدا وكان فاسداً يحب الصبيان.

أبو أحمد عبد الله المستعصم[٢] بن أبي جعفر (المستنصر) بن محمد (الظاهر) بن أحمد (الناصر) بن الحسن (المستضيئ) بن (المستنجد) بن (المقتفي) بن أحمد (المستظهر) بن محمد (المقتدي) بن عبد الله (القائم) بن أحمد (القادر) بن اسحاق بن جعفر (المقتدر) بن علي (المكتفي) بن أحمد (المعتضد) بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) (٦٤٠-٦٥٦):

١. وهو آخر خلفاء الدولة العباسية. ومدة خلافته ١٦ عاماً. وقد وصفه المؤرخون بأنه كان عفيفا دينا إلا أنه ضعيف الشخصية مطموع فيه.

٢. **سقوط بغداد:**

a. استوزر المستعصم بن العلقمي الشيعي، وكان ينتصر لأهل مذهبه، وكان أهل السنة يؤدبون الشيعة من وقت لوقت، فراسل بن العلقمي هولاكوخان حفيد جنكيزخان، وكان هو ملك المغول في هذا الزمان، بعد والده تولي بن جنكيزخان. وسار هولاكو بجيوش جرارة قاصدة بغداد فوصلتها في منتصف

---

[١] بن الأثير ج١٠ ص٤٩٣.

[٢] رقم ٣٧

المحرم عام ٦٥٦، وقد تآمر في ذلك مع «نصير الدين الطوسي» الشيعي وزير هولاكو الذي قتل الخليفة والقضاة بعد سقوط بغداد وشفى غلّ نفسه من أهل السنة وانتصر لأتباعه من الرافضة المبتدعة منهم وأهل الكفر (بن القيم في إغاثة اللهفان، وبن تيمية في الفتاوى). ونصير الدين الطوسى هذا هو الذي يترحم عليه إمام الضلال الخميني!

نهاية الدولة العباسية على أيدى التتار عام ٦٥٦ (هولاكو)



ملحــق

الحروب الصليبيـــة

القدس الإسلامية:

في عهد الخليفة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- تم فتح الشام وفلسطين، وجاء الخليفة بنفسه لتسلم القدس سنة ١٦هـ/ ٦٣٧م. والقدس مدينة هامة من الوجهة الدينية لدى معتنقي النصرانية واليهودية كما هي في غاية الأهمية للمسلمين. لقد فتحت هذه المدينة، وأصبح المسلمون سادتها، ولأنهم قد تعلموا من دينهم التسامح فقد فتحوا أبواب المدينة للحجاج المسيحيين يأتون ويعودون في سلام وأمان.

وبقيت هذه السّنة تقليدًا تبعه الخلفاء من بعده، فقد امتاز عهد الرشيد (راجع ص ٢٩) بمستوى رفيع من التسامح الديني، فقد سمح بأن يهدى بابا المسيحيين في القدس للملك «شارلمان» إمبراطور المسيحيين في ذلك الوقت، مفاتيح «كنيسة القيامة»، كما سمح له ببناء مستشفى فيها، ومكتبة جمعت كثيرًا من الدراسات المسيحية، وقد كان هذا التسامح سمة كل العصور الإسلامية قاطبة.

بداية الحروب الصليبية:

كان البويهيون (كعادة الشيعة في كل وقت) يقفون موقفًا سلبيّا من أعداء الإسلام بعد استيلائهم على الخلافة العباسية ببغداد؛ مما شجع ملك الروم سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م على غزو الشام، فقد خرج ملك الروم في ثلاث مائة ألف مقاتل، ونزل على «مَنْبِح» وأحرق القرى بينها وبين أرض الروم، وقتل رجالهم، وسَبَى نساءهم وأولادهم.

وفزع المسلمون في حلب فزعًا عظيمًا، ولم يكد العام ينتهي حتى عاود ملك الروم هجماته بجيش كثير العدد والعدة يريد القضاء على الإسلام والمسلمين، حتى وصل إلى «**ملاذ كرد**» من أرمينيا، ولكن «ألب أرسلان السلجوقي» سار إليه في خمسة عشر ألفًا،

وكله إيمان بالله، ويقين بأن الله ناصر دينه، قائلا : «إنني أقاتل محتسبًا صابرًا، فإن سلمت فبنعمة من الله تعالي، وإن كانت الشهادة (الموت في سبيل الله) فإن ابني «ملكشاه» ولي عهدي!

وأشار الفقيه «أبو نصر البخاري» أن يكون يوم الجمعة بعد الصلاة هو موعد اللقاء مع الأعداء، بعد أن يدعو جميع الخطباء للمجاهدين في سبيل الله على المنابر، وصلى بهم الفقيه البخاري، وبكى السلطان، فبكى الناس لبكائه، ودعا ودعوا معه، ثم قال لهم : من أراد الانصراف فلينصرف، فما ههنا سلطان يأمر وينهي. ثم أخرج السلطان كفنه ليراه جنوده -ليحفزهم على الاستشهاد- ففعلوا مثله.

وبدأ الزحف إلى الروم، فلما اقترب السلطان منهم نزل عن فرسه، وسجد لله-عز وجل-ومَرَّغَ وجهَه في التراب، ودعا الله، وطلب منه النصر على أعدائه، وأخذ في التضرع والبكاء، ثم ركب فرسه، وهجم على العدو فحملت العساكر معه، وكان نصر الله على الرغم من قلة عدد المسلمين وكثرة أعدائهم، لكن النصر من عند الله ينصر من يشاء، وهو القوي العزيز.

كان أرسلان، رحمه الله، عادلاً رحيمًا مقرّا بأنعم الله عليه، يتصدق على الفقراء، ولا سيما في رمضان. وشاء الله أن يقتل المسلمون من الروم عددًا كبيرًا حتى امتلأت الساحة بجثث القتلى منهم، وأُسر ملك الروم، وافتدى نفسه بألف ألف وخمسمائة ألف دينار، كما افتدى قواده، وكان موقف أرسلان قويّا، يستمد قوته من عزة المسلم الذى يستمد عزته من عزة الله سبحانه، فقد فرض أرسلان على ملك الروم أن يرد كل أسير مسلم في أيدي الروم، وشرط عليه أن يرسل إليه عساكر الروم عند طلبها في أي وقت.

وكانت موقعة «ملاذكرد» هذه بين السلاجقة والروم سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م، من المعارك الحاسمة التي أدت إلى هزيمة ساحقة مروعة للروم، وذلك رغم التفاوت الكبير بين القوتين، إذ لم تزد قوات أرسلان على عشر قوات الصليبيين.

اجتماع كليرمونت:

وقد أدى ذلك إلى أن يستنجد أحد أباطرتهم (ملوكهم) بأوروبا ويستغيث بها، فراح البابا يدعو إلى اجتماع عام في «كليرمونت» بفرنسا ويدعو المجتمعين إلى غزو الشرق الإسلامي، وتخليص الأراضي المقدسة من الترك، وتخليص أراضي الإمبراطورية البيزنطية من الأعداء الغاصبين، وراح يحث الأمراء على توسيع أملاكهم وغزو الشرق الغني، فماذا كانت النتيجة؟ وكيف كانت هزيمة «ملاذ كرد» سببًا في قيام الحروب الصليبية؟ وفي أثناء هذه الحروب ظهر خطر المغول، فكيف واجهت البلاد إعصار المغول، والحروب الصليبية؟

الحملة الصليبية الأولى ٤٨٧-٤٩٢: استيلاء الصليبيين على القدس:

وفي عام ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م؛ تجمعت قوات الصليبيين في القسطنطينية، وبعد أن تم إعدادها عبرت البسفور إلى الشام، ودارت بينهم وبين السلاجقة معركة عام ١٠٩٧م، عند «ضورليوم»، ولكن هزم فيها السلاجقة، ثم استولى الصليبيون على أنطاكية في شمالي الشام، وأسسوا بها أول إمارة لهم، ثم استولوا على الرها في إقليم الجزيرة الشمالي، وأسسوا إمارتهم الثانية واتجهوا إلى مدينة القدس وبها بيت المقدس.

وأمام أربعين ألف مقاتل، لم يستطع جيش الفاطميين فك حصارهم للمدينة الذي استمر شهرًا كاملا، ودخلوها في النهاية في سنة ٤٩٢هـ - ١٥ يوليو ١٠٩٩م، وأقاموا فيها مذبحة قضوا على سكانها جميعًا رجالا ونساءً وأطفالا وكهولا، واستباحوا مدينة القدس أسبوعًا يقتلون ويدمرون حتى قتلوا في ساحة الأقصى فقط سبعين ألفًا من المسلمين . ويذكر أن ريموند القائد الصليبي احتل «مَعَرَّة النعمان»، وقتل بها مائة ألف، وأشعل النار فيها، ثم أقاموا دولتهم الكبرى المعروفة باسم مملكة القدس. وفي هذه الحملةً، ظلت بعض مدن الشام الهامة مثل حلب ودمشق في أيدي المسلمين . لقد تم الاستيلاء على القدس، وشعر الصليبيون أنهم حققوا واجبهم الديني باستعادة المدينة المقدسة.

وقد قسم الصليبيون هذا الإقليم إلى أربع إمارات:

١. إمارة الرُّها ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م، وتشمل أعالي نهري دجلة والفرات، وتقرب حدودها الجنوبية الغربية من حلب، وكانت عاصمتها الرها التي توجد في بعض الخرائط باسم إدريسّا .

٢. أما الثانية فهي إمارة أنطاكية، وتقع في الإقليم الشمالي جنوب غرب إمارة الرها .

٣. ثم تليها جنوبًا إمارة طرابلس وهي تقع في شريط ضيق على الساحل وهي أصغر هذه الإمارات .

٤. أما الرابعة فهي مملكة القدس، وتمتد حدودها الشرقية من قرب بيروت الحالية، ثم تتبع نهر الأردن حيث تتسع قليلا، وتتجه جنوبًا إلى خليج العقبة، وكانت عاصمتها القدس نفسها .

وكان لكل إمارة من هذه الإمارات أمير أو حاكم يحكمها، لقد استولوا على القدس، وها هو ذا نصرهم قد تم، وها هي ذي أوربا كلها في فرح متزايد، ولكن الخلافات بينهم قد عادت كأشد ما تكون بعد أن تم لهم النصر .

الحملة الصليبية الثانية ٥٠٧-٥٤٩: انتصار نور الدين على الصليبيين:

وبرغم الآلام التي عانى منها المسلمون تحت مطارق الصليب، وبحار الدماء والحقد، عاد الإسلام-ولم يكن قد مات يومًا- يشعل صدور المسلمين، فهبوا جنودًا لله كما كانوا، وقيض الله لهذه الأمة رجلا تركيّا هو «عماد الدين زنكي» الذي عرف أن طريق النصر يبدأ دائمًا بالعودة إلى الله. كيف كان ذلك؟

عندما انقسمت دولة السلاجقة بعد «ملكشاه» استطاع أحد مماليكه الأتراك وهو عماد الدين زنكي أن يستقل بإقليم الموصل وكوّن دولة من دول الأتابكة .

وما لبثت قوة هذا الرجل أن تضاعفت فقام بهجوم على «**الرها**» **Edessa**، وتمكن من الاستيلاء على عاصمتها رغم مناعة أسوارها سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م. وكان لسقوط «الرها» في أوربا هِزة عنيفة أدت إلى الدعوة إلى حملة صليبية أخري.

ويحمل **نور الدين محمود** بن عماد الدين زنكي عبء الجهاد والدفاع عن أرض الإسلام بعد استشهاد أبيه عماد الدين عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، على يد أحد أتباع المذهب الإسماعيلي (المعروفون باسم الحشاشين الباطنية)، ويعيد نور الدين فتح الرها التي سارع الصليبيون إلى احتلالها بعد استشهاد أبيه، ويعود مظفرًا إلى حلب، ومن هناك يستعد للقاء الصليبيين، ويهزمهم بالقرب من دمشق، بل ويهاجم بعد ذلك إمارة إنطاكية ويستولي على أجزاء منها، ويقبض على أميرها بوهيموند وجماعة من أكابر أمراء الصليبيين، واستطاع أن يخضع باقي مدن الرها التي لم تكن قد خضعت من قبل. ثم توج جهوده لما دعاه أهل **دمشق** لحكمهم بعدما رأوا عدله وشجاعته، فتكونت جبهة إسلامية واحدة تمتد من حلب إلى دمشق ويدعمها ملك أخيه في الموصل. كم أنت عظيم يا نور الدين، لقد أضأت للمسلمين طريقهم؛ فعرفوا كيف يكون الجهاد والتضحية.

موقف مصر من الصليبيين:

كانت مصر في ذلك الوقت تحت سلطان الفاطميين الذين كانوا وقتذاك في أقصى حالات الضعف، فقد كانت السلطة الفعلية في أيدي الوزراء الذين كانوا يعملون على اختيار الخليفة من ضعفاء الفاطميين حتى يضمنوا سيطرتهم الدائمة على مصر! وكانت مصر شديدة الأهمية للصليبيين ولدولة نور الدين. إن وقوعها في أيدي الصليبيين يقويهم، ويمدهم بموارد لا حصر لها. ووقوعها في يد نور الدين يضع الصليبيين في موقف حرج حيث تهاجمهم قوات المسلمين من ثلاث جهات : الشرق، والجنوب، والجنوب الغربي، كما أن موارد نور الدين وجيوشه سوف تعظم وتتضخم إن هو استولى على مصر، فكيف السبيل إليها؟

لقد هيأت الأقدار لنور الدين أحسن الفرص. فقد عرف أن قيادة مصر في ذلك الوقت كانت في أيدي الوزراء، وكان أكبر المتنافسين الوزيران: «شاور» و»ضرغام»، وقد اضطر «شاور» إلى الهروب إلى نور الدين والاستنجاد به حين هزمه «ضرغام» وأوشك أن يفتك به. وبلغ «نور الدين» أن جيشًا من الصليبيين كان يتجه نحو مصر ليسبقه إليها. فتحرك نور الدين على عجل، وجهز جيشًا بقيادة «أسد الدين شيركوه» يصحبه ابن أخيه

صلاح الدين، ودخل جيش نور الدين مصر عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م، وسرعان ما انتصر على قوات «ضرغام» وأعاد «شاور» إلى السلطة، ترى هل يقدِّر «شاور» ما قام به تجاهه نور الدين وقائد جيشه أسد الدين شيركوه ؟ لا، بل أراد أن يتخلص من أسد الدين وجيشه عندما أحس أنهما يقاسمانه النفوذ.

الوزير الفاطمي يستنجد بالصليبيين:

هناك تكون كارثة بكل ما في الكلمة من معني! لقد استعان شاور بجيش الصليبيين الذي كان يرابط على الحدود، وسرعان ما استجاب جيش الصليبيين لشاور فدخل مصر، واشتبك مع جيوش نور الدين!

واشتد القتال، ولكن لما لم ترجح كفة أحد الفريقين اتفقا على أن يرحلا معًا عن مصر، وسرعان ما جلا جيش نور الدين وجيش الصليبيين . ولكن جيش نور الدين عاد إلى مصر ثانية في عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م .

وعند ذلك أرسل «شاور» يستنجد بملك القدس المسيحي الذي أرسل جيوشه لمحاربة أسد الدين شيركوه، ولكن شيركوه هزم الصليبيين، واستولى على الإسكندرية التي نصَّب عليها ابن أخيه صلاح الدين الذي أظهر مواهبه الحربية في الدفاع عن الإسكندرية. وعلى الرغم من انتصارات شيركوه المؤقتة فإنه شعر ألا سبيل أمامه للاحتفاظ بمصر، فاتفق مع الصليبيين للمرة الثانية على جلاء الفريقين عنها. ولكن الصليبيين نقضوا العهد حين أعدوا حملة دخلت مصر بغرض الاستيلاء عليها، وقد استولوا على «بلبيس» وأعملوا في سكانها القتل والنهب.

الحملة الصليبية الثالثة ٥٨٢–٥٨٧: انتصار شيركوه وصلاح الدين على الصليبيين:

وهنا أرسل الخليفة الفاطمي مستنجدًا بنور الدين الذي أرسل جيشه للمرة الثالثة سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م، يقوده شيركوه، وصلاح الدين، وسرعان ما تم النصر على حملة الصليبيين في مصر، وانسحبت تاركة النفوذ والسيطرة لجيش شيركوه .

وقد حاول شاور العودة إلى سياسته القديمة، والتخلص من شيركوه؛ ولكنه فشل وقُبض عليه وأُعدم. وعُيّن «شيركوه» وزيرًا للخليفة الفاطمي بدلا من شاور. وعندما مات شيركوه خلفه في الوزارة وقيادة الجيوش ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م، وقد تركزت في يد صلاح الدين جميع السلطات، وتمر الأيام وصلاح الدين يتألق نجمه، وتظهر مع الأيام عبقريته، ويموت الخليفة الفاطمي العاضد سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م بعد أن ألغي صلاح الدين الخلافة الفاطمية، وتصبح السلطة الفعلية والنفوذ الحقيقي في يده، يقبض عليهما بيد من حديد.

وراح الصليبيون يفكرون، لقد خلصت مصر لقوات المسلمين، وأصبحت في يد هذا الرجل الحديدي الذي سيوحد قوي المسلمين ويحطم قوي الصليبيين، وإن غدًا لناظره قريب.

ظل صلاح الدين حاكمًا على مصر زمنًا طويلا يدعو للخليفة العباسي ولنور الدين من بعده. وتأسست الدولة الأيوبية بمصر بعد وفاة نور الدين محمود ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م على يد صلاح الدين الأيوبي.

لقد كان الفاطميون من الشيعة، أما الأيوبيون فهم من أهل السنة، ومن أجل هذا راح صلاح الدين يلغي مظاهر الخلافة الفاطمية ورسومها، ويُعطل معاهد الدعوة الشيعية وطقوسها. وعادت السنة إلى مصر.. السُّنِّيَة التي رفضت كل مُعْتَقَد دخيل على ما جاءها به نبيها وتمر الأيام فيرث صلاح الدين دولة نور الدين، ويخضع له أمير الموصل سنة ٥٨٣هـ/ ١١٦٨م.

لقد كانت دولة نور الدين تضم ما بين المسلمين من الشام والحجاز واليمن، كما ضمت أجزاء من شمال إفريقية. فأصبحت دولة صلاح الدين تضم شمالي العراق، وشرقي الشام، ثم الحجاز واليمن ومصر وبعض شمالي إفريقية. لقد كان هذا أكبر اتحاد للقوي الإسلامية في ذلك الوقت الذي كانت فيه الدولة العباسية مفككة ضعيفة لا سلطان لها. وإن بينها وبين الدويلات الصليبية غدًا قريبًا تسترد فيه الأرض وتحمي العرض.

وفي بعض الفترات كان صلاح الدين يعقد معاهدات مع الصليبيين ليتفرغ لتوحيد الجهة الإسلامية، ولكنهم نقضوا العهد، ذلك أن رجنلد (أنارط) أمير الكرك الصليبي نقض هذه المعاهدة، وقام الصليبيون ببعض الاستفزازات للمسلمين منها أن رجنلد هذا أعد أسطولا يعبث بشواطئ الحجاز ويهاجم الحجاج المسلمين، ودأب على مهاجمة القوافل الإسلامية. لا مفر إذن من وقوع الحرب بين الفريقين، وتقدمت قوات صلاح الدين من دمشق، ووجهتها القدس.

موقعة حطين ٥٨٣هـ:

كان نصر الله المبين حيث التقت جيوش المسلمين بجيوش الصليبيين في «حطين» وكان ذلك في عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م.

لقد جمع الصليبيون عشرين ألف مقاتل جمعوهم من كل دويلات الصليبيين. واشتبك الجيشان، وانجلت المعركة عن نصر ساحق لصلاح الدين مع تدمير تام لجيش أعدائه .لم يكن أمام جيش صلاح الدين بعد معركة حطين إلا أن يتقدم نحو القدس، وقبل أن يتقدم نحوها استسلم له حصن «طبرية»، وفتح «عكا» واستولى على «الناصرية» و»قيسارية» و»حيفا» و»صيدا» و»بيروت»، وبعدها اتجه صلاح الدين إلى القدس.

استرداد القدس:

ولكن الصليبيين تحصنوا بداخلها، فاتخذ صلاح الدين جبل الزيتون مركزًا لجيوشه، ورمى أسوار المدينة بالحجارة عن طريق المجانيق التي أمامها، ففر المدافعون، وتقدم المسلمون ينقبون الأسوار، فاستسلم الفرنجة، وطلبوا الصلح، فقبل صلاح الدين، واتفق الطرفان على أن يخرج الفرنجة سالمين من المدينة على أن يدفع الرجل عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والصبي دينارين، ووفى المسلمون لهم بهذا الوعد، وكان ضمن من خرجوا البطريرك الأكبر يحمل أموال البِيَع (الكنائس) وذخائر المساجد التي كان الصليبيون قد غنموها في فتوحاتهم.

رحمة صلاح الدين:

وفي هذه الأثناء، قال بعض المسلمين لصلاح الدين : إن هذا البطريرك يقوى بهذا المال على حرب المسلمين! فأجاب صلاح الدين: الإسلام لا يعرف الغدر، وقد أمّنا وعلينا الوفاء. وخرج الرجل بهذه الأموال.

ويروى أن مجموعة من النبيلات والأميرات قلن لصلاح الدين وهن يغادرن بيت المقدس: «أيها السلطان! لقد مننت علينا بالحياة، ولكن كيف نعيش وأزواجنا وأولادنا في أسرك؟! وإذا كنا ندع هذه البلاد إلى الأبد فمن سيكون معنا من الرجال للحماية والسعي والمعاش؟! أيها السلطان! هَبْ لنا أزواجنا وأولادنا، فإنك إن لم تفعل أسلمتنا للعار والجوع». فتأثر صلاح الدين بذلك، فوهب لهن رجالهن، رحمك الله يا صلاح الدين، فقد كنت مثالا للرحمة والعفو وحسن الخلق، وكنت مثالا حسنًا لمبادئ الحضارة الإسلامية وعظمة الإسلام.

ويتقدم البطل الفاتح ليطهر البلاد والعباد من شراذم الصليبيين الذين دنسوا الأرض، واعتدوا على العرض.

وتقدم جيش البطل صلاح الدين بل جيش الإسلام والمسلمين؛ ليستولي على معظم مستعمرات الصليبيين ومناطقهم الهامة .

وقد ساعد على نجاح هذه الحملات أن معظم حاميات الصليبيين لقيت حتفها في حطين .

ويجيء عام ٥٨٦هـ/ ١١٨٩م، ولم يَبْقَ في أيدي الصليبيين من كل أرض سوريا وفلسطين سوى صور وأنطاكية وطرابلس وبعض مدن وقلاع صغيرة مبعثرة هنا وهناك.

والحق أن هذه الأماكن الساحلية التي استهان المسلمون بها وتركوها في أيدي الصليبيين كانت سببًا في كثير من المتاعب للدولة الإسلامية بعد ذلك، فقد تجمع فيها

الصليبيون الفارون من الأماكن الأخرى، وقاموا بمهاجمة البلاد الإسلامية المجاورة، واستولوا على بعضها وساعدوا الحملات الصليبية الثالثة التي جاءت من الغرب وكبدت المسلمين خسائر فادحة.

الحملة الصليبية الرابعة والخامسة ٥٨٦-٥٩٧: ملوك أوربا يقودون الحرب الصليبية:

فقد كان لهذه الانتصارات وعلى رأسها سقوط القدس صدى مؤلم في أوربا أدى إلى إثارة الحماس مرة أخري، وتصاعدت صيحات إنقاذ الأراضي المقدسة تتردد في أرجاء أوربا. واتجهت الكنيسة إلى جمع الضرائب للحروب الصليبية، وشجعت الناس على الخروج لقتال المسلمين، وأعلن البابا أن من لم يستطع أن يخرج بنفسه وتبرع بالمال غُفرت له ذنوبه، ثم تطور هذا الأمر إلى إصدار صكوك الغفران لكل من يتبرع لهذه الحرب، أو يخرج فيها. وتم تعبئة عدد من الحملات يقودها ملك إنجلترا «ريتشارد» الملقب بقلب الأسد، و»فيليب أوغسطس» ملك فرنسا، و»فريدريك بربوسا» ملك الألمان.

لقد كانت الحملة التى قادها فردريك فاشلة، وذلك لأن قائدها نفسه قد غرق في نهر بأرمينية، فعاد معظم جيشه من حيث أتي، ولم يصل منه إلى الأراضي المقدسة سوى عدد قليل. وهكذا وقع عبء الحرب على ريتشارد وفيليب.

وقبل وصول هذين الأخيرين، أخذ الصليبيون يجمعون قواتهم، ويحاولون القيام بعمل مضاد لحركات صلاح الدين.. فوجهوا قواتهم لتحاصر عكا من البر، وأساطيلهم لتحاصرها من البحر، وكان في استطاعة صلاح الدين أن يقضي على الجيش الصليبي لولا وصول ريتشارد وجيوشه في ذلك الوقت.

وقد طال الحصار البحري البري مدة عامين كاملين من سنة (٥٨٦-٥٨٨هـ/ ١١٨٩-١١٩١م) ضرب فيها الفريقان أسمى أمثلة الشجاعة، وأخيرًا سقطت عكا في أيدي الصليبيين.

الصليبيون يقتلون الأسري:

وتوصل الجانبان إلى اتفاق يطلق بمقتضاه الصليبيون سراح حامية عكا، شريطة أن يدفع صلاح الدين ٢٠٠ ألف قطعة ذهبية.

وقد حدث أن تأخر دفع المبلغ المتفق عليه، فأمر ريتشارد بإعدام كل أسراه، وعددهم ٢٧٠٠ أسير، وهذه نقطة سوداء في تاريخه، يقابلها من جانب صلاح الدين نبل عظيم في معاملة أسراه؛ حيث كان يتعامل معهم بالرحمة والتسامح.

وفي الحملة الخامسة، قد توجه الصليبيون للقسطنطينية، بدلا من سوريا وقرروا القضاء على البيزنطيين، وكانت النتيجة أم وقعت الحرب بينه المسيحيين أنفسهم مما دعا البابا للنداء لوقف القتال، وانتهت الحملة الخامسة دون التعرض للمسلمين.

صلح الرملة:

استمرت المناوشات البسيطة بين الفريقين، ولكن ريتشارد مَلَّ الحرب، وخاف على ملكه في أوربا، فجرت بينه وبين صلاح الدين مشاورات ومراسلات، ومن أهم ما جاء في هذه المراسلات ما كتبه ريتشارد إلى صلاح الدين يقول: إن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت ديارهم، وتلفت الأموال والأرواح، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب، والقدس مُتَعَبَّدُنا ما ننزل عنه، والصليب خشبة عندكم لا مقدار له، وهو عندنا عظيم؛ فيَمُنّ به السلطان علينا ونستريح من هذا العناء.

فأجاب صلاح الدين: القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا تتصور أن ننزل عنه، وأما البلاد فهي لنا واستيلاؤكم كان طارئًا عليها لضعف المسلمين، وأما الصليب فهلاكه عندنا قُربة عظيمة فلا يجوز أن نفرط فيه إلا لمصلحة أوفي منه.

وقد أدت هذه المفاوضات إلى عقد اتفاق بين الجانبين وهو صلح الرملة سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٢م، وشروطه: ترك أراضي الساحل للصليبيين، ومنها صور وعكا ويافا

وعسقلان، في حين أصبح داخل البلاد لصلاح الدين على أن يسمح للمسيحيين بالحج إلى بيت المقدس، وأن يتعهد بحمايتهم.

موقف الأيوبيين من الصليبيين:

ولما مات صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٢م، حكمت أسرته من بعده، فحكم أخوه العادل مصر ومعظم أجزاء الشام، وخلفه ابنه الكامل الذي سقطت دمياط في عهده في يد الصليبيين لما هاجموا مصر سنة ٦١٥هـ، ثم انسحبوا منها مدحورين.. بعد هزيمة فادحة أدت بهم إلى الجلاء عن مصر سنة ٦١٨هـ، بعد الصلح مع الملك الكامل، فقد قطع المصريون جسر النيل فغرقت الأرض بالمياه وأوشك الصليبيون علي الهلاك، فطلبوا الصلح.

الحملة الصليبية السادسة ٦١٢-٦١٤: هجوم دمياط وأسر ملك فرنسا:

ثم هاجم الصليبيون دمياط أيام الملك الكامل واحتلوها وساروا إلى القاهرة إلا أن المصريين أوقعوا بهم في النيل وقطعوا خطوط إمداداتهم وهزموهم هزيمة منكرة.

الحملة الصليبية السابعة والثامنة ٦٢٤-٦٤٤:

وقد كان الإمبراطور الألماني فريدريك قائد الحملة السابعة كان الصراع دائرا بين أبناء الدولة الأيوبية فلم يستطيعوا أن يكونوا قوة كافية للوقوف في وجه فريدريك، فاستولى على القدس بغير إذن من البابا وأعلن نفسه ملكا لها. واتفق الأيوبيون بقيادة الملك الكامل على هدنة مع فريدريك لمدة عشر سنوات حتى يتمكن الكامل من الإنتصار على خصمه مما أجج الغضب في العالم الإسلامي لفقد مكتسبات صلاح الدين.

ثم تعرضت مصر أيضا لحملة صليبية قادها ملك فرنسا لويس التاسع الذي استولى على دمياط سنة ٦٤٧هـ، ولكنه وقع أسيرًا فحمل مكبلا بالسلاسل إلى المنصورة حيث سجن في دار قاضيها ابن لقمان، وكان ذلك بفضل حكمة وقيادة ركن الدين بيبرس للقوات المصرية، وافتدى نفسه بتسليم دمياط للمسلمين ودفع فدية مالية، وعادت دمياط إلى الأيوبيين سنة ٦٤٨هـ.

وأمام التهديد الدائم من قبل الصليبيين للإسكندرية وغيرها من مدن الشام، لم يقف المماليك البرجية مكتوفي الأيدي؛ بل راحوا يفكرون في قطع دابر الصليبيين «بقبرص» وكان لهم ما أرادوا، حتى تمكنوا في عهد الأشرف بَرْسِباي سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م، من هذا الأمل، وأسروا ملك الصليبيين الذي ظل أسيرًا بمصر حتى سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٧م، ولم يفك أسره إلا بعد دفع جزية كبيرة على أن يعترف بسيادة المماليك علي قبرص!

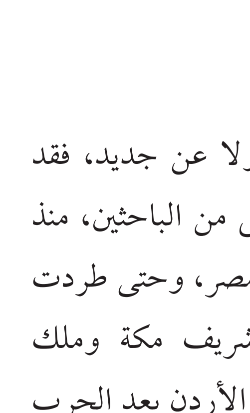
وتظل لمصر السيادة على قبرص في عهد المماليك البرجية حتى سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، وهي السنة التي آل فيها حكم البلاد إلى العثمانيين، وسقطت دولة المماليك البرجية.

نتائج الحروب الصليبية:

وبهذا فشلت الحروب الصليبية، ولكن برغم الفشل السياسي والحربي للحملات الصليبية فإن هذه الحروب كان لها نتائج بالغة الأثر؛ منها اتساع تجارة أوربا وبخاصة «جنوا» و«البندقية» و»بيزا» مع موانئ الشام. ولم يقتصر هذا الاتساع على الفترة التي سيطر فيها الصليبيون على الأراضي المقدسة، بل استمر حتى بعد أن أجلوا عن الإقليم كله. كما ساعدت عليانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا.



الأنوار البهية في معالم الدعوة النجدية



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد

مقدمة:

ليس حديثنا هذا بجديد، ولا عن جديد، فقد تناولناه، كما تناوله عدد لا يُحصى من الباحثين، منذ أن بدأت ولاية محمد علي على مصر، وحتى طردت آل سعود الحسين بن علي، شريف مكة وملك الحجاز، من قِبَل البريطانيين إلى الأردن بعد الحرب العالمية الأولى، بعد تعاونه مع الإنجليز لطرد القوات التركية من الجزيرة، وظهور ملك عبد العزيز ابن سعود خائن العرب. ذلك هو الحديث عن دعوة الشيخ المجدد الإمام محمد ابن عبد الوهاب، ومن بعده ما كتبه علماء الدعوة النجدية، وانعكاسات ذلك على سياسات أمراء آل سعود مع خصومهم في الجزيرة.

وأود أن أشير هنا إلى أنني لن أطيل بسرد وقائع وتواريخ هي بين يديّ القارئ، محشودة في الكتب، فإن أكره شئ على نفسي الإطالة التي لا داع لها إلا إيعازات، توحي للقارئ بأهمية البحث، وغور كاتبه، وهي طريقة النائشة من الباحثين. إنما سأقرر ما أراه من تحليل بناء على ما هو متفق عليه من التاريخ، وإلا فسأثبت العزو للمرجع إن شاء الله.

وكأي موضوع يبحث فيه بشرٌ من البشر، انقسمت الآراء إلى قسمين متضاربين أشد التضارب وأعنفه. فقد ذهب عدد من الباحثين إلى شيطنة هذه الحركة، وإسقاط أئمتها ودعوتها، والنظر اليها كجماعة بدعية خالصة جاءت لتهدم السنة القائمة في الجزيرة! كما ذهب عدد آخر من الباحثين إلى أنّ هذه الحركة هي حركة سنية خالصة لم يقع من طبق مبادئها في خطإ أيا كان.

وكالعادة، فإن الطرفين قد ظلما الدعوة وأصحابها وتابعيها ظلماً بيّناً، إذ لا يخلو بشر من خطإ، مع فضل الدعوة وأثرها العظيمين. وما ذلك إلا لعوامل عدة، منها الحالة النفسية والتركيبة الفكرية للباحث، ومنها طريقة النظر في نشأة الدعوات، وما يصاحبها من آلام مخاض، إن كُتب لها النجاح. وثالثها عدم اعتبار طبيعة الدعوة ذاتها، هل هي دعوة إصلاحية إجتماعية هدفها تحسين حال الفرد والمجتمع والارتقاء به سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، أم دعوة سياسية بحتة يُقصد بها تغيير سياسيّ ينزع الملك من عائلة أو قبيلة أو فرد ليحمله آخرون، أم دينية شرعية تتعلق بوضع شرعيّ خارج عن منظومة الشرع الحنيف يراد منها أن تقيّمه أولاً، ثم تصححه بالدعوة السلمية، ثم تفرضه فرضا إن استطاعت، كما هو معروف في الحديث الصحيح «من رأي منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» رواه مسلم.

ولعلي أذكر عدة نقاط مجملة، نفصلها فيما يليها إن شاء الله، أعتبرها مما يجب مراعاتها عند الحديث عن الحركات بشكل عام، والنجدية بشكلٍ خاص.

- الفصل بين الدعوة والسياسة، أمر غير شرعي، فلا ضير من عملهما معا فصلاح الناس بصلاح الفئتين، الأمراء والعلماء.
- أن الضرب بالغيب وإدعاء معرفة النوايا والقصود، بناء على مستقرات نفسية كوّنت نفسيات الباحثين اليوم من أنّ قرب الدعاة من الأمراء يجعل العلاقة غير شرعية بالضرورة، من حيث أن الحكام أبدا من ذوى الأغراض السيئة، فالعلماء إذن مُستغلون مستعبطون!! وما جاء عن بعد العلماء عن بلاط السلاطين صحيح ثبت، لكن محمد ابن صعود لم يكن «سلكاناً» بأي معنى من المعاني.
- أنّ الوضع الذي تمر به الدعوات الجديدة، يجب أن يراعى فيه الظروف المحيطة والعوامل المؤثرة، ليمكن فهم تصرفاتها، كما فعلنا في تحليلنا لدوافع الإمام حسن البنا في أعقاب سقوط الخلافة، في بحث «الإخوان المسلمون في نصف قرن»[١].

---

[١] http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-32507

١. وألَمح في كلّ ما كتب الباحثون عن الدعوة النجدية، غمزاً ولمزاً في أن الإمام محمد ابن عبد الوهاب قد بايع محمد ابن سعود على نشر دعوته التي مدارها التخلص من مظاهر الشرك التي كانت تسود في الجزيرة بلا خلاف في ذلك، بل كانت، ولا تزال تسود في غالب أنحاء بلادنا الإسلامية شرقاً وغرباً، في صورها الثلاثة التي سنصير اليها بعد إن شاء الله.

وتلك البيعة لا عيب فيها على الإطلاق، فمن كان يعلم وقتها، أنّ من نسل هذا الأمير سيخرج عبد العزيز آل سعود، في أوائل القرن العشرين، ليخون دينه وبلاده ويبيعها للإنجليز، ثم تتبعه ذريته بغير إحسان في ذلك، ولكن بتمويه ونفاق، إلى أن يصل الأمر إلى خنزير الجزيرة ابن سلمان، فيأتي بما لم تستطعه الأوائل، في التصريح بالعلمانية والكفر وموالاة الصهاينة؟ قال تعالى «وما كنا للغيب حافظين» يوسف.

وبيعة العلماء للأمراء، واستماع الأمراء للعلماء، أمرٌ معروف مستقرٌ في أطوار الخلافة منذ انتقلت من الخلافة الراشدة إلى الملك العضود. وهذا لا يقدح في صحتها، بل يتوقف الأمر على موضوع البيعة وحمل الإمارة لها. ولم يطلب أحدٌ أن تكون خلافة على نهج الراشدين، في العصور المتأخرة، وبل ولم يتصورها أحدٌ قط.

٢. إذا نظرنا إلى طبيعة الدعوات التي قامت في تلك الفترة، أو ما يقاربها، حتى سقوط الخلافة، نرى الاختلاف الشديد بين طبيعة تلك الدعوات ودعوة الشيخ الإمام، مما يجعل مقارنتها بها لون من التدليس أو الخلط في الفهم على أقل تقدير.

فدعوة ابن الوزير (الزيدي) في اليمن كانت دعوة مختصة بأمر علميّ فقهيّ، وإن كان في غاية الأهمية، وهو مسألة إغلاق باب الاجتهاد، وفتح المجال للمجتهدين أن يتقدموا بفتاوى تلائم عصرهم، حيث قدم فيه ابن الوزير «العواصم والقواصم»، ثم المقبلي «العلم الشامخ»، ثم الشوكاني «السيل الجرار». فتلك الدعوة لم تكن في طبيعتها تتعامل مع مسائل إيمان وشرك، ولا ينكر أحدٌ الفرق بين الحديث عن دعاء غير الله والتوجه لغيره

بأشكال العبادة، وبين الحديث عن موضوع الاجتهاد والتقليد، وتأثير العلوم الكلامية على الفقه والعقيدة.

ثم دعوة الإمام السنوسي (الصوفي التيجانيّ) في ليبيا، التي كانت دعوته إصلاحية ثم سياسية تقصد إلى التعامل مع الاحتلال الغربي الإيطاليّ، ثم تجميل وتعديل بعض مظاهر الصوفية المنتشرة في ليبيا والمغرب العربي. ورغم تأثر السنوسي بدعوة الشيخ الإمام محمد ابن عبد الوهاب، إلا إنه ظل مخلصا لشيخه التيجاني صاحب الطريقة، مع قصد إصلاح بعض اعوجاج في الطرق الصوفية عامة، وإن احتفظت السنوسية بطرق التيجانية التي هي من بدع الدين في أورادها وشروط تلاوتها وعلاقة المريد بالشيخ. فمن البعيد إذن المقارنة بين الدعوتين من ناحية القصد والطريقة. كما إنه مما يلاحظ قيام العداوة بين الدعوة السنوسية وبين الخلافة العثمانية، رغم التوجه الصوفي لكليهما، مع فارق الدرجة.

ثم دعوة الإمام الدهلوي (الصوفي النقشبندي) في الهند، قد قدّم فيها للإسلام كثيرا من الجهد العلميّ الكبير، ومواجهة بعض انحرافات غلاة الصوفية من أدعياء وحدة الوجود والحلول، وكانت لكتبه آثار بالغة في تصحيح مفاهيم اختلطت بعلم الكلام، وإن اقتصرت دعوته على الإصلاح، وتأثرت بالفكر الصوفي النقشبندي.

ثم دعوة الإخوان، التي تختلف في طبيعتها وأسباب ظهورها وأهدافها عن الدعوة النجدية اختلافا تاماً، هدفاً ووسيلة ونتيجة، فلا يمكن معه مقارنتها على الإطلاق. فمنهج الإخوان قد قبل في ثناياه كلّ شئ وأي شئ، مع عدم التفريق بين طاعة ومعصية وبدعة، وربط الكفر باستحلال القلب حصراً، فكانت دعوة ظاهرها الإصلاح وباطنها إقرار الفساد والمعاصي، مع محاولات فردية مشتتة للنجاة، فكان أن أصابها ما أصابها، وعداً من الله «وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون».

ثم، ما لنا لا نرى دعوة العلامة المجدد أبو الأعلى المودودي، المعاصر لحسن البنا، تّذكر في تلك الدعوات الإصلاحية؟ السبب إنها تعرضت للحكم ونظامه وضرورة تحكيم

الشريعة في حياة الناس، وبيان حقيقة المفاهيم اللغوية القرآنية[١] التي بدّلها الجهل وطول الزمن وانتكاس العلماء.

من هنا نُدرك أن المقارنة العشوائية بين الدعوات الإصلاحية أو التجديدية في العالم الإسلامي، منذ القرن السادس عشر الميلادي، أو العاشر الهجريّ، أمر لا يدل على نباهة في طرق البحث والاستدلال. بل يجب اعتبار الحالات الخاصة بكل دعوة، ومقاصدها وطرقها، ليمكن فهم وسائلها وتصرفاتها.

٣. تنصَبّ معارضة الدعوة النجدية، وشيطنتها عند البعض[٢]، على نقاط محددة، تتلخص في متابعتها لأمراء آل سعود، حتى في حين التعدي والظلم، وفي إقرارها لقتال من وصفوهم بالمشركين ممن رفض ترك ما هو عليه والدخول في بيعة محمد ابن سعود، التي كانت تعني في إبان الدولة الأولى الخروج عن ممارسة الشركيات المحضة التي كانوا عليها. ثم في إسباغ صفة الشرك على الدولة العثمانية في ذلك الأوان[٣]، لحربهم لتلك الدعوة، ثم استعانة أمراء آل سعود بالإنجليز لتوطيد دعائم ملكهم.

٤. وما نريد أن نوجه اليه النظر أن الدعوات كلها، بلا استثناء، تمر بمراحل فكرية وحركية، قد بعد قليلاً أو كثيراً عن محورها الذي بدأت حوله. هذا من طبائع الأمور، وليس من المستغرب أن يحدث هذا للدعوة النجدية، خاصة في جانبها السياسي، أو ذراعها السياسي كما يسمونه في الوقت المعاصر، حين تنفصل الدعوة عن الحكم، لسبب أو لآخر.

[١] راجع «المصطلحات الأربعة في القرآن» للعلامة الإمام أبو الأعلى المودودي الباكستاني.

[٢] محمد المسعري، وهو سعودي الجنسية، غريب الأطوار، يكفّر دعوة الشيخ ويرى إنها هي الإلحاد والكفر والخروج! ثم كافة العلمانيين في عالمنا الإسلاميّ

[٣] وهو أمر نخالفهم فيه، ونرى أن ما دفعهم اليه هو قتال الدولة العثمانية لهم، مع أن دعوتهم التوحيد. لكن الحكم على الدولة ليس من الأمور المتفق عليها.

فنحن إذا نظرنا إلى مراحل الدعوة النجدية، نجدها تشابكت مع مراحل تطور الدولة السعودية الثلاث، وهو أمر متوقّع لما كان بداية الدعوة، ومحاربة الناس لها أولاً، كما فعل مثلاً عثمان بن معمر، ثم ندم بعدها.، ثم تبني الدعوة محمد ابن سعود، كما هو معروف.

٥. ومراحل الدولة السعودية ثلاثة مثبتة في التاريخ الحديث، أضفت لها هنا رابعة، حسب ما أراه من تطور الأوضاع في الجزيرة:

a. الدولة السعودية الأولي وأميرها محمد ابن سعود، ومقرها الدرعية وهي التي تولت الدعوة النجدية ١٧٤٤–١٨١٨. وأبرز أحداث هذه المرحلة قتل عثمان بن معمر بعد خيانته وغدره ببيعته وتمالئه على الشيخ ودعوته لصالح سياسيّ في نفسه، فقتله أهل العيينة، من غير أمر الشيخ ولا معرفته[١].

b. الدولة السعودية الثانية وأميرها تركي حفيد محمد بن سعود ومقرها الرياض، وتزامنت في الوجود العثماني حتى ١٩٠٢. وظلت على وفائها للدعوة. وكانت في حقيقتها حكما لأمراء من آل سعود، لم تستقر لهم دولة، وإن كانوا يتمتعون بصفة الإمارة السعودية. ولم يظهر من هؤلاء ما يدل على استغلال سياسي للدعوة، إلا إن اعتبرنا أن الدفاع عن راية سياسية تحمل خلفها راية التوحيد استغلالا.

c. الدولة السعودية الثالثة: وتولى أمرها عبد العزيز آل سعود، الخائن الأكبر، حيث أعان الانجليز في القضاء على الخلافة. وظلت وفية للدعوة ظاهرا، لكن تحالفها مع الغرب، مهد للقضاء على جوانب عليها كدولة سنية تحمى «جناب التوحيد» كما ظلوا يدعون في القرن الأخير كله. وتاريخها الحديث معروف لا حاجة للخوض فيه، وولاؤهم لأمريكا اليوم، أعظم من ولائهم لله بلا شك من عاقل رشيد.

---

[١] تاريخ نجد، تحرير وتحقيق د ناصر الدين الأسد، طبعة دار الشروق ١٤١٥ هـ، ص ١٠٣

d. الدولة السعودية الرابعة: وهي التي بدأت ٢٠١٧ على يد محمد ابن سلمان وهي بداية علمنة الدولة السعودية وإبقاء فرع سلمان وأولاده من بعده في الحكم بلا منافس.

٦. والحديث عن صلب الدعوة النجدية، ما لها وما عليها، يبدأ بملاحظة لها مغزى معين، لا يفوت الباحث المدقق. وهي أن كافة من عارض الدعوة أو شيطنها، إما من العلمانيين الكارهين للإسلام أصلاً، ومعارضة هؤلاء ليست في محل اعتبار بداءة. ثم طلاب علم أو مشايخ ممن لهم رحم مع الصوفية ابتداء، فمنهم من هو من علماء السلطان، أو من غير علماء السلطان، وهؤلاء تجدهم إما متصوفة بحق، أو ممن تربى وترعرع في أحضان بيئة صوفية، فشرب من لبان الصوفية جرعات، خففت من اتباعه للسنة، أو من معارضته لبعض ما يعارضها.

٧. وخطة هذا البحث هنا هي التالي:

a. حقيقة ما كان عليه الوضع في الجزيرة.

b. توصيف ما عليه أهل الجزيرة شرعاً

c. ما الذي دعا اليه الشيخ الإمام محمد ابن عبد الوهاب؟

d. هل كفّر ابن عبد الوهاب كافة المسلمين عامة كما يقال عنه؟

e. هل دعوة الشيخ أصلاً قامت على القتال أم على البلاغ؟

f. هل يمكن تصنيف دعوة الشيخ بالخروج؟

g. طبيعة المرحلة واختلافها عن زمننا وعن زمن شيخ الإسلام ابن تيمية.

h. كلمة عن تقسيم الدين إلى أصلٍ وفروع.

i. خاتمة

٨. أما عن حقيقة الوضع الذي كان سائداً في الجزيرة، فمن المسلّم به أن الأكثرية الغالبة من الناس كانت تتخذ أشجاراً وأحجاراً تتقرب بها إلى الله، وتتوجه للقبور والقباب وأصحابها بالدعاء، كوسائط لله تعالى أو تتوجه لهم مباشرة، وهم من أسموهم علماء السنة بالقبوريين، وعقائدهم فيها من الشناعات ما لا يوصف. كما كانوا يعظمون أقوال رجالٍ يخالفون في أشكال ثبتت أنها من أشكال العبادة لله وحده وأنها من القبورية الشركية، فينفرونهم عن ترك تلك الأفعال، ويزينون لهم الاستغاثة والاستعانة والدعاء لغير الله، وأنه هو التوحيد، وأن غيره هو الشرك، مثل ما كان من الشيخ عبد الله ابن عيسى المويس[١]، عدو دعوة ابن عبد الوهاب .. ومدار أقوال هؤلاء على التفرقة بين عبادة الله التي تثبت بكلمة «لا إله إلا الله» وبين ممارسة الأفعال الشركية ودعمها ونشرها ومعاداة من يعاديها وموالاة من يواليها، بل وتكفيره كما جاء في الرسالة التاسعة عشرة التي وجهها الإمام إلى أحمد بن إبراهيم[٢]، والتي أقر فيها أنه ومكاتبه متفقان على المبدأ في الجملة، ثم بقي «الخلاف في أناس معينين أقرّوا أن التوحيد الذي ندعو اليه دين الله ورسوله، وأن الذي ننهى عنه في الحرمين والبصرة والحسا هو الشرك بالله. ولكن هل تركوا التوحيد بعد معرفته وصدّوا الناس عنه؟»[٣]

وهذ ليس ضرباً من ضروب البدعة، بل هو فعل طائفة من الخلق والت وعادت على هذه المفاهيم. كما جاء عن أحمد بن على القبانيّ العراقي، في مجلده عن بدع محمد بن عبد الوهاب وضلالاته[٤] في النهي عن عبادة القباب والقبور، بعدما كاتبه المويس. يقول الشيخ الإمام في تلك الرسالة «وأيضا جاءنا بعض المجلد الذي صنّفه القبانيّ، واستكتبوه

[١] الذي كان سببا في نكث عثمان ابن معمر لبيعة الإمام عن طريق محمد بن عفالق، ومن ثم قتله

[٢] السابق ص ٣٣٥

[٣] السابق ص ٣٣٥

[٤] أسماه «فصل الخطاب في ردّ ضلالات محمد بن عبد الوهاب»

أهل الحسا وأهل نجد، وفيه نقل الإجماع على تحسين قبّة الكواز وأمثالها، وعبادتها[١]، وعبادة سية طالب. ويقول في تصنيفه: ولم يخالف في تصنيفه إلا ابن تيمية وابن القيم وعشرة، أنا عاشرهم (أي الشيخ نفسه) فالجميع اثنا عشر. فإذا كان يوم القيامة اعتزلوا عن جميع الأمة»[٢].

وليس هناك من حاجة إلى قراءة ما كتب مناهضى الشيخ الإمام، لا لشئ إلا لأنه يدور حول إثبات صحة المسألة القبورية وأنها من دين الله، بل هي دين الله، وغيرها تزييف للدين. وهذا أمرٌ نتجاوزه فليس في نقاش من يؤمن به طائل[٣]. أو أنها جاءت عن طريق غير مجتهد (وهو الإمام محمد ابن عبد الوهاب) في رسالة أخيه سليمان بن عبد الوهاب[٤]، ثم اعتمد على أنّ ابن تيمية وابن القيم ذكرا في النذر إنه معصية، وهو ما لم يعارض فيه شيخ الإسلام. وأنّ الذبح لغير الله ليس من المكفرات، وأن سؤال غير الله ليس من المكفرات، ونقل عن ابن تيمية قوله أن سؤال غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله كفر إجماعاً يستتاب فاعله فإن تاب وإلا قتل، ويجب إقامة الحجة على المعين[٥]

ثم أتى في ذلك بعجيبة، قال: «فإن قلت: ذكر عنه في الإقناع أنه قال: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم ويتوكل عليهم كفر إجماعاً. قال سليمان: قلت هذا حق، ولكن البلاء من عدم فهم كلام أهل العلم! لو تأملتم العبارة تأملاً تاما لعرفتم أنكم تأولتم العبارة على غير تأويلها!!. ... انظر إلى لفظ العبارة وهو قوله «يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم،

[١] أي التوجه لها ولمن تحتها بدعاء العبادة

[٢] السبق ص ٣٣٦

[٣] راجع ما كتب ابن تيمية وابن القيم في هذا الباب في العديد من كتبهم، وما كتبه الشيخ الإمام في الرسالة التاسعة عشرة ، تاريخ نجد ص ٣٣٥

[٤] راجع كتابه» فصل الخطاب في الرد على محمد بن عبد الوهاب» وتلحظ أن من طبعه الرافضة، والأتراك والهنود! لا غير.

[٥] والمفهوم أن إقامة الحجة هي عند الإستتابة، حتى يستقيم الكلام.

كيف جاء بواو العطف وقرن بين الدعاء والتوكل والمسألة؟ ... وهو في هذه العبارة لم يقل : أو توكل عليهم أو سألهم، بل جمع بين الدعاء والتوكل والسؤال، والآن أنتم تكفرون بالسؤال وحده»[١]! ولا يحتاج هذا الإلتواء بالعربية إلى إيضاح، فنحن نقول: من الذي خولكم في جعل واو العطف للتفرقة، وهي تأتي لعطف الخاص على العام، فإن من دعا غير الله، كان سائله بالضرورة، فالدعاء دعاء مسألة ودعاء عبادة، وكان متوكلا عليه بالضرورة، وإلا فلما دعاه أصلاً؟! فهذا وحده يُظهر تمحك هؤلاء بما هو من باب اللعب والتحريف والالتواء بالآيات. كما أنك تلاحظ أنهم لم يأتوا في ردودهم بحديث واحدٍ أبدا يشهد لما يقولون كما في الحديث الصحيح الصريح عن النعمان بن بشير «الدعاء هو العبادة». ولبيان تلك الأمور موضعاً فيما يأتي إن شاء الله.

وقد نقل ابن غنام بعض من الشناعات التي كانت تعم الجزيرة، قال «وهؤلاء يدعون الميت أو الغائب، فيقول أحدهم «بك أستجير، أغثنا، أجرنا» ويقول «أنت تعلم ذنوبي» زمنهم من يقول للميت «اغفر لي وارحمني وتب عليّ» ومن لم يقل هذا من عقلائهم فإنه يقول:»أشكو اليك ذنوبي، وأشكو إليك عدوي، وأشكو إليك جور الولاة والحكام وظهور البدع أوجدْب الزمان..»[٢]. ولا يشك عاقل، ولم يأت عن ابن تيمية أو غيره أن مثل هذا الذي يقوله عوامهم شرك أكبر ناقلٌ عن الملة، بل هو عين ما جاءت الرسالة المحمدية لتلغيه ولتقيم ألوهية الله وحده بدلاً منه!

لكن مناط الخلاف هو: هل هذا الفعل، مع نطق الشهادتين، يحفظ على المرء إسلامه، إن جهل أن ما يفعل شركاً أكبر؟ تلك هي القضية، وإلا فإن من يعتبر هذا إسلاماً فيجب أن يُستتاب فإن تاب وإلا قُتل. وسنبين بعدُ حالات ثلاثة معتبرة في هذا المناط إن شاء الله تعالى.

---

[١] «فصل الخطاب»، سليمان بن عبد الوهاب، ص٣٦، الطبعة الرابعة، وما حدث من أخِ الشيخ إنما هو من حسد الأشقاء، رأيناه في إخوة يوسف من قبل.

[٢] تاريخ نجد ص ٦٩

٩. فإذا نظرنا إلى ما كان عليه أهل الجزيرة في ذاك الوقت، وانتشار تلك البدع والخرافات والقبوريات، على أوسع نطاق، وقيام علماء القبورية بنشرها وتوسيع دائرتها، وتغليبها على ما هو من أصل دين الله وتوحيده، وما ثبت في كتابه وسنة رسوله ﷺ فإنه يعلم انزعاج الإمام ابن عبد الوهاب، وقيامه بالدعوة إليى التوحيد الخالص. فإن ذلك كان موجودا في الجزيرة، ولا يزال موجوداً في غالب بقاع عالمنا الإسلامي من أفغانستان وباكستان إلى المغرب العربي، بشكل لا يقال فيه إلا حسبنا الله ونعم الوكيل. والأمر ليس أمر تكفير أو معصية، ولكنه أمر شرك منسق منمق ممنهج، تسير عليه غالبية الشعوب، ثم يتصدى «علماء» للقدح فيمن وقف في وجه هذا المدّ العنيف، ونجح في وقفه وطرده من أرضه مدة ثلاثة قرون، بل لم تنجح دعوة غير دعوته في تحقيق ذلك. فإين إنصافكم يا أهل الإنصاف؟! ألا ترون ماذا يفعل التصوف بشعوبكم إلى اليوم في المغرب وتونس ومصر واليمن والهند وليبيا وباكستان إلى يومنا هذا؟ أعميت عقولكم عن رؤية النتائج التي تحققت على يد ذلك الأمام المبجل؟ ليتكم تحققون عشر معشار ما حقق في بلادكم المفعمة بالصوفية والقبورية ومظاهر الشرك التي لا يختلف فيها مسلمان.

١٠. أما ما دعا اليه الشيخ الإمام رحمه الله، فهو واضح مسطور، لمن أراد، في كتابه التوحيد وغيره. كما بثه في رسائله التي جمّعها تلامذته وأولاده واحفاده، مثل «تاريخ نجد» لحسين ابن غنام» رفيق الشيخ، والدرر السنية لعبد الرحمن ابن قاسم النجديّ، وغيرهما من الكتب. والحق إنني لم أر أفضل من كتاب الدرر السنية عرضا لمعالم التوحيد، ثم لِما ذكرته علماء نجد الأفاضل في أبواب الفقه، خاصة باب الجهاد. ومن أراد الشغب فليأت لنا بالصفحة والحكم الذي رآه مخالفاً لسنة ﷺ، بالدليل فنسلم له.

تقوم دعوة الشيخ على مبدأ واحد، وهو صرف العبادة لله لا شريك له، من حيث

١. أن العبادة هي الطاعة «أن اتقوا الله وأطيعون»

٢. وأن الدعاء هو العبادة «الدعاء هو العبادة»

٣. وأن الإسلام معنى يستقر في القلوب، لا لفظة تخرج من الحلوق

٤. أن من الشرك ما هو أكبر وما هو أصغر، وأن الخلط بينهما خلطٌ عظيم وتخريب في مفهوم الإسلام السنيّ.

٥. أن كلا من الخوارج والمرجئة جمعوهما في صنف واحد، فالخوارج جعلته كله شركاّ أكبر، والمرجئة جعلته كله شركا أصغر بمعنى المعصية.

٦. وأن من ظهر منه أفعال المسلمين فهو مسلم، فإن ظهر منه شرك كالتوجه للقبور والدعاء لله عندها والتبرك بها والتوسل بأصحابها، أوالدعاء لصاحب القبر بما لا يقدر عليه إلا الله. فإن هذا من مظاهر الشرك بلا شك، لكن على تفصيل[١]:

- إن توجه المسلم للقبر فدعا الله عنده تبركا بالمكان، فإن هذا ليس شركاً، بل قد لا يكون معصية، وإن كره أو منع سدّا للذريعة.

- إن توجه المسلم إلى القبر فتوجه لصاحبه بالتوسط له عند الله، لقضاء حاجته، مع علمه أن الله سبحانه هو من يدعو ومن يسأل، فإن هذا شركٌ نهى عنه رسول الله ﷺ وصورته الظاهرة كفر، ويجب على العلماء بيان الخطأ فيه وإبلاغه الحجة، فإن أبى ورضي بما هو فيه، كفر.

- أن جاء المسلم إلى الولي أو النبي الميت، فتوجه اليه، هو، بالدعاء دعاء المسألة، أن أعطنى وأرزقني واشفني، فهذا كفر أكبر يُخرج من الملّة، لكن يجب استتابته، وبيان الحجة له فإن تاب وإلا قُتل.

[١] راجع في هذا التفصيل «تاريخ نجد» ص ٤٥٥، موضوع البناء على القبور والصلاة والدعاء عندها .. انه ليس بشرط .. إلا الدعاء للولي أو الميت ذاته، كما قررنا.

٧. أن الشرك أصغر، منه

- ما يتعلق بمفهوم العبادة مباشرة، مثل الدعاء، والذبح
- ومنه ما يتعلق بها بطريق التبعية والتكملة، مثل النذر والحلف وإتيان العراف ولبس الحلقات والخرز، والقتال بين المؤمنين، وكفران المرأة للعشير.

٨. أنّ ما يتعلق من الشرك الأصغر كله، من الصنفين، يجب فيه إبلاغ الحجة الرسالية، أما قيامها فقد قامت على كل من في الأرض بسماعهم برسول الله ﷺ وبكتاب الله، وهو متحقق اليوم في أكثر من تسعة وتسعين، وتسعة عشر تسعات وراء العلامة العشرية بالمائة من أهل الأرض. إنما نتحدث في إبلاغها. ثم ينقسم بعد ذلك أمرها إلى قسمين:

- قسمٌ يكْفُر من يفعله ولا يُقبل فيه حجة ولا قولاً، مثل الدعاء لصاحب القبر في الحالة الثالثة (من بند ٦) أعلاه، ويستتاب.
- وقسمٌ يظل فاعله آثماً حتى ولو بقي عليه، فلم يقبل الحجة، مثل استمرار القتال بين طوائف المسلمين، أو كفران العشير، أو النذر أو ما ذكرنا أعلاه من أصناف الشرك الأصغر.

٩. أن تلك المفاهيم كلّها قد دلّت عليها الأحاديث النبوية، ولا يمكن استلالها من الآيات القرآنية فحسب، من حيث أن القرآن يأتي بالكليات، ويدع الجزئيات والتفصيل للسنة النبوية. وقد ذكر الشاطبي في تقرير من أجلّ ما جاء به عالم أصولي أو تفسير، قال «فكان القرآن آتيا بالغايات تنصيصا عليها من حيث كان الحال والوقت يقتضي ذلك ومنبها بها على ما هو دائر بين الطرفين حتى يكون العقل ينظر فيما بينهما بحسب ما دله دليل الشرع فيميز بين المراتب بحسب القرب والبعد من أحد الطرفين كي لا يسكن إلى حالة هي مظنة الخوف لقربها من

الطرف المذموم أو مظنة الرجاء لقربها من الطرف المحمود تربية حكيم خبير»[١].

ومن هنا تجد، كما لاحظنا من قبل، إعراض من يكتب في نقد الدعوة النجدية عن ذكر أية أحاديث، بل يعتمدون على الآيات القرآنية الغائية، ليتصرفوا في تصريفها كما يعنّ لهم، حسب الحالة.

١٠. أن صرف الحكم بالكلية إلى غير الله سبحانه بإعطائه حق التشريع المطلق، هو كفر أكبر مخرج من الملة، ولا يحتاج الأمر فيه إلى بيان حجة، إذ نحن نتكلم عن الحكام، وهم عِلية القوم، يعرفون ما جاء به القرآن، وما معنى الحلال والحرام، وما هو من قبيل التشريع المطلق الذي يدعونه حقاً للشعوب بديلاً لله سبحانه، فهؤلاء من العبث الحديث عن إبلاغ حجة لهم، إذ الجهل منتفيا عنهم بحكم الضرورة.

١١. أن الإعذار بالجهل ليس بمعتبرٍ في كلّ حالات عوارض الأهلية، بل يجب أن يخلو الزمان أو المكان ممن تقوم به الحجة والشهادة، وأن يكون من النوع الذي ذكرنا من النقطة الثالثة في بند رقم (٦).

١٢. إنّ ما تحدث فيه الإمام وأطلق فيه وصف الشرك، مع توقيف الحكم حتى البلاغ، ولم بعتبر فيه الجهل عارضاً مانعاً، فهو من قبيل من ذكرنا في القسم الأول من بند (٨) أعلاه.

ولا أظن أن هذا الذي قررنا من مجمل دعوة الشيخ الإمام، يعاند أو يماري فيه أحد، وهو منشورٌ في كتبه ورسائله وفتاواه. ولسنا بمرددين هنا كتاب التوحيد، أو كافة رسائله رحمه الله، فمن وجد غير ذلك فعليه الدليل. لكننا سوف نتعرض بالدليل لبعض ما أشيع عن دعوته من أقوال بعون الله تعالى.

---

[١] الموافقات للشاطبيّ، ج٣ ص١٤٠

هل كفّر الإمام محمد ابن عبد الوهاب عامة المسلمين، أو المسلمين عامة؟ هذا إدعاء عريض تعرّض له من قبل إئمة أعلام، نتيجة انتشار الجهل بأقوالهم، أو العداء الشخصي وعداء الأقران، أو التزلف للسلاطين، كما هي موضة هذه الأيام التعسات، أن من مواد التقرب إلى الحكام الهجوم على الدعوة النجدية.وقد كنت قد صَدّرت كتابي «حقيقة الإيمان» المطبوع عام ١٩٧٩ الموافق ١٣٩٩ هـ، بقول شيخ الإسلام «هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني ، فإنه وإن تعدى حدود الله فيّ بتكفير أو تفسيق ، أو افتراء أو عصبية جاهلية : فأنا لا أتعدى حدود الله فيه . بل أضبط ما أقوله وأفعله ، وأزنه بميزان العدل ، وأجعله مؤتماً بالكتاب الذي أنزله الله ، وجعله هدى للناس ، حاكماً فيما اختلفوا فيه»[١].

وقد ذكرت في كتابي «الجواب المفيد في حكم جاهل التوحيد» المطبوع عام ١٩٧٨ م الموافق ١٣٩٨ هـ ، إلى قاعدة هامة في تناول ما نُقل عن الأئمة الأعلام، جاء فيها:

«ونريد قبل إيراد الإيضاحات الكافية لهذه الأقوال وبيان وجهها الصحيح ، أن نوضح بعض الأمور ، فنقول : إن الاستدلال بقول فقيه أو إمام من بعض كتبه ، بينما نصوص أخرى لنفس الفقيه أو الإمام يفهم منها عكس المفهوم الأول لنفس أقواله في مواضع أخرى ، لهو افتئات على الإمام أو الفقيه نفسه .

فالفقيه حين يتكلم في موضوع ما ، ثم يعرض ـ بطريق العرض وليس بالقصد الأول ـ لقضية أخرى في معرض كلامه ، لا يصح أن يستشهد بقوله في موضع آخر ـ الذي تحدث فيه بطريق العرض ـ لنقض كلام نفس الفقيه في موضع آخر ، ناقش فيه هذه القضية بصورة أساسية ابتداءً . هذه واحدة .

والأخرى .. أنه إذا جاءت نصوص للفقيه أو الإمام توافق أصلاً مقررًا ، ثم جاءت لنفس الفقيه أو الإمام في مواضع أخرى نصوص تشتبه علينا ، أو تبدو بظاهرها مخالفة لنفس الأصل ، لوجب علينا حمل المتشابه من هذه الأقوال على الوجه الذي يوائم الأصل

[١] من رسالة لشيخ الإسلام ابن تيمية مجموع الفتاوى جـ٣صـ٥٤٢

، والذي شهدت له أقوال الإمام نفسه في مواضع أخرى ؛ وإلا كان ذلك اتهامًا منا لهذا الإمام بالتناقض والتضارب في أقواله . وليس ثمة ما يدعو إلى ذلك طالما اتسق المنهج ، واستقام للنظر »[١].

أما وقد ذكرنا ذلك، فسنأتي ببعض مواقع نبين فيها المحكم من أقوال الشيخ، ونحيل عليها المتشابه، ،كما هومعلوم في علم الأصول التفسير.

فمثلا تجده تارة يصف مرتكبي أفعال الشرك «الأصغر» كما بيناه، بأنهم أشباه للكفار «الضلال أشباه المشركين والنصارى»[٢] وذلك في معرض حديثه عن دعاء الموتى والاستغاثة بهم..

وتارة يقول «وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً! ... « في معرض من ألف كتابا أسماه «مناسك الحج للمشاهد» وهو شرك أكبر لا يختلف فيه مسلمان أصلاً.[٣]

لكنه يُحكم كلامه في هذا الأمر فيقول في المسألة الثالثة، في الإجابة عن سؤال صريح لا عوج فيه «سألني الشريف عما نقاتل عليه وعما نُكفّر به الرجل، فأجبته وبينت له أيضا الكذب الذ بهت به الأعداء» اهـ، ثم شرع يبيّن أنواع أعدائه في العقيدة، على أربعة أصناف، كلها تدور حول من ارتكب شركاً أكبر او أصغر مما بيناه في النقطة الثالثة من بند (٦)، ص ٨ من هذا البحث، وأوقفها كلها على ما قال بنصه «وأيضاً نكفره بعد التعريف إذا عرف وأنكر»[٤]، وهو ما بيّنا أن ليس فيه خلاف مع ابن تيمية ولا غيره من المسلمين!

[١] الجواب المفيد في حكم جاهل التوحيد، الطبعة الأولى مكتبة المدنّي، ١٣٩٨، ص ٣٩. وأدعو القارئ لمرادعة ذاك الكتاب مراجعة دقيقة من حيث بيانه لأنواع الجهل، وحشده لأدلة لا راد لها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأقول الأئمة من المتقدمين.

[٢] تاريخ نجد ص ٦٧

[٣] السابق ٧٢

[٤] تاريخ نجد ٤٠٥ المسألة الثالثة

ثم أنكر بعد ذلك، بكل وضوح وجاء وبيان ولغة فصحي بلسان العرب، لا يحتاج إلى تأويل ولا تفسير، موقفه من غير ذلك فقال رحمه الله «وأما الكذب والبهتان، فمثل قولهم: أنا نكفّر بالعموم، ونوجب الهجرة إلينا، على من قدر على إظهار دينه، وأنّا نكفّر من لم يكفر ومن لم يقاتل (لاحظ التفرقة بينهما إلى حالين، فهناك حالة مسلمين لا يكفرون ولكنهم بغاة)، ومثل هذا وأضعاف أضعافه. فكل هذا من الكذب والبهتان الذي يصدُّون به الناس عن دين الله ورسوله. وإذا كنا لا نكفّر من عبد الصنم الذي على قبر عبد القادر والصنم الي على قبر احمد البدوي، وأمثالهما، فكيف نكفّر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر الينا ولم يكفر (أي من الأصناف الأربعة) ويقاتل (بغياً)، بل نكفّر تلك الأنواع الأربعة لأجل محادتهم لله ورسوله»[١].

وهذا كلام محُكم واضح ليس فيه تشابه. والعبرة فيه بما عرّف من الأنواع الأربعة، وهل يجرأ أحد على عدم تكفيرها بعد إقامة الحجة، كما اشترط؟

وها هي الأنواع الأربعة:

وأيضاً نكفّره بعد التعريف إذا عرف وأنكر، فنقول: أعداؤنا على أنواع.

النوع الأول: من عرف أن التوحيد دين الله ورسوله الذي أظهرناه للناس، وأقرّ أيضاً أن هذه الاعتقادات في الحجر والشجر والبشر الذي هو دين غالب الناس ـــ هي الشرك بالله الذي بعث الله رسولَه ينهى عنه و يقاتل أهله ليكون الدين كله لله ـــ ومع ذلك لم يلتفت إلى التوحيد، ولا تعلّمه، ولا دخل فيه، ولا ترك الشرك. فهذا كافر نقاتله بكفره، لأنه عرف دين الرسول فلم يتّبعه، وعرف دين الشّرك فلم يتركه، مع أنه لا يبغض دين الرسول ولا من دخل فيه، ولا يمدح الشرك ولا يزيّنه للناس.

النوع الثاني: من عرف ذلك كله ولكنه تبين في سب دين الرسول مع ادّعائه[١] أنه عامل به، وتبين في مدح من عَبَد يوسف والأشقر[٢] ومن عَبَد أبا علي

[١] السابق ٤٠٦-٤٠٧ وما بين القوسين من تعليق الكاتب.

والخضر من أهل الكويت، وفضّلهم على من وحّد الله وترك الشرك. فهذا أعظم من الأول، وفيه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جاءهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ على الكافرين ﴾ وهو ممن قال الله فيه ﴿ وإنْ نَكَثُوا أيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا في دِيْنِكُمْ فَقاتِلُوا أئمَّةَ الكُفْرِ إنهم لا أيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُون ﴾ .

النوع الثالث: من عرف التوحيد وأحبه واتبعه. وعرف الشرك وتركه، ولكن يكره من دخل في التوحيد ويحبّ من بقي على الشرك. فهذا أيضاً كافر، وهو ممن ورد فيه قوله تعالى: ﴿ذلكَ بِأنَّهُمْ كَرِهُوا ما أنْزَلَ اللهُ فَأحْبَطَ أعْمالَهُمْ ﴾

النوع الرابع: من سلم من هذا كله ولكن أهل بلده مصرّحون بعداوة التوحيد واتباع [أهل][1] الشرك وساعون في قتالهم ويتعذر أنَّ تَرْكَهُ وطَنه يشقُّ عليه[2]، فيقاتل أهل التوحيد مع أهل بلده ويجاهد بماله ونفسه. فهذا أيضاً كافر: فإنهم لو يأمرونه بترك صوم رمضان ولا يمكنه الصيام إلا بفراقهم ــ فعل، ولو يأمرونه بتزوُّج امرأة أبيه ولا يمكنه ذلك إلا بمخالفتهم ــ فعل. وموافقتهم على الجهاد معهم بنفسه وماله ــ مع أنهم يريدون بذلك قطع دين الله ورسوله ــ أكبر من ذلك بكثير [كثير][3]. فهذا أيضاً كافر، وهو ممن قال الله فيهم ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ إلى قوله: ﴿سلطاناً مبيناً﴾. فهذا الذي نقول.

ثم نعيد البيان والتذكير إلى أن هذا يقع على تلك الحالات المذكورة فيما بيّنا في بند (٦) أعلاه، وفيما شرح الإمام هنا، وبعد التعريف والمعرفة والإنكار.

ثم إن الناظر في الدرر السنية، يجده كتاب فقه صرف، يتميّز بشرحه للتوحيد الذي هو رساله الرسل أجمعين، ثم ينخرط في الأبواب الفقهية على الطريقة الفقهية المتبعة. فإن وصلت إلى كتاب الجهاد والردة، لم تر عجبا، ولا خروجاً عن معتاد. وبين يديك الجزء الثامن من الدرر[١]، يتحدث عن موالاة أعداء الله من ملل الكفر وما في ذلك من ردة صريحة

---

[١] الدرر السنية مجلد ٨ ص ١٢ وبعدها

والمقصود بهذا : ما قد شاع وذاع ، من إعراض المنتسبين إلى الإسلام ــ وأنهم من أمة الإجابة ــ عن دينهم وما خلقوا له ــ وقامت عليه الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية ــ من لزوم الإسلام ومعرفته ، والبراءة من ضده ،

١٢

والقيام بحقوقه ، حتى آل الأمر بأكثر الخلق ، إلى عدم النفرة من أهل ملل الكفر ، وعدم جهادهم ، وانتقل الحال حتى دخلوا في طاعتهم ، واطمأنوا إليهم ، وطلبوا صلاح دنياهم بذهاب دينهم ، وتركوا أوامر القرآن ونواهيه ، وهم يدرسونه آناء الليل والنهار .

١٢. هل قامت دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب أصلاً على القتال؟ فلنقرأ نصين للإمام يبينا حقيقة دعوته فيما يخص هذه النقطة.

جاء في كتاب ابن غنّام قول الشيخ رحمه الله، في كلام واضح محكم «وأنا أدعو من خالفني إلى أحد أربع: إمّا إلى كتاب الله، وإما إلى سنة رسول الله ﷺ وإما إلى إجماع أهل العلم، فإن عاند، دعوتُه إلى المباهلة»[١].

كما بيّن سعد بن حمد بن عتيق رحمه الله في رسالته إلى سلطان بن بجاد[٢]، إنه ناصح للأمراء والعلماء، في أمور الجهاد والدين.

[١] ابن غنام ص ٢٢٤

[٢] الدرر السنية ج ٨ ص ١٣

ثم انظر إلى تروّيه في الحكم، وتوجيهه للخلق بهذا، قال: «وعلى كلّ حال نبّهوهم على مسألتين:

الأول: عدم العجلة، ولا يتكلمون إلا مع التحقق فإن التزوير كثير».

الثانية: أن النبي ﷺ كان يعرف المنافقين بأعيانهم ويقبل علانيتهم، ونَكِلُ سرائرهم إلى الله، فإذا ظهر منهم وتحقق ما يوجب جهادهم، جاهدهم»[١].

ثم انظر يا رعاك الله - قوله في آخر المسالة الثانية عشر، في كلامٍ مُحكم بيّن «وأما القتال فلم نقاتل أحداً إلى اليوم إلا دون النفس والحرمة، وهم الذين أتوا في ديارنا، ولا أبقوا ممكناً، ولكن قد نقاتل بعضهم على سبيل المقابلة «وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها»، وكذلك من جاهر بسبّ دين الرسول ﷺ بعدما عرفه»[٢].

١٣. هل يمكن أن توصف الدعوة النجدية بالحرورية، وأن يكون أئمتها من الخوارج؟
وهذا قولٌ ورد عن كثيرٍ من الخائضين في نقد هذه الدعوة، ينبئ عن أن قائله إما فارغ العقل من العلم، أو أجهل الناس بأحوال الفرق وصفاتها. فإنه من المعلوم أنّ مبدأ الحرورية الخوارج يقوم على «تكفير المسلمين بما ليس بمكفرٍ، واستحلال دمهم على ذلك»، فهم مثلاً يكفّرون من لم يتابعهم بعدما استمع اليهم، وقد وقع هذا معي شخصياً بعد جلسة حصلت في القاهرة عام ١٩٧٧، مع اثنين من أكابر جماعة مصطفى شكرى، فقالا لي بعد مغادرة المكان «أقمنا عليك الحجة ولم تقبل فكفرت، ولو رأيناك مرة أخرى لقتلناك» يشهد الله على ذلك. كذلك يكفّرون من وقع في معصية كالسرقة أو الزنا، ويكفّرون من جالس كافراً للتفاوض أو التفاهم على عهد أو هدنة، كما كفّرت داعش كافة فصائل الشام وكلّ قياداتها، الذين قبلوا

[١] تاريخ نجد ص ٣٣٢

[٢] تاريخ نجد ص ٣٢٣، والحظ أنه خالف ابن تيمية في هذا، فإن ابن تيمية مفّر الساب دجون حاجة إلى البيان والتعريف، من حيث أنّ السبّ أصلاً وضع للإهانة، راجع الصارم المسلول.

دعماً أو من لم يقبلوا دعما، مع زعمهم أنهم يحاربونهم لأنهم يوالون الكافرين، بينما هم من يتعاون مع النظام والغرب لقتل المجاهدين من حيث قالوا إن قتال المرتدين أولى من قتال الكفار الأصليين. ثم قتلوا الكثير من العائلات المسلمة العادية الضعيفة في الجزائر بهذا الزعم الخَرِف، أن المسلمين في كافة أنحاء الأرض مرتدون! وقصة الجزائر ومأساتها ومجازرها معروفة. فهل هذا حال أصحاب الدعوة النجدية؟

الدعوة النجدية لم تّكفّر، كما رأينا، إلا من يقع منه، بالفعل، أفعال مكفرة حقاً، متفق عليها بين العلماء أنها كفر أكبر، وإن حاجّ البعض في أثر عارض الجهل عليها، في بعض الحالات، ولم تقاتل كما بيّنا في الفقرة السابقة حال قتالهم للغير. ولم يطلبوا الهجرة ممن لم يستجب لدعوتهم، كما بيّنا من قبل،بينما كالبت الخوارج العوادية وغيرها الهجرة على كافة مسلم ومسلمة، بل كم من بيوت خرّبوها بعد أن تركت سيدات ناقصات عقل ودين بيوتهم للحاق بهم «في الجهاد». ومن هنا فإن دعوى أنهم خوارج لا تستقيم مع الحقائق على الأرض إلا من باب قياس الشبه كما فعلت إخوة يوسف «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل»يوسف ٧٧!

١٤. طبيعة المرحلة، واختلافها عن زمننا وزمن شيخ الإسلام ابن تيمية: وهي نقطة في غاية الأهمية، تغيب عن أذهان الكثير من الباحثين، فتدعهم يوقعون توصيفاتهم وأحكامهم على حسب ما يعيشونه في أيامهم من معانٍ ومشاكل وحلول، وهي عملية نفسيسة دقيقة، توجب على الباحث أن يَفصل نفسه عن واقعه، وأن يتخطى الزمن إلى الوراء، ليحيا بين من يكتب عن حياتهم، وإلا خرج في كتاباته بعوار شديد وإجحاف مخُلّ.

ذلك أنّ عصر ابن تيمية، على سبيل المثال، كان التتار هم الهمّ الأكبر والأول لخليفة المسلمين وجيشه، وكان الأشعرية[١] عامة، وفيهم الكثير من التصوف، هم أصحاب السيادة،

[١] ونحن ممن لا يرى كفر الأشاعرة ولا المعتزلة ولا فرق المتدعة، إلا من سقط منهم عيناً في قولٍ مكفّر بيقين.

ولم يكن هناك أمراء منقسمون يلجأ اليهم أحد ليعينوه على إزالة مظاهر الشرك، والتي كانت على المستوى العلمي في غاية العنف، كالحلول والاتحاد، ووحدة الوجود، ووجود أمثال الحلاج وابن الفارض وابن عربي والتلمساني وأضرابهم، كما اهتم ابن تيمية بالرد على كافة أعداء الإسلام، من أهل البدع والكفريات، وانشغل بنفسه في حرب التتار.

كذلك اختلاف أحوال كلّ بيئة ظهرت فيها حركات إصلاحية مما ذكرنا من قبل. وهذا بُعدٌ لا يجب أن يفوت الباحث في غمار بحثه عن الحق.

١٥. مسألة انقسام الدين إلى أصول وفروع: وهي مسألة يتجلى فيها عدم تحديد معنى المصطلحات، والحرب على طريقة الظواحين الهوائية. وأود هنا أن أنقل ما متبت سابقا في هذا النقطة بالذات، قلت

«فإن نعمة الفهم عن الله ورسوله ﷺ، وما تركه علماء السلف من آثار ونظر، هي عين الفقه، وهي ما يميز ناظراً في كتب الأولين بوعي وتمحيص، عن ناظر بغُشم وتقليد.

ومن أمثلة ذلك التفاوت في الفهوم، ما خرج به بعض من أصابته جراثيم الإرجاء، فاتخذ من قول بعض السلف أنه لا فرق بين أصولٍ وفروع في دين الإسلام، وجعل من قسّم هذا التقسيم مبتدع، بل كافرٌ لا يُصلى وراءه في بعض الأحيان، لما قد يقولبه البعض في مسألة الإعذار بالجهل، على أي نحو كان. وسبحان من خلط هراء الإرجاء بغلو الخروج عند هؤلاء.

والحق أنّ المسألة برمتها، أعنى مسألة تقسيم الدين إلى أصول وفروع، لها وجهان من النظر،

أولهما هو ما ناقشته علماء السلف، وما أنكرته كثير منهم، وهو أنه لا دليل من كتاب ولا سنة على أنّ الشرع ليس فيه ما يميز الأصول من الفروع، ولا يضع حدا واضحاً لهما، يجعلهما من البينات الواضحات، لا المختلفات المتشابهات. ومن هؤلاء العلماء شيخ

الإسلام في بعض نصوصه، منها «أما التفريق بين نوع وتسميته مسائل الأصول، وبين نوع آخر وتسميته مسائل الفروع، فهذا الفرق ليس له أصل لا عن الصحابة ولا عن التابعين لهم بإحسان ولا أئمة الإسلام، وإنما هو مأخوذ عن المعتزلة وأمثالهم من أهل البدع، وعنهم تلقاه من ذكره من الفقهاء في كتبهم، وهو تفريق متناقض. فإنه يقال لمن فرق بين النوعين: ما حد مسائل الأصول التي يكفر المخطئ فيها؟، وما الفاصل بينها وبين مسائل الفروع «.[١].

وهذا الذي ذكره ابن تيمية حقّ ريب فيه[٢]، من وجهة النظر التي تدرك خطر هذا التقسيم الذي جاءت به توجهات اعتزالية كلامية عقلية، لتثبت به أموراً معينة في الأسماء والصفات، وتمييزها من مسائل الفقه، بينما كلاهما مصدرهما الكتاب والسنة، وهما على نفس التوزاى من الأهمية.

والثاني: مع إننا نحسب أنه حتى في هذا الأمر، فإنه من الممكن أن نرى في الشريعة أصولاً وفروعاً تحديداً، وهواصطلاح فقهيّ أصولي تحدث به العلماء من عهد نشأة الفقه وأصوله، إن أمكن الاتفاق على معناهما تحديداً، وهو ما ناقشه بعض المعاصرين في كتبهم، إلا إنني لا أريد أن أشغب بهذه المسألة على الأمر الذي أود لفت النظر اليه ابتداءً، وهو أن هناك فرق بين ما قصد ابن تيمية بمصطلح «الأصول والفروع» وبين ما نقصد اليه فيما نشير اليه هنا وهو أن «الدين أصل وفروع»، أصل مفرد، لا أصول. وهذا الأصل هو ما اتفقت عليه أنبياء الله كافة، وهو ما جاءت به الكتب على اختلافها، وهو عبادة الله سبحانه، أو توحيد الله سبحانه (لا بمعناه عند المعتزلة أو المتكلمين)، أو عدم الشرك بالله سبحانه. هو ما ما صح فيه حديث مسلم «والأنبياء إخوة لعلات». وهذا الأصل هو الذي يفترق عن قول الله تعالى «لكلِّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً» أي طريقاً وسنة. ففي فروع

[١] مجموع الفتاوى ٢٣-٣٤٦

[٢] ويلاحظ أن ابن تيمية قد استعمل الأصول والفروع في الدين كتعبير في عدة أماكن أخرى في مجموع فتاواه.

الشرائع اختلاف بين الأنبياء، بمعنى أن شكل الصلاة والصيام والفرائض تختلف بين رسالة ورساله، وبين أمة وأمة.

هذا القدر لا يمكن أن يخالف فيه مسلم، إلا وخلع الربقة. إذ محصلة الخلاف أنّ لا وحدة بين الأنبياء في التوحيد. كما أنه يقود إلى فهم أنّ صفات الله تختلف من نبي وآخر! وكفى بهذا موبقاً. وهذا القدر المشترك بين الأنبياء هو ما قيل فيه «أصل الدين» ولا مشاحة في الاصطلاح. سمه ما شئت، لكنه يختلف عن فروع الشريعة بأكملها من حيث هي كلّ التكاليف الشرعية التي جاء بها الكتاب والسنة. ولا نفرّق فيها بين قطعيات وظنيات، أو بين عملياتٍ وخبريات، كما يفعل أهل التقسيم المذكور. فالاستشهاد على من قال بهذا الأصل، بمثل تلك النصوص، جهلٌ مطبق، وعدم فهم للمسألة برمتها.

ثم إن هذا الأصل التي تواضع عليه الأنبياء، التوحيد، عبادة الله إن شئت، له تفصيل، يُستقرأ من آيات الذكر الحكيم، ويمكن أن يرجع إلى أمرين، الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته كما ورت في النصوص الثابتة دون تأويل أو تعطيل، مع مراعاة المسائل الدقيقة والخفية التي لا تتحصل في فهم العامة. ثم طاعة الله المطلقة بالرجوع إلى ما أنزل الله سبحانه في تشريعه المطلق، دون معاندة أو تبعيض.

كيف يكون هذا غير مقصود لشيخ الإسلام؟ كيف يكون هذا غير ما يدعو اليه كلّ عالم في الشرع، على مدى تاريخ المسلمين؟ أيصعب على الفهم استعمال كلمة «أصل» بحيث يخلطها المختلط عليه بمصطلح الأصول الذي عليه الشغب والردود؟ ولم نقبل إذن من ابن تيمية مصطلح «الإيمان المجمل» و»الإيمان الواجب»، وهي محُدثة لم تكن من قبل؟ فلا مشاحة في المصطلحات.

والأمر أنّ من قال بهذا التقسيم العقليّ أصلاً، بني عليه مسائل التكفير والتبديع والتفسيق، ومن ثم، رده عليه علماء السنة كشيخ الإسلام وابن القيم. ونحن نوافق على هذا كلّ الموافقة. لكن ما لا نوافق عليه، هو أن ما اعتبرناه من التوحيد، وأطلقنا

عليه كلمة «أصل الدين» هو غير هذا المعنى، وهو ما يمكن أن يُطلق فيه القول بالتكفير والتبديع.

وقد ناقش العلماء أثر الجهل على التوحيد وأخذوا مواقف معروفة في هذا الشأن، وهو ما نحن بصدده حين نناقش عارض الجهل، وهذا ليس بدعاً من القول، بل هو من لب أصول الفقه، وإن لم يُفرد له علماء الأصول من السلف باباً مفرداً، من يث لم يكن الجهل بالتوحيد وإسقاط بعض مستلزماته القلبية والعملية شائعاً في تلك الأزمنة.

فمن شغب على هذا المعنى فهو قاصر في الفهم فيما قصد ابن تيمية وفيما قصدنا اليه على السواء. وقد سبق أن كتبت مقال «الجواب الصارم على كتاب حلمي هاشم»[١] الذي وسمه بأصحاب السبت وأصحاب الحدّ، وبينت عوار مذهبه في الفهم عن الله والعلماء، فليراجعه من أراد التوسع في هذه الموضوع».

١٦.خاتمة:

أما بعد، فإن الحق أحق أن يُتبع، ومن العيب والظلم، أن نرمي عالماً إماماً جليلاً، أثّرَت وأثْرت حركته في مجال إزهاق البدعة في أرض الجزيرة خاصة مدة قرون ثلاثة، وندقق في أمور جزئية متشابهة، وننسى الكليات العامة التي ذكرنا. فمثال ذلك تسمية خروج جندٍ لقتال باغٍ أو صائلٍ، أو من عُرض عليه العمل بتلك البدع العظيمة، ومنها ما هو كفرٌ كما بيّنها، فأبى، بغزوات. وهو أمرٌ استهجنته طبيعة الكثير من المحدثين، لأنّ ذلك واقعٌ في بلاد مسلمة ابتداء، والمفترض (وهو غير مقتضٍ للواقع) أن كلّ من فيها يدينون بدين الإسلام. وكأن هؤلاء المحدثين، لا يعيشون اليوم نفس المأساة. فانظر مصر، لوخرجت جماعة لقتال السيسي، لخرجت طوائف من «المسلمين» يوالونه ويحبونه وينصرونه، رغم معرفتهم بصنائعه كلها، وظلمه ومحاربته للإسلام وولائه للصهاينة، وتسليم مصر لهم. كيف يتوقع أحدّ اليوم ألا يصب الناظر الحاضر جام غضبه على أمثال

[١] http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-14054

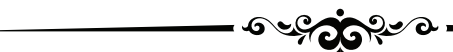
هؤلاء، وأن يصفهم بالكفر لموالاتهم للكفار ولجيش الكفر والاحتلال، وتأييدهم لقتل المسلمين وسحق عائلاتهم وخنق غزة وغير ذلك من الطوام؟! حتى إن اختلفنا بعدها في حكم المعين منهم وإلزامهم بما التزموا.

وموضوع الدعوة النجدية، واسع الأنحاء عميق القرار، لكننا كنا ملزمين بأن ندلي بدلونا وأن نبيّن منه بعض ما قد يخفى على البعض، انتصاراً للحق، مع الإقرار بأن البشر كلهم خطاؤون، وأنه لا زالت شبهات قد تدور حول هذا الموضوع، من قبيل «لكن قال هذا .. وردّ ذاك .. » وهو أمر لن ينتهى إلى يوم القيامة. والحمد لله ربّ العالمين

أسأل الله السداد والتوفيق

د طارق عبد الحليم

٢١ فبراير ٢٠١٨ – ٦ جمادي الآخرة ١٤٣٩



كلمة أخيرة فاصلة في موضوع نظرية المؤامرة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

من أشق الأمور على نفسي، هو تناول موضوع ما أكثر من مرة، شرحاً أو بياناً، أو استدلالاً، إذ من طبيعتي كراهة التكرار، بكل صوره!

لكن الأمر هنا يتعلق بطبيعة الناس عامة، وهي الاختلاف، الذي هو سمة من سمات البشر لا تراوحه أبداً « وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ» يوسف ١١٩.

ولهذا الاختلاف بين الناس سببان أساسين، أولهما شخصيّ والآخر موضوعي.

فأما الموضوعيّ، فهو أن لكل وجه من أوجه المسألة التي يختلف عليها الناس شواهد ودلائل وقرائن، لا أقول أدلة وبراهين يقينية، إذ لو كانت ترقى لهذا ما اختلف الناس فيها، قال تعالى « قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا» الإسراء ٩٥. فمدار الاختبار هو في إظهار الشواهد والأدلة والقرائن، التي يضعها المرء في شبكة متكاملة تصل إلى يقين جازم، حقاً أو باطلاً كان، والسعيد من وفقه الله تعالى.

وأمّا الشخصيّ، فهو قدرة المرء على الاستدلال والاستنباط مما بين يديه من معلومات، صحيحة أو زائفة، وهي تتفاوت بتفاوت قدرته العقلية، ثم تركيبته النفسية التي ينفرد بها بين الخلق، لا يشركه فيها أحد، من نفسية شكاكة، أو مدققة، أو متزنة، أو قابلة موافِقة، أو مخُالِفَة مُبَايِنَة.

وهذا الذي نقول قد ظهر مؤخراً في جدلٍ اعتبره عقيماً، لأسباب سأذكرها

لاحقاً، عن «نظرية المؤامرة»، بين:

١. جازم بوجودها: فهو يرى أن ّكل حدث أوفعل له أثر في حياة الناس، خاصة المجتمع الإسلاميّ، هو من تدبيرٍ وأعداد وترتيب وتخطيط مُسبق، مُتّفقٌ عليه، يمكن أن يقال فيه إنه «في كتاب مسطور لديهم من قبل أن يقع»، لكنه كتاب من وضع العدو من البشر.

ومن الطبيعي أن تجد من بين هؤلاء أصحاب ثقافة، وأطباء ومهندسين ومستشارين في كافة المجالات. فإن الصفات الشخصية التي أوردنا ذكرها، موجودة في كلّ طبقة من الخلق، فقراً وغنى، علماً وجهلاً، صغراً وكبراً. ومن بين هؤلاء من يقدّم لتلك الفئة القرائن والشواهد «الموضوعية»، التي ألمحنا إليها.

فهذه الفئة لا تتحدث من فراغٍ كاملٍ أو دون أساس ما، بل لديها شواهد وأدلة، يضعها بين يديها العالم الفلاني، أو الصحفي العلاني، أو الشخصية الدولية، أو الأستاذ الجامعي أو غيرهم، من هنا وهناك، ومن كلّ أمة من الأمم، يستوى فيها الشرقيّ والغربي. فإن تلك الصفات التي ذكرنا هي صفات بشرٍ بعمومه، لا بخصوص جنس منه.

وبالنسبة لهؤلاء، إن اعتبرنا الصفات «الشخصية» فإن معناها ونتيجتها واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار، مدعومة بأقوال أصحاب وزن ما! فلا سبيل إلى إنكارها، خاصة و»الهوى» هنا يعتمل مع العامل الشخصيّ، فيجعل رؤية غير تلك النتيجة مستحيلاً، قولاً واحداً.

٢. منكرٌ لوجودها بالكلية: وهؤلاء، وبين أيديهم نفس الشواهد والقرائن والدلائل، وتتراوح شخصياتهم بين تلك الطبائع التي ذكرنا، تجدهم يفندون هذه الشواهد والقرائن كلها، واحدة واحدة، لا يرونها في كليتها، فيرجعون إلى إنكار مصداقيتها في ذاتها مفردة، أو إلى إغراض صاحبها أو الآخذ بها، سواءً كان مُغْرضاً أو مُضَلَلاً.

فهم يرون أن أمور الناس، والمجتمعات، والدنيا، تسير على منوال سنة مُعينة، موكولة إلى الصدفة عند الملحدين، أو القوانين الطبيعية عند الطبيعيين، أو على كتاب مسطور عند الله سبحانه، عند المسلمين، وكثير من أهل الكتاب، ولا شأن للناس به.

وكلا الفريقين مشوش الفكر، مضطرب الفهم، مختلط المنهج، مع الأسف، مثقفاً أو صاحب منصب علمي أكاديمي أو غير ذلك.

أولاً: فإن الجازم بوجود هذه المؤامرة، ليس لديه في الحقيقة إلا «شواهد عليها»، فإنه لم يجلس على طاولة يتآمر الجالسون عليها بالفعل!، إنما هي متواليات عقلية منطقية (بالنسبة له) تصل إلى تلك الشبكة من التدابير المسطورة مسبقاً في مخططاتهم (كتابهم المسطور)، الذي لا يخرج عنه حدثٌ له شأن في حياة الناس. ومن المعلوم، أنه يمكن للمرء أن يُركّب شبكة منطقية من معلومات بين يديه ليصل إلى عشرات النتائج المختلفة، بتغيير ترتيبها أو التدقيق في مصدر أحدها. ولنا في هذا اللون من النقد ما قام به أصحاب علم الرجال من رفض أحاديث أو تضعيفها لأمور يظهر للعاميّ بساطتها، مثل الأكل أثناء السير، الذي اعتبروه من قلة المروءة! فضوابط قبول الأخبار أدق كثيراً جداً مما يُدرك أولئك الجازمون.

ولو دققنا في حقيقة ما يقول هؤلاء لوجدنا أنهم، بقصدٍ أو بغير قصد، فيهم قدرٌ من شرك الربوبية. ذلك أن شرك الألوهية هو أن يجعل البشر كتباً للقانون يتّبعونها، بدلاً مما أنزل الله من تشريعات. لكن افتراض أن هناك كتبا (فلنسميها مخططات) يسير عليه المجتمع البشري، بفعل حفنة من البشر، لا يخرجون عنها، و»أدلتها وبراهينها» جاهزة عندهم، هو بلا شك، لون من ألوان شرك الربوبية. وقد يقول قائل: ولكننا نزعم أن تلك المؤامرات والتخطيطات هي بعد أن يأذن بها الله!؟ قلنا: قف يا أنت، فإن تسيير المجتمع عامة وإدارة دفة الأحداث، سواء الأمراض أو الأوبئة أو الأزمات الاقتصادية أو الأمراض الاجتماعية،

حين تكون كلها مخططة مسبقاً في كتب مسطورة، هي من قبيل ما تصف الصوفية أولياءها وأركانها من نيابة عن الله في تسيير كونه! والله سبحانه، لا يدع لبشر، ولا للأنبياء مثل هذه السطوة العظيمة المهيمنة القاهرة، التي لا فكاك منها.

والأمر أنّ هؤلاء لا حلّ لديهم في مقابل ما يجزمون بوجوده وسيطرته وقهره إلى هذه الدرجة، بل هم أولاً وأخيراً مستسلمون ضعفاء لا حيلة لهم ولا سبيلاً، إلا ما يدّعونه من «توعية الناس»! وأي فائدة في توعية مَنْ إنْ قام بردَّة فعل أو ثورة، أولتموها بعدها بأنها «مؤامرة جديدة». دائرة مفرغة عبيثة لا معنى لها. ومن هنا ذكرت من قبل معنى الجدل العقيم.

ثانياً: أما المنكر لوجود المؤامرة بالكلية، فهو يعيش في عالم مثاليّ بسيط مريح، يترك نفسه كريشة في مهب الريح! فهو راض، موافق، متقبل لكل ما يجري حوله، أنه قدر الله، ولا فكاك منه، وأن ليس للبشر دخلٌ في اصطناعه أو توجيهه!

وهذه سذاجة وسطحية، مهما كانت درجة الآخذ بها، علمياً أو ثقافياً أو اجتماعياً.

فهؤلاء هم عبيد السادة من طبقة الملأ، وإن رأيت بعضهم ساخطٌ في بعض الأحيان، فهو سخطٌ عبثيّ، لا يرى نمطاً من وراء الأحداث، على الإطلاق، بل هي دائماً، كما هي، بلا كيف ولا سبب!

فأين الحق إذن، في هذا المجتمع الدوليّ الشديد التعقيد، الموغل في الشرّ، الجانح للإفساد ما استطاع، وهي حقيقة اجتمع عليها الفريقين كلاهما؟

التوفيق ... نعم، منهج التوفيق، والنظر في المسائل نظرة كلية، لنرى إن كان هناك رابط يربط شواهدها وقرائنها، ثم نظرة جزئية، تنظر في كلّ حدث وحده بمفرده، فقد يقع تحت كلية نظرية المؤامرة، أو قد لا يقع تحتها.

ونظرية المؤامرة، لا شك في وجودها، بحجمٍ ما، يتناسب مع قدرة البشر على تسيير

أحوال الدنيا، والسيطرة على مقدرات ومصائر وتصرفات الناس، في حدود أن القائمين بها بشر لا يزالون، دون افتراض قدر من الربوبية في أفعالهم. لكن هذا القدر، محدود، يمكن كشفه، ومعرفة أبعاده.

والغالب أنّ المؤامرة، تنقسم إلى قسمين، قسم ينشؤه العدو إنشاء، مثل تكوين الجيوش العربية على عقيدة صراع شعوبها وخيانتهم، الانقلابات العسكرية في بعض الدول، كما رأينا في بعض دول أمريكا اللاتينية، أو اختيار شخصية ما مثل عبد الناصر المجرم ليكون رمزاً مناهضاً للشيوعية، ومعيناً للنفوذ الغربيّ في الباطن، مع عدائه لهما في الظاهر، تحت شعار القومية العربية.

والقسم الآخر، هو ما يكون من مؤامرة بعد أن تقع السنة الإلهية، سواء بوباء أو ثورة أو سيطرة كفار على الحكم. فإن المؤامرة ساعتها تأخذ بتلابيب الحدث، فلا تفلته، وترعاه فلا تجعه يصل لهدفه الأساسيّ، بل ليصل إلى هدفٍ لها. وقد رأينا في التاريخ مئاتٍ من هذه الملابسات، وليس قتل الملك فيصل على يد من رعته ال CIA من أسرته، منا ببعيد (ولست في مقام تقريظ لأحد) ولا يظن عاقلٌ أن منع البترول عن الغرب عام ١٩٧٣ كان تدبيراً غربياًا! أو أحداث سبتمبر، التي هي من تدبير من ادعوها بالكامل، لكن كان العدو على علم بها بعد بداية خطواتها، فلم يعرقلها، بل أعان في تحقيق التدمير بشكل أكبر مما خُطِّط له، ليصل العدو إلى هدفه. لكنها من تخطيط وتنفيذ الجماعة التي ادعتها بلا شك، وليست مؤامرة بهذا المفهوم.

أقول، الانتباه لتصرفات العدو، وتحليل تحركاته وسكناته، ومعرفة مخططاته، أمر هام وحيويّ أساسي بالنسبة للمسلمين الذين يفكرون في مستقبل هذه الدين.لكن استغراق الجهد، وصرف الوقت كاملاً في تتبع الدلائل والعلامات وغرائب التفصيلات، لن يعين أحداً على شئ أبداً، فالأمور، حسب نظرية هؤلاء، خارجة عن أيدينا على أية حال!

كما أن الذهول عن واقع مكر العدو «وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ

مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ» إبراهيم ٤٦، هو خيبة وضعف عقل وطريقٌ ممهد إلى الهزيمة واستمرار العبودية.

اختبار الشواهد المعروضة، والنظر في مصادرها، ومدى معقوليتها، والثقة في رواتها، ومدى انطباقها على كلية نظرية المؤامرة، ثم مدى صدقها كفردية مخصوصة، وعدم القفز إلى نتيجة أنْ «انظروا هذا من تدبير هؤلاء ... قلنا لكن ... هذا دليل آخر وبرهان جديد!!»، لا، هذا شاهد جديد، يصدق أو يكذب، فهو محل اختبار.

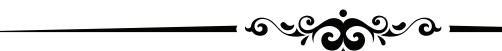
ولا شكّ أن تكاثر الشواهد والقرائن على كلية ما (وجود نظرية مؤامرة، دون الألف واللام) يدل على صحتها في الجملة، وهي قاعدة ثابتة في الأصول وفي العقول (ليس هناك دخان بغير نار!)، لكن الحذر الحذر من التمادي في تقدير حكم تلك النار، أو ثقل ذاك الدخان.

والله تعالى أعلم

د طارق عبد الحليم

٢٨ رمضان ١٤٤١

٢١ مايو ٢٠٢٠



الأعمال الكاملة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وبعد

مقدمة

فإن من فضل الله على عباده وعبيده أن منحهم العقل وأرسل إليهم البينة، وخلقهم على الفطرة السديدة، عدلاً منه وفضلا. وقد جعل الله العلم أسمى غايات البشر التي يتحصل بها على رضا الله سبحانه، وجعل العلماء مقدمين على كلّ من عداهم، وأولاهم بتقوى الله واتباع رسوله ﷺ. ولا يستهين أحدٌ بقيمة العلم والتدوين، كما رأينا على مرّ عقود، من تسفيه طلاب العلم وأصحابه، إما لصالح الحركة العشوائية مثلما حدث في جماعة الإخوان، أو الزهو بحمل السلاح بساحة قتال، يظن صاحبه أنه يتفضل على الله والناس بعمله. ولا ننسى ما يحدث حين يكون سلاحا دون علم، متمثلا في حركة العوادية الحرورية، أهلكهم الله.

وقد منّ الله عليّ من فضله بأن وجهني صغيراً إلى الطلب والنظر، والبحث والتقصي، فترة تصل اليوم إلى أكثر من نصف قرن من الزمن. وقد عشت خلالها حياة مضطربة، متنقلاً في بلاد كثيرة، بعد أحداث مصرع السادات، واضطراري للخروج من مصر عام ١٩٨١ للأسباب الأمنية المعروفة. لكن هذا لم يؤثر كثيرا والحمد لله تعالى، فواليت العمل الأكاديمي في مجال التدوين والنشر، حتى يومنا هذا، وأنا مشرف على السبعين عاما من العمر.

وقد رأيت أن أضع ما أصدرت من كتب وأبحاث، على هذه القناة، مستغلاً التقدم التكنولوجي لصالح العمل الإسلاميّ. وهو جهد أراه صدقاً، متواضعٌ، من حيث أضعنا الكثير من الجهد والعمر في السعي لتأمين طلبات الحياة والرزق للأهل والأولاد، وآثرت عدم الإتكال على عائد كتاب أو ثمن مقال، ليكون قلمي حرّاً كما أردت له. وهو سبب عدم انتمائي لأي جماعة في الساحة، وإن تناغم فكري وتوجهي مع بعضها.

وقد وضعت تلك الكتب في ترتيبها صدورها الزمني، لا ترتيبها الموضوعي، حيث إنها تغطي مساحة كبيرة من الموضوعات الفقهية والأصولية في العلوم الشرعية. واستثنيت في ذلك ما يكون مسلسلاً من كتب مثل كتب الثورة المصرية، وكتب أحداث الشام ليكون

القارئ متتبعاً لها دون التحول بحثا عن بقية أجزائها.

وأوجه النظر خاصة إلى أحداث الثورتين، المصرية والشامية. فإن الثورة المصرية لم تحظ بكثير اهتمام من ناحية تدوين أحداثها وتتبع مسارها، بله تحليلها، منذ نوفمبر ٢٠١٠ وحتى استحكام قبضة السيسي على الحكم في نوفمبر ٢٠١٣. وما ذلك إلا لضعف المهتمين في مصر تدوينا، ولأن أبطالها كانوا منشغلين بسياسة جوفاء ثم سجنوا بلا استثناء. أما الثورة الشامية فقد كان نصيبها أوفر في تسجيل أحداثها، من حيث أن فصائلها كانت تصدر بيانات رسمية توثق، من وجهة نظرها، لحدث أو أحداث. ومن حيث أن البعض قد تناول بعض تلك الأحداث، متفرقة، كتابة أو تحليلا. لكن هذه الكتابات لم ترق إلى تأريخ كامل موثّق لما وقع، وما لا يزال يقع على مسرح الأحداث.

وقد مكنني الله سبحانه بحوله أن أقوم بدور متواضع في هذا الأمر، فقد تابعت الثورتين يوما بيوم، بل ساعة بساعة، المصرية حتى انتهت على يد السيسي، والسورية حتى كاد أن ينفض جمعها على يد محمد علوش وصحبه. وقد جمعت في هذه الفترة التي استمرت ست سنوات كاملة، ستة مجلدات، أربعة عن الثورة المصرية (٥٢٤ مقالا وبحثا)، وثلاثة مجلدات عن الثورة الشامية، والتي تابعتها تدوينا منذ نوفمبر ٢٠١٣ حتى ديسمبر ٢٠١٧، ولا أزال، (١٨٧ مقالا وبحثا & ٤٥٢ خاطرة وفائدة) تحليلا وتوجيها. وهي، ولا أنكر، مكتوبة من وجهة نظر مدونها، إذ يستحيل فصل التحليل عن فكر القائم به، لكن مع تحرى العدل والحق ما أمكن لبشر.

ولا أدعى إني قد استوعبت الأحداث كاملة، لكني لا أعرف غيرها، جمعا لهذا الكمّ من المتابعات والتحليلات، لتلك الأحداث كلها، في مكان واحد، وبقلم واحد. وكم أتمنى أن يقوم أحد الأبناء بجمع كافة البيانات التي صدرت إبان الثورة الشامية، من كافة الفصائل بما فيها الحرورية، لتكون أحد مصادر التوثيق لهذه الحقبة الفريدة، التي أسموها «الربيع العربي».

كما أوجه انتباه القراء الأحباء إلى تلك الأعمال التي أسميها «أكاديمية»، وهي التي تبحث

في نقاط محددة، لتصل إلى نتائج فيها جدّة لم تعهد قبلا، أو فيها تأكيد على ما هو معهود، بدلائل وقرائن جديدة. وهذا اللون من البحث هو ما قد أغضى شباب الحركة الإسلامية عنه الطرف كلية، خاصة في التيار الجهادي، وساروا وراء موضوع واحد يوافق هواهم، ويسهل على فهمهم، وهو تكفير الحكام، وأدلته، لا غير.

ولهذا الشباب أقول: العلم الشرعيّ ليس مجرد تكفير للحاكم، أو تقديم تسويغ للجهاد، بل هو ساحة واسعة تضم ما لا يُحصى من مواطن العلم الذي جعله الله مادته بين أيدينا، لننظر فيه ونزيد عليه في كلّ باب. ونظرة إلى ذلك الكمّ الذي ينتجه طلاب الجامعات الإسلامية، رغم كونها في بلاد يحكمها الطواغيت، في شكل رسائل ماجستير ودكتوراه وأبحاث منفصلة، تشهد لذلك الذهول عن العلم والغيبة الفكرية التي يعيشها شباب التيار الجهادي، بسبب سطوة بعض من سطوا على عقولهم، بكلمات، تكررت وتشكلت وتقررت وتمهدت، وأعاد الناس فيها وخاضوا عقوداً، يعتمدون على ما كتب علماء السلف في شرح التوحيد.

كذلك فإني سوف أقوم إن شاء الله بإفراد الأبحاث المطولة، التي قد تكون مدرجة في كتاب من الكتب، ليتوجه لها الناظر دون جهد في البحث، وهي ضمن سلسلة المائة بحث التي نصدرها. لكنّ سيكون هذا بعد أن نضع الكتب والأبحاث كلها أولا إن شاء الله تعالى.

ولعل الله أن يتقبل أعمالنا ويجعلها خالصة لوجهه صحيحة على سنة رسوله ﷺ.

د طارق عبد الحليم
٠٧ فبراير ٢٠١٧ - ٢٢ جمادي الآخر ١٤٣٩

قائمة الأعمال الكاملة

في العلوم الشرعية

د طارق عبد الحليم

في الفترة من

١٩٧٨ – ٢٠٢٠ (١٣٩٧ – ١٤٤١ هـ)

تشمل ٦٦ كتاباً وبحثاً

❋ رابط مكتبة المجلدات والكتب على تلغرام : https://t.me/DTHaleemBooks

١. مجموعة الأعمال الكاملة – طبع دار الكتاب العالمي ثمانية مجلدات (صدر منها أربعة مجلدات، وأربعة تحت الطبع) ٢٠١٩–٢٠٢٠

٢. فتوى شيخ الإسلام في حكم من بدل شرائع الإسلام ١٩٧٨ تحقيق

٣. الجواب المفيد في حكم جاهل التوحيد ١٩٧٨ كتاب

٤. فتح المنان في بيان حقيقة الإيمان ١٩٧٩ كتاب

٥. مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم ١٩٨٤ (مع د محمد العبدة) كتاب

٦. المعتزلة: بين القديم والحديث ١٩٨٥ (مع د محمد العبدة) كتاب

٧. الصوفية: نشأتها وتطورها ١٩٨٦ (مع د محمد العبدة) كتاب

٨. مسوّدة في التاريخ الإسلامي ٢٠٠٠ كتاب

٩. مجموعة أبحاث في التوحيد ٢٠٠٠ بحث

١٠. فتنة أدعياء السلفية وانحرافاتهم ٢٠٠٤ (نسخة عربية وانجليزية) كتاب

١١. مفتاح الدخول إلى علم الأصول ٢٠٠٧ كتاب

١٢. المصلحة في الشريعة الإسلامية ٢٠١٢ كتاب

١٣. من الثورة إلى الانتفاضة في تسعة أشهر ٢٠١١ كتاب من مجموعة مقالات

١٤. الثورة بين الانتفاضة والخمود ٢٠١٢ كتاب من مجموعة مقالات

١٥. دفاع عن الشريعة ٢٠١٢ كتاب من مجموعة أبحاث

١٦. مقالات في السياسة والشريعة والحياة ٢٠١٢ كتاب من مجموعة مقالات

١٧. عام من السقوط .. مع الإخوان ٢٠١٣ كتاب من مجموعة مقالات

١٨. وأطل الكفر برأسه .. بعد الانقلاب ٢٠١٣ كتاب من مجموعة مقالات

١٩. أنوار البرق في بيان الحق - معالم في سيد قطب العالمُ الشهيد ٢٠٢٠

٢٠. بعد أن انقشع الغبار ٢٠١٤ بحث

٢١. تطور أصول الفقه بين الشافعيّ والشاطبيّ ٢٠١٥ بحث

٢٢. مقاصد الشريعة بين المقاصد والوسائل ٢٠١٥

٢٣. الاستثناءات من القواعد الكلية في الشريعة الإسلامية ٢٠١٥ بحث

٢٤. التقريب في فهم الموافقات (شرح المقدمات) ٢٠١٥ كتاب

٢٥. بحث «أحداث أوروبا .. أسبابها ونتائجها» بالعربية والانجليزية

❋ رابط http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-72959

٢٦. بحث «أردوغان .. بين العلمانية والإسلام»

❋ رابط http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73053

٢٧. بحث «الضرورة والإكراه في الشريعة الإسلامية»

❋ http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73047

٢٨. بحث «حتى تتطهر الديموقراطية»

❋ http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73069

٢٩. مقال «النقد والنقض والجرح والتعديل»

❋ http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73066

٣٠. نظرة في أطروحات العمل السياسي الإسلامي في الواقع المصريّ

❋ http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-30740

٣١. بحث «القول في تكفير العوادية»

❋ http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73040

٣٢. بحث «العموم في الشريعة الإسلامية»

❋ http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73063

٣٣. بحث :المنطوق والمفهوم في الشريعة واللسان العربي»

❋ http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73137

٣٤. بحث: دراسة مقارنة في الشعر العربي .. القوس العذراء مثالاً

❋ http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73174

٣٥. كتاب «أحداث الشام .. كما عايشتها « مجلد ١ - حتى نهاية ٢٠١٥

❋ رابط http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-72939

❋ رابط الفهرس http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-72937

٣٦. كتاب «أحداث الشام .. كما عايشتها « مجلد ٢ - حتى نهاية ٢٠١٦

❋ http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73065

٣٧. كتاب «أحداث الشام .. كما عايشتها « مجلد ٣ - حتى نهاية ٢٠١٧

❋ http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73169

٣٨.كتاب «أحداث الشام .. كما عايشتها « مجلد ٤ - حتى أكتوبر ٢٠١٩

٣٩.فوائد تويترية كاملة - في الفترة بين ابريل ٢٠١٤ - أبريل ٢٠١٦

❋ رابط http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-72960

٤٠.بحث: الحلول المطروحة في الساحة الشامية .. في ضوء الواقع

❋ http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73178

٤١.بحث: الأنوار البهية في معالم الدعوة النجدية

❋ http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73188

٤٢.بحث: ردّ اعتراضات الأستاذ حسين بن حسان الصومالي على د طارق عبد الحليم

❋ http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73197

٤٣.بحث: سيد قطب .. وفرية سبّ الصحابة

❋ http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73201

٤٤.بحث «سد الذرائع في الشريعة الإسلامية

❋ http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73227

٤٥.بحث «خطوات منهجية في ظل الحقيقة العارية»

❋ http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73226

٤٦.بحث «الأزمة الإدلبية وتوابعها»

❋ http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73157

٤٧.سلسلة الأخلاق في القرآن الكريم

❋ قناة د طارق عبد الحليم https://t.me/futoohAllah

٤٨. الرد على الددو الشنقيطي - كسر أصنام العلم المُتَّبَعة

❋ قناة د طارق عبد الحليم https://t.me/futoohAllah

٤٩. الرد على من ادعى رؤية الله في المنام

❋ قناة د طارق عبد الحليم https://t.me/futoohAllah

٥٠. شريط الذكريات

❋ قناة د طارق عبد الحليم https://t.me/Dr_THaleemLib

٥١. بحث الخلاف: معناه وأسبابه ونتائجه

❋ قناة د طارق عبد الحليم https://t.me/Dr_THaleemLib

٥٢. بحث خطوات منهجية في سبيل تكوين جيل التمكين

❋ قناة د طارق عبد الحليم https://t.me/Dr_THaleemLib

٥٣. بحث «قيام الدولة بين الوهم والحقيقة

❋ قناة د طارق عبد الحليم https://t.me/fotoohbarry

٥٤. نظرات في التمكين في واقعنا المعاصر

❋ قناة د طارق عبد الحليم https://t.me/fotoohbarry

٥٥. الخلاف - أسبابه وآثاره

❋ قناة د طارق عبد الحليم https://t.me/fotoohbarry

٥٦. الخلاف - أسبابه وآثاره

❋ د طارق عبد الحليم https://t.me/fotoohbarry

٥٧. ضوابط في السياسة الشرعية

❋ د طارق عبد الحليم https://t.me/fotoohbarry

٥٨. منهج أهل السنة في النظر والاستدلال

❋ د طارق عبد الحليم

http://tariq-abdelhaleem.net/ar/ & https://t.me/fotoohbarry

٥٩. سلسلة نحن .. وأخطاؤنا

❋ د طارق عبد الحليم https://t.me/fotoohbarry

٦٠. اللسان العربي والمنهج العلمي

❋ د طارق عبد الحليم https://t.me/fotoohbarry

٦١. حول «أباطيل وأسمار»

❋ د طارق عبد الحليم https://t.me/fotoohbarry

٦٢. نظرات عملية في بناء الأمة - مقال

❋ د طارق عبد الحليم https://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/73297

٦٣. القيم العقدية والأخلاقية في التوحيد - بحث

❋ د طارق عبد الحليم https://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/73289

٦٤. الأمثال في القرآن الكريم – مقال

❋ د طارق عبد الحليم https://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/73292

٦٥. نشأة الشخصية بين الآباء والأبناء - بحث

❋ د طارق عبد الحليم https://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/73296

٦٦ الطريق إلى فهم أقرب لحل المشكلة الإسلامية – بحث

https://tariq-abdelhaleem.net/ar/post

صوتيات

- شرح أركان الإيمان

❋ رابط http://tariq-abdelhaleem.net/new/DownloadList-108

- دورة الإيمان (٢١ درسا)

❋ https://www.youtube.com/watch?v=-yZLL8dVM_c

- دورة التوحيد (٣٤ درسا)

❋ https://www.youtube.com/playlist?list=PLelZLsnHh4uJ3 Mroi-3eqp5Y_aLUolbXM

- دورة أصول الفقه (حتى: الدرس الثالث عاشر - الأحكام الوضعية)

❋ https://www.youtube.com/playlist?list=PLelZLsnHh4uIsLmhrmiH-Y--_EsBwTYbY

- شرح كتاب الموافقات حتى المحاضرة ٢٢٥ (المجلد الرابع – الإجتهاد)

❋ https://www.youtube.com/playlist?list=PLelZLsnHh4 uLrrg26tevW6H8R2lYeKJdl

- شرح كتاب حقيقة الإيمان

❋ https://www.youtube.com/playlist?list=PLelZLsnHh4uLTDc qmKnTwqGaRvHZZpcXy

- خلاف مئات المقالات والتسجيلات الموجودة على الموقع

❋ رابط http://tariq-abdelhaleem.net/new/LiveList.html



كتب ومقالات بالإنجليزية

1. Book of «Terminology of Hadith and Methodology of Muhadetheen»
   مصطلح الحديث ومناهج المحدثين
   a. http//:tariqlibrary.net76.net/bookk.php & https//:t.me/DTHaleemBooks
2. Book of «The Counterfeit Salafies»، 2004
   a. http://tariqlibrary.net76.net/bookk.php & https//:t.me/DTHaleemBooks
3. The Attacks In Europe: Causes and Consequences - Complete document
   a. http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-72969
4. Will Science know the Truth?
   a. http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73076
5. The Fall of Democracy in the United States of America
   a. http//:tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73072
6. The world leaders: Obama-Harper، Axes of Evil، Hearts of Stone! Against Aggression!
7. Stephen Harper -Associate of the Assassin
8. My wars are over!
9. Between Al-Hijab and Al-Niqab
10. «Shock and Awe» for the Western Policy in the Middle East
11. Pentagon Places Its Bet On a General in Egypt - (May Allah protect Us)
12. Injustice in Canada، total of 38 Articles) Injustice in Canada The Toronto 18 «Terror» case Six years ago my son; Shareef has been arrested for participating in an alleged terrorist attack which was completely
13. Ahlul Sunnah's Understanding of al-Qada'a wal Qadar (total of 4 artles)
14. Revival of Sunnah: Islamic Guide to Attending Ahlul Bida'a Gatherings

15. Yes to Unity ... No to Bida’a
16. Bida’a، Can It Be Good?
17. Bida’a of Irja’a and Murji’ah
18. Bid’aa In Islam، Misconceptions and Explanations
19. The anniversary of the «Revival of Innovation Spirit»
20. Tareq Suwaidan and Women Khalifas!!
21. «Horses for Courses»، published in the International Journal of Project Management، UK، 1988.
22. ‘Effective Leadership in Construction Industry»، published in English and Arabic (بالعربية والانجليزية) 1995، 1415H، university of King saud، Eng. Science، p163-172، Mecca، SA
23. Will science know The Truth? «Islam and The Quantum Theory»
24. Women rights in Islam
25. Women between Two Cultures.

Link - http://justpaste.it/ghf4

فهارس الكتاب

القسم الاول: الإسلاميون والحركة الإسلامية

أنوار البرق في بيان الحق – معالم في فكرسيد قطب

نظرات في التمكيــن .. في واقعنا المعاصر

خطوات في سبيل منهجية جديدة لإعداد شباب التمكين

نظرات في أمر الشام .. ٢٠٢٠

عودة إلى أمر الشام .. والهيئة!

في الشأن المصريّ

القسم الثاني: في التاريخ

الأعمال الكاملة



